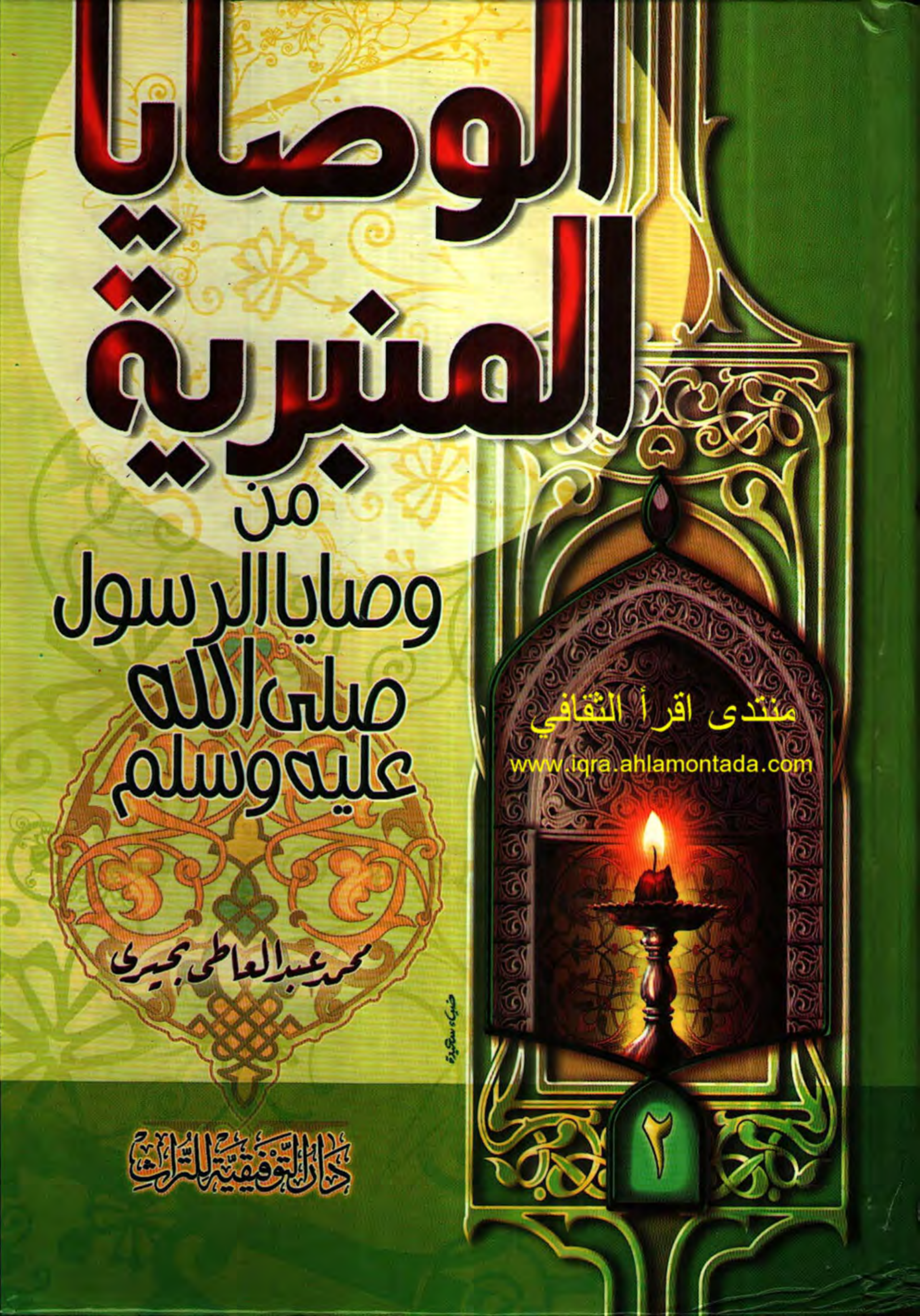

الوصايا المنبرية
من
وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم
محمد عبد العاطي بحيري
٢
دار التوفيقية للتراث
منتدى اقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com


منتدى إقرأ الثقافي

# الوصايا المنبرية

## من وصايا الرسول ﷺ

## للخطباء والدعاة والوعاظ

بقلم

محمد عبد العاطي بحيري

الجزء الثاني

دار التوفيقية للتراث

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾



# الوصايا المنبرية [ج/٢]

المؤلف: محمد عبد العاطي بحيري

الناشر: دار التوفيقية للتراث

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١٦٦٢٣

دار التوفيقية للتراث

١ درب الأتراك ـ خلف الجامع الأزهر ـ القاهرة

تليفون: ٢٥١٠٥٦٦٢

# الوصية رقم (٥٣)
# عليك بالجماعة

عن أبى الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: **«ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»**[1].

صدق رسول الله ﷺ

قال السائب: يعنى بالجماعة: الصلاة فى الجماعة.

## • فى رحاب هذه الوصية •

إن رسول الإسلام سيدنا محمدًا ﷺ يوصى أمته فى شخص الصحابى الجليل أبى الدرداء رضي الله عنه بالمحافظة على صلاة الجماعة، ويقدم للوصية المباركة بمقدمة تبين أن العدو اللدود لبنى الإنسان وهو إبليس اللعين يستحوذ على أولئك الذين يتركون صلاة الجماعة ولا يقيمونها فى أى مكان كانوا، سواء كان ذلك فى قرية، أو بدو، أو حضر أو فى أى مكان. فقد جعلت الأرض كلها مسجدًا وترابها طهورًا للأمة المحمدية خاصة، وقدم النبى ﷺ هذا التحذير بأسلوب عظيم من أساليب الفصاحة والبلاغة وهو ما يسمى بأسلوب القصر الذى أداته وطريقه «ما» و«إلا» أى النفى والاستثناء وفى **(إنما يأكل الذئب)** أسلوب قصر أيضًا طريقه (إنما) وأسلوب القصر من أساليب التوكيد فكأن الرسول ﷺ يؤكد لنا أهمية صلاة الجماعة بالنسبة للفرد والمجتمع.

وصلاة الجماعة من خصائص هذه الأمة، شرعها الله تعالى لما فيها من التعارف، والتآلف وارتباط القلوب، وتعوُّد الامتثال والصبر، والشجاعة وحسن النظام.

ثم يشبه النبى ﷺ البعيد عن جماعة المؤمنين بصلاته منفردًا بالغنم الشاردة عن أخواتها المنفردة والمتفرقة، فكما يسهل للذئب أن يأكلها، كذلك يسهل على الشيطان وهو العدو اللدود لبنى البشر أن يغويهم ويضلهم، ويلقى الوهن فى قلوبهم، وهذا يراد به الحث على التزام الجماعة، والمواظبة عليها.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده بإسناد صحيح (٢٧٣٨٧) ١٧/ ٥٧٤ والنسائى ٢/ ١٠٦ رقم (٨٤٧) فى الإمامة وابن حبان (٢١٠١) وابن خزيمة (١٤٨٦) وهو فى صحيح سنن أبى داود للألبانى برقم (٥٤٧) ١/ ١٦٢ وحسنه.

## • الترغيب والحث على صلاة الجماعة •

### أخى الحبيب:

إن رسول الإسلام محمدًا ﷺ حثنا على المحافظة على صلاة الجماعة لما لها من ثواب عظيم لأهل الإيمان، فهى التى ترفع درجاتهم، وتحط عنهم سيئاتهم وتجعلهم من المقربين إلى رب العالمين تبارك وتعالى، وتجعلهم من الفائزين يوم القيامة بالفردوس الأعلى، قال سبحانه: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ**﴾ [المؤمنون: ١: ٤] إلى أن يختم أوصافهم ويبين ثوابهم، فيقول: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

فعن عبد الرحمن بن عبد القارى قال: سمعت عمر بن الخطاب ؓ يقول: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحى يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل، فمكثنا ساعة، فاستقبل القبلة، ورفع رسول الله ﷺ يديه، فقال: «**اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا، ثم قال: لقد أنزلت علىَّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة**» ثم قرأ علينا: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ حتى ختم العشر[1] فهذه الآيات المباركات بمثابة جدول أعمال لأعضاء حزب الله ورسوله فقد زكى سبحانه وتعالى مآلهم، وأحسن عاقبتهم فقال: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ**﴾.

وزكى عبادتهم فقال: ﴿**الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾.

وزكى ألسنتهم فقال: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ**﴾.

وزكى أموالهم فقال: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ**﴾.

وزكى أعراضهم فقال: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ**﴾.

وزكى معاملاتهم فقال: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ**﴾.

وزكى سلوكهم فقال: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**﴾.

وزكى درجاتهم فقال: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾.

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده برقم (٢٢٣) جـ١/ ٢٦٤، ٢٦٥ بإسناد صححه الشيخ أحمد شاكر فى تحقيق المسند وقال: نقله ابن كثير فى التفسير ٦/ ٢، ٣ عند المسند ثم قال: ورواه الترمذى فى تفسيره، والنسائى فى الصلاة.. ثم قال الشيخ: وجدت الحديث رواه الحاكم فى المستدرك ١/ ٥٣٥ بإسنادين أحدهما من طريق المسند وصححه ووافقه الذهبى.

فهيا بنا أخى الحبيب نتجول فى رياض السنة النبوية المطهرة لنقطف زهرات رائعات عاطرات، ثم نأخذ هذه الزهرات الطيبات، فنضعها أمام أعين الموحدين، وبين أيديهم ليسيروا فى طريق الله رب العالمين، وأول قطفة هى:

١- عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«صلاة الرجل فى جماعة تضعف على صلاته فى بيته، وفى سوقه، خمسًا وعشرين درجة، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه ما لم يحدث، اللهم صلِّ عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة»**(١).

فيا سعادة من كانت الملائكة تصلى عليه، ويا سعادة من رفع الله درجاته وحط عنه سيئاته، وسعادة من كانت رحمات مولاه تتنزل عليه.

وأما القطفة الثانية فهى:

٢- ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال: **«صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»**(٢) لكن كيف نوفق بين رواية: **«خمسًا وعشرين»** ورواية: **«سبعًا وعشرين»**؟ لقد جمع الإمام ابن حجر العسقلانى فى كتابه (فتح البارى) بين هاتين الروايتين، وقد جمع بينهما بأحد عشر وجها نكتفى منها بما يأتى:

١- أن ذكر القليل لا ينفى الكثير، وهذا قول من يرى أن العدد لا مفهوم له.

٢- أن النبى ﷺ أخبر أولاً بالخمس ثم أعلمه الله بالزيادة فأخبر بالسبع.

٣- أن الفرق يرجع إلى حال المصلى بأن يكون أخشع وأعلم.

٤- أن الفرق يرجع إلى إدراك بعض الصلاة أو كلها فى الجماعة.

٥- السبع مختص بالجهرية، والخمس بالسرية، ثم قال: وهذا الوجه عندى أوجهها

وأما الزهرة الثالثة، فإن فيها نزلاً فى جنة الرحمن جل وعلا.

٣- عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«من غدا إلى المسجد وراح أعد الله له نزلاً من الجنة كلما غدا أو راح»**(٣).

وأما الزهرة الرابعة فخاصة بمن يصلى الفجر والعشاء فى جماعة، وهى من رب العالمين لرسوله محمد ﷺ، ومن رسول الله ﷺ إلى بريدة راوى الحديث ليبشر بعد ذلك أمته.

---

(١) رواه البخارى ومسلم (٦٤٩) وأحمد وأبو داود (٥٥٩).

(٢) رواه البخارى (٦٤٧) ومسلم وأحمد وأبو داود لكن أبى داود رواه عن أبى سعيد الخدرى.

(٣) رواه البخارى (٦٦٢) ومسلم (٦٦٩) وأحمد.

٤- عن بريدة قال: قال النبى ﷺ: «**بشر المشائين فى الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة**»(١).

**قال المناوى**: لما قاسوا مشقة ملازمة المشى فى ظلمة الليل إلى الطاعة جُوزوا بنور يضيئ لهم يوم القيامة، وهو النور المضمون لكل مشاء إلى الجماعة فى الظلمة.

قيل: إنما قيد النور التام، لأن أصل النور يعطى لكل من تلفظ بالشهادتين من مؤمن أو منافق، لظاهر حرمة الكلمة، ثم يتقطع نور المنافقين، فيقولون: ﴿**رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا**﴾ [التحريم: ٨] ويقولون: ﴿**انظرونا نقتبس من نوركم**﴾ أيها المؤمنون، لكنهم يقولون لهم: ﴿**ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً**﴾ [الحديد: ١٣].

إنهم لما مشوا فى ظلمات الليل إلى نور الصلاة فى الدنيا، وهو نور معنوى روحى، عوضهم الله يوم القيامة بالنور الإلهى الحسى الذى ينير لهم طريقهم إلى جنة الله رب العالمين.

وتلكم الزهرة الخامسة لكنها عامة، لكل من يحافظ على صلاة الجماعة.

٥- عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من صلى لله أربعين يومًا فى جماعة، يدرك التكبيرة الأولى كتب له براءتان: براءة من النفاق، وبراءة من النار**»(٢).

وأينا لا يود أن تكون له تلك البراءة من النار، تلكم النار التى أوقد عليها مولانا ألف عام حتى ابيضت، وألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى اسودت فهى الآن سوداء مظلمة.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**يؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»(٣) نعم يجرونها حيث شاء الله، وحيثما أراد، وحيثما قدر الله عز وجل، وهى تتغيظ وتتلظى على أولئك العصاة الذين كانوا يتكاسلون عن الصلاة، الذين كانوا يتهاونون فى صلاة الجماعات، الذين يتهاونون فى دين الله تعالى، تقول جهنم: هل من مزيد، ﴿**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ**﴾ [ق: ٣٠].

وأما الزهرة السادسة فهى خاصة بصلاتى الفجر والعشاء فى جماعة.

٦- فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف ليلة، ومن صلى الصبح فى جماعة، فكأنما قام ليلة بأكملها**»(٤).

وتلكم الزهرة السابعة وهى خاصة بمن يصلى الصبح فى جماعة.

---

(١) رواه أبو داود وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود رقم (٥٦١) جـ١/١٦٧، ١٦٨ ورواه الترمذى والحاكم وابن ماجه وذكره الألبانى فى ص.ج (٢٨٢٠).

(٢) رواه الترمذى وصححه الألبانى فى ص.ج (٦٣٦٥). (٣) رواه مسلم (٢٨٤٢) والترمذى (٢٥٧٦).

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٤٠٨) بإسناد صححه الشيخ أحمد شاكر فى تحقيق المسند ١/٣٣٧ وصحيح سنن أبى داود (٥٥٥).

٧- «**من صلى الصبح فى جماعة، فهو فى ذمة الله، ومن أخفر ذمة الله كبه الله فى النار لوجهه**»[١] فقد ورد أن الحجاج بن يوسف الثقفى أمر سالم بن عبد الله بقتل رجل، يقول سالم: فانطلقت، وسألت الرجل، أصليت اليوم الصبح فى جماعة؟ قال الرجل: نعم. فقال له: انطلق، فقال له الحجاج: ما منعك من قتله؟.

قال: حدثنى أبى أنه سمع من رسول الله ﷺ: «**من صلى الصبح فى جماعة فهو فى ذمة الله، ومن أخفر ذمة الله كبه الله فى النار لوجهه**» فكرهت أن أقتل رجلاً أجاره الله.

وأما الزهرة الثامنة فهى أيضًا فى صلاة الصبح فى جماعة، تجعلك كالحاج والمعتمر.

٨- عن أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**من صلى الفجر فى جماعة، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين، كانت له كأجر حجة وعمرة، تامة، تامة، تامة**»[٢].

وأما الزهرة التاسعة فهى أيضًا فى صلاة الفجر، وتجعلك مع الأبرار، وتجعل اسمك مكتوبًا مع وفد عباد الرحمن جل وعلا.

٩- فعن أبى أمامة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**من توضأ ثم أتى المسجد، فصلى ركعتين قبل الفجر، ثم جلس حتى يصلى الفجر، كتبت صلاته يومئذ فى صلاة الأبرار، وكتب فى وفد الرحمن**»[٣].

وأما الزهرة العاشرة فهى خاصة بصلاة العصر فى جماعة، وتجعلك كمن يعتق ثمانية من الرقاب كلهم من ولد إسماعيل عليه السلام.

١٠- عن أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**من صلى العصر** -أى فى جماعة- **فجلس يملى خيراً حتى يمسى كان أفضل من عتق ثمانية من ولد إسماعيل**»[٤].

وتلكم زهرة أخرى من بستان السنة العطرة، وهى فى تكفير الخطايا، ورفع الدرجات وزيادة الحسنات، وبلوغ درجة المجاهدين فى سبيل الله تعالى.

١١- فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**»[٥].

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبيز وابن خزيمة وصححه الألبانى فى ص.ج.

(٢) رواه الترمذى وصححه الألبانى فى ص.ج (٦٣٤٦).

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٢٢١٧٣) بإسناد صحيح.

(٤) رواه أحمد فى مسنده (١٣٦٩٥) جـ١١/ ٢٦٥، ٢٦٦ بإسناد صحيح وروى نحوه أبو داود (٣٦٦٧) وصححه الألبانى.

(٥) رواه مسلم (٣١٣) والترمذى (٥١) والنسائى فى السنن الكبرى (١٣٩) وأحمد فى مسنده (٧٧١٥) وابن خزيمة (١٧٧) فى صحيحه وذكره الألبانى فى ص.ج (٢٦١٧).

واعلم أخا الإسلام والإيمان أنك فى صلاة ما دمت منتظرًا للصلاة فى المسجد، ما لم تحدث فيه، ما لم تلغ فيه، فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنكم لن تزالوا فى صلاة ما انتظرتم الصلاة**»[١] وفى رواية عن جابر: «**المرء فى صلاة ما انتظرها**»[٢] وهذه زهرة أخرى من حديقة السنة المحمدية، ولو لم يكن لصلاة الجماعة فضل إلا هذه الزهرة لكانت والله كافية، إنها صلاة الله وملائكته على الذين يبادرون إلى صلاة الجماعة، ويسرعون إليها حتى يكونوا من أهل الصف الأول.

١٢- عن البراء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله وملائكته يصلون على الصف الأول**»[٣] فالثواب الأعظم، والدرجات العلى لمن يتقدم فى الصفوف الأولى ولذلك فإن فيها ما لو علمه المصلى فى بيته لسارع إليه، ولو يصنع قرعة ليتقدمه لفعل، لذلك يقول نبى الرحمة: «**لو يعلم الناس ما فى النداء، والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما فى التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما فى العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوًا**»[٤].

فيا سعادة من كان الله وملائكته يصلون عليه! ويا سعادة من سار الملك أمامه برايته وهو فى ذهابه وإيابه، ويا خيبة من كان الشيطان إمامه وقائده، فعن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال: «**بلغنى أن الملك يغدو برايته مع أول من يغدو إلى المسجد، فلا يزال بها معه، حتى يرجع، فيدخل بها منزله، وإن الشيطان يغدو برايته حتى يرجع فيدخل بها منزله**»[٥].

فسبحان من قضى على الغافلين كسلاً وقعودًا، ورفع المتقين علوًا وصعودًا، ومنحهم من إنعامه فوزًا وسعودًا.

ونختم هذه الباقة الطيبة التى فاح أريجها، وعطر شذاها قلوب المؤمنين بهذه الزهرة النقية الطاهرة، والتى فاح عطرها حتى بلغ الحرمين، وقد رواها لنا الصحابى الجليل.

عن أبى أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من خرج من بيته متطهرًا إلى صلاة مكتوبة، فأجره كأجر الحاج المحرم، ومن خرج إلى تسبيح الضحى لا ينصبه إلا إياه، فأجره كأجر المعتمر، وصلاة على إثر صلاة لا لغو بينهما، كتاب فى عليين**»[٦] صدق النبى الأمين.

---

(١) رواه النسائى وصححه الألبانى فى ص.ج (٢٣١٣). (٢) ذكره الألبانى فى ص.ج (٦٦٨٨).

(٣) رواه أبو داود (٦٧٦) وحسنه الألبانى، ورواه ابن ماجه (١٠٠٥) وأحمد بإسناد وحسنه المنذرى.

(٤) رواه البخارى ومسلم وأحمد.

(٥) ذكره المنذرى فى الترغيب ١/ ٢٧١ وقال: رواه ابن أبى عاصم وأبو نعيم فى معرفة الصحابة وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب ١/ ٢٤٢، ٢٤٣.

(٦) حسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٥٥٨) ١/ ١٦٦ وفى ص.ج (٦٢٢٨).

حقًا أخا الإسلام فإن أصحاب هذه الصلوات التى تقام فى الجماعات هم الرجال الحقيقيون، الذين أشاد الله بذكرهم فى كتاب الله تعالى، لأنهم يعمرون بيوته التى أذن لها أن ترفع، يقول سبحانه: **﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** [النور: ٣٨].

إنهم خير الرجال، لأنهم يذهبون إلى خير البيوت، إنها بيوت الله تبارك وتعالى فى الأرض، يقول نبى الرحمة ﷺ: «**خير البقاع المساجد، وشر البقاع الأسواق**»[(١)].

والمساجد هى بيوت الأتقياء مصداقا لقوله ﷺ: «**المسجد بيت كل مؤمن**»[(٢)] وفى رواية: «**إن المساجد بيوت المتقين، فمن كانت المساجد بيوته ضمن الله له بالروح والرحمة والجواز على الصراط إلى الجنة**»[(٣)].

فهيا بنا أخى الحبيب لنتعرف على هؤلاء الرجال الأبطال الذين كانت المساجد بيوتهم، وذكر الله أنيسهم، والصلاة فى جماعة همتهم، ورضا ربهم أملهم، هيا بنا لنقف مع أولئك المتقين الذين كانوا يسارعون إلى الصفوف الأولى لينالوا الرضا والرضوان من رب العالمين جل وعلا، فإلى هناك.

## • حرص السلف على صلاة الجماعة •

### أخى الحبيب:

لقد ضرب السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين المثل الأعلى فى الحرص على صلاة الجماعة مهما كانت الظروف قاسية، حتى أنهم كانوا إذا فاتتهم تكبيرة الإحرام عزوا أنفسهم ثلاثة أيام، وإن فاتتهم الجماعة عزوا أنفسهم سبعة أيام، فهذا هو:

**١- سيدنا عمر بن الخطاب ؓ:**

عن ابن عمر ؓ قال: خرج عمر إلى حائط له، فرجع وقد صلى الناس العصر، قال: إنما خرجت إلى حائطى فرجعت، وقد صلى الناس العصر! حائطى صدقة على المساكين، قال ليث: إنما فاتته الجماعة[(٤)].

وعن أبى مسلم أنه صلى مع عمر بن الخطاب ؓ أو حدثه من صلى مع عمر المغرب فتمسى بها، أو شغله بعض الأمر حتى طلع نجمان، فلما فرغ من صلاته أعتق رقبتين[(٥)].

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير وحسنه الألبانى فى ص.ج (٣٢٦٦).

(٢) رواه أبو نعيم فى حلية الأولياء وحسنه الألبانى فى ص.ج (٦٥٧٨).

(٣) رواه هناد فى الزهد بإسناد صحيح.

(٤)، (٥) مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص١٤٨ ط/ التوفيقية.

وهذا هو علم آخر من أعلام الحريصين على الجماعة، لدرجة أنه يحضر الجماعة ويخرج إليها فى ليلة عرسه، أتدرى من هو؟ إنه الصحابى الجليل:

**٢- الحارث بن حسان رضي الله عنه:**

فعن عنبسة بن الأزهر قال: «تزوج الحارث بن حسان -وكان له صحبة-، فقيل له: أتخرج -أى إلى صلاة الفجر- وإنما بنيت بأهلك فى هذه الليلة؟ فقال: والله إن امرأة تمنعنى من صلاة الغداة فى جمع لامرأة سوء»[(١)].

وهذا علم آخر من الأعلام البارزة فى بيوت الله تعالى، لدرجة أنه ما ترك الجماعة مذ عرف فضلها، وما نظر فى أقفية الناس، منذ ذاق حلاوتها، وعرف ثوابها أتدرى من هو؟ إنه:

**٣- سيد التابعين، سعيد بن المسيب رحمه الله:**

فعن حرملة قال: قال سعيد رحمه الله: ما فاتتنى الصلاة فى الجماعة منذ أربعين سنة[(٢)].

وعن أبى سهل أن سعيد بن المسيب قال: ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا فى المسجد [(٣)].

وعن الأوزاعى قال: كانت لسعيد بن المسيب فضيلة لا نعلمها كانت لأحد التابعين، لم تفته الصلاة فى جماعة أربعين سنة، عشرين منها لم ينظر فى أقفية الناس[(٤)] أى فى الصف الأول.

وفى رواية: أنه قال: ما فاتتنى التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة، وما نظرت فى قفا رجل فى الصلاة منذ خمسين سنة[(٥)].

وذاك علم آخر، ومفتاح من مفاتيح الخير، ومن عجيب حبه للصلاة، أنه طلب من مولاه ودعاه أن يجعل له نصيبًا فى الصلاة فى القبر بعد موته، أتدرى من هو؟ إنه التابعى الجليل:

**٤- ثابت البنانى:**

ذلكم الرجل الذى قال فيه بكر بن عبد الله: من أراد أن ينظر إلى أعبد أهل زمانه، فلينظر إلى ثابت البنانى فما أدركنا الذى هو أعبد منه[(٦)].

---

(١) انظر ترجمته فى أسد الغابة ١/ ٣٦٩، ٣٧٠ والأثر رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن قاله الهيثمى فى المجمع ٢/ ٤١.

(٢): (٤) الحلية ٢/ ١٦٢، ١٦٣ لأبى نعيم الأصفهانى.

(٥) المرجع السابق ١/ ١٦٣. (٦) الحلية ٢/ ٣١٨.

وقال عنه ابن شوذب: ربما مشينا مع ثابت البنانى فلا يمر بمسجد إلا دخل فصلى فيه. ويقول عنه: سمعت ثابتًا يدعو الله فيقول: «اللهم إن كنت أعطيت أحدًا من خلقك أن يصلى لك فى قبره، فأعطنى ذلك»(١).

وقال عنه حميد الطويل: كنا نأتى أنس بن مالك ومعنا ثابت، فكلما مرَّ على مسجد صلى فيه، فكنا نأتى أنسًا، فيقول: أين ثابت؟ أين ثابت؟ إنَّ ثابت دويبة أحبها(٢).

وهذا هو سيد آخر من سادات المحافظين على الصلاة فى بيوت الله تعالى، إنه رجل قال عن نفسه: إنى لآنس بصوت عصفور المسجد عن أنسى بزوجتى، أتدرى من هو؟ إنه المحب الورع، المعترف بذنبه، المفتقر إلى ربه:

**٥- الربيع بن خثيم -رحمه الله-:**

قال أبو حيان حدثنى أبى فقال: كان الربيع بعد ما سقط شقهُ -وكان قد أُصيب بالفالج- يهادى بين رجلين إلى مسجد قومه، وكان أصحاب عبد الله يقولون: يا أبا يزيد لقد رخص الله لك لو صليت فى بيتك ، فيقول: إنه كما تقولون، ولكنى سمعته ينادى (حى على الفلاح) فمن سمع منكم ينادى بـ (حى على الفلاح) فليجبه ولو زحفًا ولو حبوًا(٣). وقال أيضا: أصاب الربيع الفالج فكان يحمل إلى الصلاة، فقيل له: إنه قد رخص لك. قال: قد علمت، ولكن أسمع النداء بالفلاح(٤).

وهذا علم آخر من الأعلام الخفاقة فى سماء الحب لبيوت الله تعالى فى الأرض، أتدرى من هو؟ إنه فقيه الحرم، التابعى الجليل:

**٥- عطاء بن أبى رباح -رحمه الله-:**

والذى قال عنه عبد الله بن عمر لأهل مكة حين قدم إليها: أتجمعون لى المسائل -أى فى الفقه والدين- وفيكم عطاء بن أبى رباح؟(٥).

وقال عنه أحمد بن محمد الشافعى: كانت الحلقة فى الفتيا بمكة فى المسجد الحرام لابن عباس ومن بعده كانت لعطاء بن أبى رباح(٦).

ذلكم الرجل الذى يقول عنه ابن جريج: كان المسجد فرش عطاء بن أبى رباح عشرين سنة(٧).

وقال عنه: كان عطاء بعد ما كبر وضعف، يقوم إلى الصلاة، فيقرأ مائتى آية من سورة البقرة، وهو قائم لا يزول منه شىء ولا يتحرك(٨).

---

(١)، (٢) الحلية ٢/ ٣٢١، وصفة الصفوة ٣/ ١٤٨.

(٣)، (٤) الحلية ٢/ ١١٣، وصفوة الصفوة جـ٣/ ٣٠.

(٥)، (٦) حلية الأولياء ٣/ ٣١١، وصفة الصفوة ٢/ ١٢٥

(٧)، (٨) الحلية ٣/ ٣١٠، وصفة الصفوة ٢/ ١٢٦.

وذاك بطل آخر من أبطال العبادة، ومن الذين يحافظون على صلاة الجماعة كان إذا رُئى ذكر الله، وإذا رأيت وجهه ذكرت الآخرة، أتدرى من هو؟ إنه:

**٦- بشر بن منصور السليمى:**

ذلكم الرجل الذى قال عنه ابن أخيه أسيد بن جعفر: بشر بن منصور ما فاتته التكبيرة الأولى قط، ولا رأيته قام فى مسجدنا قط سائل -للصدقة- إلا أعطاه(١).

وقال عنه أخوه سهل: كان بشر يصلى يومًا فأطال الصلاة، ورأى رجلاً ينظر إليه، ففطن له بشر، فقال للرجل: لا يعجبك ما رأيت منى، فإن إبليس قد عبد الله مع الملائكة كذا وكذا(٢).

وذاكم هو علم آخر من أعلام الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، إنه الفقيه الورع التقى النقى:

**٧- إبراهيم النخعى:**

الذى كان يقول: إذا رأيت الرجل يتهاون بالتكبيرة الأولى، فاغسل يديك منه(٣).

**٨- سليمان الأعمش:**

قال يحيى بن القطان: كان الأعمش من النساك، وكان محافظًا على الصلاة فى جماعة، وعلى الصف الأول، وهو علامة الإسلام، وكان يحيى القطان يلتمس الحائط حتى يقوم فى الصف الأول وعن وكيع قال: كان الأعمش قريبًا من سبعين سنة ولم يفته التكبيرة الأولى(٤).

## • منافع صلاة الجماعة وآثارها •

### أخى الحبيب:

إن منافع صلاة الجماعة ترجع إلى ثلاثة أقسام:

**الأول:** ما يرجع إلى نفع نفسه، حيث إنها تقربه من رب العالمين جل وعلا، وغير ذلك مما قد ذكرناه، بل إن رسولنا محمدًا ﷺ أمرنا أن نشهد بالإيمان لمن يعتاد المساجد، ويقوم بالصلاة فيها فقال ﷺ: «**إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد، فاشهدوا له بالإيمان**»(٥).

بل إن عمار المساجد، المحبين لها هم أولئك الذين فازوا يوم القيامة بظل عرش الرحمن جل وعلا، يوم لا ظل إلا ظله، حيث يقول نبى الشفاعة ﷺ: «**سبعة يظلهم الله**

---

(١)، (٢) الحلية ٦/ ٢٤٠، ٢٤١، وصفة الصفوة ٣/ ٢٢٢.

(٣) الحلية ٤/ ٢٣٢، وصفة الصفوة ٣/ ٤٢.

(٤) الحلية ٥/ ٤٩، ٥٠، وصفة الصفوة لابن الجوزى ٣/ ٥٧.

(٥) رواه أحمد فى مسنده (١١٥٩٣) بإسناد حسن ١٠/ ٢١٦ ورواه الترمذى (٣٠٩٣) وابن ماجه (٨٠٢)، والحاكم ١/ ٢١٢، وصححه.

**يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إنى أخاف الله، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه»**[1].

وقال سبحانه: ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴾ [التوبة: ١٨].

**قال الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره:** وفيه وجوه:

**الوجه الأول:** قال المفسرون «عسى» من الله واجب لكونه متعاليًا عن الشك والتردد.

**الوجه الثانى:** قال أبو مسلم: «عسى» ههنا راجع إلى العباد وهو يفيد الرجاء، فكأن المعنى: أن الذين يأتون بهذه الطاعات، إنما يأتون بها على رجاء الفوز بالاهتداء لقوله تعالى: ﴿ **يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا** ﴾ [السجدة: ١٦] والتحقيق فيه أن العبد عند الإتيان بهذه الأعمال لا يقطع على الفوز بالثواب، لأنه يجوز على نفسه أنه قد أخل بقيد من القيود المعتبرة فى حصول القبول.

**الوجه الثالث:** وهو أحسن الوجوه: ما ذكره صاحب الكشاف وهو أن المراد منه تبعيد المشركين عن مواقف الاهتداء، وحسم إطماعهم فى الانتفاع بأعمالهم التى استعظموها وافتخروا بها، فإنه سبحانه بين أن الذين آمنوا وضموا إلى إيمانهم العمل بالشرائع، وضموا إليها الخشية من الله، فهؤلاء حصول الاهتداء لهم دائر بين -لعل وعسى- فما بال هؤلاء المشركين يقطعون بأنهم مهتدون، ويجزمون بفوزهم بالخير من عند الله[2].

**الثانى:** ما يرجع إلى الناس، من شيوع السنة الراشدة فيهم، وتنافسهم فيها، وتهذيبهم بها، واجتماع كلمتهم عليها، ونزول البركات عليهم فى الدنيا، وشفاعة بعضهم لبعض فى الآخرة.

**الثالث:** ما يرجع إلى الملة المصطفوية من بقائها غضة طرية لم يخالطها التحريف ولا التهاون، وبيان تمسكهم بحبل الله المتين، وصلوات الملائكة عليهم، وانخناس الشياطين عنهم.

## أخى الحبيب:

وصلاة الجماعة وسيلة فعالة فى غرس الصفات الحسنة فى الإنسان، فهو كما بين علماء النفس أن فيه غريزة تسمى (غريزة المحاكاة) لأننا نحاول عادة أن نقتفى أثر هؤلاء الذين نعجب بهم، فنحاول اتباع طريقهم وهديهم.

---

(١) رواه البخارى ومسلم (١٠٣١) والترمذى (٢٣٩١) وأحمد فى المسند (٩٦٢٨) ومالك فى الموطأ والنسائى.

(٢) مفاتيح الغيب ١٤ / ٦٠٠ / ط. دار الغد.

ومن الملاحظ أن فى صلاة الجماعة يتنوع المؤدون لها، فمنهم: الشيخ العجوز، ومنهم الشاب ومنهم طبقة المثقفين، وطبقة العوام، فكل يتأثر بالآخر على حسب وضعه على سبيل الإيحاء السريع.

كما أن للصلاة فائدة اجتماعية عظمى، حيث إنها وسيلة للتعارف بين المؤمنين، وإزالة الحقد والغل من القلوب، كما أنها تعمل على هدم الفوارق الاجتماعية التى بينهم حيث يجتمع فى المسجد، بل وفى الصف الواحد، الفقير والغنى، والوزير والخفير، والرفيع والوضيع والصحيح والعليل، والصغير والكبير، والأبيض بجوار الأسود، فكلهم يخاطبون ربًا واحدًا، معترفين له بالعبودية، فتقوى أخوتهم، وتتبادل مصالحهم، وتتآلف قلوبهم، وتتطهر أفئدتهم من الحقد والغل.

فيا لها من عبادة ما أعظمها، وشعيرة ما أحسنها، لأنها تدعو أبناءها ليتعارفوا، ولا يتناكروا، ويتقاربوا فلا يتباعدوا، ويتحابوا فلا يتباغضوا، ويتصافوا فلا يتشاحنوا[1].

ورحم الله الأديب مصطفى صادق الرافعى حين قال عن المساجد: «تجمع الناس مرارًا فى كل يوم على سلامة الصدر، وبراءة القلب، وروحانية النفس، لا تدخله إنسانية الإنسان إلا طاهرة منزهة، مسبغة على حدود جسمها من أعلاه إلى أسفله، شعاره الطهر، الذى يسمى الوضوء، فكأنما يغسل الإنسان آثار الدنيا من أعضائه قبل دخول المسجد»[2].

## • أفضل المساجد •

### أخى الحبيب:

وأفضل المساجد فى الدنيا ثلاثة، المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، والمسجد الأقصى، وذلك لما رواه أبو هريرة عن النبى ﷺ قال: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدى هذا**»[3].

أى لا تشدوا الرحال بالسفر لقصد الصلاة أو الاعتكاف إلا لهذه المساجد الثلاث ففى رواية لأحمد: «**لا ينبغى للمصلى أن يشد رحاله إلى مسجد يبتغى فيه الصلاة غير المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدى هذا**»[4].

**قال الشيخ تقى الدين السبكى**: ليس فى الأرض بقعة لها فضل لذاتها حتى تشد الرحال إليها لذلك الفضل غير البلاد الثلاثة. والمراد بالفضل ما شهد به الشرع، ورتب عليه حكمًا، أما غيرها فلا تشد إليها الرحال لذاتها، بل لطلب العلم والتجارة، وصلة الرحم، وزيارة الصالحين والإخوان، وغير ذلك.

(١) انظر كتابنا من وصايا القرآن الكريم جـ١/ ٥٦، ٥٧ دار/ التوفيقية.

(٢) من كتاب وحى القلم.

(٣) رواه البخارى ومسلم وأبو داود وابن حبان.

(٤) رواه أحمد (١١٥٥٢) بإسناد صحيح.

والمسجد الحرام أول مسجد وضع فى الأرض، وهو مسجد مكة المكرمة، قال سبحانه: ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [آل عمران: ٩٦].

وقال أبو ذر الغفارى رضي الله عنه قلت: يا رسول الله، «أى مسجد وضع فى الأرض أولا؟ قال: **المسجد الحرام**. قلت: ثم أى ؟ قال: **المسجد الأقصى**. قلت: كم بينهما؟ قال: **أربعون سنة**»(١).

## ١ - فضل المسجد الأقصى:

والثانى فى الفضل بعد بيت الله الحرام: المسجد الأقصى، وسمى بذلك لأنه كان أبعد المساجد التى تزار، والتى يبتغى بها الأجر، وقيل: إنما سمى بذلك لبعده عن الأقذار والخبائث، ومن أسمائه: بيت المقدس، أى المكان المطهر من الذنوب، ومنها بيت القدس.

والمسجد الأقصى هو المسجد الوحيد الذى ذكره القرآن الكريم باسمه فى قوله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الإسراء: ١] وهذه الآية الكريمة تذكرنا بميزة كتبها الله للمسجد الأقصى، وبلده: القدس، فقد جعل الله تعالى بمنِّه وفضله هذا المسجد نهاية للرحلة الأرضية، وبداية للرحلة السماوية، رحلة المعراج منه إلى الملأ الأعلى، ثم جعله سبحانه وتعالى مرة ثانية نهاية لرحلة العودة من المعراج وبداية لرحلة العودة من الإسراء.

وكأن الله تبارك وتعالى قد فعل ذلك لحكمة، كأنه سبحانه وتعالى يريد أن يقول لأمة الإسلام أجمع: إن هذه البقعة التى يوجد فيها المسجد الأقصى والقدس. هى أرض من صميم وطن المسلمين المؤمنين، فلا يجوز لهم بحال من الأحوال أن يتهاونوا فى جزء منها، أو يستخفوا بمكانتها، أو يتركوها لدخيل يعتدى عليها، أو يستبد بأمرها، فدون ذلك يجب أن تزهق الأرواح، وتفنى الأشباح.

ولذلك قد صلى فيه خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ بالأنبياء جميعًا إمامًا ركعتين على ملة الخليل إبراهيم عليه السلام، يقول أحمد شوقى:

**أسرى بك الله ليلاً إذ ملائكه ... والرسل فى المسجد الأقصى على قدم**
**لما خطرت بهم التفوا بسيدهم ... كالشهب بالبدر أو كالجند بالعلم**
**صلى وراءك منهم كل ذى خطر ... ومن يفز بحبيب الله يغتنم**

والمسجد الأقصى هو القبلة الأولى فى الإسلام وللصلاة فى المدينة المنورة حين هاجر النبى ﷺ إليها، ومن قديم الزمن، وصفوه بأنه: «أولى القبلتين، وثالث الحرمين» فقد ظل الرسول ﷺ وأصحابه الأطهار يصلون نحوه وهم فى المدينة مدة سبعة عشر شهرًا، أو ستة عشر،

(١) رواه مسلم وأحمد وابن ماجه.

حتى نزل قول الله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وقد أخبرنا سيد الخلق، وحبيب الحق ﷺ أن الصلاة فى هذا المسجد المبارك المسجد الأقصى لها فضل كبير على الصلاة فى غيرها من المساجد، فقد سألته ميمونة ﵂، فقالت: يا رسول الله، أفتنا فى بيت المقدس، فقال ﷺ: **«أرض المحشر والمنشر، ائتوه فصلوا فيه، فإن صلاة فيه كألف صلاة فى غيره»**[١].

**وفى رواية: «أن الصلاة فيه تعدل خمسمائة صلاة».**

ومن فضائل المسجد الأقصى كما ذكر الفقهاء والعلماء استحباب شد المطى إليه، وختم القرآن فيه، والمجاورة عنده، والصوم فيه، والإهداء إليه، كالزيت للإنارة ونحوه.

كما قال العلماء: إن السيئات فيه تزداد قبحًا وفحشًا، لأن المعاصى فى المكان الشريف تكون أشد اجتراء على الله عز وجل، وأقل خوفًا منه.

**٢- فضل المسجد الحرام:**

هو المسجد الذى أعلى قواعده ورفعها نبى الله إبراهيم ﵇ قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧] وقال سبحانه مخاطبًا خليله إبراهيم: ﴿ وطهر بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾.

وقد بين لنا رسول الله ﷺ أن له فضلاً عظيمًا على سائر المساجد كما بينا فى حديث شد الرحال، ثم يقول ﷺ: **«خير ما ركبت إليه الرواحل مسجد إبراهيم ﵇، ومسجدى»**[٢].

وعن جابر ﵁ أن النبى ﷺ قال: **«صلاة فى المسجد الحرام مائة ألف صلاة، وفى بيت المقدس خمسمائة صلاة»**[٣].

وحسب الكعبة تنويهًا بشأنها أن نتدبر ما ذكره الإمام الزركشى فى كتابه «إعلام الساجد بأحكام المساجد» وفيها يقول القائل:

**أطوف به والنفس بعد مشوقة ... إليه، وهل بعد الطواف تدانى**
**وألثم منه الركن أطلب بَرْد ما ... بقلبى من شوق، ومن هَيَمان**

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٢٧٤٩٨) جـ١٨/ ٦٠٦ بإسناد صحيح ورواه ابن ماجه (١٤٠٧) وأبو داود (٤٥٧) والبيهقى.

(٢) رواه أحمد فى مسنده بإسناد حسن (١٤٥٤٧) ١١/ ٤٩٦.

(٣) رواه أحمد فى مسنده (١٦٠٥) بإسناد صحيح.

فــوالله مــا أزداد إلا صــبــابــة ... ولا القلب إلا كثرة الخفقان
فــيا جنة المأوى، ويا غاية المنى ... ويا منيتى من دون كل أمانى
أبت غلبات الشوق إلا تقربًا ... إليك، فما لى بالبعاد يدان
وما كان صدّى عنك صد ملالة ... ولى شاهد من مُقلتى ولسانى
دعوة اصطبارى عنك بعدك والبكا ... فلبى البكا، والصبر عنك عصانى
وقد زعموا أن المحب إذا نأى ... سيبلى هواه بعد طول زمان
ولو كان هذا الزعم حقًا لكان ذا ... دواء الهوى فى الناس كل أوان
بل إنه سيبلى التصبر، والهوى ... بغير زمام قائد وعنان
أتاك على بعد المزار، ولو ونت ... مطيته جاءت به القدّمان[1]

٣- مسجد الرسول ﷺ:

وهو المسجد الذى بناه رسولنا محمد ﷺ هو وأصحابه رضوان الله عليهم فى المكان الذى بركت فيه ناقته، فقد كان ﷺ ينقل الحجارة على كتفه وهو يرتجز:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة

وكان ذلك يزيد فى نشاطهم فى البناء حتى إن أحدهم كان يقول:

لئن قعدنا والرسول يعلم ... لذاك منا العمل المضلل

فقد جعل الرسول ﷺ سقفه من جريد النخل، وأعمدته من جذوعها، وحيطانه من اللبن، وفرشت أرضه من الرمال والحصباء، وجعل عضادتاه من الحجارة، وجعل له ثلاثة أبواب، وكان ارتفاعه لا يزيد عن القامة إلا القليل، ومع ذلك تخرج فيه الأبطال، لأنه كان جامعة إسلامية كبرى أستاذها رسول الله ﷺ، وطلابها هم الصحابة الأبرار الأطهار، وكان محكمة للقضاء بما أنزل الله، وكان دارًا للشورى، وكان مركزًا لقيادة الجيوش، وكان نزلا لاستقبال الوفود والرسل الذين توجههم الدول للقاء الرسول ﷺ، فكانت رسالة المسجد فى ذلك الوقت خير رسالة، لذلك تخرج فيه عظماء، تخرج فيه المصلح القدير كأبى بكر، والزعيم الملهم كعمر، والحيىّ الكريم كعثمان، والعبقرى الفذ كعلىّ، والفيلسوف البارع كسلمان، والقائد المغوار كخالد، والمحدث الكبير كأبى هريرة، والمفتى القدير كابن عباس، والأستاذ الزاهد كأبى ذر، ففى أى الجامعات تخرج هؤلاء؟! فى أعظم جامعة عرفها التاريخ، إنها جامعة الإسلام المحمدية التى كان عميدها محمدًا ﷺ.

لأنه مسجد أسس على التقوى، ولقد ثبت فى الصحيح أنه ﷺ سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى فقال: «**مسجدى هذا**»[2] ومسجد قباء هو الآخر أسس على التقوى

(١) إعلام الساجد بأحكام المساجد للزركشى. (٢) رواه أحمد فى مسنده (٢١٠٠٦).

قال تعالى: ﴿**لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا**﴾ [التوبة: ١٠٨] لكن مسجد رسول الله أسس أعظم تأسيس على التقوى ولذلك كان النبى ﷺ يقوم فى مسجده يوم الجمعة، ويأتى مسجد قباء يوم السبت.

فعن أسيد بن ظهير الأنصارى ﷺ أن النبى ﷺ قال: «**الصلاة فى مسجد قباء كعمرة**»[1].

وعن سهل بن حنيف ﷺ أن النبى ﷺ قال: «**من تطهر فى بيته ثم أتى مسجد قباء، فصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة**»[2] لأجل ذلك كان النبى ﷺ يأتى هذا المسجد مرة فى كل أسبوع، فعن ابن عمر ﷺ قال: «كان النبى ﷺ يأتى مسجد قباء كل سبت ماشيًا وراكبًا»[3] وكان ابن عمر يفعله. وفى رواية لمسلم: «**فيصلى فيه ركعتين**».

أما مسجد النبى ﷺ، فقد ثبت فى الصحيح: «**أن الصلاة فيه أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام فإنى آخر الأنبياء، ومسجدى آخر المساجد**»[4].

وعن ابن عمر ﷺ عن النبى ﷺ قال: «**صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام**».

وقال ﷺ: «**ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة**»[5].

ولذلك أخى الحبيب: لو نذر شخص الصلاة فى المساجد الثلاثة أو إتيانها فما الحكم؟.

اختلف العلماء فى ذلك على قولين:

١- أنه لا يجب بالنذر إلا إتيان المسجد الحرام خاصة، وهو أحد قولى الشافعى، وهو مذهب أبى حنيفة، وبناء على أصله فى أنه لا يجب بالنذر إلا ما كان من جنسه واجب بالشرع.

٢- مذهب مالك وأحمد وغيرهما: أنه يجب إتيان المساجد الثلاثة بالنذر، لكن إن أتى الفاضل أغناه عن إتيان المفضول[6].

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذى وقال: حسن غريب. (٢) رواه ابن ماجه (١٤١١) والترمذى (٣٢٤).

(٣) رواه البخارى ومسلم. (٤) رواه البخارى ومسلم.

(٥) رواه البخارى ومسلم وأحمد (٧٢٢٢).

(٦) اقتضاء الصراط المستقيم فى مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية ص٣٩١ دار التوفيقية.

## • موعظة حسنة •

يابن آدم بادر إلى حسن العمل، وأنت الآن فى فسحة ومهل، وتب إلى مولاك من قبيح الخطايا والزلل، قبل أن يقال: فلان عليل، أو مدنف ثقيل، فهل إلى دوائه من سبيل، أو على طبيب دليل، فتدعى لك الأطباء، ويجمع لك الدواء، فلا يزيدك ذلك إلا بلاء، وقد اجتمع عندك الأهل والأحباء. والإخوان والأقرباء، وكثر حولك البكاء، ثم يقال: حشرج ونفسه توشك أن تخرج، وأنت تعاين الأمر العظيم، بعد اللذة والنعيم، وعدلت ببصرك عن القريب والحميم، وحل بك القضاء، وخرجت الروح من الأعضاء، ثم عرج بروحك إلى السماء، فيا لها من سعادة أو شقاء[1].

فاستعذ من ذنوبك يا مسكين، قبل عرق الجبين، وقبل مد الشمال وقبض اليمين، ساعتها لا ينفعك ما جمعت من الأموال فى الشهور والسنين، فماذا تقول إذا وقفت أمام أسرع الحاسبين؟ ماذا تقول يا من ضيعت الصلاة؟ ماذا تقول يا من ترك بيوت الله وأنت تسمع حى الفلاح؟.

فهذا هو عبد الله بن عمر القواريرى يقول: «لم تكن تفوتنى صلاة العتمة فى جماعة، فنزل بى ضيف فشغلت به، فخرجت أطلب الصلاة فى جماعة، فإذا هم قد صلوا، فقلت فى نفسى، لقد جاء عن النبى ﷺ أنه قال: «**صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة**» فانقلبت إلى منزلى، فصليت العتمة سبعًا وعشرين مرة، ثم رقدت، فرأيتنى مع قوم راكبى أفراس، وأنا أركب فرسًا كأفراسهم، ونحن نتسابق، لكنى لم ألحق بهم، فالتفت إلىَّ أحدهم، فقال: لاتجهد فرسك فلست بلاحقنا. فقلت: فلمَ ذاك؟ قال: إنا صلينا العشاء فى جماعة، وأنت لم تصل مثلنا»[2].

فيابن آدم، ما أغفلك، وعن الصواب ما أبعدك، حافظ على صلواتك، وعليك بالاجتهاد والطاعة لرب العباد، ومراقبته فى الليل والنهار، والتضرع إليه فى ظلمات الأسحار، واعلم أن أنفاسك معدودة، وعليك رقيب يحصيها، ولا تنس الموت فإنه لا ينساك.

اللهم نسألك أن تجعلنا من المقيمين للصلاة، وأن تجعلنا من الذين وفوا بعهدك، وعملوا بكتابك، وسنة نبيك محمد ﷺ، اللهم ألهمنا ذكرك، ووفقنا للقيام بشكرك، يا قاضى الحاجات، ويا مجيب الدعوات هب لنا ما سألناه، وحقق رجائنا فيما تمنيناه، واغفر لنا يا مولانا إنك غفور رحيم.

---

(١) بستان الواعظين لابن الجوزى ص١٥٩.

(٢) التبصرة لابن الجوزى ٢/ ٢٣٩ والكبائر للذهبى ص٤٢ ط/ دار الخلفاء.

## الوصية رقم (٥٤)
## ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها

عن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها، فقال عبيد بن عمير: حدثينا بأعجبَ شيء رأيتيه من رسول الله ﷺ، فبكت وقالت: قام ليلة من الليالى، فقال: «**يا عائشة، ذرينى أتعبد لربى**»، قالت: قلت: يا رسول الله إنى لأحب قربك، وأحب ما يسرك قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلى فلم يزل يبكى حتى بل حجره، ثم بكى فلم يزل يبكى حتى بلَّ الأرض، وجاء بلال يؤذن للصلاة، فلما رآه يبكى، قال: يا رسول الله، تبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: **أفلا أكون عبداً شكوراً؟!. لقد نزل الله آيات، ويلٌ لمن قرأها، ولم يتفكر فيها**، ثم تلا قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ**[١]﴾ [آل عمران: ١٩٠].

### • فى رحاب هذه الوصية •

إن السيدة عائشة رضي الله عنها تحدثنا فى هذا القبس النورانى عن ليلة من ليالى الحبيب المصطفى ﷺ فى عبادته مع ربه، فقد كان يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه، وقد كان ﷺ كثير البكاء من خشية الله تعالى وعظمته، ومع ذلك فهى تسأله عن سبب هذا البكاء، وعن تلك العبادة التى أخذ بها نفسه، فيجيب النبى الأعظم ﷺ على استفسارها بقوله: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»؟.

ولما جاء ثلاثة نفر يسألون عن عبادته ﷺ، فلما أخبروه عنها كأنهم تقالوها ثم قالوا: وأين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فأما أنا فأصوم ولا أفطر، وقال الآخر: وأما أنا فأقوم الليل ولا أرقد، وأما الثالث، فقال: وأما أنا فلا أتزوج النساء، ولما علم النبى ﷺ بأمرهم قال: «**أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى**»[٢].

وفى هذا القبس النورانى يحذر الرسول ﷺ الأمة، ويخبر السيدة عائشة رضي الله عنها، أنه نزل عليه آيات كريمات، هدد الرسول ﷺ من قرأها، ولم يتدبر فيها، ويتأمل عظمة القدرة الإلهية فيها، لكن ما هى هذه الآيات الكريمات التى نزلت على رسول الأمة الإسلامية والتى يهدد الرسول من لم يتفكر فيها بالويل، وهو شدة العذاب يوم القيامة؟.

إنها آيات بينات من آخر سورة آل عمران تبدأ بقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ**

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه، ورواه أبو الشيخ فى أخلاق النبى ﷺ وصححه الألبانى.

(٢) رواه البخارى.

قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ربما يكون المسلم قد عبد ربه بعبادات كالصلاة والصيام والزكاة وقراءة القرآن، وغيرها من العبادات، لكن هل عبدت ربك فى يوم من الأيام بعبادة التفكر فى هذا الملكوت العجيب؟ هل صعدت يومًا إلى سطح بيتك، وأخذت تتأمل فى هذه السماء وارتفاعها، والنجوم ومدارها، والقمر ومنازله، والشمس وشعاعها؟ هل مشيت يومًا فى هذه الأرض وتفكرت فى أقطارها، وتأملت فى بنائها، ودققت النظر فى مائها، وحيواناتها؟ والإجابة على هذا التساؤل تكون فى الغالب بلا، لأننا قد انشغلنا عن التفكير فى عظمة هذا الوجود، مع أننا مأمورون بالتفكر فى مخلوقات الله تعالى، فهيا بنا لنرى فضل التفكير فى هذا الملكوت، لنعرف أنه من أوضح الأدلة على وجود الملك المعبود جل وعلا.

## • القرآن الكريم يأمرنا بالتفكر •

وإذا تتبعنا آيات القرآن الكريم وجدناها تأمرنا بأن نفكر ونعتبر، ونتعظ بآيات الله الكونية، قال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦: ٨] ثم يذكرنا بأن البعث مثل خروج النبات من الأرض، فيقول بعدها: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٦: ١١] أى كذلك خروج الكائنات وبعثها بعد موتها من الأرض، فهل فكرت فى هذا؟! وهل تأملت ودققت النظر فى هذا؟ ويقول سبحانه: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ١٧: ٢١].

وإن كان الخطاب فيها لأهل مكة، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولقد بدأ سبحانه بالاستفهام الذى يفيد الإنكار عن الإبل، لأنهم كانوا يعرفونها جيدًا، ويستعملونها فى سفرهم وترحالهم، وحلهم وبقائهم، ثم عقب بالسماء، فقد كان العرب منذ القدم يتأملون فى السماء ويعرفون علم الفلك.

حتى أن أعرابيًا فى الصحراء سئل: هل رأيت الذى تعبده، فقال: يا قوم، ألا تنظرون الأرض وما عليها، والسماء وما فيها، والرياح وحركاتها، إن البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا يدل ذلك على اللطيف الخبير؟.

تأمل فى الوجود بعين فكر ... ترى الدنيا الدنيئة كالخيال
ومن فيها جميعًا سوف يفنى ... ويبقى وجه ربك ذو الجلال

وقال سبحانه: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم: ٢٠: ٢٥].

ويقول أحد الحكماء عندما سئل: كيف عرفت ربك؟ فقال: عرفت ربى بالنحلة أحد طرفيها عسل، وفى الآخر إبر.

فالسماء بغير عمد من رفعها؟ بالنجوم والكواكب من جملها؟!.

الأرض من مهدها وذللها؟! الجبال من نصبها وأرساها؟!.

القمر فى السماء من نوَّره؟! والشمس بعيدة فمن أدنى شعاعها؟!.

الطبيب المعالج من أرداه؟ المريض وقد يئس من عافاه؟!.

الأعمى فى الزحام من يقود خطاه؟ الصحيح وكان يحذر حفرة من أهواه؟!.

الجنين فى ظلمات ثلاث من يرعاه؟! الوليد لدى الولادة من أبكاه؟.

الثعبان وقد امتلأ جوفه بالسم فمن أحياه؟!.

اللبن بين دم وفرث فمن الذى صفاه؟!.

الهواء تشعر به ولا تراه فمن أخفاه؟!.

النبت يربو فى الصحراء فمن الذى يرعاه؟! و النبت تتعهده وترعاه فيجف فمن بالجفاف رماه؟ الصم من الصخر من فجر منه المياه؟ والنهر بمائه يجرى فمن الذى أجراه؟ والنخل تراه مشقوق النوى فمن الذى شق نواه؟!.

والطير فى جو السماء من أمسكه وهداه؟!.

كل ذلك سينطق بعظمة الله قائلاً بلسان حاله: أنا مخلوق لله الواحد الديان.

لله فى الآفاق آيات لعل ... أقلها هو ما إليه هداكا
ولعل ما فى النفس من آياته ... عجب عجاب لو ترى عيناكا
والكون مشحون بأسرار إذا ... حاولت تفسيرًا لها أعياكا
قل للطبيب تخطفته يدى الردى ... يا شافى الأمراض من أرداكا
قل للمريض نجا وعوفى بعدما ... عجزت فنون الطب من عافاكا

قل للصحيح يموت لا من علة ... من بالمنايا يا صحيح دهاكا
قل للبصير وكان يحذر حفرة ... فهوى بها من ذا الذى أهواكا
بل سائل الأعمى خطا بين الزحام ... بلا اصطدام من يقود خطاكا
قل للجنين يعيش معزولاً بلا ... راع ولا مرعى ما الذى يرعاكا
قل للوليد بكى وأجهش بالبكا ... لدى الولادة ما الذى أبكاكا؟
وإذا ترى الثعبان ينفث سمه ... فاسأله من ذا بالسموم حشاكا؟
واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو ... تحيا وهذا السم يملأ فاكا
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت ... شهدًا وقل للشهد من حلاكا
بل سائل اللبن المصفى كان بين ... دم وفرث ما الذى صفاكا
وإذا رأيت الحى يخرج من ... حنايا ميت فاسأله من أحياكا
قل للهواء تحسه الأيدى ويخفى عن ... عيون الناس من أخفاكا
قل للنبات يجف بعد تعهد ... ورعاية من بالجفاف رماكا
وإذا رأيت النبت فى الصحراء ... يربو وحده فاسأله من أرباكا
وإذا رأيت البدر يسرى ناشرًا ... أنواره فاسأله من أسراكا
واسأل شعاع الشمس يدنو وهى ... أبعد كل شىء ما الذى أدناكا
قل للمرير من الثمار من الذى ... بالمر من دون الثمار غذاكا
وإذا رأيت النخل مشقوق النوى ... فاسأله من يا نخل شق نواكا
وإذا رأيت النار شب لهيبها ... فاسأل لهيب النار من أوراكا
وإذا رأيت الجبل الأشم مناطحًا ... قمم السحاب فسله من أرساكا
وإذا ترى صخرًا تفجر بالمياه ... فسله من بالماء شق صفاكا
وإذا رأيت النهر بالعذب الزلال ... جرى فسله من الذى أجراكا
وإذا رأيت البحر بالملح الأجاج ... طغى فسله من الذى أطغاكا
وإذا رأيت الليل يغشى داجيًا ... فاسأله من يا ليل حاك رجاكا
وإذا رأيت الصبح يسفر ضاحيًا ... فاسأله من يا صبح صاغ ضحاكا
ستجيب ما فى الكون من آياته ... عجب عجاب لو ترى عيناكا
ربى لك الحمد العظيم لذاتك ... حمدًا ليس لواحد إلاكا
يا مدرك الأبصار والأبصار لا ... تدرى له ولكنهه إدراكًا
إن لم تكن عينى تراك فإننى ... فى كل شىء أستبين علاكا[1]

(١) القصيدة للشاعر على بديوى.

## • أنواع النظر فى آيات الله سبحانه •

والنظر فى آيات الله تعالى نوعان:

**الأول:** نظرٌ إليها بالبصر الظاهر، فيرى - مثلاً- زرقة السماء ونجومها، وعلوها، وسعتها، وهذا النوع يشارك الإنسان فيه غيره من الحيوانات، وليس هذا النوع هو المقصود بالأمر بالنظر كما بينا.

**الثانى:** أن يتجاوز هذا النظر بالبصيرة الباطنة، فتفتح له أبواب السماء، فيجول فى أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها، ثم يفتح له باب حتى ينتهى به سير القلب إلى عرش الرحمن جل وعلا، فينظر سعته وعظمته وجلاله، ومجده ورفعته، ويرى السموات السبع، والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة فى أرض فلاة، ويرى الملائكة حافين من حولهم، لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتقديس، والتكبير(١).

لذلك لما جاء رجل من الزنادقة ليسأل إمامنا الشافعى رحمه الله تعالى على الدليل على وجود الله سبحانه وتعالى، ماذا فعل الشافعى؟! لقد دقق النظر فى شىء بسيط وحلله باعتبار ما سوف يئول إليه، فقال للرجل: الدليل هو ورقة التوت!!.

فقال الزنديق: كيف ذلك؟ قال الشافعى: انظر إليها، أليس لونها واحد؟ وشجرتها واحدة؟ وطعمها واحد؟ وريحها واحد؟.

قال الزنديق: نعم.

فقال الشافعى: تأكلها الدودة فتخرجها حريرًا طريًّا، وتأكلها النحلة فتخرجها عسلاً شهيًّا، وتأكلها الغزالة فتخرجها مسكًا ذكيًّا، وتأكلها الشاة فتخرجها لبنًا صفيًّا. المادة واحدة، والصنعة مختلفة فمن الصانع؟!.

## • تأمل فى عالم النبات •

### أخى الحبيب:

تأمل فى عالم النبات تجد عجبًا، فإنك لو ذهبت يومًا وسرت بين حقل من الحقول ستجد شجرة كبيرة، وبجوارها شجرة أخرى مثل شجرة الفول، فهذه شجرة كبيرة جذورها فى الأرض ممتدة، وأغصانها مرتفعة، فهل سألت نفسك ما أصلها؟.

إن أصلها بذرة صغيرة، لكن شجرة الفول أصلها حبة كبيرة، ومع ذلك من الذى أنبت من البذرة الصغيرة شجرة كبيرة، ومن الذى أنبت من البذرة الكبيرة شجرة صغيرة؟ إنه الخالق الأعظم جل وعلا.

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢/ ٢٩

وتأمل إذا نصبت خيمة لتستظل بهـا، كيف تقويها بالأوتاد من كل الجوانب حتى لا تسقـط ولا تميد، فهكذا تجـد النبات والشـجر له عروق ممـتدة فى الأرض منتشـرة إلى كل جانب لتمسكه وتقيمه، وكلما انتشرت أعاليه، امتدت عروقه وأطنابه من أسفل فى الجهات.

ولولا ذلك كيف كانت تثبت هذه النخيل الطوال الباسقات، والأشجار العظيمة أمام الرياح والعواصف.

ثم تأمل الحكـمة فى خلق الورق، فـمنه أوراق غليظـة ممتدة فى الطول والـعرض، ومنها دقاق تتخلل تلك الـغلاظ منسوجة نسجًا دقيقًا، فمن الـذى أبدعها؟ إن الذى أبدعها هو من: ﴿ أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير فى كونها جعلت زينة للشجرة، وسترًا ولباسًا للثمرة، ووقاية لها من الآفات التى تمنع كمالها، ولهذا إذا جردت الشجرة من ورقها فسدت الثمرة، ولم ينتفع بها.

**انـظـر لـتـلـك الـشـجـرة ... ذات الـغـصـون الـنـضـره**
**كـيـف نمت مـن حـبـة ... وكـيـف صـارت شـجـره**
**فـانـظـر وقـل مـن ذا الـذى ... يـخـرج مـنـهـا الـثـمـره**
**ذاك هـو الله الـذى ... أنـعـمـه مـنـهـمـره**
**ذو حـكـمـة بـالـغـة ... وقـدرة مـقـتـدره**

وهل تعلـم أن الشجـرة تسبح بـحمد ربـها؟ قال سـبحـانه: ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن: ٦] فالنجم ما ليـس له ساق من النبات، والشجر مـاله ساق، وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ومن عجائب النبات ما ذكره صاحب «نوادر الكتب» من أن شجرة غريبة فى جنوب الصين تكون أوراقـها فى الأحوال الجوية العـادية خضراء كأوراق الأشجـار، وقبل حدوث الفيضانـات، أو هطول الأمطار تتغير، فتصـبح حمراء، فأصبحت عنـد سكان تلك المنطقة كمراقـبة للأحوال الجـوية.. وهى بلسان حالهـا تقول[1]: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

**سل الـواحـة الخـضـراء والماء جـاريًا ... وهذه الصـحـارى والجبال الـرواسيـا**
**سل الروض مزدانًـا سل الزهر والندى ... سل الـليل والإصبـاح والطيـر شـاديا**
**وسل هذه الأنـسام والأرض والـسمـا ... وسل كل شـىء تـسـمع الحمـد سـاريا**
**فلـو جن هذا الـليـل وامـتـد سـرمـدا ... فـمن غـيـر ربى يـرجع الصـبح ثـانيـا**

---

(١) نقلاً من دعوة للتأمل للشيخ على القرنى ص٧٩.

## • مع عالم الحشرات فى القرآن الكريم •

وعالم الحشرات عالم عـجيب، كبير، وعلى سبيل المثال هيـا بنا نتأمل النحلة، وقد ذكرها الله تعالى فى قوله تعالى: ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ** ﴿٦٨﴾ **ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

ولنا هنا عدة وقفات:

**الوقفة الأولى**: لماذا خاطب الله النحل بما يخاطب به الأنبياء، فقال: ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ** ﴾ ولم يقل: وأمر ربك -أو- وأرشد ربك؟.

لأن النحل علماء فى الاقتصاد.. علمـاء فى هندسة المبانى.. علماء فى الفلك.. علماء فى فن الإدارة والتخطيط.

**الوقفة الثانية**: لم يقل الله تبارك وتعالـى: (فى الجبال) وإنما قال: ﴿ **مِنَ الْجِبَالِ** ﴾ أتدرى لماذا؟ لأن هناك أنواعًا من النحل تسكن داخل الجبل فى كهوف، وهناك أنواعًا أخرى تسكن فى فـجوات داخل جذوع الأشـجار على الجبـال، وأخرى على الأغصـان، وأخرى تسكن خلايا الخشب، أو الطين، فلو قال: فى الجبال للزم أن يكون النحل فى الجبال - أى فى الكهوف، والشقوق، فمن علم بناء بيوتها؟.

**الوقفة الثالثة**: لماذا قال الله تعالى عاطفًا بثم بعـد أن أرشدها إلى اتخاذ الجبال بيوتًا، فقـال لها: ﴿ **ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ** ﴾ وقال مـن كل الثمـرات، ولم يقل كـلى كل الثمرات؟.

**الجواب**: أن حرف العطف «ثم» يفـيد التراخى والتعقـيب، لأن النحل إذا سكن فى بيته الجديد من الجبال أو الشجر، لا يخرج لطعامه على الفور، وإنما يخرج بعد أن يبنى بيته على أحدث نظم هندسية، ويزوده بالعيون السداسية الشمعية التى يضع فيها العسل، والتى لا يستطيع الإنسان أن يصنعها إلا بآلة، أو نحوها.

وقال: من كـل الثمرات، لأن النـحلة لا تأكل الثمـرة كلها، وإنما تـأكل رحيقـها، وغالب الناس يقولـون: إن النحلة لاتأكل، وإنما تمتص الرحيق، لكن رب العـزة أخبر أنها تأكل من الثمرات، ومن عجيب أمرها أنها لا تأكل من النباتات الخبيثة كشجرة الدخان ولا تقف عليها.

ولقد زودها الله سبحانه وتـعالى بسلتين بأرجلها الخلفية تجمع بأرجلـها الخلفية تجمع فيها حبوب اللقاح، وأجزاء سكرية من النباتات، ثم تقوم بتحويلها فى بيتها إلى خبز جاف تأكل منه ويسمى «خبز الشغالات».

**الوقفة الرابعة:** لماذا قال سبحانه: ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾؟

لقد ثبت أن العسل يختلف لونه باختلاف لون الأزهار التى أحضر منها النحل الرحيق، فثمرة السنط مثلاً صفراء، فإذا أكل النحل منها يكون العسل أصفر، أما زهرة البرتقال فتكون بيضاء لذلك يكون العسل الناتج منها أبيض، وكذلك زهرة القطن، أو عباد الشمس.

**الوقفة الخامسة:** قوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾.

فقد ثبت أن العسل باختلاف ألوانه فيه شفاء من الأمراض، لذلك يقول النبى ﷺ وهو طبيب الأمة الأعظم: «**الشفاء فى ثلاثة: فى شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار.. وأنهى أمتى عن الكى**»(١).

وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ، فقال: إن أخى استطلق بطنه -أى بها آلام شديدة- فقال ﷺ: «**اسقه عسلاً**» فذهب، فسقاه عسلا، ثم جاء فقال يا رسول الله: سقيته عسلاً، فما زاد إلا استطلاقًا؟ قال: «**اذهب فاسقه عسلاً**» فذهب، فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله : ما زاد إلا استطلاقًا. . فقال: «**صدق الله، وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلاً**» فذهب فسقاه عسلاً حتى برئ(٢).

وقد ثبت أن العسل به مقويات عامة من السكريات، والبروتينات، والفيتامينات بمختلف أنواعها، والدهنيات، علاوة على نسبة لا بأس بها من إنزيمات الهضم، لذلك فهو علاج للإمساك، ولارتفاع الضغط، وارتفاع الكولسترول بالدم، وتصلب الشرايين، وغير ذلك. فسبحان من خلقه وأبدعه، وجعل فيه الشفاء: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

## • تفكر فى خلق الليل والنهار •

### أخى الحبيب:

إنَّ الله سبحانه وتعالى تحدى هذا العالم كله بآية من آياته وهى الليل والنهار، قال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

سل نفسك ماذا سيحدث لو سكنت حركة الشمس فى النهار؟ لو حدث ذلك لغرق نصف الأرض فى ليل سرمدى، وغرق نصفها الآخر فى نهار سرمدى، وتعطلت مع ذلك مصالح ومنافع.

---

(١) رواه البخارى.

(٢) رواه البخارى.

إن تعاقب الليل والنهار دلالة على حكمة الخالق جل وعلا، فقد جعل الليل سكنًا ولباسًا يغشى العالم، فتسكن فيه الحركات، وتأوى إلى بيوتها الحيوانات، والطيور إلى أوكارها، وتستجم فيه النفوس، وتستريح من الكد والتعب، حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها، جاء فلق الصبح، فتُمحى الظلمة، وينتشر الحيوان ويخرج الطير من وكره، فسبحانك يا بديع السموات والأرض، يا من رفعت السماء بقدرتك، ورزقت العباد برحمتك، وسيرت الأفلاك بحكمتك، والكون كله فى قبضتك.

فوا عجبًا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده جاحد
ولله فى كل تحريكة ... وتسكينة أبدًا شاهد
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

**• تأمل عظمة الله فى خلق الماء •**

قال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٩] ولما خلقه الله تعالى وأوجده أكثر منه، فلولا كثرته وتدفقه فى الأودية والأنهار لضاق عن حاجة الناس إليه، ولغلب القوى فيه الضعيف، واستبد به دونه، فيحصل الضرر، وتعظم البلية مع شدة حاجة جميع الكائنات إليه من طير ووحش، وسبع، فاقتضت الحكمة أن كان بهذه الكثرة.

واعلم أن ماء البحار والأنهار، والأمطار مركب من عنصرين فقط هما: الهيدروچين، والأكسچين ومع ذلك عجز الإنسان أن يصنعه والعلم الحديث مع تقدمه لم يستطع أن يصنع الماء، أو أن ينزل الأمطار، بل لا يستطيع أن يسقينا كوبًا واحدًا من الماء.

وفى عام ١٩٨١م حدثت أزمة فى ماء نيويورك، وانخفض مستوى الآبار التى تشرب منها المدينة، وأصبحوا مهددين نتيجة لعدم سقوط الأمطار بالكميات المطلوبة، واضطربت المدينة حتى طُلب من السكان تقييد استهلاكهم من المياه، والإقلال من الاستحمام، وبدأ العلم يتدخل محاولاً حل هذه الأزمة، وحاولوا أن يجعلوا السماء تمطر بأى وسيلة، فأنفقوا الملايين من الدولارات، ثم ماذا حدث...؟ لا شىء، ولا قطرة واحدة من السماء نزلت لماذا؟ الأكسچين موجود، والهيدروچين موجود، وباتحادهما يتكون الماء، عملية بسيطة جدًا، لكن الماء لا يخلقه إلا الله، والغيث لا ينزله من السماء إلا الله القائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

لو كنت أعرف فوق الشكر منزلة ... أعلى من الشكر عند الله فى الثمن
إذن منحتكها ربى مهذبة ... شكرًا على صنع ما أوليت من حسن

## • وفى أنفسكم أفلا تبصرون؟ •

هل سألت نفسك أخى الحبيب فى يوم من الأيام من أى شىء خلقت؟ لقد أجابك القرآن الكريم بآيات متعددة، فمنها قوله تعالى: ﴿**خَلَقَ الإنسانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ**﴾ [الرحمن: ١٥] وقال سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**﴾ [الحجر: ٢٦].

ولنا هنا وقفات:

**الوقفة الأولى:** تطور خلق الإنسان:

١- من طين: وهو عبارة عن الماء + التراب.

٢- تغيرت ريح الطين فأصبح منتًا - أى ﴿**مَسْنُونٍ**﴾.

٣- تغير لون الطين إلى سواد وهذا هو «الحمأ».

٤- جف هذا الطين فأصبح صلصالاً.

٥- ثم زاد الجفاف فأصبح كالفخار - من الذى طوره وجعله ينتقل من طور إلى طور؟.

تلك المرحلة التى بينها لنا القرآن الكريم ما شهدناها، ولا اطلعنا عليها كما قال سبحانه: ﴿**مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا**﴾ [الكهف: ٥١] فكيف نثبت صدق القرآن فى حدوثها؟

**الوقفة الثانية:**

الذى يثبت ذلك هو الموت وهو خروج الروح، لأن الروح هى آخر شىء دخل فيه بعد تكوينه من تلك العناصر، وهى آخر شىء يخرج منه حالة موته، فعندما تخرج الروح يمر الجسم بأطوار هى نفسها التى خلق منها:

١- يتصلب الجسد، وهذا هو الصلصال.

٢- يتعفن، فيصبح رمة، وهذا هو الحمأ المسنون.

٣- ثم يتبخر الماء من الجسد، فيصبح الطين ترابًا.

٤- ثم يعود إلى الأرض التى ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**﴾ [طه: ٥٥].

**الوقفة الثالثة:** أن العلماء قاموا بتحليل جسم الإنسان فوجدوه مكونًا من ٢٢ عنصرًا وهى:

١- أكسجين+هيدروجين =ماء وهوحوالى(٦٥-٧٠٪) من وزن الجسم.

٢- مركبات عضوية تتكون من: كربون وهيدروجين وأكسجين.

٣- مواد جافة: كلور - كبريت - فوسفور - ماغنسيوم - كالسيوم - بوتاسيوم - صوديوم - حديد - نحاس - يود - منجنيز - كوبالت - زنك - فلور - مولبديوم - ألومنيوم - بوريوم - سيليزيوم - كادميوم - كروم - هذه العناصر موجودة كلها فى تراب الأرض. هذا كله كان فى الأصل، لكن كيف كان خلقه بعد ذلك؟ حدثنا القرآن الكريم عن ذلك بآيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾ [المؤمنون: ١٢: ١٤].

ثم جعلناه نطفة، ما هذه النطفة؟ إنها ماء مهين حقير: ﴿**أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ**﴾ [المرسلات ٢٠: ٢٢].

ونطفة الرجل عبارة عن قذيفة منوية، إذا صبت فى الأرحام لا يستفاد منها للإنجاب إلا بكائن منوى واحد، هذا الكائن لا يرى بالعين المجردة من دقته فى الحجم وصغره طوله ١/٦٠٠ مليميتر، وتحتوى القذيفة الواحدة على حوالى ٥٠٠ مليون حيوان منى، أوصافه: مفلطح الرأس، طويل الذنب، يسبح فى ظلمات الرحم صاعدًا بسرعة نصف مليمتر فى الثانية الواحدة.

أتدرى كيف صورك الله جل جلاله، فى أى ضوء، وأنت فى ظلمات ثلاث كما قال سبحانه: ﴿**يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ**﴾[الزمر: ٦].

والظلمات الثلاث هى:

١- ظلمة الرحم. ٢- ظلمة الكيس «المشيمة».

٣- ثم ظلمة جدار البطن . فى هذه الظلمات صورك الله فى أحسن صورة، لا فى الأشعة السينية، ولا فى الأشعة تحت الحمراء، ولا فى الأشعة فوق البنفسجية ولا فى الأضواء الكاشفة، بل صورك فى الظلام: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [آل عمران: ٦].

**يا أيها الماء المهين من الذى سواكا — ومن الذى فى ظلمة الأحشاء قد والاكا**
**ومن الذى غذاك من نعمائه — ومن الكروب جميعها نجاكا**
**ومن الذى شق العيون فأبصرت — ومن الذى بالعقل قد حلاكا**
**ومن الذى تعصى ويَغْفرُ دائمًا — ومن الذى تنسى ولا ينساكا**

فيا ربنا لك الحمد، فأنت أحق من عبد، وأحق من ذكر، وأولى من شكر، وأرأف من ملك، وأجود من سئل، كل شىء دال عليك، ومرشد إليك، لا إله إلا أنت نستغفرك

ونتوب إليك. . نسألك أن تطهر قلوبنا، وأن تهـذب أخلاقنا، اللهم قَوِّ إيماننا، اللهم سدد عند السؤال جوابنا، وإلى عمل أهل الجنة فاهدنا، وتوفنا يا ربنا وأنت راضٍ عنا، واحشرنا فى زمرة نبينا محمد ﷺ يا رب العالمين.

## الوصية رقم (٥٥)

## يا أيها الناس، توبوا إلى الله...

عن شيخ من أصحاب النبى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا أيها الناس، توبوا إلى الله واستغفروه، فإنى أتوب إلى الله وأستغفره كل يوم مائة مرة»**[١].

**صدق رسول الله ﷺ**

### • فى رحاب هذه الوصية •

**أخى الحبيب:**

إن المتأمل فى هذه الوصيـة البليغة، والتى قلت كلماتها، لكنهـا تحتاج إلى وقفات، لأنها من كـلام أعظم البلغاء، وأفصح الفـصحاء، من كلام من أوتى جـوامع الكلم، من كلام من لا ينطق عن الهوى. إنه يبدأ الوصية بالنداء العام الذى ينبه كل إنسان، نداء عامًا لم يخص فـيه أحدًا، لـم يقل يا أيها المؤمـنون، ولا يا أيها المسلـمون، وإنما قال: يـا أيها الناس! أتدرى أخى الحبيب السر فى ذلك؟.

لعل السر فى ذلك أن المعصيـة حين يفعلها صاحبها، ويرتكبهـا فاعلها، ربما تخرجه عن دائرة الإيمان، خاصة إذا كانت من الكبائر، يقول النبى ﷺ: **«لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مـؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»**[٢] فالعـاصى حين يرتكب المعصـية إلا أن يتوب، نـاقص الإيمان، لأن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات، وينقص بفعل السيئات.

وفى القرآن الكريم تأمل هذا النـداء الإلهى الربانى، الذى يأمرنا فيه بالتـوبة، فيقول سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا**﴾ [التحريم: ٨].

وفى نداء آخر: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [النور: ٣١].

فقد أمر جـميع المؤمنين أن يتوبوا إليه، لم يسـتثنِ منهم أحدا، مهمـا علا شأنه فى الاستقامة، ومهما ارتقى فى رتبة الصالحين، فهو يحتاج إلى أن يتوب إليه سبحانه، ولما كان

---

(١) رواه مسلم عن الأغر المزنى فى كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار والإكثار منه (٦٧٩٨) ورواه الإمام أحـمد فى مـسنده مرة عن الأغـر، ومرة عن شـيخ من أصحـاب رسول الله ﷺ رقم (٢٣٣٨٠) جـ١٧/ ١٢ ورواه الطبرانى فى الكبير ١/ ٨٨٢.

(٢) رواه البخارى ٥/ ٢٤٧ ومسلم (٧٥) عن أبى هريرة وأحمد فى مسنده.

الأمر فمنهم من يتوب من كبائر الذنوب كالزنى واللواط والربا، وغير ذلك، ومنهم من يتوب من صغائر المحرمات، ومنهم من يتوب من الشبهات، ومنهم من يتوب من المكروهات، بل ومنهم من يتوب من الغفلات التى قد تعترى القلوب، فتكون التوبة على أنواع، فهناك توبة العوام، وهناك توبة الخواص، وهناك توبة خواص الخواص، ولهذا نادى الرسول ﷺ بنداء ﴿يَا أَيُّهَا الناس﴾ ونادى رب العالمين، بنداء ﴿يَا أَيُّهَا الذين آمنوا﴾.

وإذا كان سيد البشر ﷺ، وهو من غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يتوب إلى الله، ويستغفره فى اليوم مائة مرة، وفى رواية (سبعين مرة) فماذا نفعل نحن العصاة؟! ماذا نفعل نحن الغافلون؟! ماذا نفعل نحن الضالون باتباع شهواتنا، وموافقة شيطاننا؟!.

إن لم تدركنا رحمة ربنا، وإن لم يعمنا برحمته وعفوه لهلكنا، وكنا من الخاسرين، فهل من توبة؟ هل من عودة إلى رحاب بابه الذى لا يغلق حتى تخرج الشمس من المغرب؟!.

## • ماذا قال العلماء فى تعريف التوبة؟ •

**التوبة لغة:** الرجوع، يقال: تاب وأناب وآب بمعنى رجع. فالتائب إلى الله هو الراجع من شىء إلى شىء، راجع من الأوصاف المذمومة إلى الأوصاف المحمودة، راجع من معصيته إلى طاعته، راجع عما نهى الله عنه إلى أمره، رجوع من الأضداد إلى أسباب الوداد، رجوع إليه سبحانه بعد المفارقة، وإلى طاعته بعد المخالفة.

وأحسن ما قيل فى التوبة شرعا: هى الرجوع من البعد عن الله إلى القرب إليه سبحانه وتعالى وقال القرطبى: أسد العبارات وأجمعها فى تعريفها، قول بعض المحققين: هى اجتناب ذنب سبق منك مثله حقيقة أو تقديرًا.

**وقال ذو النون رحمه الله**[1]: حقيقة التوبة: أن تضيق عليك الأرض بما رحبت حتى لا يكون لك قرار، ثم تضيق عليك نفسك، كما أخبر الله فى كتابه العزيز: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨].

**وقال أبو بكر الواسطى -رحمه الله-:** التوبة النصوح أن لا يبقى على صاحبها أثر من المعصية سرًا ولا جهرًا، ومن كانت توبته نصوحًا لا يبالى كيف أمسى، ولا كيف أصبح[2].

**وقال ابن عطاء -رحمه الله-:** التوبة توبتان: توبة الإنابة، وتوبة الاستجابة، فتوبة الإنابة: أن يتوب العبد خوفًا من عقوبته، وتوبة الاستجابة: أن يتوب حياء من كرمه سبحانه[3].

---

(١) الرسالة القشيرية ص١٦٨، والغنية للجنيد ١/ ١٨٠.

(٢)، (٣) الرسالة القشيرية ص١٦٨، الغنية ١/ ١٨٠.

**وقال سهل بن عبد الله التسترى -رحمه الله-**: التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة، والصمت، وأكل الحلال. وقال أيضًا: التوبة ترك التسويف(١).

**وقال أبو على الدقاق -رحمه الله-**: التوبة على ثلاثة أقسام: أولها: التوبة، وأوسطها: الإنابة، وآخرها: الأوبة.

فالتوبة بداية، والإنابة واسطة، والأوبة نهاية، فكأن من تاب لخوف العقوبة كان صاحب توبة، ومن تاب طمعًا فى الثواب، أو رهبة من العقاب كان صاحب إنابة، ومن تاب مراعاة لأمر لا لرغبة فى الثواب، أو رهبة من العقاب كان صاحب أوبة(٢).

وقيل: التوبة: صفة المؤمنين، قال تعالى: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾.

والإنابة صفة الأولياء المقربين، قال تعالى: ﴿**وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ**﴾ [ق: ٣٣].

والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿**نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ [ص: ٣٠](٣).

**وقال الإمام الجنيد -رحمه الله-**: التوبة على ثلاثة أركان: الندم على ما فات، والعزم على ترك المعاودة لما نهى الله عنه، والسعى فى أداء المظالم(٤).

وقيل: التوبة هى قود النفس إلى الطاعة بخطام الرغبة، وردها عن المعصية بزمام الرهبة(٥).

**وقال محمد بن كعب القرظى -رحمه الله-**: التوبة النصوح يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيئ الإخوان(٦).

## ●ممَّ نتوب؟●

الأصل فى التوبة أن تكون من الذنوب، والذنوب قد تتعلق بالجوارح الظاهرة كمعاصى اللسان، من الكلام فى الغيبة والنميمة، والكذب، والسخرية، والخوض فى الباطل، وشهادة الزور، وغير ذلك.

ومعاصى العين من النظر إلى ما حرمه الله تعالى من العورات، والنساء الأجنبيات، والحسد، والتتبع للآخرين.

ومعاصى اليد من القتل، والسرقة، والضرب، والبطش، ونشر الفساد. ومعاصى الرجل من السعى إلى معصية الله تعالى.

ومعاصى البطن، من أكل الربا، وأكل لحم الخنزير، وشرب الخمر، وأكل الحرام والسحت. ومعاصى الفرج من الزنا واللواط، وإتيان المرأة فى دبرها.

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى ٤/ ٥.

(٢): (٥) الرسالة ص١٦٦، ١٦٧، الغنية ١/ ١٧٩.     (٦) المرجعان السابقان.

وهناك معاصٍ باطنة وهى أشد خطرًا من الأولى، والمقصود بالمعاصى الباطنة هى تلك المعاصى التى يكنها القلب العليل مثل الرياء، والكبر، والغرور، والعجب، والحقد والغل، وحب الدنيا، وهذه المعاصى أشد خطرًا، لأنها تتعلق بأعظم عضو فى البدن، تتعلق بأميره «القلب» ذلكم العضو الذى قال فيه الحبيب المصطفى: **«إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب»**(١) ذلكم العضو الذى هو محل نظر الله تبارك وتعالى من العباد، يقول ﷺ: **«إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أجسامكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**(٢) ذلكم العضو الذى جعل رب العالمين جل وعلا حجر الأساس فى النجاة يوم البعث والنشور، قال سبحانه: ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] والقلب السليم هو الذى سلم من الأمراض، هو الذى سلم من الشهوات، والهوى، والغفلة، هو ذلكم القلب الذى شعاره اليقظة، وعدوه الغفلة، قلب دائب العمل، قلب دائم التأثر.

فما الفرق بين معصية الجوارح الظاهرة، والمعصية القلبية الباطنة؟.

إن المتأمل لمعصية أبينا آدم عليه السلام، ومعصية إبليس اللعين، يجد الفرق ظاهرًا جليًا.

فمعصية آدم عليه السلام كانت معصية جارحة ظاهرة، حين أكل من الشجرة جاءت نتيجة ضعف العزيمة أعقبها اعتراف، وندم، وتوبة إلى الله تعالى، كما حكى القرآن الكريم قال سبحانه: ﴿**قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [الأعراف: ٢٣] لكن إبليس كانت معصيته باطنة، كانت إباءً وكبرًا، واستكبارًا، وحسدًا قال تعالى: ﴿**إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ**﴾ [البقرة: ٣٤] وتكبر بعنصره، وحسده وقال لمولاه: ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾ [ص: ٧٦].

## • خطر الذنوب والمعاصى •

**يقول الإمام ابن القيم** -رحمه الله-(٣):

ينبغى أن يعلم أن الذنوب والمعاصى تضر، وأن ضررها فى القلب كضرر السموم فى الأبدان، على اختلاف درجاتها فى الضرر، وهل فى الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصى؟.

فما الذى أخرج الأبوين من الجنة، دار اللذة والنعيم، إلى دار الآلام والأحزان؟ وما الذى أخرج إبليس من ملكوت السماء، وطرده ولعنه، وجعل صورته أقبح صورة، وبدله

---

(١) رواه البخارى من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه ورواه مسلم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع.

(٢) رواه مسلم وأحمد فى مسنده (٧٨١٤) وذكره الألبانى فى صحيح الجامع.

(٣) من كتاب الداء والدواء لابن القيم الجوزية ص٥٨.

بالقرب بعدًا، وبالرحمة لعنة، وبالإيمان كفرًا، وبزجل التسبيح والتقديس، والتهليل، زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش.

وما الذى أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رءوس الجبال؟ وما الذى سلط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض، كأنهم أعجاز نخل خاوية؟. وما الذى أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم فى أجوافهم، وماتوا عن آخرهم؟ وما الذى رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم، ثم قلبتها، فجعل عاليها سافلها؟. وما الذى أغرق قوم فرعون فى البحر، وما الذى خسف بقارون وداره وماله وأهله؟ وما الذى بعث على بنى إسرائيل قومًا أولى بأس شديد، فجاسوا خلال الديار، فقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء، وأحرقوا الديار، ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية، فأهلكوا ما قدروا عليه، وتبروا ما علوا تتبيرًا؟ وما الذى سلط عليهم أنواع العقوبات: مرة بالقتل والسبى وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى: ﴿**لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ**﴾ [الأعراف: ١٦٧].

## • من آثار الذنوب والمعاصى •

ومن **آثار الذنوب والمعاصى**: سواد الوجه، وظلمة القلب، وظلمة القبر، وقتار فى الرزق، وبغض الخلق له.

**يقول عبد الله بن عباس** رضي الله عنهما: «إن للطاعة نورا فى الوجه، نورًا فى القلب، بركة فى الرزق، حبًّا فى قلوب الخلق، وإن للمعصية سوادًا فى الوجه، سوادًا فى القلب، سوادًا فى القبر، قتارًا فى الرزق، بغضًا فى قلوب الخلق».

ومن آثارها الذلة بعد العزة، والضعف بعد القوة، وخوفه بعد أمنه، فأخوف الناس أشدهم إساءة، وبعد الرضا سخط.

ومنها: أن يصير أسيرًا فى يد أعدائه: الشيطان، والدنيا، والنفس، والهوى.

ووقوعه فى بئر الحسرات، فصاحب السيئات لا يزال فى حسرة دائمة كلما نال لذة نازعته نفسه إلى لذة أخرى مثلها.

ومنها: شدة قلق صاحب المعاصى واضطرابه، وتمزيق شمله، وفقره بعد غناه، وزوال المهابة والحلاوة التى لبسها بالطاعة، فتبدل بها مهانة وحقارة.

ومنها: ضياع أعز الأشياء عليه، وأنفسها وأغلاها وهو الوقت الذى لا عوض عنه، وطمع عدوه فيه، والطبع والرين على قلبه، فإن العبد إذا أذنب نكت فى قلبه نكتة سوداء، فإن تاب منها صقل قلبه، وإذا أذنب ذنبًا آخر نكت فيه نكتة أخرى، ولا تزال

حتى تعلو قلبه، فذلك هو الران، قال تعالى: ﴿**كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [المطففين: ١٤].

ومنها: أنه يحرم حلاوة الطاعة، فإذا فعلها وجد أثرها فى قلبه من الحلاة ومزيد الإيمان والعقل والرغبة فى الآخرة، فإن الطاعة تثمر هذه الثمرات.

ومنها: أن تمنع قلبه من ترحله من الدنيا، ونزوله بساحة القيامة، **فهذا هو حارثة بن** سراقة ﷺ، يسأله النبى ﷺ، فيقول له: «**كيف أصبحت يا حارثة؟** قال: أصبحت مؤمنًا بالله حقًا، قال: **انظر ماذا تقول فإن لكل قول حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟** قال: يا رسول الله، عزفت نفسى عن الدنيا، فأسهرت ليلى، وأظمأت نهارى، وكأنى بعرش ربى عز وجل بارزًا، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وأهل النار وهم يتعاوون فيها».

قال ﷺ: «**يا حارثة، عرفت فالزم، عبد نور الله الإيمان فى قلبه**»[1].

ومنها: إعراض الله وملائكته وعباده عنه، **فإن العبد إذا أعرض عن طاعة الله، واشتغل بمعاصيه أعرض الله، فأعرضت الملائكة والعباد عنه، كما أنه إذا أقبل على الله،** أقبل الله عليه بالرحمة والرضوان، وأقبلت القلوب إليه بالحب والمودة.

ومنها: أن الذنب يستدعى ذنبًا آخر، **ثم يقوى أحدهما بالآخر، فيستدعيان ثالثًا، ثم تجتمع الثلاثة** فتستدعى رابعًا وهلم جرا **حتى تغمره ذنوبه، وتحيط به خطيئته.**

**قال بعض السلف:** ان من ثواب الحسنة؛ الحسنة بعدها، **ومن عقوبة السيئة:** السيئة بعدها.

ومنها: علم صاحب المعصية بأن أعمال البر تنهض بالعبد وتقوم به، **وتصعد إلى الله** به، فبحسب قوة تعلقه يكون صعوده مع صعودها، **وأن أعمال الفجور تهوى به، وتجذبه إلى** الهاوية وتجره إلى أسفل سافلين، وبحسب **قوة تعلقه بها يكون هبوطه معها ونزوله حيث** تستقر به[2]، قال تعالى: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ [فاطر: ١٠].

**ثم يقول ابن القيم**[3]: وبالجملة فآثار **المعصية القبيحة أكثر من أن يحيط بها العبد** علمًا، وآثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يحيط بها علمًا، **فخير الدنيا والآخرة بحذافيره فى** طاعة الله، وشر الدنيا والآخرة بحذافيره فى **معصيته، وفى بعض الآثار يقول الله سبحانه:** «**من ذا الذى** أطاعنى **فشقى بطاعتى؟ ومن ذا الذى عصانى فسعد بمعصيتى**».

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير الحديث ٣/ ٣٣٦٧ والهيثمى فى المجمع ١/ ٥٧، ٥٨ وابن المبارك فى الزهد (٣١٤) وإسناده حسن.

(٢) من كلام ابن القيم فى كتابه طريق الهجرتين ص٣٤٨، ٣٤٩ **بتصرف ومن أراد الزيادة فليراجع كتابه** القيم «الداء والدواء».

(٣) طريق الهجرتين ص٣٤٩ لابن القيم الجوزية ط. التوفيقية.

## • لابد من الذنوب... ولابد من التوبة!•

لابد من الذنوب لما ورد فى حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ثم جاء بقوم يذنبون، ثم يستغفرون فيغفر لهم»**(١).

والمراد بهذا أن لله تعالى حكمة فى إلقاء الغفلة على قلوب عباده أحيانًا، حتى يقع منهم بعض الذنوب، فإنه لو استمرت لهم اليقظة التى يكونون عليها فى حال سماع الذكر، لما وقع منهم ذنب.

يقول ابن رجب الحنبلى فى لطائفه:

وفى إيقاعهم الذنوب أحيانًا فائدتان عظيمتان:

**إحداهما:** اعتراف المذنبين بذنوبهم وتقصيرهم فى حق مولاهم، وتنكيس رءوس عجبهم، وهذا أحب إلى الله تعالى من فعل كثير من الطاعات، فإن دوام الطاعات قد توجب لصاحبها العجب، وفى الحديث: **«لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أشد من ذلك: العجب»**(٢). **قال الحسن:** لو أن ابن آدم كلما قال أصاب، وكلما عمل أحسن، أوشك أن يَجُنَّ من العُجْب. **وقال بعضهم:** ذنب أفتقر به أحبُّ إلىَّ من طاعة أدلُ بها.

فأنين المذنبين أحب إليه من زجل المسبحين، لأن زجل المسبحين ربما شابه الافتخار، وأنين المذنبين يزينه الانكسار والافتقار.

ولله در من قال:

| | |
|---|---|
| **قرة عينى لابدَّ لى منك وإن** | **أوحش بينى وبينك الزلل** |
| **قرة عينى أنا الغريق فخذ** | **كفَّ غريق عليك يتكل** |

**الفائدة الثانية:** حصول المغفرة والعفو من الله تعالى لعبده، فإن الله يحب أن يعفو ويغفر، ومن أسمائه «الغفَّار» والعفو، والتَّوَّاب، فلو عصم الخلق فلمن كان العفو والمغفرة؟!(٣).

**يقول إبراهيم بن أدهم -رحمه الله-:** كنت أطوف بالكعبة فى منتصف الليل، وقد خلا بى المطاف، فجعلت أكثر من ذكر الله وتسبيحه، فطاب لى الدعاء فى هذا الوقت، فتضرعت إلى الله مبتهلاً، وقلت: اللهم اعصمنى من الذنوب والآثام، فاعترضنى رجل

(١) رواه مسلم (٢٧٤٩) وأحمد فى مسنده (٢٦٢٣) والترمذى بنحوه (٣٥٣٩).

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية، والحاكم فى تاريخه، والبيهقى فى الشعب، وفيه سلام بن الصهباء وهو ضعيف والحديث حسنه الألبانى فى ص.ج (٥٣٠٣).

(٣) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلى ص٥٧، ٥٨.

جميل الوجه، نظيف الثوب طيب الريح، لا عهد لى به من قبل، فصاح بى قائلاً: يا إبراهيم كلكم تسألون الله العصمة من ذنوبكم، فإذا عصمكم منها فعلى من يتكرم بالمغفرة؟! والذى بعث محمداً بالحق ليغفر الله يوم القيامة لعباده ذنوبهم، وليرحمهم رحمة يتطاول لها إبليس رجاء أن تناله[١].

**وقال أبو الجلد:** قال رجل من العاملين لله بالطاعة: اللهم أصلحنى صلاحًا لا فساد علىَّ بعده، فأوحى الله إليه: إنَّ عبادى المؤمنين كلهم يسألونى مثل ما سألت، فإن أصلحت عبادى كلهم، فعلى من أتفضل، وعلى من أجود بمغفرتى؟[٢].

**وكان بعض السلف يقول:** لو أعلم أحب الأعمال إلى الله لأجهدت نفسى فيها، فرأى فى منامه قائلاً يقول له: إنك تريد ما لا يكون، إنّ الله يحب أن يغفر[٣].

## • التوبة فى القرآن الكريم •

ذكرت مادة (ت ا ب) بجميع مشتقاتها فى القرآن الكريم فى سبعة وثمانين موضعًا، فتارة تجده ينادى على أهل الإيمان، فيحثهم على التوبة النصوح كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [التحريم: ٨]. إنه بعدما ينادى عليهم بهذا النداء الربانى، ويأمرهم أن يتوبوا توبة خالصة لله رب العالمين. فما معنى التوبة النصوح؟.

قال الكلبى: أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالجوارح.

وقيل معنى التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه.

فليست مجرد كلام يُقال باللسان، وإنما هى قول باللسان، وعمل بالجوارح، واعتقاد بالجنان.

ثم رتب بعد الأمر بالتوبة النتيجة الحاصلة من التوبة بأمرين، هما من أهم ما يحتاج إليه كل موحد بالله تعالى، وهذان الأمران هما غاية كل تائب، وهدف كل مسلم.

**أحدهما:** أن سيئاته سوف تكفر، وتمحى، وتغفر، ومعلوم أن الإنسان بطبعه خطاء، مخالف، مذنب، وذلك بمقتضى بشريته، وبمقتضى مكوناته التى امتزج بها عنصران مختلفان: **أحدهما:** عنصر أرضى - ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ**﴾ [طه: ٥٥] وهذا العنصر يتعلق بالبدن، والجسد.

---

(١) من سمير الصالحين وأنيس المتقين للشهاوى جـ١/ ١١٦.

(٢)، (٣) لطائف المعارف.

**والآخر:** عنصر سماوى متعلق بالروح. فالأول يجذبه إلى أسفل، ليحط به فى أوحال الذنوب والمعاصى، والآخر يسمو به، ويرتفع بروحه إلى آفاق ربانية تصل به إلى أرقى المخلوقات (الملائكة).

**والثانى:** دخول الجنات، فما أوصاف هذه الجنات؟ ﴿**تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾ متى يكون هذا النعيم؟ ﴿**يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ...**﴾ إنها أمنية كل عابد لله تعالى، وإلا فمن ذا الذى يستغنى عن دخول الجنة؟! من ذا الذى لا يفكر فى مصيره وخاتمته؟ أهو الفوز العظيم؟ أم الخسران المبين؟.

وتارة يعلق فلاحهم، وسعادتهم، وفوزهم الأبدى فى جنات نعيم على توبتهم فيقول سبحانه: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [النور: ٣١].

وتارة أخرى يرغب فيها، ويحث عليها، ويبين أن فضلها وأثرها على صاحبها إنما هى مرتبة من أعلى المراتب التى يتمناها كل مؤمن وهى محبة الله تعالى له، قال سبحانه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وإذا أحب الله عبدًا أحبه كل شيء: أحبه جبريل، وأحبته الملائكة، وأحبه الخلق من أهل الإيمان، فقد ورد عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**إذا أحب الله عبدا قال: يا جبريل إنى أحب فلانًا فأحبوه، فينادى جبريل فى السموات: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، ثم ينادى فى أهل الأرض، إن الله يحب فلانًا فأحبوه، ثم يوضع له القبول فى الأرض...**»[1].

ومحبة الله للعبد هى إرادة الخير له، وزيادة الحسنات له. فأى شيء أفضل من محبة الله تعالى! بل ويفتح باب التوبة أمام مرتكبى الكبائر، فقد وضحت ذلك سورة الفرقان جملة، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ**﴾ [الفرقان: ٦٨] فما عقوبة من يفعل عكس ما فعل عباد الرحمن؟ ما عقوبة من اتخذ مع الله إلهًا آخر، وقتل النفس التى حرم الله، وفعل الزنى؟ يقول جل شأنه: ﴿**...وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا...**﴾ فما جزاؤه بعد التوبة والعمل الصالح؟ ﴿**فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [الفرقان: ٦٨: ٧٠] لكن ما معنى قوله: ﴿**يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾؟ قال بعض المفسرين: يعطيهم بالندم على كل سيئة أساؤوها حسنة.

---

(١) رواه البخارى بنحوه ومسلم (٢٦٣٧) والترمذى وقال: حسن صحيح (٣١٦١) وأحمد فى مسنده (١٠٥٦٣) وذكره الألبانى فى ص.ج رقم (٢٨٣).

**يقول ابن القيم**: وإذا كانت الحسنة لابد أن تكون أمرًا وجوديًّا فالتائب من الذنوب التي عملها قد قارن كل ذنب منها ندمًا عليه، وكف نفسه عنه، وعزم على ترك معاودته، وهذه حسنات بلا ريب، وقد محت التوبة أثر الذنب وخلفه هذا الندم والعزم، وهو حسنة، وهذا هو معنى قول بعض المفسرين: يجعل مكان السيئة التوبة[1].

أما سورة النور فتحدثنا عن ذلك الذي ارتكب حد القذف وعقوبته: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً**﴾ تلك عقوبة حسية ثم ماذا؟ ﴿**وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا**﴾ وتلك عقوبة أخرى معنوية، ثم ماذا؟ ﴿**وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ ثم يفتح الله لهم باب التوبة، فيقول: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النور: ٤، ٥] ولاشك أن قذف المحصنات من الكبائر.

أما سورة مريم فتحدثنا عن أولئك الذين أضاعوا الصلاة، وأخروها عن أوقاتها، سيرًا وراء شهواتهم وأهوائهم، فتقول: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾ وكما ورد أن الغي واد في جهنم شديد الحرارة، بعيد القعر، فيه حيات تلدغ هؤلاء. لكن إذا أحدث المضيع للصلاة المتبع للشهوات توبة خالصة فماذا يكون حاله؟ تأمل ﴿**إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا**﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠].

أما سورة المائدة فتحدثنا عن جزاء أولئك الذين يحاربون الله ورسوله بالسعي في الأرض بالفساد فيقول سبحانه: ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ تلك هي عقوبتهم، عقوبة مركبة، عقوبة حسية، وأخرى معنوية: ١- إما أن يقتلوا، أو يصلبوا، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض، ٢- ولهم في الآخرة فوق عذاب الدنيا عذاب عظيم، ثم يفتح الباب لمن أراد أن يتوب، وينجو بنفسه من هذه الأهوال، وتلك العقوبات: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِم فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [المائدة: ٣٣، ٣٤]. ولاشك أن الحرابة وقطع الطريق من الكبائر.

وسورة آل عمران تحدثنا عن أولئك الذين ارتدوا بعد إيمانهم، وكفروا بعد إسلامهم، قال سبحانه: ﴿**كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ ما هي عقوبتهم؟ ﴿**أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ**﴾

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ص ٣٢١

لكن ماذا لو تاب ورجع إلى الله تعالى؟ ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٦: ٨٩].

وليس ذلك فقط بل إنه سبحانه فتح التوبة أمام الكفرة ممن قالوا: الله ثالث ثلاثة، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣، ٧٤].

بل إنه سبحانه فتح باب التوبة أمام الطغاة المجرمين الذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات، وأحرقوهم في الأخدود. قال تعالى مقسمًا: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ حتى قال سبحانه: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١: ١٠] فالعذاب لهم إذا لم يتوبوا، أما إذا تابوا وآمنوا وأصلحوا غفر لهم وعفا عنهم.

يقول الحسن البصرى معقبًا على هذه الآية: انظر إلى هذا الكرم والجود؛ قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

حتى أهل النفاق الذين هم أخطر حالاً من أهل الشرك، أهل النفاق الذين يخادعون الله وهو خادعهم، أولئك الضالون المكذبون، الذين وعدهم الله شر العقوبات فى الآخرة، ومع ذلك فتح لهم باب التوبة، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦].

### أخى الحبيب:

ولو تتبعنا سور القرآن ومواقفه مع التوبة والتائبين لطال بنا المقام، لكن نكتفى بهذا القدر، على أن نعود من القرآن الكريم إلى سنة النبى الكريم لنقتطف من بستانها أزهارًا نكوّن منها باقة عبقة تهب منها عبيرًا فواحًا، لنضعها على قبر سيد الأنبياء محمد ﷺ، فإلى هناك.

## • التوبة فى السنة النبوية المطهرة •

### أخى الحبيب:

وإذا ما أردنا أن نقف على ما جاءت به السنة النبوية المطهرة فى شأن التوبة نجدها قد أفاضت فى هذا الموضوع، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «لله أفرح بتوبة

**عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدى وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»**(١).

لقد ضرب الرسول الأعظم ﷺ مثلاً لكون الله تبارك وتعالى راضيًا عن عبده التائب، بذلك الرجل الذى خرج إلى الصحراء مسافرًا، ومعه دابته وعليها طعامه وشرابه، وإذ بالدابة تنفلت منه وتذهب وسط الصحراء الموحشة، فماذا يفعل ساعتها وهو فى هذا المكان الخطير الذى لا أنيس به ولا جليس، لقد ظل يبحث حتى تعب، فاستسلم وجلس ينتظر مصيره من الموت والهلاك المحقق، وإذ بالدابة تأتى إليه، فيأخذ بخطامها ويسعد برؤيتها، ومن شدة فرحه يقول: هو يريد أن يشكر ربه لكنه من الدهشة التى سيطرت عليه يقول: «اللهم أنت عبدى وأنا ربك».

٢- وعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«إنَّ الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيئ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيئ الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»**(٢) إنه سبحانه يوسع جوده وفضله على العصاة بالليل ليلهموا التوبة بالنهار، وبالنهار ليلهموا التوبة بالليل.

ثم هيا لنقتطف الزهرة الثالثة من بستان سنة الحبيب المصطفى ﷺ والتى يقول فيها: **«إن عبداً أصاب ذنبًا، فقال: يا رب إنى أذنبت ذنبًا فاغفره لى، فقال له ربه: علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب، ويأخذ به، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنبًا آخر فقال: يا رب، إنى أذنبت ذنبًا فاغفره له، فقال ربه: علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنبًا آخر، وربما قال: ثم أذنب ذنبًا آخر، فقال: يا رب، إنى أذنبت ذنبًا آخر فاغفره لى، قال ربه: علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب، ويأخذ به، فقال ربه: غفرت لعبدى فليعمل ما شاء»**(٣) الله أكبر... ما هذه الرحمة العظيمة؟! وما هذا الخير العميم من رب جواد كريم، يغفر للمذنبين، ويستر العاصين، ويقبل التائبين؟!.

من ذا الذى تاب فما قبله، ومن ذا الذى استغفره فما غفر له؟ ومن ذا الذى دعاه فما أجابه؟!

٤- وتلكم زهرة أخرى من رياض السنة يقطفها لنا الصحابى الجليل سيدنا عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما يقول النبى ﷺ فيها: **«قالت قريش للنبى ﷺ ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا**

---

(١) رواه البخارى ومسلم (٢٦٧٥) وأحمد فى مسنده مختصراً (١٠٤٤٦) وابن ماجه (٤٢٤٩).

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٩) وأحمد فى مسنده (١٩٤٢١).

(٣) رواه البخارى فى التوحيد ١٧٨/٩ ومسلم (٢٧٥٨) وأحمد فى مسنده (٩٢٢٨) جـ٩/١٥٣.

**ذهبًا، فإن أصبح ذهبًا اتبعناك، فدعا ربه، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: إن ربك يقرئك السلام، ويقول لك: إن شئت أُصبحُ لهم الصفا ذهبًا، فمن كفر منهم عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. قال: بل باب التوبة والرحمة»**(١) صلاة وسلامًا عليك يا رسول الله، لقد اخترت ما فيه الخير كل الخير لأمتك، آثرت أن ترمى بالكذب وبالسحر والكهانة، وتعم رحمة ربك على أمتك أجمع، آثرت باب التوبة على تصديق نفسك أمام هؤلاء الطغاة، الذين لو تحول لهم الصفا ذهبًا لقالوا: ﴿**إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ**﴾ [الحجر: ١٥].

٥- وهذه هى الزهرة الخامسة من بستان الحبيب المصطفى والتى يقطفها لنا سيدنا عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما يقول فيها النبى ﷺ: «**إنَّ الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»(٢) فهو سبحانه يقبل توبة المذنب المكلف ذكرًا كان أو أنثى ما لم تصل روحه إلى حلقومه، فباب التوبة مفتوح ما لم تطلع الشمس من مغربها.

٦- وهذه زهرة أخرى يقطفها لنا رجل من أصحاب النبى ﷺ يسمى شطب الممدود، وقد جاء إلى النبى ﷺ لكى يستفتيه فى أمر رجل قد ارتكب جميع الخطايا والذنوب، لدرجة أنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وقد ارتكبها، فهل له من توبة؟ فهيا لنقرأ الحديث كما ذكره المنذرى فى الترغيب:

عن أبى طويل شطب الممدود أنه أتى النبى ﷺ فقال: «**أرأيت من عمل الذنوب كلها، ولم يترك منها شيئًا، وهو فى ذلك لم يترك حَاجَةً ولا داجة إلا أتاها، فهل لذلك من توبة؟ قال: فهل أسلمت؟ قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. قال: تفعل الخيرات، وتترك السيئات، فيجعلهن الله لك خيرات كلهن. قال: وغدراتى وفجراتى؟ قال: نعم. قال: الله أكبر، فما زال يكبر حتى توارى**»(٣).

٧- وهذه آخر زهرة نقتطفها من بستان الحبيب المصطفى، وهى أكبر زهرة فى تلك الزهرات العاطرات، يقطفها لنا سيدنا أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على**

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده (٢١٦٦) بإسناد صححه أحمد شاكر ٢/ ٥٥١ وذكره ابن كثير فى التفسير ٣/ ٢٨٠ وفى التاريخ ٣/ ٥٢ ورواه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى وقال المنذرى فى الترغيب رواه الطبرانى ورواته رواة الصحيح.

(٢) رواه ابن ماجه والترمذى، وقال: حديث حسن ورواه أحمد فى مسنده (٦٤٠٨).

(٣) رواه البزار والطبرانى واللفظ له، وإسناده جيد قوى قال المنذرى فى الترغيب ٤/ ١١٢ ط دار الفكر وقد ذكر هذا الحديث ابن عبد البر فى الاستيعاب ٢/ ٧٠٨ وابن الأثير فى أسد الغابة ٢/ ٤٢٩ وابن أبى عاصم فى الآحاد والمثانى الحديث ٥/ ٢٧١٨.

**راهب، فأتاه، فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمل به المائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم. ومن يحول بينه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصَّفَ الطريق فأتاه ملك الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب، إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك فى صورة آدمى، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد، فقبضته ملائكة الرحمة».**

**وفى رواية:** «فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر، فجعل من أهلها».

**وفى رواية:** «فأوحى إلى هذه أن تباعدى، وإلى هذه أن تقربى، وقال: قيسوا بينهما».

**وفى رواية:** «أنه لما مات نأى بصدره نحوها»(١).

ولنا مع هذه الزهرة وقفات:

● **الوقفة الأولى:** مع جريمته، إنها من أكبر الكبائر، وشر الموبقات، **إنها جريمة** القتل، وخصوصًا إذا كان القتل عمدًا، قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٩٣].

ولعظم هذه المعصية اختلف العلماء والفقهاء هل للقاتل من توبة؟ ولقد ذكرنا ذلك فى وصية: «**اجتنبوا السبع الموبقات: الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس...**»(٢) **فراجع ذلك.**

● **الوقفة الثانية:** سؤاله عن أعلم أهل الأرض، إنه لما قتل هذه النفوس على وجه العدوان، هبت عليه نفحات الوصول، وحانت ساعة الإنابة والقبول، سأل عن أعلم أهل الأرض، قال تعالى: ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل: ٤٣]. وأهل الذكر هم أهل العلم، هم العلماء المتخصصون، وفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، فيجب على المستفتى إذا أراد السؤال عن فتوى أن يسأل عالمًا متخصصًا.

● **الوقفة الثالثة:** أنه لما سأل عن أعلم أهل الأرض، دلوه على راهب أى عابد من عُبَّاد بنى إسرائيل، ولم يكن هذا العابد عالمًا ولا فقيهًا، بدليل أنه أوقعه فى ميدان القنوط، فقتله.

---

(١) رواه البخارى ومسلم (٢٧٦٦) وابن ماجه (٢٦٢٢) وأحمد فى مسنده (٩٧ - ١١).

(٢) راجع كتاب «اجتنبوا السبع الموبقات» للمؤلف - ط. التوفيقية.

**قال الإمام القرطبى**[١]: وهذا من الراهب دليل على قلة علمه، وعدم فطنته حيث لم يصب وجه الفتيا، ولا سلك طريق التحرز فى نفسه مما صير القتل له عادة معتادة، فقد صار مثل الأسد الذى لا يبالى بمن يفترسه، فكان حقه ألا يشافهه بمنع التوبة مداراة لدفع القتل عن نفسه كما يدارى الأسد الضارى، لكنه أعان على نفسه، فإنه لما آيسه من التوبة قتله بحكم سبعيته، ويأسه من رحمة الله وتوبته عليه.

إذا يفهم من كلام القرطبى أن الرجل العابد راح ضحية لسانه، لأنه أخطأ مرتين:

**المرة الأولى**: حين سأله عن التوبة فآيسه، فقد أفتى فيما ليس من حقه، فقبول التوبة وعدمه ليس من اختصاص أحد من البشر إلا نبى أو رسول أطلعه الله على ذلك، ولذلك ورد من حديث جندب بن عبد الله ﷺ كما فى البخارى وغيره: «**قال رجل لأخيه: والله لا يغفر الله لك، فقال تبارك وتعالى: من ذا الذى يتألى علىَّ، قد غفرت له وأحبطت عملك**» وفى رواية الطبرانى لهذا الحديث: قال الله لنبى هذا الزمان: «**مُره فليستأنف العمل**»[٢]. مجرد كلمة «**والله لا يغفر الله لك**» هل هو يملك خزائن رحمة الله؟ أم هو الذى يغفر الذنوب؟.

وقد ورد فى مسند الإمام أحمد من حديث أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال: «**كان فى بنى إسرائيل رجلان متواخيان: كان أحدهما مجد، والآخر مقصر، فمازال المجد يُقرِّع المقصر، تب إلى الله، فإنه لا يحل لك ذلك، فقابله يومًا فوعظه، فأكثر عليه، فقال له المقصر: خلنى وربى، أبعثك الله علىَّ رقيبًا، أم علىَّ حسيبًا، فقال له: والله لا يغفر الله لك، فقبضهما الله تعالى، ثم قال للمجد: أكنت على ما فى يدى قادرًا أم به عالمًا؟ خذوه إلى النار بعدلى، ثم قال للمقصر: خذوه إلى الجنة برحمتى**»[٣].

فهذا باب ما يمكن أن يفتى فيه عالم، لكن الجاهل هو الذى يتجرأ على هذا الباب، فدل على جهل الراهب.

**الخطأ الثانى**: أن هذا الراهب كان يمكنه المداراة، فيقول له: أمهلنى إلى الغد حتى أنظر فى فتواك، أو يقول له: لا أدرى، فدل على أنه لم يكن فقيه النفس، وفقه النفس هو ما يسمى فى العصر الحاضر بفقه الواقع، ويقصد به، مراعاة حال المستفتى، وتنزيل الفتوى على حال المستفتى، ووضع الحكمة فى موضعها. وفقه النفس لازم للمفتى، فهذا الراهب ليس فقيهًا[٤].

---

(١) دليل الفالحين ١/ ٩٧. (٢) رواه البخارى.

(٣) رواه أحمد فى مسنده بإسناد صحيح (٨٢٧٥) جـ٧.

(٤) بتصرف من شريط بعنوان أيها العاصى أقبل لأستاذنا وشيخنا الشيخ أبى إسحق الحوينى.

**الوقفة الرابعة:** فى قوله: «**دلونى على أعلم أهل الأرض» فى الثانية: فيه دليل على** استحباب أن يسأل العامى مفتيًا آخر، إذا حاك فى نفسه شىء من فتوى[1] العالم الأول شريطة أن يقصد الفهم، ويصل إلى الصواب فيما يسأل عنه.

**الوقفة الخامسة:** فى قوله «فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم».

**قال القرطبى:** فيه دليل على أن الحاكم إذا تعارضت الأقوال عنده، وتعذرت الشهادة يمكنه الاستدلال بالقرائن على ترجيح بعض الدعاوى نفذ الحكم بذلك، كما فعله سليمان عليه السلام حيث قال: «**ائتونى بالسكين أشقه بينكما**»[2].

وأما الأموال، فإن كان قد تناول مال إنسان بغصب أو سرقة، أو قطع طريق، أو خيانة فعليه أن يرده، لكيلا يطول فى القيامة حسابه، ويعظم ويله ونحيبه، وينقطع ظهره، وتنكس رأسه، ويشتد حياؤه، وتنقطع حجته، وتضاعف سيئاته، وتؤخذ منه حسناته يوم لا ينفع مال ولا بنون.

فإذا تخلص من مظالم العباد، وتفرغ لعبادة الله تعالى، فعليه أن يسلك بعد ذلك طريق الورع، لأن به يتخلص العبد فى الدنيا والآخرة من العباد، ومن عذاب الله تعالى، وبه يخفف عنه الحساب يوم القيامة.

يقول **إبراهيم بن أدهم:** الورع ورعان: ورع فرض، وورع حذر.

فورع الفرض: الكف عن معاصى الله، وورع الحذر: الكف عن الشبهات فى محارم الله.

وقال **يحيى بن معاذ الرازى:** الورع على وجهين: ورع فى الظاهر، وورع فى الباطن[3]. فورع الظاهر: أن لا تتحرك إلا لله، وورع الباطن هو ألا يدخل قلبك سوى الله[4].

## • علامات التوبة المقبولة •

### أخى التائب:

إن من علامات قبول التوبة: أن تنقطع عن مجالسة أصحاب السوء، وتنقطع عن الذنوب ولذلك قيل لبعض الحكماء: هل للتائب من علامات يعرف أنه قبلت توبته؟ قال: نعم علامته أربعة أشياء:

**أولها:** أن ينقطع عن أصحاب السوء، ويريهم هيبة من نفسه، ويخالط الصالحين.

**الثانى:** أن يكون منقطعًا عن الذنوب، ومقبلاً على الطاعات.

---

(١) بتصرف من شريط بعنوان أيها العاصى أقبل لأستاذنا وشيخنا الشيخ أبى إسحق الحوينى.

(٢) دليل الفالحين ١/ ٩٩. (٣)، (٤) الغنية ١/ ١٨٩.

**الثالث:** أن يذهب عنه فرح الدنيا كلها من قلبه، ويرى حزن الآخرة كلها دائمًا فى قلبه.

**الرابع:** أن يرى نفسه فارغًا عما ضمن الله من الرزق، مشتغلاً بما أمره الله به من الطاعات، ومباشرة الأسباب(١).

فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**لما أُهبط إبليس عليه اللعنة إلى الأرض، قال: بعزتك لا أفارق ابن آدم حتى تفارق روحه جسده، فقال الله تعالى: وعزتى وعظمتى، لا أحجب باب التوبة عن عبدى حتى يغرغر بها**»(٢).

وقيل: تعرف توبة التائب فى أربعة أشياء:

**أحدها:** أن يملك لسانه من الفضول والغيبة والنميمة والكذب.

**الثانى:** أن لا يرى فى قلبه حسدًا ولا عداوة لأحد.

**الثالث:** أن يفارق إخوان السوء.

**الرابع:** أن يكون مستعدًا للموت نادمًا مستغفرًا لما سلف من ذنوبه، مجتهدًا فى طاعة ربه(٣) دخل بعض الصالحين على عبد الملك بن مروان، فقال له: عظنى، فقال: هل أنت على استعداد لحلول الموت إن أتاك؟ قال: لا. قال: فهل أنت مجمع على التحول عن هذه الحالة إلى حالة ترضاها؟ قال: لا. قال: فهل بعد الموت دارًا فيها مستعتب؟ قال: لا. قال: فهل تأمن الموت أن يأتيك على غرة؟ قال: لا. قال: ما رأيت مثل هذه الخصال يرضى بها عاقل(٤)!.

فعلى المسلم أن يتوب إلى الله تعالى حين يصبح، وحين يمسى.

يقول طلق بن حبيب -رحمه الله-: «إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين»(٥).

ويقول عبد الله بن سلام رضي الله عنه: «لا أحدثكم إلا عن نبى مرسل، أو كتاب منزل، إن العبد إذا عمل ذنبًا، ثم ندم عليه طرفة عين، سقط عنه أسرع من طرفة عين»(٦).

ويروى أن رجلاً سأل ابن مسعود عن ذنب ألمَّ به هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود، ثم التفت إليه، فرأى عينيه تذرفان، فقال له: إنَّ للجنة ثمانية أبواب، كلها تفتح وتغلق، إلا باب التوبة، فإن عليه ملكًا موكلاً به لا يغلق، فاعمل ولا تيأس(٧).

---

(١) تنبيه الغافلين ص٧٨ والغنية ١/ ١٨٩.

(٢) رواه أحمد ٣/ ٢٩، ٤١ وأبو يعلى ٢/ ٤٥٨ بإسنادين أحدهما صحيح قاله الهيثمى فى المجمع ١/ ٢٠٧ وقال العراقى فى تخريج الإحياء أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه.

(٣) الغنية ١/ ١٨٨ وتنبيه الغافلين ص٧٨.

(٤) الغنية ١/ ١٧٣، ١٧٤.

(٥): (٧) إحياء علوم الدين للغزالى ٤/ ١٤، ١٥.

ومن علامة قبول التوبة أيضًا أن يظل قلبه خائفًا من الله تعالى، غير آمن لمكره سبحانه وتعالى طرفة عين حتى يسمع قول ملائكة الرحمة الذين جاءوا لقبض روحه: ﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] وأن يحصل له ذل وانكسار، وخضوع، واستسلام لله رب العالمين، فما أحلى قوله حينئذ: «أسألك بعزك وذلى إلا رحمتنى، أسألك بقوتك وضعفى، وبغناك عنى وفقرى إليك هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواى كثير، وليس لى سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت له رقبته، ورغم له أنفه، وفاضت له عيناه، وذلَّ لك قلبه»

فبادر إلى التوبة فى وقتها فالمرء مرهون بما قد جناه
وانتهز الفرصة إن أمكنت ما فاز بالكرم سوى من جناه

## • شروط التوبة المقبولة •

**أخى التائب:**

**إن الذنب الذى ارتكبته على وجهين:**

١- ذنب فيما بينك وبين الله تعالى، ٢- وذنب فيما بينك وبين العباد.

فالأول وهو: الذنب الذى بينك وبين الله، كيف تتوب منه؟.

**يقول ابن القيم فى المدارج.**

شرائط التوبة ثلاثة الندم والإقلاع والاعتذار.

**فحقيقة التوبة**: هى الندم على ما سلف منه فى الماضى، والإقلاع عنه فى الحال، والعزم على أن لا يعاوده فى المستقبل

**فأما الندم**. فإن التوبة لا تتحقق إلا به، إذ من لم يندم على القبيح، فذلك دليل على رضاه به، وإصراره عليه، وفى المسند «**الندم توبة**»(١)

**وأما الإقلاع**: فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب. **وأما الاعتذار**: فالصحيح أنه من تمام التوبة والاعتراف بالذنب والمراد به إظهار الضعف والمسكنة، وغلبة العدو، وقوة سلطان النفس، فيكون فى قلبه ولسانه «اللهم إن هذا الذنب منى غير مستهين بحقك، ولا جهلا بك، ولا إنكارًا لاطلاعك، ولا استهانة بوعيدك، وإنما كان من غلبة الهوى، وضعف قوتى عن مقاومة شهوتى، وطمعًا فى مغفرتك، واتكالاً على عفوك، وحسن ظن بك، ورجاء لكرمك، وطمعا فى سعة حلمك ورحمتك، وغرنى بك الغرور، والنفس الأمارة بالسوء،

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١٢ ٤) وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر ورواه البخارى فى تاريخه، وابن ماجه (٤٢٥٢) ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع رقم (٦٦٧٨)

وسترك المرخى علىّ، وأعاننى جهلى، ولا سبيل إلى الاعتصام لى إلا بك، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك[١].

**كمال التوبة: أن يقضى الحقوق:**

**والحقوق ضربان:** حق الله تعالى، وحق العباد.

فالأول مبنى على المسامحة، والآخر مبنى على المشاحنة.

**فحق الله تعالى:** الصلاة، فإن تذكر أنه ترك صلاة فعليه أن يصليها، فإن كان لا يعلم عدد الصلوات التى تركها، فعليه أن يصلى حتى يغلب على ظنه أنه صلى وأدى ما عليه منها.

ومن حقوقه تعالى الصيام فعليه أن يعيد ذاكرته، ويفتش فى نفسه إن كان قد فاته صوم يوم لأمر من الأمور، فعليه أن يقضيه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ومن حقوقه سبحانه الزكاة، فيؤدى ما وجب عليه فى الماضى والحاضر.

وأما المعاصى الأخرى فعليه أن يحاسب نفسه، ويرجع إلى ربه، فإن كان قد أكثر فى الماضى من سماع الأغانى، فعليه أن يبدله بسماع القرآن الكريم والذكر الحكيم، ومجالس اللهو بمجالس العلم، وبشرب الخمر التصدق بشراب حلال، ويكفر عن النظر إلى الأجنبيات، بالنظر فى مخلوقات الله سبحانه وتعالى من شجر وسماء وماء وبحار وأنهار، وغير ذلك من المعاصى.

**أما إن كان الذنب يتعلق بالخلق فشروط التوبة أربعة:**

١- الندم والتحسر على الذنب.

٢- الإقلاع عن الذنب.

٣- العزم على ألا يعود.

٤- رد المظالم:

فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم، ويقابل غيبتهم بالذب عن أعراضهم، وإن كانت سرقة فعليه أن يؤدى الحق إلى صاحبه، ثم يستسمحه، أو يستحل الذنب أو يطلب منه العفو والصفح، يقول النبى ﷺ: «**من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض، فليتحلله منه اليوم، من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات**»[٢] والمظلمة فى حق العباد لا تخلو: إما أن تكون فى النفوس أو فى الأموال، أو الأعراض، أو القلوب، فإن كانت فى النفس بأن جرى على يده قتل خطأ، فتوبته بتسليم الدية إلى مستحقيها، فهى فى عهدته حتى تصل الدية إليهم، إما من العاقلة، أو الإمام، فإن لم تكن له عاقلة، ولا وجد

(١) مدارج السالكين ١/ ٢٠٢، ٢٠٣ بتصرف.

(٢) رواه البخارى.

فى بيت المال شىء سقطت، فإن كان هو قادرًا على أدائها ولا عاقلة له، فليس له غير عتق رقبة، فإن تطوع بها كان أولى.

## • موعظة •

يا هذا، يا من سوَّف بالمتاب حتى شاب، يا من ضيع فى الغفلة أيام الشباب، يا مطرودًا بذنوبه عن الباب، إذا كنت فى الشباب غافلاً، وفى المشيب مسوفًا، متى تقف بالباب؟ كم عوملت على الوفاء؟ وما هكذا فعل الأحباب!.

الظاهر منك عامر، والباطن -ويحك- خراب؟ كم من معصية ارتكبت؟ وكم من مخالفة فعلت وكم سيئة عملت! حتى ولى العمر فى الخطايا، أتراك تعود إلى الصواب؟! كيف والعمر ولى فى الغفلة، وفى طلب الأسباب؟ إذا أنذرك المشيب بالرِّحلة، ولم تقدم الزاد، فماذا يكون الجواب[1].

**قال الفضيل بن عياض -رحمه الله-[2]:**

ما من ليلة اختلط ظلامها، وأرخى الليل سربال سترها، إلا نادى الجليل جل جلاله: من أعظم منى جودًا والخلائق لى عاصون، وأنا لهم مراقب، أكلؤهم فى مضاجعهم، كأنهم لم يعصونى، وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا، أجود بالفضل على العاصى، وأتفضل على المسيئ، من ذا الذى دعانى فلم ألبه؟ ومن ذا الذى أعطانى فلم أعطه؟ أم من ذا الذى أناخ ببابى فنحيته؟ أنا الفضل، ومنى الفضل، أنا الجواد ومنى الجود، أنا الكريم ومنى الكرم، ومن كرمى أن أغفر للعاصين بعد المعاصى، ومن كرمى أن أعطى العبد ما سألنى، وأعطيه ما لم يسألنى، ومن كرمى أن أعطى التائب كأنه لم يعصنى، فأين عنى يهرب الخلائق؟ وأين عن بابى يتنحى العاصون؟.

فيا رب:

**يا رب إن عظمت ذنوبى كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم**
**إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فمن الذى يرجو ويدعو المجرم؟!**
**ما لى إليك وسيلة إلا الرجا ... وجميل عفوك أنى مسلم**

فيا غافلاً فى بطالته، يا من لا يفيق من سكرته، أين ندمك على ذنوبك؟ أين حسرتك على عيوبك؟ إلى متى تؤذى بالذنب نفسك، وتضيع يومًا تضييعك لأمسك، لا مع الصادقين لك قدم، ولا مع التائبين لك ندم، هلاً بسطت فى الدجى يدًا سائلة، وأجريت فى السحر دموعًا سائلة.

(١) بحر الدموع لابن الجوزى ص١٢٢.
(٢) حلية الأولياء ٨/ ٩٢، ٩٣.

إلهى:

أسـأت ولم أحسـن وجئـتك تائبًـا ... وأني لعبـد عن مـواليـه مهـرب؟

يؤمـل غـفــرانًا فــإن خـاب ظنـه ... فما أحد منه على الأرض أخيب؟!

**أخى الحبيب:**

اجتهـد فى تقوية يقينك قـبل خسران موازينك، وقم بتـضرعك وخيفتك قـبل نشر دواوينك، الحـذر الحذر من المعـاصى، فكم سلبـت من نعم، وكم جلبت مـن نقم، وكم خربت من ديار.

يا صاحـب الذنب لا تأمن عواقـبه ... عواقب الذنب تخشى وهى تنتظر

فكل نفس ستجـزى بالذى كسبت ... ولـيس لـلخـلـق من ديانهـم وزر

كان فى بنى إسرائيل شاب عبد الله عشرين سنة، ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر فى المرآة فرأى الشيب فى لحيته، فساءه ذلك، فقـال: إلهى، أطعتك عشرين سنة، ثم عصيتك عشريـن، فإذا رجعت إليك فـهل تقبلنى؟ فسـمع قائلاً يقول، ولا يرى شـخصه: أحبـبتنا فأحببناك، وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قبلناك.

فينبغى للعاقل أن يعتبر بـكل هذا، ويعلم أن رحمة الله لا تضيق عن ذنوب عباده إذا ما رجعوا إليه، إذا ما تابوا وأنابوا، فلسان حال المولى عز وجل كأنه يقول لعبيده: «أنا الذى أغفـر الذنوب، وأسـتر العـيوب، وأغـيث المكروب، وأرحم البـاكى الندوب، وأنـا علام الغيوب، يا عبـدى قف على بابى، أكتبك من أحبابى، تمتع فى الأسـحار بخطابى أجعلك من طلابى، لذ بحضـرة جنابى أسقك من لذيذ شرابى، اهجر الأغيـار، وناد فى الأسحار بلسان الذلة والانكسار.

بادر بالتوبة قبل أن يدركك الموت:

رب هب لـى المتـاب حتـى أتوب ... واعف عنـى فقـد عـرتني الـذنوب

وعـلى ديـن أحــمــد فـأمـتـنى ... وأحى قلـبى فى يوم تحيا الـقلوب

يا مـداوى الأسـقــام داو سـقـمى ... يـا إلهـى، إنى عـليـك حـسـيـب

واشف قـلبى من الذى قــد عـلاه ... إن سـقمـى قد حـار فـيـه الطبـيب

يا مـداوى العـبـاد هـب لى بقـرب ... حــاش أن أرجـوك ثـم أخـيـب

وأقل عــثرتى وجــد لى بـقـرب ... إن دائـى بالـقــرب مـنـك يـطيـب

تعـسـت ليـلة عـصيـتـك فـيـهـا ... قـد انقـضت وإثـمهـا لـى نصيب

مـا احتـيالـى وقد عـصيت جهـلاً ... كـيف لا أسـتحى وأنـت الرقـيب

اللهم وفـقنا لشكرك وذكـرك، اللهم ثبـت محبـتك فى قلوبنـا، وارزقنا الاستـعداد للقائك، اللهـم إنك خلقت الجنة وجعلتها ولـيمة لأوليائك، وآيست الكفـار منها وخلقت

ملائكتك غير محتاجين إليها، وأنت مستغن عنها فإن لم تعطها لنا فلمن تكون، **اللهم أدخلنا الجنة بسلام، وأعتقنا من لفحات النيران، وأعنا على الخيرات يا كريم يا منان، واغفر لنا ولجميع المسلمين يا رب العالمين.**

## الوصية رقم (٥٦)
## أنقذوا أنفسكم من النار

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٤]. دعا رسول الله ﷺ قريشًا، فاجتمعوا، فعمَّ وخص، فقال: **«يا بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة، أنقذى نفسك من النار، فإنى لا أملك لكم من الله شيئًا»**(١).

**صدق رسول الله ﷺ**

### أخى الحبيب:

وبعد ما قرأت هذه الوصية لابد وأن تكون قد فهمت قدرها، لأن حبيبنا محمدًا ﷺ يوصى فيها أقرب الناس إليه لكى ينقذ نفسه من النار، يوصى أعمامه وأقاربه وذوى رحمه، ثم يوصى فلذة كبده فاطمة ابنته، بل ويوصينا جميعًا أن ننقذ أنفسنا من النار، ولا سبيل إلى الهروب من النار وعذابها إلا باتباع سبيله، وباتباع سنته، فهو الذى يخاف على أمته، ولذلك يقول نبى الرحمة: **«إنما مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد نارًا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيها، فأنا آخذ بحجزكم، وأنتم تقتحمون فيها»**(٢).

قال القسطلانى:

أى مثل دعائى الناس إلى الإسلام المنقذ لهم من النار، وهذه الدواب كالبرغش، والجندب والفراشة تتهافت فى السراج طالبة ضوء النهار، فإذا رأت السراج بالليل ظنت أنها فى بيت مظلم، وأن السراج كوة فى البيت المظلم فتتهافت فى الموضع المضىء، ولا تزال تطلب الضوء لتنجو من الظلام حتى تخترق.

**وقال الإمام الغزالى:** ولعلك تظن أنَّ هذا -الفراش- بنقصانها وجهلها -أى تقع فى النار- فاعلم أن جهل الإنسان أضر وأعظم من جهلها، فإن حالة الإنسان فى الانكباب على الشهوات حتى ينغمس فيها، ويهلك، ويبقى فى النار أبد الآباد أكبر من جهل الفراش،

---

(١) رواه مسلم واللفظ له والبخارى والترمذى وأحمد فى مسنده.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول: «**إنكم تتهافتون فى النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم**»(١).

والرسول ﷺ حين يوصى أقرب الناس إليه بهذه الوصية، فإنما يدل ذلك على أنه لا مجاملة يوم القيامة فى دخول الجنة، أو فى دخول النار، فكل على حسب عمله، لا على حسب نسبه، وحسبه، ولذلك قال سبحانه: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠١: ١٠٤].

يقول الإمام الأصمعى -رحمه الله-: دخلت الكعبة فى منتصف الليل ألتمس هدأة أطوف فيها حول بيت الله فوجدت شابًّا متعلقًا بأستار الكعبة يتضرع إلى ربه ويناجيه، ويقول فى ذلة وابتهال:

**ألا أيها المقصود فى كل حاجة ... شكوت إليك الضر فارحم شكايتى**
**ألا يا رجائى أن تكشف كربتى ... فهب لى ذنوبى كلها واقض حاجتى**
**أتيت بأعمال قباح رديئة ... وما فى الورى عبد جنى كجنايتى**
**أتحرقنى بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائى؟ أين مخافتى؟!**

ومازال هذا شأنه يتضرع ويبكى حتى خرَّ مغشيًا عليه، فدنوت منه لأخفف عنه وطأة الحزن، فأخذت رأسه فوضعتها فى حجرى، وتأملت فى وجهه فإذا هو: «على زين العابدين» فلما أحس قال: من هذا الذى يتهجم علينا فى خلوتنا بحبيب قلوبنا؟ فقلت له: أخوك الأصمعى، وأخذت أروح عن نفسه ما يجد من الخوف، فقلت: يا سيدى، ما هذا البكاء وما هذا الحزن وأنت من بيت النبوة؟ ومن الذين قال الله فيهم: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٣٣] فاشتد بكاؤه، وقال: هيهات هيهات يا أصمعى، إن الله خلق الجنة وأعدها لمن أطاعه، ولو كان عبدًا حبشيًّا، وخلق النار لمن عصاه ولو كان حرًّا قرشيًّا، أو ما قرأت قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠١].

فرسولنا محمد ﷺ فى هذه الوصية ينذر عشيرته الأقربين، وأمته جميعًا بأن يعملوا جهدهم فى طاعة الله حتى ينجوا أنفسهم من النار.

النار.. تلك التى أعدَّها الله للمذنبين، تلك التى أعدها الله للعاصين ويكون ذلك يوم القيامة، يومها: «**يؤتى بجهنم ولها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»(٢).

---

(١) جواهر البخارى ص١٥٦.

(٢) رواه مسلم والترمذى.

يؤتى بهـا وهى تتلظى، وهـى تفور، وهى تكاد تمـيَّز من الغـيظ، وتقول لربـها إذا سألها: ﴿ **هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴾ [ق: ٣٠].

لا تظن أيها المـسلم أنها مثل هذه النـار التى نوقدها، ولكن هذه النار الـتى نوقدها جزء يسـير من سبـعين جزءًا، كمـا أخبرنا نبى الرحـمة ﷺ حين قال: «**ناركم هذه التى توقدون جـزء من سبعـين جزءًا من نار جهنـم، قيل: يا رسول الله، إن كـانت لكافيـة؟ قال: فإنها فَضُلت عليها بتسعة وستين جزءًا كلهن مثل حرها**»[(١)].

نار جهنم أوقـد عليها مـولانا ألف عام حتى احـمرت، وألف عام حتـى ابيضت، وألف عام حتى اسودت فهى الآن سوداء مظلمة والعياذ بالله.

فأنقذ نفسك من حرها يا من نسيت مولاك وغفلت عن ذكره، واشتغلت بالدنيا.

أنقذ نفسك من سمومها يا من ضيعت عمرك فى سماع المسلسلات والأفلام.

أنقذ نفسك من شرها يا من نسيت حقوق مولاك، وحقوق عباده.

فلو علمت مـا فيها مـن عذاب ما غفلت عـيناك عن مولاك طرفـة عين، لو علمت عذابها ما لذَّ لك طعام ولا شراب.

ولكن عليك أن تعلم أن هذه النار التى وعد بها المجـرمون، التى وعد بها الغافلون، التى وعد بها المـنافقون الخائنون. اعلم أنها مـحفوفة بالشهـوات، والملذات بخلاف الجنة يقول أول من يحرك حلق الجنة: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»[(٢)].

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**دعا الله -عز وجل- جبريل عليه السلام فأرسله إلى الجنة، فقال: انـظر إليها، وما أعددت لأهلها فـيها، فرجع إليه، وقـال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلهـا، فحفت بالمكاره، فقال: ارجـع إليها، وانظر إليها، فـرجع وقال: وعزتك لقد خشـيت أن لا يدخلها أحد، ثم أرسله إلى النار، فـقال: انظر إليها، ومـا أعددت لأهلها فيها، فـرجع إليه، فقال: وعزتك لا يدخلها أحـد سمع بها، فحفت بالشهـوات، فقال: عُدْ، وانظر إليها، فرجع وقال: وعزتك وجلالك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها**»[(٣)].

أتدرى أخا الإسلام ما أهون أهل النار عذابًا؟!.

تأمل فى هذا الحديث الذى رواه البخارى وغيره من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «**إنَّ أهون أهل النـار عذابًا يوم الـقيـامة لرجل يـوضع فى أخمـص قدمـيه حجران يغلى منهما دماغه**» وفى رواية: «**له نعلان وشراكان من نار يغلى منهما دماغه، كما يغلى المرجل - ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا وإنه لأهونهم**»[(٤)].

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى ومالك فى الموطأ. (٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) رواه الترمذى وقال: حسن صحيح (٢٥٦٠) ورواه أحمد فى مسنده والنسائى والحاكم.

(٤) رواه البخارى ومسلم والترمذى.

إذا كان ذلك كذلك فما بالك بأشد الناس عذابًا؟!.

لكن ماذا عن طعام أهل النار وشرابهم، وثيابهم؟ أتدرى ماذا يكون؟!.

يكون طعامهم نارًا، وشرابهم نارًا، ولباسهم نارًا.

فهم تارة يـأكلون الزقوم، قال تـعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الواقعة: ٥١، ٥٢] وقد وصف مولانا هذه الشجرة بأوصـاف مرعبة مخيفة، قـال سبحانه: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤: ٦٨] طعامهم الزقوم، والنبى ﷺ يصف لأهل الدنيـا الزقوم كى يحذروا النار فـيقول: «**لو أن قطرة من الزقـوم قطـرت فى دار الدنيـا لأفـسـدت على أهل الـدنيـا معـايشـهم، فـكيف بمن يـكون طعامه؟!**»[1] اللهم أغثـنا من النار، يا قوى يا قهـار. فماذا عن شرابهـم إذا أكلوا الزقوم عطشوا، لأن الزقـوم طعامٍ ذو غصة، كمـا قال مولانا: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢، ١٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذا غـصة أى ذا شوك. ويتذكرون أنهم كـانوا يزيلون الغصص بالماء، فيودون أن يشربوا، فيشربون الحميم الذى يقطع أمعاءهم ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقد يكون شرابهم الصديد، الشـديد النتانة، قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٦، ١٧].

وتارة يشربون ماءً كالمهل يشوى وجوهـهم كما قال سبحانه: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

أما إذا سألت عن ثيـابهم: فهى من القطران: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٩، ٥٠] فالسرابيل أى القمصان من قطران يُطلى به جلودهم حتى يكون ذلك الطلاء كالسرابيل، وخص القطران، لسرعة الاشتعـال فيه مع نتن رائحته، ووحشة لونه، وأما إذا سألـت عن أسرَّتهم، فقد قال الله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]. أى فرشهم من النار ويلتحفون بألحفـة من النار، وقال سبحانه: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾

---

(١) رواه الترمذى وقال: حسن صحيح وابن مـاجه فى الزهد (٤٣٢٥) وصححه الألبانى فى ص.ج رقم ٥١٢٦.

[الزمر: ١٦]. أى أطباق، وفراش، ومهاد، وسرادقات، وإطلاق الظلل عليها تهكمًا، وإلا فهى محرقة، والظلة تقى من النار كما قال تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣٠، ٣١].

## أخا الإسلام:

استجر من النار، كما علمك النبى المختار، فهو الذى قال لنا: **«ما استجار عبد من النار سبع مرات إلا قالت النار: يا رب إن عبدك فلانًا استجار منى فأجره، ولا سأل عبد الجنة سبع مرات، إلا قالت الجنة: يا رب، إنّ عبدك فلانًا سألنى الجنة فأدخله الجنة»**(١).

اطلب الجنة جهدك، واهرب من النار جهدك، فإن الجنة لا ينام طالبها، وإن النار لا ينام هاربها، ارغب فيما رغبك الله فيه، واحذر مما حذرك الله منه.

تخيل الجنة وهى تقول: يا رب، ائتنى بأهلى، وبما وعدتنى فقد كثر غرسى، وحريرى وسندسى، وإستبرقى، وفواكهى، وعسلى، ومائى، وخمرى، وذهبى، وفضتى.

وتخيل صوت جهنم والعياذ بالله: وهى تنادى، وتقول: يا رب، ائتنى بأهلى وبما وعدتنى، فقد كثرت سلاسلى، وأغلالى، وسعيرى، وحميمى وغساقى، وغسلينى، واشتد حرى، فائتنى بما وعدتنى.

تخيلها فى قلبك وهى تقول: هل من مزيد؟

يقول النبى ﷺ فى الحديث الذى رواه عنه خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه: **«لا تزال جهنم يلقى فيها، وتقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة قدمه فيها فينزوى بعضها إلى بعض وتقول: قط قط، وعزتك وكرمك، ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقًا، فيسكنهم فضل الجنة»**(٢).

أيها الغافل عن نفسه! المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال، دع التفكير فيما أنت مرتحل عنه، واصرف الفكر إلى موردك، فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع، إذ قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢] فأنت من الورود على يقين، ومن النجاة فى شك، فاستشعر فى قلبك هول ذلك المورد، فعساك تستعد للنجاة منه وتأمل فى حال الخلائق وقد قاسوا من دواهى القيامة ما قاسوا، فبينما هم فى كربها وأهوالها وقوفًا ينتظرون حقيقة أنبائها، وتشفيع شفعائها، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب، وأظلت عليهم نارًا ذات لهب، وجثت الأمم على الركب، وأيقن المجرمون بالعطب، هناك تسوق الزبانية المجرم إلى العذاب الشديد، وينكسونه فى قعر الجحيم،

(١) رواه أبو يعلى بإسناد على شرط البخارى ومسلم قاله المنذرى فى الترغيب والترهيب.

(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى.

ويقولون له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] فأسكن دارًا يخلد فيها الكافرون، ويوقد فيها السعير؛ شرابهم فيها الحميم، ومستقرهم الجحيم، شدت أقدامهم إلى النواصى، واسودت وجوههم من ظلمة المعاصى.

فانظر يا مسكين، ماذا يكون موردك؟ فتأمل فى أحوالك وأعمالك فكل ميسر لما خلق له، وقيل: يا إلهى:

| | |
|---|---|
| أتيتك راجيًا يا ذا الجلال | ففرج ما ترى من سوء حالى |
| عصيتك سيدى ويلى بجهلى | وعيب الذنب لم يخطر ببالى |
| إلى من يشتكى المملوك إلا | إلى مولاه يا مولى الموالى |
| فويلى ليت أمى لم تلدنى | ولا أعصيك فى ظلم الليالى |
| وها أنذا عُبيدك عبد سوء | ببابك واقف يا ذا الجلال |
| فإن عاقب يا ربى فإنى | محقٌ بالعذاب وبالنكال |
| وإن تعفو فعفوك أرتجيه | ويحسن إن عفوت قبيح حالى |

اللهم أنقذنا من دركاتنا، وأيقظنا من غفلاتنا، وألهمنا رشدنا، وأحسن بكرمك قصدنا، واحشرنا فى زمرة عبادك المتقين، وألحقنا بعبادك الصالحين، واغفر لنا يا ربنا ولجميع المسلمين، يا رب العالمين.

## الوصية رقم (٥٧)
## اسألوا الله الفردوس الأعلى

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ فى الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله، ما بين كل درجتين،كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»**(١).

**صدق رسول الله ﷺ**

من المعلوم أن الجنة درجات لكن النار والعياذ بالله دركات، لكن ما عدد درجات الجنة؟ اجتهد العلماء فى ذلك، فقال بعضهم: إنها على عدد آى القرآن الكريم، وقيل غير ذلك، وقيل: لا يعلم عدد درجاتها إلا من غرس أشجارها، وشق أنهارها.

وفى هذه الوصية يبين الرسول الأكرم ﷺ ويؤكد، أن الله سبحانه وتعالى أعد من درجات الجنة مائة درجة للمجاهدين فى سبيله، ورفع كلمة الحق عالية خفاقة وما بين كل درجة وأخرى كما بين السماء والأرض.

---

(١) رواه البخارىّ وهو فى ص.ج للألبانى برقم (٢١٢٦).

**قال القاضى عياض**: يحتمل أنه على ظاهره، وأن الدرجات هنا المنازل التى بعضها أرفع من بعض فى الظاهر، وهذه صفة منازل الجنة كما جاء فى أهل الغرف أنهم يتراءون كالكوكب الدرى(١).

لكن هناك درجة فى الجنة هى أعلى الدرجات وهى الفردوس الأعلى، وهنا يوصينا الحبيب المصطفى إذا سألنا ربنا أن نسأله الفردوس الأعلى، وعلل ذلك بأن هذه الدرجة هى أوسط الجنة أى أفضلها، وأعلى الجنة، أى أرفعها، وفوقه عرش الرحمن ومنه تتفجر أنهار الجنة الأربعة المذكورة فى قوله تعالى: ﴿**فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى**﴾ [محمد: ١٥] وقيل: إن الفردوس منتزه أهل الجنة، وفى الترمذى: هو ربوة أهل الجنة.

لكن هل هذه الدرجات تختص بالمجاهدين فقط؟.

ففى حديث أبى سعيد فى صحيح مسلم أن النبى ﷺ قال لأبى سعيد رضي الله عنه: «**من رضى بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً، وجبت له الجنة**» فعجب لذلك أبو سعيد، فقال: أعدها علىَّ يا رسول الله، ففعل، ثم قال رسول الله ﷺ: «**وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**» قال: ما هى يا رسول الله؟.

قال: «**الجهاد فى سبيل الله**»(٢).

لكن ماذا عن أوصاف الجنة؟

يقول النبى ﷺ: قال الله عز وجل: «**أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»(٣) ثم تلا: ﴿**فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [السجدة: ١٧].

إنّ الذى يصف لنا الجنة إنما هو خالقها، قد وصفها لنا فى كتابه العزيز، ووصفها لنا حبيبه وخير خلقه سيدنا محمد ﷺ.

قال سبحانه: ﴿**إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا**﴾ [النبأ: ٣١: ٣٦] وقال تعالى: ﴿**فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ**

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووى جـ٧/ ٢٩ دار الفجر.

(٢) رواه مسلم والنسائى.

(٣) رواه البخارى ومسلم.

﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٣: ٤٩] ولو تتبعنا سور القرآن الكريم، وآياته العظيمة لطال بنا المقام، لكن ماذا قال عنها سيد الأنام؟ وهو الذى قد رآها بعينه، يقول: «**إنى رأيت الجنة فتناولت عنقودًا، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، وأُريت النار. فلم أر كاليوم منظرًا قط، ورأيت أكثر أهلها النساء...**»[(١)] لكن أخى الحبيب هيا بنا لنساءل الحبيب المصطفى وقد رآها رأى العين لعله يشفى صدورنا، ويشوقنا إليها، فنعمل ونجتهد حتى ننال رضا الرب جل وعلا، ورضاه يكون بدخول الجنة، فهى منازل السعداء.

فنقول: يا رسول الله، ماذا عن طعام أهل الجنة؟ وإلى أى شىء يتحول هذا الطعام؟ وقد أخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن طعامهم الفاكهة، ولحم الطيور، وغير ذلك حين قال: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠].

وعن جابر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ أهل الجنة يأكلون فيها، ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتمخطون**» قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «**جشاء، ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد، كما تلهمون النفس**»[(٢)].

لكن ماذا يكون بناء الجنة؟ هل هى مبنية من الطوب، أم من الحجارة؟. لا هذه ولا تلك، وإنما تأمل أصحابها، وتأمل بناءها فى الحديث الذى رواه ابن عمر أن رسول الله سئل عن الجنة، فقال: «**من يدخل الجنة حىٌّ فيها ولا يموت، وينعم فيها ولا ييأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه**». قيل: يا رسول الله، ما بناؤها؟ قال: «**لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك، وترابها الزعفران، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت**»[(٣)].

**وقال مجاهد:** أرض الجنة من فضة، وترابها مسك، وأصول شجرها ذهب وفضة، وأغصانها لؤلؤ وزبرجد، والثمر تحت ذلك، فمن أكل قائمًا لم يؤذه، ومن أكل جالسًا لم يؤذه، ومن أكل مضطجعًا لم يؤذه، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ [الإنسان: ١٤] أى قربت ثمرتها حتى ينالها القائم والقاعد، والمضطجع[(٤)].

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال: «والذى أنزل الكتاب على محمد ﷺ، إن أهل الجنة ليزدادون كل يوم جمالاً وحسنًا، كما يزدادون فى الدنيا هرمًا»[(٥)].

**يقول ابن القيم فى كتابه «حادى الأرواح»:**

إذا سألتَ عن أرضها وتربتها فهى المسك والزعفران، وإن سألت عن سقفها فهو

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى. (٢) رواه مسلم.

(٣) رواه ابن أبى الدنيا، والطبرانى وحسنه المنذرى فى الترغيب والهيثمى فى المجمع ١٠/٣٩٧.

(٤)، (٥) رواه أبو نعيم فى صفة الجنة (٢٠٧، ٢٦٤) وابن أبى شيبة فى المصنف (١٣/٩٥).

عرش الرحمن وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلؤ والمرجان، وإن سألت عن بنائها فلبنة من فضة ولبنة من ذهب.

وإن سألت عن أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب وفضة لا من الحطب والخشب وإن سألت عن ثمرها فأمثال القلال، ألين من الزبد، وأحلى من العسل. وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكون من رقاق الحُلل، وإن سألت عن أنهارها، فإنها من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى.

وإن سألت عن طعامهم ففاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون.

وإن سألت عن شرابهم فالتسنيم والزنجبيل والكافور.

وإن سألت عن آنيتهم، فآنية الذهب والفضة فى صفاء القوارير.

وإن سألت عن قبابها وخيامها، فالخيمة الواحدة من درة مجوفة طولها ستون ميلاً من تلك الخيام.

وإن سألت عن ارتفاعها فانظر إلى الكوكب الطالع أو الغارب فى الأفق الذى لا يكاد تناله الأبصار.

وإن سألت عن لباس أهلها فهو الحرير والذهب.

وإن سألت عن فرشها، فبطائنها من إستبرق، مفروشة فى أعلى الرتب.

وإن سألت عن وجوههم وحسنهم فعلى صورة القمر.

وإن سألت عن أسنانهم -أى أعمارهم- فأبناء ثلاث وثلاثين على صورة آدم أبى البشر.

وإن سألت عن سماعهم، فغناء أزواجهم من الحور العين، وأعلى منه سماع صوت الملائكة والنبيين، وأعلى منها خطاب رب العالمين.

وإن سألت عن غلمانهم فولدان مخلدون، كأنهم لؤلؤ مكنون.

وأفضل من ذلك رؤية وجهه الكريم جل وعلا، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأى شىء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»[1].

---

(١) رواه البخارى ومسلم (٢٥٥٨) والترمذى.

وعن صهيب رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إلى الله فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى**»(١).

فمن أراد أن ينال هذه الكرامات، فعليه أن يداوم على خمسة أشياء:

**الأول**: أن يمنع نفسه من جميع المعاصى. قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ**﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

**الثانى**: أن يرضى باليسير من الدنيا، فقد روى فى الخبر: أن ثمن الجنة، ترك الدنيا.

**الثالث**: أن يكون حريصًا على الطاعات، فيتعلق بكل طاعة، لعل تلك الطاعة تكون سببًا للمغفرة، ووجوب الجنة، قال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الزخرف: ٧٢].

**الرابع**: أن يحب الصالحين، وأهل الخير، ويخالطهم ويجالسهم، فقد ورد: يحشر المرء مع من أحب.

**الخامس**: أن يكثر من الدعاء، ويسأل الله أن يرزقه الجنة، ويباعده عن النار، وأن يحسن خاتمته.

وقد ورد أن إبراهيم بن أدهم -رحمه الله- أنه أراد أن يدخل الحمام، فمنعه صاحب الحمام، وقال: لا تدخل إلا بالأجرة، فبكى إبراهيم، وقال: اللهم لا يؤذن لى أن أدخل بيت الشياطين مجانًا، فكيف لى بدخول بيت النبيين والصديقين مجانًا(٢).

**ويقول يحيى بن معاذ -رحمه الله-:**

إلهى خلقت الجنة، وجعلتها وليمة لأوليائك، وآيست الكفار منها، وخلقت ملائكتك غير محتاجين إليها، وأنت مستغن عنها، فإن لم تعطنا الجنة، فلمن تعطها؟.

## أخى الحبيب:

استشعر قلبك الخوف بطول فكرك فى أصحاب جهنم، وفى أحوالهم وتقلباتهم، وحسرتهم، وندامتهم على تفريطهم، واذكر طعامهم وشرابهم، وألوان عذابهم، ثم فكر فيما أعده الله لأوليائه وأصفيائه، فى دار كرامته، من النعيم المقيم، والعيش السليم، الموعود لأهل الجنة، وسق نفسك بسوط الخوف، وقدها بزمام الرجاء، إلى الصراط المستقيم.

فعن حنظلة الأسدى رضي الله عنه قال: لقينى أبو بكر الصديق، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: نكون عند رسول الله يذكرنا

(١) رواه مسلم والترمذى.

(٢) تنبيه الغافلين ص٥٦.

بالجنة والنار، حتى كأنا رأى عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ، عافسنا الأزواج، والأولاد، والضيعات، فنسينا كثيرًا.

قال أبو بكر: فوالله، إنا لنلقى مثل هذا. فانطلقت أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله! فقال رسول الله: وماذاك؟ قلت: يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالجنة والنار، حتى كأنا رأى عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات. نسينا كثيرًا. فقال رسول الله ﷺ: «**والذى نفسى بيده، لو تدومون على ما تكونون عندى، وفى الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم، وفى طرقكم، ولكن يا حنظلة، ساعة، وساعة**» ثلاث مرات[1].

ولله در الإمام ابن القيم حين يقول:

**وطعامهم ما تشتهيه نفوسهم ... ولحوم طير ناعم وسمان**
**وفواكه شتى بحسب مناهم ... يا شبعة كَمُلت لذى الإيمان**
**لحم وخمر والنساء وفواكه ... والطيب مع روح ومع ريحان**
**وصحافهم ذهب تطوف عليهم ... بأكف خُدَّامٍ من الولدان**

ويقول أيضًا..

**يسقون من خمر لذيذ شُرْبها ... بالمسك أوَّله كَمِثْل الثانى**
**من خمرة لذت لشاربها بلا ... غول ولا داء ولاَ نقصان**
**والخمر فىٍ الدنيا وهذا وصفها ... تغتال عقل الشارب السكرانَ**
**وبها من الأدواء ما هى أهْلُهُ ... ويُخاف من عَدَمِ لذى الوجدان**
**فنفى لنا الرحمن أجمعها عن الـ ... خمر التى فى جنة الحيوان**
**وشرابهم من سلسبيل مزجه الـ ... كافور ذاك شراب ذى الاحسان**
**هذا شراب أولى اليمين ولكن الـ ... أبرار شُرْبهم شراب ثانى**
**يدعى بتسنيم سنام شرابهم ... شرب المقرب خيرة الرحمن**
**صفَّى المقرَّبُ سعيه فصفا له ... ذاك الشراب فتلك تصفيتان**

اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، ونعوذ بك من النار ومن كل ما قرب إليها من قول وعمل، اللهم إنا نستغفرك من كل ما زلت به القدم، أو طغى به القلم، يا واسع المغفرة، يا أرحم الراحمين.

---

(١) رواه مسلم والترمذى.

# الوصية رقم (٥٨)
# أحسنوا الظن بالله

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع النبى ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: **«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل»**[(١)].

**صدق رسول الله ﷺ**

هذه الوصيـة العظيمة من أواخر مـا وصى رسولنا ﷺ، فكانت وصيـة مودع وهى وصية مـباركة تجعل المسـلم يظن أن مولاه سيرحـمه، ويعفو عنه، ولأن حـسن الظن بالله تعالى يبعث صـاحبه على فعل الطاعات، وترك المنكرات، فمـا هو الظن؟ الظن فى اللغة: مصدر قولهم ظنَّ يظن ظنًّا، وهى تدل على معنيين:

أحدهما: اليقين، والآخر: الشك.

فمن الأول جاء قوله تعالى: ﴿**قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ**﴾ [البقرة: ٢٤٩] أى يوقنون وأما الظن بمعنى الشك يقال: ظننـت الشىء إذا لم تتيقنه، والدين الظنون: الذى لا يدرى أيقضى أم لا؟.

قال ابن منظور: الظن شك ويقين. إلا أنه ليس بيقين عيان، إنما هو يقين تدبر، فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا علم، وفى التنزيل: ﴿**إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ**﴾ [الحاقة: ٢٠] أى علمت. وعلى هذا فقد ورد الظن فى القرآن الكريم مـجملاً على أوجه: بمعنى اليقين، كقوله تعالى: ﴿**وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ**﴾ [القيامة: ٢٨] وكما فى قـوله تعالى: ﴿**أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ**﴾ [المطففين: ٤]. وكقوله تعالى: ﴿**وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ**﴾ [فصلت: ٤٨].

وقد يأتى بمعنى الـشك والتهمة كقـوله تعالى: ﴿**إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾ [يونس: ٣٦] وكقوله تعالى: ﴿**وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ**﴾ [الفتح: ١٢] وكقوله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ**﴾ [الحج: ١٥] وقد تأتى بمعنى الحسبان كما فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ**﴾ [الانشقاق: ١٤].

وكما فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ [فصلت: ٢٢].

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٧) وأبو داود (٣١١٣) وابن مـاجه (٤١٦٧) وأبو نعيم فى الحليـة ٨/ ١٢١ وأحمد فى مسنده (١٤٠٥٧).

### • أقسام الظن •

وصفوة القول أن الظن لا يخرج عن أمور خمسة:

**الأول**: الظن المحرم، وهو سوء الظن بالله، ويقابله وجوب حسن الظن بالله.

**الثانى**: حرمة سوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة، والمطلوب حسن الظن بهم.

**الثالث**: الظن المباح، وهو ما يعرض فى قلب المسلم فى أخيه بسبب ما يوجب الريبة، وهذا الظن لا يحقَّق.

**الرابع**: الظن المندوب إليه، وهو حسن الظن بالأخ المسلم، وعليه الثواب.

**الخامس**. الظن المأمور به، وهو الظن فيما لم ينص عليه دليل يوصلنا إلى العلم، وقد تعبدنا الله بالاقتصار على الغالب الظنى فيه، كقبول شهادة العدول، وتحرى القبلة، وتقويم المستهلكات ونحو ذلك[(١)]

### • الآيات الواردة فى حسن الظن •

قال تعالى: ﴿وعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨] وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت فى أهل مكة قالوا: يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التى حرم الله، لم يُغفر له، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله إلهًا آخر وقتلنا النفس التى حرم الله؟ فأنزل الله هذه الآية[(٢)]

يقول ثوبان رضي الله عنه: لما نزلت هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: «ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية»[(٣)]

وقال سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه إنها أرجى آية فى كتاب الله.

وقيل: إن أرجى آية فى القرآن هى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء ٤٨].

وقيل: إنَّ أرجى آية فى القرآن هى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء ١١].

---

(١) نضرة النعيم جـ٢/١٥٩٨ (٢) أسباب النزول للواحدى جـ٣١١.

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٢٢٢٦٢) بإسناد جيد.

وقيل: أرجى آية فى القرآن هى قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥].

## • الرسول ﷺ يوصى أمته أن تحسن ظنها بالله جل وعلا •

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **قال رب العزة جلٍ وعلا: «أنا عند ظن عبدى بى، إنْ ظن بى خيراً فله، وإن ظنَّ شراً فله»**(١).

قال المناوى: أى أعامله على حسن ظنه، وأفعل به ما يتوقعه منى، فليحسن رجاءه، أو أنا قادر على أن أعمل به ما ظن أنى أعامله به، فالمراد الحث على تغليب الرجاء على الخوف والظن على بابه، ذكره القاضى(٢) **«إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»** أى إن ظن بى خيراً أفعل به خيراً، وإن ظن بى شراً أفعل به شراً. فالمعاملة تدور مع الظن به سبحانه.

وها هو جل وعلا يقول فى حديث آخر: **«أنا عند ظن عبدى بى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإنْ ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه، وإن تقرب إلىَّ شبراً تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلىَّ ذراعًا تقربت منه باعًا، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة»**(٣).

وعن حَيَّان أبى النضر قال: دخلت مع واثلة بن الأسقع على أبى الأسود الجُرشى فى مرضه الذى مات فيه، فسلم عليه وجلس، فأخذ أبو الأسود يمين واثلة، فمسح بها على عينيه ووجهه لبيعته بها رسول الله ﷺ، فقال له واثلة: واحدة أسألك عنها، قال: وما هى؟ قال: كيف ظنك بربك؟ قال: فقال أبو الأسود، وأشار برأسه أى حَسَنٌ، قال واثلة: أبشر فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: **قال الله عز وجل: «أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء»**(٤).

وها هو رسولنا محمد ﷺ يعلمنا أن نحسن الظن بالله تبارك وتعالى فى أشد الأحوال، وأصعب الأمور والأزمات.

فعن أبى بكر رضي الله عنه قال: قلت للنبى ﷺ وأنا فى الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: **«ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»**(٥).

فإذا ضاقت بك الأمور فأحسن الظن بمولاك، وقل: يا الله.

إذا ابتليت فثق بالله، وقل: يا الله.

إذا مرضت فأحسن ظنك بمولاك، وقل: يا الله.

إذا نمت على فراش الموت فأحسن الظن بربك وقل: يا الله.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده، وصححه الألبانى فى ص.ج (٤١٩١).

(٢) فيض القدير ٢/ ٣١٢.

(٣) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى.

(٤) رواه الحاكم ٤/ ٢٤٠ وقال صحيح الإسناد والدارمى (٢٧٣١) وأحمد وذكره الألبانى فى ص.ج (٤٣١٦).

(٥) رواه البخارى ومسلم (٢٣٨١).

فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل إلى الأرض جزءاً واحداً، فبه يتراحم الخلق، حتى إنّ الفرس لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»**[١].

وفى رواية أن رسول الله ﷺ قال: **«إن لله تعالى مائة رحمة أهبط منها رحمة واحدة إلى أهل الدنيا، فوسعتهم إلى آجالهم، وإن الله لقابض تلك الرحمة يوم القيامة، فيضمها إلى التسعة والتسعين، فيكملها مائة رحمة لأوليائه، وأهل طاعته»**[٢].

ولذلك كان يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله يقول: إلهى، قد أنزلت إلينا رحمة واحدة، وأكرمتنا بتلك الرحمة، وهى الإسلام، فإذا أنزلت علينا مائة رحمة، فكيف لا نرجو مغفرتك؟ وكان يقول: إلهى، إن كان ثوابك للمطيعين، ورحمتك للمذنبين، فإنى- وإن كنت لست مطيعًا - لأرجو ثوابك، فأنا من المذنبين، فأرجو رحمتك.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع فى جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من رحمته أحد»**[٣].

وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لقد دخل رجل الجنة، ما عمل خيراً قط إلا التوحيد، قال لأهله حين حضره الموت: إذا أنا مت، فأحرقونى بالنار، ثم اسحقونى وذرونى، نصفى فى البحر، ونصفى فى البر، فلما مات فعلوا ذلك، فأمر الله البر والبحر فجمعاه، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: مخافتك يا رب، فغفر له بذلك»**[٤].

وروى مسلم فى صحيحه أن النبى ﷺ قال: **«إذا كان يوم القيامة يخرج الله سبحانه من النار رجلين، ويقول لهما: كيف وجدتما منقلبكما، وسوء مصيركما؟ فيقولان: شر منقلب، وأسوأ مصير، فيقول الله لهما: ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد، ثم يؤمر بهما إلى النار، فيسارع إليها أحدهما، ويبطىء الثانى، فيقول الله عز وجل للذى بادر إلى النار ما حملك على ما صنعت؟ فيقول: يا رب، عصيتك فى الدنيا، وأنا أستحى أن أعصيك فى الآخرة، ثم يقول للذى أبطأ: ما الذى حملك على ما صنعت؟ فيقول: يا رب، حملنى على هذا حسن ظنى بك، حين أخرجتنى من النار أن لا تعيدنى إليها، فيرحمهما الله معًا، ويأمر بهما إلى الجنة»**[٥].

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش: «إنّ رحمتى سبقت غضبى»**[٦].

---

(١) رواه البخارى ومسلم. (٢) رواه الحاكم ١/٥٦ وصححه. (٣) رواه مسلم (٢٧٥٥).
(٤) رواه مسلم (٢٧٥٦). (٥) رواه مسلم. (٦) رواه البخارى ومسلم.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبى ﷺ تلا قوله تعالى فى إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وفى قول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: **«اللهم أمتى أمتى»** وبكى، فقال الله عز وجل: **«يا جبريل.. اذهب إلى محمد -وربك أعلم- فسله ما يبكيك؟»** فأتاه جبريل، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال -وهو أعلم-، فقال الله تعالى: **«يا جبريل، اذهب إلى محمد، وقل له: إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك»**[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يدْنَى المؤمن يوم القيامة من ربه، حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف ذنب كذا.. وكذا؟ فيقول: أى رب أعرف، فيقول الله له: فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا، وأنا اليوم أغفرها لك، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤس الخلائق: ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾»**[2] [هود: ١٨].

## • آثار وأقوال العلماء فى حسن الظن •

هذا هو سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يعلمنا ويوصينا أن نحسن الظن بالله، وهو ممن تخرج فى جامعة الرسول المصطفى ﷺ، فيقول: **«والذى لا إله غيره، ما أعطى عبد مؤمن شيئًا، خيراً له من حسن الظن بالله عز وجل، والذى لا إله غيره، لا يحسن عبد الظن بالله عز وجل إلا أعطاه الله عز وجل ظنه، ذلك بأن الخير فى يده»**[3].

وعن سهل القطعى قال: «رأيت مالك بن دينار -رحمه الله- فى منامى، فقلت: يا أبا يحيى ليت شعرى، ماذا قدمت به على الله عز وجل؟ قال: قدمت بذنوب كثيرة فمحاها عنى، حسن ظنى بالله عز وجل» فقد كان حسن الظن بالله سببًا من أسباب غفران الذنوب[4] وعن خلف بن تميم، قال: قلت لعلى بن بكار: ما حسن الظن بالله؟ قال: ألا يجمعك والفجار فى دار واحدة.

وعن سفيان الثورى -رحمه الله- قال فى قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] قال: أحسنوا الظن بالله[5].

**يقول إبراهيم بن أدهم** -رحمه الله-: كنت أطوف بالكعبة فى منتصف الليل، وقد خلا بى المطاف، فجعلت أكثر من ذكر الله تعالى، وتسبيحه، وطاب لى الدعاء فى هذا

---

(١) رواه مسلم. (٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣)، (٤) حسن الظن لابن أبى الدنيا (٩٦).

(٥) المرجع السابق (٢٥) وحلية الأولياء لأبى نعيم ٩/٣١٨.

الوقت، فتضرعت إلى الله مبتهلاً، وقلت: اللهم اعصمنى من الذنوب والآثام، فاعترضنى رجل جميل الوجه، نظيف الثوب، طيب الريح، لا عهد لى به من قبل، وصاح بى قائلا: يا إبراهيم كلكم تسألون الله العصمة من الذنوب، فإذا عصمكم منها، فعلى من يتكرم بالمغفرة، والذى بعث محمدًا بالحق، ليغفر الله يوم القيامة لعباده ذنوبهمَ، وليرحمهم رحمة يتطاول لها إبليس رجاء أن تناله[1]

**ومن كلام ابن سيرين -رحمه الله-**: لا تقنط من رحمة من جاد بالمغفرة على سحرة فرعون، وجعلهم كرامًا بررة.

وقد ورد فى صحف إبراهيم عَلَيْتَكِلِم، أن الله عز وجل قال: **«عبدى لا تقنط من رحمتى، فإن كنت بالغدر موصوفًا فأنا بالجود معروف، وإن كنت ذا خطايا فإنى ذو عطايا، وإن كنت ذا جفاء، فإنى ذو وفاء، وإن كنت ذا إساءة فإنى ذو إحسان، وإن كنت ذا غفلة، فإنى ذو عفو ورحمة، وإن كنت ذا خشية وإنابة فإنى ذو إجابة وقبول».**

ورحم الله القائل:

**وإنى لأرجو الله حتى كأننى ... أرى بجميل الظن ما الله صانع**

وقال آخر:

**وإنى لآتى الذنب أعرف قدره ... وأعلم أن الله يعفو ويغفر**
**لئن عظَّم الناس الذنوب فإنها ... وإن عظمت فى رحمة الله تصغر**

وأنشد محمود الوراق

**حسن ظنى بحسن عفوك يا ... رب جميل وأنت مالك أمرى**
**صنت سرى عن القرابة والأهـ ... ـل جميعًا وكنت موضع سرى**
**ثقة بالذى لديك من السِّتـ ... ـر فلا تخزنى يوم نشرى**
**يوم هتك الستور عن حجب ... الغيب فلا تهتكن للناس سترى**
**لقنى حجتى وإن لم تكن يا ... رب لى حجةٌ ولا وجهُ عذرى**[2]

وأنشد آخر

**مازلت أغرق فى الإساءة دائبًا ... ويكون منك الصفح والغفران**
**لم تنتقصنى إذا أسأت وزدتنى ... حتى كأن إساءتى إحسان**
**تولى الجميل على القبيح كأنما ... يرضيك منى الزور والبهتان**[3]

---

(١) سمير الصالحين وأنيس المتقين.
(٢) حسن الظن بالله لابن أبى الدنيا (١١٦)
(٣) حسن الظن لابن أبى الدنيا

**• من فوائد «حسن الظن» •**

١- طريق موصل إلى الجنة.
٢- دليل على كمال الإيمان وحسن الإسلام.
٣- برهان على سلامة القلب وطهارة النفس.
٤- علامة من علامات حسن الخاتمة.
٥- لا يأتى إلا عن معرفة قدر الله تعالى ومدى مغفرته ورحمته[١].

**أخى الحبيب:**

تيقظ فإليك يوجه الخطاب، وانتبه قبل أن تناخ للرحيل الركاب، قبل هجوم هاذم اللذات، ومفرق الجماعات، ومذل الرقاب، ومشتت الأحباب.

**أيها المسلم:** لقد خرجت من ظلمات وستنتهى إلى ظلمات، خرجت من ظلمات الأرحام، وتنتظرك ظلمات القبور، خرجت من أحشاء أمك، واستقبلتك أحشاء أخرى، أقوى وأعظم قال تعالى: ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**﴾ [طه: ٥٥] دفعك جوف يحن عليك، إلى جوف الأرض، وبين الجوفين أمور وأمور، ففى الدنيا السراء والضراء، والسعادة والشقاء، إنك تخرج من شدة إلى رخاء، ومن رخاء إلى بلاء، وتصادفك عقبات فى طريقك، بعد عقبات، وتتغير حالك من حالات إلى حالات، فمن ذل إلى عز، ومن عز إلى ذل، ومن غنى إلى فقر، ومن فقر إلى يسر، ومن صحة إلى مرض، ومن مرض إلى عافية، حتى تنتهى الفانية، التى عزها لا يدوم، ورخاؤها لا يبقى ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [آل عمران: ٢٦].

اللهم لا تشغل قلوبنا بما تكلفت لنا به، ولا تمنعنا خير ما عندك بشر ما عندنا، اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، يا رب العالمين.

## الوصية رقم (٥٩)
## من استطاع أن يطيل غرته فليفعل

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أمتى يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع أن يطيل غرته فليفعل**»[٢].

صدق رسول الله ﷺ

---

(١) نضرة النعيم ٢/١٦٠٨.

(٢) رواه مسلم (٢٤٦) والبخارى (١٣٦) وأحمد فى مسنده (٩١٦٧).

إن الإسلام الحنيف دين الطهارة والنظافة، وكما حرص رسولنا ﷺ على تطهير أتباعه باطنيًا بترك الغل والحقد والبغضاء، وحلول المحبة والود والألفة، حرص على أن يطهرهم ظاهريًا، فشرع لهم الوضوء، وحثهم على إحسانه وإتمامه كما يجب، بل أوصاهم بإطالة الغرة، وهو غسل شيء من مقدم الرأس، وما يجاوز الوجه زائدًا علىَ الجزء الذى يجب غسله. والتحجيل هو: غسل ما فوق المرفقين والكعبين وفعل ذلك أمامهم ليقتدوا به، وقال لهم: هذا وضوئى، ووضوء الأنبياء قبلى.

بل إن رسولنا ﷺ جعل الغرة والتحجيل علامة بينة يعرف بها أمته يوم القيامة، يوم أن يبعث الناس من لدن آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتي المقبرة، فقال: **«السلام عليكم دار قوم مؤمنون، وإنا، إن شاء الله بكم لاحقون، وددت أنَّا قد رأينا إخواننا»** قالوا: أو لسنا إخوانك يا رسول الله؟! قال: **«أنتم أصحابى. وإخواننا الذين لم يأتوا بعد»** فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ فقال: **«أرأيت لو أن رجلاً له خيل غير محجلة بين ظهرانى خيل دُهْم بُهْم، ألا يعرف خيله؟»** قالوا: بلى يا رسول الله. قال: **«فإنهم يأتون غرًّا محجلين من الضوء، وأنا فرضهم على الحوض. ألا ليُذادنَّ رجال عن حوضى كما يُذاد البعير الضال. أناديهم: ألا هَلُمَّ! فيقال: إنهم قد بدَّلوا بعدك، فأقول: سحقًا سحقًا»**(١).

والوضوء فى شريعة من قبلنا، لكننا فضلنا وميزنا بالغرة والتحجيل والوضوء طهارة من الطهارات التى شرعها الإسلام، وقد جعله شطر الإيمان فعن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: **«الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»**(٢).

الوضوء طهارة والطهارة على أربعة أضرب:

**الأول:** تطهير البدن عن نجس أو حدث، أو فضلة من البدن.

فأما طهارة الأنجاس ففى الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبى ﷺ مر بقبرين، فقال: **«إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير: أما أحدهما فكان لا يستنزه من بوله، وأما الآخر فكان يمشى بين الناس بالنميمة»**(٣).

وأما طهارة الأحداث ففى التفريط فيها وعيد شديد، ففى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو قال: تخلفنا عن رسول الله ﷺ فى سفرة سافرناها، فأدركنا ونحن

(١) رواه مسلم (٢٤٩) وأحمد (٤٦٨٢). (٢) رواه مسلم وأحمد في مسنده.

(٣) رواه مسلم.

نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: «**ويل للأعقاب من النار**»[١] مرتين أو ثلاثًا.

ولقد مدح الرسول ﷺ على إسباغ الوضوء فقال: «**من أتم الوضوء كما أمره الله عز وجل، فالصلوات المكتوبات كفارة لما بينهن**»[٢].

**والثانى:** تطهير الجوارح عن الآثام. قال الله عز وجل: ﴿**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾ [الإسراء: ٣٦].

يقول ابن الجوزى: واعلم أن الجوارح كالسواقى توصل إلى القلب: الصافى والكدر، فمن كفها عن الشر جلت معدة القلب بما فيها من الأخلاط فأذابتها وكفى بذلك حمية، فإذا جاء الدواء صادف محلاً قابلاً.

ومن أطلقها فى الذنوب أوصلت إلى القلب وسخ الخطايا، وظلم المعاصى، فلما وضع الدواء كان بينه وبين القلب حجاب، فلا تكاد الجوارح تسلم من الخطايا إلا بالعزلة.

**والثالث:** تطهير القلب من الأخلاق المذمومة من الحرص والحقد والحسد والكبر وغير ذلك.

**والرابع:** تطهير السر عما سوى الله عز وجل.

يقول سهل بن عبد الله: ما من ساعة إلا والله مطلع على قلوب العباد، فأى قلب رأى فيه غيره سلط عليه إبليس..

يقول أحمد بن أبى الحوارى: بات أبو سليمان ذات ليلة فلما انتصف الليل قام ليتوضأ، فلما أدخل يده فى الإناء بقى على حاله حتى انفجر الصبح وكان وقت الإقامة، فخشيت أن تفوته الصلاة، فقلت: الصلاة يرحمك الله، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: يا أحمد أدخلت يدى فى الإناء، فعارضنى عارض من سرى: هب أنك غسلت بالماء ما ظهر منك، فبماذا تغسل قلبك؟ فبقيت متفكرًا حتى قلت: بالهموم والأحزان فيما يفوتنى من الأنس بالله عز وجل[٣].

يا هذا إن توضأت بغير نية قيل للماء: ابذل له البلل لا الطهارة، فإذا نويت قيل له: طهارة الظاهر، فإن صفا قلبك فقد حصلت على طهارتك حقيقة. والوضوء سلاح المؤمن، ويدفع عن النفس وساوس الشيطان، ويدفع به هواجس النفس، فيجعل المسلم طيب النفس، نشيط البدن، منشرح الصدر كما أن الوضوء يكفر الذنوب، ويمحو الخطايا، ويزيد فى الأجر، ويرفع الله به الدرجات، فعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) رواه البخارى ومسلم. (٢) رواه مسلم وأحمد.

(٣) التبصرة لابن الجوزى ٢/ ٢٢٦ والإحياء للغزالى.

**«إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء، فإذا غسل يديه، خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء فإذا غسل رجليه، خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء حتى يخرج نقيًا من الذنوب»**(١).

وعن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ: **«من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده، حتى تخرج من تحت أظفاره»**(٢).

وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: اسباغ الوضوء فى السبرات، والصبر على الكريهات، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط»**(٣) يعنى الحصن من العدو، وهو الشيطان، أو فهو كالمرابط فى سبيل الله.

وحتى تحصل على هذا الثواب العظيم من الله تبارك وتعالى لابد وأن تتدبر الوضوء وأركانه، وسننه، وحكمة مشروعيته، والأسرار التى اشتمل عليها.

فعن عمر بن الخطاب ﷺ أن رجلاً توضأ، فترك موضع ظفر فى قدمه، فأبصره النبى ﷺ، فقال له: **«ارجع فأحسن وضوءك»**(٤).

فإن أردت الحصول على هذا الثواب العظيم، وأن يكون وضوؤك كوضوء الصالحين فتدبر وأنت تتوضأ: فعندما تغسل هذه الأعضاء، اجعل همك أن تغسلها من الذنوب والخطيئات، وتذكر فيها نعمة رب الكائنات، فتشكره، وتعزم أن تعصمها بعد ذلك من الخطيئات، فتستغفر رب الأرض والسموات.

فإذا غسلت كفيك، فتذكر فيهما نعمة الله عليك، وتأمل ماذا يكون حالك لو لم يكن لك كفان، فاشكره سبحانه بلسانك وقلبك، وكذلك فى سائر الأعضاء.

واعلم أخى الحبيب: أن الصلاة من خير الأعمال التى يقوم بها المسلم، ولا تصح الصلاة إلا بالوضوء، ولا يحافظ على الوضوء إلا من كان من أهل الإيمان، يقول النبى الأمين: **«استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»** ومعنى (لا تحصوا) أى لن تقدروا على ذلك إلا بالجهد، وقيل معناه: لن تقدروا أن تعدوا ثواب من استقام على الإيمان والطاعة، فينبغى للمؤمن أن يكون فى الليل والنهار متوضئًا، فإذا فعل ذلك أحبه الله تعالى، وأحبته الحفظة، ويكون فى أمان الله عز وجل وحفظه.

---

(١) رواه مسلم (٢٤٤) وأحمد فى المسند ومالك فى الموطأ ١/ ٣١ والترمذى.

(٢) رواه مسلم (٢٤٥).

(٣) رواه مسلم (٣١٣) والترمذى وأحمد فى مسنده وابن خزيمة.

(٤) رواه مسلم (٢٤٣).

والوضوء مع الصلاة ضمن الخمسة التى تضمن للمرء دخول الجنات، والفوز برضا رب الأرض والسماوات، فعن أبى الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**خمس من جاء بهن يوم القيامة مع الإيمان دخل الجنة: من حافظ على الصلوات الخمس فى مواقيتهن ووضوئهن وركوعهن وسجودهن، ومن أدى الزكاة من ماله طيبة بها نفسه، ثم قال: وأيم الله، لا يفعل ذلك إلا مؤمن، ومن صام رمضان وحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً، وأدى الأمانة**».

قالوا: يا أبا الدرداء، وما الأمانة؟ قال: الغسل من الجنابة، **فإن الله تعالى لم يأتمن** ابن آدم على شىء من دينه غيره[1].

ويستحب للعبد إذا فرغ من الوضوء أن يذكر الله قائلاً: «**أشهد أن لا إله إلا الله** وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله» فقد روى عقبة بن عامر رضي الله عنه أن **رسول الله** ﷺ قال: «**إذا فرغ أحدكم من وضوئه، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء**»[2] وفى رواية أخرى: «**إن العبد المؤمن إذا فرغ من وضوئه ثم قال: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، يختم بخاتم خير، ثم يوضع تحت العرش، فلم يكسر حتى يدفع إليه يوم القيامة**»[3].

ويستحب للمسلم إذا توضأ أن يصلى ركعتين.

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لبلال بن رباح رضي الله عنه عند صلاة الفجر: «**حدثنى بأزكى عمل عملته فى الإسلام، فإنى سمعت الليلة خشف نعليك فى الجنة، فقال: ما عملت عملاً فى الإسلام بأرجى عندى من أنى لم أتطهر طهوراً فى ساعة من الليل أو النهار، إلا صليت لربى أدنى ما قدر لى**» وفى رواية: «**ما أحدثت إلا وتطهرت، وما تطهرت إلا وصليت ركعتين**»[4].

ولذلك كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يحرصون على الوضوء أشد الحرص فهذا شيخ الإسلام «عبد الغنى المقدسى» رحمه الله:

كان رحمه الله ربما توضأ سبع مرات، أو ثمانية فى الليل، ويقول: «**ما تطيب لى** الصلاة إلا ما دامت أعضائى رطبة».

وهذا هو العالم الصالح «ابن عنان المصرى الشافعى» رحمه الله: **كان لا يمكث على** غير وضوء لحظة، وكان يقول: «**لا أقدر أن أجلس على حدث قط. وضوئى دائم ليلاً**

---

(١) صحيح سنن أبى داود للألبانى (٤٢٩) وأبو نعيم فى الحلية ٢/ ٢٣٤ والطبرانى فى الكبير.

(٢) رواه مسلم (٢٣٤) وابن ماجه (٤٧٠) والترمذى وصحيح سنن أبى داود للألبانى (١٦٩).

(٣) رواه الحاكم والنسائى وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٣٣٣).

(٤) رواه البخارى ومسلم.

ونهاراً، ولقد أصابتنى جنابة مرة فى ليلة باردة، وكان على باب دارى بركة جَمُد ظاهرها من البرد، فنزلت فيها واغتسلت، فوجدتها من شدة الهمة كأنها مسخنة بالنار».

وكان -رحمه الله- إذا استنجى فى الخلاء، وأبطأ ماء الوضوء يرى أن يضرب يده فى الحائط، ويتيمم حتى يجىء الماء ولا يجلس على غير طهارة لحظة واحدة.

وكان يقول: «من ادعى مجالسة الله عز وجل وهو يمكث على حدث لحظة واحدة فهو قليل الأدب»[1].

ولله در القائل:

**إن الوضوء ينير كل دروبنا ... رمز لطهر النفس والوجدان**
**يشفي من الأحقاد يطفئ غيظنا ... برد اليقين وراحة الحيران**
**الغرّ معروفون يوم قيامة ... أثر السجود وحجلة السيقان**
**فاحرص على طهر فنعم سلاحه ... نهر الوضوء مطهِّر الأدران**

اللهم اجعلنا من عبادك المتطهرين، اللهم طهر قلوبنا من النفاق، وطهر ألسنتنا من الكذب، وطهر أعمالنا من الرياء، اللهم اجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، وذهاب همنا وحزننا، اللهم اجعله لنا فى القبر مؤنسًا، وعلى الصراط دليلاً وإلى الجنة هاديًا، اللهم زينا بزينة الإيمان، وحببه إلى قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. يا رب العالمين.

## الوصية رقم (٦٠)
## إذا قضى أحدكم حاجته فليرجع إلى أهله

عن أبى هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضى أحدكم نهمته من سفر فليعجل إلى أهله**»[2].

**صدق رسول الله ﷺ**

### • فى رحاب هذه الوصية •

وهذا هو معلم الإنسانية، وطبيبها الملهم، نبى الرحمة والسلام محمد ﷺ، وهو من بعثه الله رحمة للعالمين، يوصى فى هذه الوصية أناسا مخصوصين وهم المسافرون إذا سافروا وقضوا حاجتهم أن يرجعوا إلى أهلهم، ويعلل لذلك بأن السفر قطعة من العذاب، لما فيه من إيلام الجسد، وإتعاب النفس، ولما فيه من المشقة والتعب، ومقاساة الحر والبرد، ومفارقة الأهل والوطن، وخشونة العيش.

(١) ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله ٢/ ٣٤٠ نقلاً من الكواكب السائرة ١/ ٣٩، ٤٠.

(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده.

وربما يقول قائل: كان هذا فى السفر أيام الرسول ﷺ، لأنهم كانوا يركبون الإبل، والبغال، والحمير وغيرها، لكن ونحن فى بداية القرن الحادى والعشرين، عصر التقدم صار السفر بالطائرات، والقطارات، والسيارات، وغيرها، فكيف يكون قطعة من العذاب؟ فالجواب أن كلام الرسول المصطفى ﷺ صالح لكل زمان ومكان، لأنه ما ينطق عن الهوى، وإنما كلامه ﷺ: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] فهو مازال قطعة من العذاب مهما تقدمت الحضارات، ولقد سئل الإمام الجوينى -إمام الحرمين- لمَ كان السفر قطعة من العذاب؟ فقال كلمة موجزة، قال: لما فيه من فراق الأحباب.

ولهذا تفضل الشارع الحكيم على المسافر بالتخفيف فى عدة أمور:

١- الطهارة، رخص له فيها برخصتين: التيمم إن لم يجد الماء، والمسح على الخفين.

٢- وفى صلاة الفرض أيضًا برخصتين: قصر الصلاة الرباعية، وجمع الصلاة تقديمًا أو تأخيرًا.

٣- وفى النافلة برخصتين: صلاتها على الراحلة، أو أداؤها ماشيًا.

٤- وفى الصوم بالإفطار.

## • تعريف السفر •

**والسفر**: بفتح أوليه، هو قطع المسافة مطلقًا، والانتقال من بلد إلى بلد.

**وجمع سفر**: أسفار، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩].

**وشرعا**: قطع مسافة تتغير بها الأحكام، كقصر الصلاة، وإباحة الفطر فى رمضان وسقوط الجمعة والعيدين، وحرمة خروج المرأة بلا محرم، ونحو ذلك.

وسمى السفر سفرًا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال، ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للذى زكى عنده بعض الشهود: هل صحبته فى السفر الذى يستدل به على أخلاق الرجال؟ فقال: لا، فقال: ما أراك تعرفه[1].

## • فضل السفر •

والسفر رغبنا فيه النبى المصطفى ﷺ إذا كان فى طاعة من الطاعات، فقال فى الحديث الذى رواه سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه: «**سافروا تصحوا، واغزوا تغنموا**»[2] وهذا الأمر

---

(١) الإحياء ٣/ ٣١٠ للغزالى.

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٨٩٢٥) وحسنه حمزة الزين ٩/ ٥٤ وقال: ابن أبى شيبة ٥/ ٣٤٩ والطبرانى فى الكبير ١١/ ٦٣ والشهاب ٦٢٢ والبيهقى ٧/ ١٠٢ والمنذرى وحسنه فى الترغيب ثم قال: ولم يصب من ضعف المتن.

من الرسول ﷺ ليس للوجوب مطلقا، ولكنه على سبيل النصح والإرشاد، والتوجيه، والترغيب فيه إن وجدت المصلحة النافعة للمسلم في أمر دينه ودنياه، وهذا الأمر من الرسول ﷺ إنما هو اختصار لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠] والسفر يطلق على الهجرة من مكان إلى آخر، فمن يغادر بلده، بترك محل إقامته إلى أرض الله الواسعة سواء كان غازيًا لنصرة دين الإسلام، أو طالبًا لعلم نافع، أو ساعيًا لرزقه، فإنه سيجد في تلك الأرض التي هاجر إليها خيرًا، وسوف يجد بها بغيته ومنيته.

ولذلك قال بشر الحافي -رحمه الله-: يا معشر القراء سيحوا تطيبوا، فإن الماء إذا ساح طاب، وإن طال مقامه في موضع تغير[١].

وكأنه كان يريد أن يشير إلى قول إمامنا الشافعي رحمه الله تعالى الذي يقول فيه:

**ما في المقام لذي عقل وذي أدب ... من راحة فدع الأوطان واغترب**
**سافر تجد عوضًا عما تفارقه ... وانصب فإن لذيذ العيش في النصب**
**إني رأيت وقوف الماء يفسده ... إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب**
**والشمس لو وقفت في الفلك دائبة ... لملَّها الناس من عجم ومن عرب**
**والأسد لولا فراق الغاب ما افترست ... والسهم لولا فراق القوس لم يصب**
**والتبر كالترب ملقى في أماكنه ... والعود في أرضه نوع من الحطب**
**فإن تغرب هذا عز مطلبه ... وإن تغرب ذاك عزّ كالذهب**[٢]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما من خارج يخرج من بيته إلا ببابه رايتان: راية بيد ملك، وراية بيد شيطان، فإن خرج لما يحب الله عز وجل اتبعه الملك برايته، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته، وإن خرج لما يسخط الله اتبعه الشيطان برايته، فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع إلى بيته**»[٣].

**يقول الإمام الغزالي**: وبالجملة فإن النفس في الوطن مع مواتاة الأسباب لا تظهر خبائث أخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة، فإذا حملت وعثاء السفر، وصرفت عن مألوفاتها المعتادة، وامتحنت بمشاق الغربة، انكشفت غوائلها، ووقع الوقوف على عيوبها، فيمكن الاشتغال بعلاجها.. ثم يقول:

(١) الإحياء ٣/ ٣١٠.
(٢) ديوان الشافعي.
(٣) رواه أحمد والطبراني والبيهقي بإسناد جيد.

وأما آيات الله فى أرضه ففى مشاهدتها فوائد للمستبصر، ففيها قطع متجاورات، وفيها الجبال والبرارى، والبحار، وأنواع الحيوان، والنبات، وما من شىء منها إلا وهو شاهد لله بالوحدانية، ومسبح له بلسان ذلق، لا يدركه إلا من ألقى السمع وهو شهيد(١).

ولهذا حثنا ربنا تبارك وتعالى على السير فى الأرض، لتتبع آثاره الجليلة، وأسراره الخفية قال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١] فالمسافر يجد من خلال سفره ما يروح به عن نفسه، ويجدد به نشاطه، وصحته، ويكون إنسانًا إيجابيًّا فى جميع مراحل حياته.

**• أقسام السفر •**

**والسفر له أقسام متعددة منها:**

١- **السفر فى طلب العلم:** وهو إما واجب، وإما نفل، وذلك بحسب كون العلم واجبًا أو نفلا، وذلك لأن العلم إما علم بأمور دينه، أو بأخلاقه فى نفسه، أو بآيات الله وفى أرضه. فلقد كان سعيد بن المسيب -رحمه الله- يسافر الأيام فى طلب الحديث الواحد.

**وقال الشعبى:** لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن فى كلمة تدل على هدى، أو ترده عن ردى، ما كان سفره ضائعًا.

ورحل جابر بن عبد الله ﷺ من المدينة مسيرة شهر فى حديث عن رسول الله ﷺ بلغه عن عبد الله بن أنيس، حتى سمعه عنه.

٢- **السفر لأجل العبادة:** من حج أو جهاد فى سبيل الله، أو نحو ذلك، وفى الحديث: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجد الرسول**».

٣- **السفر للهرب من سبب مشوش للدين:** فالفرار مما لا يطاق من سنن الأنبياء، وقد كان من عادة السلف ﷺ مفارقة الوطن خوفًا من الفتن.

**قال أبو نعيم:** رأيت سفيان الثورى، وقد علق قلته بيده، ووضع جرابه على ظهره، فقلت: إلى أين يا أبا عبد الله؟ قال: بلغنى عن قرية فيها رُخص أريد أن أقيم بها، فقلت: لله: وتفعل هذا؟ قال: نعم، إذا بلغك أن قرية فيها رخص -وهو ضد الغلاء- فأقم بها فإنه أسلم لدينك، وأقل لهمك(٢).

٤- **السفر هربًا مما يقدح بالبدن:** كالفرار من مرض كالطاعون، أو فى المال كغلاء الأسعار، أو ما يجرى مجراه، ولا حرج فى ذلك، بل ربما يجب الفرار فى بعض

(١) الإحياء للإمام الغزالى ٣/ ٣١١.
(٢) الإحياء ٣/ ص٣١٣.

المواضع، وربما يستحب فى بعض بحسب وجوب ما يترتب عليه من الفوائد، ولكن يستثنى الطاعون فلا ينبغى الفرار منه فى جميع الأحوال، لورود النهى عن ذلك لحديث: **«إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض فلا تخرجوا منها فراراً منه»**[١] وليس المقصود من هذا الحديث عدم الفرار من الطاعون مطلقًا، بل المقصود فرار الموجود فى الأرض التى فيها الطاعون خشية أن يعدى غيره.

أما من كان خارج هذه الأرض فينبغى عليه الفرار من هذا الطاعون، وعدم الدخول فى الأرض التى فيها هذا الوباء، ومن هنا جاء قول الخليفة عمر بن الخطاب إلى عبيدة بن الجراح ﷺ قبل أن يبلغهُ الحديث السابق: **«نفر من قضاء الله، إلى قدر الله»**.

## • أقسام أخرى للسفر •

**فهذه أقسام الأسفار وقد خرج منه أن السفر ينقسم إلى:**

١- **مذموم:** وهو ينقسم إلى: حرام كسفر العاق لوالديه، وكإباق العبد، وإلى مكروه كالخروج من بلد الطاعون.

٢- **محمود:** وهو ينقسم إلى: واجب كالحج وطلب العلم الذى هو فريضة على كل مسلم ومسلمة، ومندوب إليه كزيارة العلماء، للتخلق بأخلاقهم، والتأدب بآدابهم وتحريك الرغبة للاقتداء بهم، واقتباس الفوائد العلمية من أنفاسهم.

٣- **مباح:** وهذا مرجعه إلى النية، لقوله ﷺ: **«إنما الأعمال بالنيات»**[٢] فهذا دليل عام فى الواجبات والمندوبات، والمباحات دون المحظورات.

**قال بعض السلف رضوان الله عليهم:** «إنَّ الله تعالى قد وكل بالمسافرين ملائكة ينظرون إلى مقاصدهم، فيعطى كل واحد على قدر نيته، فمن كانت نيته الدنيا أعطى منها، ونقص من آخرته أضعافه، وفرق عليه همه، وكثر بالحرص والرغبة شغله. ومن كانت نيته الآخرة أعطى من البصيرة والحكمة والفطنة، وفتح له من التذكر والعبرة بقدر نيته، وجمع له همه، ودعت له الملائكة، واستغفرت له».

**لطيفة:**

**يقول ابن الجوزى:** يا هذا، المسك دم غزال يرى، فإذا تغرب صار فى إسقاط الملوك. والعنبر روث دابة يلقيه البحر على وجه، فيجتمع ويتجمد، ولا رائحة له، فإذا خرج عن وطنه غلا وعلا وأنت يا جوهرة الوجود ما تعرف قدر قدرك، ويحك لو سافرت من ظلمة طبعك إلى إقليم عقلك لرأيته قيمة جوهرتك، لا يقوم لها ثمن[٣]

---

(١) رواه البخارى. (٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد والترمذى وغيرهم.

(٣) روح الأرواح لابن الجوزى ص٩٨ ط دار القلم.

**أخا الإسلام:**

هذه الأقسام التى ذكرناها إنما هى للسفر القصير لا للسفر الطويل، فسفر الدنيا مهما طال ومهما بعد فهو قصير بجانب سفرك إلى الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ** ﴾ [الانشقاق: ٦] سفرك إلى مولاك هو السفر الطويل، فهل أعددت الزاد لهذا السفر؟ هل أعددت الزاد ليوم ﴿ ... **يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ** ﴾ [النبأ: ٤٠]. فلله در أبى الدرداء ﷺ حين اجتمع بأصحابه يومًا، فوعظهم قائلاً: «أليس إذا أراد أحدكم سفراً يستعد له بزاد؟ قالوا: بلى.. قال: فسفر الآخرة أبعد مما تسافرون.. فقالوا: دلنا على زاده.. فقال لهم: حجوا حجة لعظائم الأمور، وصلوا ركعتين فى ظلمة الليل لوحشة القبور، وصوموا يومًا شديدًا حره لطول يوم النشور».

أعد الزاد لسفرك الطويل قبل ألا تستطيع فتقول: ﴿ **رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١].

وهذا سيدنا أبو هريرة ﷺ لما كان على فراش الموت يبكى وينتحب من البكاء، فيقولون له: لـمَ تبكى؟ ألست صحبت رسول الله؟! ألم تأخذ عنه كتاب الله وسنته؟! ألم ينتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وهو عنك راض؟ فقال أبو هريرة: أبكى لبعد سفرى، وقلة زادى، ولا أدرى نفسى يؤمر بها إلى الجنة فأهنأها أم إلى النار فأعزيها.

| | |
|---|---|
| قدم لنفسك خيرًا | وأنت مالك مالك |
| من قبل أن تصبح فردًا | ولون حالك حالك |
| ولست والله تدرى | أى المسالك سالك |
| إما لجنة عدن | أو فى المهالك هالك |

وهذا هو إبراهيم بن أدهم -رحمه الله- سئل: لمَ زهدت فى الدنيا يا إبراهيم؟ قال: لثلاث: رأيت الطريق طويلاً وليس معى زاد، ورأيت القبر موحشًا وليس معى مؤنس، ورأيت الجبار قاضيًا وليس معى حجة، ولا من يدافع عنى.

**فيا أخى:**

اشتر نفسك اليوم، فإن السوق قائمة، والثمن موجود، والبضائع رخيصة، سيأتى على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيه إلى قليل، ولا كثير.

## الوصية رقم (٦١)
## لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«لا تَعَلَّمُوا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتُماروا به السُّفَهَاء، ولا تَخَيَّرُوا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار»**(١).

**صدق رسول الله ﷺ**

هذه الوصية من أستاذ البشرية، ومعلم الإنسانية سيدنا محمد ﷺ لطلاب العلم فهو ينهاهم أن يتعلموا العلم لغرض من أغراض الدنيا الفانية، وتلك الأغراض ممثلة فى عدة أمور: ١- مباهاة العلماء وهو رياء، والعلم لا يحتاج إليه، بل يحتاج إلى الإخلاص. ٢- مماراة السفهاء، وهو مجادلتهم، وإلزامهم الحجة، وذلك أمر شاق يطول على صاحبه، وما أجمل قول إمامنا الشافعى -رحمه الله- حين قال:

**يخاطبنى السفيه بكل قبح ... فآبى أن أكون له مجيبًا**
**يزيد سفاهة وأزيد حلمًا ... كعود زاده الإحراق طيبًا**

٣- أو ليتعلم العلم لابتغاء مجالس السلاطين والأمراء، وهؤلاء لصوص، لأنهم لم يريدوا بالعلم وجه الله، وقد صدق سعيد بن المسيب -رحمه الله- حين قال: إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء، فاحذروا منه، فإنه لص.

وقال حذيفة رضي الله عنه: إياكم ومواقف الفتن، قيل: وما الفتن؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على أمير، فيصدقه بالكذب، ويقول فيه، ما ليس فيه.

ثم يتوعد الرسول ﷺ أولئك الذين يفعلون ذلك وعيدًا شديدًا، لأن عملهم هذا بعيد عن الإخلاص، والتقوى وهما أساسا قبول الأعمال، وقد قال ﷺ: **«من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»**(٢) وعرف الجنة، أى ريحها.

وقد أخبرنا النبى الأمين ﷺ بهذا المشهد العظيم من مشاهد يوم القيامة، ألا وهو مشهد علماء السوء، وهم يتساقطون فى النار بعد أن جعلهم الله أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، فقال فى الحديث الذى رواه عنه المحدث العظيم أبو هريرة رضي الله عنه: **«إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه، رجل استشهد، فأتى به، فعرفه نعمته، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت فيك، قال: كذبت، ولكنك قاتلت، لأن يقال: جرىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار.**

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٥٤) وصححه الألبانى فى ص.ج برقم (٦١٥٨).

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٨٤٣٨) وصححه الألبانى فى ص.ج برقم (٦١٥٩).

**ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن، ليقال: قارئ، فقد قيل، ثم أمر، فسحب على وجهه حتى ألقى في النار..»**[١].

فعلى طالب العلم أن يكون صادقًا مع الله فى طلبه، وفى تبليغه، ولكن يتعلمه ليتعبد به، وليصل به إلى مرضاة الله جل وعلا، ثم ليدعو الناس إلى ربهم، وليمتثل قول النبى الأكرم: «**فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم**»[٢].

فالعلم أمانة، فإذا تعلمته لغير ذلك فقد خنت الأمانة، ولذلك كان معلم الأمة يستعيذ من هذا النوع من العلم فكان يدعو ربه قائلا: «**اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع**»[٣] وحتى ينفعك علمك أخى الحبيب عليك أن تكون من علماء الآخرة، لا من علماء السوء.

- **فماذا عن علماء السوء، وعلماء الآخرة؟**

**قال الإمام ابن القيم:** «علماء السوء، جلسوا على باب الجنة، يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس: هلموا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم. فلو كان ما دعوا إليه حقًا كانوا أول المستجيبين له، فهم فى الصورة أدلاء، وفى الحقيقة قطاع طرق»[٤].

ولذلك يقول سيدنا عيسى عليه السلام لعلماء السوء: «إلى متى تصفون الطريق للمدلجين، وأنتم مقيمون مع المتحيرين» وقال: «مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر لا هى تشرب الماء، ولا هى تترك الماء يخلص إلى الزرع. ومثل علماء السوء مثل قناة الحش ظاهرها جص، وباطنها نتن، ومثل القبور: ظاهرها عامر، وباطنها عظام الموتى».

**يا واعظ الناس قد أصبحت متهمًا ... إذا عبت منهم أمورًا أنت تأتيها**
**أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهدًا ... فالموبقات لعمرى أنت جانيها**
**تعيب دنيا وناسًا راغبين لها ... وأنت أكثر منهم رغبة فيها**

**ويقول ابن الجوزى -رحمه الله-:**

تأملت التحاسد بين العلماء، فرأيت منشأه من حب الدنيا، فإن علماء الآخرة يتوادون ولا يتحاسدون، كما قال الله عز وجل: ﴿**وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا**

---

(١) رواه مسلم وأحمد فى مسنده وذكره الألبانى فى ص.ج (٢٠١٤).
(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد وغيرهم عن سهل بن سعد، وذكره الألبانى فى ص.ج برقم (١٥١١).
(٣) رواه مسلم وهو فى ص.ج للألبانى برقم (١٢٩٧).
(٤) الفوائد لابن القيم.

أُوتُوا﴾ [الحشر: ٩]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠].

وكان أبو الدرداء ﷺ يدعو كل ليلة لجماعة من إخوانه.

وقال الإمام أحمد لولد الشافعي: «أبوك من الستة الذين أدعو لهم كل ليلة وقت السحر» والأمر الفارق بين الفئتين: أن علماء الدنيا ينظرون إلى الرياسة فيها، ويحبون كثرة الجمع والثناء، وعلماء الآخرة بمعزل من إيثار ذلك، وقد كانوا يتخوفونه، ويرحمون من بلى به، وإنما كان بعضهم يدعو البعض، ويستفيد منه، لأنهم منه.. لأنهم ركب تصاحبوا فتوادوا، فالأيام والليالي مراحلهم إلى سفر الجنة[1].

ولله در ابن الجوزى حين قال ناصحًا:

يا طالب المجد والجلالة ... والرفعة والمكرمات والشرف
تعلم العلم واحتسب لوجه ... الله لا للمعاش والحرف
وخذه من فوق فالعلوم لنا ... أنفعه ما روى عن السلف
العلم در إذا أفادك ... فى الدين وما لم يفد كالصدف[2]

فلا تكن من علماء الدنيا، ولكن كن من علماء الآخرة، لأنهم علموا أن هذه الدنيا قنطرة، وأنها فانية ذاهبة، فآثروا الآخرة الباقية، فلم تخالف أقوالهم أفعالهم، وهذه صورة حية أنقلها لك بين أستاذ وطالب، أما الأستاذ فهو «شقيق البلخى» رحمه الله وأما التلميذ فهو «حاتم الأصم» رحمه الله، وكلاهما قد اشتهر بالزهد والصلاح.

وقد دار هذا الحوار بينهما، لكى نتعلم منهم أن علماء الآخرة هم الفائزون: قال شقيق لحاتم: لقد صحبتنى مدة فماذا تعلمت؟ قال: ثمانية مسائل:

**أما الأولى:** فإنى نظرت إلى الخلق، فإذا كل شخص له محبوب، فإذا وصل إلى القبر، فارقه محبوبه، فجعلت محبوبى حسناتى، لتكون فى القبر معى. قال أحسنت يا حاتم فهات الثانية؟.

**الثانية:** فإنى نظرت إلى قول الله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] فأجهدتها فى دفع الهوى، حتى استقرت على طاعة الله تعالى.

**وأما الثالثة:** فإنى رأيت كل من معه شيء له قيمة عنده يحفظه، ثم نظرت فى قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] فكلما وقع معى شىء له قيمة، وجهته إليه ليبقى لى عنده.

(١) صيد الخاطر لابن الجوزى ص١٦ ط/ التوفيقية.

(٢) التذكرة فى الوعظ لابن الجوزى ص٣٨.

**وأما الرابعة:** فإنى رأيت الناس يـرجعون إلى المال والحسب والشـرف، وليس بشىء فنظرت فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٣]فعملت فى التقوى لكى أكون عنده كريمًا.

**وأما الخامسة:** فإنى رأيت الناس يتحاسدون، فنظرت فى قوله تعالى: ﴿ **نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ [الزخرف: ٣٢]. فتركت الحسد.

**وأما السادسة:** رأيتهم يتعادون، فـنظرت فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا** ﴾ [فاطر: ٦] فتركت عداوتهم، واتخذت الشيطان وحده عدوًا.

**وأما السابعة:** رأيتهم يذلون أنفسهم فى طلب الرزق، فنظرت فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** ﴾ [هود: ٦] فاشتغلت بماله علىَّ، وتركت مالى عنده.

**وأما الثامنة:**فرأيتهم مـتوكلين على تجارتهم وصـنائعهم، وصحة أبدانهم، فـتوكلت على الله قال شـقيق: يا حـاتم وفقك الله تعالى، فـإنى نظرت فى علوم التـوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم، فوجدت جميع أنواع الخير تدور على هذه الثمان مسائل.

ولذلك فإن يحيى بن معاذ رحمه الله كان يعيب على علماء السوء ويقول لهم:

يا أصـحاب العلـم: قصوركـم قيصـرية، وبيـوتكم كسـروية، وأثوابكـم ظاهرية، وأخفافكم جـالوتية، ومراكبكم قارونية، وأوانـيكم فرعونية، ومآتمكم جاهـلية، ومذاهبكم شيطانية، فأين الشريعة المحمدية؟[1].

لكن علماء الآخـرة كانوا معرضيـن عن السلطان، معرضيـن عن الأمراء والأموال، يعرفون لأنفسهم كرامتها، ويعرفون للعلم فضله ومنزلته.

فهذا هو حماد بن سلمة رحمه الله وقد كان عالمًا عابدًا تقيًا ورعًا، محاسبًا لنفسه، لا يضيع لحظة من عمره فى غير طاعة، وكان يبيع الثياب، وكان متواضعًا.

يقول مقاتل بن صالح الخراسانى:

دخلت على حماد، فإذا ليس فى بيته إلا حصـير وهو جالس عليه، ومصحف يقـرأ فيه، وجراب فيه علمه، ومطهرة يتوضأ فيها، فبينما أنا عنده جالس دق الباب.

فقال: يا صبية، اخرجى فانظرى من هذا؟ فخرجت.

فقالت: رسول محمد بن سليمان -الأمير-.

قال: قولى له يدخل وحـده، فلما دخل، ناوله كتابًا، ففتحـه، فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن سليمان إلى حماد بن سلمة أما بعد: فصبحك الله بما صبح به أولياءه، وأهل طاعته، وقد وقعت مسألة، فإننا نسألك عنها والسلام».

---

(١) تنبيه المغترين للشعرانى ص١٢١ ط/ دار الكتب العلمية.

فماذا يكون الرد لو كان عالمًا من علماء السوء، من علماء العصر؟ لو كان ذلك لخرج مسرعًا إلى الأمير، لكن ماذا فعل حماد رحمه الله؟

لقد أمر الصبية أن تحضر الدواءة، ثم قال لرسول الأمير: اقلب الكتاب واكتب: «**أما بعد: وأنت صبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته، إنا أدركنا العلماء وهم لا يأتون لأحد، فإن كانت وقعت مسألة، فأتنا وسلنا على ما بدا لك، وإن أتيتنا فلا تأتنا إلا وحدك، ولا تأت بخيلك ورجلك، فلا أنصحك ولا أنصح نفسى، والسلام**».

يقول مقاتل بن صالح: فبينما أنا عنده، دق الباب، فقال: يا صبية، اخرجى، فانظرى من هذا؟ فقالت: محمد بن سليمان -الأمير-!.

قال: قولى له: ليدخل وحده!!

فدخل، فسلم، ثم جلس بين يديه، ثم قال له: ما لى إذا نظرت إليك امتلأت رعبًا؟.

فقال حماد: سمعت ثابت البنانى يقول: سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن العالم إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شىء، وإن أراد أن يكتنز الكنوز هاب من كل شىء**».

فقال الأمير: أربعون ألف درهم خذها فاستعن بها على ما أنت عليه. فقال له: اردها على من ظلمته بها.

فقال: والله لا أعطيك إلا ما ورثته.

قال: لا حاجة لى فيها، ازوها عنى، زوى الله عنك أوزارك.

قال: فتقسمها.

قال: فلعلى إن عدلت فى قسمتها، أن يقول بعض من لم يرزق منها لم يعدل، ازوها عنى، زوى الله عنك أوزارك»[(١)]

فهكذا كان العلماء، وهكذا يكونون، هكذا كانوا يراقبون ربهم.

وهذا هو الإمام ابن الجوزى رحمه الله يعاتب نفسه ويقول، وقد كان من العلماء العاملين: «لما رأيت نفسى فى العلم حسنًا، فهى تقدمه على كل شىء وتعتقد الدليل، وتفضل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل».

إلا أنى رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم، فصحت بها: فما الذى أفادك العلم؟ أين الخوف؟ أين القلق؟ أين الحذر؟

أما كان رسول الله ﷺ سيد الكل، ثم إنه قام حتى تورمت قدماه؟.

---

(١) المنتظم لابن الجوزى ٨/ ٢٩٥، ٢٩٦

أما كان أبو بكر رضي الله عنه شجى النشيج، كثير البكاء؟.

أما كان فى خد عمر رضي الله عنه خطان من آثار الدموع؟. أما كان عثمان رضي الله عنه يختم القرآن فى ركعة؟!.

أما كان علىٌّ رضي الله عنه يبكى بالليل فى محرابه حتى تخضل لحيته بالدموع ويقول: «يا دنيا غرى غيرى»؟. أما كان سعيد بن المسيب رحمه الله ملازمًا للمسجد فلم تفته صلاة فى جماعة أربعين سنة؟[1].

**أخى الحبيب:**

طوبى لمن كان كلامه مناجاة لله، وعمله معاملة مع الله، وفكره فى تدبر مع الله، والاعتبار بصنع الله، ونيته خالصة لوجه الله، يزاحم العلماء بركبتيه، ويقبض على العلم بكلتا يديه، عبادته مؤسسة على القواعد، وعلى تصحيح العقائد.

**أخى الحبيب:**

استعذ بالله من فضول الأعمال والهموم، فكل ما شغل العبد عن الرب فهو مشئوم، ومن فاته القرب من مولاه، فهو لو جازت يداه نعيم الخلد محروم.

كل العافية فى الذكر والطاعة، وكل البلاء فى الغفلة والمخالفة، وكل الشفاء فى الإنابة والتوبة، ومتى أردت أن تعلم، أى الدارين أولى بك فانظر أى الحالين أغلب عليك، فإن أصحاب الطاعة: الجنة أولى بهم، وأصحاب المعصية: النار أولى بهم.

ولا تخادع نفسك فى صحة النظر، فجهل الإنسان بنفسه أضر الضرر، وأعظم الخطر.

اللهم ارزقنا ما رزقت أولياءك وفقراءك ومساكينك من الاستغناء بك، والافتقار إليك، وأكرمنا بما تكرمت به على أوليائك يوم القدوم عليك، واغفر لنا ذنوبنا يا رب العالمين.

## الوصية رقم (٦٢)
## تعاهدوا هذا القرآن

عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**تعاهدوا هذا القرآن فوالذى نَفْسُ محمد بيده! لهو أشد تفلتًا من الإبل فى عقلها**»[2].

**صدق رسول الله ﷺ**

القرآن الكريم هو كتاب الله، الذى أنزله على رسوله الأمين، ونبيه الكريم، هدى ورحمة للعالمين.

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزى ص٦٧، ٦٨ باختصار.

(٢) رواه البخارى (٥٠٣٣) ومسلم (٧٩١).

ذلكم الكتاب العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هو روح هذه الأمة، الذى يحفظ لها حياتها الكريمة، والذى يدفعها إلى المدنية الفاضلة، والذى تستمد منه أحكامها، وتقتدى به فى أقوالها وأفعالها.

ذلك الكتاب الأعظم الذى «فيه نبأ من قبلكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل، ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، فهو حبل الله المتين، ونوره المبين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم».

لأجل هذا أوصانا نبى القرآن ﷺ أن نهتم به، ونحافظ عليه، بدوام تلاوته، وتدبر معانيه، لئلا ننساه ونهمله.

ولقد شبه الرسول ﷺ القرآن الكريم بالجمل الذى تخاف منه الفرار، فما دمت تمسكه بالعقال الذى قيدته به، فأنت آمن من هروبه، أما إذا أهملت قيده، فإنه يجرى وينطلق، فيصعب عليك إمساكه، وكذلك القرآن إذا واظبت على قراءته ظللت حافظًا له، مأنوسًا بمصاحبته، لكنك إذا شغلت عنه، وفترت عن تلاوته، فإنك تنساه، ويزداد نسيانك كلما طال بعدك عنه، ولذلك يقسم الرسول المصطفى ﷺ على أن مفارقة القرآن لمن أهمل تلاوته، أسرع من هروب الإبل التى أهمل عقالها.

لكن ما هى عدد المرات التى يجب على المؤمن أن يقرأ القرآن فيها فى كل عام؟.

يقول الحسن بن زياد: سمعت أبا حنيفة -رحمه الله- يقول: «من قرأ القرآن فى السنة مرتين، فقد أدى حقه، لأن النبى ﷺ عرضه فى كل سنة على جبريل عليه السلام مرة، وفى السنة التى توفى فيها مرتين»(١)

## أخا الإسلام:

ولقد جعل الله تبارك وتعالى نزول القرآن الكريم على هذه الأمة المحمدية نعمة لا تحصى، ومنة عظمى منه سبحانه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١] وقال سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قال ابن عباس رضي الله عنهما فضل الله، الإسلام، ورحمته: أن جعلكم من أهل القرآن.

فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة، والحمد لله على نعمة القرآن وكفى بها نعمة.

---

(١) رواه البخارى.

ولقد جعله الله تبارك وتعالى أمينا عـلى الكتب السالفة، فقال جل شأنه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. قال ابن عباس: المهيمن: الأمين، فالقرآن أمين على كل كتاب قبله.

**قال الفخر الرازى:** إنما كان القرآن مـهيمنًا على الكتب لأنه الكتاب الذى لا يصير منسوخًا ألبتة، ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف على ما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وإذا كان كذلك كانت شهـادة القرآن على أن التوراة والزبور حق وصدق باقية أبدًا، فكانت حقيقة هذه الكتب معلومة أبدا[١].

والقرآن الكريم سماه الله تبارك وتعالـى شفاء، قال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] وسماه نورا لـتوقف الهداية عليه، قـال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] وسماه ذكرًا فقال سبحانه: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] وسماه روحًا لتوقف الحياة الحقـيقية عليه، وهى حياة القلب، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وهو أحسن الحديث، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]. ولقد أمـر الله تعالى نبـيه محـمدًا ﷺ بالتلاوة فـقال سبـحانه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢].

وعن عبـد الله بن عمرو بن الـعاص قال: من قـرأ القرآن فكأنما أدرجت النـبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه، ومن قرأ القـرآن، فرأى أحدًا من خلق الله تعالى أعطى أفضل مما أعطى، فقد حقَّر ما عظَّم الله[٢].

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ ينبغـى لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون، وبنهاره يصوم إذ الناس مفطرون، وبحزنه إذ الـناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبخشوعه إذ الناس يختالون.

ينبغى لحامل القرآن أن يكون باكيًا حزينًا حـليمًا سكينًا لينًا، ولا ينبغى لحامل القرآن أن يكون جافيًا، ولا غافلا[٣].

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١١/ ٤٢.

(٢) الأثر رواه البيهقى فى الشعب (٢٥٩٠) موقوفًا وصححـه الحاكم ١/ ٥٥٢ مرفوعًا ولم يتعقبه الذهبى فهو حسن مرفوع.

(٣) رواه أبو نعيم فى الحلية ١/ ١٣٠ والفوائد لابن القيم ص١٦٣.

وقد روى أن عدد درج الجنة على عدد آى القرآن، فيقال للقارئ يوم القيامة: «اقرأ وارق، فإن كان معه نصف القرآن، يقال له. لو كان عندك زيادة لزدناك»(١)

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها**»(٢)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «**من سره أن يحب الله ورسوله، فلينظر في المصحف**»(٣)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذى يقرأ القرآن، ويتتعتع فيه، وهو عليه شاق له أجران**»(٤) وإن الله سبحانه وتعالى ليرفع بهذا القرآن أقواما، ويضع به آخرين. والأحاديث فى فضل قراءة القرآن كثيرة.

أما من الآثار فقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يرغبون فى حفظ القرآن وتعلمه والعمل به، للفوز بالسعادة فى الدنيا والآخرة.

فعن عثمان رضي الله عنه قال: لو طهرت قلوبكم، ما شبعتم من كلام ربكم.

وقال محمد بن واسع -رحمه الله- القرآن بستان العارفين، فأينما حلوا منه، حلوا فى نزهة(٥)

وقال أحد الصالحين لتلميذه: أتحفظ القرآن؟ قال: واغوثاه، يالله لمريد لا يحفظ القرآن، فبم يتنعم، فبم يترنم؟ فبم يناجى مولاه؟

وقال مالك بن دينار -رحمه الله-: «يا حملة القرآن ماذا غرس القرآن فى قلوبكم، فإن القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض، وقد ينزل الغيث من السماء إلى الأرض فيصيب الحشى، فيكون فيه الحبة فلا يمنعها نتن موضعها أن تهتز وتخضر وتحسن، فيا حملة القرآن ماذا زرع القرآن فى قلوبكم؟ أين أصحاب سورة، أين أصحاب سورتين ماذا عملتم فيهما؟(٦)

وقال أيضًا: إنَّ الصديقين إذا قرئ عليهم القرآن طربت قلوبهم إلى الآخرة(٧)

ولذلك وصف على بن أبى طالب رضي الله عنه المتقين فى ليلهم فقال: «أما الليل فصافون أقدامهم يرتلون أجزاء القرآن ترتيلاً، يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون دواء دوائهم، فإذا

---

(١) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص٣٣١

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٦٧٩٩) والترمذى وأبو داود وذكره الألبانى فى ص.ج رقم ٨١٢٢.

(٣) رواه أبو نعيم فى الحلية ٧/ ٩ ٢ والبيهقى فى الشعب وحسنه الألبانى فى ص.ج ٦١٦٥

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٢٥٢٤١) والبخارى ومسلم.

(٥) الحلية ٢/ ٣٤٧ (٦)، (٧) صفة الصفوة ٣/ ١٥٧، ١٦٥

مروا بآية فيها تشـويق ركنوا إليها طمعًا، وتطلعت نفوسهم إليهـا شوقًا، وظنوا أنها نصب أعينهم. وإذا مـروا بآية فيها تخـويف أصغوا إليهـا بمسامع قلوبهم، وظنوا أن زفيـر جهنم وشهيقها فى أصول آذانهم فهو حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم، وأطراف أقدامهم يطلبون إلى الله فكاك رقابهم»[١].

فقد كانوا رحمهم الله يقومون الليل بالقرآن والصلاة، فهذا هو:

**١- عبد الله بن عـون -رحمه الله-:** كان يقول: «أحب لكم يا مـعشر إخوانى ثلاثة: هذا القرآن تتلونه آناء الليل والنهار، ولزوم الجماعة، والكف عن أعراض المسلمين»[٢].

وكان يقـول: من قرأ فى ليـلة مائة آية إلى ألف آيـة أصبح وله قنطار مـن الثواب، والقنطار ملء مسك ثور ذهبًا[٣].

**٢- محـمد بن كعب الـقرظى:** كان -رحمـه الله- يقول: «لأن أقرأ فى ليـلة حتى أصبح ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا**﴾ [الزلزلة: ١]. والقارعة، لا أزيد عليهما، وأتردد فيهما وأتفكر، أحب إلىّ من أن أهدر القرآن هدرًا أو أنثره نثرًا»[٤].

**٣- منصور بن زادان:** كان -رحمـه الله- زين القراء، كان يختـم القرآن الكريم فى كل يوم وليلة[٥].

**٤- سعيد بـن جبير:** قال يحيى بن عبـد الرحمن: سمعت سعيد بـن جبير يردد فى قيامه هذه الآية: ﴿**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**﴾ [يس: ٥٩]. وقرأ -رحمه الله- القرآن كله فى ركعة فى الكعبة المشرفة.

**٥- الحسن البصرى:** كان -رحمه الله- يقوم الليل بـالقراءة والصلاة، وكان يقول: قراء القرآن ثلاثة أصناف: صنـف اتخذوه بضاعة، وصنف أقاموا حروفـه وضيعوا حدوده، واستطـالوا به على أهل بلادهم، واسـتدروا به الولاة، وقـد كثـر هذا الضرب من حـملة القرآن، لا أكثرهم الله.

وصنف عمـدوا إلى دواء القرآن، فوضعوه علـى داء قلوبهم، فاستشـعروا الخوف، وركدوا فى محاربهـم، وخبوا فى برانسهم، فأولئك الله ينصر بـهم على الأعداء، ويسقى بهم الغيث، فو الله لهذا الصنف من حملة القرآن أقل من الكبريت الأحمر.

**٦- قتادة بـن دعامة:** كان رحمه الله يـختم القرآن فى كل سبع ليـال مرة، فإذا جاء رمضان ختمه فى كل ثلاث ليال مرة، فإذا جاء العشر ختم فى كل ليلة مرة[٦].

---

(١) نهج البلاغة.

(٢)، (٣) حلية الأولياء ٣/ ٤١، ٩٧.

(٤) المرجع السابق ٣/ ٣٤٨.

(٥) المرجع السابق ٣/ ٥٨.

(٦) حلية الأولياء ٢/ ٣٣٨، ٣٣٩.

**٧- الإمام أبو حنيفة رحمه الله:** قال مسعر: دخلت ذات ليلة المسجد، فرأيت رجلاً يُصلى فاستحليت قراءته، فقرأ سبعًا، فقلت: يركع، ثم قرأ ثلثًا، ثم قرأ النصف، فلم يزل يقرأ القرآن حتى ختمه كله فى ركعة، فنظرت فإذا هو أبو حنيفة(١)

وقال خارجة بن مصعب: ختم القرآن الكريم فى الكعبة أربعة من الأئمة: عثمان بن عفان وتميم الدارى، وسعيد بن جبير، وأبو حنيفة.

**أخى الحبيب:**

أرأيت كيف كان هؤلاء يتـعاهدون القرآن فى صلواتهم وخلواتهم، فـعليك أن تسير على دربهم، وأن تنهج نهجهم عسى الله أن يجعلنى وإياك من الفائزين.

**واعلم أخى الحبيب:** أنك إذا أردت أن تنتـفع بالقرآن فـاجمع قلبـك عند تلاوته، وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾** [ق: ٣٧] والسعيد من صرف همته إليـه، ووقف فكره وعزمه عليه، والموفق من وفـقه الله لتدبره، واصطفاه للتـذكير به وتذكره.

اللهـم اجعلنـا من المتـقين الأبرار، وأسكنا مـعـهم فى دار القـرار، ولا تجعلـنا من المخالفين الفجار، وآتنا فى الدنيا حسنة، وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

## الوصية رقم (٦٣)
## الوصية بالختان

عن أم عطيـة الأنصارية، أن امـرأة كانت تختن بالمدينـة، فقال لهـا النبى ﷺ: **«لا تنهكى، فإن ذلك أحظى للمرأة، وأحب إلى البعل»**(٢)

وفى رواية من حـديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا أخفـضت فأشـمى، ولا تنهكى، فإنه أسرى للوجه، وأحظى للزوج»**(٣)

**صدق رسول الله ﷺ**

**أخى الحبيب:**

إن الإسلام الحنيف دين الطهارة والنظافة، سـواء كانت ظاهرة أم باطنة لذلك أوصانا رسولنا محمد ﷺ فى صورة هذه المرأة بشىء من خصال الفطرة الإسلامية، أوصانا بالختان

(١) تاريخ بغداد.
(٢) صحيح سنن أبى داود للألبانى برقم (٥٢٧١) جـ٣/ ٢٩٥ وفى السلسلة الصحيحة برقم (٧٢١).
(٣) السلسلة الصحيحة للألبانى قم (٧٢٢).

لأبنائنا الصغار، وقد قال ﷺ فى حديث آخر: **«الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، وتقليم الأظافر، ونتف الأبط»**[(١)].

والفطرة فطرتان: **فطرة إيمانية** تتعلق بالقلب، وهى معرفة الله تعالى، والإيمان به قال تعالى: ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**﴾ [الروم: ٣٠] ويقول سيد الكائنات: **«ما من مولود إلا ويولد على الفطرة..»** أى الإسلام.

وفطرة عملية وهى الخصال الخمس المذكورة فى الحديث، فالأولى تزكى الروح، وتطهر القلب، والثانية تطهر البدن، وتزين المظهر، وكلاهما مهم فى حياة البشرية حتى تستقيم.

فكأن رأس فطرة البدن (الختان) وقد جعل رسول الله ﷺ خصال الفطرة أكثر من ذلك ففى مسند الإمام أحمد من حديث عمار، وعائشة ﵄: **«عشرة من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، والاستنشاق بالماء، وقص الأظافر، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، والمضمضة، والاختتان»**[(٢)].

فما هو الختان؟ الختان لغة: مأخوذ من الختن وهو القطع من الذكر والأنثى.

وقد ورد: **«إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل»**[(٣)].

وأما فى الشرع فهو: قطع الجلدة التى تغطى حشفة الذكر وتسمى «قلفة» وقطع جزء من البظر، وهو الجلدة، التى فى أعلى فرج الأنثى، ويُسمى ختان المرأة **«خفاضًا»**.

والخَتَّان: هو من يقوم بفعل الختان.

**قال النووى:** ثم إن الواجب فى الرجل أن يقطع جميع الجلدة التى تغطى الحشفة حتى ينكشف جميع الحشفة، وفى المرأة يجب قطع أدنى جزء من الجلدة التى فى أعلى الفرج[(٤)].

والختان سنة من سنن المرسلين، وخاصة سيدنا إبراهيم ﵇، فقد بين حبيب قلوبنا ﷺ أن خليل الرحمن إبراهيم ﵇ قد اختتن، فقال: **«اختتن إبراهيم وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم»**[(٥)] وقد ورد أن الختان من الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم ﵇.

فعن ابن عباس ﵄ قال فى قوله تعالى: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ**﴾ [البقرة: ١٢٤] قال: **«ابتلاه بالطهارة خمس فى الرأس، وخمس فى الجسد، فى الرأس: قص الشارب،**

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود وأحمد والترمذى والنسائى.

(٢) رواه مسلم وأحمد فى مسنده والترمذى وحسنه.

(٣) رواه الترمذى (١٠٩) وابن ماجه (٦١١) وأحمد فى مسنده (٢٥٩٠٣) وذكره الألبانى فى ص.ج برقم (٣٨٥).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى ٢/١٣٨.

(٥) رواه البخارى (٣٣٥٦) ومسلم (٢٣٧٠).

والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس، وفى الجسد: تقليم الأظافر، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء»[١].

وقد أخرج البيهقى وغيره: «أن إبراهيم خليل الرحمن، أمر أن يختتن وهو ابن ثمانين سنة، فعجل، فاختتن بقدوم، فاشتد عليه الوجع، فدعا ربه، فأوحى الله إليه: إنك عجلت قبل أن نأمرك بالآلة، قال: يا رب، كرهت أن أؤخر أمرك، قال: وختن إسماعيل عليه السلام وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وختن إسحاق وهو ابن سبعة أيام»[٢].

ورسولنا محمد ﷺ مأمور باتباع سنن أبيه إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣] والختان من ملته عليه السلام، لذلك فقد ورد أن رسول الله ﷺ ختن الحسن والحسين لسبعة أيام[٣].

**قال ابن القيم الجوزية:**

«إنَّه شعار عباد الصليب، وعباد النار الذين تميزوا به عن الحنفاء، والختان شعار الحنفاء فى الأصل، ولهذا أول من اختتن إمام الحنفاء، وصار الختان شعار الحنيفية، وهو مما توارثه بنو إسماعيل، وبنو إسرائيل، عن إبراهيم الخليل عليه السلام، فلا يجوز موافقة عباد الصليب القلف فى شعار كفرهم[٤].

**ويقول أيضًا:**

إن الأقلف معرض لفساد طهارته وصلاته، فإن القلفة تستر الذكر كله، فيصيبها البول، ولا يمكن الاستجمار لها، فصحة الطهارة والصلاة موقوفة على الختان، ولهذا منع كثير من السلف والخلف إمامته -أى الأقلف- وإن كان معذورًا فى نفسه، فإنه بمنزلة من به سلس بول[٥].

والختان قد اختلف الفقهاء فى حكمه هل هو واجب أم سنة؟ فقال جماعة بسنيته واستدلوا بحديث: «**الختان سنة للرجال ومكرمة للنساء**»[٦].

وقال البعض الآخر بوجوبه، ولكل دليله.

واختلفوا أيضًا فى حكم ختان المرأة، فقال جماعة ومنهم الشافعية: بأن ختان النساء واجب، والبعض يرى أنه جائز، وأنه مكرمة للمرأة.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه بإسناد صحيح.

(٢) رواه البيهقى ٨/ ٣٢٦ وعزاه الحافظ ابن حجر فى الفتح ٦/ ٤٤٩ إلى أبى يعلى ورجال إسناده ثقات.

(٣) رواه البيهقى وأبو الشيخ بإسناد حسن. (٤)، (٥) تحفة المودود ص٢١٨ لابن القيم.

(٦) رواه أحمد فى مسنده (٢٠٥٩٧) بإسناد حسنه حمزة الزين فى تحقيق المسند ١٥/ ٢٩٩ ورواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى.

وقد كان ختان النساء معروفًا عند السلف الصالح، فهذا هو الحسن البصرى رحمه الله يقول: دعى عثمان بن أبى العاص إلى طعامه، فقيل: على ما تدرى هذا؟.

هذا ختان جارية!! فقال: هذا ما كنا نراه على عهد رسول الله ﷺ، وأبى أن يأكل[١].

فقد كانوا يحبون ستر ختان الإناث فى عهد رسول الله ﷺ، ويظهرون ختان الذكور وتقول أم مهاجر: سبيت وجوار من الروم، فعرض علينا عثمان بن عفان الإسلام، فلم يسلم منا غيرى، وغير أخرى، فقال: اخفضوها وطهروها، فكنت أخدم عثمان.

وعن أم علقمة قالت: إن بنات أختى عائشة ختن[٢].

**لكن ما فائدة الختان؟**

**يقول الدكتور «صبرى القبانى»:**

**وفى الختان بعض الفوائد نذكر منها:**

١- بقطع القلفة يتخلص المرء من المفرزات الدهنية، ويتخلص من السيلان الشحمى المقزز للنفس، ويحال دون إمكان التفسخ والإنتان.

٢- بقطع القلفة يتخلص المرء من خطر انحباس الحشفة أثناء التمدد.

٣- يقلل الختان إمكان الإصابة بالسرطان، وقد ثبت أن هذا السرطان كثير الحدوث عند الأشخاص المتضيقة قلفتهم، بيد أنه نادر جدًا فى الشعوب التى توجب عليهم شرائعهم الختان.

٤- إذا شرعنا فى ختان الطفل أمكننا تجنيبه الإصابة بسلس البول الليلى.

٥- يخفف الختان من كثرة استعمال العادة السرية لدى البالغين إلى غير ذلك من هذه الفوائد[٣].

**وقد ذكر الشيخ مجدى السيد فى كتابه تربية الأولاد:**

عند التبول تتسلل بعض قطرات البول إلى التجويف بين القلفة، ورأس الذكر، وهذه القطرات إلى جانب كونها مكانًا خصبًا للميكروبات، والجراثيم فى هذه المنطقة فإنها كثيرًا ما يخرج بعضها بعد التطهير، فتصيب النجاسة، الثوب أو البدن، كما أنها تسبب كثيرًا من الوسوسة -أعاذنا الله منها- لدى الشخص إذ يظن أنها خارجة من الذكر فيعيد وضوءه المرة بعد الأخرى.

---

(١) السلسلة الصحيحة للألبانى (٧٢٣) وحسنه. (٢) الأدب المفرد للبخارى (١٢٤٧، ١٢٤٩).

(٣) تربية الأولاد فى الإسلام ١/١١٦، ١١٧ لعبد الله علوان ط/ دار السلام وتربية الأولاد للشيخ/ مجدى السيد نقلاً من كتاب حياتنا الجنسية للدكتور صبرى القبانى.

إزالة القلفة لها تأثير طيب جدًا على المعاشرة الزوجية، إذ أن غير المختونة، تجد من اللذة ما لا تجد المختونة، فكأن المختونة فى حالة اعتدال، أما الأخرى فى حالة شدة الشهوة، وهو موضع خطر عظيم.

وقد دلت نسبة الإحصاءات على أن سرطان الرحم عند زوجات المسلمين أقل بكثير جدًا من نسبتها عند زوجات غير المختونين[1].

**وجاء فى كتاب «بيان للناس» ما يلى:**

وقد وجه سؤال إلى دار الإفتاء المصرية عن حكم ختان البنات، فجاء فى إجابة المفتى -الشيخ جاد الحق- بعد ذكر الأدلة وأقوال الفقهاء قوله: ومن هنا اتفقت كلمة الفقهاء على أن الختان للرجال والنساء من فطرة الإسلام وشعائره، وأنه أمر محمود، ولم ينقل عن أحد من فقهاء المسلمين، فيما طالعتنا من كتبهم التى بين أيدينا، القول بمنع الختان للرجال أو النساء، أو عدم جوازه أو إضراره بالأنثى، إذا هو تم على الوجه الذى علمه الرسول ﷺ لام حبيبة.. أما الاختلاف فى وصف حكمه بين واجب وسنة ومكرمة، فيكاد يكون اختلافًا فى الاصطلاح الذى يندرج تحته الحكم.

وإذا استبان مما تقدم حكم الختان، فإنه لا يصح أن يترك توجيهه ﷺ وتعليمه إلى قول غيره حتى ولو كان طبيبًا، لأن الطب علم، والعلم يتطور، تتحرك نظرته ونظرياته دائمًا، ولذلك نجد أن قول الأطباء فى هذا الأمر مختلف، فمنهم من يرى ترك ختان النساء، وآخرون يرون ختانهن، لأن هذا يهذب كثيرًا من إثارة الجنس، لا سيما فى سن المراهقة التى هى أخطر مراحل حياة الفتاة، ولعل تعبير بعض روايات الحديث الشريف فى ختان النساء بأنه مكرمة يهدينا إلى أن فيه الصون، وأنه طريق للعفة، فوق أنه يقطع تلك الإفرازات الدهنية التى تؤدى إلى التهاب مجرى البول، وموضع التناسل، والتعرض بذلك للأمراض الخبيثة.

هذا ما قاله الأطباء المؤيدون لختان النساء، وأضافوا أن الفتاة التى تعرض عن الختان تنشأ من صغرها، وفى مراهقتها حادة المزاج سيئة الطبع. وهذا أمر قد يصوره لنا ما صرنا إليه فى عصرنا من تداخل وتزاحم، بل وتلاحم بين الرجال والنساء فى مجالات الملاصقة والزحام التى لا تخفى على أحد، فلو لم تقم الفتاة بالختان لتعرضت لمثيرات عديدة تؤدى بها -مع موجبات أخرى تزخر بها حياة العصر، وانكماش الضوابط فيه- إلى الانحراف والفساد[2].

---

(١) تربية الأولاد فى الإسلام بتصرف واختصار للشيخ مجدى السيد ص٨٤.

(٢) بيان للناس من الازهر الشريف ٢/٢٦٦، ٢٦٧.

**أخى الحبيب:**

إن المسلم إذا تمسك بهذه السنن كان له شرف اتباع الأنبياء والمرسلين، وقد علمنا من كتاب ربنا أن الفوز فى الدنيا والآخرة إنما هو منوط بتلك المتابعة كما قال الله عز وجل: ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾ [النساء: ٨٠].

وقال: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٧١].

كما أن فى التمسك بهذه الخصال تبدو المحافظة على الصورة الحسنة التى خلق الله عز وجل الإنسان عليها، والتى أشار إليها قول ربنا عز وجل: ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾ [التغابن: ٣].

وفى التمسك بهذه السنن إظهار المخالفة لشعارات الكفر وأهله، من مجوس ويهود، ونصارى، وغيرهم من ملل الكفر بأنواعها.

ولذا نجد النبى ﷺ كثيرًا ما نبه إلى هذا الأمر بتلك التحذيرات: خالفوا المجوس، خالفوا اليهود، خالفوا أهل الكتاب، خالفوا المشركين...[1].

فيا هذا عاتب نفسك على تفريطها، ثم حاسبها على تخليطها.

آه لنفوس بغرور هذه الدنيا يخدعن، فإذا فاتهن شىء من فانٍ توجعن، شربن من مياه الغفلة وتجرعن. أما علمت أنهن يحصدن ما يزرعن.

نسأل الله رب العالمين أن يجعل فى قلوبنا نورًا، وفى أبصارنا نورًا، ومن أمامنا نورًا، ومن فوقنا نورًا، ومن تحتنا نورًا، وأن يجعل قبورنا نورًا ، وأن يحشرنا مع عباده المتقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

## الوصية رقم (٦٤)
## استح من الله

عن أبى مسعود الأنصارى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»[2].

**صدق رسول الله ﷺ**

هذه الوصية المباركة من الوصايا التى لو تمسك بها كل مسلم ومسلمة لكفته فى إصلاح دينه ودنياه، أتدرى لماذا؟.

---

(١) ذكره الشيخ مجدى السيد فى كتابه ٥٠ وصية للنساء ص٧١ نقلاً عن كتاب الفطرة.

(٢) رواه البخارى وأحمد فى مسنده (١٧٠٢٧) وابن ماجه (٤١٨٣) وأبو داود (٤٧٩٧) والعجلونى فى كشف الخفاء (٢٧٠) جـ١/ ١٠٤ وقال رواه الطبرانى فى الأوسط.

لأنها اشتملت على أصل من الأصول الأخلاقية، وشعبة من شعب الإيمان، والتى قال عنها النبى العدنان ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[١] فهى وصية الأنبياء والمرسلين من قبل نبينا الأمين ﷺ، ولذلك قال عنها قبل أن يزفها إلينا: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى**» يشير إلى أن هذا مأثور عن الأنبياء المتقدمين، وأن الناس تداولوه بينهم، وتوارثوه عنهم قرنًا بعد قرن، وهذا يدل على أن النبوة المتقدمة جاءت بهذا الكلام، وأنه قد اشتهر بين الناس حتى وصل إلى أول هذه الأمة.

والحياء أمارة صادقة على طبيعة الإنسان، فهو الذى يكشف عن قيمة إيمانه ومقدار أدبه، ولذلك لما مر النبى ﷺ على رجل من الأنصار، وهو يعظ أخاه فى الحياء، أى بتركه، فقال له النبى ﷺ ناصحًا موصيًا: «**دعه فإن الحياء من الإيمان**»[٢] إنها وصية قصيرة المبنى، لكنها عظيمة المعنى، ورغم أنها موجزة إلا أنها صارت مثلاً عظيمًا يضرب لمن دفعه عدم حيائه إلى ارتكاب معصية الله تعالى، بل إنها تحمل التهديد والوعيد لمن دفعه عدم الحياء إلى أن يرتكب أمرًا محظورًا كقوله تعالى: ﴿**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [فصلت: ٤٠] ومثل قوله تعالى: ﴿**فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ**﴾ [الزمر: ١٥] والمعنى على هذا: إذا لم يكن لك حياء فاعمل ما شئت فالله يجازيك عليه.

ويرى بعض العلماء أنه أمر، ومعناه الخبر، والمعنى حينئذ: أن من لم يستح صنع ما شاء فإن المانع من فعل القبائح هو الحياء، فمن لم يكن له حياء انهمك فى كل فحشاء ومنكر.

والحياء أصل العقل، وبذر الخير، وتركه أصل الجهل، وبذر الشر، فإن الشخص إذا عرى وجهه من لباس الحياء، ولم يخش فى سلوكه لومة لائم، مد يد الأذى للناس، وطغى على كل من يقع فى سلطانه، ومثل هذا الشخص الشرس لن يجد قلبًا يعطف عليه بل إنه يغرس الضغائن فى القلوب وينميها.

وأى حب لامرئ جرى على الله وعلى الناس، لا يرده عن الآثام حياء، فإذا صار الشخص بهذه المثابة لم يؤمن على شىء قط، إذ كيف يؤمن على أموال لا يخجل من أكلها، أو على أعراض لا يستحى من فضحها، أو على موعد لا يهمه أن يخلفه، أو على واجب لا يبالى أن يفرط فيه، أو عن بضاعة لا يتنزه عن الغش فيها؟.

فإذا فقد الشخص حياءه، وفقد أمانته أصبح وحشًا كاسرًا ينطلق معربدًا وراء شهواته، ويدوس فى سبيلها أزكى العواطف، فهو يغتال أموال الفقراء غير شاعر نحوهم

(١) رواه مسلم وأحمد وغيرهما.
(٢) رواه البخارى.

يرقة، وينظر إلى آلام المنكوبين والمستضعفين فلا يهتز فؤاده بشفقة، إن أثرته الجامحة وضعت على عينيه غشاوة مظلمة، فهو لا يعرف إلا ما يغويه ويغريه بالمزيد.. ويوم يبلغ سرق هذا الحضيض فقد أفلت من قيود الدين، وانخلع من ربقة الإسلام(١).

والحياء يدل على العقل، كما أن عدمه دال على الجهل، ولقد أحسن القائل:

**وليس بمنسوب إلى العلم والنهى … فتى لا ترى فيه خلائق أربع**
**فواحدة: تقوى الإله التى بها … ينال جسيم الخير والفضل أجمع**
**وثانية: صدق الحياء فإنه … طباع عليه ذو المروءة يطبع**
**وثالثة: حلمٌ إذا الجهل أطلعت … إليه خبايا من فجور تسرع**
**ورابعة: جود بملك يمينه … إذا نابه الحق الذى ليس يدفع(٢)**

وقد عرف العلماء الحياء بتعريفات مختلفة منها:

أ- أنه انقباض النفس عن القبيح وتركه.

ب- الحياء هو انفعال النفس وتألمها من النقص والقبيح بغريزة حب الكمال.

جـ- هو تغير وانكسار يعترى الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم.

فالواجب على العاقل أن يعود نفسه لزوم الحياء من الناس، وإن من أعظم بركته تعويد النفس، ركوب الخصال المحمودة ومجانبتها للخلال المذمومة.

ولقد أنشد الشاعر:

**إذا رزق الفتى وجها وقاحًا … تقلب فى الأمور كما يشاء**
**ولم يك للدواء ولا لشىء … يعالجه به فيه غناء**
**فما لك فى معاتبة الذى لا … حياء لوجهه إلا العناء**

ولقد كان هذا الخلق العظيم من أخلاق النبوة، فقد كان نبينا محمد ﷺ حييًا، بل كان شديد الحياء، حتى لقد وصفه مخالطوه بأنه كان أشد حياء من العذراء فى خدرها، ولم لا؟ وهو عفيف النظرة، مهذب الكلمة، طيب العشرة، لكن حياءه ﷺ كان مقصورًا على ما لا يتصل بتبليغ الدعوة، والنهوض بالرسالة، وإقرار الحق، وإقامة العدل.

فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: كان إذا كره شيئًا عرفناه فى وجهه(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبى ﷺ إذا بلغه عن أحد ما يكرهه، لم يقل: ما بال فلان يقول كذا، ولكن يقول: ما بال أقوام يصنعون كذا أو يقولون كذا، ينهى عنه، ولا يسمى فاعله(٤).

---

(١) خلق المسلم للشيخ الغزالى ص١١١. (٢) روضة العقلاء لابن حبان ص٥٣.
(٣). (٤) الشفاء بتصريف حقوق المصطفى ١/ ٦٨.

وقد كان بعض الصحابة رضوان الله عليهم يتحينون وقت طعامه، فيدخلون بيوته، وينتظرون الطعام، مستأنسين لمحادثة بعضهم لبعض، وكان ﷺ يضيق بجلوسهم، وكثرة أحاديثهم، لكن حياءه يمنعه أن يأمرهم بالخروج، لأن هذا الأمر يحرجهم، ويشق عليهم، فتولى مولاه عن هذا الأمر، وكفاه إياهم فقال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ**﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وكان من حيائه ﷺ أنه كان لا يثبت بصره فى وجه أحد، ويعرض عمن يتكلم بغير جميل، ويتغافل عما لا يشتهى من الحديث. وكان يكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت فرج رسول الله ﷺ قط[١].

وكان ﷺ يتوصل بالكناية عما يضطر إلى التعبير عنه مما يكره التصريح به ولقد ذكرت السيدة عائشة رضي الله عنها أن أمراة سألت النبى ﷺ عن غسلها من المحيض فعرفها كيف تغتسل، ثم قال لها: «**خذى فرصة فتطهرى بها. قالت: كيف أتطهر بها؟ قال: سبحان الله! تطهرى**، فاجتذبتها إلىَّ وقلت لها: تتبعى بها أثر الدم»[٢].

ولقد تعلم أصحابه رضوان الله عليهم منه هذا الخلق العظيم، حتى كان منهم من تستحى منه ملائكة الله تبارك وتعالى، وهو سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعًا فى بيتى كاشفًا عن فخذيه، أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له، وهو على تلك الحالة، ثم استأذن عمر، فأذن له، وهو كذلك.. ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه، فلما خرج. قلت: دخل أبو بكر فلم تهتش له، ولم تباله ثم دخل عمر فلم تهتش له، ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست، وسويت ثيابك!.

فقال ﷺ: «**ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة**»[٣].

لذلك يقول أبو هريرة رضي الله عنه -مرفوعا-: «**الحياء من الإيمان، وأحيى أمتى عثمان**»[٤].

وقال عنه الحسن البصرى رحمه الله: إنه كان ليكون فى البيت، والباب عليه مغلق، فما يضع عنه الثوب ليفيض عليه الماء يمنعه الحياء أن يقيم صلبه[٥].

---

(١) الشفاء ١/ ٦٩ ونور اليقين فى سيرة سيد المرسلين للخضرى ص٣٩٥.

(٢) رواه البخارى. (٣) رواه مسلم (٢٤٠١).

(٤) صححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٨٢٨).

(٥) علو الهمة ٥/ ٥٥٥ د/ سيد العفانى مؤسسة الرسالة.

فلنستمسك بأخلاقه ﷺ، وأخلاق صحابته رضوان الله عليهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] والمرء إذا اشتد حياؤه صان عرضه، ودفن مساويه، ونشر محاسنه، ومن ذهب حياؤه، ذهب سروره، ومن ذهب سروره، هان على الناس ومُقت، ومن مُقت أوذي، ومن أُوذى حزن، ومن حزن أصيب فى عقله، ومن أصيب فى عقله كان أكثر قوله عليه لا له، ولا دواء لمن لا حياء له، ولا حياء لمن لا وفاء له، ولا وفاء لمن لا إخاء له، ومن قل حياؤه صنع ما شاء، وقال ما أحب[1].

إذا لم تصن عرضًا ولم تخش خالقًا ... وتستحى مخلوقًا فما شئت فاصنع

إذا كنت تأتى المرء تعظم حقه ... ويجهل منك الحق فالصرم أوسع

واعلم أخا الإسلام أن الحياء نوعان:

**أحدهما:** ما كان خلقًا وجبلة غير مكتسب، أى من الفطرة التى فطر الله الناس عليها، فيكون أجل الأخلاق التى يمنحها الله العبد، ويجبله عليها، ولهذا قال ﷺ: «**الحياء لا يأتى إلا بخير**»[2] فإنه يكف صاحبه عن ارتكاب القبائح ودناءة الأخلاق، ويحث على استعمال مكارم الأخلاق ومعاليها.

**والثانى:** ما كان مكتسبًا من معرفة الله، ومعرفة عظمته، وقربه من عباده، واطلاعه عليهم، وعلمه بخائنة الأعين، وما تخفى الصدور، وهذا من أعلى خصال الإيمان، بل هو من أعلى درجات الإحسان، وقد أوصى بذلك[3] أحد أصحابه فقال له: «كن كأنك ترى الله، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[4] وفى حديث ابن مسعود: «الاستحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتتذكر الموت والبلى»[5].

وقال أبو حاتم البستى: الحياء حياآن:

**١- استحياء العبد من الله جل وعلا:** ويكون بعمل الطاعات، والبعد عن السيئات ويكون الحياء من الله تعالى بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

**٢- استحياء من المخلوقين:** ويكون بكف الأذى عنهم، وترك المجاهرة بالقبيح، ويكون فى الكلام معهم، بأن يطهر فمه من الفحش، وينزه لسانه عن العيب، ويخجل من ذكر العورات، يقول سيد الكائنات: «**الحياء من الإيمان، والإيمان فى الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء فى النار**»[6].

---

(١) روضة العقلاء ص٥٥.
(٢) رواه البخارى (٦١١٧) ومسلم (٣٥).
(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص٢٦٨.
(٤) حسنه الألبانى فى ص.ج برقم (١٠٣٧).
(٥) رواه الترمذى وأحمد والحاكم وقال صحيح وأقره الذهبى وقد تخرج فى موضع آخر.
(٦) رواه أحمد (١٠٤٦٠) بإسناد صححه حمزة الزين ٩/ ٤٩٢ ورواه الترمذى وقال حسن صحيح وابن ماجه رقم (٤٨٤).

ومن الحياء مع الناس أن يعرف لأصحاب الحقوق منازلهم، وأن يؤتى كل ذى فضل فضله، فللغلام مع من يكبرونه، وللتلميذ مع من يعلمونه، مسلك يقوم على التأديب والتقديم، فلا يسوغ أن يرفع فوقهم صوته، ولا أن يجعل أمامهم خطوه.

وفى الحديث: «**تواضعوا لمن تعلمون منه**»(١)

ومن الحياء مع الناس: غض بصرك عما لا يحل لك منهم، وعدم الاشتغال بعيوبهم قال منصور بن عمار فى الحكمة: من أبصر عيب نفسه، اشتغل عن عيب غيره، ومن تعرى من لباس التقوى لم يستتر بشىء، ومن رضى برزق الله لم يحزن على ما فى يد غيره.

٣- **استحياء من النفس**: وينحصر فى العفة، وصيانة الخلوات، ففى صحيح ابن حبان عن أسامة بن شريك قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما كره الله منك شيئًا فلا تفعله إذا خلوت**»(٢)

وقال بعض السلف: إذا دعتك نفسك إلى كبيرة، فارم ببصرك إلى السماء، واستح ممن فيها، فإن لم تفعل فارم ببصرك إلى الأرض، واستح ممن فيها، فإن كنت لا ممن فى السماء تخاف، ولا ممن فى الأرض تستحى، فاعدد نفسك فى عداد البهائم(٣).

**إذا لم تخش عاقبة الليالى ... ولم تستح فاصنع ما تشاء**

**فلا والله ما فى العيش خير ... ولا الدنيا إذا ذهب الحياء**

**يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقى اللحاء**

اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك(٤)

اللهم إنى أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لنا وترحمنا، وأن تتوب علينا يا رب العالمين.

## الوصية رقم (٦٥)
## أوصانى خليلى بثلاث

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: أوصانى خليلى ﷺ بثلاث: «**بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتى الضحى، وأن أوتر قبل أن أرقد**»(٥)

لقد حرص الرسول ﷺ أن يرشد أصحابه ويوصيهم بما يعود عليهم نفعه فى دينهم ودنياهم، وفى يوم من الأيام أوصى أبا هريرة رضي الله عنه بأمور ثلاثة هى أمور تدربه على فعل

---

(١) رواه الطبرانى. (٢) رواه بن حبان فى صحيحه (٤٠٤) والحديث حسن بشواهده.

(٣) تنبيه الغافلين ص٣٧٥ (٤) رواه مسلم والترمذى وهو فى ص.ج للألبانى (١٢٨٠).

(٥) رواه البخارى (١١٧٨) ومسلم (٧٢١) وأحمد فى مسنده (٧١٣٨).

خيرات، وتحصيل الحسنات، وتقوم نفسه وتجعلها دائمًا على اتصال بربها، وليست هذه الوصية خاصة بهذا الصحابى الجليل، وإنما هو يوصى أمته فى شخص أبى هريرة رضي الله عنه، لأن العبرة بعموم اللفظ كما قرر العلماء.

وقد عبر أبو هريرة بقوله: «**أوصانى خليلى**» حقًّا لقد كان خليله، لكن لم يكن مثل أبى بكر الصديق رضي الله عنه لأن أبا بكر الصديق كان من السابقين إلى الإسلام فى أول لحظات عمره، ومع ذلك قال سيد الخلق: «**لو كنت متخذًا خليلاً غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلاً**»[1] **يقول الإمام النووى:**

لا يخالف هذا الحديث الآخر، لأن الممتنع أن يتخذ النبى ﷺ **غيره خليلاً، ولا يمتنع** اتخاذ الصحابى وغيره النبى ﷺ خليلاً[2].

وأبو هريرة رضي الله عنه صحابى جليل، كان من أشد الناس ملازمة للرسول ﷺ **منذ أسلم يوم خيبر**. ولقد شهد بذلك فاروق الأمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه **حين قال له: يا أبا هريرة، كنت** ألزمنا لرسول الله ﷺ وأعلمنا بحديثه[3].

**وهذه ثلاث هى:**

**١- صيام ثلاثة أيام من كل شهر**

[illegible] صاحبه الجنة، ويرفعه إلى أعالى الدرجات، كما قال سيد **الخلق: «من صام يومًا ابتغاء وجه الله، ختم له بها دخل الجنة»**[4] كما أنه يقيه من حر **جهنم يوم القيامة**. كما قال النبى ﷺ: «**من صام يومًا فى سبيل الله، باعد الله بذلك اليوم حر جهنم عن وجهه سبعين خريفًا**»[5].

وصوم ثلاثة أيام من كل شهر مستحب، لأن النبى ﷺ فعله، وأمر بفعله، ورغب فيه بأحاديث منها:

١- فعن أبى ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله**»[6] لأن الحسنة بعشر أمثالها، فكأن كل يوم من الأيام يمثل ثلث الشهر، فعن وضب على ذلك، كأنما صار الشهر كله.

٢- وعن أبى قتادة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**ثلاث من كل شهر، ورمضان إلى رمضان، فهذا صيام الدهر كله**»[7].

---

(١) البخارى. (٢) صحيح مسلم بشرح النووى ٣/ ٢٢٩.

(٣) [illegible]

(٤) رواه أحمد فى مسنده وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٤١٢ .

(٥) رواه أحمد. (٨٦٧٥)) وابن ماجه والنسائى وصححه الألبانى فى ص. ج برقم (٦٣٢٩).

(٦) رواه أحمد فى مسنده (٢١٩٨) جـ١٥/ ٤٨٢ بإسناد صحيح. (٧) رواه مسلم.

وكل ذلك يرجع إلى الإخلاص فى العمل، وثوابه عظيم، ورحمته سبحانه وتعالى واسعة لكن أى الأيام كان النبى ﷺ يصومها؟.

اختلف العلماء فى ذلك، فبعضهم قال: ثلاثة أيام من أوله، ومنهم من قال: كان يصوم الأيام البيض «الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر» ومنهم من قال: كان يصوم أول يوم من الشهر، والعاشر، والعشرين، ومنهم من قال بخلاف ذلك.

فافعل ما يحلو لك، فقد ورد عنه - قالت عائشة: «كان رسول الله ﷺ يصوم ثلاثة أيام من كل شهر» فقيل لها: من أيِّه؟ قالت: «لم يكن يبالى من أيِّه كان»(١).

**٢- وركعتى الضحى:**

وهى صلاة مستحبة سميت باسم وقتها، وقد أقسم مولانا تبارك وتعالى بهذا الوقت فى كتابه العزيز، وسمى سورة فى القرآن باسمه، فقال سبحانه: ﴿**وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ**﴾ [الضحى: ١، ٢] وله سبحانه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته. لكن لماذا خص وقتًا بالقسم؟ قال الإمام الرازى فى تفسيره:

**الجواب: فيه وجهان:**

**أحدهما:** أنه وقت اجتماع الناس، وكمال الأنس بعد الاستيحاش فى زمان الليل، فبشره ربه أن بعد استيحاشك بسبب احتباس الوحى يظهر ضحى نزول الوحى.

**ثانيهما:** أنها هى الساعة التى كلم الله فيها موسى ربه، وألقى السحرة سجدًا، فاكتسى الزمان صفة الفضيلة لكونه ظرفًا، فكيف فاعل الطاعة(٢).

فوقت الضحى وقت عظيم شريف، لذلك أقسم الله به فى كتابه.

وأما صلاة الضحى ففضلها عظيم، لأن كثيرًا من الناس يغفلون عن صلاتها، لأنهم حينئذ يكونون قد انشغلوا بالمصالح الدنيوية.

وقد وردت أحاديث كثيرة فى ثواب صلاة الضحى منها:

ما رواه مسلم وغيره عن أبى ذر رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهى عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى**»(٣).

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من صلى الفجر فى جماعة، ثم**

---

(١) رواه أحمد فى مسنده بإسناد صحيح وابن ماجه.

(٢) تفسير الفخر الرازى «مفاتيح الغيب» جـ٣١/ ٤٦٦.

(٣) رواه البخارى، ومسلم (٧٢١).

**قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين، كانت له كأجر حجة وعمرة، تامة تامة تامة»**[١].

وحديث نعيم بن همَّار الغطفانى أن النبى ﷺ قال: «**قال ربكم عز وجل: صلِّ لى يابن آدم أربعًا فى أول النهار أكفك آخره**»[٢] أى أكفيك شر آخره من الهموم والبلايا وقد وردت أحاديث أخرى تدل على عظم فضلها والحث عليها، وأنها أعظم غنيمة يغتنمها المسلم، وينتصر بها على الشيطان، ويرضى بها عنه الرحمن، ويعمه بالإحسان.

**ومن فوائدها:** أن مصليها يكون فى حفظ الله ورعايته طول يومه.

**ومنها:** أنها تكفر صغائر الذنوب، وتحفظ مصليها من ارتكاب الكبائر.

**ومنها:** أنها تجزئ عن ستين وثلثمائة صدقة، المطلوبة على مفاصل البدن.

فعلى العاقل أن يهتم بتأديتها، والمواظبة عليها، ويكثر من التسبيح والتهليل، والتحميد وسائر الطاعات ليؤدى بذلك ما عليه من الصدقات المطلوبة على أعضائه.

**لكن ما وقت هذه الصلاة؟.**

وقتها من ارتفاع الشمس قدر رمحين، وقد قدره العلماء بزمن ثلث، أو نصف ساعة من حين طلوع الشمس.

لقول سعيد بن نافع: رآنى أبو بشير الأنصارى وأنا أصلى صلاة الضحى حين طلعت الشمس، فعاب علىَّ ذلك ونهانى، ثم قال: إنّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تصلوا حتى ترتفع الشمس، فإنها تطلع بين قرنى شيطان**».

والأفضل تأخيرها حتى يمضى ربع النهار لقول زيد بن أرقم ﷺ خرج رسول الله ﷺ على أهل قباء، وهم يصلون الضحى، فقال: «**صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال من الضحى**» والفصال جمع فصيل وهو صغار الإبل، فإذا ارتفعت الشمس بركت الفصال من شدة حر الرمضاء، لاحتراق أخفافها.

وصلاة الضحى تصلى ركعتين، وتصلى أربعًا، وستًا، وثمان ركعات، وعشر ركعات وهى سنة مؤكدة فى حقنا، لكن فى حق رسولنا ﷺ كانت واجبة لحديث ابن عباس ﷺ أن النبى ﷺ قال: «**كتب علىَّ النحر ولم يكتب عليكم، وأمرت بركعتى**

(١) رواه الترمذى (٥٨٦) وهو حديث حسن بشواهده وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود.
(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢٢٣٧١) بإسناد جيد وهو فى صحيح سنن أبى داود للألبانى برقم (١٢٨٩) صحيح.

**الضحى، ولم تؤمروا بها»** ورد بأنه ضعيف لأن النبى ﷺ كان يصليها، وكان يتركها، فلو كانت واجبة لما تركها النبى ﷺ.

**٣- وأن أوتر قبل أن أرقد:**

وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على أهمية صلاة الوتر، وفضل ثوابها، والحث عليها، ومنها:

عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**يا أهل القرآن أوتروا فإن الله عز وجل وتر يحب الوتر**»[1] وفى رواية: «**إن الله تعالى وتر يحب الوتر فأوتروا يا أهل القرآن**».

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: أخبرنى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله عز وجل زادكم صلاة فصلُّوها فيما بين العشاء إلى الصبح: الوتر الوتر**»[2].

وفى رواية: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «**إن الله زادكم صلاة فحافظوا عليها وهى الوتر**»[3].

وعن خارجة بن حذافة قال: خرج رسول الله ﷺ يومًا، فقال: «**قد أمركم الله بصلاة.. وهى الوتر، فجعلها لكم فيما بين العشاء الآخرة إلى طلوع الفجر**»[4].

والوتر سنة مؤكدة، وليس بواجب، وقد انتظر الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ فى ليلة من الليالى فلم يخرج لكى يصلى بهم الوتر، فلما سألوه فى ذلك قال لهم: «**كرهت أن يكتب عليكم الوتر**»[5].

وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال: «الوتر ليس بحتم، ولكنه سنة رسول الله»[6].

وفى رواية أخرى: «الوتر ليس بحتم كهيئة الصلاة ولكنه سنة سنها رسول الله ﷺ» خلافًا لمن قال بوجوبه كأبى حنيفة وغيره، لكن لا يجوز تركه مطلقًا.

قال الإمام ابن تيمية: «الوتر سنة مؤكدة باتفاق المسلمين، ومن أصر على تركه، فإنه

---

(١) رواه ابن ماجه (١١٦٩) والترمذى عن على وأحمد فى مسنده (٨٧٧) وحسنه الألبانى فى ص.ج برقم (١٨٢٦).

(٢) رواه أحمد والطبرانى وحسن إسناده الشيخ أحمد شاكر فى تحقيق المسند ٦/ ٣٩٤ برقم (٦٩١٩).

(٣) رواه أحمد فى مسنده وصححه الألبانى فى ص.ج (١٧٦٨).

(٤) رواه أبو داود وابن ماجه والترمذى وقال حديث غريب وذكره الألبانى فى الصحيحة (١٠٨).

(٥) رواه ابن خزيمة بإسناد حسن.

(٦) ابن ماجه والترمذى وأحمد فى مسنده (٦٥٢) صحح إسناده الشيخ أحمد شاكر ١/ ٤٤٩.

ترك شهادته والوتر أوكد من سنة الظهر والمغرب والعشاء، والوتر أفضل من جميع تطوعات النهار، كصلاة الضحى، بل أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل، وأوكد ذلك، الوتر وركعتا الفجر»[١].

وتجوز صلاة الوتر من أول الليل، وتجوز في أوسطه، وفي آخره، كما كان النبي ﷺ يفعل، فعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ كان يوتر من أول الليل، وأوسطه، وآخره»[٢].

وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «من كل الليل أوتر رسول الله ﷺ يوتر من أول الليل، وأوسطه وآخره، وانتهى وتره إلى السحر»[٣].

لكن الأولى لمن خاف أنه لا يستيقظ في وقت السحر فعليه أن يبادر بصلاة الوتر قبل نومه، لكنه إن تيقن، وغلب على ظنه الاستيقاظ، فليؤخره إلى هذا الوقت فهو أفضل.

فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من خاف ألا يقوم من آخر الليل، فليوتر أوله، ومن طمع أن يقوم آخره فليوتر آخر الليل، فإن صلاة آخر الليل مشهودة، وذلك أفضل**»[٤].

وهذا ما حدث بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فعن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: «**متى توتر؟**» قال: أوتر قبل أن أنام، وقال لعمر: «**متى توتر؟**» قال: أنام ثم أوتر، قال لأبي بكر: «**أخذت بالحزم**» -أي الأحوط-، وقال لعمر: «**أخذت بالقوة**»[٥].

وأقل الوتر ركعة واحدة تجزئ صاحبها.

قال النووي في روضة الطالبين: «الوتر سنة، ويحصل بركعة، وبثلاث، وبخمس، وبسبع، وبتسع، وبإحدى عشرة فهذا أكثره على الأصح فإن زاد لم يصح وتره» وهذا هو الأصح وقد روى (ثلاث عشرة) ولا يجوز الزيادة عنها.

وصلاة الوتر، تسمى صلاة التهجد، وقيل: إن الوتر أخص، والتهجد أعم، فالوتر تهجد محدد بعدد من الركعات لا تجوز الزيادة عليها.

وكان النبي ﷺ إذا أوتر بثلاث قرأ في الأولى ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**﴾ [الأعلى: ١] وفي الثانية بـ ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**﴾ [الكافرون: ١] وفي الثالثة بـ ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٣/٨٨.

(٢) رواه أحمد في مسنده (١٧٠٠٨) بإسناد صحيح وصححه الألباني في ص.ج (٤٩٠٠).

(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذي ومسلم وابن ماجه. (٤) رواه مسلم وأحمد والترمذي.

(٥) صحيح سنن أبي داود للألباني (١٢٠٠).

[الإخلاص: ١] ولا يسلم إلا فى آخرهن، ويقول أى بعد التسليم: سبحان الملك القدوس ثلاثًا يطيل فى آخرهن.

ويجوز لمن نام عن وتره حتى فات وقته أن يقضيه، لما رواه أبو سعيد الخدرى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من نام عن وتره، أو نسيه فليصله إذا ذكره**»(١).

وفى رواية: «**من نام عن وتره، فليصله إذا أصبح**»(٢) حتى ولو طلعت الشمس كما ذكر كثير من الفقهاء.

## أخى الحبيب:

اجتهد فى العبادات، وفى طاعة رب البريات، وخالق الأرض والسموات، اجتهد فإن العمر قصير، والحساب آت لا محالة.

كان الإمام الجنيد رحمه الله يقول: يا معشر الشباب، جدوا قبل أن تعجزوا، واجتهدوا قبل أن تطلبوا أثرا بعد عين وكان يزيد الرقاشى رحمه الله إذا قام لصلاة فى الليل يقول: «اللهم إن فرارى من النار إلى رحمتك بطىء، فقرب رحمتك منى يا أرحم الراحمين وطلبى لجنتك ضعيف، فقو ضعفى، فى طاعتك يا أكرم المسؤلين».

**يابن آدم:**

**اهجر فراشك جوف الليل وارم به ... ففى القبور إذا وافيتها فرش**
**ما شئت إن شئت فرشًا مرقشة ... أو رمضة فوقها السمومة الرقش**
**هذا عليه قرير العين نائمها ... وذا عليه سخين العين ينتهش**
**شتان بينهما وبين حالهما ... هل يستوى الرِّىُّ فى الأحشاء والعطش؟**

**واعلم أخى الحبيب:** أنك مسئول ومحاسب على تفريطك فى عمرك «**لا تزولا قدما عبد حتى يسأل يوم القيامة عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ماذا عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه**»(٣).

**لو يعلم الراقد ما فاته ... وأى مجد هدّ أبياته**
**لحرَّم النوم على جفنه ... وسَدَّ بالخدمة أوقاته**
**وأرسل الدمعة ممزوجة ... على مبيت طالما باته**

اللهم يا ذا الجلال والإكرام، والعزة التى لا ترام، يا من بيده القبض والبسط، نسألك قلبًا خاشعًا، وعملاً متقبلاً، ولسانًا ذاكرا، وبدنًا على البلاء صابرًا، ونسألك أن تجعلنا من عبادك المتقين، وأن تجنبنا موارد الظالمين، وأن تغفر لنا ذنوبنا يا رب العالمين.

---

(١) رواه أبو داود وصححه الألبانى.

(٢) رواه الترمذى وصححه الألبانى فى ص.ج برقم (٦٤٣٩).

(٣) خُرِّج فى موضع آخر.

# الوصية رقم (٦٦)
## إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم فاغسلوه سبعا

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم، فليغسله سبع مرات إحداهن بالتراب**»(١).

**صدق رسول الله ﷺ**

اعتنى الإسلام بنظافة الإنسان ظاهراً وباطنًا، كما اعتنى أيضًا بسلامته من الأمراض حتى أنه ﷺ أخبرنا بأن المؤمن السليم القوى محبب إلى الله تعالى، فقال ﷺ: «**المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف..**»(٢).

ومن ثم فقد نهى الشرع عن كل ما يضر بالإنسان وما يؤذيه، لأنه أكرم مخلوقات الله فى أرضه، وفى هذه الوصية يأمرنا النبى ﷺ، بإراقة ما ولغ فيه الكلب من طعام أو شراب، ثم غسله وتطهيره من تلك النجاسة سبع مرات إحداهن بالتراب وهذا القول من أستاذ الأطباء ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى.

وقد بين أطباء العصر وجه غسل الإناء من ولوغ الكلب وهو أن فى أمعاء أكثر الكلاب دودة شريطية صغيرة الحجم طولها يقرب من أربعة مليمترات، فإذا رأث الكلب خرجت منه مع الروث البويضات بكثرة، فيلتصق كثير منها بالشعر الذى بالقرب من دبره، فإذا أراد الكلب أن ينظف نفسه بلسانه كما هى عادته تلوث لسانه وفمه بها، وانتشر فى بقية شعره بواسطة لسانه، أو غيره، فإذا ولغ الكلب فى إناء أو شراب، أو قَبَّله إنسان كما يفعل الإفرنج، أو بعض من قلدهم فى العادات القبيحة عَلَقتْ بعض هذه البويضات بتلك الأشياء، وسهل وصولها إلى فمه فى أثناء أكله أو شربه، فتصل إلى معدته، وتخرج منها الأجنة فتثقب جدار المعدة، وتصل إلى الأوعية الدموية، فتحدث أمراضًا كثيرة فى المخ والقلب والرئة وغير ذلك مشاهد لأطباء أوروبا فى بلادهم من خلال بحوثهم وتجاربهم.

ومن الأمراض التى تصيب الإنسان بسبب الكلاب:

١- مرض أكياس الهيداتيد، وهو يشبه مرض السرطان من حيث تدميره لخلايا الجسم المحيطة به.

وهذا المرضُ ينشأ من تناول طعام به بيض دودة فى الكلب تسمى: (جرانولوزيوس).

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٧٤٤٠) وابن ماجه (٣٦٣) ومسلم والترمذى وهو فى ص.ج للألبانى برقم ٨٤٢.

(٢) رواه أحمد وغيره وحسنه الألبانى فى ص.ج برقم (٦٦٥٠).

٢- مرض بارجنوز، وهو يحدث نتيجة وجود يرقات الدودة (ستارجانوزس) وهذه اليرقات لا تأتى من الكلب مباشرة ولكن من خلال تناول الإنسان لأسماك القشريات، التى تتغذى على روث كلب تبرز فى الماء الذى تسبح وتعيش فيه وهذه اليرقات تخترق كذلك أمعاء الإنسان وتذهب إلى أجزاء متفرقة من جسمه فتسبب الحساسية الشديدة.

٣- ديدان الإسكارس والتى تصيب الإنسان من الكلب وتسمى «دودة الكلاب المستديرة».

٤- دودة الكلى العملاقة وينقلها الكلب أيضًا، وهى تصيب كليتى الإنسان.

هذا وقد طالب المؤتمر الدولى الذى نظمه أخيرا معهد باريس الدولى سنة ١٩٩٧م بضرورة وضع حد لاختلاط الكلاب بالإنسان، كما حذر المؤتمر من خطورة مرض الكلاب الذى يقتل حوالى ٤٠ ألف شخص سنويًا فى العالم منهم ٣٠ ألف شخص فى الهند وحدها، والتى يوجد بها نحو ٢٠ مليون كلب ضال، وأكثر القارات انتشاراً لهذا المرض «مرض الكلب» هى آسيا ثم أفريقيا ثم أوروبا.

والخلاصة أن الكلاب تنقل خمسين نوعًا من الأمراض، وبأمريكا وحدها ٥٠ مليون كلب تتكلف فى تربيتها حوالى ٧٠ مليار دولار سنويًّا منها ٥٣ مليارًا طعامًا و١٧ مليارًا سلاسل وأطواقًا . . وبفرنسا يوجد ١١ مليون كلب[١].

ولهذا كان طبيب البشرية أجمع محمد ﷺ يحذر الأمة من اقتناء الكلاب فيقول فى حديث رواه عنه ابن عمر رضي الله عنهما: **«من اقتنى كلبًا إلا كلب صيد أو ماشية، فإنه ينقص من أجره كل يوم قيراطان»**[٢]وفى رواية لمسلم: **«أيما أهل دار اتخذوا كلبًا إلا كلب ماشية، أو كلبًا صائدًا نقص من عملهم كل يوم قيراطان»**[٣] وقال ﷺ: **«لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها كل أسود بهيم، وما من أهل بيت يرتبطون كلبًا إلا نقص من عملهم كل يوم قيراط إلا كلب صيد، أو كلب ماشية، أو كلب غنم»**[٤].

وقد أخبرنا ﷺ أن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب، وذلك لإخبار سيدنا جبريل عليه السلام له بذلك.

فعن بريدة رضي الله عنه قال: احتبس جبريل عليه السلام على النبى ﷺ، فقال له: **«ما حبسك؟ فقال: إنا لا ندخل بيتًا فيه كلب»**[٥].

---

(١) أفلا يتدبرون القرآن د/ طاهر توفيق ص٢١٩، ٢٢٠ بتصرف.

(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه وذكره الألبانى فى ص.ج برقم ٥٣٢١.

(٥) رواه أحمد بإسناد رجاله ثقات.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: واعد رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام فى ساعة أن يأتيه، فجاءت تلك الساعة، ولم يأته، وكان بيده عصا، فطرحها من يده، وهو يقول: **«ما يخلف الله وعده ولا رسله»** ثم التفت، فإذا جرو كلب تحت سريره، فقال: **«متى دخل هذا الكلب؟»** فقلت: والله ما دريت، فأمر به فأخرج، فجاءه جبريل عليه السلام، فقال له رسول الله ﷺ: **وعدتنى فجلست لك ولم تأتنى؟** فقال: **«منعنى الكلب الذى كان فى بيتك. إنا لا ندخل بيتًا فيه كلب ولا صورة»**[(١)]، فإذا علمت أخى الحبيب أن أستاذ البشرية، وطبيب الإنسانية ﷺ نهانا عن اقتناء الكلاب، لما علمناه فى العصر الحاضر من أضرار وأمراض، فربما تساءل البعض لماذا خلقها الله تبارك وتعالى مادامت كذلك؟.

**والجواب**: أن هذه الكلاب خلقها الله سبحانه وتعالى وجعلها جندًا من جنوده، ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [المدثر: ٣١] ولا يخفى ما يقوم به الكلب من أعمال فهو يقتفى الأثر، وعنده حدة الشم، ولهذا يستعان به دون بقية الحيوانات فى كشف الجرائم، ومعرفة أثر المجرمين، وغير ذلك مما لا يخفى على الإنسانية، فهو حارس بارع فى الليل، منذ قديم الزمان.

ولكن على المسلم أن لا يستعمل الكلاب إلا بحرص، وفى حالات الضرورة، لما بينا من أمراضه، لهذا قال الإمام ابن دقيق العيد: «لما كان تميز الكلب المصاب بهذه الدودة عسيرًا جدًّا، لأنه يحتاج إلى زمن وبحث دقيق بالأدلة التى لا يعرف استعمالها إلا قليل من الناس كان اعتبار الشارع إياه نجسًا، وغسله سبع مرات انتقاء للإناء بحيث لا يعلق فيه شىء مما ذكرناه هو عين الحكمة والصواب -كما ثبت طبيًّا أيضًا أن فى لعاب الكلب جراثيم لا تقتل إلا بالتراب- وسبحان من يعلم السر وأخفى»[(٢)].

وهذه الوصية من دلائل إعجاز نبوته ﷺ حيث اكتشف العلماء فى العصر الحديث أن ميكروبات الكلب التى تنزل فى الإناء من لعابه، لا يقوم بالقضاء عليها تمامًا إلا التراب، وقد جربوا سائر المنظفات فباءت بالفشل.

والكلب معروف بوفائه لصاحبه، يقول سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «كلب أمين، خير من صاحب خائن».

وقد روى عن جعفر بن سليمان أنه قال: رأيت مع مالك بن دينار -رحمه الله- كلبًا، فقلت له: ما تصنع بهذا يا أبا يحيى؟ فقال: (هذا خير من جليس السوء)[(٣)] وهذا لا

---

(١) رواه مسلم.

(٢) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام ١/ ٢٧ لابن دقيق العيد.

(٣) الزهد للإمام أحمد بن حنبل.

يتعارض مع النهى عن اقتنائه، فربما كان مالك بن دينار يحتاج إليه فى صيد أو نحو ذلك، وقد ورد أن الإمام مالك قال بطهارته مخالفًا بذلك جمهور الفقهاء.

وإن للكلب فى حياة الملوك والأمراء، وعامة الناس، الكثير من الأدوار التى قام بها، والتى تترجم عن وفائه وإخلاصه، وحبه لصاحبه، مما جعل الكثير من الناس يحبونه ويعرفون قدره، ويقدرون قيمته.

فيروى أن ملكًا طلب من طباخه إعداد الطعام، فأعد الخادم الطعام، وغاب الملك لبعض شئونه، وترك إناء الطعام مكشوفًا، وكان الكلب بجواره، فأتت حية، فبخت السم فى الطعام. وبعد قليل أتى الملك، وطلب الطعام، فصاح الكلب فى وجهه، وهاج حتى تعلق بالملك، ودفع الإناء من يده حتى وقع الطعام على الأرض فتعجب الملك من هذا العمل، ثم طلب حكيمًا، فنظر إلى الطعام، وقال: هذا الطعام به سم ثعبان أيها الملك.. فاحتضن الملك كلبه، ونعَّم حياته، لأنه أنقذه من الهلاك، فكان لا يجلس بعد ذلك مجلسًا إلا ومعه الكلب، فلما سئل عن ذلك قال: هو أوفى من الإنسان(١)

**ومما يذكر فى وفائه:**

كان لامرأة أعرابية غلامٌ، كانت تحبه وتعتز به، وكانت تخرج من حين إلى حين تطلب رزقها، وكانت تترك غلامها الصغير فى رعاية كلبها الأمين، فكان الكلب يقوم على حراسته، ويدفع عنه كل أذى، فتركته يومًا وخرجت، فأقبل عليه ثعبان كبير يريد أن يؤذيه فهجم عليه الكلب وقتله، وقطعه إربًا إربًا، ثم خرج الكلب إلى دهليز البيت، وكأنما كان ينتظر صاحبته، ليزف إليها بشرى انتصاره، ولما عادت المرأة، ووقع عينها على فم الكلب فرأته ملطخًا بالدم، فلم تملك نفسها من الغضب، فظنت أن الكلب قتل ابنها، حينئذ قتلت المرأة هذا الكلب الأمين، ثم أسرعت لتنظر ولدها، فإذا هو حى يضحك، وحوله الثعبان مقطع ممزق، فعلمت أن الغضب قد أعمى عينها وقلبها عن الصواب، وأنها تسرعت فى حكمها على الكلب، الذى أرسله الله لحفظ حياة طفلها، فجعلت تبكى وتندب فيه الوفاء والإخلاص، حتى أصرت على أن تقيم له قبرًا تودعه فيه، اعترافًا بفضله ووفائه، فلما فرغت من دفنه، كتبت على قبره: «هنا يرقد أوفى الأوفياء، وأذكى الأذكياء، وأخلص المخلصين الشرفاء»(٢)

وقد يكون هذا الكلب المخلوق الوفى لصاحبه أوفى من الإنسان حقًا، متى يكون ذلك؟ يكون ذلك إذا جحد الإنسان نعمة ربه عليه، إذا كفر نعم المولى عز وجل عليه، وقد حكم الرسول ﷺ على ذلكم الرجل الجاحد لنعم ربه أن الكلب خير منه.

(١) قصص الحيوان فى القرآن والسنة والقول المأثور ص٥٢ ط/ التوفيقية.

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه بتصرف.

فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: رأى النبى ﷺ رجلاً قتيلاً، فقال ﷺ: **«ما شأنه؟»** قالوا: إنه وثب على غنم بنى زهرة، فأخذ منها شاة، فوثب عليه كلب الماشية، فقتله. فقال رسول الله ﷺ: **«قتل نفسه، وأضاع ديته، وعصى ربه، وخان أخاه، وكان الكلب خيراً منه»**.

ولا ننسى كلب أهل الكهف، ذلكم الكلب الذى كان يلازم هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم، قال سبحانه عن عدد أهل الكهف: ﴿**سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ**﴾ [الكهف: ٢٢] وكان كلبهم هذا يسمى «قطمير» وقد كان لهم حارسًا أمينًا وفيًّا قال سبحانه: ﴿**وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ**﴾ [الكهف: ١٨] ولقد لبث الكلب معهم هذه السنين الطويلة، فكان آية من آيات الله معهم.

والكلب كسائر مخلوقات الله تعالى يعرف ربه، ويسبحه ويمجده، قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ**﴾ [النور: ٤١].

**قال الشهاوى:** وقد جاء فى كتب المناقب أن عابدًا من نساك بنى إسرائيل ألزم نفسه بطاعة الله تعالى، واختار غاراً يتعبد فيه، وقد يسر الله له من يحمل إليه كل يوم ثلاثة أرغفة ليقيت بها بطنه، ومكث الحال على ذلك طويلاً.

وفى يوم من الأيام أراد أن يختبر قوة إيمانه، وصدق يقينه، فقطع عنه رزقه، وانتظر الرجل ما يأتيه من الطعام فلم يأت إليه شىء حتى عضه الجوع، وأضناه السغب، فتخلى عن عبادته، وخرج إلى قرية قريبة منه حتى وقف على باب رجل نصرانى يسأله طعامه، فأعطاه النصرانى ثلاثة أرغفة، فأخذها وانصرف راجعًا إلى غاره، فتبعه كلب النصرانى، وجعل ينبح عليه، حتى يكاد أن يقتله، لولا أن رمى له برغيف، فأكله، لكنه لم يتركه ومازال يتبعه حتى أعطاه رغيفًا آخر، فأكله، ثم تبعه، ويحاول إيذاءه.

فقال له العابد: يا قليل الحياء، قد أخذت من بيت صاحبك ثلاثة أرغفة، وقد رميت بها إليك، فما الذى تريده منى بعد ذلك؟

قالوا: فأنطق الله الكلب وقال له: يا هذا، منذ ثلاث سنين، وأنا عند هذا الرجل ألازمَ غنمه، وأحرس داره، يشبعنى يومًا، ويجيعنى أيامًا، فما فكرت ساعة، إلى أن أترك بابه إلى باب غيره، أما أنت فقد أجاعك ربك يومًا، ليختبر إخلاصك، فانصرفت عن بابه إلى باب عدوه، فأنت أقل حياءً، فصعق الرجل من قوله، وأدرك أنها محنة من الله تعالى. فتأمل أخى كل ذلك[1].

---

(١) سمير الصالحين ١/ ٨٠ للشهاوى بتصرف.

## الوصية رقم (٦٧)
## إذا وقع الذباب في إناء أحدكم

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا وقع الذباب في إناء أحدكم، فليغمسه كله ثم ليطرحه، فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء وإنه ليتقي بجناحه الذي فيه الداء**»(١)

**صدق رسول الله ﷺ**

في هذه الوصية يبين لنا رسولنا محمد ﷺ **قدرة الله تبارك وتعالى في جعله الداء** والدواء في جسم واحد: السم، وعلاجه يكمنان في موضع واحد.

أتدري في أي شيء كان ذلك؟ إنها حشرة صغيرة تحدى بها رب العالمين جل وعلا العتاة الجبارين، فقال سبحانه ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ من دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾ [الحج: ٧٣].

والذباب من عادته إذا وقع على شيء يقع دائمًا على الجناح الذي فيه الداء، وذلك أنه يستعمل هذا الجناح كسلاح يدفع به ما يؤذيه كما قال ﷺ: «**فإنه يتقي بجناحه الذي فيه الداء**» ولأجل ذلك فإنه لو تناول الإنسان طعامًا أو شرابًا وقع عليه الذباب، فإنه سوف يتعرض لبعض الأمراض والسموم التي يحملها الذباب في جناحه الذي وقع عليه، وقد يتعذر على الإنسان أن يلقى ما وقع الذباب فيه، فحتى يستطيع الإنسان أن يقي نفسه من شر ما في الذباب من سموم، ويحتفظ بطعامه أو شرابه أمر الرسول ﷺ في هذه الحالة أن يغمسه فيما وقع عليه من طعام أو شراب بحيث يعم جناحي الذباب، لأن غمسه يجعله يخرج الشفاء، فيغلب الدواء الداء.

وقد تكلم في هذه الوصية من لا خلاق له، وقال: كيف يكون هذا؟ وكيف يجتمع الداء والدواء في جناحي الذبابة؟ وكيف تعلم ذلك من نفسها حتى تقدم جناح الداء، وتؤخر جناح الشفاء؟ وما أربها في ذلك؟

قال الخطابي: وهذا سؤال جاهل أو متجاهل، وأن الذي يجد نفسه ونفوس عامة الحيوان قد جمع فيها بين الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، وهي أشياء متضادة، إذا تلاقت تفاسدت، ثم يرى أن الله سبحانه ألف بينها، وقهرها على الاجتماع، وجعل منها

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٧١٤١) بإسناد صحيح ٦/ ٥٥٢ ورواه ابن ماجه (٣٥٠٥) ورواه البخاري وأبو داود والبيهقي وذكره الألباني في ص.ج برقم ٨٣٥.

قوى الحيوان التى بهـا بقاؤها وصلاحها -لجدير ألا ينكر اجتمـاع الداء والشفاء فى جزءين من حيوان واحد، وأن الذى ألهم النحلة أن تتخد البيت العجيب الصنعة، وأن تعسل فيه، وألهم الذرة أن تكتسب قوتها، وتدخره لأوان حاجتها إليه، هو الذى خلق الذبابة، وجعل لها الهداية إلى أن تـقدم جناحًا، وتؤخر جناحًا، لما أراد الله من الابتـلاء الذى هو مدرجة التعبد، والامتحان الذى هو مضمار التكاليف، وفى كل شىء عبرة وحكمة[١]

**ويقول ابن القيم:**

واعلم أن فى الذباب قـوة سمية، يدل عليـها الورم، أو الحكة العارضة مـن لسعه، وهى بمنزلة السـلاح، فإذا سقط فيمـا يؤذيه اتقاه بسلاحه، فـأمر النبى ﷺ أن يقابل تلك السمية بمـا أودعه الله فى جناحه الآخر من الشفـاء، فيغمس كله فى الماء والطعام، فـيقابل المادة السمية بالمادة الفعالة، فيزول ضررها.

وهذا طب لا يهتدى إليه كبار الأطباء وأئمتهم، بل هو خارج من مشكاة النبوة[٢].

وأنقل لك أخى الحـبيب هذه الـسطور من العلم الحـديث: «لا يخفى أن مـن عادة الذباب أن يجتمع على الـقاذورات والنجاسات ثم ينتقل منها إلى طـعام الإنسان، أو يسقط فى شرابه، أو يقف فوق عـينيه، وبذلك تنتقل جراثيم الأمراض إلى الإنسـان، وتنتشر بين أفراد هذا النوع.

ومن أمثلة ذلك: وقوفه على عين المصابين بـالرمد الصديدى، ثم انتقاله إلى الأعين السليمـة فتصاب بـهذا الرمد، ومن أسبـاب انتشار الحمى الـتيفودية بشـكل وبائى، وقوف الذباب على البراز مثلاً إذا لم يُدفن فى الأرض دفنًا جيدًا، فيتلوث الذباب بميكروب التيفود وبعد ذلك يقف عـلى الخبز مثلاً، ومـثل التيفود: الهـيضة (الكوليرا) والـدوسنتاريا. ومن الذباب ما يلدغ بعض الحيـوانات المصابة بالجمرة ثم يأتى إلى الإنسان فيلحـقه بها، ومنه ما ينقل بلـدغه مرض النوم وغـيره من شخص ويـقال: إن البللغـرا تنتقل أيضًـا بلدغ بعض أنواعه، وميكروب هذه الحميات وراء المجهر على ما يظهر، ومن مضار الذباب أيضًا أنه قد يضع بيضه فى الجروح، أو فى الآذان، أو فى تجاويف الأنف، فيفقسُ هذا البيض، ويخرج منه يرقات تشبه الدود، وهذه الديدان تأكل من جسم الإنـسان، وتحدث فيه التهابًا شديدًا، وإذا أصابت جروحه آلمته إيلامًا شديدًا»[٣]

## أخى الحبيب:

فإذا كان الذباب يحدث كل هذه الأمراض فلماذا خلقه الله تعالى؟

---

(١) معالم السنن (٣٦٩٥). (٢) زاد المعاد لابن القيم جـ٣/ ٢١٠، ٢١١

(٣) سنن الكائنات جـ١/ ١٦٢ د/ محمد توفيق صدقى - انظر هامش سبل السلام ١/ ٣٥.

يقول ابن الجوزى:

إن قال قائل: أى فائدة فى خلق ما يؤذى؟ فالجواب: أنه قد ثبت حكمة الخالق، فإذا خفيت وجب التسليم، ثم إن المستحسنات فى الجملة أنموذج ما أعد من الثواب، والمؤذيات أنموذج ما أعد من العقاب، وما خلق شىء يضر إلا وفيه منفعة..»[1]

وحكى أن المنصور كان جالسًا، فألح عليه الذباب حتى أضجره، فقال: انظر من بالباب من العلماء، فقالوا: مقاتل بن سليمان، فدعا به، ثم قال له: هل تعلم لأى حكمة خلق الله الذباب؟.

قال مقاتل: خلقه، ليذل به الجبابرة. قال: صدقت، ثم أجازه[2].

وقال المأمون: إنَّ الذباب إذا دلك به موضع لسعة الزنبور سكَّن ألمه، فلسعنى زنبور، فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة، فما سكن له ألم، فقالوا: هذا كان حتفًا قاضيًا، ولولا هذا العلاج لقتلك.

وهذا يدلنا على أن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، بما تحويه من أسرار يكشفها العلم الحديث على مر الزمن.

فسبحان العليم الخبير، الذى خلق فسوى، وقدر فهدى:

يا من يرى مد البعوض جناحها ... فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها فى نحرها ... والمخ من تلك العظام النُحَّل
ويرى خرير الدم فى أوداجها ... متنقلاً من مفصل إلى مفصل
ويرى وصول غذاء الجنين ببطنها ... فى ظلمة الأحشا بغير تمقل
ويرى مكان الوطء من أقدامها ... فى سيرها وحثيثها المستعجل
ويرى ويسمع حس ما هو دونها ... فى قاع بحر مظلم متجندل
امنن علىَّ بتوبة تمحو بها ... ما كان منى فى الزمان الأول

ولو تأملت مخلوقات الله تبارك وتعالى لخشع قلبك، ولخضعت جوارحك، ونطق لسانك وفؤادك قائلاً: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] فتب إلى مولاك، واضرع إليه عساه يتقبلك، وتقرب إليه بالأعمال الصالحة، ولو بقدر ذبابة، يقول النبى ﷺ: «**دخل رجل الجنة فى ذباب، ودخل رجل النار فى ذباب. قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: مرَّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئًا، فقالوا لأحدهما: قرِّب. قال: ليس عندى شىء. قالوا: قرب ولو ذبابًا. فخلوا سبيله**

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزى ص ٣٦ ط/ التوفيقية.

(٢) المستطرف للأبشيهى ص٤٠٢

**فدخل النار. وقالوا للآخـر: قرب، فقال: ما كنت لأقرب لأحد شـيئًا من دون الله عز وجل، فضربوا عنقه، فدخل الجنة..»**[١]

اللهم وفقـنا لسلوك مناهج المتقـين، وخصنا بالتوفـيق المبين، واجعلنا بفـضلك من عبـادك المخلصين، الذين لا خوف عليـهم ولا هم يحزنون، واغـفر لنا ولوالدينا ولجـميع المسلمين، يا رب العالمين.

## الوصية رقم (٦٨)
## مروا أولادكم بالصلاة

عن عـبد الله بن عمـرو بن العـاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**مروا أولادكم بالصـلاة وهم أبنـاء سبـع سنين، واضـربوهم عليـهـا وهم أبناء عـشـر، وفرقـوا بينـهم فى المضاجع**»[٢]

**صدق رسول الله ﷺ**

الرسول المعلم، والـنبى المهذِّب ﷺ يوصى الآباء بأن يهـتموا بتـربية أبنائهـم تربية تصلهم بخالقهـم، وتعرفهم بربهم، وتقوى الصلة بينهم وبين رب الـعالمين جل وعلا، فإذا ما كانوا كـذلك كان المجتمع الإسلامى قـائمًا على أسس سليمة، فـيوصى الآباء أن يأمروا أولادهم بالصـلاة، لأن الصلاة صلة بـين العبد وربه، ولأنـهم بالصلاة يتـعلمون النـظافة والطهارة، والنظافـة الحسية التى تتـأتى قبل أن يدخل الطفل المسلم الصـلاة وهى الوضوء، والنظافة المعنوية التى تثمرها الصلاة فى قلوبهم، وتغرسها فى صدورهم، حين يعلم الطفل المسلم أن الكل يتوجهون فى الصلاة إلى رب واحد، وقبلة واحدة، ووقت واحد.

الصلاة تعلم الطفل النظام وخاصة لو ذهب إلى الصلاة فى بيت من بيوت الله تعالى فيصير إنسانًا سويًا منظمًا فى كل شئون حياته، ويشب على ذلك.

الصلاة تعلمه الذكر والتسبيح لله تبارك وتعـالى، وتغرس فيه محبة الخالق جل وعلا تعلمه كيف يقدم الشكر لله تعالى.

تعلمه كيف يلتـزم بالمواعيد، ويفى بالوعود من خلال التزامـه بمواقيت الصلاة، فهى لاشك مدرسة إيمانية يتعلم منها الطفل سلوكيات حياته السليمة الرشيدة.

والرسول الأعظم ﷺ يوصى أولياء الأمـور من الآباء، لأنه يعلم أن الأبناء بهـجة الحياة الدنيوية، يستأنس بهم المرء فى حياته، وتحلو بهم الأيام، وتعلق عليهم الآمال، لكن

---

(١) صحـيح موقوف رواه أبو نعـيم فى حلية الأولـياء ١/ ٢٠٣ وأحمد فـى الزهد ص٢٢ والبيهـقى فى الشعب.

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٦٦٨٩) بإسناد صحـيح جـ٦/ ٢٤٣ وذكره الألبانى فى صحيح سنن أبى داود برقم (٤٩٥) جـ١/ ١٤٤ وقال: حسن صحيح.

ذلك يتوقف على حسن التربية، التى تجعل منهم فى هذا المجتمع عناصر فعالة بناءة، عناصر بر وخير، فإذا ما توافر ذلك فيهم، كانوا بحق كما قال الله تعالى: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [الكهف: ٤٦].

ومن أجل هذا طلب نبى من الأنبياء، وصفى من الأصفياء أن يهبه الله الولد الذى يرثه فى الحكمة والعلم، وتبليغ دعوة الله تعالى إلى خلقه، إنه نبى الله «زكريا» عليه السلام حين رفع أكف الضراعة إلى مولاه فقال: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا**﴾ [مريم: ٤: ٦] **فإذا ما** وهب الله جل وعلا للآباء الأبناء، فإنهم حينئذ يكونون مسئولين عن تربيتهم تربية بدنية، وروحية، تصبح واجبًا شرعيًّا عليهم القيام به، قال ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، والرجل فى بيته راع ومسئول عن رعيته، والمرأة فى بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها...**»[1]

وإن أهم ما يقوم به الآباء نحو أبنائهم أن يغرسوا فى نفوسهم **الإيمان بالخالق الأعظم** جل وعلا، فيقوم الآباء بتوجيههم إلى الخضوع له سبحانه، وإطاعة أوامره، **ولا أعظم من** تعليمهم الصلاة، وما يتعلق بها من آداب وسنن، فى حصول ذلك.

والآباء مطالبون بذلك فى كتاب الله تبارك وتعالى، قال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [التحريم: ٦] ولقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما فى معنى هذه الآية قال. «اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصى الله، ومروا أولادكم بامتثال الأوامر، واجتناب النواهى. فذلك وقاية لكم ولهم من النار».

ولقد حدد النبى ﷺ سن السابعة من عمر الأبناء، لأنهم فى هذه الفترة من أعمارهم بين يدى مربيهم كالقطعة من العجين بين يدى صانعها، **يصورها كيفما شاء**، ولأن الأبناء فى هذه السن تكون قلوبهم نقية، وقرائحهم خالصة، وصدورهم سليمة وضمائرهم طاهرة، مستعدين لأن يتوجهوا إلى أى وجهة، وقد أحسن القائل:

**قد ينفع الأدب الأطفال فى صغر ... وليس ينفع عند الشيبة الأدب**

**إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ... ولن تلين إذا قومتها الخشب**

فالطفل فى هذا السن على حسب ما يعوده أبوه ومربيه، ولذلك قال العربى:

**وينشأ ناشئ الفتيان فينا ... على ما كان عوده أبوه**

لكن على الآباء قبل أن يأمروا أولادهم بالصلاة، **عليهم أن يكونوا قدوة لأبنائهم** فيكونوا قد التزموا بالصلاة حتى ينفع هذا التعليم، ويثمر هذا الإرشاد.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٤٤٩٥) والبخارى

فعندما نصح عمرو بن عتبة معلم ولده، قال له: «ليكن أول إصلاحك لولدى إصلاحك لنفسك، فإن عينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما صنعت، والقبيح عندهم ما تركت، علمهم كتاب الله، ولا تملهم فيه فيتركوه، ولا تتركهم فيه فيهجروه، روهم من الحديث أشرفه، ومن الشعر أعفه، ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام فى القلب مشغلة للفهم، وعلمهم سنن الحكماء، وجنبهم محادثة النساء» ورحم الله القائل:

وإن من أدبته فى الصبا ... كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقًا ناضراً ... بعد الذى أبصرت من يبسه
ما تبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه

وقوله ﷺ فى الوصية التى بين أيدينا: «واضربوهم عليها» يدل على أنه ينبغى للآباء أن يستخدموا العقوبة، والشدة، والضرب إذا احتاج الأبناء إلى ذلك، على أن تتناسب العقوبة مع الأبناء، وتكون عادلة، وأن يفهم الطفل الغرض من العقوبة، وإلا نظر إلى والده، أو مؤدبه بأنه رجل مستبد، والعقاب بالضرب مشروع فى شريعة الإسلام، وقد رخص فيه الشارع الحكيم فى الكبار، فى حالة نشوز الزوجة، ولهذا عاقب السلف الصالح أبناءهم بالضرب، فهذا هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدخل فى يوم من الأيام على أحد أبنائه، وقد وجده سوى شعره، ولبس ثيابًا حسنة، فضربه حتى أبكاه، فقالت له أم المؤمنين حفصة: لم ضربته؟ فقال: أعجبته نفسه، فأحببت أن أصغرها له[1]

وها هو هارون الرشيد ينصح معلم ولده، فيقول له: «ولا تمعن فى مسامحته، فيستحلى الفراغ ويألفه، وقومه بالتقريب والملاينة، فإن أبى فبالشدة»[2]

وقد حدد بعض المربين والمؤدبين الضرب بثلاث، فقد روى أن شريحًا القاضى كان له ابن صبى فى نحو العاشرة من عمره، وكان الصبى يؤثر اللهو، مولعًا باللعب، فافتقده فى يوم من الأيام، فإذا هو قد ترك الكُتَّاب ومضى يتفرج على الكلاب، فلما عاد إلى منزله سأله أول ما سأله قائلا: أصليت؟ قال: لا، فدعا بقرطاس وقلم، وكتب إلى مؤدبه يقول له:

ترك الصلاة لأكلب يسعى لها ... يبغى الهراش مع الغواة الرُّجَّسِ
فليأتينك غدوة بصحيفة ... كتبت له كصحيفة المتَلَمِّسَ
فإذا أتاك فداوه بملامة ... أو عظه موعظة الأديب الأَكيس
وإذا هممت بضربه فَبِدرَّة ... وإذا بلغت بثلاثة لك فاحبس
واعلم بأنك ما أتيت فنفسه ... مع ما يجرعنى أعز الأنفس[3]

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص٩٦
(٢) المحاسن والمساوئ للبيهقى جـ٢/ ٢١٣
(٣) حلية الأولياء ٤/ ١٣٧ وصفة الصفوة لابن الجوزى ٣/ ٢

واعلم أخى الحبيب أن الأبناء يراقبون الآباء، ويقتدون بفعالهم، فاجعل أبناءك يرونك فى صورة طيبة، يرونك وأنت تؤدى فرائض الله تعالى، وخاصة الصلوات الخمس حتى يقتدوا بفعالك، ويهتدوا بأعمالك، ويذعنوا لنصحك وقولك.

فعن سهل بن عبد الله التسترى -رحمه الله تعالى- قال: كنت وأنا صبى ابن ثلاث سنين أقوم فى الليل، فأنظر صلاة خالى «محمد بن سوار» فقال لى يومًا: يا غلام، ألا تذكر الله الذى خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟ قال: قل ثلاث مرات من غير أن تحرك لسانك: «الله شاهد علىَّ، الله ناظر إلى، الله معى» فقلت ذلك عدة ليالٍ، ثم أعلمته، فقال: قل فى كل ليلة سبع مرات، فقلت، وأعلمته، فزادنى إلى إحدى عشرة مرة، فقلته، فوقع فى قلبى حلاوته، فلما كان بعد سنة، قال لى: احفظ ما علمتك، وداوم عليه. ثم قال لى: يا سهل، من كان الله معه، وشاهد عليه، وناظر إليه، هل يعصيه؟ فقلت: لا، قال: إياك والمعصية قال سهل: فلما بلغت ست سنين، حفظت القرآن الكريم كله، وكنت أصوم الكثير من الأيام[(١)]

ويستفاد من تلك القصة عدة أمور لابد من معرفتها لكل مربٍّ:

١- إثارة كوامن الطفل، وحفزه إلى الاهتمام بما يلقى إليه «ألا تذكر الذى خلقك؟».

٢- التدرج فى تكليفه، فيبدأ معه بالقليل اليسير، حتى يسهل عليه.

٣- غرس الوازع الدينى فى نفس الطفل، حتى يتعلم مراقبة الله جل وعلا.

٤- الصبر والتحمل فى ملاحظة الطفل ومتابعته.

٥- استثمار الحصيلة المعرفية لدى الأبناء، لخدمة الجانب السلوكى[(٢)]

وهذا أنموذج آخر:

قال الشيخ ابن ظفر المكى: بلغنى أن أبا يزيد البسطامى، لما حفظ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ١، ٢] قال لأبيه: يا أبت، من الذى يقول الله له هذا؟ قال: يا بنى، ذلك النبى ﷺ. قال: يا أبت، مالك لا تصنع كما صنع النبى محمد ﷺ؟ قال: يا بنى، إن قيام الليل خصص به النبى ﷺ، وبافتراضه دون أمته.

فسكت عنه، فلما حفظ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ معك﴾ [المزمل ٢] قال: يا أبت، إنى أسمع أن طائفة، كانوا يقومون الليل، فمن هذه الطائفة؟ قال: يا بنى، هؤلاء الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين-.

---

(١) ذكره الغزالى فى إحياء علوم الدين

(٢) انظر من وصايا القرآن للمؤلف ٢/٨١٨.

قلت: يا أبت، فأى خير فى ترك ما عمله الرسول ﷺ وأصحابه الكرام؟ قال: صدقت يا بنى، فكان أبوه بعد ذلك يقوم من الليل. فاستيقظ أبو اليزيد ليلة من الليالى، فإذا أبوه يصلى. فقال: يا أبت، علمنى كيف أتطهر، وأصلى معك، فقال أبوه: يا بنى، ارقد، فإنك صغير. قال: يا أبت، إذا كان يوم يصدر الناس أشتاتًا، ليروا أعمالهم أقول لربى: إنى قلت لأبى، فقال لى: ارقد، فإنك صغير. أتحب هذا؟ فقال أبوه: لا والله يا بنى، ما أحب هذا، فعلمه وكان يصلى معه[1]

ثم يوصى الرسول ﷺ الآباء أن يفرقوا بين الذكور والإناث فى المضاجع إذا بلغ الطفل سن العاشرة، فيجعل لكل واحد منهم فراشًا خاصًّا به ينام عليه وحده، وذلك حرصًا على أخلاق الأولاد، ومنعًا لحدوث شىء يندمون عليه بعد ذلك، لأن الشيطان يستحوذ على الصبيان فى هذه السن.

والرسول ﷺ هو الطبيب يعرف الداء، ويشخص له الدواء، لأنه رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى، فيعلم النبى ﷺ أن اجتماع الصغار عند النوم فى فراش واحد قد يُؤدى إلى بعض المفاسد والأضرار، فأمر بأن نفرق بينهم فى المضاجع.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يسلك بنا مناهج السلامة، وأن يعافينا من موجبات الحسرة والندامة، ونسأله أن يديم علينا لطفه وإحسانه وكرمه، ونسأله سبحانه أن يجنبنا الزلل فى القول والعمل، وأن يرزقنا الذرية الصالحة، وأن يجمع لنا بين خيرى الدنيا والآخرة، وأن يرحمنا برحمته، إنه هو القوى المتين، يا رب العالمين.

## الوصية رقم (٦٩)
## قولوا الحق

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا يمنعن أحدكم هيبة الناس أن يقول فى حق إذا رآه أو شهده أو سمعه، فإنه لا يقرب أجلاً، ولا يباعد من رزق أن يقول بحق، أو يذكر بعظيم**»[2]

**صدق رسول الله ﷺ**

فكن أخا الإسلام منفذًا لهذه الوصية المباركة، والتى يحذرك فيها رسول الإسلام محمد ﷺ من أن يحول بينك وبين قول الحق والثبات عليه حائل، مهما كان الأمر، فإن

---

(١) منهج التربية للطفل ص١٣٠ لمحمد نور عبد الحفيظ - مؤسسة الكلمة بتصرف.

(٢) رواه أحمد فى مسنده بإسناد صحيح من طريق ابن عدى (٩٥٩ ١) ١/ ١٧ وبإسناد حسن فى طريق محمد بن الحسن (١١٤١٢) ورواه الترمذى فى الفتن (٢١٩١) وابن ماجه (٤٠٠٧) وصححه الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧/ ٦٥

لصاحب الحق مقالاً، والمؤمن الحق هو الذى لا يخشى فى الحق لومة لائم، حتى ولو كان هذا الحق فى غير صالحه، لأن الأجل لا يملكه إلا الله، والرزق وخزائنه لا يملكه أحد إلا الله، فما دام الأمر كذلك فلم الخوف؟! لماذا لا نثبت على الحق مهما كانت التحديات، ومهما اشتدت الأزمات، إن هذه الوصية المباركة ترجمة حقيقية لقول المولى عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء ١٣٥] وترجمة حقيقية لوصية رسول الله ﷺ لأبى ذر الغفارى رضي الله عنه حين قال: «**قل الحق ولو كان مرًّا**» لأن أهل الإيمان الحق هم الذين يرضون بقضاء الله وقدره، هم الذين قد عظمت ثقتهم فى خالقهم، فحسن توكلهم عليه، فهم لا يرون المنكر إلا وأنكروا مهما كانت العاقبة، لأنهم قد بلغهم ذلك الوعيد من أستاذهم الأكبر، ومعلمهم الأعظم ﷺ حين قال: «**والذى نفسى بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده ثم تدعنه فلا يستجيب لكم**»(١) ولأنهم يعلمون أن ثباتهم على الحق ولو كان مرًّا، وأمرهم بالمعروف ولو كان سرًّا، ونهيهم عن المنكر ولو كان جهرًا، من أحب الأعمال إلى الله تعالى فقد قال إمامهم الأعظم ﷺ: «**أحب الأعمال إلى الله تعالى، إيمان بالله، ثم صلة الرحم، ثم الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر**»(٢)

يعلم أهل الإيمان الحق أن من شهد الخطيئة، وعاين المنكر، ورأى الباطل، ولم ينكره كان كمن عمله، وحض عليه، قال سيد الخلق: «**إذا عملت الخطيئة فى الأرض، كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها**»(٣)

وأهل الحق والثبات فى الدنيا، هم أهل الحق والثبات والمعروف فى الآخرة كما قال النبى المصطفى ﷺ: «**أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة وإن أهل المنكر فى الدنيا هم أهل المنكر فى الآخرة**»(٤)

ولذلك نبه الرسول الأكرم أن ترك الحق، والبعد عنه، وعدم الوقوف بجانبه، علامة من علامات يوم القيامة، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريطته من أهل الأرض، فيبقى فيها عجاجة لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا**»(٥)

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٢٣١٩٤) وحسنه الألبانى فى ص.ج برقم (٧٠٧٠).

(٢) صححه الألبانى فى ص.ج (١٦٦).

(٣) رواه أبو داود وحسنه الألبانى فى ص.ج (٦٨٩).

(٤) رواه أبو نعيم فى الحلية ٣١٩/٩ عن أبى هريرة والطبرانى فى الكبير عن سلمان وصححه الألبانى فى ص.ج برقم (٣١ ٢).

(٥) رواه أحمد فى مسنده (٦٩٦٤).

**أخى الحبيب:**

إن دولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة، لأن الحق يستمد قوته من الله عز وجل، وأما الباطل فإنه من كيد الشيطان، ولقد قال الله تعالى عن كيد الشيطان: ﴿**إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**﴾ [النساء: ٧٦].

فإذا رأيت الباطل فلا تسكت عنه، بل اصرخ فى وجهه، فهو مهما علا سيكون إلى زوال فإن نازعتك نفسك، وغالبك هواك عن نصرة الحق، فتذكر ما أعده الله تعالى للمؤمنين فى الآخرة، فى جنته، تذكر هذا النداء الذى تسمعه فى الجنة حيث يقول نبى الهدى ﷺ: «**ينادى مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، فذلك قول الله عز وجل: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[الأعراف: ٤٣]»[(١)]

وتذكر ثبات من قبلك على الحق، ووقوفهم فى وجه الباطل، فها هى:

**١- آسية امرأة فرعون:**

لم يصدها طوفان الباطل والكفر والضلال التى كانت تعيش فيه، بل تبرأت منه، طالبة من ربها بيتًا فى الجنة، تبرأت من صلتها بفرعون، وتبرأت من عمله، خوفًا من أن يلحقها من عمله شىء، وهى ألصق الناس به، فقالت: ﴿**وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ [التحريم: ١١] ولما رأت موسى عليه السلام وهو صغير، قالت: ﴿**قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا**﴾ [القصص: ٩].

**يقول ابن كثير:** لما فتحت الباب، وكشفت الحجاب، رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية، والجلالة الموسوية، فلما رأته ووقع نظرها عليه، أحبته حبًا شديدًا، فلما جاء فرعون قال: ما هذا؟ وأمر بذبحه، فاستوهبته منه، ودفعت عنه وقالت: ﴿**قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ**﴾ فقال لها فرعون: أما لك فنعم، وأما لى فلا، والبلاء موكل بالمنطق[(٢)]

**قال ابن حجر:** ومن فضائل آسية: اختارت القتل على الملك، والعذاب فى الدنيا على النعيم[(٣)]

**وقال ابن كثير:** كانت امرأة فرعون تعذب فى الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها فى الجنة.

**قال ابن جرير:** كانت امرأة فرعون تسأل: من غلب؟ فيقال: غلب موسى وهارون فتقول: آمنت برب موسى وهارون، فأرسل إليها فرعون، وقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهى امرأتى، فلما

---

(١) رواه مسلم وأحمد والترمذى وذكره الألبانى فى ص.ج برقم (٨١٦٤).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٢٢٤ (٣) فتح البارى ٦/ ٥١٦.

أتوها رفعت بصرهـا إلى السماء فأبصرت بيتـها فى الجنة، فمضت على قـولها، وانتزعت روحها»[١]

ولأجل وقوفها فى وجه الـباطل، والثبات على الحق مهما اشتـد الأمر، كانت آسية من أكمل وأعظم نساء العالمين، فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«حسبك من نساء العالمين بأربع: مريم بنت عـمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنـت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ»**[٢]

**٢- ماشطة بنت فرعون وثباتها على الحق:**

وهى أنموذج لثبات أهل التوحيد والإيمـان، أنموذج لثبات أهل الحق على الحق مهما كانت الفتن والمحن والابـتلاءات، فأهل الحق يعلمـون أن الله سيجبر كـسر المؤمن مع أول غمسة فى الجنة، وهم أكثر الناس رضًا بقضاء الله رب العالمين.

فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما كانت الليلة التى أسرى بى فيها، أتت علىَّ رائحة طيبة. فقلت يا جـبريل، ما هذه الرائحة الطيبة؟ فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعـون وأولادها. قال: قلت: وما شأنها؟ قال: بينمـا هى تمشطَ ابنة فرعون ذات يوم، إذ سقط المدرى من يـدها، فقالت: باسم الله، فقـالت لها ابنة فرعـون: أبى؟ قالت: لا، ولكن ربى ورب أبيك الله.**

**قالت: أُخـبره بذلك؟ قـالت: نعم، فأخـبرته، فدعـاها، فقال: يا فـلانة، وإن لك ربًا غيرى؟ قالت: نعم ربى وربك الله، فأمر ببقرة مـن نحاس، فأحميت، ثم أمر بها أن تلقى هى وأولادها فـيهـا، قـالت: إنَّ لى إليك حـاجـة، قال: ومـا حاجـتك؟ قـالت: أحب أن تجـمع عظامى، وعظام ولدى فى ثوب واحد، وتدفننا.**

**قال: ذلك لك علينا من الحق. قال: فأمر بأولادها فأُلقوا بين يديها واحداً واحداً، إلى أن انتهى ذلك إلى صبى لها مرضع، وكانت تقاعـست من أجله، فقال: يا أمى اقتحمى، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فاقتحمت»**[٣]

قال ابن عـباس: تكلم أربعة صـغار: عيسـى ابن مريم، وصاحب جـريج، وشاهد يوسف، وابن ماشطة فرعون[٤]

وهذا هو سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أجمـعين، وقوة ثباتهم أمام الحق، وأمام

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٣٩٣

(٢) رواه أحمد والترمذى وابن حبان وصححه الألبانى فى ص.ج (٣١٤٣).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير.

(٤) رواه أحمد فى مسنده بإسناد حسن

الطغيان والباطل، لأنهم يعلمون قول إمامهم الأعظم: «من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس، ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس».

فهذا هو الصحابى الجليل:

**٣- عبادة بن الصامت ﷺ:**

فعن قبيصة بن ذؤيب، أنَّ عبادة أنكر على معاوية شيئًا، فقال: لا أساكنك بأرض، فرحل إلى المدينة، قال عمر: ما أقدمك؟ فأخبره بفعل معاوية، فقال له: ارحل إلى مكانك، فقبح الله أرضًا لست فيها، وأمثالك، فلا إمرة له عليك وذاكم بطل آخر من أبطال الحق، إنه الصحابى الجليل:

**٤- أبو أيوب الأنصارى ﷺ:**

فعن سالم بن عبد الله بن عمر قال: أعرست، فدعا أبى الناس، فيهم أبو أيوب، وقد ستروا بيتى بجنادى أخضر -وهو جنس من الثياب يستر بها الجدران- فجاء أبو أيوب فطأطأ رأسه، فنظر فإذا البيت مستر، فقال: يا عبد الله، تسترون الجدران؟ فقال: أبى، واستحيا: غلبنا النساء يا أبا أيوب، فقال: من خشيت أن تغلبه النساء، فلم أخش أن يغلبنك، لا أدخل لكم بيتًا، ولا آكل لكم طعامًا».

وهذا هو الإمام القدوة:

**٥- أحمد بن حنبل رحمه الله:**

لقد تعرض لفتنة عظيمة وقف أمامها كالطود الأشم.

لما دعا المأمون بن هارون الرشيد الناس إلى القول بخلق القرآن أجابه أكثر العلماء والفقهاء مكرهين، لكن الإمام أحمد ومعه نفر قليل استمروا على حمل راية السنة، والوقوف فى وجه الباطل مهما كان هذا الباطل.

قال أبو جعفر الأنبارى: لما حمل الإمام أحمد إلى المأمون أخبرت فعبرت الفرات، فإذا هو جالس فى الخان، فسلمت عليه، فقال: يا أبا جعفر، تعنَّيت، فقلت: ليس هذا عناء، وقلت له: يا هذا أنت اليوم رأس الناس، والناس يقتدون بكم، فو الله لئن أجبت ليجيبن بإجابتك خلق كثير من خلق الله تعالى، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت، ولابد من الموت، فاتق الله ولا تجبهم إلى شىء.

فجعل أحمد يبكى ويقول: ما شاء الله، ما شاء الله، ثم سار أحمد إلى المأمون، فبلغه توعد الخليفة له بالقتل إن لم يجبه إلى القول بخلق القرآن، فتوجه الإمام أحمد بالدعاء إلى الله تعالى أن لا يجمع بينه وبينه، فبينما هو فى الطريق قبل وصوله إليه، إذ

جاءهم الصريخ بموت المأمون، وكان موته فى شهر رجب سنة ٢١٨ هـ. فَرُدَّ الإمام أحمد إلى بغداد وحبس، ثم ولى الخلافة المعتصم، فامتحن الإمام أحمد وضرب بين يديه.

وكان من خبر المحنة أن المعتصم لما قصد إحضار الإمام أحمد ازدحم الناس على بابه كيوم العيد، وبسط بمجلسه بساطًا، ونصب كرسيًّا جلس عليه، ثم قال: أحضروا أحمد فأحضروه، فلما وقف بين يديه سلم عليه، فقال له: يا أحمد تكلم ولا تخف.

فقال الإمام: والله لقد دخلت عليك وما فى قلبى حبة من خوف، فقال له المعتصم: ما تقول فى القرآن؟ فقال الإمام: كلام الله قديم غير مخلوق، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسمع كَلام اللَّه ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٦] فقال له: هل عندك حجة غير هذا؟ فقال: نعم، قول الله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ [الرحمن: ١، ٢] وعلم الرحمن خلق القرآن، وقوله تعالى: ﴿ يس ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ [يس: ١، ٢].

ولم يقل يس والقرآن المخلوق.

قال المعتصم: احبسوه، فحبس وتفرق الناس.

فلما كان من الغد جلس المعتصم مجلسه على كرسيه، وقال هاتوا أحمد، فاجتمع الناس، وسمعت لهم ضجة ببغداد، فلما جيئ به ووقف بين يديه، والسيوف قد جردت، والرماح قد ركزت، والأتراس قد نصبت، والسياط قد طرحت، فسأله المعتصم عما يقول فى القرآن؟ قال: أقول: غير مخلوق! قال: ومن أين قلت؟ فقال: حدثنى عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن كلام الله الذى اختص به موسى، مائة ألف كلمة، وثلاثمائة وثلاث عشرة كلمة، فكان الكلام من الله تعالى، والاستماع من موسى**» ثم قال: قال الله تعالى: ﴿ وَلَكِنْ حقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣].

فإن يكن القول من الله، فإن القرآن كلام الله.

وأحضر له المعتصم الفقهاء والقضاة فناظروه بحضرته فى مدة ثلاثة أيام، وهو يناظرهم ويظهر عليهم بالحجج القاطعة. لكن القوم أصروا على القول بخلق القرآن، وعزموا على ضرب الإمام أحمد بل على قتله، فكان أحمد بن داود، وبشر المريسى يقولان الخليفة

اقتله ... سريح منه، هذا كافر مضل، فقال: إنى عاهدت الله ألا أقتله بسيف، ... بسيف، فقالا له: اضربه بالسياط، فقال المعتصم: وقرابتى من رسول الله ﷺ لأضربنك بالسياط، أوتقول كما أقول، فلم يرهبه ذلك، فقال المعتصم: أحضروا الجلادين، فأحضروا، فقال المعتصم لواحد منهم: بكم سوط تقتله؟ قال بعشرة، قال: خذه إليك،

فأخرج الإمام من أثوابه، وشد يديه بحبلان جديدان. فلما ضرب السوط الأول: قال: بسم الله، فلما ضرب الثانى، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلما ضرب الثالث: قال: القرآن كلام الله غير مخلوق، فلما ضرب الرابع قال: ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا** ﴾ [التوبة: ٥١] وكان الإمام صائمًا(١)

أرأيت أخى الحبيب كيف ثبت هذا الإمام العظيم أمام هذا الباطل، لقد كانوا يضربونه ويجلدونه، ولكن لم يزده ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا

فلله درك من إمام عظيم، وعليك رحمة الله ورضوانه منه أكبر.

**٦- الإمام الصامد «ابن تيمية» رحمه الله:**

وهكذا كان العلماء العظام، لقد كان الإمام ابن تيمية عالمًا مجاهدًا فى سبيل الله، لم يخش فى الله لومة لائم، بلسانه، وبقلمه، وبسيفه داعيًا إلى السنة ومحاربًا للبدعة، لقد حسده علماء زمانه، حتى وشوا به إلى الخليفة، ورموه بالابتداع، فسجن أكثر من مرة، وأوقف عن التدريس، وفى آخر مرة سجن فى سجن القلعة فى سجن انفرادى، ومنع من التأليف، وسحبت منه الأقلام والمحابر، فقال رحمه الله

ما يفعل بى أعدائى؟ أنا حديقتى وبستانى فى صدرى -يقصد القرآن- أنَّى ذهبت فهو معى، فإن يقتلونى فقتلى شهادة، وإن شردونى فتشريدى سياحة، وإن سجنونى فسجنى خلوة، فسد شيخ الإسلام بهذه الكلمات على أعدائه جميع المنافذ التى يريد أعداؤه أن ينتقموا منه على طريقها، فبدأ فى تلاوة القرآن حتى ختمه بضعًا وثمانين مرة، فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥] توفاه الله عند تلك الآية.

فرحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية، وأسكنه فسيح جناته.

## أخى الحبيب:

إن تاريخ الأمة ملىء بمثل هؤلاء الأبطال، حافل بمآثرهم الخالدة على مر العصور والأزمان فعلينا أن نسير على دربهم، ونقتفى آثارهم فى أقوالهم وأفعالهم، ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

اللهم عافِنا من مكرك، وزينا بذكرك، واستعملنا بأمرك، ولا تهتك علينا جميل سترك وامنن علينا بلطفك وبرك، وأعنا على ذكرك وشكرك.

اللهم سلمنا من عذابك، وأمنا من عقابك، واغفر لنا ذنوبنا يا رب العالمين.

(١) مواقف إيمانية للشيخ أحمد فريد بتصرف.

# الوصية رقم (٧٠)
## اضمنوا لى ستًا أضمن لكم الجنة

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**اضمنوا لى ستًا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم**»(١)

**صدق رسول الله ﷺ**

إن رسولنا محمدًا ﷺ يحثنا هنا على المسابقة لكن إلى أين تكون المسابقة؟ وما هى الجوائز التى سيظفر بها المتسابق؟

إن المسابقة التى أرادها الرسول ﷺ إنما هى التسابق إلى فعل الخيرات، وترك المنكرات، سباق فى الخير والطاعات، ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران ١٣٣] وقال سبحانه: ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾ [البقرة: ١٤٨] وقال: ﴿**وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾ [المطففين: ٢٦] وقال: ﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**﴾ [الواقعة: ١٠، ١١] إذن فجوائز المسابقة هى جنة عرضها السموات والأرض، لكن للحصول على هذه الجائزة الغالية الثمينة شروط، فمن عمل بها فاز وحصل على الجائزة، ومن لم يعمل بها تخلف، وجزاء المتخلف جزاء وبيل، أين يكون؟

**يقول ابن القيم:** «والمتخلف فى ظل الشجرة نائم، فوالله ما كان إلا قليل حتى ذوت أغصان تلك الشجرة، وتساقطت أوراقها، وانقطع ثمرها، ويبست فروعها، وانقطع مشربها، فقلعها قيمها من أصلها، فأصبح أهلها فى حر السموم يتقلبون، وعلى ما فاتهم من العيش فى ظلها يتحسرون، أحرقها قيمها، فصارت هى وما حولنا نارًا تلظى، وأحاطت النار بمن تحتها، فلم يستطع أحد منهم الخروج منها»(٢)

وشروط المسابقة ستة طلبها النبى ﷺ ممن يريد الحصول على سلعة الله الغالية «الجنة» فهيا بنا لنرى ما هى شروط هذا السباق:

**الأول: «اصدقوا إذا حدثتم»:**

وهذا أول بند من بنود المسابقة، فإذا ما توافر فى المتسابق، استحق الجائزة الكبرى، وهى التى أشار إليها حاكم هذه المسابقة رسول الإنسانية ﷺ فى تقريره: «**عليكم بالصدق**

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٢٢٦٥٦) وابن حبان ١/ ٢٧١ وابن أبى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب وصححه الألبانى فى ص.ج برقم (١٨ ١).

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ص ٢٢

**فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا»**[١] فالصدق يجعل صاحبه يفوز بكأس السعادة فى دنياه وفى أخراه.

وتأمل حال الصادقين، إذا صدقوا سبقوا، وإذا سبقوا وصلوا، لكن إلى أين؟ تارة يصلون إلى أن يكون لهم فى الدنيا لسان صدق، كما طلب إبراهيم عليه السلام من مولاه: ﴿**وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ**﴾ [الشعراء: ٨٤] وتارة يكون قدم صدق عند ربهم كما قال سبحانه: ﴿**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ [يونس: ٢] وإما أن يكون جزاؤهم مقعد صدق عند مليك مقتدر، كما أشارت خاتمة سورة القمر: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ**﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥] فطوبى للصادقين، فجزاؤهم من جنس أعمالهم، صدق فى الدنيا مع الله، ومع الناس، فيكون لهم وعد الصدق من رب العالمين جل وعلا، ولله در القائل:

**تحدث بصدق إن تحدثت وليكن ... لكل حديث من حديثك حين**
**فما القول إلا كالثياب فبعضها ... عليك وبعض فى التخوت مصون**

الصدق تاج فوق رؤوس الصادقين، وسراج ينير طريق السالكين.

**وإذا الأمور تزاوجت ... فالصدق أكرمها نتاجًا**
**الصدق يعقد فوق رأ ... س حليفه بالصدق تاجًا**
**والصدق يقدح زنده ... فى كل ناحية سراجًا**

**الثانى: «وأوفوا إذا وعدتم»:**

فالوفاء من شيم النفوس الشريفة، والأخلاق الكريمة والخلال الحميدة، يعظم صاحبه فى العيون، وتصدق فيه خطرات الظنون.

فإذا ما وفى المؤمن المتسابق، وصل فائزًا إلى جائزة السباق الكبرى وهى الجنة، وقد حكمت بذلك سورة الرعد، وصورت الفوز أعظم تصوير فهيا بنا إلى هناك، إلى أولى الألباب ﴿**الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ...**﴾ ما جائزتهم؟ ﴿**...أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ [الرعد: ٢٢: ٢٣]

وقد أوصانا رب العالمين جل وعلا بأن نوفى بعهودنا، ففى الوصايا العشر: ﴿**وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [الأنعام: ١٥٢] وقال سبحانه: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**﴾ [النحل: ٩١].

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد وغيرهم وقد خرجناه فى وصية (عليكم بالصدق) فارجع إليها.

ورحم الله القائل:

إذا قلت في شيء نعم فأتمه ... فإن نعم دين على الحر واجب
وإلا فقل لا تسترح وترح بها ... لئلا يقول الناس إنك كاذب(١)

والوفاء بالوعد من شيمة الأنبياء والمرسلين، والأبرار الصالحين، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤] وحسب الوفاء تشريفا أن يصف مولانا نفسه بالوفاء بالعهد مع عباده، قال جل شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١] والجزاء من جنس العمل، قال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] فمن وفى بعهده مع الله، وفّى الله له. ومما يدلنا على أن الوفاء من صفات الأنبياء والمرسلين ما رواه البخاري عن النبي الأمين حين هاجر المسلمون الأولون إلى ملك الحبشة، وحدث هذا الحوار؛ قال لترجمانه: سلهم، أيهم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قال أبو سفيان: أنا أقربهم نسبًا. فقال: ادنوه مني، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: إني سائل هذا عن الرجل، فإن كذبني فكذبوه، فوالله لولا الحياء، من أن يؤثروا عليّ كذبًا لكذبت عنه. ثم قال: أول ما سألني أن قال: كيف نسبه فيكم؟... حتى سأله: هل يغدر؟ قلت: لا، ونحن في مدة، لا ندري ما هو فاعل فيها. فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب من قومها، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر..(٢)

ولقد كان سيد الأولين والآخرين، وقائد الغر المحجلين أوفى الناس عهدًا، وأصدقهم قولاً، حتى قبل أن يكون نبيًّا مرسلاً، فعن عبد الله بن الحمساء رضي الله عنه قال: «بايعت النبي ﷺ ببيع قبل أن يبعث، فبقيت له بقية، ووعدته أن آتيه في مكان، فنسيت ثم تذكرت ذلك بعد ثلاث، فجئت فإذا هو في مكانه، فقال: يا فتى لقد شققت عليّ، أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك»(٣)

ومما أسفرت عنه وجوه الأوراق، وأخبرت به الثقات، وضرب به المثل في الوفاء والاتفاق، أنه ﷺ كان وفيًا لكل من حوله حتى للأموات الذين تركوا هذه الدنيا ورحلوا إلى الله رب العالمين، فقد عاش وفيًا لذكرى زوجته خديجة رضي الله عنها فكان يذكرها بالتقدير، والحب على مسمع من السيدة عائشة رضي الله عنها فكانت تغار منها حتى قالت ذات مرة: «هل كانت إلا عجوزًا، أبدلك الله خيرًا منها؟ فغضب وقال: «لا والله، ما بدلني الله خيرًا منها،

(١) المستطرف للأبشيهي ص٢٢١ (٢) رواه البخاري. (٣) شرح الزرقاني ٤/ ٢٧٦

**آمنت بى حين كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء»**(١)

ولقد عمل بهذا الخلق الرفيع، أصحاب النبى الشفيع. لأنهم هم الذين تخرجوا فى جامعته، وتعلموا فى مدرسته، فهذا هو «**عبد الله بن عمر**» رضي الله عنهما - لما حضرته الوفاة، قال: انظروا فلانًا، فإنى كنت قلت له فى ابنتى قولاً كشبه العدة، فما أحب أن ألقى الله بثلث نفاق، فأشهدكم أنى قد زوجته(٢)

إنه يشير إلى ما حدث به النبى الأمين ﷺ حين قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان**»(٣)

ومما وضع فى بطون الدفاتر، واستحسنته عيون البصائر، ونقلته الأصاغر عن الأكابر، وتداولته الألسنة من الأوائل والأواخر، ما روى أن النعمان بن المنذر، كان له يومان: يوم بؤس، لا يظفر فيه بأحد إلا قتله، وهذا قبل الإسلام. ويوم نعيم لا يصادف فيه أحدًا إلا أنعم عليه.

وفى يوم بؤسه، ظفر برجل بعيد كل البعد عن وطنه وأهله، ولما قُدِّم لكى يقتل طلب مهلة ثلاثة أيام يعود فيها إلى أهله، ثم يرجع إلى الملك لينفذ فيه حكم القتل. فطلب الملك منه كفيلاً يضمنه لهذا الأمر، فنظر الرجل إلى وجوه الحاشية لعله يجد ذا مروءة يكفله، فوقع اختياره على رجل يدعى (شريك) فخجل منه شريك، وضمنه على أنه إذا غاب عن الموعد المحدد تقدم للقتل بدلاً منه، وذهب الرجل، وغاب ثلاثة أيام، وجاءت ساعة الموعد، ولم يحضر الرجل، فتقدم شريك للقتل، وحزن عليه القوم، وجعلوا يتطلعون إلى الطرق من كل ناحية، فإذا بشخص يظهر من بعيد تحت الغبار، فأخروا قتل شريك حتى يظهر خبر هذا الآتى من بعيد، وما هى إلا لحظات حتى جاء الرجل، وفاءً لموعده، فتعجب الناس من هذا الوفاء، وكأنما أصيبوا بغاشية، وكان الملك أشد إعجابًا منهم مما جعله يسأل شريك، ويقول له: لمَ كفلته؟ فقال: خوفًا من أن يقال: ذهبت المروءة من الناس. وسأل الرجل لم حضرت إلى القتل؟ فقال: لئلا يقال: ذهب الوفاء من الناس. فقال الملك: وأنا عفوت عنكما، لئلا يقال: ذهب العفو من الناس ومن ذلك اليوم أبطل الملك «النعمان بن المنذر» تلك العادة الظالمة(٤)

**وميعاد الكريم عليه دين ... فلا تزد الكريم على السلام**
**يذكره سلامك ما عليه ... ويغنيك السلام عن الكلام**

---

(١) رواه أحمد فى مسنده والبخارى ومسلم. (٢) حياة الصحابة للكاندهلوى ٢/ ٥١٣.
(٣) رواه البخارى. (٤) المستطرف ص٢٢١ بتصرف والعقد الفريد لابن عبد ربه.

لكن ما هى أنواع الوفاء؟ إنه ينقسم إلى ثلاثة:

١- وفاء مع الله. ٢- وفاء مع النفس. ٣- وفاء مع الناس.

فما معنى كل نوع منها؟ لقد ذكرتها فى كتابى من وصايا القرآن فارجع إليها[١]

**الثالث: «وأدوا إذا ائتمنتم»:**

وإذا أدى المتسابق الأمانة، وتوافر فيه هذا الشرط، حصل أيضًا على جائزة السباق الكبرى قال تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [المؤمنون: ١: ١١] فمن أدى الأمانة فقد كُتب له الفلاح، وقمة الفلاح أن يسكنه الله الفردوس، والفردوس هى أعلى درجة فى الجنة.

فما أعظمها من جائزة! وما أعلاها من مكانة! لا يصل إليها إلا من جاهد نفسه. لكن على العكس من ذلك إن لم تفز فى هذا السباق كنت خائنًا للأمانة، وخائن الأمانة ثلث منافق، ولقد جعل الرسول ﷺ خيانة الأمانة علامة من علامات الساعة لما جاءه رجل، وقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ فقال له: «**إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة**»[٢] ويؤتى بالعبد يوم القيامة، وإن قتل فى سبيل الله، فيقال له: أدِّ أمانتك. فيقول: أى رب كيف وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية. فَيُنطلق به إلى الهاوية، وتمثل له الأمانة كهيئتها يوم دفعت إليه، فيراها فيعرفها، فيهوى فى أثرها حتى يدركها، فيحملها على منكبه، حتى إذا ظن أنه خارج، زلت عن منكبه، فيهوى فى أثرها أبد الآبدين. وتأمل قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا**﴾ [النساء: ٥٨] لقد عبر عنها بالجمع أتدرى لماذا؟ لأن الأمانة كلمة عامة شاملة، فهى إما مع ربه بفعل المأمورات، واجتناب المنهيات، وإما مع الناس، وإما مع نفسه، ولكل عضو من أعضاء الإنسان أمانة: فاللسان أمانة، وأمانته ألا يستعمله فى كذب ولا غيبة ولا نميمة، والعين أمانة، فلا ينظر بها إلى محرم، والأذن أمانة فلا يصغى بها إلى سماع محرم، وفرج الإنسان أمانة، وأمانته أن يحفظه، ولذلك قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خلق الله فرج الإنسان، وقال له: هذه أمانة عندك فاحفظها إلا بحقها ولهذا أتى النبى ﷺ بالبند الرابع فقال:

---

(١) من وصايا القرآن للمؤلف ٢/ ٢٧ (٢) رواه البخارى.

**الرابع: «واحفظوا فروجكم»:**

ومن التـزم بهذا البند فـحفظ فرجـه، نال الجائزة أيضًـا، كما وضحـت آيات سورة المؤمنون ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ...** ﴾ ثم يصير جـزاؤهم، وتكون مكانتهم فى الفـردوس مع من أدى الأمانة، ووفى بعهده.

إن رسولنا ﷺ حذر النساء والرجال من الوقوع فى الفاحشة، بل إنه حذر من كشف العورات، فعن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «**أيما امرأة وضعت ثيابـها فى غير بيت زوجها، فـقد هتكت ستـر ما بينها وبـين الله تعالى**»[1] وقال للرجال: «**إذا رأى أحدكم ما يعجبه، فليأت أهله، فإن معها مثل الذى معها**».

**الخامس: «وغضوا أبصاركم»:**

فمن غض بصره فاز، قـال سبحانه: ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** ﴾ [النور ٣٠] قال الإمام الغزالى: واعلم أنى تأملت هذه الآية فإذا فيـها مع قصرها ثلاث معان عزيزة: تأديب، وتنبـيه وتهديد، أما التأديب فقـوله تعالى: ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ** ﴾ ولابد للعبد من امـتثال أمر السيد، والتأدب بآدابه، وإلا كان سيئ الأدب، فـيحجب فلا يؤذن له فى حضور المجلس، والمثول بالحضـرة فافهم هذه النكتـة، وتأمل ما تحتها فـإن فيها ما فيـها. وأما التنبيـه فقوله تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ** ﴾ ويطلق على معنيين والله أعلم ذلك أطهر لقلوبهم، والزكاة: الطهارة، والتزكية: التطهير، والثانى: ذلك أغنى لخيرهم وأكثر والزكاة فى الأصل: النمو، فنبه على أن فى غض البصر تطهيرًا للـقلب، وتكثيرًا للطاعة والدليل على ذلك أنك إن لم تغض بصرك، وأرخيت عنانه، تنظر فيما لا يعنيك فلا تخلو من أن تقع عيناك على حرام، فإن تعمدت فذنب كبير، وربما تعلق قلبك بذلك فتهلك إن لم يرحم الله تعالى.

**وأما التهديد فقوله تعالى:** ﴿ **إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** ﴾.

**واعلم أخى الحبيب:** أن إطلاق البصر من أوسع مداخل الشيطان، فإن البصر جارحة لا تُملأ بخلاف البطن فإنه متى امتـلأ لم يبق له فى الطعام إرادة، أما العين، فلو تركت لم تفتر من النظر أبدًا، فيقع المحذور، وتكون النتيجة، أن تسقط فى غواية الشيطان[2] يا مطلق البصر. إذا رتعت العين بوادى الحـسان، لاحت فى القلب بوادى الخسران، وإذا

(١) رواه أحمد وابن ماجه وأبو نعيم فى الحلية والحاكم وصححه وأقره الذهبى على شرط الشيخين.
(٢) منهاج العابدين للغزالى ص٣١ ط/ دار إحياء الكتب العربية.

حضر سوق الحرام غاب القلب، «وتذكر أنه إذا حضر قلبك فنسيم الريح يذكرك، وإن غاب فمائة ألف نبى لا يوصلون التذكرة إليك»[1]

**وأما السادس: فهو: «وكفوا أيديكم»:**

أى كفوا أيديكم عن الحرام، فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين،** فقال: **﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾** [المؤمنون: ٥١] وقال: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾** [البقرة: ١٧٢] **ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء فيقول: يا رب، يا رب، ومطعمه من حرام، ومشربه من حرام، وغذى بالحرام، فأنى يستجاب لذلك»**[2] فالرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات، وبالعمل الصالح، فما دام الأكل حلالاً فالعمل الصالح مقبول، فإذا كان الأكل غير حلال، فكيف يكون العمل مقبولا؟ لأن الله سبحانه لا يتقبل إلا من المتقين، قال سبحانه: **﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾** [المائدة: ٢٧].

قال أبو عبد الله الناجى -رحمه الله-: خمس خصال بها تمام العمل: **الإيمان بمعرفة الله عز وجل،** ومعرفة الحق، وإخلاص العمل **لله،** والعمل على السنة، وأكل الحلال، **فإن** فقدت واحدة لم يرتفع العمل، وذلك أنك إذا عرفت **الله** عز وجل، ولم تعرف الحق لم تنتفع، وإذا عرفت الله وعرفت الحق، ولم تخلص العمل لم تنتفع، وإذا عرفت **الله،** وعرفت الحق، وأخلصت العمل، ولم يكن على السنة لم تنتفع، وإن تمت الأربع ولم يكن الأكل من حلال لم تنتفع.

اللهم يا خالق الخلق ويا قيوم نسألك بأسمائك الحسنى أن تنصر الإسلام والمسلمين، وأن تعلى كلمة الحق والدين، وأن تشمل بعنايتك ورعايتك ولاة أمور المسلمين، ونسألك أن تغفر لنا وللمسلمين يا رب العالمين.

## الوصية رقم (٧١)
## لا تباغضوا ولا تحاسدوا

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»**[3]

**صدق رسول الله ﷺ**

---

(١) المدهش ص٤٧٦ لابن الجوزى. (٢) رواه مسلم (١٠١٥).

(٣) رواه مسلم (٢٥٥٩) وأحمد فى مسنده (٩٠٩٥) مطولا وذكره الألبانى فى صحيح سنن أبى داود برقم (٤٩١) والإرواء (٢٩ ٢).

لقد استهدف الإسلام الحنيف بتعاليمه الراشدة بناء الإنسان السوى خَلْقًا وخُلُقًا وفى سبيل ذلك زوده بما يثرى فيه صفاء فطرته، ونقاء سريرته، لأنه يريد أن يبنى مجتمعًا متماسكًا، يقوم على الأخوة الإيمانية التى تنبنى على الحب المتبادل بين المؤمنين، وهذا الحب، لا يرتفع شأنه إلا إذا سلم القلب من الحقد والحسد، والغيرة والغرور، والعجب، وحب الذات.

لهذا أوصانا رسول الإسلام ﷺ ألا نتحاسد، ولا نتباغض، والبغض والحسد لا يكون إلا فى القلب، ونظرة الإسلام إلى القلب خطيرة، فالقلب الأسود الذى امتلأ بالغل والحقد، يفسد الأعمال الصالحة، ويطمس بهجتها ويعكر صفوها.

أما القلب المشرق بالحب والمودة والإخلاص، فإن الله تعالى يبارك فى قليله، وهو إليه بكل خير أسرع.

فعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: يا رسول الله، أى الناس أفضل؟ قال: **كل مخموم القلب صدوق اللسان.** فقالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟. قال: «**هو التقى النقى، لا إثم فيه ولا غل ولا حسد**»

ولذلك مدح الله تعالى الجماعة المسلمة التى قامت أول ما قامت على عواطف الحب المشترك، والود الشائع، والتعاون المتبادل، فلا مكان للحقد، ولا للغل، وإنما هى كما وصفها الله سبحانه: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [الحشر: ١٠] وكمال المرء وسمو قدره، وعلو درجته، ومنزلته عند الله تعالى، وعند الناس مرهونة بما يتمتع به من زكاة نفس، وطهارة قلب، وحب للخير وأهله، وبغض للشر وحزبه، لا يبخل فى ميادين البذل بنفس أو مال، ما دام ذلك فى مرضاة ربه، ولخير بنى جنسه، ولعمرى إن ذلك لهو أفضل ما يُذكر به المرء فى دنياه، وخير زاد له يوم العرض على ربه.

ومن ثم فقد كان خلق الصفوة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهذا إبراهيم الخليل عليه السلام خليل الرحمن يمتدحه ربه فى محكم التنزيل، فيقول سبحانه: ﴿**وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤] كما كان من دعائه: ﴿**وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء: ٨٧: ٨٩].

## أخى الحبيب:

اعلم أنه لا يحل لك التباغض ولا التحاسد، ولا التدابر بين المسلمين، والواجب عليهم أن يكونوا إخوانًا متحابين، كما أمر الله تعالى، وأمرهم رسولهم ﷺ، فإذا تألم

واحد منهم تألم الآخر بألمه، وإذا فرح فرح الآخر بفرحه، مع استسلام الأنفس لله عز وجل، والرضا بقضائه وقدره.

ولا يجب الهجران بين المسلمين عند وجود ذلة من أحدهما، بل يجب صرفها إلى الإحسان والعطف عليه بالإشفاق وترك الهجران.

ولأجل هذا نرى واضحًا أن ديننا الحنيف ينهى عن القطيعة، ويحذر منها، فتأمل هذا التحذير من أستاذ البشرية: «**إياكم وسوء ذات البين، فإنها الحالقة**»(١) وذات البين، هى ذات الوصل التى تربط بعض الناس بعضهم ببعض بأى رابطة من الروابط المعتبرة، كالقرابة، أو الجوار، أو الصداقة، أو الزمالة فى العمل، أو الصحبة فى الطريق، ونحو ذلك من العلاقات الاجتماعية.

ولذلك جاءت رواية أخرى بصيغة الحث، عن أبى الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام، والصلاة، والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: إصلاح ذات البين: الحالقة**»(٢)

فقد جعل الرسول ﷺ إصلاح ذات البين، والتحابب بين المسلمين، وعدم هجر بعضهم بعضًا، أفضل ثوابًا، وأعظم خيرًا من ثواب الصلاة، والصيام، والتصدق بالأموال، خلافًا لصورة القطيعة، فإنه سماها بالحالقة، وفى رواية: «**لا أقول حالقة الشعر، ولكن تحلق الدين**» وحلقه -أى إزالته من القلوب-.

إن الشيطان قد يعجز أن يجعل المؤمن الموحد عابدًا لصنم، ولكنه -وهو الحريص على إغرائه وغوايته، وإرادة المهالك له- لن يعجز عن أن يباعد بينه وبين ربه، حتى يجعله يجهل حقوق المولى عز وجل عليه أشد من جهالة الوثنى الكافر، وهو يحتال لذلك حتى يوقد نيران العداوة فى القلوب، فإذا أشعلها، فرح برؤيتها، واستمتع بها وهى تحرق حاضر الناس ومستقبلهم، يقول النبى الأكرم ﷺ «**إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب، ولكنه لم ييأس من التحريش بينهم**»(٣)

ولقد تيقظ المشرع الحكيم لبوادر الشقاق والجفاء، فلاحقها فى العلاج قبل أن تستفحل، وتستحيل إلى عداوة فاجرة، حين اختلف أصحاب النبى الأعظم ﷺ، يوم غزوة بدر الكبرى فى تقسيم الغنائم، فقال بعضهم -وهم المهاجرون-: هى لنا لأننا طردنا من ديارنا، ومنعنا من أموالنا، ونحن أحوج إليها من غيرنا.

---

(١) رواه الترمذى (٢٥٠٨) بإسناد صحيح عن أبى هريرة ورواه مالك فى الموطأ.

(٢) رواه الترمذى (٢٥٠٩) وصححه وأحمد فى مسنده (٢٧٣٨١) بإسناد صحيح وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٤٩١٩).

(٣) رواه مسلم.

وقال الأنصار: نحن أولى بها منكم، لأننا آوينا ونصرنا.

وقال الشباب من هؤلاء وهؤلاء: نحن أولى بها، لأننا القوة الضاربة، والطاقة الفعالة.

وقال الشيوخ: نحن أولى بها، لأننا أهل الرأى والمشورة. إلخ فأنزل الله سبحانه: ﴿**يسْأَلُونَكَ عنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ للَّه وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وأَطِيعُوا اللَّهَ ورسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [الأنفال: ١] لقد أمرهم فى الآية الكريمة بإصلاح ذات البين، لأن فى ذلك صلاح دينهم ودنياهم.

ولذلك نهى نبى الإسلام ﷺ عن الهجر والقطيعة، فقال ﷺ فى آخر هذه الوصية، أو فى رواية أخرى: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان، فيعرض هذا، ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام**»[١]

**يقول ابن حبان:**

السبب المؤدى إلى الهجران بين المسلمين ثلاثة أشياء: إما وجود الزلة -ولا محالة يزل- فلا يغضى عنها، ولا يطلب لها ضدها، وإبلاغ واش بقدح فيه، ومشى عاذل بثلب له فيقبله، ولا يطلب لتكذيبه سببًا، ولا لأخيه عذرا، وورود ملل يدخل على أحدهما، فإن الملالة توجب القطع، ولا يكون لملول صديق[٢]

والإنسان فى كل نزاع ينشب، أحد رجلين: إما أن يكون ظالمًا، وإما أن يكون مظلومًا، فإن كان عاديًا على غيره، ظالمًا له، فعليه أن يقلع عن غيه، وأن يصلح سريرته، وليعلم أنه لا يستطيع أن يستل الضغينة من قلب خصمه، إلا إذا عاد عليه بما يطمئنه ويرضيه بإزالة ما فى النفوس، وإرجاع الحقوق.

يقول ﷺ: «**من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض، أو من شيء، فليتحلله منه اليوم من قبل ألا يكون دينار ولا درهم**»[٣]

فهذا نصح الإسلام لمن عليه الحق، أما من له الحق، فقد رغب إليه أن يكون لين الجانب، فيقبل المعذرة، وفى الحديث: «**من اعتذر إلى أخيه المسلم فلم يقبل منه كان عليه مثل خطيئة صاحب مكس**»[٤] والمكس هو نهب الأموال بلا حق.

فبهذا التوجيه الحكيم تبين لنا أن الإسلام يحارب الأحقاد والبغضاء، ويقتل جرثومتها فى المهد، ويرتقى بأهله إلى أرفع مستوى، لذلك جعل أبغض الناس إليه من أبغضه إخوانه، فقال ﷺ: «**ألا أنبئكم بشراركم؟**» قالوا: بلى، إن شئت يا رسول الله، قال: «**إن**

---

(١) رواه البخارى (٦٠٧٧) ومسلم (٢٥٦٠) وصحيح سنن أبى داود للألبانى (٤٩١١).

(٢) روضة العقلاء لابن حبان ص١٨٥ (٣) رواه البخارى (٤) رواه ابن ماجه.

**شراركم الذى ينـزل وحده، ويجلد عبده، ويمـنع رفده»، أفلا أنبئكـم بشر من ذلك؟** قالوا: بلى إن شئت يا رسول الله. قال: «**من يبغض الناس ويبغضونـه». قال: أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟** قالوا: بلى يـا رسول الله قال. «**الذين لا يـقيلـون عثـرة، ولا يقبـلون معـذرة، ولا يغفـرون ذنبًا**». قال: **أفلا أنبئـكم بشر من ذلك؟** قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «**من لا يرجى خيره، ولا يؤمن شره**»(١)

وهناك كثير مـن الرذائل حذر منها الإسلام ونهى عنها، لأنهـا مع اختلاف مظاهرها تعود إلى علة واحدة وهى الحقد والبغضاء. فقد حذر من الغيبة ورهب منها، لأنها متنفس حقد مكتوم، يقول ﷺ: «**أتدرون ما الغـيبة؟** قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال ﷺ: **ذكرك أخاك بما يكره**، قيل: أرأيـت إن كان فى أخى ما أقـول؟ قال: **إن كان فـيه مـا تقول، فـقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فيه بهته**»(٢)

وحرم الإسلام النميمة، لأنها ذريعة إلى تكدير الصفو، وتغيير القلوب.

فقال ﷺ: «**لا يدخل الجنة نمام**» وقد قيل: إنَّ عمل النمام أضر من عمل الشيطان، لأن عمل الشـيطان خيال ووسـوسة، وعمل النمـام مواجهة ومـعاينة، وقد قيـل فى قوله تعالى: ﴿**حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**﴾ [المسد: ٤] أن المراد بالحطب هنـا النميمة، وسـميت النميـمة حطبًا، لأنهـا سبب للعداوة والبـغضاء، فصارت بمنزلـة إيقاد النار وقد ذكر أن حكـيمًا من الحكماء زاره بعـض أصدقائه، وذكر عنده بعـض إخوانه، فقال له الحكيـم: **قد أبطأت فى** الزيارة، وأتيتنى بثلاث جنايات: «بغضت إلىَّ أخى، وشغلت قلبى الفارغ، واتهمت نفسك بالنم»(٣)

وقد كان النبى ﷺ ينهى أن يبلغه أحد عن أصحابه شيئًا، فقال: «**لا يبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئًا، فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**»(٤)

وقد جاء رجل إلى على بن أبى طالب ﷺ وقد سعى بينه وبين رجل، فقال له: «يا هذا، نحن نسأل عـما قلت، فإن كنت صادقًـا مقتناك، وإن كنت كاذبـا عاقبناك، وإن شئت نقيلك أقلناك».

كما روى عن عمـر بن عبد العزيز -رحمه الله- أنه دخل عليـه رجل، فذكر له عن رجل شيئًـا، فقال له عمر: إن شـئت نظرنا فى أمرك، فإن كنت كـاذبًا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾ [الحجرات: ٦] وإن كنت صادقًا، فأنت من أهل هذه الآية: ﴿**هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ**﴾ [القلم: ١١] وإن شئت عفونا عنك؟ فقال: العفو يا أمير المؤمنين، فلن أعود إليه أبدًا

---

(١) رواه الطبرانى.
(٢) خرج فى موضع آخر.
(٣) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص ١٣
(٤) رواه الترمذى وأبو داود.

وقد حرم الإسلام الحسد، وأمر الله رسوله أن يستعيذ به من شرور الحاسدين، لأن الحسد جمرة تتقد فى الصدر، فتؤذى صاحبها، وتؤذى الناس.

الحسد من أخلاق اللئام، وتركه من أفعال الكرام، ولكل حريق مطفئ، ونار الحسد لا تطفئ.

ومن الحسد يتولد الحقد، والحقد أصل الشر، ومن أضمر الشر فى قلبه أنبت له نباتًا مرًّا مذاقه، نماؤه الغيظ، وثمرته الندم.

**ليس للحاسد إلا ما حسد ... وله البغضاء من كل أحد**

**وأرى الوحدة خيرًا للفتى ... من جليس السوء فانهض إن قعد**

**وقال أبو حاتم:**

بئس الشعار للمرء الحسد، لأنه يورث الكمد، ويورث الحزن، وهو داء لا شفاء له.

والحاسد إذا رأى بأخيه نعمة بُهت، وإن رأى به عثرة شمت، ودليل ما فى قلبه كمين على وجه مبين، وما رأيت حاسدًا سَالَمَ أحدًا[١]

من أجل ذلك نهى الإسلام عنه فى هذه الوصية فى قوله: «**ولا تحاسدوا**».

إن الإسلام يتحسس النفوس بين الحين والحين، ليغسلها من أدران الحقد الرخيص، ويجعلها حافلة بمشاعر أزكى وأنقى نحو الناس، ونحو الحياة.

وفى كل يوم، وفى كل أسبوع، وفى كل عام تمر النفوس من آداب الإسلام فى مصفاة تحجز الأكدار، وتنقى العيوب، وتزيل ما فى الأفئدة من آثار الضغائن.

أما فى كل يوم؛ فقد أوضح الإسلام أن الصلوات المكتوبة لا يحظى المسلم بثوابها إلا إذا اقترنت بصفاء القلب للناس، وفراغه من الغش والخصومات.

قال ﷺ: «**ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رءوسهم شبرا: رجل أمَّ قومًا وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارمان**»[٢]

وأما فى كل أسبوع: فإن هناك إحصاء لما يعلمه المسلم، ينظر الله عز وجل فيه ليحاكم المرء إلى ما قدمت يداه، وأسره ضميره، فإن كان سليم الصدر نجا من العثار، وإن كان ملوثًا بمآثم الغضب والحسد والحقد، تأخر فى المضمار.

قال رسول الله ﷺ: «**تعرض الأعمال فى كل اثنين وخميس، فيغفر الله عز وجل فى ذلك لكل امرئ لا يشرك بالله شيئًا إلا امرأ كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول اتركوا هذين حتى يصطلحا**»[٣]

---

(١) روضة العقلاء لابن حبان البستى ص١٢٤

(٢) رواه ابن ماجه (٩٧١) جـ١/ ٣١١ وقال الهيثمى فى المجمع رجاله ثقات.

(٣) رواه مسلم.

أما فى كل عام: فبعد تراخى الليالى، وامتداد الأيام، لا ينبغى أن يبقى المسلم حبيسًا فى سجن العداوة، مغلولاً فى قيود البغضاء.

فإن لله فى الناس نفحات لا يظفر بخيرها إلا الأصفياء السمحاء[١]

يقول ﷺ: «**يطلع الله عز وجل إلى خلقه ليلة النصف من شعبان، فيغفرَ لعباده إلا اثنين: مشاحن، وقاتل نفس**»[٢]

ثم تأمل أخى الحبيب: كيف أن سلامة الصدر من الغل والحقد والبغضاء لها خير الجزاء وعظيمه.

فعن أنس بن مالك قال: كنا جلوسًا عند النبى ﷺ، فقال: «**يطلع علينا رجل من أهل الجنة**» فطلع رجل من الأنصار، تنظف لحيته من وضوئه، قد علق نعليه بيده الشمال، فلما كان الغد قال النبى ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث، قال النبى ﷺ مثل مقالته أيضًا، فطلع ذلك الرجل فى مثل حاله الأولى.

فلما قام النبى ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، فقال له: إنى لاحيت أبى -أى خاصمته- فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثًا، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى فعلت! قال: نعم.

قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالى، فلم يره يقوم من الليل شيئًا، غير أنه إذا تعر -أى تقلب فى فراشه- ذكر الله عز وجل حتى ينهض لصلاة الفجر. قال عبد الله: غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيرًا.

فلما مضت الليالى الثلاث، وكدت أن أحتقر عمله، قلت: يا عبد الله لم يكن بينى وبين أبى غضب ولا هجرة، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول لك -ثلاث مرات- «**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**» فطلعت أنت الثلاث مرات، فأردت أن آوى إليك، فأنظر ما عملك، فأقتدى بك، فلم أرك عملت كبير عمل!!.

فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت، غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشًّا، ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه. فقال عبد الله: هذه هى التى بلغت بك»[٣]

وفى رواية: «ما هو إلا ما رأيت يابن أخى، إلا أنى لم أبت ضاغنًا على مسلم».

نسألك اللهم أن تنزع الغل والحقد من قلوبنا، وأن تملأ بالمحبة صدورنا، اللهم املأ قلوبنا بك فرحًا، وألسنتنا لك ذكرًا، وجوارحنا فيما يرضيك شغلاً، اللهم امح عن قلوبنا

(١) خلق المسلم للغزالى بتصرف ص٦٥، ٦٦

(٢) رواه أحمد (٦٦٤٢) جـ٦/١٩٧ وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر.

(٣) رواه أحمد فى مسنده (١٢٦٣٣) بإسناد صحيح.

كل ذكـر إلا ذكرك، وكل حب إلا حـبك، وكل ود إلا ودك، وكل إجلال إلا إجـلالك، وكل رجاء إلا لك، وكل خوف إلا منك، وكل رغـبة إلا إليك، وكل رهبة إلا لك، وكل سؤال إلا منك، وارحمنا برحمتك، وأمنا من عذابك. يا رب العالمين.

## الوصية رقم (٧٢)
## من ابتلى بالبنات كن له سترًا من النار

عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندى شيئًا غير تمرة، فأعطيتهـا إياها، فقسمتها بيـن ابنتيها، ولـم تأكل منها، ثم قامـت فخرجت، فدخل رسول الله ﷺ علينا، فأخبرته، فقال: «**من ابتلى من هذه البنات بشىء فـأحسن إليهن كن له سترًا من النار**»(١)

**صدق رسول الله ﷺ**

السيدة عـائشة رضي الله عنها تحكى لنا أن امرأة دخلت عليهـا ومعها ابنتان لهـا، تطلب منها شيئًا من الصدقة، فلم تجد السيدة عائشة إلا تمرة واحدة، فأعطتها إياها، وهذا يدل على أن التصدق يجوز بالتمـرة أو بشق التمرة، فقد ورد: «**اتقوا النار، ولو بشق تمرة**»(٢) وخيركم من جاد بمن عنده، وقد مرَّ يومًا مسكين بالسيـدة عائشة رضي الله عنها، وكان أمامها طبق من العنب فأعطته واحدة، فتعجب الحاضرون، فقالت لهم: كم فيها من الذرات؟ ألم يقل الله تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: ٧، ٨](٣)

وانظر إلى الشفقـة والرحمة عندما أخذت المرأة السـائلة التمرة شقتهـا نصفين، لكل واحدة جزء ولم تذقهـا هى، إنها رحمة فطرية أودعها الله فى قلـوب الأمهات والآباء نحو الأولاد، ثم يدخل رسول الرحمـة والشفقة ﷺ بعدما خـرجت هذه المرأة فيخبـر السيدة عائشـة بفضل وثواب من قام بتـربية أولئك البنات، فكـأنه يوصى الآباء والأمهات بتـربية البنات، وإكرامهن، والإحسان إليهن ليكن عونًا وسترًا وحجابًا من النار يوم القيامة.

وتلك فضيلة كبـرى، ومنقبة عظمى للإسلام الحنيف، فقد كـان الناس فى عصر ما قبل الإسلام يحبـون البنين ويفضلونهم على البنات، بل إن الرجل كـان يغضب من زوجته التى تلد البنات، ويهجـر فراشها إلى غيرها، بحجة أنهـا لم تنجب له ذكورًا، ومن طريف ما ذكر، أن رجلاً من العرب كان يكنى «بأبى حـمزة» تزوج امرأة طمعًا فى أن تلد له ولدًا

---

(١) رواه البخارى (١٤١٨) ومسلم (٢٦٢٩) وأحمد (٢٣٩٣٧) والترمذى (١٩٣٣) وحسنه.

(٢) رواه أحمد فى مسنده (١٨١٨٧) ومسلم (١٦ ١) وذكره الألبانى فى ص.ج (١١٥).

(٣) تفسير الفخر الرازى.

ذكرًا، فولدت له بنتًا، فهجرها فى موضع آخر، وكان يمر بها، فأخذت تداعب ابنتها وهى تنشد وتقول:

**ما لأبى حمزة لا يأتينا ... وهو فى البيت الذى يلينا**

**غضبان ألا نلد البنينا ... تالله ما ذلك فى أيدينا**

**فنحن كالأرض لزارعينا ... ننبت ما قد زرعوه فينا**

وما أن سمع الرجل هذه الأبيات، حتى غلبه الحنان الأبوى، فدخل البيت، وأصلح زوجته[1] وهذا شاعر آخر يسمى «أبو نخيلة» شاعر أموى، تزوج امرأة من قومه، فولدت له بنتًا، فحزن لذلك حزنًا شديدًا، فطلقها، ثم عاتبه قومه، فندم وراجعها، فبينما هو فى بيته ذات يوم، إذ به يسمع صوت ابنته، وأمها تداعبها، فشده ذلك، وتحركت عاطفته، فأخذها وقال:

**يا بنت من لم يك يهوى بنتًا ... ما كنت إلا خمسة أو ستّا**

**حتى حللت فى الحشا وحتى ... فتت قلبى من جوى فانفتا**

وكان بعضهم يدفن البنات أحياء، ولقد حكى القرآن الكريم عنهم تلك الصورة البشعة، فقال سبحانه: ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩] وقال جل شأنه: ﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ**﴾ [التكوير: ٨، ٩].

لما سطع نور الإسلام بدد هذه الظلمات، ومحا هذه الرذائل، وبدل هذه الكراهية بالحب والتقدير، وجعل للبنات وللمرأة شأنًا فى المجتمع، واهتم بالحث على تربية البنات ورفع قدرها، ففى مسند الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما النساء شقائق الرجال**» فلا ينبغى للآباء أن يفرقوا بين الذكور والإناث فى المعاملة، **لأن** كلاهما هبة من الله تعالى، وعطاء منه، لا دخل للزوج وللزوجة فى شىء فى ذلك.

وهذه الوصية المباركة دعوة صريحة إلى العناية بالبنات تربية وتهذيبًا، وإرشادا ليكن سببًا من أسباب دخول الوالدين الجنة، وعلو منزلتهما يوم القيامة بحسب الإخلاص فى التربية.

فلينظر أدعياء الحضارة، وليتأملوا مدى احترام الإسلام للمرأة منذ طفولتها، فعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كن له ثلاث بنات يؤدبهن، ويرحمهن، ويكفلهن، ويزوجهن، وجبت له الجنة ألبتة**».

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ١٨٦

قيل: يا رسول الله، فإن كانتا اثنتين؟ قال: «**وإن كانتا اثنتين**»(١)

وفى رواية أخرى: «**من عال ثلاث بنات يكفيهن ويرحمهن، ويرفق بهن فهو معى فى الجنة**».

كما أرشد ﷺ أتباعه وعلمهم بأن تربية البنات ترفع الدرجات، كما روى عنه أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: «**من عال جاريتين** -أى قام بمؤنتهما- **حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو**»(٢) وضم أصابعه.

وفى رواية عنه أيضًا: «**من عال ابنتين أو ثلاثًا، أو أختين أو ثلاثًا حتى يبن** - أى تستغنى عن رعايته- **أو يموت عنهن، كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين، وأشار بأصبعه الوسطى والتى تليها**»(٣)

**قال ابن علان فى دليل الفالحين:**

قال ابن بطال: حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبى ﷺ فى الجنة، ولا منزلة فى الجنة أفضل من ذلك.

**وقال القرطبى:** أنه معه فيهما، وبحضرته غير أن كل واحد منهما على درجته فيها، إذ لا يبلغ درجة الأنبياء غيرهم، ولا يبلغ درجة نبينا ﷺ أحد من الأنبياء، وإلى تفاوت ما بينهما اختصاص كل منهما بدرجة ومنزلة(٤)

لكن هل يكون هذا الثواب لمن كان له ابنة واحدة؟ أم لابد أن يكون له ابنتان أو ثلاث؟ **نعم لقد رغب الإسلام فى تربية البنات ولو كانت واحدة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن** رسول الله ﷺ قال: «**من كانت له أنثى فلم يئدها، ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها** -يعنى الولد الذكر- **أدخله الله الجنة**»(٥)

ولما جاء الإسلام وحث على تربية البنات، فندم بعض الذين كانوا يفعلون ذلك فى الجاهلية، وأرادوا أن يتوبوا، وقد علموا أن الإسلام يجب ما قبله، فماذا حدث؟ لما نزل قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**﴾ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله. إنى وأدت بناتًا لى فى الجاهلية، قال: «**أعتق عن كل واحدة منهن رقبة**» قال: يا رسول الله، إنى صاحب إبل؟ قال: «**فانحر عن كل واحدة منهن بدنة**» وفى رواية أنه قال: إنى وأدت اثنتى عشرة بنتًا،

---

(١) رواه أحمد فى مسنده برقم (١٤١٨١) بإسناد حسن ١١/٣٩٣

(٢) رواه مسلم (٢٦٣١) والترمذى (١٩٨١) وابن حبان (٤٤٨) والبخارى فى الأدب المفرد.

(٣) رواه أحمد فى مسنده (١١٨٦٣) بإسناد صحيح ١/٥ ٣ (٤) دليل الفالحين ٢/٧٩

(٥) رواه أحمد فى مسنده (١٧٣٣٤) ورواه الحاكم ٤/١٧٧ وصححه وأقره الذهبى.

أو ثلاث عشرة بنتًا، فقال له النبى ﷺ: **«أعتق عن كل واحدة منهن نسمة»**(١) وكان قيس ابن عاصم هذا رجلاً عاقلاً حليمًا مشهورًا بالحلم.

قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم(٢)

تغيرت أحوالهم بعد إسلامهم، وبدلوا بغضهم للبنات حبًا، وحزنهم بولادتهن سعادة وهناءً، لأنهم علموا من التشريع الربانى، أنهم خاسرون هالكون بشؤم ذنبهم، كما ذكر القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿**قَدْ خسِر الَّذِين قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ [الأنعام: ١٤].

فبعدما كان شاعرهم يقول:

**لكل أب بنت يراعى شئونها ... ثلاثة أصهار إذا حمد الصهر**
**فبعل يراعيها، وخدر يكنها ... وقبر يواريها، وخيرهم القبر**

فأصبح يقول:

**سخطت بنية عما قليل ... تُسر بها عيون الناظرات**
**فبارك فى فطيمة ربُّ موسى ... وأنبتها نبات الصالحات**
**وزادك عاجلاً أخرى سواها ... لسخطك إذ سخطت على البنات**

وآخر يقول:

**أحب البنات وحب البنات ... فرض على كل نفس كريمه**
**فإن شعيبًا من أجل ابنتيه ... أخدمه الله موسى كليمه**

وأخرى تقول وقد رزقها ببنت، فقيل لها: إنها أنثى، فأنشدت:

**وما علىَّ أن تكون جارية ... تحفظ بيتى وترد العاريه**
**تمشط رأسى وتكون الفالية ... وتحمل الفاضل من خماريه**
**حتى إذا ما بلغت ثمانية ... وزينت بنُقبة يمانيه**
**زوجتها مروان أو معاوية ... أزواج صدق بمهور غاليه**(٣)

وفى يوم من الأيام يدخل عمرو بن العاص رضي الله عنه على معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه وكانت عنده ابنته عائشة، فقال عمرو: من هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال معاوية: هذه تفاحة القلب. فقال عمرو: انبذها عنك، فقال معاوية: ولمَ؟! فقال عمرو: فو الله إنهن ليلدن الأعداء، ويقربن البعداء، ويورثن الضغائن. فقال معاوية: لاتقل ذاك يا عمرو، فوالله

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير والهيثمى فى المجمع ٧/ ١٣٤ وابن حجر فى الإصابة ٥/ ٤٨٥.

(٢) أسد الغابة ٣/ ٥٠٣.

(٣) المستطرف للأبشيهى ص٢٨٢ ط/ دار التوفيقية وقيل: إن مروان سمعها فتزوجها على مائة ألف مثقال، وقال: إن أمها حقيقة ألا يكذب ظنها ويخاف عهدها.

ما مرض المرضى، ولا ندب الموتى، ولا أعان على الأحـزان مثلهن، ولا بر الأحياء كهن، وإنك لواجد خالاً قد نفعه بنو أخته، وأبا قد رفعه نسل ابنته.

فقـال عمرو: مـا أعلمك إلا حبـبتهـن إلى، دخلت عليك ومـا على الأرض شىء أبغض إلى منهن، وإنى لأخرج من عندك، وما عليها شىء أحب إلىَّ منهن[1]

وكان السلف الصالح يعرفون ذلك.

قال صالح ابن الإمام أحمد بن حنبل: كـان أحمد بن حنبل إذا ولدت له ابنة يقول: الأنبياء كانوا آباء بنات[2]

وقال يعقوب بن يختان -رحمه الله-: ولد لى سبع بنات، فكنت كلما ولد لى ابنة، دخلت على أحمد بن حنبل، فيقول لى:

يا أبا يوسف، الأنبياء آباء بنات، فكان يذهب قوله همى[3]

**لطيفة:** يقول الثعالبى:

«الدنيا مـؤنثة، والناس يخدمـونها، والنار مؤنثـة والذكور يعبدونـها -أى المجوس- والأرض مؤنثـة، ومنها خلـقت البرية، وفـيها كثـرت الذرية، والسمـاء مؤنثـة، وهى قوام الأبدان، وملاك الحـيوان، والحيـاة مؤنثـة ولولاها لم تتصـرف الأجسام، ولا عـرف تحرك الأنام، والجنة مؤنثة وبها وُعد المتقون، وفيها ينعم المرسلون»[4]

## أخى الحبيب:

قرْ عينًـا، وطب نفسًا بعطاء الله، فـإن كان ذكرًا فهو من عـند الله، وإن كانت أنثى فهى من عند الله، ولا عليـك إلا أن ترفع يديك إلى رافع السماء بلا عمـد، إلى من بيده الأمر كله، وتقول: ﴿رَبَّنَا هبْ لَنَا منْ أَزْوَاجنَا وَذُرِّيَّاتنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا للْمُتَّقينَ إمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]. لأنه ربما يرزقك الغـلام ولا يكون قرة عـين لك، فهذا رجل قـد رزقه الله غلامًا، فلما شب وكبر، بعث به إلى المكتب ليحفظ القرآن، وفى يوم من الأيام سأله: فى أى سورة أنت؟ قال: لا أقسم بهذا البلد، ووالدى بـلا ولد فقال: لعمرى من كنت أنت ولده فهو بلا ولد[5]

وأرسل رجل ولده ليشترى له رشاء أى حبلاً لـلبئر طوله عشرون ذراعًا، فوصل إلى نصف الطريق، ثم رجع، فقال: يا أبت عشرون فى عرض كم؟

قال له: فى عرض مصيبتى فيك يا بنى[6]

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى ٢/ ١٣٥

(٢)، (٣) تحفة المودود لابن القيم ص٣٢ دار ابن رجب

(٤) سحر البلاغة للثعالبى. (٥)، (٦) المستطرف ص٢٨٢

نسأل الله تبارك وتعالى أن يهبنا الذرية الصالحة، ونسألك يا ربنا أن توفقنا للاستقامة فيما وليتنا عليه، ونعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة، ونعوذ بك من حياة تمنع خير الممات، ونعوذ بك من أمل يمنع خير العمل، واغفر لنا ذنوبنا وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، يا رب العالمين.

## الوصية رقم (٧٣)
## إياكم والظن

عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ **«إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا»**[(١)].

**صدق رسول الله ﷺ**

فى هذه الوصية المباركة يحذرنا النبى ﷺ من رذائل تناقض آداب الأخوة وشرائطها، لأن المؤمنين إخوة كما قال سبحانه: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الحجرات: ١]. وهذه الرذائل قد تبدو للناظر القاصر تافهة الخطر، غير أنها لمن تدبر عواقبها تصدع القلوب، وتجفف عواطف الود والمحبة.

**فالرذيلة الأولى:** سوء الظن بالمسلمين، وجاء النهى عنه بأسلوب التحذير والتهديد، فى قوله **«إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»** أى احذروا الظن كل الحذر، ولا تطلقوا فيه العنان فيما لا يهمكم أمره، وتثبتوا من كل ما يرد عليكم من أنباء، ولا تعتمدوا على الشائعات بل الزموا الأدب مع الله تعالى فى الأقوال والأفعال، ولا تجعلوا للظن دخلاً فى اتهام هذا، وتبرئة هذا، لأن أكثره وهم، كما قال عنه الله تعالى: ﴿**إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾ [النجم: ٢٨] وهذا أكذب الحديث عن الله تعالى، وعن عقلاء الناس، ولهذا جاء النهى عنه فى القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾ [الحجرات: ١٢] فيا من آمنتم بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا ورسولاً يا من آمنتم بالكتاب المنزل على نبيكم الذى يأمر بكل فضيلة، وينهى عن كل فاحشة رذيلة، لا تتركوا أنفسكم نهبًا لكل ما يهجس فيها حول الآخرين من شكوك وشبهات وظنون لماذا؟ **«لأن بعض الظن إثم»** فاجعلوا ضمائركم نقية بريئة من الهواجس والشكوك ودعوا النفوس صافية هادئة لا يعكرها شك أو قلق، فما أروع الحياة فى مجتمع برىء من الظنون والشكوك.

والظن هو التهمة بغير سبب، ومن غير دليل.

والظن ظنان، كما قال سفيان الثورى رحمه الله: الظن ظنان، فظن فيه إثم، وظن ليس فيه إثم، فأما الظن الذى فيه إثم فالذى يتكلم به، وأما الذى ليس فيه إثم فالذى لا يتكلم به[(٢)]

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده والترمذى وهو فى صحيح سنن أبى داود للألبانى برقم (٤٩١٧).

(٢) حلية الأولياء لأبى نعيم ٧/ ١٦

والظن المنهى عنه فى هذه الوصية هو الظن الذى فيه إثم، هو الظن السيئ.

**قال بعض السلف:** هو أن تظن بأهل الخير من المؤمنين شرًا.

ولذلك كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول: «أحسن بصاحبك الظن ما لم يغلبك»[١].

كما أن إساءة الظن تعتبر غيبة، وقد نهى الشارع الحكيم عنها. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرًا، وأنت تجد لها فى الخير محملاً».

والمسلم له حرمته، ولذلك لما نظر عبد الله بن عمر إلى الكعبة قال يخاطبها: «ما أعظمك وما أعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة منك»

**وقال أبو بكر الكتانى:** صحبنى رجل وكان على قلبى ثقيلاً، فوهبت له شيئًا بنية أن يزول ثقله من قلبى فلم يزل، فخلوت به يومًا، وقلت له: ضع رجلك على خدى فأبى، فقلت له: لابد من ذلك، ففعل ذلك فزال ما كنت أجد فى باطنى.

**وقال الربيع بن سليمان:** دخلت على الشافعى وهو مريض، فقلت له: قوى الله ضعفك، قال: لو قوى ضعفى، قتلنى، فقلت: والله ما أردت إلا الخير. قال: أعلم أنك لو شتمتنى لم ترد إلا الخير[٢]

**وقال أبو حاتم رحمه الله:**

**أحدهما:** منهى عنه بحكم النبى ﷺ

**والثانى:** مستحب.

أما الذى نهى عنه فهو استعمال سوء الظن بالمسلمين كافة.

وأما الذى يستحب من سوء الظن فهو كمن بينه وبينه عداوة أو شحناء فى دين أو دنيا يخاف على نفسه مكْرُه، فحينئذ يلزمه سوء الظن بمكائده ومكره، لئلا يصادفه على غرة بمكر فيهلكه[٣]

وفى ذلك يقول القائل:

**وحسن الظن يحسن فى أمور ... ويمكن فى عواقبه ندامه**

**وسوء الظن يُسمج فى وجوه ... وفيه من سماجته حزامه**

واعلم أن سوء الظن لازم فى كثير من الناس، بنص حديث سيد الناس ﷺ: «**ثلاث لازمات لأمتى: الطيرة، والحسد، وسوء الظن**» فقال رجل: وما يذهبهن يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا تطيرت فامض، وإذا ظننت فلا تحقق**»[٤]

(١) المرجع السابق ٥/ ٢٧٧ (٢) المرجع السابق ٦/ ١٢

(٣) روضة العقلاء ص١١٥ (٤) رواه الطبرانى.

أى إذا شعرت أنك قد حسدت فاذكر الله تعالى مستغفراً إياه، وقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، كما ذكرت آية سورة الكهف: ﴿ **وَلَوْلا إِذْ دخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ** ﴾ [الكهف: ٣٨] فإذا فعلت ذلك ذهب حسدك، ولم يؤثر.

وإذا حصل منك التشاؤم، فتوكل على الله، واجعله تفاؤلاً

وإذا وقع الظن السيئ فى قلبك لأحد من المسلمين، فإياك أن تحاول تحقيق هذا الظن بتتبع العورات، والتجسس على الخطيئات.

والتجسس هو البحث عن العورات الخفية، ولكن التحسس هو أن تستمع لحديث القوم من ترويج الشائعات، وتلك أمور تعكر صفو الوداد، وتكدر مرآة الأخوة.

ثم تنهى الوصية المباركة عن ذلكم الداء العضال فيقول سيد الكائنات: «**وَلا تَجسَّسُوا**» والتجسس هو التفتيش عن عيوب الناس الباطنة من غير داعٍ يقتضيه، وقد نهى عنه القرآن الكريم عقب النهى عن سوء الظن فقال سبحانه: ﴿ **وَلا تَجَسَّسُوا** ﴾ [الحجرات: ١٤] والتجسس هو الحركة التالية للظن.

والقرآن الكريم يقاوم العمل الدنىء لتطهير القلوب من هذه الرذيلة الخبيثة.

فللناس حرياتهم وحرماتهم التى لا يجوز أن تنتهك فى صورة من الصور.

ففى المجتمع المسلم يعيش الناس آمنين على أنفسهم، آمنين على بيوتهم وفى الحديث: «**ومن ستر مسلمًا ستره الله فى الدنيا والآخرة**»(١)

فالواجب على العاقل لزوم السلامة بترك التجسس عن عيوب الناس، مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه، فإن من اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره أراح بدنه، ولم يتعب قلبه، فكلما اطلع على عيب لنفسه هان عليه ما يرى مثله من أخيه، وإن من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمى قلبه، وتعب بدنه، وتعذر عليه ترك عيوب نفسه، وإن من أعجز الناس من عاب الناس بما فيهم وأعجز منه من عابهم بما فيه، ومن عاب الناس عابوه.

ولقد أحسن القائل:

**إذا أنت عبت الناس عابوا وأكثروا ... عليك وأبدوا منك ما كان يستر**
**وقد قال فى بعض الأقاويل قائل ... له منطق فيه كلام مُحَيَّر**
**إذا ما ذكرت الناس فاترك عيوبهم ... فلا عيب إلا دون ما منك يذكر**
**فإن عبت قومًا بالذى ليس فيهم ... فذلك عن الله والناس أكبر**
**وإن عبت قومًا بالذى فيك مثله ... فكيف يعيب العور من هو أعور؟**
**وكيف يعيب الناس من عيب نفسه ... أشدُّ إذا عدَّ العيوب وأنكر؟**
**متى تلتمس للناس عيبًا تجد لهم ... عيوبًا، ولكنَّ الذى فيك أكثر**
**فسالمهم بالكف عنهم فإنهم ... بعيبك من عينيك أهدى وأبصر**

(١) صحيح وخرج فى موضع آخر.

والتجسس قد يكون فى الخير، فيكون حينئذ مباحًا، ومنه قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام لأولاده: ﴿يَا بَنِي اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧] أى ترقبوا حالهما، واسألوا عنهما، وتعرفوا على ما يقال فى شأنهما.

فهذا هو المطلوب فى المجتمع الإسلامى الرفيع، يجب أن يكونوا آمنين على أنفسهم حتى ولو من الحكام، فقد روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتفقد أحوال رعيته فى ليلة من الليالى، فإذا به يجد جماعة يشربون الخمر، فوقف حائرًا ماذا أفعل؟ لو طرقت الباب لقاموا عن الخمر؟ فهداه عقله أن يتسلق الجدار عليهم وقد حدث ذلك، فما أن نظر هؤلاء حتى وجدوا عمر بن الخطاب واقفًا بينهم وكأنه عصفور نزل عليهم. فقالوا له: يا أمير المؤمنين، إن كنا قد ارتكبنا خطأ واحدًا فقد وقعت أنت فى ثلاث، أما الأولى: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] وأنت تسلقت الجدار، وأما الثانية: فإن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧] وأنت لم تستأذن، ولم تسلم.

وأما الثالثة: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٤] وأنت تجسست علينا.

فماذا يفعل أمير المؤمنين؟ لقد وعظهم ونصحهم بالحسنى، ودعا لهم بالهداية فهو ليس مسئولا عما وراء الجدران، ليس مسئولا عما هو فى بيوت الناس وقد علم أمير المؤمنين ذلك.

فقد روى أن رجلاً قال له: يا أمير المؤمنين، إنَّ فلانًا يشرب الخمر، فماذا يفعل؟ أيقيم عليه حد الشراب؟ إنه لم يره، ولم يشهد عليه أحد، فكتب إليه رسالة، وأرسل بها رجلاً آخر، فلما وصلت الرسالة، فضها الرجل، وتأمل ما فيها، فوجد مكتوبًا: ﴿حم ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ١ - ٣] فلما قرأها الرجل، بكى بكاءً شديدًا، وتاب إلى الله تعالى، فلما رجع الرسول، وأخبره خبره، فرح أمير المؤمنين بهذا وقال لمن حوله: هكذا فافعلوا بإخوانكم، إذا رأيتم أحدهم ذل ذلة، فسددوه ووفقوه[1]

وعن زيد بن وهب، قال: «أُتى ابن مسعود، فقيل هذا فلان تقطر لحيته خمرًا، فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شىء نأخذ به»[2]

ثم يقول النبى ﷺ موصيًا: «**ولا تباغضوا**».

---

(١) سيرة ومناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص١١٦، ١١٧ بتصرف.

(٢) صحيح سنن أبى داود للألبانى برقم (٤٨٩٠).

أى لا يبغض بعضكم بعضًا فى غير الله تعالى، لأن البغض فى الله من كمال الإيمان كما قال رسول الإسلام ﷺ **«من أحب فى الله وأبغض فى الله فقد استكمل الإيمان»**(١).
لأن الرسول ﷺ حرص كل الحرص على أن يجنبهم ما يكون سببًا فى البغضاء، **ويوقع بينهم** العداوة والأحقاد، فحرم أن يتناجى اثنان دون الثالث إذا كانت المجموعة ثلاثة، **فقال** ﷺ: **«إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الآخر، حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن يحزنه»**(٢).

إنه يُشرع لهم، ويحثهم على أن يتعاملوا فيما بينهم على المعروف، وأن يحرص كل واحد منهم على مشاعر الآخر

وينهى الرسول ﷺ أن يظهر أخ الشماتة بأخيه حتى ينبعث الحب، **وتنتهى الأحقاد،** فيقول ﷺ: **«لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك»**(٣) **لأن إظهار الشماتة يوقظ نار** العداوة ويزيد فى اشتعالها، ورحم الله القائل:

**الناس للناس ما دام الحياء بهم ... والعسر واليسر ساعات وأوقات**
**لا تقطعن يد المعروف عن أحد ... ما دمت ترجى فالأيام تارات**

ويقول ﷺ: **«ألا أخبركم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب»**(٤)

ثم يوصى النبى ﷺ أمته بأن يكونوا إخوانا متحابين فيقول: **«وكونوا عباد الله إخوانا»**.

وهذا العنصر فى الوصية تقرير لقول الله جل وعلا: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بين أَخَوَيْكُمْ﴾** [الحجرات: ١٠] إخوة كأنهم روح واحدة حل فى أجساد متعددة أو كأنهم أغصان انبعثت من دوحة واحدة.

هذه الأخوة الإيمانية هى التى آخت بين بلال الحبشى وصهيب الرومى، وسلمان الفارسى وأبى ذر الغفارى، وحمزة القرشى ومعاذ الأنصارى.

أخوة كان نبينا وحبيبنا محمد ﷺ فيها خير مثال، **فعن عمر بن الخطاب** رضي الله عنه **قال:** استأذنت النبى ﷺ فى العمرة فأذن لى وقال لى: **«لا تنسنا يا أُخَيّ من دعائك»** **فقال:** كلمة ما يسرنى أنى لى بها الدنيا(٥)

**قال شعبة:** ثم لقيت عاصمًا بعدُ المدينة فحدَّثنيه وقال: أشركنا يا أخى فى دعائك وهذا مثال نادر للأخوة فى الله والحب له سبحانه وتعالى.

---

(١) رواه أبو داود وصححه الألبانى فى ص. ج (٥٩٦٥) والصحيحة (٣٨٠).
(٢) رواه أحمد فى مسنده (٣٩ ٤) بإسناد صحيح.
(٣) رواه الترمذى بإسناد حسن. (٤) رواه أحمد فى مسنده.
(٥) صحيح سنن أبى داود للألبانى (١٤٩٨) والترمذى (٣٥٦٢) وقال: حسن صحيح.

خرج إبراهيم بن أدهم رحمه الله فى سفر ومعه ثلاثة نفر، فدخلوا مسجدًا فى بعض المفاوز، والبرد شديد، وليس للمسجد باب، فلما ناموا قام إبراهيم، فوقف على الباب إلى الصباح، فقيل له: لِمَ لَمْ تنم؟ فقال: خشيت أن يصيبكم البرد، فقمت مقام الباب[(١)]

**إن أخاك الحق من كان معك ... ومن يضر نفسه لينفعك**

**حتى إذا ريب الزمان صدَّعك ... شتت فيك شمله ليجمعك**

إن الأخوة نعمة عظيمة امتن الله بها على عباده، قال سبحانه: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فهذه الأخوة هى التى جمعت أبناء الإسلام أول مرة، وأقامت دولته، ورفعت فى السماء رايته، عالية خفاقة، حتى تمكن أصحابها فى الأرض ففتحوا البلاد.

لكن يوم أن نجح أعداؤنا فى قطع هذه الرابطة وتمزيقها هان المسلمون أفرادًا وطمع الضعيف قبل القوى، والحقير قبل العزيز، ففرقت بينهم فتسربلوا بالذلة والصغار إلا من رحم العزيز الغفار.

ولن تعود للأمة هيبتها، ولن ترجع إليها عزتها وكرامتها إلا إذا عادت هذه الأخوة الكريمة، واتحد المسلمون فى جميع أنحاء الدنيا.

إن الأخوة الحقة ليست شعارات، وإنما الأخوة أن يشعر المسلم بأنه قليل بنفسه كثير بإخوانه، ضعيف بنفسه قوى بإخوانه، فقير بنفسه غنى بإخوانه، ذليل بنفسه عزيز بالآخرين، مصداقًا لقول النبى الأمين: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**» وشبك أصابعه[(٢)]

نسألك اللهم أن تثبت محبتك فى قلوبنا، اللهم أفض علينا من بحر كرمك، وعونك حتى نخرج من الدنيا سالمين، وارأف بنا رأفة الحبيب بحبيبه عند الشدائد ونزولها يا رب العالمين.

## الوصية رقم (٧٤)
## لقنوا موتاكم لا إله إلا الله

عن أبى هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لقنوا موتاكم لا إله إلا الله**»[(٣)]

**صدق رسول الله ﷺ**

---

(١) التبصرة لابن الجوزى ٢/ ١/ ٣ — (٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى.

(٣) رواه مسلم فى كتاب الجنائز (٩١٦) وأحمد فى مسنده (٩٣٥ ١) عن أبى سعيد الخدرى، وأبو داود (٣١١٧) عن أبى سعيد أيضا والترمذى (٩٧٦) والنسائى (١٨٢٦) والألبانى فى ص.ج رقم (٥١٤٩).

## • فى رحاب هذه الوصية •

**أخى الحبيب:**

يوصينا أستاذ البشرية، وفقيه الإنسانية سيدنا محمد ﷺ بوصية فى كلمات قليلة موجزة، لكنها عظيمة عند الله تعالى، فيا سعادة من ختم له بكلمة التوحيد «**لا إله إلا الله**» فما معنى تلقين الميت؟

تلقين الميت هو أن تذكره ساعة الاحتضار، وهو فى سكرات الموت، وفى اللحظات الأخيرة من حياته، بكلمة «**لا إله إلا الله**» لعله إن كان ممن كتب له السعادة عند الله تعالى تلفظ بها، فقد ورد عن سيد المرسلين فى الحديث الذى رواه عنه معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة**»(١) فإن قالها قبل أن تصعد روحه، كتب من الفائزين، وكانت معه حتى يدخل بها قبره، فيثبته الله تعالى عند السؤال، كما قال سبحانه: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وليس معنى تلقينه «لا إله إلا الله» أن تأمره بها، وتقول له: قل لا إله إلا الله، ولكن قل أمامه وهو يسمع: يا سعادة من قال: لا إله إلا الله، أو يا فوز من قال: لا إله إلا الله، لأنه ربما يكون فى سكرة أو شدة، فيتعذر عليه قولها.

ومن المستحب أن تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، لأنه قد ورد: «**لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله، فمن قالها فى موته وجبت له الجنة**»(٢)

## • متى يأتى الموت؟ •

الموت آت لا محالة، فهو حتم لازم لكل حى من المخلوقات، قال سبحانه: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] وقال عز وجل: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص: ٨٨].

ولو نجا أحد من الموت لكان رسول الله حيًا وباقيًا، لكنه لما ذهب ليستخرج بطاقة الأشعة الربانية فوجد مكتوبًا فيها: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ**﴾ [الزمر: ٣٠] وواسى ربنا عز وجل رسوله محمدًا ﷺ، وعرفه بأن الموت سنته فى خلقه، فقال: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٤] لكن للموت وقت محدد أى متى يأتيك حتى تستعد له؟ قال سبحانه: ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٤]

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٢١٩٣٣) وفى صحيح أبى داود للألبانى (٣١١٦) صحيح ٢/ ٢٧٩

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس بسند رجاله ثقات إلا أن ابن أبى طلحة لم يسمع من ابن عباس.

ولا يستطيع أحدٌ مهما بلغت قدرته، ومهما وصلت عظمته أن يتجاوز الأجل الذى حدده الله له، لأنه سبحانه قدر آجال العباد، وجرى بذلك القلم فى اللوح المحفوظ، وسطرته الملائكة الكرام، حين كان المرء فى بطن أمه جنينًا

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وكان عرشه على الماء»**(١)

وعن أنس ﷺ أن النبى ﷺ قال: **«وكل الله بالرحمن ملكًا، فيقول: أى رب نطفة، أى رب علقة، أى ربِّ مضغة، فإذا أراد الله أن يقضى خلقها، قال: أى ربِّ ذكر أم أنثى، أشقى أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كل ذلك فى بطن أمه»**(٢)

فهى آجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة كما أخبرنا نبى الرحمه ﷺ: **«لقد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة ولن يُعجل شىء قبل أجله، ولن يؤخر الله شيئًا بعد أجله»**(٣)

## • الموت غيب استأثر الله به •

الموت غيب استأثر الله بعلمه، لا يعرفه أحد سواه، قال سبحانه: **﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** [لقمان: ٣٤].

فهذه من مفاتح الغيب التى اختص الله بها نفسه، قال عز وجل: **﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾** [الأنعام: ٥٩].

وعن ابن عمر ﷺ أن النبى ﷺ قال: **«مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله» ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ... ﴾**(٤)

## • الأعمال بخواتيمها •

واعلم أخى الحبيب أن الأعمال بخواتيمها، ولذلك يقول ﷺ: **«إنَّ العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن العبد ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها»**(٥)

---

(١) رواه مسلم. (٢) رواه البخارى ومسلم. (٣) رواه مسلم فى كتاب القدر.
(٤) رواه البخارى فى كتاب التفسير. (٥) رواه البخارى ومسلم.

ولذلك فإن الشيطان يحضر العبد عند طلوع روحه، ويحاول جاهدًا أن يبعده عن كلمة التوحيد، لكى يختم له بسوء وشر والعياذ بالله.

ولقد ورد أن الشيطان أشد ما يكون على ابن آدم حين الموت، يقول لأعوانه: **دونكم هذا، فإنه إن فاتكم لن تظفروا به أبدًا.**

وهذا هو الإمام أحمد -رحمه الله- كان يحتضر، فقيل له: قل: **لا إله إلا الله،** فكان يقول: لا، لا، فلما أفاق ذكروا له ذلك، فقال: أتانى شيطان عن يمينى وعن شمالى، يقول أحدهما: مت يهوديًا فإنه خير الأديان، والآخر يقول: مت نصرانيًا فإنه خير الأديان، فكنت أقول: لا لا .»[1]

وهذا من فتنة المحيا والممات التى أمرنا النبى ﷺ أن نستعيذ بالله منها فى كل صلاة من الصلوات فرضا كانت أو نافلة كان يقول: «**اللهم إنى أعوذ بك من فتنة المحيا والممات..**»[2]

## • حسن الخاتمة وسوؤها •

إن حسن الخاتمة وسوءها أمر مفوض إلى الله تعالى، فعلى العبد أن لا يغتر بصلاته ولا بصيامه، لكن لا تغفل عن ذكر مولاك، حتى فى أشد حالاتك إذا كنت على فراش الموت فقل: يا ألله، إذا أصابك المرض، فقل: يا ألله إذا أصابك هم أو حزن فقل: يا ألله، إذا ضاقت بك الدنيا فقل: يا آلله.

**يقول القرطبى:**

«فإذا كانت الهداية إلى الله مصروفة والاستقامة على مشيئته موقوتة، والعاقبة غيبة، والإرادة غير مغالبة، فلا تعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك، وجميع قربك، فإن ذلك وإن كان من كسبك، فإنه من خلق ربك، وفضله الدّار عليك وخيره، فمهما افتخرت بذلك كنت كالمفتخر بمتاع غيرك، وربما سلب عنك فعاد قلبك من الخير أجلى من جوف البعير، فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم، فأصبحت وزهرها يابس هشيم، إذ هبت عليها الريح العقيم، كذلك العبد يمسى وقلبه بطاعة الله مشرق سليم، فيصبح وهو بمعصيته مظلم سقيم، ذلك فعل العزيز الحكيم، الخلاق العليم»[3]

**ويقول ابن القيم:**

فكيف يوفق بحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه وتعالى قلبه عن ذكره، واتبع هواه وكان أمره فرطًا؟ فبعيد من قلبه بعيد من الله غافل عنه -أى المذنب- متعبد لهواه، أسير

---

(١) التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة.

(٢) رواه البخارى.

(٣) المرجع السابق ص٣٨

شهواته، ولسانه يابس من ذكره، وجوارحه معطلة من طاعته، مشتغلة بمعصيته - أن يوفق للخاتمة بالحسنى.

ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين، وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعًا بالأمان: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالغَةٌ إِلَىٰ يومِ الْقِيَامة إِنَّ لَكُمْ لما تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذلك زعيم﴾ [القلم: ٣٩، ٤٠].

| | |
|---|---|
| يا آمنًا مع قبيح الفعل منه هل | أتاك توقيع أمن أنت تملكه؟ |
| جمعت شيئين: أمنًا واتباع هوى | هذا وإحداهما فى المرء تهلكه |
| والمحسنون على درب المخاوف قد | ساروا وذلك درب لست تسلكه |
| فرطت فى الزرع وقت البذر من سفه | فكيف عند حصاد الناس تدركه |
| هذا وأعجب شىء فيك زهدك فى | دار البقاء بعيش سوف تتركه[1] |

**أخى الحبيب:**

بادر بالتوبة فى صحتك قبل أن ينزل المرض بك، لتتمكن من العمل الصالح، لأن التوبة فى الصحة ورجاء الحياة تشبه الصدقة بالمال فى الصحة، ورجاء البقاء.

والتوبة فى المرض عند حضور أمارات الموت تشبه الصدقة بالمال عند الموت، فكأن من لا يتوب إلا فى مرضه قد استفرغ صحته وقوته فى شهوات نفسه وهواه، ولذات دنياه، فإذا يأس من الدنيا والحياة فيها تاب حينئذ. فأين توبة هذا من توبة من يتوب من قريب وهو صحيح قوى قادر على عمل المعاصى، فيتركها خوفًا من مولاه، ورجاء ثوابه، وإيثار طاعته.

دخل قوم على بشر الحافى -رحمه الله- وهو مريض، فقالوا له: على ماذا عزمت؟ قال: عزمت أنى إذا عوفيت تبت، فقال له رجل منهم فهلا تبت الساعة؟! فقال: يا أخى، أما علمت أن الملوك لا تقبل الأمان ممن فى رجليه القيد، وفى رقبته الغل، إنما يقبل الأمان ممن هو راكب الفرس، والسيف فى يده، فبكى القوم جميعًا[2]

يقول سبحانه: ﴿وَلَيْست التَّوْبَةُ للَّذين يَعْمَلُون السَّيِّئَات حَتَّىٰ إِذَا حضر أَحدَهُمُ الموتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ ولا الَّذين يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئك أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَليمًا﴾ [النساء: ١٨].

**ثم يقول ابن رجب:**

واعلم أن الإنسان ما دام يؤمل الحياة فإنه لا يقطع أمله من الدنيا، وقد لا تسمح نفسه بالإقلاع عن لذَّاتها وشهواتها من المعاصى وغيرها، ويرجيه الشيطان التوبة فى آخر عمره، فإذا تيقن الموت وأيس من الحياة، أفاق من سكرته بشهوات الدنيا، فندم حينئذ على

(١) الداء والدواء لابن القيم ص١٢١ ط. دار الخلفاء. (٢) لطائف المعارف ص٥٧٢ ط. دار ابن كثير.

تفريطه ندامة يكاد يقتل نفسه، وطلب الرجعة ليتوب ويعمل صالحًا، فلا يجاب إلى شيء من ذلك، فيجتمع عليه سكرة الموت مع حسرة الفوت.

وقد حذر الله تعالى عباده من ذلك في كتابه، ليستعدوا للموت قبل نزوله بالتوبة والعمل الصالح[1]، قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٤ ـ ٥٦].

سمع بعض المحتضرين عند احتضاره يلطم على وجهه، ويقول: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾.

وقال آخر عند احتضاره: سخرت بى الدنيا حتى ذهبت أيامى.

وقال آخر عند موته: لا تغرنكم الحياة الدنيا كما غرتنى. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

وقال ابن السماك: احذر السكرة والحسرة أن يفاجأك الموت وأنت على الغرة، فلا يصف واصف قدر ما تلقى، ولا قدر ما ترى.

العمر ينقص والذنوب تزيد ... وتقال عثرات الفتى فيعود
هل يستطيع جحود ذنب واحد ... رجل جوارجه عليه شهود
والمرء يُسأل عن سنيه فيشتهى ... تقليلها وعن الممات يحيد

**• من أقوال السلف عند الاحتضار •**

تأمل أخى الحبيب سلفك الصالح عند الاحتضار ماذا قالوا! لعلك تأخذ العبرة والعظة، وإليك أمثلة على ذلك:

**١ - حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما:**

فعن أسد بن وداعة قال: لما مرض حذيفة بن اليمان مرضه الذى مات فيه، قيل له: ما تشتهى؟

قال: أشتهى الجنة. قالوا: فما تشتكى؟ قال: الذنوب. قالوا: أفلا ندعو لك الطبيب؟ قال: الطبيب أمرضنى. لقد عشت فيكم على خلال ثلاث: للفقر فيكم أحب إلىَّ من الغنى، وللضعة فيكم أحبَّ إلى من الشرف، وإن من حمدنى منكم ولامنى فى الحق سواء. ثم قال: أصبحنا أصبحنا؟

(١) لطائف المعارف ص٥٧٤ لابن رجب الحبلى

قالوا: نعم. قالوا: اللهم إنا نعوذ بك من صباح النار. حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم[١]

**٢- أبو الدرداء ﷺ:**

فعن معاوية بن قرة أن أبا الدرداء اشتكى، فدخل عليه أصحابه، فقالوا: ما تشتكى؟ قال: أشتكى ذنوبى!. قالوا: فما تشتهى؟ قال: أشتهى الجنة. قالوا: أفلا ندعو لك طبيبًا؟ قال: هو أضجعنى[٢]

وفى رواية عن أبى مسلم قال: جئت أبا الدرداء وهو يجود بنفسه فقال: ألا رجل يعمل لمثل مصرعى هذا، ألا رجل يعمل لمثل يومى هذا! ألا رجل يعمل لمثل ساعتى هذه ثم قبض[٣]

**٣- أبو هريرة ﷺ:**

فعن سليم بن بشير أن أبا هريرة بكى فى مرضه، فقيل: ما يبكيك؟ قال: ما أبكى على دنياكم هذه، ولكن أبكى على بعد سفرى، وقلة زادى، وأنى أمسيت فى صعود، ومهبطة على جنة أو نار، فلا أدرى إلى أيهما يؤخذ بى[٤]

**٤- أنس بن مالك ﷺ:**

عن أنس بن سيرين قال: شهدت أنس بن مالك، وقد حضره الممات، فجعل يقول: لقنونى لا إله إلا الله فلم يزل يقولها حتى قبض[٥]

**٥- العباس بن عبد المطلب ﷺ:**

عن عبد الله بن إبراهيم القرشى قال: لما نزل بالعباس بن عبد المطلب الموت قال لابنه: يا عبد الله، إنى والله ما مت موتًا، ولكنى فنيت فناء، وإنى موصيك بحب الله وحب طاعته، وخوف الله وخوف معصيته، فإنك إذا كنت كذلك لم تكره الموت متى أتاك، وإنى أستودعك الله يا بنى.

ثم استقبل القبلة فقال: **لا إله إلا الله**. ثم شخص ببصره فمات[٦]

**٦- إبراهيم النخعى -رحمه الله-:**

عن أبى معشر قال: دخلنا على إبراهيم النخعى حين ثقل، فجعل يقول: **لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو كل شىء قدير.**

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٢٨٢ وصفة الصفوة بنحوه ١/ ٢٧١

(٢) الحلية ١/٢١٨ وصفة الصفوة ١/ ٢٨٤

(٣) المرجع السابق ١/ ٢٨٥ والثبات عند الممات ص١٢٩

(٤) وصايا العلماء عند الموت ص٥٨، والزهد لابن المبارك ص٣٨

(٥) الثبات عند الممات ص١٣٣

(٦) مختصر تاريخ دمشق ١١/ ٣٥٢

٧- ربعى بن حراش -رحمه الله-:

عن الحارث الغنوى قال: آلى ربعى بن حراش أن لا يضحك حتى يعلم فى الجنة هو أو فى النار. قال: فلقد أخبرنى غاسله أنه لم يزل مبتسمًا على سريره ونحن نغسله حتى فرغنا منه[١]

٨- الربيع بن حراش -رحمه الله-:

أخو ربعى بن حراش -رحمهما الله تعالى- يقول ربعى: كنا إخوة ثلاثة وكان أعبدنا وأصومنا وأفضلنا الأوسط -الربيع- فغبت غيبة، ثم قدمت إلى أهلى، فقالوا: أدرك أخاك، فإنه فى الموت، فخرجت أسعى إليه، فانتهيت إليه، وقد قضى وسجى بثوب، فقعدت عند رأسه أبكيه، فرفع يده فكشف الثوب عن وجهه، وقال: السلام عليكم. قلت: أى أخى، أحياة بعد موت؟ فقال: نعم، إنى لقيت ربى، فلقينى بروح وريحان، ورب غير غضبان، وإنه كسانى ثيابًا خضرًا من سندس وإستبرق، وإنى وجدت الأمر أيسر مما تحسبون -ثلاثًا- فاعملوا ولا تغتروا -ثلاثًا- وإنى لقيت رسول الله ﷺ فأقسم أن لا أبرح حتى آتيه، فعجلوا جهازى[٢]

فإذا كان هذا هو حال السلف الصالح من الصالحين الأبرار، فنحن والله أحق بالخوف منهم، لكن قست القلوب، وجمدت العيون، وحارت العقول، فنسأله سبحانه قلبًا خاشعًا، وعينًا باكية، ولسانًا ذاكرًا.

## • أمثلة من علامات سوء الخاتمة •

### أخى الموحد:

والعلامات التى تدل على سوء الخاتمة كثيرة، فبعضهم يظهر عليه ذلك عند اشتداد المرض، فيقع فى التسخط والاعتراض على قضاء الله تعالى، والاعتراض عليه، ومن ذلك: قيل لرجل منهم: قل: لا إله إلا الله، فقال: آه آه، لا أستطيع أن أقولها.

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فقال: شاه، رخ، غلبتك، ثم قضى.

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله. فجعل يهذى بالغناء، ويقول: تاتنا تتنيا حتى قضى.

وقيل لآخر مثل ذلك، فقال: ما ينفعنى ما تقول، ولم أدع معصية إلا ركبتها ثم قضى ولم يقلها[٣]

وقال ابن رجب: قال عبد العزيز بن أبى روّاد: حضرت رجلاً عند الموت يلقن الشهادة: لا إله إلا الله، فقال فى آخر ما قال: هو كافر بما تقول، ومات على ذلك.

---

(١)، (٢) صفة الصفوة ٣/ ١٩ وحلية الأولياء ٤/ ٣٦٧ وسير أعلام النبلاء بإسناد رجاله ثقات.

(٣) الداء والدواء لابن القيم ص ١٢

قال: فسألت عنه، فإذا هو مدمن خمر، فكان عبد العزيز يقول: اتقوا الذنوب فإنها هى التى أوقعته(١)

سكر بعض المتقدمين ليلة فعاتبته زوجته على ترك الصلاة، فحلف بطلاقها ثلاثًا لا يصلى ثلاثة أيام، فاشتد عليه فراق زوجته، فاستمر على ترك الصلاة مدة الأيام الثلاثة، فمات فيها وهو مصر على حاله، وهو مصر على الخمر، تارك للصلاة(٢)

قال يحيى بن معاذ: الدنيا خمر الشيطان، من سكر منها لم يفق إلا فى عسكر الموتى نادمًا مع الخاسرين فاتَّقِ الله أخى الحبيب، وداوم على ذكره، وردد دائمًا كلمة التوحيد «لا إله إلا الله».

فقد جاء فى الحديث: **«إذا أراد الله بعبد خيرًا عسله. قالوا: وما عسله؟ قال: يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه»**(٣)

| | |
|---|---|
| **يا غارقًا فى بحار غفلته** | **وقل لا إله إلا هو** |
| **تعصيه جهرًا حلمه كرما** | **يستره لا إله إلا هو** |
| **فالإنس والجن كلهم شهدوا** | **بأنه لا إله إلا هو** |
| **وكل من ضل عن طريق هدى** | **دليله لا إله إلا هو** |
| **وكل من أتاه بالذل مفتقرا** | **غناؤه لا إله إلا هو** |
| **فيا قوم لا تغفلوا بجهلكم** | **عن ذكره لا إله إلا هو** |
| **كيف تنام العيون عن ملك** | **سبحانه لا إله إلا هو** |
| **تنسوه فى الليل والنهار ولا** | **ينساكمو لا إله إلا هو** |
| **فيا فوز من مات وهو معتقد** | **يشهد أن لا إله إلا هو** |

## • موعظة •

عجبًا لمن يرحم نفسه كيف يرحم، وعجبًا لمن يداوم على المعصية كيف يرجو حسن المآب! وعجبًا لمن يعمل أعمال النيران وهو يطلب نعيم الجنان! تذكر كأنك يا أخى قد قربت من العرض والحساب، ووقفت بين يدى الملك الوهاب، فيأمر بك إلى الجنة وحسن المآب، أو إلى النار وأليم العذاب، تفكر فى هذا كله يا مغرور لعل القسوة تنجلى من قلبك: ﴿ **فَإِنَّهَا لا تَعْمى الأَبْصَارُ وَلَكِن تعمى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [الحج: ٤٦].

فانظر يا أخى بنور فكرتك، وأطلق الموعظة على بحر عبرتك، فلعل العين تدمع،

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢) لطائف المعارف لابن رجب ص٥٧٦.

(٣) رواه أحمد فى مسنده (١١٩٧٥) وذكره الهيثمى فى المجمع بنحوه ٧/ ٢١٥ وابن حبان وذكره الألبانى فى ص. ج (٤ ٣).

ولعل القلب أن يرق ويخشع، فإذا جرت الدموع، وخشعت القلوب، محيت الذنوب، وبلغت المنى والمرغوب، ويسر حسابك علام الغيوب.

**أخى الحبيب:**

اجعل عمرك ثلاثة أيام: يوم مضى، ويوم أنت فيه، ويوم تنتظره لا تدرى ماذا يحمل إليك من صلاح أو فساد، ولعلك لا تبلغه، فأصلح اليوم الذى مضى بالندم على ما فاتك فيه من الطاعة والإحسان، وأصلحه بالندم والتوبة إلى الملك العلام فى اليوم الذى أنت فيه.

**فيا رب:**

**يا من إليه جميع الخلق يبتهل ... وكل حى على حماه يتكل**
**أنت الغياث لمن سُدت مذاهبه ... أنت الدليل لمن ضَلت به السبل**

اللهم آنس روعتنا يوم النشور، وآنس وحشتنا فى القبور، وتوفنا على شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله غير مبدلين ولا مغيرين، ولا مبتدعين يا رب العالمين.

## الوصية رقم (٧٥)
## أعينوا المجاهدين فى سبيل الله

عن سهل بن حنيف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من أعان مجاهدًا فى سبيل الله، أو غارمًا فى أعسرته، أو مكاتبًا فى رقبته، أظله الله يوم لا ظل إلا ظله**»[(١)]

**صدق رسول الله ﷺ**

فى هذه الوصية يحثنا فيها رسولنا ﷺ على أمور ثلاثة: أما الأمر الأول فهو: إعانة المجاهدين فى سبيل الله، والأمر الثانى: إعانة أصحاب الديون على سداد ديونهم.

والأمر الثالث هو: إعانة العبد المكاتب على تحرير رقبته من ذل الرق والعبودية.

وهذه الثلاثة يكون ثوابها، ثوابًا عظيمًا فى الآخرة وهو أن الله سبحانه وتعالى، يظل من يعينهم فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

ولقد جاء فى رواية أخرى: «**من أظل رأس غاز، أظله الله يوم القيامة**»[(٢)] فالجزاء من جنس العمل.

وهذا نوع من أنواع الجهاد والتى أشار القرآن الكريم إليه بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا**

(١) رواه أحمد فى مسنده (١٥٩٢٨) جـ١٢/ ٤ وقال الشيخ حمزة الزين إسناده حسن وقد حسن الحديث أيضًا المناوى فى فتح القدير ٦/ ٧٢

(٢) رواه ابن ماجه (٧٣٥) بإسناد صحيح ورواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم فى المستدرك وصححه ووافقه الذهبى.

**الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾** [الصف: ١١، ١٢].

ألا من عاقل يعلم أن الجنة تحت ظلال السيوف، وأن من غبر قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار؟

فقد بين رسولنا ﷺ أن من أعان المجاهد، أو أظل رأس الغازى فى سبيل الله فله هذا الجزاء العظيم، فكيف بمن أطعمه وسقاه؟

كيف بمن كساه من عرى أو حمله؟ فماذا يكون جزاء من أنفق ماله كله فى سبيل الله؟ فهذا هو صديق الأمة الأكبر ﷺ، وقد حض رسولنا ﷺ أصحابه على الجهاد، ورغبهم فيه، وأمرهم بالصدقة، فحملوا صدقات كثيرة، وتسابق الشيخان، وجاء عمر بن الخطاب ﷺ بنصف ماله، وقال: اليوم أسبق أبا بكر، لكن أبا بكر جاء بماله كله، وكانت أربعة آلاف درهم، فقال له النبى ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله**»[١]

وحمل إليه عبد الرحمن بن عوف ﷺ مائتى أوقية، وحمل سعد بن عبادة ﷺ إليه مالاً، وكذلك محمد بن مسلمة ﷺ، وتصدق عاصم بن عدى بتسعين وسقًا تمرًا. .والنساء يعنّ بكل ما قدرن عليه.

تقول أم سنان الأسدية ﷺ لقد رأيت ثوبًا مبسوطًا بين يدى النبى ﷺ فى بيت السيدة عائشة ﷺ فيه: مَسَكٌ -أى أساور- ومعاضد، وخلاخل، وأقرطه -جمع قرط وهو الحلق الذى يعلق فى الأذن- وخواتم، وقد ملئ مما بعث به النساء يعن به المسلمين فى جهازهم[٢]

وهذا عثمان بن عفان ﷺ ذو النورين - انظر إليه ماذا قدم فى غزوة العسرة «غزوة تبوك» يقول ابن شهاب الزهرى:

قدَّم عثمان لجيش العسرة تسعمائة وأربعين بعيرًا، وستين فرسًا، أتم بها الألف وقال عنه حذيفة: «جاء عثمان إلى رسول الله ﷺ فى جيش العسرة بعشرة آلاف دينار، صبها بين يديه، فجعل الرسول ﷺ يقلبها بيده، وهو يقول: «**غفر الله لك يا عثمان، ما أسررت وما أعلنت، وما هو كائن إلى يوم القيامة**»[٣]

---

(١) رواه الترمذى (٢٩٢٠) وحسنه الشيخ الألبانى وهو فى المشكاة برقم (٦٠٢١).

(٢) ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله د/ سيد حسين العفانى ٢/ ١٨٩

(٣) المرجع السابق ص١٩١

ويقول عبد الرحمن بن عوف: «شهدت رسول الله ﷺ وقد جاءه عثمان بن عفان ؓ فى جيش العسرة بسبعمائة أوقية من الذهب».

وعن عبد الرحمن بن سمرة ؓ أن عثمان بن عفان ؓ جاء إلى النبى ﷺ بألف دينار فى كمه، حين جهز جيش العسرة، فنثرها فى حجره، فرأيت النبى ﷺ يقلبها فى حجره، ويقول: «**ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم، ماضر عثمان ما عمل بعد اليوم**»[1].

فرضى الله عن عثمان المهاجر إلى ربه، الذى يخرج من ماله، ومن دنياه العريضة كلها ويسافر إلى الله فى حياء، رجل تستحى منه الملائكة. نعم المال الصالح للرجل الصالح. ترى كم أظل عثمان من رجال. وكم له عند الله من ظل، بل ظلال ظليلة.

**أو غارمًا فى عسرته:**

والغرم هو الدين، ولقد كان النبى ﷺ يستعيذ من المغرم، فيقول: «**أعوذ بك من المأثم والمغرم**»[2]

قال ابن منظور: يريد مغرم الذنوب والمعاصى، وقيل: المغرم كالغرم، وهو الدين، ويريد به ما استدين فيما يكرهه الله، أو فيما يجوز، ثم عجز عن أدائه، فأما دين احتاج إليه، وهو قادر على أدائه، فلا يستعاذ منه.

انظر إلى «سعيد بن العاص» ؓ، تأمله وهو يسدد دين أحد الغارمين فى أدب جم.

قال الأصمعى: كان سعيد بن العاص يسمر مع سمّاره إلى أن ينقضى حين من الليل، فانصرف عنه القوم ليلة، ورجل قاعد لم يقم، فأمر سعيد بإطفاء الشمعة، وقال: حاجتك يا فتى؟ فذكر أن عليه دينًا أربعة آلاف درهم فأمر له بها، وكان إطفاؤه للشمعة أكثر من عطائه[3]

وتأمل صحابيًّا آخر، إنه «معاوية بن أبى سفيان» ؓ لما حج معاوية سلم عليه الحسن بن على، وأخبره بدينه، فمروا ببختىٍّ عليه ثمانون ألف دينار، وهو يضلع وهم يزجونه، فقال معاوية: ما هذا؟ قالوا: أعيا وعليه المال، ونحن نزجه ليلحق، فقال: اصرفوه إلى أبى محمد، فدفعه إليه وعليه ثمانون ألف دينار.

وتأمل «زين العابدين» فلله دره: فعن عمرو بن دينار قال: دخل علىُّ بن الحسين على محمد بن أسامة بن زيد فى مرضه، فجعل يبكى، فقال: ما شأنك؟ قال: علىَّ دين، قال: كم هو؟ قال. خمسة عشر، أو بضعة عشر ألف دينار، قال: فهى علىَّ.

---

(١) رواه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وأقره الذهبى. (٢) رواه البخارى.

(٣) لسان العرب ٤/ ٣٢٤٧ نقلاً من ترطيب الأفواه.

وهذا هو «عبد الله بن المبارك» رحمه الله، لـقد جاءه رجل فى يوم من الأيام، فسأله أن يقضى دينًا عـليه، فكتب له إلى وكيل له، فلـما ورد عليه الكتاب قـال له الوكيل: كم الدين الذى سألته قضاءه؟ قال: سبعمائة درهم.

وإذا عبد الله قـد كتب له أن يعطيه سبـعة آلاف درهم، فراجعه الـوكيل، وقال: إنَّ الغلات فنيت، فكتب إليه عبد الله: إن كانت الغلات قد فنيت فإن العمر قد فنى، فأجز له ما سبق به قلمى(١)

**أو مكاتبًا فى رقبته:**

وهذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿الَّذين يَبْتَغُونَ الْكتاب ممَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِم خَيْراً﴾ [النور: ٣٣].

والمكاتبة معناها: أن يكاتب الرجل عبده على مـال يؤديه مقسطًا عليه، فإذا أداه فهو حر.

## أخى الحبيب:

يا ذا النفس اللاهية، أتقرأ كتاب الله وهى ساهية؟ أما علمت أن أركان الحياة واهية؟ أتعلم أن أيام العمر مـتناهية؟ أين من كان لا ينظر بين يديه؟ أين من أبصر العـبر ولم ينتفع بعينيه؟ أين من بارز بالذنوب المطلع عليه؟

اللهم إنا نسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول، اللهم إنى أسالك الأمن يوم الخوف، والغنى يوم الفـقر، والنجاة من النار، اللهم تـوفنا مسلمين، وألحقنا بـالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، يا رب العالمين.

## الوصية رقم (٧٦)
## من غشنا فليس منا

عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ مر على صبرة من طعـام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً، فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟!.

قال: أصابته السماء يا رسول الله.

قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس؟ من غش فليس منى»(٢)

صدق رسول الله ﷺ

---

(١) ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله جـ٢/ ٢١٥، ٢١٦

(٢) رواه مسلم (١٠١) والترمذى وذكره الألبانى فى ص.ج (٦٢٨٢).

هذا هو رسولنا ﷺ يتابع بنفسه طائفة من طوائف الأمة، ألا وهم التجار والبائعون، فينزل السوق يومًا ليتفقد أحوالهم، ليرشد المسترشد، ويقوم المنحرف، ويهدى الحيران، فيسلك بهم سبيل الخير والأمان، حتى يفوزوا برضى الرحمن، وسكنى الجنان.

وبينما هو يتفقد هذه الطائفة إذ به يمر على رجل منهم أمامه كومة من الطعام يريد أن يبيعها، فإذا به يدخل يده فى هذه الكومة فتصيب يده بللاً، وكأن الله أوحى إليه أن هذا التاجر يغش الناس ويخونهم.

فيقول له النبى المعلم، والرسول الأكرم، بلهجة كلها غضب، وكان لا يغضب إلا فى الحق: «**ما هذا يا صاحب الطعام؟**».

فإذا الرجل يرد عليه وقد علاه الخجل: لقد أصابته السماء يا رسول الله، أى المطر ولما أيقن رسول الإنسانية بحرج الرجل، قال له فى رفق وحلم: «**أفلا جعلته فوق الطعام**»؟ ثم قرر قاعدة عامة بعد ذلك بقوله: «**من غشنا فليس منا**» أى فليس على سنتى ولا على طريقتى، وليس من أحبائى، لأن من أحبنى فإنه يستن بسنتى.

ومما يدل على عموم هذه القاعدة ما ورد فى رواية لهذا الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا**»[(١)]

ففى هذه الوصية يقرر الرسول ﷺ تحريم كتمان عيب المبيع، وأن ذلك من الغش المحرم، والغش مكر وخداع، وكلاهما فى النار، لقول النبى المختار: «**من غشنا فليس منا، والمكر والخداع فى النار**»[(٢)]

وفى عصرنا هذا نجد أولئك البائعين يجعلون الردىء أسفل، والجيد أعلى سواء كان ذلك فى الفاكهة، أو فى الخضراوات والمحاصيل، أو كان ذلك فى الأقمشة وسائر المبيعات فإذا كان الرسول ﷺ قد نفى عن هذا التاجر الإيمان فما بالنا بأولئك الذين يخلطون القمح بالتراب ليزداد كيل بعير، وإنه والله شىء يسير، ثم ينقلب إلى حساب عسير؟!.

ما بالنا بأولئك الذين يخلطون اللبن بالماء ثم يبيعونه، وقد رأى سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه رجلاً يبيع لبنًا قد خلطه بالماء، فقال له: يا مسكين، كيف بك إذا قيل لك يوم القيامة: خلص الماء من اللبن؟[(٣)]

ما بالنا بأولئك الذين يروجون سلعتهم التى انتهى تاريخ صلاحيتها من أسماك أو لحوم أو أدوية أو غير ذلك، مما قد يؤدى إلى هلاك المجتمعات صحيًا واقتصاديًا، لإصابتهم بالأمراض الفتاكة؟!.

(١) رواه مسلم (  ١) وابن ماجه وذكره الألبانى فى ص.ج (٦٢٨٣).
(٢) رواه الطبرانى فى الكبير وأبو نعيم فى حلية الأولياء عن ابن مسعود ٤/ ١٨٩
(٣) رواه البيهقى والأصبهانى موقوفًا بإسناد لا بأس به.

إنهم يفعلون ذلك لأجل ماذا؟ لأجل دراهم معدودة، لأجل أن تكثر أموالهم، وتزداد ثرواتهم، ثم يردون بعد ذلك إلى عذاب غليظ ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤] أيحسبون أن الله غافل عنهم؟ ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣].

إن هذا الغشاش خائن لنفسه، خائن لدينه، خائن لمجتمعه، وقد نفى النبى ﷺ عنه الإيمان فى الحديث الذى رواه أحمد وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن عهد له**»(١)

لا عهد له، ولا إيمان له، لأنه خان الأمانة، ورب العزة جل وعلا قد نهى عن الخيانة فقال سبحانة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧] وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

هذا الإنسان الغشاش منافق يظهر للناس الذين يشترون منه بخلاف ما يخفى، وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»(٢)

**وتأمل أخى الحبيب** تلك القصة ففيها عبرة لمن اعتبر، فيها بيان لنهاية الخائنين الغشاشين فعن عبد الحميد بن محمود، قال: كنت يومًا جالسًا عند ابن عباس رضي الله عنهما فأتاه قوم فقالوا له: يابن عم رسول الله، أقبلنا حجاجًا، حتى إذا كنا بالصفاح توفى رجل منا، فحفرنا له قبرًا فوجدنا فيه حية عظيمة، فتركناه وحفرنا له قبرًا آخر، فوجدنا فيه حية عظيمة كذلك، ثم حفرنا قبرًا آخر فوجدناه كذلك، فأتيناه على وجه الأرض مطروحًا، وأتيناك نسألك، ما تأمرنا فيه؟

فقال ابن عباس: ذلك عمله السوء سبقه إلى قبره، اذهبوا فاطرحوه فى بعضها، فلو حفرتم الأرض كلها لوجدتم ذلك.

قال: فذهبنا فطرحناه فى قبره، ورددنا عليه التراب وانصرفنا، فلما قضينا حجنا، ورجعنا ذهبنا إلى امرأة الرجل، فسألناها عن حاله وعمله، قالت: كان يبيع الطعام -يعنى القمح- فيأخذ منه قوت أهله، فينظر ما أخذ، فيطرح عوضه من التبن، فيخلطه فيه عوض ما أخذ منه، ثم يبيعه للناس(٣)، فهذه عقوبة من يغش فى بيعه، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

(١) رواه أحمد فى مسنده.

(٢) رواه أحمد فى مسنده والطبرانى فى الأوسط وهو فى ص.ج للألبانى برقم (٧١٧٩).

(٣) ذكره اليافعى فى الترغيب والترهيب ص٢٧٧

فعن عياض بن حمار المجاشعى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال فى حديث له: «... **وأهل النار خمسة**: وذكر منهم: **ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك**»[١] منهم ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

قال الواحدى: يعاملون عمل المخادع على خداعهم، وذلك أنهم يعطون يوم القيامة نورًا كما يعطى المؤمنون، فإذا مضوا على الصراط أطفئ نورهم، وبقوا فى الظلمة.

وتأمل أخى الحبيب: إن الغش يعرفه حتى بعض الحيوانات وينكرونه على أصحابه، ومثال ذلك قصة هذا القرد، وقد رواها لنا الإمام أحمد عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ رجلاً حمل معه خمراً فى سفينة يبيعه ومعه قرد. قال: فكان إذا باع الخمر شابه** -أى خلطه- **بالماء ثم باعه. قال: فأخذ القرد الكيس، فصعد به فوق الدقل** - وهى الخشبة التى يمد عليها شراع السفينة- قال: **فجعل يطرح ديناراً فى البحر، وديناراً فى السفينة حتى قسمه**»[٢]

فالقرد وهو أشبه الناس بالإنسان، وهو حيوان معروف بالذكاء، يرمى حق الرجل البائع فى السفينة، ويرمى حق الماء فى الماء.

**قال ابن الجوزى رحمه الله**: «كان لبَّان يخلط اللبن بالماء، فجعل سيل، فأهلك الغنم، فجعل يبكى ويقول: اجتمعت القطرات فصارت سيلاً، ولسان الجزاء يناديه: يداك أوكتا، وفوك نفخ»[٣]

فإياك أخى الحبيب إن كنت تعمل تاجرًا، أو فى أى عمل من الأعمال أن تغش، ولتعلم أن الأمانة وعدم الغش، سببًا قويًّا من أسباب البركة، فقد قال حبيبنا ﷺ: «**إذا صدق البيعان وبينا بورك لهما فى بيعهما، وإن كذبا محقت بركة بيعهما**»[٤]

واعلم أن نصحك لأخيك المسلم واجب عليك فعن تميم الدارى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الدين النصيحة. قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[٥] ولقد نفى النبى ﷺ الإيمان عن الإنسان الذى لا ينصح أخاه وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لم يصبح ويمس ناصحًا لله، ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم، فليس منهم**»[٦]

---

(١) رواه مسلم وهو جزء من الحديث رقم (٢٨٦٥).

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٨٠٤١) بإسناد حسن

(٣) اليواقيت الجوزية لابن الجوزى ص٦٨

(٤) رواه البخارى (٢٠٧٩) ومسلم (١٥٣١).

(٥) رواه مسلم والترمذى وأبو داود.

(٦) رواه الطبرانى وذكره المنذرى فى الترغيب ٢/ ٥٧٧.

لأجل ذلك كان السلف الصالح من هذه الأمة يتناصحون فى البيع والشراء، ولا يغشون ومن هؤلاء الصحابى الجليل: «جرير بن عبد الله البجلى» فقد أرسل غلامًا له ليشترى له فرسًا، فلما التقى الغلام بالبائع، قال له: بكم تبيع الفرس؟ فدارت المناقشات بينهم حتى وصل ثمن الفرس إلى ثلاثمائة درهم، لكن غلام جرير قال له: تعال إلى سيدى لينقدك الثمن، ولما وصل البائع والغلام كلاهما إلى جرير، قال كلامًا عجيبًا.. سأل الغلام بكم اشتريت الفرس؟ فأجاب الغلام بثلثمائة درهم. لكن جرير نظر إلى البائع وقال له: أتبيع الفرس بأربعمائة درهم؟ فعجب البائع وسكت. وقال جرير: أتبيعه بخمسمائة؟ فعجب البائع وسكت مندهشًا، فقال له جرير: أتبيعه بستمائة درهم؟

وعجب البائع، فقال جرير: أتبيعه بسبعمائة؟ فقال البائع: أبائع أنت أم مشترٍ؟ ما رأيت مشتريا يزيد ثمن المبيع إلا أنت، فما شأنك؟

قال جرير ﷺ: «لقد بايعت رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم»[1] فلو أنى أخذتها بأقل من ذلك لغششت عهد رسول الله ﷺ.

وعلى البائع أن يبين العيب الذى فى السلعة أو فى العين المشتراه.

فعن أبى سباع، قال: اشتريت ناقة من دار واثلة بن الأسقع صاحب رسول الله ﷺ، فلما خرجت بها من منزل البائع، أدركنى واثلة، وقال: يا عبد الله اشتريت؟ قلت: نعم.

قال: هل بين لك صاحبها ما بها من عيب؟ قلت: وما بها؟ إنها لسمينة ظاهرة الصحة. قال: تريد بها سفرًا، أم تريد بها لحمًا؟ قلت: بل أريد الحج عليها. فقال: إن نجنها نقبًا، فسمع صاحب الناقة، فخرج فقال لواثلة: ما تريد بهذا أصلحك الله؟ أتريد أن تفسد علىَّ بيعى؟ فقال واثلة: يا هذا، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يحل لمن باع شيئًا فيه عيب إلا بينه، ولا يحل لمن علم ذلك إلا بينه**»[2]

## فيا أخى:

متى تذكر عواقب الأمور؟ متى ترحل الرحال عن هذه القصور؟ أين من كان من قبلك فى المنازل والدور؟ أين من ظن بسوء تدبيره أنه لن يجور؟ رحل والله الكل، فاجتمعوا فى القبور، واستوطنوا أخشن المهاد إلى نفخ الصور، وأصبحت وجوه المتقين تشرق كالبدور، وباءوا بتجارة لن تبور.

اللهم أصلح فساد قلوبنا، واستر فى الدنيا والآخرة عيوبنا، واغفر بعفوك ورحمتك ذنوبنا يا رب العالمين.

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح (٢٢٤٧).

# الوصية رقم (٧٧)
# يسروا ولا تعسروا

عن أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**»[١].

**صدق رسول الله ﷺ**

لقد قامت تعاليم الإسلام على اليسر والسماحة، ورفع الحرج عن المكلفين، والرفق بهم لهذا أوصانا رسول الإسلام ﷺ فى هذه الوصية أن نلتزم التيسير فى شئوننا، ونتجنب التشديد على أنفسنا.

وهذه الوصية العظيمة رغم قلة ألفاظها إلا أنها تعتبر قاعدة فقهية جليلة ضمن قواعد الدين الخمسة وهى: «المشقة تجلب التيسير»، «اليقين لا يزال بالشك»، «الضرر يزال»، «والعادة محكمة»، «والأمور بمقاصدها»[٢]

وهذه القاعدة الجليلة «المشقة تجلب التيسير» هى معنى هذه الوصية التى تأمرنا بأن نلتزم بالتيسير لا بالتعسير، قال تعالى: ﴿**وما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج: ٧٨] وقال سبحانه: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال جل شأنه: ﴿**مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حرجٍ**﴾ [المائدة: ٦] وغير ذلك من الآيات المباركة.

وقال النبى الأكرم ﷺ: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»[٣] وما أجمل قوله عليه الصلاة والسلام: «**إنَّ الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة**»[٤] فهو يوصى جميع المكلفين أن يعلموا أن الدين يسر، وأن من يحاول مغالبة الدين غلبه وقهره، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغضوا إلى أنفسكم عبادة الله، فإن المنبت لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى**»[٥]

ومعنى: فأوغل فيه برفق -أى توغل فى معرفة أحكامه وتعاليمه- وانهض فى تأدية ما وجب عليك لكن برفق، بحيث لا تكلف نفسك فوق طاقتها، فإن التشدد فى الدين أخطر من

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١٢٢٧٣) والبخارى (٢٨٧٣) وأبو داود (٤٨٣٥).

(٢) الأشباه والنظائر فى قواعد الفقه للسيوطى ص٧، ٨.

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٢١٠٧) وصححه الشيخ أحمد شاكر ٢/ ٥٢٢.

(٤) رواه البخارى والنسائى.

(٥) رواه البزار عن جابر وصوب إرساله قاله ابن حجر فى الفتح ١١/ ٣٠٣ وله شاهد فى الزهد لابن المبارك من حديث عبد الله بن عمرو موقوفا وقد صححه السيوطى فى الجامع. فالحديث حسن بشواهده.

التهاون فيه، والفضيلة وسط بين رذيلتين هما: الإفراط والتفريط قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ [البقرة: ١٤٣].

ووسطية الأمة الإسلامية مستمدة من وسطية منهجها ونظامها، فهو منهج وسط لأمة وسط، منهج الاعتدال والتوازن الذى سلم من الإفراط والتفريط، أو من الغلو والتقصير، فوسطية الإسلام فى جميع شئون الفرد والمجتمع:

أمة وسطًا. فى التصور والاعتقاد.

أمة وسطًا. فى التفكير والشعور.

أمة وسطًا. فى التنظيم والتنسيق.

أمة وسطًا. فى الارتباط والعلاقات.

أمة وسطًا. فى الزمان والمكان[(١)]

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، فقال لها: «**من هذه؟**» قالت: فلانة. تذكر من صلاتها كذا، وكذا. فقال: «**مه، عليكم بما تطيقون، فو الله لا يمل الله حتى تملوا، وكان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه**»[(٢)]

وقد قال ﷺ: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**»[(٣)]

لأجل ذلك كان ﷺ يلاحق أولئك الذين يتشددون فى العبادة بإرهاق أنفسهم إرهاقًا شديدًا غير مبالين بحق أجسامهم فى أخذها قسطًا من الراحة، ولا حق لأزواجهم فى المتعة، فيقضون ليلهم، ونهارهم دائبين فى عبادة ربهم من صلاة وصيام وقيام، ويزهدون فى طيبات الحياة التى أباحها الله لهم، فكان رسول الرحمة والتيسير يدعوهم إلى الرفق بأنفسهم، وبأزواجهم، فيقول لعثمان بن مظعون، وذلك حين دخلت السيدة عائشة رضي الله عنها على خولة بنت حكيم وهى باذة الهيئة، فسألتها السيدة عائشة: ما شأنك؟.

قالت: زوجى يقوم الليل، ويصوم النهار، فلما علم النبى ﷺ بذلك قال: «**يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا، أفمالك فيَّ أسوة؟ فوالله إنى لأخشاكم لله، وأحفظكم لحدوده**»[(٤)]

وفى رواية أخرى: أن الرسول ﷺ أرسل إليه، فجاءه، فقال له: «**يا عثمان، أرغبة عن سنتى؟**» قال: لا، والله يا رسول الله، ولكن سنتك أطلب، قال: «**فإنى أنام، وأصلى، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان، فإن لأهلك عليك حقًّا، وإن لضيفك عليك حقًّا، وإن لنفسك عليك حقًّا، فصم وأفطر، وصلِّ ونم**»[(٥)]

---

(١) تفسير الظلال سيد قطب ١/ ١٣٠ بتصرف.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) رواه البخارى ومسلم.

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٢٥٧٦٩) بإسناد صحيح ورواه ابن حبان (١٢٨٨) والدارمى (٢١٦٩).

(٥) رواه أحمد فى مسنده (٢٦١٨٦) بإسناد صحيح ١٨/ ١٨٥، ١٨٦

فتأمل أخا الإسلام هذا حتى تعلم أن دينك دين السماحة واليسر، وأنه سبحانه وتعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها، ولا حرج فى الدين، لذلك ماذا فعل الرسول ﷺ لما أراد أن يبعث الصحابى الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن، ليعلم أهلها الدين الجديد - دين الإسلام وتعاليمه السمحة؟. قال له: «**يا معاذ، إنك تأتى قومًا أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله، فإن هم أطاعوك إلى ذلك، فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، وترد على فقرائهم**»[1].

فتأمل، لو كان الإسلام دين التشدد، والغلظة، وعدم التيسير لما أمر معاذ بن جبل رضي الله عنه أن يتدرج فى دعوة أهل اليمن إلى الإسلام، فأمره أن يبنى أولاً حجر الأساس والذى يكون القاعدة الأولى للإسلام، وهو الشهادتان، ثم بعد أن يجيبوك إلى هذه القاعدة ادعهم إلى الصلاة، فإن استجابوا وعملوا بالصلاة، فادعهم إلى إخراج الزكاة.

ولذلك فإننا نرى أن تكاليف الإسلام وردت شيئًا فشيئًا حتى تتهيأ النفوس لقبولها، كما فى التدرج فى تحريم شرب الخمر مثلاً، أو التدرج فى حد الزنا، فقد كانت عقوبته فى صدر الإسلام الحبس فى البيت للمرأة، والإيذاء للرجل عملاً بقوله تعالى: ﴿**وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا**﴾ [النساء: ١٥، ١٦].

ثم صارت العقوبة للزانى غير المحصن مائة جلدة، عملاً بقوله تعالى: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ**﴾ [النور: ٢] أما المحصن فهو الرجم كذلك تدرجت الشريعة الإسلامية فى مشروعية الصلاة، فقد شرعت فى أول الأمر ركعتين بالغداة، وركعتين بالعشى، ثم ازدادت إلى خمس صلوات فى اليوم والليلة، وذلك بعدما اطمأنت نفوس المسلمين إليها وذاقوا حلاوتها، وكذلك تدرجت الشريعة الإسلامية فى تحريم الربا حتى حُرِّم على أربع مراحل، لأجل أنهم كانوا يتعاملون به، وقد جرى بينهم مجرى الدم فى العروق، وكان من الصعب عليهم أن يقلعوا عنه دفعة واحدة. فأى تيسير بعد هذا التيسير؟.

ولو تأملت أخى الحبيب قاعدة: «**المشقة تجلب التيسير**» لوجدت أنها يتخرج عليها جميع رخص الشرع وتخفيفاته[2].

واعلم أن تخفيف العبادات فى الإسلام له أسباب منها: ١- السفر، لأنه قطعة من العذاب كما أخبر النبى ﷺ.

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد.

(٢) الأشباه والنظائر للسيوطى.

٢- المرض: ورخصه كثيرة منها: التيمم عند مشقة استعمال الماء، والقعود فى الصلاة بالنسبة للفريضة، وخطبة الجمعة، والتخلف عن الجماعة، والاستعانة بمن يصب عليه أو يغسل له أعضاء الوضوء، والفطر فى رمضان، وترك الصوم للشيخ الهرم المسن مع الفدية، والانتقال من الصوم إلى الإطعام فى الكفارة، والاستنابة فى الحج، وفى رمى الجمار، وإباحة محظورات الإحرام مع الفدية.

٣، ٤- الإكراه والنسيان: لقوله ﷺ: «**رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»[١]

٥- والجهل: أى م معرفة الحكم.

٦- العسر وعموم البلوى: مثل الصلاة مع النجاسة المعفو عنها، كدم القروح، والدمامل والبراغيث، والقيح والصديد، وطين الشارع، وذروق الطيور إذا عم فى المساجد، وما لا نفس له سائلة كالنمل والذباب، وريق النائم، وفم الهرة، والجمع بين الصلاتين فى المطر، وترك الجماعة، وعدم وجوب قضاء الصلاة للحائض لتكررها بخلاف الصوم، ولبس الحرير للحكة والقتال.

ومن التخفيف: إباحة النظر عند الخطبة، والتعليم، والإشهاد، والمعالجة.

ومنه إباحة أربع نسوة، فلم يقتصر على واحدة تيسيرًا على الرجال، وعلى النساء أيضًا لكثرتهن، ولم يزد على أربع لما فيه من المشقة على الزوجين فى القسم وغيره.

ومن التخفيف: مشروعية الطلاق، لما فى البقاء على الزوجية من المشقة عند التنافر، وكذا مشروعية الخلع.

ومنه: مشروعية الكفارة فى الظهار، واليمين تيسيرًا على المكلفين.

٧- النقص: ومنه عدم تكليف الصبى والمجنون، وعدم تكليف النساء بكثير مما يجب على الرجال كالجمعة، والجهاد، والجزية، وإباحة لبس الحرير، وحلى الذهب، ونحوه[٢]

فهل رأيت أخى الحبيب يسرًا بعد هذا اليسر؟ وسماحة بعد سماحة الإسلام فى تعاليمه وتشريعاته، وجميع شئونه، فهو دين الرفق والسماحة والتيسير، إنه يُعلى شعار «**ما كان الرفق فى شىء إلا زانه، ولا يُنزع من شىء إلا شانه**»[٣]

فطوبى لمن تدارك الهفوات، وبشرى لمن لازم تقوى الله، وعمل بالباقيات الصالحات، وهنيئًا لمن أذهب السيئات بالحسنات، ويا خيبة من شغلته الملاهى والمنكرات عن طاعة رفيع الدرجات.

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٤٣) وصححه الألبانى والحاكم ٢/ ١٩٨

(٢) المرجع السابق ص ٨٠.

(٣) رواه البخارى ومسلم.

فيا رب:

أنت سؤلى وعصمتى فى حياتى أنت ذخرى وعمدتى فى مماتى
يا عليمًا بما أكن وأخفى وبما فى بواطن الخطرات
ليس لى مالك سواك فأرجوه لدفع العظائم الموبقات

اللهم ثبتنا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا، وفى الآخرة، اللهم اجعلنا لك ذاكرين، ولك شاكرين، وإليك مخبتين، ربِّ تقبل توبتنا، واغسل حوبتنا، وأجب دعوتنا، يا رب العالمين.

## الوصية رقم (٧٨)
## من أحب أن يظله الله

عن كعب بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحب أن يظله الله عز وجل فى ظله، فلينظر المعسر، أو ليضع عنه**»(١)

**صدق رسول الله ﷺ**

### أخا الإسلام:

كن منفذاً لهذه الوصية المباركة، والتى بدأها حبيبك محمد ﷺ بترغيبك فى أمر هو من أهم الأمور التى ينشغل بها المؤمن الصادق، وهو يوم القيامة حيث لا ظل، ولا ضياء لأن الشمس كورت، أى ذهب ضوؤها وبقيت حرارتها، والنجوم انكدرت، أى تساقطت ساعتها: «**تدنو الشمس من رءوس العباد حتى تكون قيد ميل أو ميلين، فتصهرهم الشمس، فيكونون فى العرق كقدر أعمالهم فمنهم من يأخذه إلى عقبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه إلى حقويه، ومنهم من يلجمه إلجامًا**»(٢)

يا للكرب وقد علاك العرق، وأطبق عليك الغم، وضاقت نفسك فى صدرك من شدة العرق والفزع والرعب، والناس معك منتظرون لفصل القضاء إلى دار السعادة أو الشقاء، ولم يجدوا كربًا أشد من هذا الكرب، ولذلك يقول النبى المصطفى ﷺ: «**لم يلق ابن آدم شيئًا منذ خلقه الله عز وجل أشد عليه من الموت، ثم الموت أهون مما بعده وإنهم ليلقون من هول ذلك اليوم شدة حتى يلجمهم العرق، حتى أن السفن لو أجريت فيه**

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٤١٩) وأحمد فى مسنده (١٥٤٥٩) ومسلم بنحوه (٣٠٠٦) والترمذى (١٣٠٦) وقال حسن صحيح والدارمى والحاكم وصححه ووافقه الذهبى وقال حمزة الزين إسناده حسن فى تحقيق المسند.

(٢) رواه مسلم وأحمد والترمذى وصححه الألبانى فى ص.ج برقم (٧٨٩).

لجرت»[١] فى هذا الموقف العصيب، وفى ذلك الحر الشديد، يظل الله سبحانه وتعالى فى ظله يوم لا ظل إلا ظله، من أنظر معسرًا، أو وضع عنه، فكان النبى ﷺ يوجه إلينا هذه الوصية ويدعونا فيها إلى أن نقى أنفسنا من كربات يوم القيامة بالتنفيس والتخفيف على المعسرين والمكروبين، ليكون الجزاء من جنس العمل، ولذلك وردت هذه الوصية برواية أخرى، فعن أبى قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال. **«من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة، فلينفس عن معسر أو يضع عنه»**[٢] وذلك من باب ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ [المائدة: ٢] وما أبلغ قول الرسول الأعظم ﷺ حين قال: **«من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه من كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا، ستره الله فى الدنيا والآخرة»**[٣]

**قال المناوى:** «من نفس» أى أمهل وفرج، من تنفيس الخناق أى إرخاؤه. وقال عياض: التنفيس المد فى الأجل والتأخير، أو محا عنه، وأبرأة من الدين المكتوب عليه، والإعسار من كرب الدنيا، بل هو أعظمها، فجوزى بتفريج أعظم كرب الآخرة عنه وهو هول الموقف، وشدائده بالإراحة من ذلك، ورفعته إلى أشرف المقامات، وقد يكون ثواب المندوب أكمل من ثواب الواجب[٤]

**ثم يقول:** «**ومن يسر على معسر**» مسلم أو غيره، بإبراء أو هبة، أو صدقة أو نظرة إلى ميسرة، وإعانة بنحو شفاعة أو إفناء يخلصه من ضائقة «**يسر الله عليه**» مطالبه وأموره فى الدنيا، بتوسيع رزقه وحفظه من الشدائد، ومعاونته على فعل الخيرات. وفى الآخرة بتسهيل الحساب والعفو عن العقاب، ونحو ذلك من وجوه الكرامة والزلفى، ولما كان الإعسار أعظم كرب فى الدنيا لم يخص جزاءه بالآخرة بل عممه فيهما[٥]

فكان الجزاء من جنس العمل، والناس بعضهم لبعض ، والأيام دول.

ورحم الله الشاعر الحكيم حين قال:

**الناس للناس ما دام الحياء بهم ... والعسر واليسر ساعات وأوقات**

**لا تقطعن يدا المعروف عن أحد ... ما دمت تُرجى فالأيام ثارات**

ولا شك أن من أنظر معسرًا إلى حين ميسرة يكون من ذوى المروءات، قال تعالى: ﴿**وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٨٠].

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط وإسناده جيد ورواه أحمد باختصار عنه قاله الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٣٣٤.

(٢) رواه مسلم (١٥٦٣).

(٣) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه.

(٤)، (٥) فيض القدير للمناوى ٦/ ٢٣٣، ٢٤٣ بتصرف.

وإن كان العلماء قد اختلفوا فى تفسير هذه الآية، فقال بعضهم إن الآية نزلت فى دين الربا خاصة وهذا مروى عن الطبرانى وغيره من طريق إبراهيم النخعى ومجاهد وغيرهما ويرى عطاء أنها عامة فى دين الربا وغيره.

فالقول بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما قرر العلماء، فإذا أعسر المديون وجب إنظاره، ولا سبيل إلى ضربه أو إلى حبسه.

قال ابن حجر عن إنظار المعسر: «لا يلزم من كونه واجبًا أن لا يؤجر صاحبه عليه أو يكفر عنه بذلك من سيئاته»[1]

هذا فيمن أنظر معسرًا فكيف بمن أنظر موسرًا؟! وقد ترجم البخارى لذلك: (باب من أنظر موسرًا).

فعن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: أعملت من الخير شيئًا؟ قال: كنت آمر فتيانى أن ينظروا ويتجاوزوا عن الموسر، قال: فتجاوزوا عنه**»[2]

وفى رواية: «**كنت أيسر على الموسر، وأنظر المعسر**» وفى رواية: «**..قالوا: أعملت من الخير شيئًا؟ قال: لا، قالوا: تذكر، قال: كنت أداين الناس، فآمر فتيانى أن ينظروا المعسر، ويتجاوزوا عن الموسر، قال: قال الله عز وجل: تجاوزوا عنه**»[3]

وروى مسلم عن حذيفة قال: «**أُتى الله بعبد من عباده آتاه الله مالاً، فقال له: ماذا عملت فى الدنيا؟ قال: ولا يكتمون الله حديثًا. قال: يا رب آتيتنى مالك فكنت أبايع الناس، وكان من خلقى الجواز، فكنت أتيسر على الموسر، وأنظر المعسر، فقال الله تعالى: أنا أحق بذا منك تجاوزوا عن عبدى**»[4]

فيا له من شرف عظيم، إذ يؤدى التجاوز عن المعسر بصاحبه إلى أن يكون فى ظل الله يوم القيامة.

ولقد بين النبى الأكرم ﷺ أن مجرد القرض، فإنه صدقة يؤجر عليها صاحبها، فقال: «**كل قرض صدقة**»[5]

وقيل: يكتب للمقرض ثواب التصديق بنصف المال المقترض، لذا يقول النبى الأكرم ﷺ: «**إن السلف يجرى مجرى شطر الصدقة**»[6]

---

(١) فتح البارى لابن حجر ٤/ ٣٦١ بتصرف. (٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) رواه مسلم. (٤) رواه مسلم.

(٥) رواه أبو نعيم فى حلية الأولياء ٣/ ٤٩ عن ابن مسعود وحسنه الألبانى فى ص.ج (٤٥٤٢).

(٦) رواه أحمد فى مسنده (٣٩١١) وصححه الألبانى فى الصحيحة (١٥٥٣).

لكن على المسلم أن يكون متصفًا بالسماحة فى قرضه، وفى بيعه، وفى شرائه، بل وفى كل حياته، لأن المسلم السمح ينال من الله تعالى غفران الذنوب، حيث يقول نبى الملك المعبود ﷺ: **«غفر الله لرجل ممن كان قبلكم كان سهلاً إذا باع، سهلاً إذا اشترى، سهلاً إذا اقتضى»**(١)

بل إنه يفوز بالجنة يوم القيامة، قال النبى ﷺ: **«أدخل الله الجنة رجلاً كان سهلاً مشتريًا وبائعًا، وقاضيًا، ومقتضيًا»**(٢)

بل إنه يفوز بشىء أعظم من ذلك وهو محبة الله عز وجل له، ويا فوز من أحبه الله جل وعلا، يقول النبى ﷺ: **«إن الله يحب سمح البيع، سمح الشراء، سمح القضاء»**(٣)

**واعلم أخى الحبيب:** أن الله لا يضيع عنده شىء: **﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾** [الكهف: ٣٠] **﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾** [النساء: ٤٠].

وخرج البيهقى من حديث أنس مرفوعًا: **«أنَّ رجلاً من أهل الجنة يشرف على رجل يوم القيامة على أهل النار، فيناديه رجل من أهل النار: يا فلان، هل تعرفنى؟ فيقول: لا والله ما أعرفك، من أنت؟ فيقول: أنت الذى مررت بى فى دار الدنيا فاستسقيتنى شربة ماء فسقيتك، قال: قد عرفت. قال: فاشفع لى بها عند ربك، قال: فيسأل الله تعالى، ويقول: شفعنى فيه، فيأمر به فيخرجه من النار»**(٤)

ولقد كان نبينا ﷺ أرحم الناس وأرفقهم بالمعسرين، وكان من أحلمهم على المخطئين، ومن أشدهم عفواً عن المسيئين.

وكان أصحابه من بعده كذلك فهذا هو الصحابى الجليل: **«قيس بن سعد بن عبادة»** سيد الخزرج وابن سيدهم رضي الله عنه يضرب به المثل فى التجاوز عن المعسرين فعن هشام بن عروة عن أبيه قال: «باع قيس بن سعد مالاً من معاوية بتسعين ألفًا، فأمر من ينادى فى المدينة، من أراد القرض فليأت، فأقرض أربعين ألفًا، وأجاز بالباقى، وكتب على من أقرضه صكًّا، فمرض مرضًا، قل فيه عواده، فقال لزوجته: لم قل عوادى؟ قالت: للدين، فأرسل إلى كل رجل بصكه، وقال: اللهم ارزقنى مالاً وفعالاً، فإنه لا تُصلح الفعال إلا بالمال».

وقيل: إنه لما مرض رضي الله عنه استبطأ إخوانه فى عيادته، فسأل عنهم، فقيل: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزى الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر

(١) رواه الترمذى وأحمد فى المسند (١٤٥٩٣) وصححه الألبانى فى ص.ج (٤١٦٢).
(٢) رواه ابن ماجه والنسائى وأحمد ( ٤١) وهو فى ص ج (٢٤٣) للألبانى.
(٣) رواه الترمذى وهو فى ص.ج للألبانى (١٨٨٨).
(٤) ذكره ابن رجب فى جامع العلوم والحكم ص٤٤٨ والمنذرى فى الترغيب ٢/ ٦٩

مناديًا، فنادى: من كان لقيس عليه دين فهو فى حل منه، فكسرت درجته بالعشى لكثرة من عاده.

**أخى الحبيب:**

اتق الله تعالى وسارع بفعل الخيرات جهدك قبل يوم الحساب، وارحم نفسك بالإحسان إلى الضعفاء قبل نزول العذاب، واجتهد فى الحسنات بقية عمرك قبل أن يوضع الكتاب، وسارع إلى المغفرة من ربك قبل الخجل بين يدى رب الأرباب، وقبل أن تطالب برد الجواب، فتحبس الألسنة عن النطق والخطاب، وتشهد جوارحك بما عملت بها من خير أو ثواب.

مسكين من أطاع الشيطان، وعصى الرحمن، مسكين من عصى الجبار فى ليل أو نهار، وسود صحيفته بالخطايا والأوزار.

اللهم وفقنا للطاعة، وأمتنا على السنة والجماعة، ونجنا من أهوال الساعة، وأدخلنا فى جملة أهل الشفاعة، واغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا ثبت قلوبنا، وقنا عذاب النار، يا قوى يا قهار.

## الوصية رقم (٧٩)
## قل رضيت بالله ربًّا

عن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال حين يسمع المؤذن: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولا، غفر الله له ما تقدم من ذنوبه**»[(١)]

**صدق رسول الله ﷺ**

هذه الوصية المباركة عليهما مدار مقامات الدين، وإليها ينتهى، أتدرى لماذا؟ لأنها قد تضمنت الرضا بربوبيته سبحانه وتعالى وألوهيته، والرضا برسوله محمد ﷺ، والانقياد له، والرضا بدينه الحنيف، والتسليم له، فمن اجتمعت له هذه الخصال الأربع فهو من السعداء، ومن الأبرار الأتقياء، وهى أمور سهلة هينة بالدعوى واللسان، لكن من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان.

**فأولها:** شهادة التوحيد الخالص، وهى مفتاح الإيمان، ومحل الرضوان، من الله الرحمن.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١٥٦٥) والترمذى ( ٢١) وقال حسن صحيح غريب ورواه مسلم وأبو داود والنسائى.

**وثانيها:** الرضا بالله ربًّا، ويتضمن الرضا بما يدبره له سبحانه، ويتضمن إفراد الرب بالتوكل عليه، والاستعانة به وحده، والاعتماد عليه لا على أحد سواه، فيرضى بكل ما يفعله مولاه من خير أو شر.

**وأما الأمر الثالث:** فهو «**الرضا بنبيه رسولا**» وهو يتضمن الاتباع لهديه، والسير على دربه، والاستسلام لشرعه، والتسليم المطلق إليه.

**وأما الأمر الرابع:** فهو «**الرضا بدينه**» ويتضمن الرضا بما قال، أو حكم، أو أمر، أو نهى، رضى كل الرضى، فلم يبق فى قلبه حرج من حكمه، وسلّم له تسليمًا ولو كان مخالفًا لمراد نفسه، أو هواها، ولذلك يؤكد الرسول ﷺ هذه الوصية بقوله: «**ذاق طعم الإيمان، من رضى بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً**»(١)

فمن رضى عن ربه رضى الله عنه، بل إنَّ رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه، فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده: رضًا قبله، أوجب له أن يرضى عنه، ورضًا بعده، هو ثمرة رضاه عنه قال سبحانه: ﴿**رضى الله عنهم ورضوا عنه**﴾ [البينة: ٨].

لذلك كان الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العارفين، وحياة المحبين، ونعيم العابدين، وقرة عين المشتاقين.

**لكن ماذا قال العلماء من السلف الصالح عن منزلة الرضا؟**

قيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا؟ فقال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول، فيما يعامل به ربه، فيقول: إنْ أعطيتنى قبلت، وإن منعتنى رضيت، وإن تركتنى عبدت، وإنْ دعوتنى أجبت(٢)

وقال ابن عطاء الله السكندرى: الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد، أنه اختار له الأفضل، فيرضى به(٣)

**قال ابن القيم:** وطريق الرضا طريق مختصرة، قريبة جدًّا، موصلة إلى أجل غاية، لكن فيها مشقة، ومع هذا فليست مشقتها بأصعب من مشقة طريق المجاهدة، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها، وإنما عقبتها همة عالية، ونفس زكية، وتوطين النفس على كل ما يرد عليها من الله.

ويُسهِّل ذلك على العبد: علمه بضعفه وعجزه ورحمته به، وشفقته عليه، وبره به، فإذا شهد هذا وهذا ولم يطرح نفسه بين يديه، ويرضى به وعنه، وتنجذب دواعى حبه ورضاه كلها إليه، فنفسه نفس مطرودة عن الله، بعيدة عنه، ليست مؤهلة لقربه وموالاته، أو نفس ممتحنة مبتلاه بأصناف البلايا والمحن.

---

(١) رواه مسلم والترمذى وأحمد.

(٢)، (٣) مدارج السالكين لابن القيم جـ٢/ ١٨٢، ١٨٣ ط/ دار الحديث.

وثمرة الرضا: الفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى[١]

فالرضا بالله ربًّا، ألا تتخذ ربًّا سواه تسكن إليه في تدبيـر أمرك، وقضاء حوائجك قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] قال ابن عـباس: «سيدًا وإلهًا» يعني: فكيف أطلب ربًّا غيره، وهو ربُّ كل شيء؟! وقال في أول السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤] أي معبودًا وناصرًا ومعينًا، وملجأ. وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة، وقال في وسطها: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [الأنعام: ١١٤] أي: أفغيـر الله، أبتغي من يحكم بينـي وبينكم، فنتحـاكم إليه فيـما اختلفـنا فيه؟! وهذا كـتابه سيـد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه، وقد أنزله مفصلاً، مبينًا كافيًا شافيًا؟!

وإذا تأملت هـذه الآيات الثلاث حـق التأمل، رأيـتهـا هي نفس الرضـا بالله ربًّـا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً، ورأيت الحديث يترجم عنها، ومشتقًّا منها. فكثير من الناس يرضـى بالله رضا ربًّـا، ولا يبغي ربًّـا سواه، لـكنه لا يرضى به وحـده وليًّـا وناصرًا، بل يوالـي من دونه أولياء ظنًّا منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن مـوالاتهم كموالاة خواص الملك، وهذا عين الشـرك، بل التوحيد أن لا يتخذ من دونـه أولياء، والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله، وعباده المؤمنين فيه، فإن هذا من تمام الإيمان، ومن تمام موالاته، فمـوالاة أوليائه لون، واتخاذ الولي من دونه لون آخر، ومن لـم يفهم الفرق بينهما، فليطلب التوحيد من أساسه، فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه[٢]

**لطيفة:**

**ما الفرق بين الرضا بالله، والرضا عن الله؟**

والرضا بالله أعلى شأنًا، وأرفع قدرًا من الرضا عن الله في أحكـامه وأقضيته، فإنها مختصـة، والرضا عن الله مشترك، فإن الـرضا بالقضاء يصح من المؤمن والكافـر، وغايته التسليم لقضاء الله وقدره، فأين هذا من الرضا به ربًّا وإلهًا ومعبودًا؟

والرضا به فرض، بل هو من آكد الفـروض باتفاق الأمة، فمن لم يرض به ربًّا، لم يصح له إسلام، ولا عمل ولا حال.

وأما الرضا عنه: فهـو رضا العبد بما يفعله به، ويعطيـه إياه، ولهذا لم يجئ إلا في الثواب والجزاء كـقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم جـ٢/ ١٨٢، ١٨٣ ط/ دار الحديث.

(٢) علو الهمة في صلاح الأمة جـ٤/ ٥٠

مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] فهـذا برضاها عنه لما حـصل لها من كرامـته، كقولـه تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨].

والرضا به، أصل الرضا عنه، والرضا عنه ثمرة الرضا به.

وسر المسألة: أنَّ الرضا به متعلق بأسمائه وصفاته، والرضا عنه متعلق بثوابه.

**أهل الرضا وعلو همتهم:**

**١- إبراهيم عليه السلام:**

فعن أبى رجـاء محمد بن سيف قـال: سمعت الحسن يقـول فى قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] قال: ابتلاه بالكواكـب، فرضى عنه، وابتلاه بذبح ابنه، فرضى عنه، وابتلاه بالهجرة، فرضى عنه، وابتلاه بالنار، فرضى عنه، وابتلاه بالختان»[١].

**٢- سعد بن أبى وقاص:**

«لما قدم سعد بـن أبى وقاص إلى مكة، وقد كان كفَّ بصره، جـاءه الناس يهرعون إليه، كل واحد يسأله أن يدعو له، فيدعو لهذا ولهذا، وكان مجاب الدعوة.

قال عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام، فتعرفت عليه فعرفنى، وقال: أنت قارئ أهل قلة؟ قلت: نعم، فذكر قصة قال فى آخرها، فقلت له يا عم، أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك، فـردَّ الله عليك بصرك! فتبسـم وقال: «يا بنىَّ، قضاء الله سبـحانه وتعالى عندى أحسن من بصرى»[٢]

**٣- عمران بن حصين:**

فعن مطـر بن عبد الله قال: «أتـيت عمران بن حـصين رضي الله عنه يومًا، فـقلت له: إنى لأدع إتيانك لما أراك فيـه، ولما أراك تَلْقَى. قال: فلا تفعل، فو الله إنَّ أحبـه إلىَّ أحبه إلى الله[٣] كان رضي الله عنه قد أصيب باستسقاء فى بطنـه، فبقى مدة على ظهره ثلاثين سنة، لا يقوم ولا يقعـد، وقد نقب له سرير من جـريد، ليقضى حاجـته، فدخل عليـه مطرف، وأخوه العلاء، فجعـل يبكى لما يراه من حاله، فقال: لم تبكى؟ قـال: لأنى أراك على هذه الحالة العظيمة، قال: لا تبك، فإن أحبه إلى الله تعـالى، أحبه إلىَّ، ثم قال: أحدثك حديثًا لعل الله أن ينفعك به، واكـتم على حتى أموت، إنَّ الملائكة تزورنى، فآنـس بها، وتسلم علىَّ فأسمع تسلـيمها فَأُعلم بأن ذلك ليـس بعقوبة، فمن يشاهد هـذا فى بلائه، كيف لا يكون راضيًا به؟!»[٤]

(١) انظر الرضا عن الله بإسناد حسن.
(٢) مدارج السالكين جـ٢/ ٢٣٦
(٣) الرضا عن الله ص٩٢، ٩٣
(٤) مدارج السالكين جـ٢/ ٢٣٦ وصفة الصفوة ١/ ٣٠٤.

**٤- أبو العالية:**

قال سيار بن سلامة: دخلت على أبى العالية فى مرضه الذى مات فيه، **فقال: إن أحبه إلىّ أحبه إلى الله عز وجل**[(١)]

**٥- الربيع بن خثيم:**

كان رحمه الله قد أصابه فالج، فسال من فيه ماء فجرى على لحيته، فرفع يده، فلم يستطع أن يمسحه، فقام إليه بكر بن ماعز فمسحه عنه، فلحظه ربيع ثم قال: **والله ما أحب أن هذا الذى بى بأغنى الديلم -أى بأشد الأعداء- على الله**[(٢)]

**٦- مالك بن دينار ومحمد بن واسع:**

قال ابن شوذب: اجتمع مالك بن دينار، ومحمد بن واسع، فتذاكرا العيش، فقال **مالك: ما شيء أفضل من أن يكون للرجل غلَّة يعيش فيها.**

وقال محمد: طوبى لمن وجد غداءه ولم يجد عشاء، **ووجد عشاء ولم يجد غداء، وهو عن الله عز وجل راض. أو قال: والله عنه راض**[(٣)]

**يقول وهب بن منبه رحمه الله:** وجدت فى زبور داود عليه السلام: **يا داود، هل تدرى من أسرع الناس مروراً على الصراط؟ الذين يرضون بحكمى، وألسنتهم رطبة بذكرى**[(٤)]

**ولله در القائل:**

**العبد ذو ضجر، والرب ذو قدر … والدهر ذو دول والرزق مقسوم**

**والخير أجمع فيما اختار خالقنا … وفى اختيار سواه اللَّومُ والشُّوم**

ولما سئل ابن شمعون عن الرضا قال: أن ترضى به -أى الله عز وجل- مدبرا ومختارا، وترضى عنه قاسمًا ومعطيًا ومانعًا، وترضاه إلها ومعبودًا وربًّا.

ولقد أطال الإمام ابن القيم فى ذكر درجات الرضا، وذكر واحدًا وستين وجهًا لاستواء النعمة والبلية فى الرضا بهم فارجع إليها فى كتابه العظيم مدارج السالكين جـ٢/ ٢١٤ - ٢٣٣

**اللهم إنا نسألك كلمة الحق فى الرضا والغضب، والقصد فى الفقر والغنى، ونسألك نعيمًا لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، ونسألك الرضا بعد القضاء، ونسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم يا رب العالمين.**

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ١١٢

(٢) المرجع السابق ٣/ ٣٢.

(٣) حلية الأولياء والرضا عن الله لابن أبى الدنيا ص٥٢، ٥٣ وقال محققه الشيخ مجدى صحيح.

(٤) المرجع السابق ص٧٣ بإسناد حسن.

# الوصية رقم (٨٠)
## اقرءوا القرآن

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**اقرءُوا القرآن، فإنكم تؤجرون عليه، أما إنى لا أقول: (ألم) حرف، ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر، فتلك ثلاثون**»[١]

**صدق رسول الله ﷺ**

فى هذه الوصية المباركة يوصينا رسول القرآن ﷺ أن نداوم على قراءة هذا الدستور الإلهى الحكيم، وليست هذه الوصية فقط وإنما هناك وصايا كثيرة للرسول الأعظم فى تعلم القرآن، وملازمة قراءته، فيقول ﷺ: «**اقرءُوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعًا لأهله**»[٢]

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من قرأ فى ليلة مائة آية كتب من القانتين**»[٣] وفى رواية أخرى: «**تعلموا القرآن واقرءوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمهُ، فقرأه كمثل جراب محشو مسكًا يفوح ريحه فى كل مكان، ومن تعلمه فيرقد، وهو فى جوفه فمثله كمثل جراب أوكئ على مسك**»[٤] وقد وعد الله تبارك وتعالى الذين يتلون القرآن آناء الليل، وآناء النهار أن يوفيهم أجورهم يوم لقاء الله تبارك وتعالى، فقال جل شأنه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ**﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

بل قد جعل رسول الإسلام ﷺ أهل القرآن فى أعلى المراتب، جعلهم من أهل الله وخاصته، فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ لله تعالى أهلين من الناس**» قالوا: من هم يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**أهل القرآن، هم أهل الله وخاصته**»[٥]

وقد شبه النبى ﷺ قارئ القرآن بالأترجة، فقال ﷺ «**مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب، وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها، وطعمها حلو، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب، وطعمها مر، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر**»[٦]

---

(١) رواه الخطيب وصححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم ١١٦٤

(٢) رواه مسلم وأحمد فى مسنده وذكره الألبانى فى ص.ج برقم (١١٦٥).

(٣) رواه ابن خزيمة فى صحيحه (١١٤٢) ورواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما.

(٤) رواه الترمذى وحسنه وهو فى المشكاة برقم ٢١٤٣

(٥) رواه أحمد فى مسنده وابن ماجه وصححه الألبانى فى ص.ج.

(٦) رواه البخارى ومسلم وأحمد وغيرهم.

وبين ﷺ ثواب قارئ القرآن فقال: **«من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: (ألم) حرف ولكن ألف حرف، ولام حرف وميم حرف»**[(١)]

وبين ثواب من علم ولو آية من آيات القرآن، فقال: **«من علم آية من كتاب الله عز وجل، كان له ثوابها ما تليت»**[(٢)] وينبغى لأهل القرآن أن يكونوا قدوة حسنة.

**أهل القرآن أئمة بهم اهتدى ... أهل السلوك إلى رضا الجبار**
**لكن عليهم أن يقوموا بالذى ... فيه من المشروع للأبرار**
**صدق وإخلاص وحسن عبادة ... وقيام ليل مع صيام نهار**
**وتورع وتزهد وتعفف ... وتشبه بخلائق الأخيار**
**وديانة وصيانة وأمانة ... وتجنب لخلائق الأشرار**
**وأداء فرض واجتناب محارم ... وإدامة الأوراد والأذكار**
**يا حامل القرآن إن تك هكذا ... فلك الهنا بفوز عقبى الدار**
**ومتى أضعت حدوده لم تنتفع ... بحروفه وسكنت دار البوار**

وقد بين رسول القرآن ﷺ أن رب العزة جل وعلا يكرم صنفين من الناس ومنهم حملة القرآن العاملون بهديه، السائرون على نهجه، فقال: **«إنَّ من إجلال الله تعالى إكرام ذى الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالى فيه، والجافى عنه، وإكرام ذى السلطان المقسط»**[(٣)]

وقد بين السلف الصالح رضوان الله عليهم فضل وعظمة القرآن الكريم فهذا هو حبر الأمة **«عبد الله بن عباس»** رضي الله عنهما يقول: ضمن الله لمن قرأ القرآن، واتبع ما فيه، هداه الله من الضلالة، ووقاه سوء الحساب، ذلك بأن الله يقول: ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ...**﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

ومن كلام **الفضيل بن عياض** -رحمه الله-: «كفى **بالله** محبًا، **وبالقرآن مؤنسًا**، وبالموت واعظًا، اتخذ الله صاحبًا، ودع الناس جانبًا، وقال: من لم يستأنس **بالقرآن فلا** آنس **الله** وحشته»[(٤)]

---

(١) رواه الترمذى والحاكم والبخارى فى التاريخ عن ابن مسعود وصححه الألبانى.
(٢) ذكره الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٣٣٥).
(٣) رواه أبو داود وحسنه الألبانى برقم (٤٨٤٣) وذكره فى ص.ج برقم ٢١٩٥.
(٤) استنشاق نسيم الأنس لابن رجب ص٥٠

ويقول أبو لبابة الأسدى -رحمه الله-: «إذا ختم الرجل القرآن بنهار صلت عليه الملائكة حتى يمسى، وإن فرغ منه ليلاً صلت عليه الملائكة حتى يصبح»(١).

فرحم الله هؤلاء القوم الذين كان القرآن الكريم يملأ قلوبهم، وأفئدتهم، لأن مولاهم أنزله نورًا لا تطفأ مصابيحه، فاستضاءوا به، وسراجًا لا يخبو توقده، وبحرًا لا يدرك قعره، فغاصوا طلبًا للآلئه، ومنهاجًا لا يُضل نهجه، فتركوا لأجله بنيات الطريق، وشعاعًا لا يظلم ضوؤه، وفرقانًا لا يخمد برهانه، وتبيانًا لا تهدم أركانه، وشفاء لا تخشى أسقامه، فجعلوه دواء أمراضهم، وعزًا لا تهزم أنصاره فثبَّت عزمهم به، وحقًا لا تخذله أعوانه، فهو معدن الإيمان لهم وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، فشربوا من نهله. لقد جلعه الله مناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون، جعله الله ريًا لعطش العلماء، وربيعًا لقلوب الفقهاء، ودواء ليس بعده داء، ونورًا ليس معه ظلمة، وحبلاً وثيقًا عروته، ومعقلاً منيعًا ذروته، وعزًا لمن تولاه، وسلمًا لمن دخله، وهدى لمن ائتم به، وعذرًا لمن انتحله، وبرهانًا لمن تكلم به، وشاهدًا لمن خاصم به، وحاملاً لمن حمله، ومطية لمن أعمله، وآية لمن توسم، وعلمًا لمن وعى، وحديثًا لمن روى، وحكمًا لمن قضى»(٢)

كان القرآن الكريم فى حياة السلف الصالح روحهم، وريحانهم، ونزهتهم وبستانهم لقد كانوا يتلونه بشفاه ذابلة، ودموع وابلة، وزفرات قاتلة، وأجسام ناحلة، وخواطر فى عظمته جائلة.

لله قوم شروا لله أنفسهم ... فأتبعوها بزجر الله أزمانًا
أما النهار فقد وافوا صيامهم ... وفى الظلام تراهم فيه رهبانًا
أبدانهم أتعبت فى الله أنفسهم ... وأنفس أتعبت فى الله أبدانًا
ذابت لحومهم خوف الحساب غدا ... وقطعوا الليل تسبيحًا وقرآنًا(٣)

قال الله تعالى عن القرآن، وأثره على قلوبهم الصافية: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤] والله ما حرك أشجان المتهجدين، وهيج بلابل أحزانهم سوى سماع القرآن فى الليل وكيف لا يدمنون تلاوة القرآن والقيام، وهم يسمعون قول النبى ﷺ ودعاءه لصحابى متهجد.

فعن عائشة ﵂ قالت: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ فى سورة بالليل، فقال: «يرحمه الله لقد أذكرنى آية كذا وكذا كنت أُنسيتها من سورة كذا وكذا»(٤)

(١) صفة الصفوة ٣/ ٥٤.
(٢) نهج البلاغة.
(٣) بستان الواعظين لابن الجوزى ص٢٩٩ ط/ دار المنار.
(٤) رواه البخارى باب نسيان القرآن.

أما علم أهل التهجد بشغف رسول الله ﷺ وأمهات المؤمنين رضي الله عنهن بسماع القرآن من أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه، لقد قال له: «**لو رأيتنى وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود**»[١] فقال أبو موسى: «والله يا رسول الله، لو علمت بمكانك لحبرته لك تحبيرًا»

إنَّ أحسن الناس صوتًا من يجعلك تخشع، ويلين قلبك، وينشرح صدرك، فقد ورد أن رسولنا ﷺ سئل: أى الناس أحسن صوتًا بالقرآن؟ وأحسن قراءة؟ قال: «**من إذا سمعته يقرأ حسبت أنه يخشى الله**»[٢]

فيرحم الله سلفنا الصالح، لقد كانوا يقرءون القرآن على أنه رسائل من ربهم، لذلك قدروه حق قدره، أما نحن فقرؤه وقلوبنا غافلة، وأفئدتنا لاهية.

قال **أبو سليمان الدارانى** -رحمه الله-: «ربما أقمت فى الآية الواحدة خمس ليالٍ، ولولا أنى أدع الفكر فيها ما جزتها أبدًا، ولربما جاءت الآية من القرآن تطير العقل، فسبحان الذى رده إليهم»[٣]

وقيل لرجل: لم لا تنام؟ قال: إنَّ عجائب القرآن قد أطارت نومى.

لقد كان ينزل على قلوبهم فيزلزلهم، أما قرأت قوله تعالى: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**﴾ [الحشر: ٢١].

فها هو فاروق هذه الأمة **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه يقول عنه الحسن: كان عمر يمر بالآية من ورده بالليل، فيبكى حتى يسقط، ويبقى فى البيت حتى يعاد للمرض[٤]

وسمع رضي الله عنه رجلاً يتهجد بالليل، وقد قرأ سورة: «والطور» حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ**﴾ [الطور: ٧، ٨] قال عمر: قسمٌ ورب الكعبة حق، ثم رجع إلى منزله، فمرض شهرًا يعوده الناس، لا يدرون ما مرضه؟!![٥].

وها هو على بن الفضيل بن عياض -رحمه الله- يموت من سماع قراءة هذه الآية: ﴿**وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ**﴾ [الأنعام: ٣٠] واشتكى داود الطائى أيامًا، وكان سبب علته أنه مرَّ بآية فيها ذكر النار، فكررها مرارًا فى ليلته، فأصبح مريضًا فوجدوه قد مات، ورأسهُ على لبنة[٦]

وكان **الفضيل بن عياض** -رحمه الله- يقرأ بقراءة حزينة شهية بطيئة مترسلة، كأنه يخاطب إنسانًا، وكان إذا مرَّ بآية فيها ذكر الجنة يرددها.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) صححه الألبانى فى تخريج المشكاة برقم ٢٢٠٨
(٣) صفة الصفوة ٤/ ١٦١
(٤) مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزى.
(٥) التخويف من النار لابن رجب ص٢٩
(٦) صفة الصفوة ٣/ ٦٩

وسمع قارئًا ذات ليلة يقرأ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] ورفع بها صوته، فنظر أحد أصحابه إليه فوجده يبكى حتى ابتلت لحيته بالدموع[1]

لقد حير القرآن عقولهم، وبين طريقهم يقول **أحمد بن أبى الحوارى**: «إنى لأقرأ القرآن فأنظر فيه آية آية، فيحار عقلى فيها، فأعجب من حفاظ القرآن كيف يهنيهم النوم، ويسعهم أن يشتغلوا بشىء من الدنيا، وهم يتلون كلام الرحمن؟! أما لو فهموا ما يتلون، وعرفوا حقه، وتلذذوا به، واستحلوا المناجاة به، لذهب عنهم النوم فرحًا بما رزقوا»[2]

وهذا «**منصور بن المعتمر**» -رحمه الله- كان يقسم الليل ثلاثة: ثلث يقرأ فيه القرآن، وثلث يبكى، ويلث يدعو ربه[3]

فرحم الله القوم، لقد كان القرآن مرآة قلوبهم، ينظرون فيها إلى ما يحبون ورحم الله «شميط بن عجلان» حين قال: «إنَّ المؤمن اتخذ كتاب الله عز وجل مرآة، فمرة ينظر إلى ما نعت الله عز وجل به المؤمن، ومرة ينظر إلى ما نعت الله عز وجل به المغترين، ومرة ينظر إلى الجنة، وما وعد الله عز وجل، ومرة ينظر إلى النار، وما أعد الله عز وجل فيها، تلقاه حزينًا كالسهم المرمى به شوقًا إلى ما شوقه الله عز وجل، وهربا مما خوفه الله عز وجل فيه»[4]

## أخى الحبيب:

إذا ما تأملت أحوال السلف الصالح وعلمت حالهم مع كلام ربهم، فلماذا تهجر القرآن؟ أما آن لك أن تعود إليه؟ أما آن لك أن تتدبر آياته؟ أما آن لك أن تتفهمه وتعمل به؟ احذر أن تهجر كلام الرحمن حتى لا تندم يوم لا ينفع الندم، يوم أن تندم، وتعض على يديك وتقول: يا ليتنى اتخذت مع القرآن سبيلاً، يا ليتنى اتخذت القرآن إمامًا وقائدًا!.

**يقول ابن القيم:**

هجر القرآن أنواع: **أحدها**: هجر سماعه، والإيمان به، والإصغاء إليه.

**والثانى**: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإنْ قرأه وآمن به.

**والثالث**: هجر تحكيمه، والتحاكم إليه فى أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

**والرابع**: هجر تدبره، وتفهمه، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

**والخامس**: هجر الاستشفاء والتداوى به فى جميع أمراض القلوب، وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوى به. وكل هذا داخل فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ

---

(١) المرجع السابق ٢/ ١٤٢ (٢) صفة الصفوة ٤/ ١٦٦
(٣) المرجع السابق ٣/ ٥٥. (٤) المرجع السابق ٣/ ٣ ٢

﴿الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] وإنْ كان بعض الهجر أهون من بعض(١)

أفق أخي الحبيب، وانتهز الفرصة قبل فواتها، واغتنم حياتك قبل موتك، وصحتك قبل مرضك، واقرأ آيات القرآن.

أيها المغتر بطول صحته، أما رأيت ميتًا قط من غير سقم؟!.

أيها المغتر بطول المهلة، أما رأيت مأخوذًا قط من غير عدة؟!.

أبالصحة تغترون؟ أم بطول العافية تمرحون؟ أم من الموت تأمنون؟.

أم على الموت تجترئون؟ أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب شديد، وغصص وندامة على التفريط؟.

فرحم الله عبدًا عمل لساعة الموت، رحم الله عبدًا عمل لما بعد الموت، رحم الله عبدًا نظر لنفسه قبل نزول الموت.

اللهم اجعل أحب ساعات الدنيا إلينا ساعات ذكرك وعبادتك.

اللهم يا ذا الجلال والإكرام، والعزة التى لا ترام، يا بديع السموات والأرض، يا من بيده القبض والبسط، نسألك أن تتوب علينا وعلى العاصين، وأن تجعلنا من عبادك المتقين، وأن تجنبنا أفعال الفاسقين، واختم لنا بخير يا رب العالمين.

## الوصية رقم (٨١)
## بادروا بالأعمال الصالحة فتنًا

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا، ويُمْسى كافرًا، أو يُمْسى مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**»(٢)

**صدق رسول الله ﷺ**

إن هذه الوصية البليغة ابتدأت بلفظ «بادروا» ومعناه سابقوا إلى الأعمال الصالحة باغتنام الفرصة السانحة فى طلبها، وتتبع مواطنها.

وقد يُفيد لفظ بادروا على المنافسة والمسارعة وكلها مطلوبة فى الأعمال الصالحة.

**قال الإمام النووى:**

**معنى الوصية:** الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها، والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر. ووصف

(١) الفوائد لابن القيم ص٩٤

(٢) رواه مسلم (١١٨) والترمذى (٢١٩٦) وأحمد فى مسنده (٨٨٣٤).

ﷺ نوعًا من شدائد تلك الفتن، وهو أنه يمسى مؤمنًا ثم يصبح كافرًا أو عكسه. شك الراوى وهذا لعظم الفتن، ينقلب الإنسان هذا الانقلاب. وتلك الفتن قد ذكرها النبى ﷺ فى وصية أخرى مفصلة فقال: **«بادروا بالأعمال ستًا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم، أو أمر العامة»**(١) وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل ذلك على شفقة النبى ﷺ ورحمته بأمته، وخوفه عليها من عذاب الدنيا والآخرة قال سبحانه: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨] كما تدل الوصية المباركة على أنه يجب على المسلم أن يعد عدته من الصالحات، والإعراض عما يسوؤه من السيئات قبل هذه الأمور الستة حتى ولو علم أو ظن أنه لا يدركها، فلقد كان النبى ﷺ يعلم تمام العلم أن هذه الأمور لا تدرك زمن أصحابه، وأن بينهم وبين تلك الأمارات زمنًا لا يدركونه، وقد لا يدركه من بعدهم من أبنائهم، ولا أبناء أبنائهم، لكنه أراد أن يعلم الأمة كلها هذه الأمارات، وتلك الفتن حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ومع ذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم يخافون، ويخشون أن تقع الساعة، أو شىء من تلك الأمارات، لأنهم يعلمون أن ذلك راجع لمشيئته وإرادته وحده سبحانه. قال سبحانه: ﴿**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا**﴾ [الأحزاب: ٦٣].

ولذلك لما سأل الصحابة رسول الله ﷺ: متى تقوم الساعة؟ وكان عند الرسول ﷺ غلام من الأنصار، يقال له محمد، فقال ﷺ: **«إنْ يعش هذا الغلام، فعسى أن لا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة»**(٢)

وقال: **«تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة** -أى الناقة- **فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم والرجلان يتبايعان الثوب، فما يتبايعانه حتى تقوم، والرجل يلط فى حوضه** -أى يصلحه- **فما يصدر حتى تقوم»**(٣).

فماذا عن تلك الفتن؟ وما الذى ينجى منها؟ إنها فتن حذرنا منها النبى ﷺ، وبين لنا أنها تختلف بعضها عن بعض.

فعن حذيفة قال: كنا عند عمر، فقال: أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ فى الفتن كما قال؟ قال حذيفة: فقلت: أنا. قال: إنك لجرىء، وكيف قال؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«فتنة الرجل فى أهله وماله ونفسه وولده وجاره، يكفرها الصيام والصلاة، والصدقة، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر»** نعم الأموال والأهل فتنة، وهذا بنص القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ [التغابن: ١٤، ١٥].

---

(١) رواه مسلم. (٢) رواه مسلم (٢٩٥٣) فى الفتن. (٣) رواه مسلم (٢٩٥٤).

وقد حرم سبحانه وتعالى التشاغل بالمال والولد فى ترك الأعمال الصالحة التى تعود عليه بالخير فى آخرته قبل أن يأتيه الموت، فيندم ويتحسر، ويتمنى أن لو أخر الله أجله ليعمل الطاعات، وليبادر إلى الصالحات، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩] هم الخاسرون يوم القيامة بحرمانهم من الجنة ونعيمها، وحلولهم فى دار العذاب حيث لا أهل ولا مال، ولا ولد، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥] فسارع بعمل الطيبات، وأداء الواجبات، وفعل المندوبات التى تعود عليك بالخيرات قبل أن تقول: ﴿رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠] لكن ساعة أن ينزل عليك ملك الموت، لم يبق مجال للطلب ولا للتمنى ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١] والفتن غير أولئك كثير.

فقد روى عن بعض السلف: «المؤمن بين خمس شدائد: مؤمن يحسده، ومنافق يبغضه، وعدو يقاتله، وشيطان يضله، ونفس تغويه» وصدق القائل:

**إنى ابتليت بأربع ما سلطوا ... إلا لشدة شقوتى وعنائى**
**إبليس والدنيا ونفسى والهوى ... كيف الخلاص وكلهن أعدائى**

**فأولها:** إبليس اللعين الذى صمم على فتنتنا وإغوائنا عندما طرد من رحمة الله جل وعلا فقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧] فإياك أن يفتنك كما فتن أبويك من قبل، إياك أن يفتنك عن طاعة الله جل وعلا فبئس البدل؛ طاعة الشيطان على طاعة الرحمن، قال سبحانه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠].

وقد ذكر عن وهب بن منبه -رحمه الله- أنه قال: إنَّ إبليس لقى يحيى بن زكريا عليهما السلام، فقال له يحيى عليه السلام: أخبرنى عن طبائع بنى آدم عندكم، فقال إبليس: أما صنف منهم مثلك معصومون، لا نقدر منهم على شيء، وأما الصنف الثانى، فهم فى أيدينا كالكرة فى أيدى صبيانكم، وقد كفونا أنفسهم، فأما الصنف الثالث، فهم أشد الأصناف علينا، فنقبل على أحدهم حتى ندرك منه حاجتنا، ثم يفزع إلى الاستغفار، فيفسد به علينا ما أدركنا منه، فلا نحن نيأس منه، ولا نحن ندرك حاجتنا منه[١]

**وأما الأمر الثانى:** فهو الدنيا، تلك التى تحذرنا كل ساعة من نفسها، لكن دون أن نسمع دون أن نعتبر، دون أن نتعظ.

---

(١) رواه ابن الدنيا فى مكائد الشيطان ٥٢ وهو أثر حسن

**هى الدنيا تقول بملء فيها ... حذارى حذارى من بطشى وفتكى**
**فلا يغررك منى ابتسام ... فقولى مضحك والفعل مبكى**

ولذلك يحدثنا عنها عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول: «ما سكنت الدنيا فى قلب عبد إلا وأُليط قلبه منها بثلاث: شغل لا ينفك عناؤه، وفقر لا يدرك غناه، وأمل لا يدرك منتهاه.

الدنيا طالبة ومطلوبة، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجىء الموت فيأخذه»(١)

إنها توسوس لصاحبها حب الأموال، وحب الشهوات، تقول له، كما قال الشاعر:

**إن الدراهم فى الأماكن كلها ... تكسو الرجال مهابة وجلالا**
**فهى اللسان لمن أراد فصاحة ... وهى السلاح لمن أراد قتالاً**

**وأما الأمر الثالث:** النفس، وهى دائمًا تحرص على كل ممنوع.

**يقول ابن الجوزى:** تأملت حرص النفس على ما منعت منه، فرأيت حرصها يزيد على قدر قوة المنع، ورأيت فى السرب الأول أن آدم عليه السلام لما نهى عن الشجرة حرص عليها مع كثرة الأشجار المغنية عنها، وفى الأمثال: المرء حريص على ما منع، وتوّاق إلى ما لم ينل، ويقال: لو أمر الناس بالجوع لصبروا، ولو نهوا عن تفتيت البعر لرغبوا فيه، وقالوا: ما نهينا عنه إلا لشىء(٢)

**فاقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان**

واعلم أن النفس إن كانت عاصية، فداوها برفق لئلا تمل، ولذلك يقول ابن الجوزى أيضًا: تأملت جهاد النفس، فرأيته أعظم الجهاد، ورأيت خلقًا من العلماء والزهاد لا يفهمون معناه، لأن فيهم من منعها حظوظها على الإطلاق وذلك غلط من وجهين: **أحدهما:** أنهُ ربَّ مانع لها شهوة أعطاها بالمنع أوفى منها، مثل أن يمنعها مباحًا فيشتهر بمنعه إياها ذلك فترضى النفس بالمنع، لأنها قد استبدلت به المدح.

**والثانى:** أننا قد كلفنا حفظها، ومن أسباب حفظها ميلها إلى الأشياء التى تقيمها، وأكثر ذلك أو كله ما تشتهيه، ونحن كالوكلاء فى حفظها، لأنها ليست لنا، ولكنها وديعة عندنا. فمنعها حقوقها على الإطلاق خطر، ثم رب شد أوجب استرخاء، ورب مضيق على نفسه فرت منه، فصعب عليه تلاقيها، وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل، يحملها على مكروهها فى تناول ما ترجو به العافية.

**وأما الفِتنة الرابعة،** والبلاء الأخير هو الهوى، وقد بين جل شأنه أن مثل من اتبع هواه كمثل الكلب وهو أحقر الحيوانات وأخبثها نجاسة، إن تحمل عليه يلهث، وإن تركته

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى ذم الدنيا (٣٥). (٢) صيد الخاطر ص٣٨ لابن الجوزى.

دون حمل فإنه يلهث، قال سبحانه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٤، ١٧٥](١)

وقد روى أن هذا النص أريد به أمية بن أبى الصلت، فإنه كان قد وصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة، ولكنه لم ينتفع به، فقد أدرك زمان النبى ﷺ، وبلغته آياته ومعجزاته، وظهرت لكل من له بصيرة، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه، وسار إلى موالاة المشركين، وامتدحهم، وقد جاء عنه فى بعض الأحاديث كما يذكر ابن كثير: **«إنه ممن آمن لسانه، ولم يؤمن قلبه»** فإن له أشعارًا فيها حكمة وفصاحة، ولكن الله لم يشرح صدره للإسلام.

وهناك عوائق أخرى ذكرها النبى ﷺ كما روى الترمذى وقال: حسن غريب فى الحديث الذى رواه عنه أبو هريرة ؓ حيث قال: **«بادروا بالأعمال الصالحة سبعًا: هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا، أو غنى مطغيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مفندًا، أو موتًا مجهزًا، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة، فالساعة أدهى وأمر»**(٢)

**فالعائق الأول** هو الفقر الشديد الذى ينسى معه الإنسان حقوقه وحقوق الآخرين، بل ويجعله ينسى كثيرًا من المبادئ الاجتماعية، والقيم الخلقية النبيلة، ورحم الله الشاعر حين قال:

**يمشى الفقير وكل شيء ضده ... ويرى العداوة لا يرى أسبابها**
**وتراه ممقوتًا وليس بمذنب ... والناس تغلق دونه أبوابها**
**حتى الكلاب إذا رأت ذا ثروة ... خضعت إليه وحركت أذنابها**
**.وإذا رأيت يومًا فقيرًا ماشيًا ... نبحت عليه وكشرت أنيابها**

**والثانى**: هو الغنى الذى يطغى صاحبه، وذلك مثل قارون الذى طغى بماله وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨] فكانت نتيجةُ غناه أن خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

**العائق الثالث**: هو المرض، وهو ابتلاء من الله سبحانه وتعالى، ولذا أوصانا النبى ﷺ بالعمل الصالح قبل أن تحل بساحتك الأمراض، كما فى حديث آخر: **«اغتنم خمسًا قبل خمس**: ومنها **صحتك قبل مرضك»**.

---

(١) صيد الخاطر ص٦٣

(٢) رواه الترمذى وقال حسن غريب وضعفه الألبانى فى ص.ج

**والرابع**: الهرم المفند، وهو بلوغ الكبر عتيًا، بحيث يجعلك ذلك غير مستطيع للقيام بأداء العبادات.

فالمسلم العاقل هو الذى يغتنم شبابه وقوته فى الطاعات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ورحم الله القائل:

**دقات قلب المرء قائلة له: إن الحياة دقائق وثوانى**
**فارفع لذكرك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثانى**

**والعائق الخامس**: الموت المفاجئ، وقد كثر فى عصرنا هذا، وموت الفجاءة من علامات اقتراب الساعة، والعاقل من يتعظ ويعتبر بمن سبقه، ويفكر فى هذا الأمر، فمن أراد مؤنسًا فالله يكفيه، ومن أراد الغنى فالقناعة تكفيه، ومن أراد واعظًا فالموت يكفيه، ومن لم يكفه شىء من ذلك، فإن النار تكفيه.

**والسادس**: وهو المسيخ الدجال، فهذا شر غائب ينتظر، فهو فتنة للناس، وعلامة من علامات الساعة الكبرى، وقد أمرنا النبى ﷺ أن نستعيذ بالله من شره فى كل وقت، وفى كل صلاة من الصلوات.

**والسابع**: وهو الساعة، تلك العقبة الكؤود، التى ينادى فيها من قبل الله تعالى ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

نسأل الله رب العرش العظيم أن يجعلنا من فريق الجنة، وأن يبعدنا عن فريق السعير إنه ولى ذلك والقادر عليه، اللهم نسألك أن تجعلنا من عبادك الصالحين.

**فإلى الله تب قبل انقضاء من العمر أُخَىَّ ولا تأمن مفاجأة الأمر**
**ولا تستصمن عن دعائى فإنما دعوتك إشفاقًا عليك من الوزر**
**وقد حذرتك الحادثات نزولها وناديتك إلا أنَّ سمعك ذو وقر**
**تنوح وتبكى للأحبة إن مضوا ونفسك لا تبكى وأنت على الإثر**

ولا تكن أخى الحبيب ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويؤخر التوبة لطول الأمل أين صديقك المؤانس؟ وأين رفيقك المجالس؟ أين الهمم المجدة؟ بل أين النفوس المستعدة؟ أين المتأهب قبل الشدة؟ أين المتيقظ قبل انقضاء المدة؟ فالإنابة الإنابة قبل غلق باب الإجابة، والإفاقة الإفاقة، فقد قرب وقت الفاقة.

اللهم اعف عن تقصيرنا فى طاعتك ويسر لنا ما يسرته لأهل محبتك، واغفر لنا يا رب العالمين.

## الوصية رقم (٨٢)
## أخلص دينك

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال حين بعث إلى اليمن: يا رسول الله، أوصنى، فقال ﷺ: «**أخلص دينك يكفك العمل القليل**»(١)

**صدق رسول الله ﷺ**

الإخلاص لما كان سرًا بين العبد وبين ربه، وهو الذى لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده، أوصى رسول الله ﷺ به الأمة كلها فى شخص صاحبه الجليل، معاذ بن جبل رضي الله عنه.

فمن وجد الله فماذا فقد !! ومن فقد الله فماذا وجد!!.

**متى صح منك الود فالكل هين وكل ما فوق التراب تراب**

الإخلاص مسك القلب، وماء حياته، ومدار الفلاح كله عليه، قال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾ [البينة: ٥].

وقال سبحانه: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١٤٦] وقال سبحانه: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

وآيات الإخلاص كثيرة لو تتبعناها.

لكن ماذا قالت السنة المطهرة عن الإخلاص؟.

لقد بين لنا سيد المرسلين ﷺ أن الأمة المحمدية تحفظ وتنصر بإخلاص رجالها، فقال: «**إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم، وصلاتهم وإخلاصهم**»(٢)

وقد بشر المخلصين بالسناء والرفعة والتمكين فى الأرض، فقال: «**بشر هذه الأمة بالسناء والدين، والرفعة والتمكين فى الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له فى الآخرة من نصيب**»(٣)

---

(١) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، وذكره المنذرى فى الترغيب ١/ ٥٤.

(٢) رواه النسائى وغيره بإسناد صحيح

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٢١١١٩) بإسناد صحيح ١٥/ ٤٥٢ ورواه الحاكم وصححه ٤/ ٣١١ ووافقه الذهبى وقال الهيثمى ١/ ٢٢ رجاله رجال الصحيح.

وقد وضح نبي الإخلاص ﷺ أن حفظ القلب من الخيانة والحقد إنما يكون بالإخلاص فقال: «**نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها، فرب حامل فقه ليس بفقيه، ثلاثٌ لا يغلُّ عليهن قلب امرئ مؤمن: إخلاص العمل لله، والمناصحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعاءهم يحيط من ورائهم**»(١)

والإخلاص فى الدين، والعمل سبب من أسباب غفران الذنوب، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلين اختصما إلى النبى ﷺ، فسأل النبى ﷺ المدَّعى البينة -أى الشهود- فلم يكن له بينة، فاستحلف المطلوب، فحلف بالله الذى لا إله إلا هو، فقال رسول الله ﷺ: «**إنك قد فعلت، ولكن غفر لك بإخلاصك قول: لا إله إلا الله**»(٢)

والإخلاص من أقوى الأسباب التى تجعل الأعمال مقبولة عند مقلب القلوب، وغافر الذنوب، فعن أبى أمامة رضي الله عنه جاء رجل إلى النبى ﷺ، فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ماله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا شيء له**» ثم قال: «**إنَّ الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغى به وجه الله**»(٣)

ولذلك **قال ابن القيم** -رحمه الله-: «العمل بغير إخلاص، ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملاً ينقله ولا ينفعه».

قيل لحمدون بن أحمد: «ما بال كلام السلف، أنفع من كلامنا؟. قال: لأنهم تكلموا لعزِّ الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعزِّ النفوس، وطلب الدنيا، ورضا الخلق».

ورحم الله إبراهيم بن أدهم حين قال عن العلماء المخلصين: «كان العلماء إذا علموا عملوا، فإذا عملوا شغلوا، فإذا شغلوا فقدوا، فإن فقدوا طلبوا، فإن طلبوا هربوا».

**وقال سهل بن عبد الله التسترى رحمه الله:**

نظر الأكياس فى تفسير الإخلاص، فلم يجدوا غير هذا: أن تكون حركته وسكونه فى سره وعلانيته لله تعالى، لا يمازجه شيء، لا نفس، ولا هوى، ولا دنيا.

ولقد اتسم السلف الصالح رضوان الله عليهم بالإخلاص فى جميع عباداتهم فى صلاتهم، فى زكاتهم، فى حجهم، فى جميع أعمالهم.

**١- الإخلاص فى الصلاة:**

لأن قدوتهم أوصاهم بذلك فقال ﷺ: «**ما من أحد يتوضأ، فيحسن الوضوء، ثم يقوم فيركع ركعتين يُقبل عليهما بقلبه ووجهه، وجبت له الجنة، وغفر له**»(٤)

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١٦٦٨٣) بإسناد صحيح.

(٢) رواه أحمد (٢٢٨٠) صحيح. (٣) رواه النسائى وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة.

(٤) صححه الألبانى فى ص.ج برقم (٥٦٧٨).

وأوصاهم بأن يقولوا كلمة التوحيد بقلب خالص، فقال: «**ما قال عبد: لا إله إلا الله مخلصًا إلا فتحت له أبواب السماء، حتى تفضى إلى العرش، ما اجتنبت الكبائر**»[١].

وأوصانا أن نخلص الدعاء إذا دعونا للميت، وصلينا عليه، فقال لهم: «**إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء**»[٢]

وقد علموا أن العمل المقبول عند الله تعالى هو ما كان خالصًا لوجهه الكريم، فقد قال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى: ﴿**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ [الملك: ٢].

هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا على، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص، أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، ثم تلا قوله تعالى: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [الكهف: ١١٠] فهذا هو الربيع بن خثيم تلميذ الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود، الذى قال عن الربيع: يا أبا يزيد، لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك، وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين، وكان إذا دخل على ابن مسعود لم يكن عليه إذن لأحد، حتى يفرغ كل واحد من صاحبه[٣].

وما رئى الربيع متطوعًا فى مسجد قومه قط إلا مرة واحدة.

وعامر بن قيس ما رُئى متطوعًا فى المسجد قط[٤]

وهذا هو «**عبد الله بن المبارك**» -رحمه الله-: الذى قال عنه الحسن بن شقيق: لم أر أحدًا من الناس أقرأ من ابن المبارك، ولا أحسن قراءة، وأكثر صلاة منه، كان يصلى الليل كله فى السفر وغيره.

ويقول عنه محمد بن أعين -وكان صاحبه فى أسفاره- كان ذات ليلة، ونحن فى غزاة الروم ذهب ليضع رأسه، ليرينى أنه ينام، فقلت: أنا برمحى فى يدى قبضت عليه، ووضعت رأسى على الرمح كأنى أنام كذلك، قال: فظن أنى قد نمت، فقام فأخذ فى صلاته، فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر، وأنا أرمقه، فلما طلع الفجر، أيقظنى وظن أنى نائم، وقال: يا محمد، فقلت: إنى لم أنم، قال: فلما سمعها منى ما رأيته بعد ذلك يكلمنى، لا ينبسط إلىَّ فى شىء من غزاته كلها، كأنه لم يعجبه ذلك منى، فلم أزل أعرفها فيه حتى مات، ولم أر رجلاً أسرَّ بالخير منه[٥].

وهذا «**مسعر بن كدام**» رحمه الله يقول عنه ابنه محمد: كان أبى لا ينام حتى يقرأ نصف القرآن، فإذا فرغ من ورده لف ردائه ثم هجع عليه هجعة خفيفة، ثم يثب كما يثب

---

(١) المرجع السابق (٥٥٢٤).

(٢) صحيح سنن أبى داود للألبانى (٢٧٤٠).

(٣) حلية الأولياء ٢/ ١٠٦

(٤) حلية الأولياء ٢/ ١٠٦.

(٥) الجرح والتعديل ١/ ٢٦٦، ٢٦٧

الرجل الذى فقد منه شيء فهو يطلبه، وإنما هو السواك والطهور، ثم يستقبل المحراب فكذلك إلى الفجر، وكان يجتهد على إخفاء ذلك جداً[١]

وهذا هو «**حسان بن أبى سنان**» تقول عنه زوجته: كان يجيء فيدخل فى فراشى، ثم يخادعنى كما تخادع المرأة صبيَّها، فإذا علم أنى نمت سلَّ نفسه، فخرج، ثم يقوم فيصلى، فقالت: قلت له: يا أبا عبد الله، كم تعذب نفسك، ارفق بنفسك، فقال: اسكتى، ويحك، فيوشك أن أرقد رقدة لا أقوم منها زماناً[٢]

**٢- الإخلاص فى الصوم:**

كان السلف الصالح يخفون صومهم بعداً عن الرياء، فهذا هو «**داود بن أبى هند**» لقد صام أربعين سنة لا يعلم به أهله ولا أحد، وكان خزَّازاً، يحمل معه غداءه من عندهم، فيتصدق به فى الطريق، ويرجع عشياً فيفطر معهم، فيظن أهل السوق أنه قد أكل فى البيت، ويظن أهله أنه قد أكل فى السوق[٣]

وهذا هو «**عمر بن قيس الملائى**» أقام عشرين سنة صائماً، ما يعلم به أهله، يأخذ غداءه، ويغدو إلى الحانوت، فيتصدق بغدائه، ويصوم وأهله لا يدرون.

وكان إذا حضر الرقة، يحول وجهه إلى الحائط، ويقول لجلسائه: ما أشد الزكام[٤]

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله:

لا تسأل أخاك عن صيامه، فإن قال: أنا صائم فرحت نفسه بذلك، وإن قال: أنا غير صائم حزنت نفسه، وكلاهما من علامات الرياء.

**٣- الإخلاص فى قراءة القرآن الكريم:**

فقد كانوا يقرءون لله، تقول «**سُرِّيَّة الربيع بن خثيم**»: كان عمل الربيع كله سراً، إن كان ليجيء الرجل، وقد نشر المصحف، فيغطيه بثوبه[٥]

وكان «**إبراهيم النخعى**» رحمه الله: إذا قرأ فى المصحف، فدخل داخل غطاه[٦]

وكان الإمام «**أحمد بن حنبل**» رحمه الله يلتزم بالإخلاص والسرية فى عبادته، يقول عنه تلميذه أبو بكر المروزى: كنت مع أبى عبد الله نحواً من أربعة أشهر بالعسكر، وكان لا يدع قيام الليل، وقراءات النهار، فما علمت بختمة ختمها، وكان يُسر بذلك[٧]

وكان أحدهم إذا بكى من خشية الله تعالى كتمه خوفاً من الرياء.

---

(١) حلية الأولياء ٧/ ٢١٦
(٢) المرجع السابق ٣/ ١١٧
(٣) صفة الصفوة جـ٣/ ١٧٥
(٤) المرجع السابق ٣/ ٦١
(٥) حلية الأولياء ٢/ ١٠٧
(٦) المدهش لابن الجوزى ص٤١٥
(٧) صفة الصفوة ٢/ ٢٠٥

فهذا «محمد بن واسع» رحمه الله يقول: لقد أدركت رجالاً، كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة، وقد بلَّ ما تحت خده من دموعه، ولا تشعر به امرأته، ولقد أدركت رجالاً يقوم أحدهم فى الصف، فتسيل دموعه على خده، ولا يشعر به الذى إلى جنبه(١)

وكان يقول: إذا كان الرجل ليبكى عشرين سنة، وامرأته معه لا تعلم به(٢)

### ٤- الإخلاص فى الصدقة:

فهذا هو «زين العابدين: على بن الحسين» رحمه الله يقول عنه أبو حمزة: كان على ابن الحسين يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل، فيتصدق به، ويقول: «إنَّ صدقة السر تطفئ غضب الرب عزَّ وجل»(٣)

## أخا الإسلام:

أخلص قلبك لله، فإن للإخلاص فوائد عظيمة منها:

١- أنه هو الأساس فى قبول الأقوال والأعمال.

٢- هو الأساس فى قبول الدعاء.

٣- هو الذى يرفع منزلة الإنسان فى الدنيا والآخرة.

٤- أنه يبعد الإنسان عن الوساوس والأوهام.

٥- أنه يحرر العبد من عبودية غير الله.

٦- يقوم العلاقات الاجتماعية، وينصر الله به الأمة.

٧- أنه يفرج شدائد الإنسان فى الدنيا ويقوى إيمانه.

٨- الإخلاص يحقق الطمأنينة لقلب الإنسان المؤمن(٤)

فالإخلاص يجعلك تحب مولاك، وإذا أحببته أحبك، والمحبة شجرة تغرس فى الفؤاد، وتسقى بماء الوداد، أصلها ثابت فى بطن السر، وفروعها فى سماء الهمة وثمرها لطائف الأنس، تؤتى أكلها دائمًا بإذن ربها.

والمحب دائمًا عديم القرار، فقيد الاصطبار، لا يسكن أنينه، ولا يهدأ حنينه، نهاره ليل، وليله نهار.

فيا أخى أما آن لك أن تستعد بزاد التقوى؟ أما آن لك أن تحاسب نفسك فإن العمر محسوب؟ أما آن أن تمحو قبيح أفعالك، فإن القبيح مكتوب؟ أتضحك ملء فمك وعليك ذنوب؟ عد إلى مولاك، وأخلص العمل تنل جنة مولاك.

---

(١)، (٢) حلية الأولياء ٢/ ٣٤٧

(٣) علو الهمة فى صلاح الأمة ١/ ١١٣ (٤) السلسلة الذهبية ١/ ٤٩.

اللهم ارأف بنا رأفة الحبيب بحبيبه عند الشدائد ونزولها، وارحمنا من هموم الدنيا وغمومها بالروح والريحان إلى الجنة ونعيمها، ومتعنا بالنظر إلى وجهك الكريم فى جنات النعيم، يا رب العالمين.

## الوصية رقم (٨٣)
## إياكم والجلوس فى الطرقات

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والجلوس فى الطرقات**» فقالوا: يا رسول الله، ما لنا بد، نتحدث فيها، فقال رسول الله ﷺ: «**فإذا أبيتم إلا المجلس، فأعطوا الطريق حقه**» قالوا: وما حق الطريق؟ قال: **غض البصر، وكف الإذى، ورد السلام والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر**»(١)

**صدق رسول الله ﷺ**

إن الإسلام الحنيف يستهدف بتعاليمه وتشريعاته توفير كل ما يوثق علاقة المسلمين بعضهم مع بعض. ويجمع بينهم على الحب والرحمة، والتعاون، لهذا أوصى رسولنا ﷺ محذرًا من اقتراف أى عمل أو قول يترتب عليه أذى، أو يكون فيه شر، فحذر من الجلوس فى الطرقات، لأن ذلك كان هو الشائع فى هذا الوقت، لأنه قد يؤدى إلى الإساءة إلى رواده من حيث النظر إلى أصحاب العاهات مما قد يؤدى إلى السخرية منهم، والاستهزاء بهم، وهذا قد نهى الشارع الحكيم عنه، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يسخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نساءٌ مِّن نِّسَاءٍ عسىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ**﴾ [الحجرات: ١١] وقد يؤدى الجلوس فى الطرقات إلى تضييقها على المارة فى الذهاب وفى الإياب، وقد بين رسول الإسلام ﷺ أنه لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام.

وحتى لا يحرموا أنفسهم من ثمرة هذه المجالس التى كانوا يتدارسون فيها كل ما يهمهم قالوا: «يا رسول الله، ما لنا بد، نتحدث فيها» إنهم لم يقصدوا معارضة النبى ﷺ وإنما أرادوا بذلك أن يلتمسوا عنده البديل، الذى يغنى عن هذه المجالس، أو ما يراه هو، حتى لا يقعوا فى المحظور، الذى حذر منه، ومن منطلق الثقة فى صدقهم، وأن مجالسهم لم تكن للهو أو اللعب، وإنما كان طابعها الخير، وما يعود عليهم بالنفع ذكرهم بأن للطريق حقًا إذا أمكن الوفاء به، فلا مانع من الجلوس فيه.

---

(١) رواه البخارى (٦٢٢٩) ومسلم (٢١٢١) وصحح سنن أبى داود للألبانى (٤٨١٥) وأحمد فى مسنده (١١٢٤٨).

فقال لهم: «**فإذا أبيتم إلا المجلس، فأعطوا الطريق حقه**» فقالوا متسائلين: وما حق الطريق؟ قال: «**غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر**».

**يقول النووى عن هذه الوصية:**

هذا الحديث كثير الفوائد، وهو من الأحاديث الجامعة، وأحكامهُ ظاهرة.

فهذه حقوق خمسة ينبغى لكل مسلم أن يتأملها، ويقف عندها، ويسير على نهجها لأنها من شعب الإيمان.

**الحق الأول: غض البصر:**

ومعناه، أن يحفظ بصره من النظر إلى محرم من المحرمات، ولهذا جاء النهى عن إطلاق البصر، والأمر بغضه وحفظه، فقال تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾ [النور: ٣٠].

ولقد ذكر الإمام السيوطى فى الدر المنثور فى سبب نزول هذه الآية:

عن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال: مرَّ رجل على عهد رسول الله ﷺ فى طريق من الطرقات. فى المدينة، فرأى امرأة فنظر إليها، ونظرت إليه، فوسوس لهما الشيطان؛ إنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا أعجابًا به، فبينما الرجل يمشى إلى جنب حائط ينظر إليها، إذ استقبله الحائط فشق أنفه، فقال: والله لا أغسل الدم حتى آتى رسول الله ﷺ، فأعلمه أمرى، فأتاه فقص عليه قصته، فأنزل الله تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**﴾[1].

**قال القرطبى:**

«البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه، وغضه واجب عن جميع المحرمات، وكل ما تخشى الفتنة من أجله»[2]

**وقال الإمام ابن القيم:**

«والنظر أصل عامة الحوادث التى تصيب الإنسان، فالنظرة تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولابد، ما لم يمنع منه مانع، وفى هذا قيل: «**الصبر على غض البصر، أيسر من الصبر على ألم ما بعده**»[3]

---

(١) الدر المنثور للسيوطى ٦/ ١٧٦

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ١٢/ ٦ ٢

(٣) الداء والدواء لابن القيم ص١٥٩

وما أجمل قول الشاعر الحكيم:

كل الحوادث مبدؤها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة بلغت من قلب صاحبها ... كمبلغ السهام بين القوس والوتر
والعبد ما دام ذا عين يقلبها ... فى أعين الغيد موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ضر مهجته ... لا مرحبًا بسرور عاد بالضرر(١)

ولهذا أوصى حبيبنا ﷺ الأمة الإسلامية فى شخص على بن أبى طالب رضي الله عنه حين قال له: **«يا على، لا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى، وليست لك الآخرة»**(٢)

والنظر بريد الزنا ومقدمة من مقدماته، كما ذكر ابن القيم، ولذلك فإن رسول الله ﷺ قال ذلك فى حديث أبى هريرة رضي الله عنه: **«كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا، فهو مدرك ذلك لا محالة، العينان تزنيان، وزناهما النظر، والأذنان تزنيان وزناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»**(٣)

**يقول ابن القيم فى إحدى فوائده:**

«إطلاق البصر ينقش فى القلب صورة المنظور، والقلب كعبة، والمعبود لا يرضى بمزاحمة الأصنام»(٤) وقلب الإنسان لا يتسع لشريكين: نورٌ وإلا ظلمة، ملك وإلا شيطان، هداية وإلا غواية، وإذا غلب جند الإيمان فى القلب كانت نوازع الخير، وأنوار الهدى، وأدوية الطاعات، وإذا غلب جند الشيطان كانت نوازع الشر، وآفات الهوى، وسموم المعاصى. فمن غض بصره عن الحرام، وكف نظره عن المحرمات، عوضه الله تعالى عن ماحرم عليه، عوضه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات، أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم ير من أطلق بصره قال شاه بن شجاع الكرمانى رحمه الله:

«من عمر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهوات، واعتاد أكل الحلال لم تخطئ فراسته».

ولغض النظر فوائد، وآفات ذكرتها لك فى وصية منفردة، فارجع إليها.

**أما الحق الثانى: فهو كف الأذى:**

وكف الأذى عن الناس شعبة من شعب الإيمان كما جاء فى حديث النبى ﷺ: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»**(٥)

---

(١) الداء والدواء لابن القيم ص١٥٩ (٢) رواه الترمذى عن بريدة وقد خُرِّج فى موضع آخر.
(٣) رواه مسلم. (٤) الفوائد لابن القيم.
(٥) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه.

وكف الأذى أعم من غض البصر، لأن كف الأذى يشمله، فكأنه عمم بعد خصوص والأذى يتنوع بحسب أعضاء الإنسان، فالعينان تؤذيان، وأذاهما النظر واليد تؤذى وأذاها البطش، واللسان يؤذى وأذاه الغيبة والنميمة، ولذلك قال النبى ﷺ: **«من قال فى مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال»**(١) وعن أبى الدرداء رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«من ذكر امرأ بشىء ليس فيه ليعيبه به حبسه الله فى نار جهنم حتى يأتى بنقاد ما قال فيه»**(٢) ويصور القرآن هذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا**﴾ [الأحزاب: ٥٨].

ومن أذى اللسان إشاعة الفاحشة بين المؤمنين، وفى هذا جاء التحذير القرآنى فى سورة النور: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [النور: ١٩].

والقلب يؤذى وأذاه متعدد؛ وأذاه يكون بالحقد والحسد، والغل، والنفاق وكلها أمراض خطيرة لو سلم منها المرء لسعد فى الدنيا والآخرة، لكن الغل والحقد والخصومات لا يأتى إلا بالفساد، وهو من أعمال الشيطان، فعن جابر رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ولكن فى التحريش بينهم»**(٣) والمعنى: أنه يسعى فى التحريش بينهم بالخصومات والشحناء والحروب والفتن وغيرها للوقيعة بينهم.

فكل من حرش بين اثنين من بنى آدم، ونقل بينهما ما يؤذى أحدهما فهو من حزب الشيطان ومن أشر الناس.

ومن أذى القلب إساءة الظن بالآخرين، وقد نهى عنه القرآن الكريم كما فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا**﴾ [الحجرات. ١٢] وهذا هو كله إيذاء بالأقوال، لكن قد نهانا النبى ﷺ عن ايذاء المسلمين فى طرقاتهم، فقال: **«اتقوا اللاعنين»** قالوا: وما اللاعنين يا رسول الله؟ قال: **«الذى يتخلى فى طرق الناس وفى ظلهم»**(٤) فقوله: **«اللاعنين»** أى الأمرين الجالبين للعن، لأن من فعلها لعن وشتم، وفى رواية عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«اتقوا الملاعن الثلاث: البراز فى الموارد، وقارعة الطريق، والظل»**(٥)

وأذى الطريق يشمل أولئك الذين يسيئون استخدام الطريق، ويستعذبون متاعب الناس فى إلقاء المخلفات والقاذورات، أو يتركون مخلفات أبنيتهم فى الطريق، ومثلهم

---

(١) صحيح سنن أبى داود للألبانى (٦٦ ٣).　　(٢) رواه الطبرانى بإسناد جيد.

(٣) رواه مسلم (٢٨١٢).　　(٤) رواه مسلم وأبو داود.　　(٥) رواه أبو داود وابن ماجه بإسناد جيد.

أولئك الذين يزعجون إخوانهم بمكبرات الصوت فى أفراحهم ويتناسون أن هناك مرضى، وغير ذلك، فأذكرهم بهذه الوصية حتى يتعلموا من سنة الرسول المصطفى ﷺ آداب الطريق.

**والحق الثالث هو رد السلام**، والإسلام الحنيف قد حثنا عى أن نرد السلام، بل وأمرنا أن نزيد على التحية، فقال تعالى: ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا**﴾ [النساء: ٨٦] وإلقاء السلام سنة مؤكدة، وأما الرد، فهو فرض عين إذا كان المسلم منفردًا، أما إذا كان مع جماعة فهو فرض كفاية إذا فعله البعض سقط عن الباقين، والسلام معناه الأمان، والمحبة تنشأ عن المحبة والتآلف.

قال ﷺ: «**ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم؟** قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**أفشوا السلام بينكم**»[١]

وإفشاء السلام يوصل المؤمن إلى جنة الرحمن جل وعلا، فعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: «**أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا ركعات بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»[٢]

وهو -أى- السلام حق من حقوق المسلم على أخيه المسلم: «**حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس**»[٣]

وأهل الذمة لا يبدءون بالسلام، لأن العزة لله وللرسول وللمؤمنين كما قال سبحانه: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [المنافقون: ٨] وإذا سلموا يرد عليهم السلام من غير زيادة، فقد ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا سلم عليكم اليهود، فإنما يقول أحدهم :السام عليكم فقل: وعليك إذ السام الموت ، وإنما يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا**»[٤]

فإن كان جمعًا به من المسلمين وغيرهم سلم عليهم، فعن أسامة رضي الله عنه أن النبى ﷺ مر على مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين فسلم عليهم النبى ﷺ.

لكن ما فضل السلام؟ وما آدابه؟ ومتى يكره؟ كل ذلك قد ذكرته لك فى وصية أخرى.

**وأما الحق الرابع والخامس**: فقد ذكرته لك فى وصية منفردة به أسألك جل وعلا أن ينفعك بما علمت، وأن يجعلنى وإياك من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

---

(١) رواه أبو داود وصححه الألبانى (٥١٩٣) وابن ماجه.

(٢) رواه الترمذى وقال: حسن صحيح وقد خرج فى موضع آخر.

(٣) رواه الترمذى والنسائى وهو صحيح.

(٤) صحيح سنن أبى داود (٦ ٥٢) والترمذى والبيهقى.

**أخى الحبيب:**

أرى خيــر الداريـن يجــمـع كلـه | بخـمـس خـلال يا لـهـا من لطـائف
غنى النفس مع كف الأذى واكتساب | ما يحل وملبوس التقى حصن خائف
عـلى كـل حــال كن بـربـك واثقًـا | بنـفـع وكـشـف الضـر عـند المخـاوف

## الوصية رقم (٨٤)
## عليك بالرفق

عن شريح بن هــانئ عن أبيه عن عائشــة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال لها: **«يا عائشة: ارفقى، فإن الرفق لم يكن فى شىء قط إلا زانه، ولا نزع من شىء إلا شانه»**[1].

صدق رسول الله ﷺ

إن هذه الوصية الغالية أصل من الأصول التى يحيا بها المؤمن فى الدنيا، فهى وصية بالرفق والرفق هو لين الجانب، وبشاشة الوجه، وسعة الصدر، وفيه الرحمة والرأفة، وهى صفة من صفات المولى عز وجل كما قال نبى الرفق ﷺ: **«إن الله رفيق يحب الرفق يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف»**[2]

فالرفـق خلق حسن، وطبع جـميل، يزين صـاحبه، ويحـول بينه وبين القبـيح من الأقوال والأفعال والرفق قد فضل على كثير من الأخلاق، لذلك كان ما يعطيه الله لصاحب الرفق من الثناء الحـسن فى الدنيا، والأجـر الجزيل فى الآخرة أكثـر ما يعطيه علـى غيره، لذلك قال ﷺ لصاحبـة هذه الوصية: **«يا عائـشة، من أعطى حظـه من الرفق فقـد أعطى خيرى الدنيا والآخرة ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة»**[3].

ومما يدل على أن الرفق من خـير الأخلاق وأفضلهـا، قول النبى ﷺ: **«إذا أراد الله بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق»**[4]

لذلك فإن المرء إذا تحلى بالرفـق، فإنه يزين صاحبه، ويجمـله فى أعين الناس وعند الله تبارك وتعالى، وإذا تخلى المرء عن هذا الخلق العظـيم لحقه العيب عند الله وعند الناس وعندما نتتبع سيرة خير الأنام نجد أن خير قدوة فى الرفق ﷺ، فقد استأذن عليه عدة نفر،

---

(١) رواه أبو داود فى سننه وصححه الألبانى (٢٤٧٨) جـ٢/ ٨٩ وأحمد فى مسنده، والبيهقى فى الشعب (١٠٠٦٤) ومسلم دون لفظ (ياعائشة) برقم (٢٥٩٤).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٦٨٨) وابن حبان (١٩١٤) والألبانى فى ص.ج (١٧٧١).

(٣) صححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٥١٩).

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٢٤٣٠٨) وذكره الألبانى فى ص.ج برقم (٣٠٣).

فدخلوا، فقالوا له: السام عليك يا محمد -أى الموت لك- فقال النبى ﷺ: **«وعليكم»** فقالت عائشة رضي الله عنها: وعليكم السام واللعنة، فقال لها النبى ﷺ: **«يا عائشة، إنَّ الله تعالى يحب الرفق فى الأمر كله»** قالت: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: **«قد قلت: وعليكم»**(١)

صلوات ربي وتسليماته عليك يا رسول الله، يا من قال لك ربك: **﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾** [آل عمران: ١٥٩].

وقال في وصفك ورفقك وشفقتك: **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** [التوبة: ١٢٨].

لقد دخل عليه رجل أعرابى فى مسجده، وكان يجلس مع أصحابه رضي الله عنهم، فجاء إلى ناحية من نواحى المسجد، وجلس وبال فيه، فقام أصحابه ليضربوه، فقال لهم: **«لا تزرموه، دعوه»** فتركوه حتى بال، ثم دعاه الرسول ﷺ وقال له: **«إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القذر، إنما هى لذكر الله عز وجل، والصلاة، وقراءة القرآن،»** ثم قال لأصحابه: **«أريقوا عليه سجلاً من ماء، أو ذنوبًا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»**(٢)

فهذا هو الرفق مع جهال البشر، رفق المتعلم بالجاهل.

ولقد كان ﷺ شفوقًا رفيقًا بالحيوانات، فقد ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: وقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى، فنزل البئر فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقى، فسقى الكلب فشكر الله له، فغفر له»**

فقالوا يا رسول الله، وإن لنا فى البهائم لأجرًا؟

فقال: **«فى كل ذات كبد رطبة أجر»**(٣) وفى رواية للبخارى: **«فشكر الله له فأدخله الجنة»** وفى صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: **«لقد رأيت رجلاً يتقلب فى الجنة، من شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين»**(٤) فلأجل أنه قطعها رفقًا بالذين يمرون فى الطريق، كانت سببًا من أسباب حصوله على رفع درجته عند الله فى الجنة.

وقد حدثنا ﷺ عن تلك المرأة التى عذبت الهرة، فقال: **«دخلت امرأة النار من جرَّاء هرة لها، ربطتها حتى ماتت فلا هى أطعمتها، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض»**(٥) فكان رسولنا ﷺ رسول الرفق والرحمة حتى بالطيور؛ فلقد سافر معه ﷺ

---

(١) رواه البخارى (٢٩٢٧) ومسلم (٢١٦٥).

(٢) رواه مسلم (٢٨٥).

(٣) رواه البخارى (١٧٣) ومسلم.

(٤) رواه مسلم (٢٥٨٦).

(٥) رواه مسلم (٢٦١٩)

بعض أصحابه، فرأوا حُمَّرة[1] لها فرخان، فأخذوهما، فجاءت تعرش، فلما رآها رسول الله ﷺ قال: «**من فجع هذه بولدها؟ ردوا إليها ولدها**»[2]

فهكذا كان رفيقًا شفوقًا على كل الكائنات حتى على من أراد يقتله على سبيل العمد والترصد، لقد بعث ﷺ فرسانًا قبل نجد، فجاءوا برجل من حنيفة اسمه «**ثمامة بن أثال**» فربطوه بسارية من سوارى المسجد، فخرج إليه النبى ﷺ فقال: **ما عندك يا ثمامة؟ فقال:** عندى خير يا محمد، إن تقتلنى تقتل رجلاً ذا دم -أى مطالب بدم فلا عيب فى قتله- وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت.

فتركه رسول الله ﷺ فلما كان من الغد، فقال: «**ما عندك يا ثمامة؟**» **فقال:** عندى ما قلت لك. فقال رسول الله «**أطلقوا ثمامة**» فانطلق إلى نخل قريب من المسجد. فاغتسل، ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله يا محمد والله ما كان أبغض إلىَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلىَّ، والله ما كان من دين أبغض إلىَّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إلىَّ، والله ما كان من بلد أبغض إلىَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلىَّ، وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟

فبشره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال قائل: صبوت قال: لا والله، ولكن أسلمت مع رسول الله، ولن تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ[3]

لقد أسلم «ثمامة بن أثال» وسر إسلامه هو ما وجده من رفق المصطفى ﷺ به وعطفه ورحمته، فصار شخصه من أحب الناس إليه، ودينه كذلك، وبلده من أحب البلاد كلها إليه، لأنه كان أرفق الناس به، وأرحمهم.

ولما عاد ثمامة إلى اليمامة منع قومه أن يحملوا إلى مكة شيئًا، فكتبوا إلى النبى ﷺ يقولون: إنك تأمر بصلة الرحم، فكتب إلى ثمامة أن يخلى بين قومه وبين الحمل إلى أهل مكة، كيلا يموتوا جوعًا.

يا للخلق العظيم الذى يجب أن يقتدى به البشر أجمع.

أهذا حلم ورفق على حماقة قريش؟ أنسى المقاطعة، ونسى يوم أن حبسوا فى الشعب حتى أكلوا أوراق الأشجار، ومات الكثير جوعًا وعطشًا؟.

أهذا عفو القادر على الانتقام؟

---

(١) الحُمَّرة: بضم الحاء وتشديد الميم نوع من الطيور كالعصفور - وتعرش: أى ترفرف.

(٢) تيسير الوصول ٢/ ٥٢. (٣) رواه البخارى (٤٣٧٢).

أهذه رحمة بهؤلاء المشركين الذين آذوه ومن معه، وأخرجوهم من أوطانهم إن رفقه ورحمته أعلى من الخصومات، وأرفع من العداوات، وأعظم من مقابلة التجويع بمثله، وهو يعلم أن تجويع قريش يضعف قوتها، ويهد بأسها، وبقية شرورها، ولعله أن يعجل بسعيها إلى اعتناق الإسلام.

فهل لبعض الدول المعاصرة التى تدعى العلم والتقدم والحضارة آذان تسمع؟.

هل لها عقول تعى؟ أما آن لها أن تعلم أن علمها زائف، وأن تقدمها تأخر، وأن حضارتها همجية. إنها تتخذ القمح والمال والدواء والسلاح وغيرها حبائل لاقتناص المحتاجين، وأغلالاً فى رقاب الطالبين، ووسائل لإغراء المتطلعين[١]

فينبغى على المسلمين أن يكونوا رحماء، رفقاء فيما بينهم، يتناصحون، ويتراحمون، ويتعاطفون حتى يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

فقد روى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه قال:

أحب الأمور إلى الله تعالى ثلاثة: العفو عند المقدرة، والقصد فى الحدة، والرفق بعباد الله تعالى، وما رفق أحد بعباد الله إلا رفق الله به.

تلك صور من الرفق نتعلمها من نبى الرفق ﷺ وأصحابه ﷺ

فقد كان عدى بن حاتم ﷺ يجمع ما تبقى منه من فتات الخبز، ثم يضعه للنمل الذى يسيرعلى جدار منزله من الخارج، فيسأل عن ذلك، فيقول: إنهم جيرانى، ولهم علىَّ حق.

ويمر عبد الله بن عمر ﷺ بفتيان من قريش، قد نصبوا طيراً، وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال لهم: من فعل هذا، لعن الله من فعل هذا؟ إنَّ رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا[٢]

فاجعل الرفق والرحمة زينة خلقك، تَحلَّ بها فى معاملة إخوانك من المسلمين، وأهلكَ الأقربين وجيرانك المؤمنين، اجعل الرفق هو طريقك فى الحياة تصل إلى ما تريد.

**قال الأصمعى:**

لم أر مثل الرفق فى لينه ... أَخْرجَ للعذراء من خدْرِها
من يستعن بالرفق فى أمره ... قد يُخرج الحية من جحرها

(١) من أخلاق النبى ﷺ ص٢٠٣

(٢) رواه البخارى.

**لطيفة:**

روى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام حدث نفسه أنه أرحم الخلق وأرفقهم، فرفعه الله على أهل الأرض، فأبصر أعمالهم، وما يفعلون، اطلع على مذنب فى فاحشة، فقال: اللهم أهلكه، يأكل رزقك، ويمشى على أرضك، ويخالف أمرك، فأهلكه الله، فاطلع على آخر، فقال: اللهم أهلكه، فقال الله له: أنا أرحم بعبادى منك، أين رحمتك لعبادى؟ فأنا إما أتوب عليهم، وإما أن أخرج من أصلابهم من يسبحنى ويقدسنى، وإما أن يبعثوا فى مشيئتى، فأعفو أو أعاقب، يا إبراهيم كفر عن دعوتك على عبادى بقربان، فنحر إبلاً، فنودى فى الليلة الثانية، كَفِّر بدم، فذبح بقرًا، فقيل له فى الثالثة: فذبح غنمًا، وفى الرابعة كذلك، فقرب من الأنعام إلى الله ما بقى عنده، وفى الخامسة قال: لم يبق لى شىء، فقيل له: إنما تكفر بذبح ولدك، لأنك دعوت على العصاة فهلكوا، فلما شمر لذلك، وأخذ السكين بيده قال: اللهم هذا ولدى، وثمرة فؤادى، وأحب الناس إلىَّ، فسمع هاتفًا يقول: أما تذكر الليلة التى سألت فيها إهلاك عبادى، أو ما تعلم أنى رحيم بهم، كما أنت شفيق بولدك فإذا سألتنى إهلاك عبادى سألتك ذبح ولدك» اللهم اجعلنا من عبادك الرحماء، وارحمنا يا مولانا إنك أنت الغفور الرحيم.

## الوصية رقم (٨٥)
## بادروا بالأعمال ستًّا

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم أو أمر العامة**»(١)

**صدق رسول الله ﷺ**

فكن أخا الإسلام متأملاً فى هذه الوصية، والتى تتطلب من كل مؤمن ومؤمنة أن ينظر فيها، ويعمل بها لأنها من الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، من الرؤوف بأمته المشفق عليها من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وهى حث على المبادرة بالأعمال الصالحة قبل أن تظهر أمارات الساعة الكبرى، لأن بالعمل الصالح وحده يستطيع المؤمن الموفق أن يطرق أبواب الجنة، وأن يكون من المنعمين فيها بالنعيم السرمدى، الذى أعده الله لمن أطاعه، قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ**﴾ [النازعات: ٣٧: ٤٠].

---

(١) رواه مسلم (٢٩٤٧).

إن الدين الإسلامى الحنيف لم يعتن بشىء مثل ما اعتنى بالعمل الصالح، وترغيب المؤمنين فيه والحرص عليه، فقد رتب عليه كل فلاح ونجاح، لأنه مفتاح الحياة الطيبة فى الدنيا، وسلم العيشة الهنية فى الآخرة، فهو السفينة التى يبحر عليها المسلم إلى شاطئ السلامة والنجاة ويكفى العمل الصالح شرفًا ومنزلة أن الله جعله قرين الإيمان، وجعله مأموراً به فى كل سور القرآن، فهو بدون العمل شجرة بلا ثمر، أو زهرة بلا عطر، أو سراج لا نور فيه قال سبحانه وتعالى: ﴿**وعد اللَّهُ الَّذين آمَنُوا منكُمْ وعملُوا الصَّالحَات لَيَسْتَخْلفَنَّهُمْ في الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ مِن قَبْلِهِم وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الَّذي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْد خَوْفهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا**﴾ [النور: ٥٥] لذلك حرص أنبياء الله عليهم السلام أن يبتهلوا إلى الله، أن يرزقهم الأعمال الصالحة، ومنهم سليمان عليه السلام، يقول لربه: ﴿**رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**﴾ [النمل: ١٩، ٢].

ولقد كان المجتمع الذى رباه النبى الأمين ﷺ، ونشّأه على عينه ورعايته تحت ظلال الدين، كان كله من الصالحين الأتقياء، وكان الصلاح أبرز سماته، ولذلك لا نعجب كثيرًا فى أنهم فتحوا البلاد، وملكوا الأقطار فى فترة يسيرة من الزمن.

فلما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلاد الشام زائرًا لها، أرسل البطريرك رسولاً لينظر له عمر بن الخطاب خليفة المسلمين، كيف شأنه؟

فكان التقرير أنه يلبس مرقعة بسيطة، ويركب ناقة متواضعة، وليس عليه شىء من مظاهر الأبهة، ولا أثر من زينة الحياة الدنيا، ورأى الرسول المبعوث إلى عمر أن رأسه مكشوفة للشمس، وليس عليها تاج ولا صولجان، بل إنه لا يظلله شىء، وبين يديه خبز جاف، وإدامة الخل والزيت، ثم قال للبطريرك: لما نظرت فى وجهه، رأيت النور يفيض من قسماته، ويتدفق من ملامحه، عند ذلك قال الرجل لقومه: لا طاقة لكم به، أعطوه ما شاء، فإنَّ الله أخذ عهدًا على نفسه، أنَّ من أذل الدنيا أعزه الله تبارك وتعالى.

وأخبار الصالحين كثيرة، وقصصهم شهيرة، وكلها تشهد بفضيلة الأعمال الصالحة، وأثر الطاعة والعبادة فى قلب المؤمن، وسلوكه.

قال إبراهيم بن مخرمة: قصدت رجلاً من أهل البيت المعروفين بالجود الكرم، لأنال من كرمه شيئًا، وأظفر من سخائه بنصيب، فوجدت على بابه حاجبًا يدفع الناس عنه، ويحول بينهم وبين لقائه، فمنعنى من الدخول عليه، وقال: والله ما أوقفنى على بابه هذا الموقف إلا لأمنعك أنت وأمثالك، لا بخلاً منه، ولا شحًا بماله، ولكن لقصور يده ورقة حاله.

قال الرجل: فلم يقنعنى قول الحاجب، وقلت: أحتال لنفسى حتى أصل إليه، فكتبت إليه هذا البيت مع أحد خدمه، وبعثت به إليه، وقلت فيه:

**إذا كان الكريم له صاحب فما فضل الكريم على اللئيم**

فلما قرأه أرسل مع خادمه رقعة مكتوب فيها هذا البيت جوابًا على بيتى:

**إذا كان الكريم قليل مال تحرز بالحجاب عن الغريم**

ثم عاد الخادم ومعه كيس فيه ألف دينار.

قال الرجل: فأخذتها مسرورًا بها، وحمدت الله على أن نجح سعيى، وبلوغ أملى[1]

فما أجمل العمل الصالح مع الإيمان بالله، والاستقامة له سبحانه، ورحم الله الشافعى حين قال فى مدح عباد الله الصالحين:

**إن لله عبادًا فطنًا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا**
**نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحىٍّ وطنًا**
**جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنًا**

والمبادرة إلى الأعمال الصالحة فى كل زمان ومكان ليصل العبد بها إلى رضوان الله تبارك وتعالى، والعاقل هو الذى يحاسب نفسه ويقهرها حتى يصل بذلك إلى طاعة الله جل وعلا قبل أن يقف فى موقف الحساب.

يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، فإنه أيسر، وأهون لحسابكم، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، وتجهزوا للعرض[2] الأكبر: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

وعن حاتم الزاهد -رحمه الله- قال: أربعة لا يعرف قدرها إلا أربعة: الشباب لا يعرف قدره إلا الشيوخ، ولا يعرف قدر العافية إلا أهل البلاء، ولا قدر الصحة إلا المرضى، ولا قدر الحياة إلا الموتى[3]

والناس فى هذه الدنيا، وتجاه الأعمال الصالحة أصناف ثلاثة:

رجل يشغله معاده عن معاشه، ورجل يشغله معاشه عن معاده، ورجل مشتغل بهما جميعًا، فالأول درجة الفائزين، والثانى درجة الهالكين، والثالث: درجة المخاطرين.

أما إذا ظهرت أمارات الساعة، والتى أشارت إليها الوصية التى بين أيدينا وهى:

---

(١) سمير الصالحين للشهاوى ١/ ٢٣

(٢) رواه أحمد فى الزهد وإسناده حسن وأبو نعيم فى الحلية وقد تخرج فى موضع آخر.

(٣) تنبيه الغافلين للسمرقندى.

**١- طلوع الشمس من مغربها:**

وتلك العلامة من علامات الساعة الكبرى، وهى أول العلامات الكبرى ظهورًا لما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أول الآيات خروجًا: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبًا**»(١)

وقد قيل: إنَّ طلوع الشمس من مغربها يكون فى يوم، أو فى ثلاثة ثم تطلع من المشرق كعادتها، وإذا طلعت من المغرب، غربت فى المشرق، وحينئذ يغلق باب التوبة إلى يوم القيامة وهو مقصود قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا**﴾ [الأنعام: ١٥٨].

ولذلك روى البخارى ومسلم فى تفسير هذه الآية عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل**»(٢)

والدليل على أن التوبة لا تقبل فى هذا الوقت ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه**»(٣)

والحكمة فى عدم قبول التوبة عند طلوع الشمس من مغربها: أن هذه العلامة هى أول ما يحدث من تغير العالم العلوى، فإذا شوهد ذلك حصل الإيمان الضرورى بالمعاينة، وارتفع الإيمان بالغيب، وهو أصل من أعظم أصول الإيمان.

لكن أين تذهب الشمس؟ هذا فى علم الله تبارك وتعالى، لكن روى أبو ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «**أتدرى أين تذهب هذه الشمس إذا غربت؟ قلت: لا أدرى. قال: إنها تنتهى، فتسجد تحت العرش، ثم تستأذن، فيوشك أن يقال لها: ارجعى من حيث جئت، وذلك حين لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرًا**»(٤)

**٢- نزول الدخان من السماء:**

وهو المذكور فى قوله تعالى: ﴿**فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [الدخان: ١٠، ١١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما وابن عمر والحسن: إنه دخان يأتى قبل يوم القيامة، فيأخذ المؤمن كهيئة الزكام، ويدخل مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيذ «أى المشوى» وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه النار.

---

(١) رواه مسلم وأبو داود وأحمد فى مسنده.
(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه البخارى ومسلم وأحمد.

وعن أبى موسى الأشعرى أن النبى ﷺ قال: «**إن ربكم أنذركم ثلاثًا: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية: الدابة، والثالثة: الدجال**».

**٣- الدجال:**

ويسمى بالمسيح، لأنه يمسح الأرض ويقطعها فى أربعين يومًا، فلا يبقى بلد من البلاد إلا وطئه بخيله ورجله، حصنًا حصنًا، وإقليمًا إقليمًا غير مكة والمدينة، وهذه الأربعون يومًا منها يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيام الناس هذه.

وقيل: سمى مسيحًا لأن إحدى عينيه ممسوحة فهو أعور، وقد ورد فيه عدة أحاديث منها: ما ورى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما بعث نبى إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، إلا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر**»(١) وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال. إلا مكة والمدينة، وليس نقب من أنقابها إلا عليه الملائكة صافين تحرسها، فينزل بالسبخة. فترجف المدينة ثلاث رجفات. يخرج إليه منها كل كافر ومنافق**»(٢)

**لكن أين يخرج الدجال؟:**

لقد وردت بعض الأحاديث التى تحدد مكان خروجه منها:

فعن أبى بكر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الدجال يخرج من أرض بالمشرق، يقال لها خراسان، يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة**»(٣)

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يخرج الدجال من يهودية أصبهان معه سبعون ألفًا من اليهود عليهم التيجان**»(٤)

**ما الذى يعصم من الدجال؟**

الذى يعصم من الدجال أمور منها:

١- **الاستعاذة بالله من شره**، كما كان يفعل النبى ﷺ فى جميع صلواته، وقد أمرنا أن نستعيذ منه، فكان يقول: «**قولوا: اللهم إنى أعوذ من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات**»(٥) وفى رواية: كان النبى ﷺ يتعوذ فى دبر صلاته من أربع، يقول: «**أعوذ بالله من عذاب القبر،**

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١١٩٤٣) بإسناد صحيح.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه أحمد فى مسنده وصححه الشيخ أحمد شاكر جـ١/ ١٧١
(٤) رواه أحمد ومسلم.
(٥) رواه مسلم وأحمد والترمذى والنسائى ومالك فى الموطأ.

**وأعوذ بالله من عذاب النار، وأعوذ بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن، وأعوذ بالله من فتنة الأعور الكذاب»**(١)

٢- **ومنها: حفظ عشر آيات من سورة الكهف**، لما ورد عن أبى الدرداء رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**من حفظ عشر آيات من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال**»(٢) وبعض الروايات حدد من أولها، وبعضها حدد عشرًا من آخرها، والأمر جد يسير على كل مسلم يحب كتاب الله.

٣- ومنها: أن يسكن فى المدينة، أو مكة شرفهما الله تعالى، فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون، ولا الدجال**»(٣)

٤- وأما الدابة التى تخرج آخر الزمان، وتكلم الناس، فقد ذكرت فى قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ**﴾ [النمل: ٨٢] وقد قال العلماء: إنها دابة عظيمة تخرج من صدع الصفا، أو من غيره فى آخر الزمان عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله تعالى، وتعاليم الدين، فتكلمهم ببطلان ذلك.

وقيل: إنها تقول: يا فلان أنت من أهل الجنة، ويا فلان، أنت من أهل النار.

وبخروجها ينقطع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لعدم فائدة ذلك، ولأنه حينئذ يظهر المؤمن والكافر عيانا بوسم الدابة، فمن وسمته بالكفر لا يمكن تغيره، وقد سبق حديث ذكرها وعن حُذيفة بن أسيد رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، ...**»(٤)

٥- **وأما الأمر الخامس**، والذى أوصانا النبى ﷺ بالمبادرة بالأعمال الصالحة قبل حلوله «**خاصة أحدنا**» قال العلماء هو الموت.

والموت لا شك آت، ألم تعلم أن الله سبحانه قد قصم به رقاب الجبابرة، وكسر به ظهور الأكاسرة، وقصر به آمال القياصرة، حتى جاءهم الحق، فأرداهم فى الحافرة! نقلهم من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود.

فانتهز الفرصة فى فعل الخيرات جهدك قبل أن يكون الموت مصيرك، والقبر مضجعك، والدود أنيسك، ومنكر ونكير جليسك، وبطن الأرض مستقرك، والقيامة موعدك، والجنة أو النار موردك.

---

(١) رواه أحمد فى المسند ٣/ ١٩٣ بإسناد صحيح.

(٢) رواه مسلم والترمذى وقال: حسن صحيح وأحمد فى مسنده ١٨/ ٥٨١

(٣) رواه البخارى ومسلم.

(٤) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه والترمذى وقال: حسن صحيح

**٦- وأما الأمر السادس، فهو: «أمر العامة»** قال قتادة: هو القيامة[(١)] وقيل الأمور الدنيوية كالمناصب الزائفة، والمطالب الشاغلة للمرء عن أن يعود إلى مولاه.

فانتهز الفرصة أخى الحبيب قبل فوات الأوان، وبادر إلى فعل الطاعات، وتب من المعاصى والسيئات.

**أبت نفسى تتوب فما احتيالى — إذا برز العباد لذى الجلال**
**وقاموا من قبورهم سكارى — بأوزار كأمثال الجبال**
**وقد نصب الصراط لكى يجوزوا — فمنهم من يكب على الشمال**
**ومنهم من يسير إلى دار عدنٍ — تلقاه العرائس بالغوالى**
**يقول له المهيمن يا ولىّ — غفرت لك الذنوب فلا تبالى**

انتبه قبل أن يفاجئك الموت، فإنك تنتقل من الشباب إلى الهرم، ومن الصحة إلى السقم ، ومن الوجود إلى العدم، ولذلك قيل:

**وما حالاتنا إلا ثلاث — شباب ثم شيب ثم موت**
**وآخر ما يسمى المرء شيخًا — ويتلوه من الأسماء ميت**

اللهم اعف عن تقصيرنا فى طاعتك وشكرك، وأدم لنا لزوم الطريق إلى ما يقربنا إليك، وهب لنا نوراً نهتدى به إليك، ويسر لنا ما يسرته لأهل محبتك، وأيقظنا من غفلاتنا، وألهمنا رشدنا، واسترنا فى دنيانا وآخرتنا، وقنا فتنة المسيح الدجال، واحشرنا يوم القيامة مع النبيين يا رب العالمين.

## الوصية رقم (٨٦)
## قل آمنت بالله ثم استقم

عن سفيان بن عبد الله ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، **قل لى فى الإسلام قولاً، لا أسأل أحدًا غيرك**، قال: قل **« آمنت بالله، ثم استقم»**[(٢)]

**صدق رسول الله ﷺ**

إن أصحاب الرسول الأكرم، والنبى الأعظم ﷺ **كانوا يحرصون دائمًا على الخير ويحرصون على معرفة ما يوصلهم إلى رضا من خلقهم، فسأل الصحابى الجليل سفيان بن عبد الله** أستاذه ومعلمه، الحبيب المصطفى ﷺ عن أقصر طريق يوصله **إلى الله تعالى، دون** أن يسأل أحدًا غيره، فقال له: **«قل: آمنت بالله ثم استقم»** وفى رواية للترمذى: قال: قلت

(١) شرح صحيح مسلم والنووى ٩/ ٢٧٧

(٢) رواه مسلم (٣٨) والترمذى (٢٧٥٨) وذكره الألبانى فى ص.ج رقم (٤٣٩٥).

يا رسول الله حدثنى بأمر أعتصم به قال: **قل ربى الله، ثم استقم**، قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف على؟ فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه ثم قال: **هذا**»[١]

وقد أخرج ابن المبارك وغيره أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قرأ قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١] فقال: «استقاموا على طاعة الله فلم يروغوا روغان الثعلب» ويقول ابن رجب الحنبلى[٢] فى شرحه لهذا الحديث:

وأصل الاستقامة: استقامة القلب على التوحيد. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أى لم يشركوا بالله شيئًا، ولم يلتفتوا إلى إله غيره، فاستقاموا على أن الله ربهم.

وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما فى قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ**﴾ [إبراهيم: ٣٨] قال: استقاموا على أداء فرائضه، وعن أبى العالية قال: ثم أخلصوا له الدين والعمل.

وكان الحسن البصرى رحمه الله عندما يقرأ قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ [فصلت: ٣٠] يقول: اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة.

فهم الذين أفردوه بالعبودية، فلم يستعينوا بأحد سواه، ولم يستغيثوا إلا به، ولم يتوكلوا إلا عليه، فلا انقياد إلا له، ولا محبة إلا له، ولا رجاء إلا فيه، ولا تسليم إلا له سبحانه، ولا خوف إلا منه وحده: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

هم الذين قاموا بتطبيق الإيمان قولاً وعملاً، لأن الإيمان قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان.

**وكما قال الحسن البصرى رحمه الله:**

«ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى، ولكن ما وقر فى القلوب، وصدقته الأعمال، فمن قال خيرًا، وعمل خيرًا قبل منه، ومن قال خيرًا، وعمل شرًا لم يقبل منه».

وفى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم فى كتاب الإيمان من حديث العباس رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً**»[٣] فمن استقام قلبه على معرفة الله وخشيته، ،ومحبته، ورجائه، والإعراض عما سواه بقلوبهم، لأن القلوب إذا استقامت، استقامت الجوارح كلها على طاعة الله جل

---

(١) رواه أحمد والنسائى والترمذى، وقال: حسن صحيح (١٩٦٥).

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى ص٢٧٢

(٣) رواه مسلم والترمذى وهو فى ص.ج للألبانى برقم (٣٤٢٥).

وعلا، لأن القلب أمير البدن، وإذا صلح الأمير صلحت الرعية، وإذا فسد الأمير فسدت الرعية: **«ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب»**(١)

**واعلم أخى الحبيب** أن هذه الوصية العظيمة قد اشتملت على معظم خصال الخير، وشعب الإيمان، لأنها قبس من الوصايا التى أوصى بها الحق تبارك وتعالى خير خلقه وصفوة رسله عليهم الصلاة والسلام من سورة هود، وسورة الشورى، قال تعالى: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [هود: ١١٢].

إن رب العزة جل وعلا يوصى حبيبه بالاستقامة على منهج دينه القويم، وصراطه المستقيم والعمل بما جاء فيه، والقيام بالدعوة إليه، وتبليغ أحكامه، فكان ﷺ كما أمره مولاه، استقام على طريقة ربه، وصدع بالحق، ولزم المنهج الذى رسمه له، فأيده مولاه بروح من عنده، حتى جاء الحق، وظهر أمر الله.

ولذلك لما نزلت هذه الآية الكريمة المباركة قال ﷺ: **«شمروا شمروا، وما رئى بعدها ضاحكًا»** من أجل ذلك قال ابن عباس ﷺ: ما نزلت على رسول الله ﷺ فى جميع القرآن آية أشد، ولا أشق عليه من هذه الآية(٢)، ولهذا قال ﷺ: **«شيبتنى هود وأخواتها»**(٣) أتدرى ما أخواتها؟ إن أخواتها هى **«الواقعة والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»** لما فيهن من التخويف العظيم، والوعيد الشديد ببيان أحوال الآخرة وأهوالها، وبيان أحوال الهالكين والمعذبين.

ولهذا روى عن بعضهم قال: رأيت النبى ﷺ فى النوم، فقلت له: روى عنك أنك قلت: **«شيبتنى هود وأخواتها»** قال: نعم. فقلت: وبأى آية، فقال بقوله: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ**﴾ وفى سورة الشورى نجد الوصية لرسوله ﷺ مكررة فى قوله تعالى: ﴿**فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ**﴾ [الشورى: ١٥].

والاستقامة تكون بحسب المعرفة، فمن كملت معرفته بالله، عظم عنده أمره ونهيه، فإذا سمع ﴿**كَمَا أُمِرْتَ**﴾ علم أنه مطالب باستقامة تليق بمعرفته، وعظمة سيده، وجلال مولاه، وتكون بمعرفة طريقه وهو الصراط المستقيم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه وأحمد.

(٢) ذكره الفخر الرازى فى مفاتيح الغيب جـ١٦/ ٦٢٨

(٣) رواه الترمذى وحسنه.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطًّا ثم قال: «**هذا سبيل الله**» ثم خط خطوطًا عن يمينه وشماله وقال: «**وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه**»[1] ثم قرأ: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عن سبيله**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ولذلك كان السلف الصالح من هذه الأمة سائرين على درب الاستقامة وهى الحب فى الله، والبغض فى الله، وكل حركاتهم وسكناتهم كانت لله، وهذا المنهج مستمد من قول النبى ﷺ: «**من أعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»[2]

ومعنى هذا: أن كل حركات الجوارح إذا كانت كلها لله، فقد كمل إيمان العبد بذلك باطنًا وظاهرًا، فيلزم من صلاح حركات القلب، صلاح حركات الجوارح.

**قال الحسن -رحمه الله-**: ما نظرت ببصرى، ولا نطقت بلسانى، ولا بطشت بيدى، ولا نهضت على قدمى، حتى أنظر أعلى طاعة أو على معصية فإن كانت طاعة تقدمت، وإن كانت معصية تأخرت[3]

**وقال محمد بن الفضل**: ما خطوت منذ أربعين سنة خطوة لغير الله عز وجل.

والاستقامة تقتضى مقاومة الهوى، والهوى هو ميل النفس إلى الشهوة، وسمى بذلك لأنه يهوى بصاحبه فى الدنيا إلى كل داهية، وفى الآخرة، إلى الهاوية ومقاومة الهوى: أى مغالبته ومحاربته، والخلوص من وساوس النفس، وإغواء الشيطان.

ومقاومة الهوى هى الاستقامة، وقد بين الله جزاء ذلك فى كتابه حين قال: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ**﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] وقال سبحانه: ﴿**فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا**﴾ [النساء: ١٣٥] أى فلا يحملنكم الهوى والعصبية على ترك العدل فى أموركم وشئونكم، بل الزموا العدل على أى حال.

ولذلك قال سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه فى إحدى خطبه: «إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى، فيصد عن الحق، وأما طول الأمل، فينسى الآخرة»[4]

**ويقول أبو بكر الوراق**: أصل غلبة الهوى، مفارقة الشهوات، فإذا غلب الهوى، أظلم القلب، وإذا أظلم القلب، ضاق الصدر، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق، وإذا ساء

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٤٤٣٧) والنسائى والطيالسى وصححه شيخنا الألبانى.

(٢) رواه أحمد فى مسنده (١٥٠٨٥) والترمذى (٢٥٢١) وحسنه وهو فى صحيح سنن أبى داود للألبانى برقم (٤٦٨١) والسلسلة الصحيحة (٣٨٠).

(٣) جامع العلوم والحكم ص ١

(٤) نهج البلاغة للشريف الرضى.

الخلق، أبغضه الخلق، وإذا أبغضه الخلق، أبغضهم، وإذا أبغضهم جفاهم، وإذا جفاهم صار شيطانًا» والغياذ بالله.

فتلك نتيجة اتباع الهوى، والانحراف عن الاستقامة.

أيعصى الإنسان مولاه، ولا يغالب نفسه، ولا يتبع طريق الاستقامة ويرجو جنته؟!.

فها هو رجل كان له عبد يعمل فى مزرعته، فيقول السيد لهذا العبد: ازرع هذه القطعة برًا، ثم ذهب وتركه، وكان هذا العبد لبيبًا عاقلاً، فما كان منه إلا أن زرع القطعة شعيرًا بدلاً من البر -أى القمح- ولم يأت ذلك الرجل إلا بعد أن استوى وحان وقت الحصاد، فجاء، فوجد عبده قد زرع شعيرًا، فعاتب عبده، وقال له: طلبت منك أن تزرعها برًا فلم زرعتها شعيرًا؟ فقال العبد: رجوت من الشعير أن يصير برًا. قال سيده: يا أحمق، أو ترجو من الشعير أن ينتج برًا؟

قال: يا سيدى، أفتعصى الله، وترجو رحمته؟! أفتعصى الله، وترجو جنته؟ فخاف واندهش، وتذكر أنه إلى الله قادم، فقال: تبت إلى الله، ثم أعتق عبده.

فإذا زرعت فى قلبك الاستقامة، وفى جوارحك مغالبة الهوى والمعصية حصدت بذور الاستقامة، فما هى بذور الاستقامة وثمارها؟

بذورها فى قوله جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

ثمارها فى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١].

فى الآخرة يوم أن تثقل بطاقة التوحيد فى ميزان المستقيم الموحد، لأن التوحيد نور يبدد الذنوب وغيوم السيئات، فتطيش السجلات المليئة بالسيئات كما أخبرنا سيد الكائنات ﷺ فقال: «**إن الله سيخلص رجلاً من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتى الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب هذه البطاقة مع هذه السجلات؟**

**فيقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات فى كفة، والبطاقة فى كفة، فتطيش السجلات، وتثقل البطاقة فإنه لا يثقل مع اسم الله تعالى شىء»**[١]

﴿**نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾ [فصلت. ٣١] فى الدنيا ساعة الاحتضار، ساعة أن تنزل ملائكة قبض الأرواح، كما قال بذلك سيد المرسلين: «**تحضر الملائكة، فإذا كان الرجل صالحًا قالوا: اخرجى أيتها النفس الطيبة، كانت فى الجسد الطيب، اخرجى حميدة، وأبشرى بروح وريحان، ورب راض غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج»**[٢]

وفى الآخرة. ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم**﴾ [الحديد: ١٢] يوم القيامة: ﴿**وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ**﴾ [فصلت: ٣١] لهم فيها كما قال النبى المصطفى ﷺ «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»**[٣]

**واعلم أخى الحبيب:** أن علامة المستقيم الصبر على الشدائد، والثبات عند البلاء، والإعراض عن الجاهلين، والصفح، عن المسيئين، وأن لا يكون للهوى والشهوة سلطان على نفسك، وأن زخارف الدنيا لا تشغله عن طريق مولاه.

**لذلك قال بعض العارفين:** الاستقامة، توبة بلا إصرار، وعمل بلا فتور، وإخلاص بلا التفات، ويقين بلا تردد، وتفويض بلا تدبير.

فالاستقامة هى الخصلة التى تكمل بها المحاسن، وتكون فى جميع أفعال العبد، وحركاته، فتكون فى الأقوال بترك الغيبة، وفى الأفعال بنفى البدعة، وفى الأعمال بنفى الفترة، وفى الأحوال بنفى الحجبة[٤]

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من عباده الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، اللهم لا تجعلنا عن ذكرك غافلين، ولا عن أمرك زائغين، وأنظمنا فى سلك من أهلته لولائك واغفر لنا يا ربنا إنك أنت الغفور الرحيم.

---

(١) رواه ابن ماجه (   ٤٣) والترمذى والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وصححه الألبانى فى الصحيحة برقم (١٣٥).

(٢) رواه أحمد فى مسنده وهو فى صحيح سنن أبى داود للألبانى برقم (٤٧٥٣).

(٣) رواه البخارى ومسلم.

(٤) الرسالة القيشيرية ص٢٩٩

## الوصية رقم (٨٧)
## اغتنم خمسًا قبل خمس

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ وعظ رجلاً فقال له: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**»(١)

**صدق رسول الله ﷺ**

يا لها من وصية عظيمة، وموعظة جليلة، تنبه الغافل، وتوقظ النائم، وتهدى الحائر، وترشد الضال، وتجعل السكران يفيق، السكران الذى سكر بخمر الدنيا، لأن يحيى ابن معاذ يقول: الدنيا خمر الشيطان، من سكر منها لم يفق إلا فى معسكر الموتى نادمًا مع الخاسرين.

ورسولنا ﷺ يريد أن ينبهنا أن نغتنم الفرصة قبل فوات الأوان، قبل أن يتحسر الإنسان فى يوم لا تنفع فيه الحسرة، ويندم فى يوم لا ينفع فيه الندم.

اغتنم الفرصة فاعمل صالحًا قبل أن يدرك الزرع آفته، فما الإنسان فى هذه الدنيا إلا مجموعة من الأيام، إذا انقضت انقضى عمره، ولذلك قال الحسن البصرى -رحمه الله-: إنما أنت أيام مجموعة كلما مضى يوم مضى بعضك. وقال: ابن آدم، إنما أنت بين راحلتين مطيتين يوضعانك، يوضعك الليل إلى النهار، والنهار إلى الليل حتى يسلمانك إلى الآخرة، فمن أعظم منك يابن آدم خطرًا؟!

لذلك يوصيك نبى الهدى أن تغتنم شبابك قبل موتك، فمدة الشباب قصيرة كمدة زهرة الربيع وبهجته ونضارته، فإن يبس فيها وابيض فقد آن ارتحاله. قال سبحانه: ﴿**وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا**﴾ [نوح: ١٧، ١٨] فالإنسان كالنبات، وهو فى شبابه كالربيع.

قال وهيب بن الورد: إن لله ملكًا ينادى فى السماء كل يوم: أبناء الخمسين، زرع دنا حصاده(٢)، وفى حديث مرفوع «**إن لكل شىء حصادًا، وحصاد أمتى ما بين الستين إلى السبعين**»(٣) وقد يدرك الزرع آفة قبل حصاده، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ**﴾ [يونس: ٢٤].

---

(١) رواه أحمد فى الزهد وأبو نعيم فى الحلية ٤/١٤٨ عن عمرو بن ميمون والبيهقى فى الشعب برقم (١٠٤٨) والحاكم وصححه ٤/٣٠٦ ولم يتعقبه الذهبى وصححه الألبانى فى ص.ج برقم ١٠٧٧

(٢) لطائف المعارف لابن رجب ص٥٣٩

(٣) رواه ابن عساكر.

**قال ميمون بن مهران يومًا لجلسائه:**

يا معشر الشيوخ ما ينتظر بالزرع إذا ابيض؟ قالوا: الحصاد، فنظر إلى الشباب، فقال: يا معشر الشباب! إن الزرع قد تدركه الآفة قبل أن يستحصد.

**يابن آدم لا تغررك عافية ... عليك ضافية فالعمر معدود**
**ما أنت إلا كزرع عند خضرته ... بكل شيء من الآفات مقصود**
**فإن سلمت من الآفات أجمعها ... فأنت عند كمال الأمر محصود**

**واعلم أخى الحبيب:** أن كل ما فى الدنيا فهو مذكر بالآخرة، ودليل عليه، فنبات الأرض واخضرارها فى الربيع بعد محولها ويبسها فى الشتاء، وإيناع الأشجار واخضرارها بعد كونها خشبًا يابسًا يدل على بعث الموتى من الأرض، وقد ذكر الله تعالى ذلك فى كتابه فى مواضع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ**﴾ [ق: ٩: ١١].

وقد قال أبو رزين العقيلى للنبى ﷺ: كيف يحيى الله الموتى؟ وما آية ذلك فى خلقه؟ قال: «**هل مررت بواد أهلك مَحْلاً، ثم مررت به يهتز خضراً؟**» قال: نعم. قال: «**كذلك يخرج الله الموتى، وذلك آيته فى خلقه**»(١)

وفصول السنة تذكر بالآخرة، فشدة حر الصيف يذكّر بحر جهنم، وهو من سمومها، وشدة برد الشتاء يذكر بزمهرير جهنم، وهو من زمهريرها، والخريف يكمل فيه اجتناء الثمرات التى تبقى وتدخر فى البيوت، وكذلك ثمرات الأعمال فى الآخرة.

وأما الربيع فهو أطيب فصول السنة، وهو يذكـر بنعيم الجنة، وطيب عيشها. فهكذا كان الصالحون يتأملون ويفكرون لكى يغتنموا أوقاتهم وأعمارهم، فهذا هو صلة بن أشْيَم -رحمه الله- وقد تزوج بمعاذة العدوية، وكانا من كبار الصالحين، فأدخله ابن أخيه الحمام، ثم أدخله على زوجته فى بيت مطيب منجد، فقاما يصليان إلى الصباح، فسأله ابن أخيه عن حاله، فماذا قال له؟ قال له: أدخلتنى بالأمس بيتًا أذكرتنى به النار، يعنى الحمام، وأدخلتنى الليلة بيتًا أذكرتنى به الجنة، فلم يزل فكرى فى الجنة والنار حتى الصباح(٢)

الشباب زمن القوة والفتوة والرجولة والفحولة، وهو أقوى الأوقات وأفضلها فى تحصيل الأعمال الصالحة، فاغتنم وقتك أيها الشاب المؤمن واعلم أنك سوف تسأل عن شبابك فيما أفنيته، سوف تسأل عن ساعات عمرك، ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «**لا تزولا قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن جسمه فيما أبلاه**».

---

(١) رواه أحمد فى مسنده.
(٢) لطائف المعارف ص٥٤١.

وفى لفظ: «**وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه؟ وعن علمه ماذا عمل فيه؟**»(١) فاغتنم الوقت والفرصة.

وها هم سلفنا الصالح رضوان الله عليهم يعلموننا كيف نحرص على أوقاتنا، وشبابنا فهذا هو عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- يقول: ما ندمت على شىء كندمى على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلى، ولم يزد فيه عملى.

ويزداد الأمر خطرًا إذا علمت أخى الحبيب أن من خصائص الوقت أنه يمر مر السحاب، ويجرى جرى الرياح، الأيام تمر، والأشهر تجرى وراءها، وتنتهى الأعمار، ثم تقف أمام الكبير المتعال، وسيعلم الخاسرون المضيعون لأعمارهم وأوقاتهم سيعلمون كأنهم ما لبثوا فى هذه الدنيا إلا كساعة من نهار ﴿**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [الأحقاف: ٣٥] ﴿**ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة**﴾ [الروم: ٥٥].

ومن خصائص الزمن أنه إن مضى لن يعود إليك، ولا تستطيع أن تعوضه، ولذلك كان الحسن البصرى -رحمه الله- يقول: ما من يوم ينشق فجره، إلا وهو ينادى بلسان حاله: يابن آدم، أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فاغتنمنى، فإنى لا أعود إلى يوم القيامة.

فإذا كان عمرك هكذا، ووقتك هو عمرك، فلماذا لا تنتهز الفرصة؟ أتدرى لماذا نتوانى عن اغتنام الأوقات؟ لأن هناك عوائق للاستفادة من الوقت، ومنها:

**١- اتباع الهوى:** قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ذكر الله الهوى فى موضع من كتابه إلا وذمه، قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ**﴾ [الجاثية: ٢٣] وحذر رب العالمين نبيه داود عليه السلام فقال: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾ [ص: ٢٦] وخاطب نبيه المصطفى بقوله: ﴿**وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف: ٢٨].

وفى الحديث: «**ثلاث مهلكات، وثلاث منجيات: أما الثلاث المهلكات: فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه، وأما الثلاث المنجيات: فخشية الله فى السر والعلانية، والقصد فى الفقر والغنى، والعدل فى الرضا والغضب**»(٢) فطريق الهوى هو طريق الهلاك.

---

(١) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح وصححه الألبانى فى ص.ج رقم (٧٣٠٠).

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر وحسنه الألبانى فى ص.ج برقم (٣٠٤٥).

**٢- طول الأمل:** إنه من الطيب أن يحمل الإنسان أمـلاً فى قلبه. لأنه مفطور على حب الحياة، ولا ينكر ذلك إلا جاهل بالكتاب والسنة، لكن المذموم هو طول الأمل مع قتل الوقت وتضـييعـه فى المعاصى التى تـعود عليه بـالضرر، ولقد حـذر النبى ﷺ من طول الأمل، فقال لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: **«كن فى الدنيا كأنك غـريب أو عابر سبيل»**(١) وكان ابن عمر يقول: إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح.

**٣- الفراغ:**

والفراغ نعمة من أجل النعم على الإنسان، لكنه لا يدرى، فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»**(٢)

**قال الحافظ بن حجر:** فمن استغل صـحته وفراغه فى طاعة الله فـهو المغبوط، ومن استغل صحته وفراغه فى معصية الله فهو المغبون.

واعلم أن الفراغ أنواع: ١- فراغ قلبى ٢- فراغ نفسى ٣- فراغ عقلى.

**فالأول:** فراغ القلب من الإيمان، وهو أخطر الأنواع، لأنه يبـعد صاحبه عن مولاه، لاشتـغاله بالمعاصى والذنـوب، ولذا جاء رجل إلى سفـيان الثورى وقال لـه: يا إمام، إنى مريض بمرض الـبعد عن الله، فـهل لديك من دواء؟ فقـال لـه: يا عبد الله عليـك بعروق الصبر، وورق الإخلاص، وعصير التـواضع، وضع ذلك فى إناء التقوى، وصب عليه ماء الخشية، وأوقد عليه بنار الحزن، وصفه بمصـفاة المراقبة وتمضمض بالورع، وابعد نفسك عن الغش والطمع، تُشْفَ من مرضك بإذن الله.

فلو عمرت قلبك بالتقوى، والورع، والخوف من الله تعالى، والإخلاص له وحده، وابتعدت عن المعاصى والذنوب لما شعرت بالفراغ، لأنك ستشعر بلذة القرب والأنس.

**قال شيخ الإسلام ابن تيميه -رحمه الله-:**

مساكين والله أهل الدنيا خرجوا من الدنيا ولم يستلذوا بأطعم وأحلى ما فيها. قيل: وما أطعم ما فيها؟ قال: ذكر الله، والأنس بلقائه.

**وأما النوع الـثانى،** وهو فراغ النـفس فاعلم أن النفس أمـارة بالسوء، إن لم تشـغلها بالحق شغلتك بالبـاطل، فبدلاً من أن تشغلها بالشـهوات والمعاصى، اشغلها بالطاعـة اشغلها بالفكر الـطيب الذى يزيد فى إيمانك، اشـغلها بـالذكر والتسـبيح، وتفـقد أحوال الـصالحين الموحدين، قال سبحانه: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ من زَكَّاهَا** ﴿٩﴾ **وَقَدْ خاب من دسَّاهَا**﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

---

(١) رواه البخارى وقد خُرج فى موضع آخر.

(٢) رواه البخارى (٦٤١٢) والترمذى.

٤- **الفتن**: والفتن كثيرة فى هذا العصر، وفى كل العصور، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحسبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِين صدَقُوا وَلَيَعْلَمنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١: ٣].

فاجتهد فى الطاعات قبل أن ينتهى سفرك إلى مولاك، **قال داود الطائى**: **إنما الليل** والنهار مراحل ينزل الناس فيها مرحلة مرحلة حتى ينتهى ذلك بهم إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدم فى كل مرحلة زادًا لما بين يديها، فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب ما هو، والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك، واقض ما أنت قاض من أمرك، فكأنك بالأمر قد بغتك[(١)]

وكتب بعض السلف إلى أخ له: يا أخى يخيل لك أنك مقيم، بل أنت دائب السير، تساق مع ذلك سوقًا حثيثًا، الموت متوجه إليك، والدنيا تطوى من ورائك، وما مضى من عمرك فليس بكارٍّ عليك حتى يكر عليك يوم التغابن.

**سبيلك فى الدنيا سبيل مسافر ... ولابد من زاد لكل مسافر**

**ولابد للإنسان من حمل عدة ... ولا سيما إن خاف صولة قاهر**

قال بعض الحكماء: كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره، كيف يفرح من يقوده عمره إلى أجله، وتقوده حياته إلى موته؟ وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: ابن آدم، إنك لم تزل فى هدم عمرك قد سقطت من بطن أمك، وأنشد بعض السلف:

**إنا لنفرح بالأيام نقطعها ... وكل يوم مضى يدنى من الأجل**

**فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهدا ... فإنما الربح والخسران فى العمل**

**أخى الحبيب:** اسمُ بهمتك إلى المعالى، ونافس فى كل نفيس غالٍ.

يا معشر الشباب: هذا زمان ربيعكم فأين زهر علومكم؟

يا معشر الكهول: هذا أوان خريفكم فأين ثمر أعمالكم؟!.

هذه حرث آخرتك هامدة، ما اهتزت بالأعمال الصالحة ولا ربت، فقل بلسان الذكر يا واهب النعم، ويا فالق الحب والنوى، يا منشئ الأجساد بعد البلى، نسألك بالرحمة التى كتبتها على نفسك، وبالكرامة التى أخفيتها لأوليائك، أن تمطر قلوبنا سحائب برك وإحسانك، وأن تغفر لنا ذنوبنا، وأن توفقنا لصالح أعمالنا، وأن تستر عيوبنا، يا رب العالمين.

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى ص١ ٥.

## الوصية رقم (٨٨)
## من كان حالفًا فليحلف بالله

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أدركه وهو فى ركب، وهو يحلف بأبيه، فقال له: «**إنَّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا، فليحلف بالله، أو ليسكت**»(١)

صدق رسول الله ﷺ

لقد كان من عادة العرب قبل الإسلام أن يحلفوا بآبائهم وأمهاتهم، وأصنامهم، لكن لما جاء الإسلام الحنيف أبطل تلك الشعارات، وتلك العادات الذميمة، فنهى رسول الإسلام ﷺ عن الحلف بمثل هذه الأشياء، وطبيب القلوب ﷺ يداوى الجراح بحكمة، فقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه -وقد كان معه فى سفر فأدركه وهو يحلف بأبيه، فكان النهى فى محله، وفى موضعه، لأن فى الحلف بغير الله تعظيم لشأنه، ولا يصح لمسلم يؤمن بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبرسوله محمد نبيًا ورسولاً أن يعظم شيئًا سوى ربه ومولاه الذى أمرنا فى كتابه أن نحفظ أيماننا، فقال سبحانه: ﴿**لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ...**﴾ [المائدة: ٨٩] وقال تعالى: ﴿**وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا...**﴾ [النحل: ٩٤].

**قال ابن حجر**: وأصل اليمين فى اللغة: اليد، وأطلقت على الحلف لأنهم كانوا إذا تحالفوا أخذ كل بيمين صاحبه، وقيل لأن اليد اليمنى من شأنها حفظ الشىء، فسمى الحلف بذلك لحفظ المحلوف عليه، وسمى المحلوف عليه يمينًا لتلبسه بها، ويجمع اليمين على أيمن كرغيف وأرغف، وهى فى الشرع: توكيد الشىء بذكر اسم الله، أو صفة لله(٢)

وعلى هذا يكون حفظ الأيمان أى ضبط المحلوف عليه فى النفس فلا يحنث، وإذا حنث كَفَّر.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١١٢) بإسناد صححه الشيخ أحمد شاكر ١/ ٢١٤ وذكره الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٣٢٤٩) صحيح ورواه البخارى (٦٦٤٧) ومسلم (١٦٤٦)

(٢) فتح البارى ١١/ ٥٢٥.

**(١) أنواع اليمين:**

**١- اليمين الغموس:** وهو الحلف على فعل أو ترك ماضٍ كاذبًا، وهو من أكبر الكبائر لحديث الكبائر: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس**»[١] وسميت بذلك لأنها تغمس صاحبها فى الإثم، وقيل: فى النار.

وقد نهى النبى ﷺ عن هذه اليمين، فقال: «**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة، فقال له رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال: وإنْ كان قضيبًا من أراك**»[٢]

**٢- اليمين اللغو:** ما يحلف ظانًّا أنه كذا وهو على خلافه.

قال الشافعى -رحمه الله- ما لا يعقد الرجل قلبه عليه: كقوله: لا والله، وبلى والله. وهى غير منعقدة، ولا يعتد بها، للآية التى ذكرنا ﴿**لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ**﴾.

**٣- اليمين المنعقدة:** وهى الحلف على فعل شىء أو تركه، وهي التي يؤاخذ بها صاحبها.

**قال ابن حجر**[٣]:

وجملة ما ذكر فى كيف كانت يمين النبى ﷺ أربع ألفاظ:

**أحدها:** والذى نفسى بيده، وكذا: نفسُ محمد بيده، فبعضها مُصدَّر بلفظ (لا) أى «. . لا والذى نفس محمد بيده» وبعضها بلفظ: «أَيْمُ» كما فى حديث أبى هريرة: «**وأيْمُ الذى نفس محمد بيده**».

**ثانيها:** لا ومقلب القلوب، كما فى حديث ابن عمر رضي الله عنهما كان يمين النبى ﷺ: «**لا ومقلب القلوب**»[٤]

**ثالثها:** والله - **رابعها:** ورب الكعبة، فقد حلف النبى: «**والله لأغزون قريشا، والله لأغزون قريشًا**، وفى الثالثة قال: **إن شاء الله**»[٥]

- **لكن بم تنعقد اليمين؟**

**قال ابن حجر:** قد جزم ابن حزم وهو ظاهر كلام المالكية والحنفية بأن جميع الأسماء أى (أسماء الله الحسنى) الواردة فى القرآن والسنة الصحيحة، وكذا الصفات صريح فى اليمين تنعقد به، وتجب لمخالفته الكفارة، والمشهور عند الشافعية والحنابلة أنها ثلاثة أقسام:

---

(١) رواه البخارى. (٢) رواه مسلم عن أبى أمامة. (٣) فتح البارى ١١/ ٥٣٣.

(٤) صحيح سنن أبى داود (٣٢٦٣) للألبانى ورواه البخارى (٦٦٢٨).

(٥) صحيح سنن أبى داود (٣٢٨٥) للألبانى صحيح

**أحدها**: ما يختص به كـالرحمن، ورب العالمين، وخالق الخلق، فهو صـريح تنعقد اليمين سواء قصد الله أو أطلق.

**ثانيها**: ما يطلق عليه، وقد يـقال لغيره لكن بقيد، كالرّب والحق، فتـنعقد به اليمين إلا إن قصد به غير الله.

**ثالثها**: ما يطلق على السواء كالحى والموجود، والمؤمن، فإن نوى غير الله أو أطلق، فليس بيمين، وإن نوى به الله انعقد على الصحيح(١)

وقد نبه النبى ﷺ على عدم الحلف بغير الله، وخطـورة الحلف بغيره، فقال ﷺ: «**من حلف بغيـر الله فقد أشرك**»(٢) وحذر من الحلف بالأمانة، فقال: «**من حلف بالأمانة، فليس منا**»(٣)

ومن حق المسلم على أخيه المسلم: أنه إذا أقسم عليه أبر قسمه، لقول النبى ﷺ من حديث البراء بن عـازب: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع، ونهانا عن سـبع، وذكر منها «**إبرار القسم**»(٤) لأن المسلم إذا بر قسـمه، فقد لبى طلبـه -إذا كان ذلك فى غير معـصية- وإذا لبيت طلبه، أسعدت نفسه، وأدخلت السرور عليه، وتلك فضيلة من فضائل الأعمال والتى قال فيها نبى الإسلام ﷺ: «**أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل، سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضى عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشى مع أخى المسلم فى حاجة أحب إلىّ من أن أعتكف فى المسجد شهراً..**»(٥) وبر القسم يدل على لين الجـانب، وحسن الخلق، وقـد وصف النبى ﷺ المؤمنين بقوله: «**المؤمنون هينون لينون، مثل الجمل الأنف الذى إن قيد انقـاد وإن سيق انساق، وإن أنخته على صخرة استناخ**»(٦)

واعلم أن المسلم ما دام هينا لينا، فقد جعل الرسول ﷺ لمن أقسم على يمين وأكدها لكنه وجد غيرها خيراً منها، جعل له مخـرجًا، فقال عندما أتاه رجل وقد تأخر عنده حتى إنه لما رجع إلى أهله، وجد أولاده قد ناموا، فحـلف ألا يأكل من أجل الصبية، ثم بدا له فأكل، فأتى الرجل الرسول ﷺ، وذكر له ذلك فقـال النبى ﷺ «**من حلف على يمين، فرأى غيرها خيراً منها، فليأتها، وليكفر عن يمينه، وليفعل**»(٧)

(١) فتح البارى ١١/ ٣٣٥

(٢) صحيح سنن أبى داود للألبانى برقم (٣٢٥١) وصحيح الترمذى ( ١٥٩).

(٣) صحيح سنن أبى داود (٣٢٥٣) وفى السلسلة الصحيحة للألبانى (٩٤).

(٤) رواه البخارى (٦٦٥٤) ومسلم (٦٦ ٢).

(٥) رواه الطبرانى وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة برقم (٦ ٩).

(٦) حسنه الألبانى بشواهد فى السلسلة الصحيحة برقم (٩٣٦)

(٧) رواه مسلم (١٦٥٠).

وعن تميم بن طرفة. قال. جاء سائل إلى عدى بن حاتم، فسأله نفقة فى ثمن خادم أوفى بعض ثمن خادم، فقال: ليس عندى ما أعطيك إلا درعى، ومغفرى، فاكتب إلى أهلى أن يعطوكها. قال: فلم يرض، فغضب عدىٌّ، فقال: أما والله لا أعطيك شيئًا. ثم إن الرجل رضى. فقال! أما والله! لولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من حلف على يمين، ثم رأى أتقى لله منها، فليأت التقوى»**[1] ما حنثت يمينى.

وينبغى للمسلم إذا حلف يمينًا تتعلق بأهله، ويتضررون بعدم حنثه فى تلك اليمين، ويكون الحنث فيها ليس بمعصية، فينبغى له أن يحنث فيها، ويفعل ذلك الشيء، ويكفر عن يمينه وفى ذلك يقول النبى ﷺ: **«والله! لأن يلج أحدكم بيمينه فى أهله، آثم له عند الله من أن يعطى كفارته التى فرض الله»**[2] فإن قال: لا أحنث، بل أتورع عن ارتكاب الحنث فى اليمين، لخوف الإثم فيه، فهو مخطئ بهذا القول، بل استمراره فى عدم الحنث، وإدامة الضرر على أهله أكثر إثمًا من الحنث. ولقد كان ذلك هدى رسول الله ﷺ.

فعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال: أتيت النبى ﷺ فى رهط من الأشعريين نستحمله -أى نطلب منه أن يحملنا على الإبل- فقال: **«والله لا أحملكم وما عندى ما أحملكم عليه»** قال: فلبثنا -أى مكثنا- ما شاء الله، ثم أتى بإبل، فأمر لنا بثلاث ذود غرِّ الذُّرَى -أى أمر لنا بإبل بيض الأسنمة- فلما انطلقنا، قلنا: لا يبارك الله لنا. أتينا رسول الله ﷺ نستحمله فحلف أن لا يحملنا، ثم حملنا. فأتوه فأخبروه، فقال: **«ما أنا حملتكم، ولكن الله حملكم، وإنى، والله! إنْ شاء الله لا أحلف على يمين، ثم أرى خيراً منها، إلا كفرت عن يمينى، وأتيت الذى هو خير»**[3] فما أعظمك يا رسول الله، وما أعظم أفعالك! ولقد اقتدى به أصحابه الأجلاء، فكان أحدهم إذا حلف على يمين فوجد غيرها خيرًا منها، فعلها، وحنث فى يمينه، ثم كفر عنه.

فهذا هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه تقول عنه السيدة عائشة رضي الله عنها: إنَّ أبا بكر رضي الله عنه لم يحنث فى يمين قط حتى أنزل الله كفارة اليمين، وقال: لا أحلف على يمين، فرأيت غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذى هو خير، وكفرت عن يمينى[4]

وعنها رضي الله عنها حين قال لها أهل الإفك ما قالوها، فبرأها الله مما قالوا، وأنزل ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ...﴾ [النور ١١] العشر الآيات كلها فى براءتى، قال أبو بكر، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه، والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذى قال

---

(١) رواه مسلم (١٦٥١). (٢) رواه البخارى (٦٦٢٤) ومسلم (١٦٥٥).
(٣) رواه البخارى (٤٣٨٥) ومسلم (١٦٤٩). (٤) رواه البخارى (٦٦٢١).

لعائشة -أى عنها- فـأنزل الله قوله تعالى: ﴿ **وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [النور: ٢٢] فقال أبو بكر: بلى والله، إنى لأحب أن يغفر الله لى، فرجَّع النفقة إلى مسطح، وقال: والله لا أنزعها عنه أبدًا»[(١)]

وهذا هو عمر بن الخطـاب ﷺ لما سمع من رسول الله ﷺ هذه الوصية التى بين أيدينا قال: فوالله! ما حلفت بها منذ سمعت رسول الله ﷺ نهى عنها، ذاكرًا، ولا آثرًا[(٢)] ومعنى ذاكرًا: أى قائلاً لها من قبل نفسى، ولا آثرًا: أى حالفًا عن غيرى.

وقد جعل الشـارع الحكيم للحالف مخرجًا إذا لم يرد أن يحـنث فى يمينه، فلو قال الحالف: إن شـاء الله لم يحنث، فعن أبـى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال: «**قال سليـمان عليه السلام، لأطوفن الليلة على ستـين امرأة، كلهن يحملن، فيلدن كل واحدة منهـن فارسًا يقاتل فى سبيـل الله، فقال له صاحبـه: قل إن شاء الله، فلم يقل، فطاف عليـهن جميعًـا، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحـدة، فجاءت بشق رجل، وأيم الذى نفـس محمد بيده! لـو قال: إن شاء الله، لجاهدوا فى سـبيل الله فرسانًا أجـمعون**» وفى رواية: «**ولو قال: إن شاء الله، لم يحنث، وكان دركًا له فى حاجته**»[(٣)]

يقول النووى: وفيه -أى حديث سليمان بن داود عليهما السلام- فوائد:

**منها**: أنه يستحب للإنسان إذا قال: سأفـعل كذا أن يقول: إن شاء الله لقوله تعالى: ﴿ **وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

**ومنها**: أنه إذا حلف، وقال مـتصلاً بيمـينه: إن شاء الله لم يحنث بفـعله المحلوف عليه، وأن الاستـثناء يمنع انعقاد اليـمين لقوله ﷺ: «**لو قال: إن شاء الله لـم يحنث، وكان دركًا لحاجته**» ويشترط لصحة هذا الاستثناء شرطان:

**أحدهما**: أن يقوله متصلاً باليمين.

**الثانى**: أن يكون نوى قبل فراغ اليمين أن يقول: إن شاء الله تعالى.

قال القاضـى: أجمع المسلمون على أن قـوله: إن شاء الله يمنع انعقاد اليـمين بشرط كونه متصلاً.

وفى الحديث: بيـان ما خُص به أنبياء الله تـعالى من القوة على إطاقـة هذا فى ليلة واحدة، وكان نبينا ﷺ يطوف على إحدى عشرة امرأة له فى الساعة الواحدة»[(٤)]

---

(١) البخارى (٦٦٧٩). (٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم. (٤) صحيح مسلم بشرح النووى جـ٦/١١٨، ١١٩ ط/ دار الفجر.

## الوصية رقم (٨٩)
## لا تشددوا فيشدد الله عليكم

عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تشددوا علىَ أنفسكم، فيشدد الله عليكم، فإن قومًا شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم»**(١)

**صدق رسول الله ﷺ**

لقد كان ﷺ يحب التيسير فى جميع أمور حياته، وما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، لذلك فقد أوصانا ﷺ بأن لا نشدد على أنفسنا فى أمر من أمور الدين، وإن كان دين الإسلام يعامل أتباعه بشدة لكن لا عنف فيها، ويوجههم فى لين لا ضعف فيه، وقد أخبرنا أن الله سبحانه وتعالى لا يحب عبده المتشدد، لأنه يشدد عليهم، ويعاملهم بجنس ما يعملونه، لكنه سبحانه يحب الرفق، ويحب أهله، فعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله رفيق يحب الرفق، يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف»**(٢)

ونراه ﷺ يغضب من التشدد فى الدين، وذلك حين شكا إليه أحد أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين قائلاً له: **«إنى لأتاخر عن صلاة الغداة -أى الصبح- مما يطيل بنا فلان»**.

يقول أبو مسعود الأنصارى ﷺ راوى هذه الواقعة: فما رأيت النبى ﷺ فى موعظة قط أشد مما غضب يومئذ، فقال: **«يا أيها الناس، إن منكم منفرين، فأيكم أم الناس فليخفف فإن منهم الكبير، والضعيف، وذا الحاجة»**(٣) وفى رواية أن معاذ بن جبل هو الذى كان يطيل بالناس فقال ﷺ **«أفتان أنت يا معاذ؟ اقرأ بكذا واقرأ بكذا»**(٤)

ومعنى فتان أى هل أنت منفر عن الدين، وصادٌّ عنه.

**قال النووى:** فيه الأمر بتخفيف الصلاة، والتعزير على إطالتها إذا لم يرض المأمومون.

لكن إذا كنت منفردًا فطول كيفما تشاء، فقد ورد فى رواية: **«إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف، فإن منهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه، فليطل ما شاء»**(٥)

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب الأدب برقم (٤٩٠٤) وسنده حسن وذكره ابن كثير فى التفسير ٣/ ٣٦٥.
(٢) رواه ابن ماجه (٣٦٨٨) وابن حبان (١٩١٤) وذكره الألبانى فى ص.ج برقم (١٧٧١).
(٣) رواه مسلم (٤٦٦) والبخارى (٦٧٢) وأحمد (٢٢٢٤٤).
(٤) رواه مسلم (٤٦٥).
(٥) رواه مسلم (٤٦٧) وفى فى ص.ج للألبانى (٦٥٨).

فقـد كان ﷺ أخف الناس صـلاة فى تمام. قال أنس بن مالك ﷺ: «مـا صليت وراء إمام قط أخف صلاة، ولا أتم صلاة من رسول الله ﷺ»[(١)]

وكان يدخل الصلاة ويود أن يطيلها لكن من رأفته ورحـمته، وتيسيره على الأمهات فى كل زمان ومكان، كان يخفف الصلاة، فهو الذى يقول ﷺ كما روى عنه أنس ﷺ: **«إنى لأدخل الصـلاة أريد إطالتهـا، فأسمع بكـاء الصبى فأخـفف من شدة وجـد أمه به»**[(٢)] والوجد هو الحزن أو الحب وكلاهما يشغل المصلى.

**وفى الحديث عدة أمور:**

١- فيه دليل على الرفق بالمأمومين، وسائر الأتباع، ومراعاة مصلحتهم، وألا يدخل عليهم ما يشق عليهم، وإن كان يسيرًا مع غير ضرورة.

٢- فيه جواز صلاة النساء مع الرجال فى المسجد.

٣- أن الصبى يجوز إدخاله المسجد، وإن كان الأولى تنزيه المسجد عمن لا يؤمن منه حدث.

ويدخل رسول الرحـمة والتيـسير ﷺ المسجـد يومًا، فإذا به يرى حـبلاً ممدودًا بين ساريتين من سوارى المسجد، فـيسأل الصحابة قائلاً لهم: **ما هذا؟** قالو: لزينب، تصلى، فإذا كسلت أو فترت، أمسكت به، فقال: **«حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أحدكم نشاطه، فإذا كسل أو فتر، قعد»**[(٣)] ففيه الحث على الاقـتصاد فى العبادة، والنهى عن التعـمق، والأمر بالإقبال على العبادة بنشاط.

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يحـرصون كل الحرص على أن يقتدوا بالرسول الأعظم ﷺ فى عـباداته، فـإذا رأوه يصوم صامـوا، وفى يوم من الأيام رأوه وقـد واصل الصيام، فواصلوا معه، فنهاهم عن ذلك، لكنهم لم ينتهوا، لأنهم ظنوا أن النهى للتنزيه لا للتحريم، وتأمل الحـديث كما رواه البخارى من حديث أبـى هريرة ﷺ قال: **«نهى النبى ﷺ عن الوصال فى الـصوم، فقال رجل من المسـلمين: إنك تواصل يارسـول الله. فقال ﷺ: وأيكم مثلى؟ إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى،** فلما أبو أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يومًا ثم يومًا، ثم رأوا الهلال، فقال: لو تأخر لزدتكم -كالتنكيل لهم حين أبوا- وفى روايه عنه: قال لهم: **«فاكفلوا من العمل ما تطيقون»**[(٤)]

ولقد سمي الرسول ﷺ الذين يتشددون فى الدين بالعصاة، لأنهم يخالفون ما عليه الإسـلام من يسـر، فعـن جابر ﷺ أن رسـول الله ﷺ خـرج عام الفـتح إلى مـكة فى

(١) رواه مسلم (٤٧٠).
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم (٧٨٤) والبخارى ( ١١٥).
(٤) رواه البخارى.

رمضان، فصام حتى بلغ «كراع الغَميم» فصام الناس، ثم دعا بقدح من ماء فرفعه حتى نظر الناس إليه، فقيل له بعد ذلك: إنّ بعض الناس قد صام، فقال رسول الله ﷺ: **«أولئك العصاة، أولئك العصاة»**(١)

لقد شددوا على أنفسهم، وأرادوا أن يأتوا بشيء زائد عما فعله الرسول ﷺ فسماهم عصاة.

وفى زماننا نجد أولئك الذين ما فهموا سماحة الإسلام وتيسيره على أتباعه، تراهم على فريقين: إما متعصب لرأيه، غير معترف بآراء الآخرين، وإما ساقط فى هوية التكفير للآخرين، فيكفرون الحكام، معللين ذلك بأنهم لم يحكموا بما أنزل الله، ويكفرون علماء الدين، لأنهم لم يكفروا الحكام، ولم يقفوا فى طريقهم، بل إنهم يكفرون كل من يخالفهم، ألم يقرءوا حديث الرسول الأكرم، والنبى الأعظم ﷺ: **«إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر، فقد باء به أحدهما»**(٢)؟

ألم يعلموا أن النبى ﷺ قال محذرًا من هذا: **«إذا سمعت الرجل يقول: هلك الناس فهو أهلكهم»**(٣)

قال الخطابى: معناه: لا يزال الرجل يعيب الناس، ويذكر مساويهم، ويقول: فسد الناس، وهلكوا، ونحو ذلك، فإذا فعل فهو أهلكهم -أى أسوأ حالاً منهم بما يلحقه من الإثم فى عيبهم، والوقيعة فيهم، وربما أداه ذلك إلى العجب بنفسه ورؤية أنه خير منهم.

ولقد أنكر النبى ﷺ أشد الإنكار على أسامة بن زيد ﷺ حين قتل الرجل، بعد أن نطق بالشهادتين، فقال له النبى ﷺ: **«قتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟ قال: فكيف تصنع بلا إله إلا الله؟** قال: يا رسول الله! استغفر لى. قال: **وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟»**(٤)

فقوله: **«أفلا شققت عن قلبه»** فيه دليل للقاعدة المعروفة فى الفقه والأصول، أن الأحكام يعمل فيها بالظواهر، والله يتولى السرائر.

وتقوى هذه القاعدة، قاعدة: **«اليقين لايزال بالشك»** فمن دخل الإسلام بيقين لا يجوز إخراجه منه إلا بيقين، وأن المعاصى مهما كانت فهى لا تخرج المسلم عن دينه إلا إذا قَرَنَ بها استخفافًا بحكم الله، أو اعتراضًا عليه.

إنَّ هؤلاء المارقين، وأمثالهم من الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، لقد زين لهم الشيطان سوء عملهم، فرأوه حسنًا، إنهم يبغضون الله

---

(١) رواه مسلم (١١١٤) والنسائى (٢٢٦٣) والترمذى.
(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود وأحمد.
(٣) رواه مسلم (٢٦٢٣).
(٤) رواه مسلم (٩٦) وأبو داود (٢٦٤٣).

إلى عباده، وقد نهى عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال: «**لا تبغضوا الله إلى عباده،** فيكون أحدكم إمامًا، فيطول على القوم الصلاة حتى يبغض إليهم ما هم فيه».

إن أمثال هؤلاء لا يلتمسون لإخوانهم المعاذير، بل يسارعون بالحكم عليهم لأدنى شبهة، أو لأتفه الأسباب، يظنون بهم ظن السوء، بل إنهم يحاولون إفشاء عيوبهم من خلال سوء الظن بهم، ألم يعلم هؤلاء أن الإسلام الحنيف حذر من سوء الظن بالآخرين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾ [الحجرات: ١٢] ونبى الإسلام ﷺ حذر من سوء الظن بالآخرين، فقال: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث**»[١]

وكان بعض السلف يقول: إنى لألتمس لأخى المعاذير من عذر إلى سبعين، ثم أقول: لعل له عذرًا آخر لا أعرفه.

فمن سار على نهج الإسلام، علم أنه دين السماحة واليسر، وعدم الحرج، لأن الله تبارك وتعالى لم يكلف العباد من الأعمال ما لا طاقة لهم به، وقد أسقط عنهم كثيرًا من الأعمال بمجرد المشقة رخصة عليهم ورحمة لهم.

ولذلك يقول نبى الرحمة ﷺ: «**استقيموا ولن تحصوا**»[٢] أى لا تقدروا بفعل الخير كله، ولا تستطيعوا أن تفعلوا الاستقامة كلها، وروى الحاكم بن حزن الكلفى قال: «وفدت إلى رسول الله ﷺ فشهدت معه الجمعة، فقام رسول الله متوكئًا على عصا أو قوس، فحمد الله وأثنى عليه بكلمات خفيفات طيبات مباركات، ثم قال: «**أيها الناس، إنكم لن تطيقوا ولن تفعلوا كل ما أمرتكم به، ولكن سددوا، وأبشروا**»[٣] وقد حذر الرسول ﷺ من التنطع فى الدين، فقال ﷺ: «**هلك المتنطعون**» قالها ثلاثًا[٤] والمتنطع هو المتعمق فى البحث عما لا يعنيه أو عن الأشياء التى سكت عنها الشارع، أو المتشدد المتغالى فى أمور الدين والعبادة ولذلك نهى ذلك الرجل الذى رآه ﷺ وهو يخطب، وهو قائم فى الشمس، حين سأله عنه، فقال أصحابه: هذا أبو إسرائيل، نذر أن يقوم فى الشمس ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم، فقال لهم: «**مروه فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه**»[٥]

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) رواه أحمد فى مسنده وابن ماجه والحاكم بإسناد صحيح انظر الإرواء برقم (٤١٢).

(٣) صحيح سنن أبى داود للألبانى (٩٦ ١).

(٤) رواه مسلم من حديث ابن مسعود مرفوعًا.

(٥) رواه البخارى.

فتلك أخى الحبيب سماحة الإسلام ويسره ورحمته بأتباعه: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] فاشكر الله تعالى على هذه النعمة، بل اشكر الله تعالى أن جعلك من المسلمين ومن أمة النبى الأمين ﷺ، واعلم أن العبرة ليست بكثرة العمل، ولكن بالمداومة عليه، أسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا لسلوك مناهج المتقين، وأن يجعلنا بفضله وكرمه من عباده المخلصين، وأن يوفقنا لصالح الأعمال، وأن ينجينا من جميع الأهوال وأن يؤمننا من الفزع الأكبر يوم الرجف والزلزال، وأن يغفر لنا ولجميع المسلمين. يا رب العالمين.

## الوصية رقم (٩٠)
## قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا

عن ربيعة بن عباد الديلمى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يمشى بسوق عكاظ وهو يقول: **«يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»** إلا أن وراءه رجلاً أحول، وضيئ الوجه، ذا غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب، فقلت من هذا؟ قالوا: محمد بن عبد الله، وهو يذكر النبوة، قلت: ومن هذا الذى يكذبه؟ قالوا: عمه أبو لهب، ورأيته وهو يكرر عليهم، ويقول: **«يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»**(١)

**صدق رسول الله ﷺ**

### • فى رحاب هذه الوصية •

ها هو رسولنا محمد ﷺ يوصى الناس أجمع، بأن يقولوا: لا إله إلا الله فهى شجرة التوحيد، يريد أن يزرعها فى قلوبهم، يريد أن يغرسها فى أرواحهم وعقولهم لأن هذه الشجرة أرضها: القلب، وسماؤها: معرفة الله تعالى، وفروعها: الأعمال الصالحة، وثمرتها: طيب الحياة الدنيا، والفلاح فى الآخرة. وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة، ولا ممنوعة، فكذلك ثمرة التوحيد والإخلاص لا مقطوعة ولا ممنوعة.

ويريد الرسول ﷺ من أهل مكة فى بداية الدعوة أن يقتلع جذور شجرة الشرك من قلوبهم، يريد أن ينزع من قلوبهم عبادة اللات والعزى ومناة وهبل، يريد أن يقطع هذه الشجرة التى تغلغلت فى أرواحهم «شجرة الشرك» التى تثمر الهم والخوف والهلع والفزع، والخسران فى الدنيا والآخرة، يريد أن ينزعها ليغرس شجرة التوحيد، وشتان بين الشجرتين، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١٥٩٦٥) جـ١٢/ ٤١٩ بإسناد صحيح، وذكره الهيثمى بنحوه فى المجمع ٦/ ٢٢ وعزاه لعبد الله بن أحمد وقال: رجاله ثقات.

السَّماءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤: ٢٦].

## • الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو لهب •

أبو لهب هو أحد أعمام النبى ﷺ، واسمه: «عبد العـزى بن عبد المطلب» ويكنى «بأبى عتبة» وقد سمى بهذا الاسم «أبو لهب» لإشراق وجهه، ولتلهب وجنتيه، وكأن كنيته من جنس عمله، ومآله إلى ذات اللهب، فوافقت حاله كنيته، فحسن ذكره بها.

كان أبو لهب أحد الأعداء الألداد لرسول الله ﷺ من بداية الدعوة، فانظر إلى سيد الخلق ﷺ، وقد خرج إلى بطحاء مكة، وصعد الجبل، ثم نادى: «**يا صباحاه**» فاجتمعت إليه قريش، فقال: «**أرأيتم إن حدثتكم أن العـدو مصبحكم أو ممسيكم أكنـتم تصدقونى؟** قالوا: نعم. قال: «**فإنى نذير لكم بين يدى عذاب أليم**» فقال أبو لهب: تبًّا لك يامحمد، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾(1) [المسد: ١].

ولما قال ذلك لرسول الله ﷺ قام ينفض يديه، فكان الجـزاء من جنس عمله، دعاء بدعاء، ولفظـة بلفظة، وشتان بين الدعاءين، الأول مـن أبى لهب، والثانى من خالق أبى لهب.

روى أن أبا لهب قـال: «إنْ كان ما يقـول ابن أخى حقـًا، فإنى أفتـدى نفسى يوم القيامة بمالى وولدى، فنزل قوله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد:٢].

ولما مات إبراهـيم ابن رسول الله ﷺ، ذهب أبو لهب إلى المـشركين، وقـال: بتر محمد الليلة، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] قاله عطاء.

ولما أجمع بنو هاشم بقيـادة أبى طالب على حماية النبى ﷺ، حتى ولو لم يكونوا على دينه، تلبية لدافع العصبية القبلية، خرج أبو لهب على إخوته، وحالف عليهم قريشًا، وكان معـهم فى الصحيـفة التى كتبـوها بمقاطعة بنى هـاشم، وتجويعهم لكى يسـلموا لهم محمدًا ﷺ، وكان قد خطب بنتى الرسول ﷺ: رقية، وأم كلثوم، لولديه قبل بعثة النبى ﷺ، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما، حتى يثقل كاهل رسول الله بهما ولم يكن يؤذى الرسول فحسب بل كان يؤذى أصحابه.

**قال السهيلى فى الروض الأنف:**

كانت الصحابة إذا قدمت عير إلى مكة، يأتى أحدهم السوق ليشترى شيئًا من الطعام قوتًا لعياله، فيقوم أبو لهب، فيقول:

---

(١) رواه البخارى فى كتاب التفسير.

يا معشر التجار، غالوا على أصحاب محمد، حتى لا يدركوا معكم شيئًا، وقد علمتم مالى ووفاء ذمتى، فأنا ضامن لا خسارة عليكم، فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافًا حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع، وليس فى يده شىء يطعمهم به.

فيغدوا التجار على أبى لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعًا وعريًا.

لكن ما أغنى عنه ماله وكسبه، ولا أغنى عنه أولاده من الله شيئًا.

قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: رماه الله بالعدسة، فقتله، فلقد تركه ابناه بعد موته ثلاثًا، ما دفناه حتى أنتن، وكانت قريش تتقى هذه العدسة، كما تتقى الطاعون، حتى قال لهم رجل من قريش: ويحكما، ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن فى بيته لا تدفنانه؟! فقالا: إنَّا نخشى عدوة هذه القرحة، فقال: انطلقا فأنا أعينكما عليه، فو الله ما غسلوه إلا قذفًا بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه، ثم احتملوه إلى أعلى مكة فأسندوه إلى جدار، ثم رخموا عليه بالحجارة.

فلم يغن ماله، ولا ولده عنه من الله شيئًا وكان جزاؤه من جنس عمله.

## • أقوال العلماء فى معنى «لا إله إلا الله» •

**قال الإمام ابن تيمية:**

الإله هو المعبود المطاع، الذى تألهه القلوب بحبه، وتخضع له، وتذل له، وتخافه وترجوه، وتنيب إليه فى شدائدها، وتدعوه فى مهماتها، وتتوكل عليه فى مصالحها، وتلجأ إليه، وتطمئن بذكره، وتسكن إلى حبه، وليس ذلك إلا لله وحده، ولهذا كله كانت «لا إله إلا الله» أصدق الكلام، وكان أهلها.

**وقال ابن القيم:**

«الإله» هو الذى تأله القلوب محبة وإجلالاً، وإنابة وإكرامًا وتعظيمًا وذلاً، وخضوعًا وخوفًا، ورجاء وتوكلاً

**وقال ابن رجب الحنبلى:**

«الإله» هو الذى يطاع فلا يعصى، هيبة له وإجلالاً، ومحبة وخوفًا، ورجاء وتوكلاً عليه، وسؤالاً منه، ودعاءً له، ولا يصلح هذا كله إلا لله عز وجل. فمن أشرك مخلوقًا من هذه الأمور التى هى من خصائص الإلهية كان ذلك قدحًا فى إخلاصه فى قول: «لا إله إلا الله» وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك.

**وقال القرطبى**: أى لا معبود إلا هو.

فلا معبود بحق إلا الله، ولا مالك إلا الله، ولا حكيم ولا عليم إلا الله، فالكل مفتقر إليه والكل محتاجون إليه، ومضطرون إليه، والاستعانة به وحده.

قال تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ [محمد: ١٩] وقال سبحانه: ﴿**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة: ١٦٣].

ولا إله إلا الله لا تصح من العبد، ولا يدخل الإيمان بها إلا إذا قرنها بقوله: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

| | |
|---|---|
| **أغر عليه للنبوة خاتم** | **من الله ميمون يلوح ويشهد** |
| **وضم الإله اسم النبى إلى اسمه** | **إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد** |
| **وشق له من اسمه ليجله** | **فذو العرش محمود وهذا محمد** |

## • لا إله إلا الله عقيدة وجهاد •

لا إله إلا الله هى الطريق الذى تعب من أجله الأنبياء والرسل عليهم السلام، ثم أوائل هذه الأمة المحمدية.

طريق تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورمى فى النار الخليل، واضطجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبث فى السجن بضع سنين، ونشر بالمنشار زكريا، وذبح السيد الحصور يحيى، وقاسى الضر أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر، وأنواع الأذى محمد ﷺ

ما هى الجناية التى ارتكبها إبراهيم عليه السلام حين قُدم لمحكمة النمرود؟ لا شىء سوى أنه كان يقولُ لهم: قولوا: «لا إله إلا الله» لأن إبراهيم عليه السلام ضرب الوثنية فى جبهتين من جباه الشرك: ١- جبهة عبادة الكواكب.

٢- جبهة عبادة الأصنام: ﴿**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [الأنعام ٧٦: ٧٩].

إن سيدنا إبراهيم عليه السلام أوتى الرشد فى بيئة عراقية لا تعرف الله، إنما عبدت ما نحتت، وسجدت لعالم الكواكب الذى يسجد لخالقه الواحد الديان جل فى علاه، وعلى حين غفلة التقى إبراهيم بأمه، فسألها. وقال: يا أماه من ربى؟ وكان إبراهيم عليه السلام فى سن الطفولة المبكرة، فقالت له: أنا ربك يا إبراهيم، فقال: ومن ربك؟ قالت: أبوك. قال:

ومن رب أبى؟ قالت: النمـرود. قال: ومن رب النمرود: قالت له: لا تتـكلم بهذا الكلام بعد اليوم يا إبراهيم.

لكن كيف لا يتكلم وفى قلبه شجرة التوحيد، وهى شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء؟ كـيف لا يتكلم وهو الذى يهتف بلـسان اليقين، ومنطق الحق المـبين، ويقول: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٧: ٨٢].

ويتوجه بعد ذلك إلى قلعة الأصنام، فيحطمها، ويجعلها جذاذًا إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون.

ما الجريمـة التى ارتكبها سيـد العالمين، وإمام النبيـين، وقائد الغر المحجلـين سيدنا محمد يوم أن خرج من مكة فى ظلام الليل مهـاجرًا إلى المدينة المنورة؟ ما هى المخالفة التى ارتكبها حينئذٍ؟ ليس إلا أنه: ﴿أجعل الآلهة إلها واحداً﴾ كل ما قاله لهم: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا.

ماهى الجناية التى فعلها بلال بن رباح ﷺ حين كان يعذبه أمية بن خلف، ويضربه ضربًا مبرحًا، ويضع الصخر على بطنه، ويأمر الـصبيان أن يجروه على رمال مكة الملتهبة؟ لا شىء إلا أنه قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

ماذا ارتكب عـبد الله بن حذافـة السهمـى ﷺ حين أسره الروم، وقـال له هرقل: تنصر ولك نصف ملكى؟ فـقال له عبد الله: لا إله إلا الله، فحبسـوه، وأدخلوا عليه امرأة ساقطة، وأخذت تراوده عن نفسه، ولكنه لم ينظر إليـها، فوضعوا له خمرًا، ولحم خنزير، وأجاعوه وعـطشوه لكى يشرب الخمـر، ويأكل لحم الخنزير لكنه مـا أكل لحم الخنزير، ولا شرب الخمر، ولما سئل: لمَ لم تأكل وأنت مـضطر؟ قال لهم: كيف أشمت أعداء الإسلام فى دين الإسلام!.

فدعو بالـبقرة -وهى قدر كبـير من النحاس- فملئـت زيتًا، وأوقد تحتهـا النار حتى غليت، وجىء برجل من الأسرى، وعرض عليه النصرانية فأبى، فوضع فى القدر حتى ذاب عظمه مع لحمه، فـقيل لعبد الله. تنصر وإلا ألقيتك فى القدر، فـأبى، فأمر به أن يلقى فى القدر، فبكى، فـقالوا: قد جزع، ردوه، فقال: لا ترى أنى بكيت جـزعًا مما تريد أن تصنع بى، ولكنى بكيت لأن لى نفس واحدة، وكنت أتمنى أن يكـون لى بعدد شعرى أنفس يُفعل بها هذا فى الله، فقـال له: قبل رأسى وأطلقك. قال: ما أفعل. قـال: تنصر وأنا أزوجك ابنتى، وتقاسمنى ملكى. قال: ما أفعل: قـال قبل رأسى وأطلق معك ثمانين من المسلمين،

فقال: أما هذه فنعم، فقبّل رأسه، فأطلقه وأطلق معه ثمانين من أصحابه المسلمين، فلما قدم على عمر قال: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة؟![١]

ماذا جنت سمية أم عمار بن ياسر رضي الله عنهم حين طعنها أبو جهل اللعين فى قبلها بحربته فقتلها، فكانت أول شهيدة فى الإسلام[٢]؟

ماذا ارتكبت هى وزوجها وولدها عمار حين عذبوا بالأبطح فى رمضاء مكة، ويقول لهم رسول البشرية: «**صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة**»[٣]؟

لا شىء سوى أنهم قالوا: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله.

فيا ذوى العقول الصحاح، ويا ذوى البصائر والفلاح، جددوا إيمانكم فى المساء والصباح وقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

## • فضل كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» •

### أخى الموحد:

١- إنها الكلمة التى صاحبها أولى وأسبق الناس إلى شفاعة الحبيب المصطفى ﷺ، فقد سئل ﷺ: «من أسبق الناس إلى شفاعتك يا رسول الله؟ قال: «**من قال لا إله إلا الله مخلصًا من نفسه**»[٤]

٢- إنها أفضل ذكر يذكر المسلم به ربه حيث حل أو ارتحل، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله**»[٥]

٣- إنها أعظم سبب من أسباب دخول الجنة والفوز برضوان الله عز وجل، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، وأن النار حق، أدخله الله الجنة من أى أبواب الجنة الثمانية شاء**» وفى رواية: «**أدخله الله الجنة على ما كان معه من العمل**»[٦]

**قال الحافظ:** معنى قوله: «**على ما كان من العمل**» أى من صلاح أو فساد، لأن أهل التوحيد لا بد لهم من دخول الجنة.

وإذا فاز الموحدون بدخول الجنان، هلك المشركون بدخول النيران، لكن الله سبحانه

---

(١) الإصابة لابن حجر ٢/ ٢٩٧بإسناد جيد، وأسد الغابة لابن الأثير ٢/ ٥٧٧، ٥٧٨ وسير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥٨، ٣٥٩ وابن عساكر فى مختصر تاريخ دمشق ١٢/ ٥ / ١

(٢) أسد الغابة ٥/ ٣١٥ وابن أبى شيبة فى كتاب الأوائل ١٤/ ٧٦

(٣) ابن هشام فى السيرة ١/ ٣١٩ وأسد الغابة ٣/ ٣٠٩

(٤) رواه البخارى عن أبى هريرة.

(٥) رواه ابن ماجه والترمذى وابن حبان والحاكم وصححه وحسنه الألبانى فى ص.ج رقم (١١٠٤).

(٦) رواه البخارى ومسلم.

حرم على أهل لا إله إلا الله النار، للحديث الذى فى الصحيح أن عتبان قال: **«إنَّ الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله»**(١)

٤- إن صاحب هذه الكلمة ينجو يوم القيامة من دخول النيران، ويفوز بالجنة والرضوان **«ما من عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة»** قال أبو ذر ﷺ لرسول الله ﷺ: «وإن زنى وإن سرق؟ قال: **«وإنْ زنى وإن سرق ثلاثًا»**، ثم قال فى الرابعة: **رغم أنف أبى ذر»**(٢)

٥- وهى سبب رفع العبد فى الدرجات، وغفران الذنوب والسيئات، فعن عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من دخل السوق، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت، وهو حى لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شىء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة»**(٣) فلما سمع قتيبة بن مسلم بهذا الحديث كان يركب كل يوم فى موكبه، وهو يومئذ أمير، ويأتى السوق، فيقول هذا، ثم يرجع.

ولعل السر فى مضاعفة أجر هذا الذكر أن السوق مكان غفلة، ومكان قبيح، فلذا كان ذكر الله تعالى فيه مضاعف الحسنات.

٦- إنها الكلمة التى تثقل ميزان العبد يوم القيامة، وتنقذه فى أعظم ساعة، أمام مولاه فعن عبد الله بن عمر ﷺ، أن النبى ﷺ قال: **«إنَّ الله سيخلص رجلاً من أمتى على رؤوس الخلائق، يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر، ثم يقول الله تعالى: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتى الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول سبحانه: بلى، إنَّ لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج بطاقة فيها «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فيقول له: أحضر وزنك، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات فى كفة، والبطاقة فى كفة، فتطيش السجلات، وتثقل البطاقة، فإنه لا يثقل مع اسم الله شىء»**(٤)

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده (٢١٣٥٨) جـ١٥/ ٥٣٦ وقال محققه إسناده صحيح.

(٣) رواه البيهقى فى السنن وأحمد فى المسند (٣٢٧) ١/ ٣٠٤ بإسناد ضعفه أحمد شاكر ورواه الترمذى وابن ماجة، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة، وفيه عمر بن دينار ضعيف لكن تابعه جماعة فالحديث حسن بمجموع طرقه.

(٤) رواه ابن ماجه فى السنن والحاكم فى المستدرك وابن حبان فى صحيحه بإسناد صحيح.

٧- إنها الكلمة التى من قالها عصم فى ماله ودمه، ومن أباها فدمه وماله حلال لقول نبى هذه الأمة محمد ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإن قالوها، عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»**[١]

٨- بها كلم الله موسى عليه السلام كفاحًا وأوصى بها نوحًا، وهى التى لا يعدلها شىء فى الوزن، ولو وزنت بالسموات والأرض لرجحت بهن.

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبى ﷺ أن نوحًا عليه السلام قال لابنه عند موته: **«آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع، والأراضين السبع لو وضعن فى كفة، ووضعت لا إله إلا الله بكفة لرجحت بهن، ولو أنّ السموات السبع، والأراضين كن فى حلقة مبهمة، فصمتهن لا إله إلا الله»**[٢]

٩- هى أفضل نعمة أنعم الله بها على عباده، وهى لأهل الجنة كالماء البارد لأهل الدنيا، ولأجلها أعدت دار الثواب، ودار العقاب، ولأجلها أمرت الرسل بالجهاد[٣]

١٠- قال ابن عباس رضي الله عنهما: هى العهد الذى ذكره الله عز وجل فى قوله تعالى: ﴿**لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**﴾ [مريم: ٨٧][٤]

١١- قال سعيد بن جبير: هى العروة الوثقى التى أشار الله إليها فى قوله تعالى: ﴿**فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا**﴾[٥] [البقرة: ٢٥٦].

١٢- كلمة «لا إله إلا الله» هى مفتاح الجنة، ولذلك قيل لوهب بن منبه: «أليس مفتاح الجنة: لا إله إلا الله؟ قال: بلى، ولكن، ليس من مفتاح إلا وله أسنان، فمن أتى الباب بمفتاح بأسنانه فتح له، ومن لم يأت بمفتاح بأسنانه لم يفتح له»[٦] ترى أخى الحبيب، ما هى أسنان هذا المفتاح؟

إنَّ أسنان هذا المفتاح إنما هو الإخلاص، الذى لا يطلع عليه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، لذلك جاء فى الحديث: **«من قال: لا إله إلا الله مخلصًا دخل الجنة»**[٧]

١٣- هى مفتاح السعادة، وأصل الدين وأساسه، ورأس أمره، وساق شجرته، وعمود فسطاطه، وبقية أركان الدين متفرعة عنها، متشعبة منها، مكملات لها، مقيدة بالتزام معناها، والعمل بمقتضاها.

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد وهو فى ص.ج للألبانى (١٣٧١).

(٢) رواه أحمد فى مسنده مطولاً (٦٥٨٣) بإسناد صحيح ٦/ ١٥٤ - ١٥٧

(٣)، (٤)، (٥) هذه الأقوال ذكرتها فى كتابى (من وصايا القرآن) جـ١/ ٤ - ٤١ ط/ التوفيقية.

(٦) البداية والنهاية لابن كثير ٩/ ٣٢٧

(٧) رواه أحمد وأبو نعيم فى الحلية والألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٣٥٥).

١٤- هذه الكلمة هى أفضل ما قاله نبينا محمد ﷺ، ومن قبله من النبيين، ولذلك قال ﷺ: «**أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى: لا إله إلا الله**»(١)

**يقول الفقيه السمرقندى:**

الناس فى إيمانهم على ضربين: منهم من يكون إيمانه له عطاء، ومنهم من يكون إيمانه له عارية، فالعلامة فى ذلك: أن الذى يكون إيمانه عطاء يمنعه إيمانه من الذنوب، ويرغبه فى الطاعات، والذى هو عارية لا يمنعه من الذنوب، ولا يرغبه فى الطاعات، لأنه لا تدبير له فى مكان هو فيه عارية(٢)

فالواجب على كل عاقل أن يكثر من قول: «لا إله إلا الله» بإخلاص من القلب، وإخلاصها أن يمتنع عن محارم الله جل وعلا، وأن يسأل مولاه آناء الليل، وأطراف النهار أن لا ينزع منه الإيمان، ويحفظ نفسه من المعاصى.

| | |
|---|---|
| **أعددت لله حين ألقاه** | **أشهد أن لا إله إلا اللهُ** |
| **أقولها للإله خالصة** | **يرحمنى فى القيامة اللهُ** |
| **لعل يوم الحساب أنج بها** | **يوم العقوبة يوم زاد بلواهُ** |
| **يوم يفوز على الأشهاد قائلها** | **ويخْسرُ الجاحدون نعماهُ** |
| **فهى لدار الخلد قائده** | **ومن عصى فالجحيم مأواهُ** |
| **من قالها للإله مخلصة** | **فهو الذى قد أتاه تقواهُ** |
| **وهو الذى فى الخلد مسكنه** | **الله قد خصه فيها وأرضاهُ** |
| **قد فاز عبد يكون ذاكرها** | **بدار عدن جوار مولاهُ** |
| **يحظى بدار الخلد قائلها** | **طوبى لمن قالها وطوباهُ** |
| **من كان عند الممات قائلها** | **فاز بدنياه وأخراهُ(٣)** |

فارغب أخى الحبيب إلى مولاك أن يثبتك على الكلمة المباركة الخفيفة على اللسان، الثقيلة فى الميزان، المزينة للديوان، والتى يرضى بها الواحد الديان، ويسخط بها اللعين الشيطان وبها يثقل الميزان، فالموازين إذا نصبت يوم القيامة للعباد، فتلك من أعظم الأهوال لأن العبد إذا نظر إلى الميزان انخلع فؤاده، وكثرت خطوبه، وعمت كروبه، فلا تهدأ روعة

(١) رواه الترمذى وحسنه (٣٥٨٥).

(٢) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص٣٢٤

(٣) بستان الواعظين لابن الجوزى ص٥٢، ٥٣

العبد حتى يرى، أيثقل ميزانه أم يخف؟! فإن ثقل ميزانه فقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا، وإنْ خف ميزانه، فقد خسر خسرانًا مبينًا.

واعلم أخى الحبيب أن الله تبارك وتعالى ﴿غَافِرِ الذَّنبِ﴾ [غافر: ٣] لمن استغفره وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٣] لمن تاب وقال: لا إله إلا الله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣] لمن لم يقل: لا إله إلا الله. فهى حرز منيع، وحصن حصين، فمن قالها فقد تحصن من كل سوء.

## • موعظة •

### أخى الحبيب:

قدِّم لنفسك عملاً صالحًا، وانتهز الفرصة فى اليسير من الأيام، قدم ما يقيك الأهوال العظام، والخطوب الجسام، فإن العمر يسير، والأجل قصير، والزاد قليل، والعذاب طويل، واليوم شديد ثقيل، انتهز الفرصة قبل أن يجمع الله الأولين والآخرين، وينادى مناد: هذا يوم الدين: ﴿هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون﴾ [الصافات: ٢١].

فانظر لنفسك يا مسكين، يا ضعيف الإيمان واليقين، يا من يقول: إننى من المؤمنين الصادقين، ماذا أعددت للقاء الله رب العالمين؟! هل أطعت رب الأولين والآخرين؟ هل عملت بالقرآن المبين؟! ونهجت نهج سيد الأنبياء والمرسلين؟ قبل أن تناجى النار ربها ومولاها وتقول بلسان حالها: إلهى، قد اشتد بلائى، وأُخمدت نارى، وعلا حميمى وزقومى، وكثر نتنى وغسلينى، وأكل بعضى بعضًا، فعجل بأهلى، فوعزتك لأنتقمن لك ممن عصاك، واتبع هواه، وجحد آياتك، وأعرض عن توحيدك فلم يقل: لا إله إلا الله. فسبحانه من إله رحيم، يقبل التائبين، ويعفو عن المذنبين، وهو سبحانه لم يجعل لأهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم، ولا عند بعثهم، ولا عند نشورهم، وكأنى بهم وقد خرجوا من قبورهم ينفضون التراب عن رءوسهم يقولون: لا إله إلا الله حتى يدخلوا الجنة، وأما الآخرون فيقولون: من بعثنا من مرْقدنا فيقال لهم: هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون.

فاللهم نور قلوبنا بنور توحيدك، واملأ أفئدتنا حبًا لك، وعطر بذكرك ألسنتنا؟ وبيض وجوهنا بنور فضلك يا رب العالمين.

## الوصية رقم (٩١)

* عن أبى برزَةَ الأسْلَمى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بلسانه، ولَمْ يؤمنْ بقَلبه، لا تـغتابوا المسلمين، ولا تتبـعوا عوارتهم، فإنه من اتبع عـوْراتهم، يتبعُ اللهُ عَوْرته، ومَنْ يَتبعُ اللهُ عَوْرَتهُ، يفضحه فى بيته»(١)

### •وفى رواية•

* عن البـراء رضي الله عنه قال: خَطَبَنَـا رَسُولُ الله ﷺ حتـى أَسْمَعَ العَـواتقَ فى بُيُوتــها، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بلسَانه، ولَمْ يُؤْمنْ بقَلْبه، لاَ تغْـتَابُوا الْمُسْلمينَ، ولاَ تَتَّبعُوا عوْرَاتهم، فَإِنَّــهُ مَنْ يتَّبــع عَوْرَةَ أَخيــه يَتَّبـعُ اللهُ عورْته، وَمَنْ يَـتبعُ اللهُ عـورته يَفْضَـحْـهُ وَهُوَ فـى جَوف بَيْته»(٢)

صدق رسول الله ﷺ

### •ما هى الغيبة؟•

**أخى المسلم:**

هيا بنا لنتعرف على هذا الداء العضال، وتلك العادة المذمومة، وذلك الخلق الوبيل، إنه فاكهة المجالس، أتدرى ما فاكهة المجالس؟ إنها الغيبة!.

الغيبة: مأخوذة من الاغتياب، فيقال: اغتاب الرجل صاحبه اغتيابًا إذا وقع فيه، وهو أن يتكلم خلف إنسان مستور بسوء، أو بما يسوؤه إن سمعه، فإن كان صدقًا فهو غيبة، وإن كان كذبًا فهو البهتان.

**يقول الراغب الأصفهانى:**

**الغيبة:** أن يذكر الإنسان غيره بما فيه من عيب من غير أن أُحوِج إلى ذكره(٣)

**وقال السجستانى رحمه الله:**

**الغيبة:** أن يقال فى الرجل من خُلُقه ما فيه، وإذا استقبل به فتلك المجاهرة، وإذا قيل ما ليس فيه فذلك البهت(٤)

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده رقم (١٩٦٦٤) وصححه حمزة الزين جـ١٥/ ٣٣ ورواه داود وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود رقم (٤٨٨٠) جـ٣/ ١٩٧ والترمذى برقم (٢٠٣٢) وقال حسن غريب وذكره الخرائطى فى مساوئ الأخلاق برقم (١٩٦) ص ٨٦ وأبو الشيخ فى التوبيخ (٩٠) وابن أبى الدنيا فى الصمت (١٦٩) ص ١٢٣ وصححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم (٧٨٦١) وتخريج المشكاة (٥٠٤٤).

(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه ٦/٧ ٥ وفى مصنف عبد الرزاق (٢٠٢٥١) والمطالب العالية (٢٥٦٢) والبيهقى فى دلائل النبوة ٦/ ٢٥٦، والترمذى بنحوه عن ابن عمر وصححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم (٧٨٦٢).

(٣) المفردات للراغب الأصفهانى ص ٣٦٧ (٤) غريب القرآن للسجستانى ص ٢٢٨

لكن ماذا قال فى معناها أستاذ البشرية، وفقيه الإنسانية محمد ﷺ؟

فقد ثبت فى صحيح مسلم أنه ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: **الله** ورسوله أعلم، قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**» قيل: أرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ قال ﷺ: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**»[1]

ومعنى «بهته»: أى افتريت عليه الكذب، والبهتان هو الكذب العظيم، وأصل البهت: أن يقال له الباطل فى وجهه.

وقال ابن التين: الغيبة ذكر المرء بما يكرهه بظهر الغيب.

وقال الإمام النووى رحمه **الله**: ذكر المرء بما يكرهه، سواء كان ذلك فى بدن الشخص، أو دينه، أو دنياه.

## • صفة الغيبة وبم تكون؟•

واعلم أخى المسلم أنَّ الغيبة لا تتوقف على اللسان، بل قد تكون بالجوارح والأعضاء مثل من يمشى خلف الأعرج يمثل مشيته، ومثل من ذكر عند شخص فيخرج لسانه استهزاءً.

**يقول صاحب كتاب «المستطرف فى كل فن مستظرف»:**

والغيبة من أقبح القبائح، وأكثرها انتشارًا فى الناس، حتى لا يسلم منها إلا القليل منهم، وهى ذكرك الإنسان بما يكره، ولو بما فيه سواء كان ذلك فى دينه، أو بدنه أو نفسه أو خَلْقه أو خُلُقه، أو ماله أو ولده، أو زوجته، أو خادمه، أو عمامته، أو ثوبه، أو مشيته أو حركته. سواء ذكرته بلفظك -أى بلسانك- أو بكتابتك، أو رمزت إليه بعينيك، أو يدك أو رأسك، أو نحو ذلك. أما من الناحية الدينية، فقولك عنه: سارق، خائن، ظالم، متهاون بالصلاة، متساهل فى النجاسات، ليس بارًا بوالديه، قليل الأدب، لا يضع الزكاة مواضعها.

أما من الناحية البدنية فقولك: أعمى، أو أعرج، أو أعمش، أو قصير، أو طويل، أو أسود، أو أصفر.[2]

إذن الغيبة ليست فقط باللسان، وإنما قد تكون بالجوارح والأعضاء قال تعالى: ﴿**وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ**﴾ [الهمزة: ١].

والهمز: هو الطعن فى الناس بالقول - باللسان.

واللمز: هو انتقاص الناس بالفعل. وقال سبحانه: ﴿**ولا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ**﴾ [القلم: ١٠، ١١].

فالهماز: هو المغتاب.

والمشاء بالنمَيم، هو الذى يمشى بين الناس بالنميمة.

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٧٨٩) والترمذى (١٩٩٩) وقال: حسن صحيح، ورواه أحمد فى مسنده برقم (٨٩٦٤) والبخارى فى الأدب المفرد (٤٢٥) وابن أبى الدنيا فى الصمت.

(٢) المستطرف فى كل فن مستظرف ص ٩٧ المكتبة التوفيقية.

## • أنواع الغيبة •

**أخى المسلم:**

ويتبين لنا من خلال معنى الغيبة، ومن خلال كلام صاحب كتاب المستطرف أن الغيبة خمسة أنواع وهى:

١ - **النوع الأول: غيبة فى البدن:** كقولك فلان أعمش، أو أعور، أو أحول، أو أقرع، أو طويل، أو قصير، ونحو ذلك من الأمور التى تسيئ إلى صاحبها.

٢- **النوع الثانى: غيبة فى نسبه:**

كأن تذكر نسبه على جهة التنقيص من شأنه كأن تقول: فلان خسيس، أو فاسق، أو أبوه نبطى، أو هندى، أو زبال، أو تقول فلان فلاح تقصد أنه ليس إنسانًا حضاريًّا بل متخلف.

٣- **النوع الثالث: غيبة فى الخلق:**

كقولك فلا سيئ الخُلق، أو فلان بخيل، أو متكبر، أو فلان سريع الغضب، أو تقول: هو إنسان جبان، أولا شخصية له.

٤- **النوع الرابع: غيبة فى شئون الشخص الدينية:**

وهذا النوع هو أخبث أنواع الغيبة، لأن المغتاب يفهم الغيبة بطريقة الصالحين فيقول مثلاً إذا ذكر شخص أمامه: ذاك المسكين قد ابتلى بآفة عظيمة، تاب الله علينا وعليه، فهو يظهر الدعاء ويخفى قصده.

أو أن يقول مثلاً: نعوذ بالله من قلة الحياء، أو نسأل الله العافية، أو الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان أو نحو ذلك[١]، كأن يقول فى مجلس إخوانه: لقد أحزننى ما حدث لصديقنا فلان، فنسأل الله أن يهديه، وهو كاذب فى نفسه.

وما علم الجاهل أن الله يعلم سرهم ونجواهم، وما علم الجاهل أنه يتعرض بذلك لغضب الله تعالى عليه.

٥- **النوع الخامس: غيبة تتعلق بأمر دنيوى:**

كأن تقول على شخص، فلان كثير النوم، أو فلان يأكل كثيرًا، أو ثيابه قذرة، أو نحو ذلك.

**أخى المسلم:**

وقد تحصل الغيبة بالقلب، وذلك سوء الظن بالمسلمين.

---

(١) انظر مختصر منهاج القاصدين ص ٢٦٦ ط/ دار القلم.

والظن هو التهمة بغير سبب، ومن غير دليل، أو هو ما تركن إليه النفس، ويميل إليه القلب.

وقد نهانا رب العالمين عن سوء الظن بالناس من غير دليل، وبمجرد أوهام تقع فى هواجس النفس، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] وتأمل بلاغة القرآن الحكيم: ﴿إِنَّ بعض الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ لماذا؟ لأن الإسلام لا يريد من أصحابه أن تكون ضمائرهم ملوثة بالظن السيئ، ولكنه يريد أن يدعها نقية بريئة من الشكوك، يريد أن يدعها صافية هادئة لا يعكرها شك أو قلق، فما أروع الحياة فى مجتمع برىء من الظنون والشكوك!

وقد حذر سيد العالمين، ورسول رب العالمين ﷺ من الظن السيئ فقال محذرًا: **«إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»**(١)

يقول عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أحسن بصاحبك الظن ما لم يغلبك(٢)

ويقول سفيان الثورى رحمه الله: الظن ظنان، فظن فيه إثم، وظن ليس فيه إثم، فأما الظن الذى فيه إثم فالذى يتكلم به، وأما الظن الذى ليس فيه إثم، فالذى لا يتكلم به(٣)

فمتى خطر لك خاطر سوء على مسلم، فينبغى أن تزيد فى مراعاته، وتدعو له بالخير، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك، فلا يلقى إليك خاطر السوء خوفًا من أن تشتغل بالدعاء، وإذا تحققت من هفوة مسلم، فانصحه فى السر فللّه در الشافعى حين قال:

**تعمدنى بنصحك بانفرادى ... وجنبنى النصيحة فى الجماعة**

**فإن النصح بين الناس نوع ... من التوبيخ لا أرضى استماعه**

## • المستمع شريك القائل •

واحذر أخى المسلم أن تكون شريكًا للمغتابين، وذلك يكون بالجلوس معهم وقت الغيبة، والإصغاء لهم على جهة التعجب فيزداد حينئذ نشاطهم فى الغيبة، وأنت لا تدرى أن التصديق والإصغاء للغيبة غيبة، بل إنَّ الساكت عليها شريك هو الآخر للمغتاب، ولن يتخلص من هذه الشركة فيها إلا بإنكاره بلسانه وبقلبه، فينهى صاحب الغيبة عنها بأن يخوض فى حديث آخر، فإن عجز فعليه أن يفارق المجلس، ولا ينفعه أن يقول بلسانه:

(١) رواه البخارى، ومسلم برقم (٢٥٦٣) وأبو داود رقم (٤٨٨٢) والترمذى (١٩٢٨) والموطأ جـ٢/ ٩٠٧

(٢) حلية الأولياء لأبى نعيم جـ٥/ ٢٧٧

(٣) حلية الأولياء جـ٧/ ١٦

اسكت وقلبه مشته لاستمراره، فعن خالد الربعى قال: «دخلت المسجد، فجلست إلى قوم، فذكروا رجلاً، فنهيتهم عنه، فكفوا ثم جرى بهم الحديث، حتى عادوا فى ذكره، فدخلت معهم فى شىء، فلما كان من الليل رأيت فى المنام كأن شيئًا أسود طويلاً جداً معه طبق أبيض عليه لحم خنزير، فقال: كل. قلت: آكل لحم خنزير والله لا آكله، فأخذ بقفاى وقال: كل وانتهرنى انتهارة شديدة، ودسه فى فمى، فجعلت ألوكه ولا أسيغه، وأفرق -أى أخاف- أن ألقيه، واستيقظت من النوم، فو الله لقد مكثت ثلاثين يوما -أو أربعين- ما أكلت طعامًا إلا وجدت طعم ذلك اللحم فى فمى»[١] فُعِلَ به ذلك لأنه يعتبر مشاركًا للمغتاب، ولم يغتب. ولذلك ينصح أحد الصالحين أخاه ويحذره فيقول له: «ويلك. نزه سمعك عن استماع الخنا كما تنزه لسانك عن القول به، فإن المستمع شريك القائل، فإنما نظر إلى شر ما فى وعائه، فأفرغه فى وعائك..»[٢]

ولله در القائل:

والمرء إن كان عاقلاً ورعًا ... أشغلهم عن عيوبهم ورعه

كما أنَّ العليل السقيم أشغله ... عن وجع الناس كلهم وجعه[٣]

## • ذم الغيبة والمغتابين •

### أخى المسلم:

لقد وردت آيات عن القرآن الكريم، وأحاديث من السنة النبوية، وآثار من السلف الصالح رضوان الله عليهم تذم الغيبة والمغتابين، فماذا قال القرآن الكريم عن ذمها؟.

**أولا: القرآن الكريم يذم المغتابين:**

هيا بنا لنفتح سويًا كتاب الله تعالى على سورة من أجل سور القرآن الكريم، سورة تعلم المسلم السلوك مع ربه ومولاه، وتعلمه السلوك مع رسوله ونبيه، ثم تعلمه السلوك الصحيح السوى بين أفراد مجتمعه، إنها سورة الآداب، سورة الحجرات، افتح المصحف على الآية رقم ١٢ والتى يقول الله جل وعلا فيها: ﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] «فلقد شبه المغتاب بالكلب، والكلب هو الحيوان الوحيد الذى يأكل لحم أخيه بعد موته، فالأسد لا يفعلها، وكذلك الذئب، حتى الثعلب يشمئز منها ولا يفعلها. لا يفعلها إلا الكلب[٤].

---

(١) أورده ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت ص١٣٢، والغيبة والنميمة ص٤٢. وذكره الترمذى فى إتحاف السادة المتقين ٧/ ٥٣٨

(٢) ذكره ابن قتيبة فى عيون الأخبار جـ٢/ ١٤ وابن أبى الدنيا فى الصمت ص١٦٦، والغيبة والنميمة ص ١١، وسمير الصالحين للشهاوى جـ٢/ ٩٥

(٣) من قول أبى العتاهية.

(٤) فاكهة المجالس فضيلة الشيخ وحيد بن عبد السلام ص٩

قال ابن عطية الأندلسى فى تفسيره: «مثّل الله تعالى الغيبة بأكل لحم ابن آدم الميت، والعرب تشبه الغيبة بأكل اللحم، فمنه قول الشاعر سويد بن أبى كاهل اليشكرى:

**فـــإذا لاقيـــتـــه عظمـنـى وإذا يخلو له لحمى رتع**[١]

يا له من تشبيه بشع عجيب، تجعل النفس تنفر، وتجعلها تشمئز، من الذى يمكن أنْ يفعل ذلك؟ إنه المغتـاب، إنه ذلكم الشخص الذى يخوض فى أعراض العـباد ففى الحديث عن أبى هريرة رضي الله عنه فى قصة ماعز بن مالك الأسلمى رضي الله عنه، وطلب من رسول الله ﷺ أن يطهره من الزنا، فلما أمر النبى برجمه سمع النبى ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر هذا الذى تستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلاب. ثم سار النبى حتى مر بجيفة حمار فقال: «**أين فلان وفلان؟ انزلا، فكلا من جـيفة هذا الحمار**» قالا: غفر لك يا رسول الله: وهل يؤكل هذا؟

قال ﷺ: «**فما نلتمـا من أخيكما آنفًا أشد أكلاً منه، والذى نـفسى بيده إنه الآن لفى أنهار الجنة ينغمس فيها**»[٢]

ويعلق ابن القيم رحمه الله على تلك الآية الكريمـة فيقول: «هذا من أحسن القياس التمثيلى، فإنه شبه تمزيق عرض الأخ بتمـزيق لحمه. ولما كان المغتاب يمزق عرض أخيه فى غيبته، كان بمنـزلة من يقطع لحمه فى حال غيبة روحه عنه بالموت. ولـما كان المغتاب عاجزًا عن دفعه عن نـفسه بكونه غائبًا عن مـجلس ذمه، كان بمنزلة الميت الذى يـقطع لحمه، ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه.

ولما كان مقـتضى الأخوة التراحم، والتواصل، والتـناصر، فعلق عليها المـغتاب ضد مقتضاها مـن الذم، والعيب، والطعن، كان ذلك نظير تقطيع لحم أخيـه، والأخوة تقتضى حفظه وصيانته، والذب عنه.

ولما كان المغتاب متمتعًا بعرض أخيه، متفكها بغيبته وذمه، متحليًا بذلك شُبه بأكل لحم أخيه بعد تقطيعه[٣]

## أخى المسلم:

فإذا مـا تركت سورة الآداب، وسرت مع سـور القرآن سيرًا سـريعًا، شدَّ انتـباهك افتتاح سورة من سوره، وهى سـورة الهمزة، افتتحت افتتاحًا شديـدًا، افتتحت بالويل مثل سورة المطففين، قال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

---

(١) تفسير ابن عطية ٥/ ١٥٢

(٢) رواه أبو داود بمعناه، والبيهقـى وأبو يعلى وذكره ابن كثير فى تفسيـره جـ٤/ ٢١٥ وقال: إسناده صحيح ط/ مكتبة الدعوة الإسلامية شباب الأزهر، وقد رواه البخارى فى الأدب المفرد برقم ٧٥٨ ص١٥٩

(٣) أعلام الموقعين لابن القيم ١/ ٣ ٢

والويل هو: واد فى جهنم شديدٌ عذابه، أليم عقابه.

**يقول ابن كثير**[١]: الهماز بالقول، واللماز بالفعل، يعنى يزدرى الناس وينقصهم، قال ابن عباس: همزة لمزة، طعان معياب، وقال الربيع بن أنس: الهمزة يهمز فى وجهه واللمز من خلفه، وقال قتادة: الهمز واللمز لسانه وعينه ويأكل لحوم الناس ويطعن عليهم، وقال مجاهد: الهمز باليد والعين، واللمز باللسان، وقال: الآية عامة»[٢]

وقال سفيان الثورى رحمه الله: يهمز بلسانه، ويلمز بعينيه[٣]

وعن أبى الجوزاء قال: قلت لابن عباس: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ «من هؤلاء الذين يذمهم الله بالويل؟ فقال: هم المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة، الناعتون للناس بالعيب»[٤]

فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس

فلله در القائل:

**إذا ما ذكرت الناس فاترك عيوبهم ... فلا عيب إلا دُونَ ما منك يُذكر**

**فإن عبت قومًا بالذى فيك مثله ... فكيف يعيب العور من هو أعور؟!**

**وإن عبت قومًا بالذى هو فيهم ... فذلك عند الله والناس منكر**

## ثانيًا: السنة النبوية تذم المغتابين:

أخى الحبيب:

وبعدما قطفنا تلك الأزهار من حدائق القرآن، هيا بنا لنقطف من السنة النبوية، ونقف فى ظلالها لنتعرف على ذم هذا الخلق الوبيل، وذلك الداء العضال، الذى يحتاج إلى علاج مستمر، بل نحن فى حاجة ماسة ألاَّ نغفل عن علاجه طرفة عين، فقل من عافاه الله منه، والأحاديث التى تبين خطورة هذا المرض كثيرة جدًّا منها:

ما رواه أحمد فى مسنده عن جابر قال: كنا مع رسول الله ﷺ فارتفعت ريح منتنة، فقال رسول الله ﷺ **«تدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين»**[٥]

وقيل لبعض الحكماء: ما الحكمة فى أنَّ ريح الغيبة ونتنها كانت تتبين على عهد رسول الله ﷺ، ولا تتبين فى يومنا هذا؟

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤/٥٤٨ مكتبة الدعوة الإسلامية. (٢) تفسير ابن كثير جـ٤/٥٤٨.

(٣) تفسير القرطبى المجلد رقم ١ (٤) تفسير الفخر الرازى المجلد ١٦/ ٦٣٢

(٥) رواه البخارى فى الأدب المفرد برقم (٧٥٤) ص١٥٩ باب الغيبة للميت، والخرائطى فى مساوئ الأخلاق (١٨٧) وأبو الشيخ فى التوبيخ (١٧٩) وابن أبى الدنيا فى الصمت برقم (٢١٧) ص١٤٨ وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨/ ٩١ وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات. وفى سنده خالد بن عرفطة وهو مقبول كما فى التقريب ١/ ٢١٦

قال: لأن الغيبة قد كثرت فى زماننا، فامتلأت الأنوف منها، فلم تتبين الرائحة، وهى النتن، ويكون مثال هذا: مثال رجل دخل دار الدباغين، لا يقدر على القرار فيها من شدة الرائحة، وأهل تلك الدار يأكلون فيها الطعام، ويشربون الشراب، ولا تتبين لهم الرائحة، لأنه قد امتلأت أنوفهم منها، كذلك أمر الغيبة فى يومنا هذا[١]

وفى حديث هذه الوصية: «**يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان فى قلبه، لا تغتابوا المسلمين....**»[٢]

فتأمل نداء الرسول ﷺ بقوله: «يا معشر» والمعشر هم جماعة من الناس أمرهم واحد، ومنه قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ [الرحمن: ٣٣].

وقد تكرر كثيرًا فى القرآن الكريم[٣]، وفى السنة النبوية المطهرة، ومن ذلك: على سبيل المثال: «**يا معشر المسلمين إياكم والزنا**»[٤]، «**يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم..**»[٥]، «**يا معشر الأنصار أكرموا إخوانكم فإنهم أشباهكم فى الإسلام**»[٦]، «**يا معشر التجار إن هذا البيع يحضره الحلف...**»[٧]، «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج...**»[٨]، «**يا معشر المهاجرين والأنصار إن من إخوانكم قومًا ليس لهم مال...**»[٩]، «**يا معشر النساء تصدقن..**»[١٠]، «**يا معشر اليهود وأنتم أبغض الخلق إلىّ، قتلتم الأنبياء...**»[١١]

---

(١) تنبيه الغافلين ص١٢٢ تحقيق السيد العربى - مكتبة التقوى.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) قد تكرر النداء بـ (يا معشر) ثلاث مرات فى القرآن مرتان فى سورة الأنعام آية ١٢٨، ١٣٠، وواحدة فى الرحمن.

(٤) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ٤/ ١١ بسند ضعيف لأجل مسلمة بن على الخشنى فهو متروك، وأخرجه الخرائطى فى مساوئ الأخلاق برقم (٤٧٦).

(٥) رواه أحمد فى مسنده بسند صحيح رقم (٨٧١١).

(٦) رواه أحمد فى مسنده برقم (١٥٤٩٦) بسند صحيح جـ١٢/ ٢٣١

(٧) رواه أبو داود (٣٣٢٦) والترمذى (١٢٠٨) وقال: حسن صحيح والنسائى (٣٧٩٧) وأحمد فى المسند (١٦٠٨٠) وابن ماجه (٢١٤٥) والحاكم وصححه ووافقه الذهبى.

(٨) رواه البخارى ومسلم وأحمد وغيرهم.

(٩) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى ٢/ ٩٠ وأحمد فى مسنده برقم (١٤٧٩٩) بسند صحيح والبيهقى فى الشعب.

(١٠) رواه مسلم وأحمد فى المسند (٥٣٤٣) جـ٥/ ٢٧ وصححه الشيخ أحمد شاكر.

(١١) رواه أبو داود والبيهقى، وابن ماجه، والدارقطنى، وأحمد فى مسنده (١٤٨٩٤) جـ١٢/ ٣٣ بسند صحيح.

وقد تكرر هذا النداء كثيرًا فى السنة، والمقصود به هنا فى وصية: **«يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان فى قلبه...»** التنبيه على أن المغتاب مؤمن فقط باللسان دون القلب، وذلك من شعار المنافقين لا المؤمنين الصالحين.

## أخى المسلم:

وتأمل ذلك الموقف الذى يدل على خطر الغيبة، وأنها داء ذميم يجب على المسلم أن يقلع عنه، لقد كانت السيدة صفية ﵂ زوج رسول الله ﷺ عنده فى يوم من الأيام، وكان ذلك بحضور السيدة عائشة، فلما ذهبت صفية، قالت عائشة لرسول الله ﷺ: «حسبك من صفية، فإنها كذا وكذا -تعنى أنها قصيرة- فقال ﷺ: **«لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»**[1] أى أنَّ هذه الكلمة من شدة خطورتها، لو تجسدت، وطرحت فى ماء بحر لغيرت لونه، وهذا كناية عن شدة خطرها وفسادها.

وعن ابن سعيد عن عمرة قالت كنت عند عائشة، فخرجت امرأة وذيلها فى البيت، فقالت امرأة: ما أطول ذيلها!! فقالت عائشة: **«اغتبتيها قومى فتحللى»**[2]

يا سبحان الله. كلمة فقط، رأت السيدة عائشة أنها غيبة فى حق هذه المرأة، ويجب عليها أن تتحلل منها، بأن تطلب من المرأة مسامحتها.

ما هذا الخطر؟! كلمة. وما أكثر ما نتكلم، وما أكثر ما نقول؟! وما أكثر ما نذم فلانًا وفلانًا؟

لقد صارت والله صحائفنا ممتلئة بالغيبة، فماذا نفعل؟ ماذا نفعل تجاه هذا الداء الوبيل؟ فتأمل ثم تأمل خطر الغيبة، حتى تنتهى عنها، وتبتعد عنها.

فعن البراء بن عازب ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ **«الربا اثنان وسبعون بابًا أدناها مثل إتيان الرجل أمه، وإنَّ أربى الربا استطالة الرجل فى عرض أخيه»**[3] ومعنى استطالة الرجل فى عرض أخيه: أى إطالة اللسان باغتيابه واحتقاره، والترفع عنه، بسبٍّ أو شتم أو نحو ذلك مما يسيئ إلى صاحبه

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح وذكره ابن أبى الدنيا فى الصمت برقم (٢٠٨) ص١٤٥ وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود برقم (٤٨٧٥).

(٢) ذكره الخرائطى فى مساوئ الأخلاق برقم (١٩٨) ص٨٧ وأبو الشيخ فى التوبيخ (١٩٧) وسنده صحيح.

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط من رواية عمر بن راشد وصححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم (٣٥٣٧) وفى السلسلة الصحيحة برقم (١٨٧١) والمشكاة (٥٠٤٥) وصحيح سنن أبى داود برقم (٤٨٧٦).

ولقد نبه النبى ﷺ على حرمة المسلم فقال: «**كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**»[١] وفى رواية: «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه**»[٢]

فاحذر أخى المسلم أن تغتاب غيرك حتى لا تقع فى الإثم والذنب.

**ثالثًا: السلف الصالح يذمون الغيبة ويحذرون منها:**

## أخى المسلم:

أما إذا تتبعت أقوال السلف الصالح رضوان الله عليهم وجدتها كثيرة، فمنها ما قاله الإمام البخارى رحمه الله تعالى: «أرجو أن ألقى الله تعالى، ولا يحاسبنى أن اغتبت أحدًا»[٣]

وهذا هو ابن وهب -رحمه الله- يقول: «نذرت أنى كلما اغتبت إنسانًا أنْ أصوم يومًا، فأجهدنى، فكنت أغتاب وأصوم، فنويت كلما اغتبت إنسانًا أن أتصدق بدرهم، فمن حب الدرهم، تركت الغيبة. قال الذهبى: هكذا والله كان العلماء، وهذا هو ثمرة العلم النافع»[٤]

وتأمل كيف صور سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه المغتاب عندما مرَّ فى يوم من الأيام على بغل ميت، قد انتفخ، فوقف عليه فقال: «والله لأن يأكل أحدكم من هذا حتى يملأ جوفه خيرًا له من أن يغتاب أخاه»[٥]

يأكل ويملأ بطنه من ذلك الحيوان الميت الذى صار منتفخًا أفضل له من أن يذكر أخاه المسلم بسوء.

بل ذكروا وبينوا أن المغتاب يقدم حسناته إلى من يغتابه ويسيئ إليه، لدرجة أن عبد الرحمن بن مهدى رحمه الله يقول: «لولا أنى أكره أن يُعصى اللهَ، لتمنيت أن لا يبقى أحد فى المصر إلا اغتابنى، أى شيء أهنأ من حسنة يجدها الرجل فى صحيفته لم يعمل بها»[٦]

ولأجل ذلك يقول عبد الله بن المبارك رحمه الله: «لو كنت مغتابًا أحدًا لاغتبت والدى لأنهما أحق بحسناتى»[٧]

---

(١) رواه أبو داود فى سننه، وابن ماجه، والترمذى وحسنه وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود برقم (٤٨٨٢).

(٢) رواه مسلم بنحوه والترمذى برقم ( ١ ٢).

(٣) التاريخ الكبير للبخارى ٤/ ٣٣٦

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبى ٩/ ٢٢٨

(٥) الأدب المفرد للبخارى برقم (٧٥٧) ص١٥٩ بإسناد حسن وذكره ابن أبى الدنيا فى الصمت والخرائطى فى مساوئ الأخلاق برقم ( ٢) ص٨٧، ٨٨.

(٦) سير أعلام النبلاء للذهبى ٩/ ١٩٥

(٧) المستطرف ص٩٨ للإبشيهى.

وعن مالك بن دينار رحمه الله قال: مرَّ عيسى ابن مريم عليه السلام مع الحواريين على جيفة كلب، فقال الحواريون: «ما أنتن ريح هذا!»، فقال عيسى عليه السلام: «ما أشد بياض أسنانه» يعظهم وينهاهم عن الغيبة(١)

وسمع علىُّ بن حسين رجلاً يغتاب رجلاً، فقال: «إياك والغيبة، فإنها إدام كلاب الناس»(٢).

وكان الحسن رحمه الله يقول: «إياكم والغيبة، والذى نفسى بيده، لهى أسرع فى الحسنات، من النار فى الحطب»(٣)

وعن وهب بن منبه رحمه الله أنَّ ذا القرنين عليه السلام قال لبعض الأمم: «ما بال كلمتكم واحدة، وطريقتكم مستقيمة؟ إنه من قبيلٍ لا نتخادع -أى لا يخدع بعضنا بعضًا- ولا يغتاب بعضنا بعضًا»(٤)

ولما رأى هؤلاء، وعرفوا خطورة الغيبة، قال أحدهم، وهو «أبا عاصم النَّبيل»: «ما اغتبت مسلمًا، منذ علمت أنَّ الله حرم الغيبة»(٥)

فلله درُّ عبد الله بن المبارك حين قال:

**تعاهد لسانك إن اللسان ... سريع إلى المرء فى قتله**
**وهذا اللسان بريد الفؤاد ... يدل الرجال على عقله**

وقد ذكر أنَّ الحسن البصرى رحمه الله: أنَّ رجلاً قال له: إنَّ فلانًا قد اغتابك، فبعث إليه الحسن طبقًا من الرطب، وقال: بلغنى أنك أهديت إلىَّ حسناتك، فأردت أن أكافئك عليها، فاعذرنى، فإنى لا أقدر أن أكافئك بها على التمام(٦)

فتأمل أخى المسلم كل ذلك لتعلم أن الغيبة تنقص من حسناتك، التى تعتبر رأس مالك، فى الآخرة عند رب العالمين، يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم تحتاج فيه هذه الحسنة لكى تفوز بالجنة والنعيم، وإلا فمصيرك إلى النار، يوم تتمنى أن يكون ميزانك فيه راجحًا بالحسنات.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: يُحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة، دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم ٢/ ٣٨٢، وإحياء علوم الدين للغزالى ٣/ ١٢٥، وابن أبى الدنيا فى الصمت وآداب اللسان برقم (٢٩٧) ص١٩٢، وذكره الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين ٧/ ٥٣٧.

(٢) ابن أبى الدنيا فى الصمت برقم ٢٩٩ ص١٩٣، والغيبة ١٥٩ والإحياء للغزالى ٣/ ١٢٥

(٣) بهجة المجالس لابن عبد البر ١/ ٣٩٩ وإتحاف السادة المتقين ٧/ ٥٣٧ وابن أبى الدنيا فى الصمت رقم (٢ ٣) وفى الغيبة ١٦٠

(٤) ذكره ابن أبى الدنيا فى الصمت برقم (١٨٦) ص١٣٤، وأورده فى الغيبة والنميمة رقم (٤٨) ص٦٦ والزبيدى فى إتحاف السادة المتقين ٧/ ٥٣٨

(٥) سير أعلام النبلاء ٩/ ٤٨٢

(٦) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص١٢٣، والمستطرف ص٩٨ والرسالة القشيرية ص٢٣٢ مكتبة التوفيقية.

ثم قرأ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣] ثم قال: إنَّ الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح..»(١)

وتأمل رحمة الله للخلق، لقد سبقت رحمته غضبه، ثم يقول ابن مسعود وهو على المنبر: «إنَّ العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشراً، وإذا عمل سيئة لم يكتب عليه إلا واحدة، ثم يقول: هلك من غلبت وحداته أعشاره».

فالغيبة ما دامت تنقص من الحسنات، ويُذهب بالحسنات إلى المغتاب، فلماذا لا نتركها؟ لماذا لا ننتهى عنها؟ وقد ذكر عن أبى أمامة الباهلى رضي الله عنه أنه قال: إنَّ العبد ليعطى كتابه يوم القيامة، فيرى فيه حسنات لم يكن عملها، فيقول: يا رب: من أين لى هذا؟ فيقول: هذا بما اغتابك الناس، وأنت لا تشعر(٢)

**فيا أخى المسلم:** إياك والغيبة، فإنها ضيافة الفساق، ومراتع النساء، وإدام كلاب الناس، ومزابل الأتقياء، وليكن حظك منك لإخوانك المؤمنين ثلاثًا كما قال يحيى بن معاذ الرازى: ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال، لتكون من المحسنين:

**إحداها:** إنك إن لم تنفعه فلا تضره.

**والثانية:** إنْ لم تسره، فلا تغمه.

**والثالثة:** إنْ لم تمدحه، فلا تذمه(٣)

فكن كذلك، وكن إذا ما ضعفت عن ثلاث فعليك بثلاث: إنْ ضعفت عن الخير، فأمسك عن الشر، وإنْ كنت لا تستطيع أن تنفع الناس، فأمسك عنهم ضرك، وإنْ كنت لا تستطيع أن تصوم فلا تأكل لحوم الناس.

قال ابن عباد الصاحب:

**احذر الغيبة فهى الـ ... فسق لا رخصة فيه**

**إنما المغتاب كالآ ... كل من لحم أخيه**

## • حكم الغيبة •

**أخى المسلم..**

إن الإمام ابن حجر الهيثمى قد اعتبر الغيبة كبيرة من الكبائر وقد سطرها فى كتابه «الزواجر عن اقتراف الكبائر» وعدها برقم ٢٤٩ أى الكبيرة التاسعة والأربعون بعد المائتين، فهيا لنذهب إلى هذا العالم الجليل لنتعرف على حكمها عنده، وعند بعض أهل العلم حيث يقول:

(١) أخرجه ابن المبارك فى الزهد برقم ٤١١ ص٤٦٢، ط/ دار ابن خلدون.

(٢) تنبيه الغافلين ص ١٢٣ (٣) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص١٢٤

«عَدُّ الغيبة المحرمة كبيرة هو ما جرى عليه كثيرون، ويلزم منه أنَّ السكوت عليها رضًا بها كبيرة أيضًا، وأن ترك إنكار المنكر مع القدرة من الكبائر، والغيبة من عظائم المنكرات، ثم يقول: ثم رأيت الأذرعى صرح به حيث قال: وأما السكوت على الغيبة رضا بها مع القدرة على دفعها فيشبه أن يكون حكمه حكمها، نعم لو لم يمكنه دفعها فيلزمه عند التمكن مفارقة المغتاب، وتبعه الزركشى، فقال: والأشبه أن السكوت على الغيبة مع القدرة على دفعها كبيرة». انتهى[١]

**يقول ابن حجر[٢]:**

وأما تقرير الشيخين صاحب «العدة» على أنَّ الغيبة صغيرة، وكذا السكوت عليها، فاعترضوه:

**قال الأذرعى:** إطلاق القول بأنها من الصغائر ضعيف أو باطل، وقد نقل القرطبى وغيره الإجماع على أنها من الكبائر وقد غلظ أمرها فى الكتاب والسنة، ومن تتبع الأحاديث فيها علم أنها من الكبائر.

ولم أر من صرح بأنها من الصغائر غير الغزالى، وصاحب العدة. . . .

وتبعه الأذرعى تلميذه فى الخادم فقال:

الصواب أنها كبيرة، وقد نص عليه الشافعى -رحمه الله- فيما نقله الكرابيسى فى كتابه المعروف بـ «أدب القضاء» واستدل بقوله ﷺ: **«إن دماءكم وأعراضكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا»**[٣] ثم قال: وجزم به الأستاذ أبو إسحاق الإسفراينى فى عقيدته فى الفصل المعقود للكبائر، وكذا الجيلى فى شرح التنبيه، وغيره من الأصحاب، وكذا الكواشى فى تفسيره، وهو معدود من الشافعية وقال: إنها من أعظم الذنوب. وقال بعضهم بأنها صغيرة، ولم يقف على هذا النص. . .

وقال ابن المنذر فى كتابه المسمى بـ «أدب العبادة» قد حرم النبى ﷺ الغيبة مودعًا بذلك أمته، وقرن تحريمها إلى تحريم الدماء والأموال، ثم زاد تحريم ذلك تأكيدًا بإعلامه بأن تحريم ذلك كحرمة البلد الحرام فى الشهر الحرام.

**ثم يقول ابن حجر أيضًا:**

لا يخفى أن العذاب المذكور عذاب شديد، ومن تأمل الأحاديث. . علم أن فيها أعظم العذاب، وأشد النكال، فقد صح فيها، أنها أربى الربا، وأنها لو مزجت بماء البحر

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيثمى ص٣٧٩، ٣٨٠ ط/ دار الشعب.

(٢) أنظر الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيثمى ص٣٨٠، ٣٨١ بتصرف يسير واختصار ط/ دار الشعب.

(٣) رواه البخارى ومسلم (١٦٧٩) وأبو داود.

أنتنته، وغيرت ريحه، وأن أهلها يأكلون الجيف فى النار، وأن لهم رائحة منتنة فيها، وأنهم يعذبون فى قبورهم، وبعض هذه كافية فى الكبيرة، فكيف إذا اجتمعت؟! ويقول: وظهر أيضًا أنها الداء العضال، والسم الذى فى الألسن أحلى من الزلال، وقد جعلها من أوتى جوامع الكلم عديلة -أى تعدل- غصب المال، وقتل النفس بقوله: «**كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه**»(١)

والغصب والقتل كبيرتان إجماعًا، فكذا ثلم العرض(٢) انتهى.

## أخى المسلم:

لقد تبين لك من كلام العلماء القدامى أن الغيبة من الكبائر، وهذا ما أرجحه، ولا عبرة بمن قال إنها من الصغائر، وذلك لأنها تتعلق بحق الآدميين، وأنت لا شك تعلم أن الحقوق ضربان:

١- حقوق الله تعالى وهى مبنية على المسامحة.

٢- وحقوق الآدميين، وهى مبنية على المشاحنة.

لكن الغيبة تختلف فى درجاتها، فبعضها أشد من بعض، فما هى أوجه ومراتب الغيبة؟

## • أوجه ومراتب الغيبة •

**قال الفقيه السمرقندى فى كتابه «تنبيه الغافلين»:**

الغيبة على أربعة أوجه: فى وجه هى كفر، وفى وجه هى نفاق، وفى وجه هى معصية، والرابع مباح، وهو مأجور.

فأما الوجه الذى هو كفر: فهو أن يغتاب المسلم، فيقال له: لا تغتب، فيقول: ليس هذا غيبة، وأنا صادق فى هذا، فقد استحل ما حرم الله تعالى، ومن استحل ما حرم الله تعالى صار كافرًا، نعوذ بالله.

وأما الوجه الذى هو نفاق: فهو أن يغتاب إنسانًا، فلا يسميه عند من يعرف أنه يريد به فلانًا، فهو يغتابه، يرى فى نفسه أنه متورع فهذا هو النفاق.

وأما الذى هو معصية، فهو أن يغتاب إنسانًا، ويسميه، ويعلم أنها معصية، فهو عاص وعليه التوبة.

والرابع: أن يغتاب فاسقًا معلنًا بفسقه، أو صاحب بدعة، فهو مأجور، لأنهم يحذرون منه إذا عرفوا حاله(٣)

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيثمى ص٣٨٢، ٣٨٣ باختصار بسيط.

(٣) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص١٢٦، ١٢٧

## • غيبة البرىء أثقل عليه من السماء •

### أخى المسلم:

اعلم أن غيبة البرىء أثـقل عليه من الجبال، بل من السماء كما بينـه الحكماء، فانتبه معى إلى تلك القصة التى ساقها إلينا صاحب كتاب «سمير الصالحين» قال:

إنَّ رجلاً سمع عـن حكمة بزرجمهر، وهـو حكيم فارسى، فسافـر إليه من أطراف الأرض وقطع طريقًا طويلاً حتى وصل إليه لكى يتعلم منـه الحكمة، فأراد أن يختبر حكمته أولاً، فبعـد أن قضى عنده حق الضيافة، قـال له: يا سيدى إن كنت حكيمًـا، فإنى آتيك لكى أسألك عن سبعة أشياء، فإن أجبتـنى عنها فأنت حكيم، فقال له: سل ما تريد منها، والله المستعان، فـقال له الزائر: جئت أسألك عن السماء ومـا أثقل منها، وعن الأرض وما أوسع منها؟! وعن الصخر وما أقسا منه؟! وعن النار وما أحر منها، وعن الزمهرير وما أبرد منه؟ وعن البحر وما أغنى منه؟، وعن اليتيم وما أذل منه؟!.

فقال له: يا سيدى إصغ أذنيك واستمع لما أقول، فعسى ربى أن يهدينى إلى الصواب إن غيبة البرىء والبهتان عليه أثقل من السماء، والحق أوسع من الأرض والقلب القانع أغنى من البحر، والحسـد أحر من النار، والحاجة إلى الأقارب إذا لم تنجـح أبرد من الزمهرير، وقلب البخيل أقسا من الحجر، والنمام إذا كُشفَ أمره أذل من اليتيم، وأخيرًا وفوق كل ذى علم عليم. فقـال له الضيف: والله ما رأيت من بين العرب والعجـم أصدق منك حكمة، ولا أقوى منك رأيًا، ولا أكثر منك رشدًا[(١)]

## • عقوبة المغتابين يوم القيامة •

### أخى المسلم:

لو علمت ما فى الغيبة من العـذاب، لكنت أبغض الناس لها، وسوف ترى أن جزاء الذين كانوا يغتابون الناس فى الدنيا، كيف كانت عقوبتهم فى الآخرة إن جزاءهم من جنس أعمالهم.

فعن أنس بن مالـك رضي الله عنه قال. قال رسول الله ﷺ: **«لمَّا عُرج بى مـررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون فى أعراضهم»**[(٢)]

---

(١) سمير الصالحين، وأنيس المتقين للشهاوى جـ٢/ ١ ط/ دار التأليف.

(٢) رواه أبو داود برقم (٤٨٧٨) وصححـه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود جـ٣/١٩٦ وفى صحيح الجامع برقم (٥٢١٣) وفى السلسلة الصحيحة برقم (٥٣٣).

**قال المناوى:**

قال الطيبى: لما كان خمش الوجه والصدر من صفات النساء النائحات جعلها جزاء من يقع فى أعراض الناس، إشعاراً بأنهما ليسا من صفة الرجال، بل هما من صفة النساء فى أقبح حالة وأشوه صورة.

**وقال الغزالى:**

يحشر الممزق لأعراض الناس كلبًا ضاريًا، والشره لأموالهم ذئبًا، والمتكبر عليهم بصورة نمر، وطالب الرياسة بصورة أسد، وردت به الأخبار، وشهد به الاعتبار وذلك أن الصور فى هذا العالم غالبة على المعانى، وهذا وعيد شديد على الغيبة.

فيا له من عقاب أليم! يجعل صاحبه فى أذل صورة، وأحقر هيئة، فلو تيقن المغتاب أن ذلك سيكون ما لفظ لسانه بكلمة سوء فى حق امرئ مسلم[١]

ثم تأمل حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حالت شفاعته دون حد من حدود الله، فقد ضاد الله فى أمره، ومن مات وعليه دين فليس بالدينار والدرهم، ولكن بالحسنات والسيئات، ومن خاصم فى باطل وهو يعلم، لم يزل فى سخط الله حتى ينزع، ومن قال فى مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال، وليس بخارج**»[٢]

والشاهد فى الحديث السابق هو قوله ﷺ: «**من قال فى مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله فى ردغة الخبال حتى يخرج مما قال**» وزاد بعضهم «**وليس بخارج**».

لكن ما هى ردغة الخبال؟

يقول ابن الأثير: «جاء فى تفسيرها فى الحديث أنها عصارة أهل النار، والردغة، بسكون الدال وفتحها: طين ووحل كثير».

أعتقد أن المؤمن الحقيقى يتمنى أن يكون فى الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء لكن لسانه الذى جعله يخوض فى أعراض المسلمين، ويغتاب المؤمنين يجعله يسكن نار جهنم ليطعم ويشرب من ردغة الخبال مع المنافقين والكذابين والعياذ بالله.

فأنت أخى المسلم بين أمرين: بين أن تسكن الجنان، وبين أن تسكن النيران فإن حفظت لسانك فللّه درك سوف تسكن الجنان وإلا فالأخرى والعياذ بالله.

---

(١) نقلا من كتاب الجزاء من جنس العمل د/ سيد العفانى جـ٥/ ٢٨٥ - ٢٨٦ وقد نقل من فيض القدير للمناوى ٥/ ٢٩٨

(٢) رواه أحمد فى مسنده رقم (٥٣٨٥) وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر جـ٥/ ٤٨ ورواه أبو داود والحاكم وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى وهو فى السلسلة الصحيحية للألبانى برقم (٤٣٧).

واعلم أن هذا الفوز العظيم بالجنة لا يتأتى إلا بكثرة الحسنات، وثقل الموازين، والمغتاب يفرق ويبعثر حسناته فى الدنيا بلا حساب.

إنه والله لمسكين ذلك الذى يصلى ويحافظ على الصلاة، ويصوم ويحافظ على صومه، ويحج، ويفعل الطاعات الكثيرة، لكنه حين ينظر فى صحيفته لا يجد الحسنات، فأين ذهبت حسناته؟ وأين توجد طاعاته؟ إنه وزعها وفرقها بلا حساب، فما جلس فى مجلس إلا ونهش فى أعراض المسلمين، ولا سار فى طريق إلا ورمى أهل الإيمان بالبهتان حقًا إنه والله هو المفلس بنص حديث الرسول الأعظم حيث يقول كما روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار. قال: إنَّ المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيقضى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح فى النار**»[(١)]

ثم تأمل حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا أنه قال: «**من أكل لحم أخيه فى الدنيا قُرِّب له يوم القيامة، فيقال له: كله ميتًا كما أكلته حيًّا. فيأكله ويكلح ويصيح**»[(٢)] فالجزاء من جنس العمل.

ويقول ﷺ: «**من أكل بأخيه المسلم أكلة أطعمه الله تعالى بها أكلة من نار جهنم، ومن اكتسى بأخيه ثوبًا كساه الله مثله من نار جهنم، ومن قام بمسلم مقام رياء وسمعة، أقامه الله يوم القيامة مقام سمعة ورياء**»[(٣)]

ومعنى هذا الحديث: أن الرجل يكون صديقًا لرجل، ثم يذهب إلى عدوه فيغتابه، ويتكلم فيه بغير الجميل على طريقة الذم لكى يجزل له العطاء، أو ينال منه مالاً أو ثيابًا، فلا يبارك الله له، بل يجعله مدخرًا له يوم القيامة ليعذبه به فيكون الجزاء من جنس العمل.

## أخى المسلم:

هذا الجزاء يكون يوم القيامة، وهناك عذاب آخر يكون له فى الحياة البرزخية كما أخبر سيد الخلق، وحبيب الحق محمد ﷺ فى الحديث الذى رواه ابن عباس رضي الله عنهما:

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨١) والترمذى (٢٤١٨) والألبانى فى صحيح الجامع.

(٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط (١٦٧٧) والخرائطى فى المساوئ برقم (١٩١) ص٨٤ وإسناده حسن وذكر ابن حجر فى فتح البارى ١/ ٤٨٥ كتاب الأدب، باب الغيبة، وابن أبى الدنيا فى الغيبة والنميمة برقم ٣٩ ص٦٢ والزبيدى فى اتحاف السادة المتقين ٧/ ٥٣٦ والغزالى فى الإحياء ٣/ ١٢٥

(٣) رواه أحمد فى مسنده برقم (١٧٩٣٤) جـ١٤/ ٣٥ وصحح إسناده حمزة الزين ورواه أبو داود وصححه الألبانى فى سنن أبى داود برقم (٤٨٨١) وفى السلسلة الصحيحة (٩٣٤).

**«مرَّ رسول الله ﷺ بقبرين فى حائط، فقال: إنهما ليعذبان، وما يعذبان فى كبير، أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من بوله -أو يستنزه- أو يستتر من بوله..»**(١)

## أخى المسلم:

ما أظنك بعد ما وقفت على هذه الأمور أنك تعرض نفسك لهذا العذاب، إلا إذا كنت غير عاقل، فاحذر الغيبة، وكن منها على حذر شديد.

## • الأمور الباعثة على الغيبة •

## أخى المسلم:

الأمور الباعثة على الغيبة خمسة أمور:

**الأمر الأول: موافقة الأقران**، ومجاملة الرفقاء، ومساعدتهم، فإنهم إذا كانوا يتفكهون فى الأعراض، رأى هذا أنه إذا أنكر عليهم، أو قطع كلامهم استثقلوه ونفروا عنه، فيساعدهم، ويرى أن ذلك من حسن المعاشرة، لكنه لو تدبر قول الله تبارك وتعالى: ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**﴾ [الزخرف: ٦٧] لانتهى وكف عن ذلك.

**الأمر الثانى: تشفى الغيظ**، فيعدد المساوئ التى فى خصمه لحقده الشديد عليه، فكلما هاج حقده وغضبه تشفى بغيبة صاحبه.

**الأمر الثالث: إرادة رفع نفسه بمدحها**، وتنقيص غيره بذمها، كمن ذكر عنده رجل، فذكر فى المجلس شرفه، وعلمه، فيقول: هو كذلك إلا أن فهمه ركيك، وفيه كذا، وكذا، ويوسوس له الشيطان أن ذلك من باب النصيحة، لكنه لو كان صادقًا لنصحه سرًّا، وأظهر عيبه أمامه، وما فضحه علانية أمام الآخرين، ولو تدبر قوله تعالى: ﴿**فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ**﴾ [النجم: ٣٢] لانتهى.

**الأمر الرابع: الحسد**: وذلك عندما يجد الناس يثنون على شخص لحبهم له، فيدب الحسد فى قلبه ويتحرك، فيتمنى زوال ذلك، فيقدح فيه، ولو علم الجاهل أن حب الناس وثناءهم لشخص إنما هو من عند الله تعالى ما فعل ذلك!

**الأمر الخامس: اللعب والهزل**: فيذكر غيره بما يضحك الناس به على سبيل المحاكاة، حتى إنَّ بعض الناس يكونَ كسبه من هذا(٢)

---

(١) رواه البخارى.

(٢) انظر تهذيب موعظة المؤمنين للقاسمى، وانظر مختصر منهاج القاصدين ص٢٦٨ والزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيثمى ص٣٨٨، ٣٨٩ ط/ دار الشعب بتصرف فيه.

## • لكن... ما عـلاج ذلك؟ •

### أخى المسلم:

ينبغى أن تعلم أن الغيبة من الأمور التى تعرضك لسخط الله تعالى وغضبه، ومقته، وأن تعلم أنـك تعرض أعـمالك الصـالحة للهـدم والتبـديد، بل ربما وصل بك الحـال إلى الإفلاس فى يوم أنت تكون فيه أحوج ما يكون إلى حسنة تنجو بها من عذاب النار.

يجب على المسلـم أن يستحضـر كل هذه الأمور، فإن استـحضرها لم يطـلق لسانه بالغيبة.

وينبغى إذا عرضت له الغيـبة أن يتفكر فى عيوب نفسه، ويشغل نفـسه بإصلاحها، ويستحى أن يعيب وهو معيب، كما قال بعضهم:

**فإن عـبت قـومًا بالذى فـيك مـثله ... فكيـف يعيـب الناس من هو أعـور**

**وإن عبـت قومًا بـالذى ليس فيـهم ... فـذلـك عنـد الله والنـاس أكـبـر**

وإن ظننت أنك سلـيم من العيوب، فـاشتغل بـالشكر على نعم الله تعـالى الظاهرة والباطنة وينبـغى للمسلم أن يحب لأخيه ما يحـب لنفسه، فما لا يرضاه لنـفسه لا يرضاه لغيره.

كما ينبغى أن تنظر فى الأسـباب الباعثة على الغيبة، فتجتـهد فى قطعها، والخلاص منها[١]

«فإذا دعتك نفسك لذكر عيوب الناس فسل نفسك:

* هل أدركت الإمام فى الصلوات الخمس؟
* هل قمت فى السحر لله تصلى الليلة؟.
* هل تلوت جزءًا من كتاب ربك اليوم؟.
* هل دعوت للمسلمين اليوم؟
* هل دعوت لوالديك اليوم؟.
* هل تصدقت بصدقة اليوم؟
* هل صمت هذا الأسبوع يومًا لله؟
* هل خشعت فى صلاتك اليوم؟ وكنت مع الله فيها من التكبير إلى التسليم؟.
* هل صليت الضحى اليوم؟ هل حافظت على السنن والرواتب اثنتى عشرة ركعة؟
* هل قلت أذكار الصباح والمساء اليوم؟.
* هل ذكرت الله خاليًا ففاضت عيناك؟ أم أنت من الغافلين؟.

---

(١) المرجع السابق بتصرف ص٢٦٩

فإنك ستـجد تقصيراً لا مـحالة، فحاول أن تقوم فـتستدرك ما فـاتك. قبل فوات الأوان»[١]

قال عـوف: دخلت على ابن سيـرين فتناولت الحجـاج، فقال ابن سـيرين: إنَّ الله تعالى حكم عدل، فكمـا يأخذ من الحجاج يأخذ للحجـاج، وإنك إذا لقيت الله عز وجل غدًا كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج[٢]

وحتى تنجو أيضًا مـن الغيبة عليك أخى المسلم أن تبتعـد عن سوء الظن بالآخرين.

يقول سهل بن عبد الله -رحمه الله-:

«من أراد أن يسلم من الغيـبة، فليسد على نفسه باب الـظنون، فمن سلم من الظن سلم من التجسس، ومن سلـم من التجسس سلم من الغيبة، ومن سلم مـن الغيبة، سلم من الوزر ومن سلم من الوزر سلم من البهتان»[٣]

## • كفارة الغيبة •

### أخى المسلم:

ولم يرد فى كـفارة الغيـبة حديث صـحيح، ولا حـسن، وما ورد فى مسـاوئ الأخلاق للخرائطى: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**كفارة الاغتـياب أن تستغفر لمن اغـتبته**»[٤] فهو حديث باطل موضوع، فقيل: إن فى سنده داود بن المحبر وهو متروك، وفيه عنبسة وهو مثله.

وكذلك الحديث الذى بعده: «**إنَّ من كفارة الغيبة أن تستغـفر لمن اغتبته، تقول: اللهم اغفر لنا وله**»[٥] فهو حديث باطل أيضًا، وقد ورد «**كفارة أكلك لحم أخـيك أن تثنى عليه وتدعـو له بخيـر**»[٦] فهـو باطل كذلك لأن فـيه «عبـد الله الليثى» قـال البخـارى: منكر الحديـث، وقال النسـائى: متـروك لكن على المغـتاب أن يعـلم أنه قد ارتكـب الذنب من وجهين:

**الأول**: أذنب فى حق مولاه، لأنه فعل ما نهاه، وليس ذلك بالأمر الهين مهما كان هذا الذنب. قال بلال بن سعد: «لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى من عصيت»[٧]

---

(١) نقلاً من فاكهة المجالس للشيخ وحيد عبد السلام بالى ص٢٩، ٣

(٢) الرسالـة القشيـرية ص٢٣١ بتحقـيق الشيخ هانى الحـاج ط/ التوفـيقية وحـلية الأولياء لأبى نـعيم جـ٢/ ٢٧١

(٣) شعب الإيمان (٦٧٨٣) للبيهقى قاله: الشيخ مجدى فتحى السيد فى الغيبة والمغتابون ص٧١

(٤) ذكره الخرائطى فى مساوئ الأخلاق برقم (١ ٢) وابن أبى الدنيا فى الصمت برقم (٢٩٣) ص١٩٠، ١٩١ وفى الغيبة والنميمة رقم (١٥٣) ط/ مؤسسة الكتب الثقـافية. تحقيق/ محمد عبد القادر أحمد عطا. والتوبيخ لأبى الشيخ (٢١١).

(٥) ذكره الخرائطى فى المساوئ رقم (٢١٢).

(٦) رواه ابن أبى الدنيا فى الصمت برقم (٢٩٤) والغيبة والنميمة (١٥٤).

(٧) الغيبة والمغتابون - مجدى فتحى السيد ص٢٤

فحينئذ وجب عليك أن تكفر عن ذلك بالتوبة والندم، والرجوع إلى الله تعالى ومراقبته.

**الأمر الثانى**: أنه بالغيبة صار معتديًا على محارم أخيه المسلم، فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل، جاء إليه واستحله، وأظهر له الندم على فعله.

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«من كانت عنده مظلمة لأخيه، من مال أو عرض، فليأته فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده درهم ولا دينار»**(١).

قال مجاهد: كفارة أكلك لحم أخيك أن تثنى عليه، وتدعو له بخير، وكذلك إن كان قد مات(٢)

## • الأعذار التى تجيز الغيبة •(٣)

### أخى المسلم:

كما علمت أنَّ الأصل فى الغيبة الحرمة، وقد تجب أو تباح لغرض صحيح شرعى لا يتوصل إليه إلا بها وتنحصر فى ستة أبواب:

**أولاً**: التظلم: فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضى وغيرهما ممن له ولاية، أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيقول: ظلمنى فلان، أو أكل حقى، أو أخذ مالى أو أرضى.

**ثانيًا**: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد العاصى إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر، فلان يعمل كذا فازجره عنه، كمن يرى أن موظفًا يأخذ رشوة، فأبلغ مديره لكى يردعه عن هذا العمل، فيجوز بشرط أن يكون هدفه الحقيقى التوصل إلى إزالة المنكر، لا فضيحته، ولا أن يشهر به وإلا كانت غيبة محرمة.

**ثالثًا**: الاستفتاء: فيقول للمفتى: ظلمنى فلان بكذا وكذا، أو يسأله: كيف أتوصل إلى حقى من فلان؟ والأفضل أن لا يذكر اسمًا، وإن ذكر جاز ذلك.

وذلك لما ثبت فى البخارى ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قالت هند امرأة أبى سفيان للنبى ﷺ إنَّ أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطينى ما يكفينى وولدى إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فقال ﷺ: **«خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف»**(٤)

---

(١) رواه البخارى (٢٤٤٩) وأحمد فى مسنده (٩٥٨١).

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص٢٧٣ ط/ دار القلم.

(٣) انظر الزواجر لابن حجر الهيثمى ص٣٨٣، ومختصر منهاج القاصدين ص٢٧١، ورياض الصالحين للإمام النووى باب ما يباح من الغيبة ص٢٧١ ومنه نقلت ببعض التصرف.

(٤) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده برقم (٢٣٩٩٩) جـ٢٧/ ٢٣٥

**رابعًا: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم وذلك من وجوه:**

* منها: جرح المجروحين من الرواة والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين بل واجب للحاجة.

* ومنها: المشاورة فى مصاهرة إنسان، أو مشاركته، أو إيداعه، أو معاملته، أو مجاورته أو غير ذلك، ويكون ذلك من باب النصيحة.

فعن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها قالت: أتيت النبى ﷺ فقلت: يا رسول الله، إنَّ أبا الجهم، ومعاوية خطبانى؟

فقال رسول الله ﷺ: **«أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو الجهم، فلا يضع العصا عن عاتقه، أبو الجهم ضراب النساء، أنكحى أسامة بن زيد فكرهته، ثم قال: أنكحى أسامة بن زيد، فنكحته، فجعل الله فيه خيرًا، واغتبطت به»**[1]

فالأول وهو معاوية صعلوك -أى فقير لا مال له- وكان فقيرا حينها، وأما الآخر فهو أبو الجهم فكثير الضرب للنساء.

* ومنها: إذا رأى متفقهًا يتردد إلى مبتدع، أو فاسق يأخذ عنه العلم، وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك فعليه نصحه ببيان حاله، ويشترط قصد النصيحة لا حسده.

**قال الحسن البصرى رحمه الله:**

«ليس فى أهل البدع غيبة»[2] وقال سفيان بن عيينة -رحمه الله-:

ثلاثة ليست لهم غيبة: الإمام الجائر، والفاسق المعلق بفسقه، والمبتدع الذى يدعو الناس إلى بدعته»[3]

* ومنها: أن يكون له ولاية ولا يقوم بها على وجهها، إما بأن لا يكون صالحًا لها، وإما أن يكون فاسقًا أو مغفلاً ونحو ذلك، فيجب ذكر حاله لمن له عليه ولاية عامة ليزيله، ويولى من يصلح لهذه المهمة أفضل منه.

**خامسًا:** أن يكون مجاهرًا بفسقه أو بدعته، كالمجاهر بأكل أموال الناس، والمجاهر بفعل الفاحشة، أو شرب خمر، أو ما شابه ذلك، ولقد دل على ذلك حديث عائشة رضي الله عنها قالت: إنَّ رجلاً استأذن على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله: **«ائذنوا له، فبئس أخو العشيرة»**.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده بنحوه رقم (٢٧١٩٨) بسند صحجه حمزة الزين، وأبو داود فى سننه ومالك فى الموطأ.

(٢) شعب الإيمان للبيهقى (٦٧٩٢) ذكره الشيخ مجدى فتحى السيد فى الغيبة والمغتابون ص٨٢ دار الصحابة.

(٣) المرجع السابق.

فلما دخل الرجل ألان له النبى ﷺ القول، فقالت عائشة: يا رسول الله، قلت له الذى قلت، فلما دخل ألنت له القول؟!

فقال ﷺ: **«يا عائشة، إنَّ شر الناس منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه»**[1] فقد دل الحديث على جواز غيبة أهل الفسق المجاهرين به.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: ليس لفاجر حرمة[2] وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر.

وقال الصلت بن طريف: قلت للحسن: الرجل الفاسق المعلن بفجوره، ذِكرى له بما فيه غيبة؟ قال الحسن: لا، ولا كرامة[3]

**سادسًا:** التعريف بنحو لقب كالأعور والأعمش، والأصم، والأقرع، فيجوز، ويحرم إطلاقه على جهة التنقيص، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى.

## • فضل ذب المسلم عن عرض أخيه •

### أخى المسلم:

إنّ ديننا الحنيف يقيم الصِّلة بين المسلمين على الإخاء والتوثيق، الأخوة الخالصة لله عز وجل، الأخوة التى تتغذى على الإيمان، إنها أخوة تعتمد على ركنين عظيمين:

على رسالة مقدسة تنزلت من رب العالمين. فهم يعيشون لها، ويتفانون لأجلها.

وعلى أمة متساندة متعاونة للعمل بهذه الرسالة فى كل مجال من مجالات الحياة.

ولقد جاءت السنة النبوية بأحاديث كثيرة تحض على الأخوة، وتؤكد مبادئ الدين، وترسى أهدافه وغاياته، ومن هذه الأمور:

ذب المسلم عن عرض أخيه المسلم: فعن أبى الدرداء ﷺ عن النبى ﷺ قال: **«من ردَّ عن عرض أخيه، كان حقًا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة»**[4] وخص العرض هنا لأن منزلته من الإنسان المؤمن بمكان.

وعن أسماء بنت يزيد أن رسول الله ﷺ قال: **«من ذب عن عرض أخيه بالغيبة كان حقًّا على الله أن يعتقه من النار»**[5]

وفى رواية: **«من رد عن عرض أخيه، رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»** وقيل: خص الوجه بالذكر لأنه أظهر ما فى البدن، وقيل: لأنه أشد فى الإيلام والتعذيب.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩١) وأبو داود برقم (٤٧٩١) وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود جـ٣/ ١٧٦ ورواه الترمذى (٢٠٨١) ورواه البخارى.

(٢)، (٣) فاكهة المجالس وحيد عبد السلام ص٤٨.

(٤) رواه الإمام أحمد فى مسنده برقم (٢٧٤٠٧) جـ١٨/ ٥٨٠ ورواه الترمذى وحسنه رقم (١٩٣١) فى البر وأبو نعيم فى الحلية جـ٧/ ٢٥٧، ٢٥٨ وابن أبى الدنيا فى الصمت رقم (٢٤٠) ص٥٩.

(٥) رواه أحمد والترمذى أيضا وحسنه وذكره ابن أبى الدنيا فى الصمت برقم (٢٤١) ص٦٠ ورواه البيهقى فى السنن وحسنه أيضًا، وابن المبارك فى الزهد برقم (٦٨٧) ص١٥٤ ط/ ابن خلدون.

وعن معاذ بن أنس الجهنى، عن النبى ﷺ قال: «**من حمى مؤمنًا من منافق أُراه قال: بعث الله ملكًا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلمًا بشىء يشينه به، حبسه الله على جسر جهنم، حتى يخرج مما قال**»(١)

وحديث جابر بن عبد الله وأبى طلحة بن سهل يقولا: قال رسول الله: «**ما من امرئ يخذل امرءًا مسلمًا عند موطن تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله عز وجل فى موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر امرءًا مسلمًا فى موطن ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته**»(٢)

### أخى المسلم:

هلاَّ وقفت على هذه الأحاديث لكى تذب عن عرض أخيك المسلم وتدافع عنه، ولا تغتابه فكيف ذلك؟.

## • العنصر الثانى •

## • «....ولا تتبعوا عوراتهم....» •

اعلم أيها المسلم أنه كما تدين تدان، وبالكيل الذى تكيل به سيكال لك، والأيام دول: ﴿**وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١٤٠] فيوم لك ويوم عليك، والأمور تتبدل، والأحوال تتغير و ﴿**كل يوم هو فى شأن**﴾ [الرحمن: ٢٩].

لذلك ينهاك رسول الإسلام محمد ﷺ ويحذرك من تتبع عورات المسلمين، أو أن تعيرهم بما فيهم من أمور قد تراها ذميمة فيقول لك:

«**ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه فى جوف بيته**»(٣)

لذلك يقول حبر الأمة؛ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك، فاذكر عيوبك.

ولله در إمامنا الشافعى حين قال:

**إنْ شئت أنْ تحيا سليمًا من الأذى ... وحظك موفور وعرضك حصين**

**لسانك لا تذكر به عورة امرئ ... فكلك عورات وللناس ألسن**

**وعينك إنْ أبدت إليك مساوئًا ... فصنها وقل يا عين للناس أعين**

**وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ... وفارق ولكن بالتى هى أحسن**(٤)

---

(١) رواه أحمد فى مسنده برقم (١٥٥٨٦) جـ١٢/ ٢٥٧ وحسنه حمزة الزين ورواه أبو داود فى سننه برقم (٤٨٨٣) وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود جـ٣/ ١٩٨ والمشكاة رقم (٤٩٨٦).

(٢) رواه أحمد فى المسند ( ١٦٣٢) وضعفه حمزة الزين جـ١٢/ ٥٣٦ وقال لجهالة بان بشير، وقال: وهو حسن عند الطبرانى كما ذكره الهيثمى عن طريق جابر، وقال الهيثمى حديث جابر سنده حسن.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) ديوان الشافعى ص٣٥ دار المنار.

**يقول ابن القيم فى مدارج السالكين:**

«وكل معصية عيّرت بها أخاك فهى إليك».

يحتمل أن يريد به: أنها صائرة إليك ولابد أن تعملها، وفى الترمذى: «لا تظهر الشماتة بأخيك، فيرحمه الله ويبتليك»(١)

ويحتمل أن يريد: أن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثمًا من ذنبه، وأشد من معصيته لما فيه من صولة الطاعة، وتزكية النفس وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب. وأنّ أخاك باء به، ولعل كسرته بذنبه، وما أحدث له من الذلة والخضوع والإزراء على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى، والكبر والعجب، ووقوفه بين يدى الله ناكس الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب أنفع له، وخير من صولة طاعتك وتكثرك بها والاعتداد بها. فما أقرب هذا العاصى من رحمة الله!.

وما أقرب هذا المدل من مقت الله!.

فذنب تذل به لديه -أى مولاك- أحبّ إليه من طاعة تدل بها عليه.

وإنك إن تبت نائمًا وتصبح نادمًا، خير من أن تبيت قائمًا وتصبح معجبًا، فإن المعجب لا يصعد له عمل.

وإنك إن تضحك وأنت معترف، خير من أن تبكى وأنت مدل.

وأنين المذنبين، أحبُّ إلى الله من زجل المسبحين المدلّين، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داءً قاتلاً هو فيك ولا تشعر. فإن الميزان بيد الله والحكم لله، مقلب القلوب، ولا يأمن كرَّات القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله(٢).

وقد بلغ بالسلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين فى توقيهم عن تتبع عورات الناس ومعايرتهم بما فيهم، أن عمرو بن شرحبيل قال: لو رأيت رجلاً يرضع عنزًا فضحكت منه، لخشيت أن أصنع مثل الذى صنع(٣)

قال الشاعر:

| | |
|---|---|
| **لا تكشفن مساوى الناس ما ستروا** | **فيهتك الله سترًا عن مساويكا** |
| **واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا** | **ولا تعب أحدًا منهم بما فيكا** |

وعن محمد بن سيرين رحمه الله أنه لمّا ركبه الدين اغتم لذلك، فقال: إنى لأعرف هذا الغم بذنب أصبته منذ أربعين سنة.

---

(١) رواه الترمذى مرفوعًا.

(٢) نقلاً من مدارج السالكين لابن القيم الجوزية جـ١/ ١٩٧ ط/ دار الحديث الطبعة الأولى.

(٣) الجزاء من جنس العمل د/ سيد العفانى جـ/ ٢٨٨

وفى رواية: «قال: إنى لأعرف الذنب الذى حمل علىّ به الدين ما هو. قلت لرجل من أربعين سنة يا مفلس» فحدث به أبا سليـمان الدارنى، فقال: قلت ذنوبهم، فعرفوا من أين يؤتون، وكثرت ذنوبهم وذنوبك، فليس ندرى من أين نؤتى؟[١]

فكن أخا الإسلام على حذر من هذه الأمور فلا تـغتب المسلمين، ولا تتبع عوراتهم ولا تعيرهم، وإنما ليكن لسانك لله ذاكرًا، وعلى نعمه شاكرًا، وعلى بلائه صابرًا، وبقضائه راضيًا، وكن بالأدب متجملاً، ولنفسك محاسبًا، وكن لربك مراقبًا فى السر والعلانية تكن من الصالحين.

## •موعظة•

**يا إخوان الغفلة تيقظوا، يا مقيمين على الذنوب انتهوا واتعظوا، فبالله أخبرونى: من أسوأ حالاً ممن استعبده هواه، أم من أخسر صفقة ممن باع آخرته بدنياه؟ فما للغفلة قد شملت قلوبنا؟ وما للجهالة قد سترت عنا عيوبنا! أما نرى صوارم الموت بيننا لامعة، وقوارعه بنا واقعة، وسهامه فينا نافذة، وأحكامه بنواصينا آخذه؟ أين سكان القصور والخيام؟ دار والله عليهم كأس الحمام، فالتقطهم الموت كما يلتقط الحب الحمام، فما لمخلوق فيها دوام، طويت الصحف، وجفت الأقلام[٢]**

**فيا أخى الحبيب:**

**سَلِّم على الخلق، وارحل نحو مولاك    واهجر على الصدق والإخلاص دنياكا**

**عساك فى الحشر تعطى ما تؤمله    ويكرم الله ذو الآلاء مثواكا[٣]**

## أخى المسلم:

**احفظ لسانك فمن حفظ لسانه لأجل الله تعالى فى الدنيا، أطلق الله لسانه بالشهادة عند الموت ولقاء الله تعالى، ومن سَرَّحَ لسانه فى أعراض المسلمين، واتَّبع عوراتهم أمسك الله لسانه عن الشهادة عند الموت.**

**أما تعلم أن مريم البتـ[illegible] عليها السلام لَمَّا نذرت أن لا تتكلم، وحبست لسانها لأجل الله تعالى، أطلق الله سبحا[illegible] [illegible]ى لسان صبى لا يعرف الخطاب، أنطقه الله لأجلها.**

**يقول مالك بن دينار رحمه الله: إذا رأيت قساوة فى قلبك، أو وهنًا فى بدنك، أو حرمانًا فى رزقك، فاعلم أنك تكلمت بما لا يعنيك.**

**فاحبس لسانك قبل أن يطول حبسك، وتتلفَ نفسك، فلا شىء أولى بطول حبس من اللسان ليقصر على الصواب، ويسرع إلى الجواب.**

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم جـ٢/ ٢٧١ ط/ دار الكتب العلمية.

(٢) مقتبسة من بحر الدموع لابن الجوزى ص٣٧ مكتبة التوفيقية.

(٣) البيتان قالهما يحيى بن معاذ كما فى حلية الأولياء جـ١٠/ ٦٣

قال بعض الحكماء:

ترك فضول الكلام يثمر النطق بالحكمة، وترك فضول النظر يثمر الخشوع والخشية، وترك فضول الطعام يثمر حلاوة العبادة، وترك الضحك يثمر حلاوة الهيبة، وترك الرغبة فى الحرام يثمر المحبة، وترك التجسس عن عيوب الناس يثمر صلاح العيوب، وترك التوهم فى الله تعالى ينفى الشك والشرك والنفاق.

واعلم أن التجسس عن عيوب الناس، وتَطَلُّب مساوئهم، يبدى العورات، ويكشف المخبَّآت، فاتق الله، واشتغل بعيوبك عن عيوب الناس، ولا تكن كمثل الذباب الذى لا يعرج على المواضع السليمة من الجسد، ولا ينزل عليها، وإنما يقع على القروح فيدميها.

فمن بحث عن مساوئ الناس، واتَّبع عوراتهم، واشتغل بعيب غيره، وترك عيبه، سلط الله عليه من يبحث فى عيبه ومساوئه ليشهرها، ويتَّبعُ عورته ويبديها وينشرها.

وفى أثر إسرائيلى أن الله تعالى قال:

يا موسى: خمس كلمات ختمت لك بهن التوراة، فإن عملت بهن نفعك العلم كله، وإلا لم ينفعك شىء:

الأولى: يا موسى، كن واثقًا من رزق مضمون لك ما دامت خزائنى مملوءة، وخزائنى لا تنفد أبدًا.

الثانية: يا موسى، لا تخافن من سلطان ما دام سلطانى باقيًا، وسلطانى لا يزول أبدًا.

الثالثة: يا موسى، لا تر عيب غيرك ما دام فيك عيب، والمرء لا يخلو من عيب أبدًا.

الرابعة: يا موسى، لا تدعن محاربة الشيطان ما دام روحك فى بدنك، فإنه لا يدع محاربتك أبدًا.

الخامسة: يا موسى، لا تأمن مكرى حتى تدخل الجنة، وفى الجنة أصاب آدم ما أصاب فلا تأمن مكرى أبدًا.

فيا رب:

أسير الخطايا عند بابك واقف ... على وجل مما به أنت عارف

يخاف ذنوبًا لم يغب عنك غيبها ... ويرجوك فيها فهو راج وخائف

ومن ذا الذى يرجو سواك ويتقى ... ومالك فى فصل القضاء مخالف

فيا سيدى لا تخزنى فى صحيفتى ... إذا نشرت يوم الحساب الصحائف

وكن مؤنسى فى ظلمة القبر عندما ... يَصُدُّ ذوو وُدِّى ويجفو الموالف

لئن ضاق عنِّى عفوك الواسع الذى ... أُرَجِّى لإسرافى فإنِّى لَتَالفُ[1]

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ١١/ ٣٥١ ، سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٨٠

نسألك يا ربنا يا من خضع كل شىء لعزتك، وعنت الوجوه لعظمتك، يا من إذا أساء عبادك حَلمت وأمهلت، وإن أحسنوا تفضلت وقبلت، وإن عصوا سترت، وإن أذنبوا عفوت وغفرت، وإذا دعوك أجبت، وإذا نادوك سمعت، فجد علينا يا ربنا بفضلك وتغمدنا برحمتك، وأدركنا بلطفك، وعاملنا برأفتك، ووفقنا لخدمتك، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، إنك أرحم الراحمين.

## • الوصية رقم (٩٢) •

عن أبى موسى الأشعرى ﷺ قال: خطبنا رسول الله ذات يوم فقال: «**أيها الناس: اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل**» فقال له ما شاء الله أن يقول، وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: «**قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم**»(١)

**صدق رسول الله ﷺ**

## • بين يدى هذه الوصية •

### أخى المسلم:

هكذا كان سيد الخلق، وحبيب الحق محمد ﷺ مع أصحابه دائمًا يتفقدهم بالنصح والإرشاد والتوجيه، فكان يُلين قلوبهم بالموعظة إذا ما رأى القلوب قد قست، ويتوعدهم إذا ما رأى حب الدنيا ران على قلوبهم، ويوعدهم ويبشرهم إلى ما ظهرت أنوار الإيمان على جوارحهم، وتتلألأ فى وجوههم، وهكذا أرسله ربه للإيمان مناديًا، وإلى الجنة داعيًا، وإلى الطريق المستقيم هاديًا، وفى مرضاة ربه ساعيًا، وبكل معروف آمرًا، وعن كل منكر ناهيًا، فرفع الله له ذكره، وشرح له صدره، ووضع عنه وزره، وجعل الذلة والمهانة على من خالفه.

**صلوا على ماجد جلت مآثره ... وأكثر الخلق إفضالاً وإحسانًا**
**أتى العباد وقد ضلت مسالكهم ... فأوضح الحق تبيانًا وبرهانًا**
**وبين الدين بالتذكير مجتهدًا ... وأظهر الشرع أحكامًا وقرآنا**
**وأنقذ الخلق من نار السموم لظى ... وأورد الناس جنات ورضوانًا**
**لا تبغِ طيبًا إذا ما كنت ذاكره ... ولا ترد بعده روحًا وريحانًا**
**فالحمد لله إذ كنا له تبعًا ... لقد تفضل بالخيرات مولانا(٢)**

والوُصية التى بين أيدينا يحذر فيها رسولنا ﷺ من نوع من أنواع الشرك وهذا النوع يسمى «الرياء» فمعنى «اتقوا الشرك» أى احذروا من هذا النوع بالذات، ولا تتساهلوا فى

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده رقم (١٩٤٩٦) جـ١٤/٥٢٦ بإسناد صححه حمزة الزين وصححه الألبانى فى ص.ج (٣٧٣١).

(٢) بستان الواعظين لابن الجوزى ص ٣١٢ دار المنار.

أمره، لأنه خفى، حتى إنه أخفى من دبيب النمل، ولذلك فقد سماه الرسول ﷺ فى حديث آخر بالشرك الأصغر.

يقول ﷺ: «**إياكم والشرك الأصغر**، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: **الرياء**»(١) ومن فطنة الصحابة وذكائهم، وحرصهم على معرفة ما يصلح دينهم وآخرتهم سألوه: «كيف نحذره، ونبتعد عنه؟» فأرشدهم المرشد الأعظم وقال لهم: قولوا: «**اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم**» فما هو الرياء وما أنواعه ما هى صفات المرائين؟ وما خطر الرياء على الدين؟! هذا ما سوف نوضحه.

## • فما هو الرياء؟ •

### أخى المسلم:

يا من أخلصت دينك لله رب العالمين، يا من تريد أن تعرف الحق لتتبعه، والباطل لتجتنبه، اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية.

ولذلك فإن المرائى يتراءى للناس ساعة فعله لخير من الخيرات، أو طاعة من الطاعات يقول وهب بن منبه: الرياء أبينه كذب، وأخفاه مكيدة. **لأنه يخفى على من غفل، ويتبين** لمن يتفقده بالعلم وينظر إليه بالمعرفة.

الرياء طلاء رقيق يخفى به المرائى سوءات بعضها فوق بعض.

الرياء زيف كاسد فى سوق تجارة لن تبور.

الرياء قناع خدَّاع، يحجب نفسًا وقحة، وقلبًا غافلاً، وعملاً مزيفًا.

والرياء منزلة الضعفاء الهالكين يوم لقاء رب العالمين.

الرياء هو إرادة العبد العباد بطاعة ربه جل وعلا.

الرياء هو طلب العبد المنزلة فى قلوب العباد من غير صدق فى نفسه.

فالمرائى يفعل من العبادات التى أمر الله بفعلها له لغير الله تعالى.

فالمرائى يطلب حظ نفسه من عملها سريعًا فى الدنيا.

## • الترهيب من الرياء فى القرآن الكريم •

اعلم أن الرياء حرام، والمرائى عند الله ممقوت، ولقد شهدت لذلك الآيات والأخبار قال تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [الماعون: ٤: ٦] تأمل عقوبته «ويل» يقول الرازى(٢):

---

(١) رواه أحمد والبيهقى فى شعب الإيمان بسند جيد وذكره بنحوه الألبانى فى الصحيحة (٩٥١).

(٢) التفسير الكبير جـ٣٢/ ٦٦٥، ٦٦٦

واعلم أن هذا اللفظ يستعمل عند الجريمة الشديدة كقوله تعالى: ﴿ويل للمطففين﴾ [المطففين: ١]، ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم﴾ [البقرة: ٧٩]، ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ [الهمزة: ١].

وكل من فى النار ينوح بحسب جريمته، فقائل يقول: يا ويلى من حب الشرف، وآخر يقول: ويلى من الحمية الجاهلية، وآخر يقول: ويلى من صلاتى، فلهذا يستحب عند سماع هذه الآية، أن يقول المرء ويلى إن لم تغفر لى.

ثم يقول: والآية دالة على حصول التهديد بفعل ثلاثة أمور:

**أحدها:** السهو عن الصلاة.

**وثانيها:** فعل المراءاة «الرياء».

**وثالثها:** منع الماعون.

ثم يقول: اعلم أن الفرق بين المرائى والمنافق أنَّ المنافق هو المظهر للإيمان المبطن للكفر، والمرائى المظهر ما ليس فى قلبه من زيادة خشوع ليعتقد فيه من يراه أنه متدين. أو تقول: المنافق لا يصلى سرًّا، والمرائى صلاته عند الناس أحسن(١)

وقال تعالى: ﴿والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور﴾ [فاطر: ١٠] قال مجاهد: هم أهل الرياء، فكلمة هو يبور، إشارة إلى فنائه.

وقال تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ [الفرقان: ٢٣] أى أنه سبحانه وتعالى أحبط أعمالهم من أجل الرياء حتى صارت بمنزلة الهباء.

وقال تعالى: ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾ [الإنسان: ٩] فمدح المخلصين بنفى كل إرادة سوى وجه الله، والرياء ضده.

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس﴾ [البقرة: ٢٦٤] أى أن الذى ينفق ماله رياء وسمعة قد أبطل ثواب عمله، فهو لا ثواب له عند الله تعالى.

## • بيان ذم الرياء فى السنة المطهرة •

**١ - أن المرائين لا ثواب لهم على أعمالهم، وأنهم يطلبون ثوابهم ممن كانوا يراءون لأجلهم.**

فعن عمران بن حصين رضي الله عنه أنَّ النبى ﷺ قال: «**إنَّ أخوف ما أخاف عليكم: «الشرك الأصغر»** قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: **الرياء**».

(١) المرجع السابق جـ٣٢/ ٦٦٧

يقول الله عز وجل يوم القيامة، إذا جازى الناس بأعمالهم: **«اذهبوا إلى من كنتم تراءون فى الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً؟!»**(١)

فقد حذر رسولنا ﷺ من الرياء أتدرى لماذا؟

لأنه محبط للأعمال مع كثرتها يقول النبى ﷺ: **«لأعلمن أقوامًا من أمتى يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء، فيجعلها الله هباءً منثورا، أما إنهم إخوانكم، ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها»**(٢)

يا سبحان الله! لهم مثل جبال تهامة حسنات ومع ذلك تضيع عليهم بسبب الرياء، فيا له من داء عضال.

**يقول على الخواص رحمه الله:** إذا راءى العبد بعلمه وعمله حبط عمله بنص الكتاب والسنة.

**٢- أن الرياء يحبط الجهاد والإنفاق والعلم والقرآن:**

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ أول الناس يقضى عليه يوم القيامة، رجل استشهد، فأتى به، فعرفه نعمته فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال: «قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جرئ، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه، حتى ألقى فى النار، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمهُ فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: إنك عالم، وقرأت القرآن ليقال: إنك قارئ، فقد قيل، ثم أُمر فسُحب على وجهه حتى أُلقى به فى النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتى به فعرفه نعمته، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال: هو جوادٌ، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه ثم أُلقى به فى النار»**(٣)

**٣- أن الله تعالى يفضح المرائين على رؤوس الأشهاد يوم القيامة:**

فالمرائى وإن كان يظهر للناس الأعمال الصالحة ليعظم قدره فى أعينهم، وليعلو شأنه فى نفوسهم، فإن الله يظهر سريرته ليكون الجزاء من جنس العمل.

فعن سعيد بن أبى فضالة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا جمع الله الأولين والآخرين**

(١) رواه أحمد فى مسنده (٢٣٥٢١) جـ١٧/ ٥٩ وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ١٠٢ رجال أحمد رجال الصحيح ورواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الزهد وصححه الألبانى فى ص.ج (١٥٠٥).

(٢) صححه الألبانى فى ص.ج رقم (٣٧٣١).

(٣) رواه مسلم فى كتاب الإمارة باب من قاتل للرياء والسمعة (١٩٠٥) والترمذى (٢٣٨٣).

ليوم لا ريب فيه، نادى مناد، من كان أشرك فى عـمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عنده، فإن الله أغنى الأغنياء عن الشرك»(١)

وعن أبى سعيد أن النبى ﷺ قال: «من يرائى يرائى الله به، ومن يسمع يسمع الله به»(٢)

قال الخـطابى: معناه مـن عمل عمـلاً على غيـر إخلاص إنما يريـد أن يراه الناس، ويسمـعوه جوزى على ذلـك بأن يشهره ويفـضحه، فـيبدو عليـه ما كان يبطنـه ويسره من ذلك»(٣)

أتعلم أخى المسلم ما السر فى أن الله عز وجل يفضحه يوم القيامة؟

يفضحه رب العالمين جل وعلا لأنه جعله سبحانه أهون الناظرين إليه، عَظَّم شأن الله تعالى، وحقَّر شأن مولاه فحقَّر الله شأنه وفضحه عيانًا: ﴿ومن يهن الله فماله من مكرم﴾» [الحج: ١٨] إنه سبحانه يعرض عنه حين يلتمس ثواب عمله هذا، ويوكله إلى من كان يعمل لأجلهم فهو سبحانه الذى يـقول فى حديثه القدسى الجليل: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى، تركته وشريكه»(٤)

## • التحذير من الرياء فى الأثر •

١- لقد حذر الرسول الأعظم، والنبى الأكرم الأمة المحمدية من الرياء لأن الله تعالى هو وحده الذى يطـلع على خفايا النفـوس، ومكنونات الضميـر، حتى إن الحفظة والكـتبة الذين يسطرون حسناته وسيئاته لا يستطيعون أن يـميزوا بين النية الخالصة، والنية الفاسدة، لأن الإخلاص سر من أسراره تعالى استودعـه قلب من شاء من عباده، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده.

يقول أبو عمران الجونى -رحمه الله-: «تصعد الملائكة بالأعمال، فينادى الملك: ألق تلك الصحيفة، ألق تلـك الصحيفة، فتقول الملائكة: يا ربنا، قالوا خـيرا وحفظناه عليهم، فيقول سبحانه: «لم يردْ به وجهى، قال: وينادى الملك، اكتب لفـلان كذا، فيقول: إنه لم يعمله، فيقول الله: إنه نواه»(٥)

---

(١) رواه الإمام أحـمد فى مـسنده (١٥٧٨٢) بإسناد حـسن ١٢/٣٣٨ والتـرمذى (٣١٥٤) وابن مـاجه (٤٢٠٣) وحسنه الألبانى فى ص.ج (٤٩٦).

(٢) رواه أحمد (١١٢٩٦) بإسناد حسن ورواه البخارى فى الرقـاق باب الرياء والسمعة ومسلم فى الزهد (٢٩٨٧) والترمذى (٢٣٨١) وقال: حسن صحيح

(٣) فتح البارى ١١/ ٦٤٩٩

(٤) رواه مسلم (٢٩٨٥) وابن ماجه فى السنن.

(٥) صفة الصفوة لابن الجوزى ٣/ ١٥١ والحلية لأبى نعيم ٢/ ٣١٣

٢- وكان أحد السلف إذا قرأ قوله تعالى: ﴿وبدا لهم مِّن اللَّه ما لم يكونوا يحْتَسِبونَ﴾ [الزمر: ٤٧] يقول: ويل لأهل الرياء.

وينادى يوم القيامة على المرائى، فيقال له: يا مراءٍ، يا غادر، يا فاجر، يا خاسر اذهب فخذ عملك ممن عملت لأجله..»[1]

٣- وضرب عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً بالدِّرَّة ثم قال له: اقتص منى فقال: بل أدعها لله ولك. فقال له عمر ما صنعت شيئًا، إمَّا أن تدعها لى فأعرف ذلك، أو تدعها لله وحده، فقال: ودعتها لله وحده، فقال: فنعم إذن[2]

٤- ويروى أن رجلاً كان يمشى ويطأطئ رقبته، فقال له سيدنا عمر بن الخطاب: يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك ليس الخشوع فى الرقاب وإنما الخشوع فى القلب[3]

٥- وقيل إن أبا أمامة الباهلى رضي الله عنه أتى على رجل فى المسجد وهو ساجد يبكى فى سجوده ويدعو، فقال له أبو أمامه: أنت أنت لو كان هذا فى بيتك[4]

٦- وقال محمد بن المبارك الصورى: أظهر السَّمت بالليل فإنه أشرف من إظهاره بالنهار، لأن السَّمت بالنهار للمخلوقين، والسَّمتُ بالليل لرب العالمين[5].

٧- وقال قتادة: إذا راءى العبد يقول الله: انظروا إلى عبدى كيف يستهزئ بى[6].

## •علامات المرائى•

اعلم أيها العبد الطائع -نور الله قلبك بالإخلاص- أن للمرائى علامات فمنها:

يقول سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه: للمرائى ثلاث علامات[7]:

١- يكسل إذا كان وحده.

٢- ينشط إذا كان فى الناس.

٣- يزيد فى العمل إذا أثنى عليه، وينقص إذا ذُمَّ.

**فأولها: يكسل إذا كان وحده:**

كهذا الذى يصلى أمام الناس وبينهم، فإذا انفرد لم يصل، وهذا ضرب من النفاق قال تعالى عن المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ١٤٢].

ويقول النبى ﷺ عن مثل هذا المرائى المنافق: «**تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرنى شيطان، قام، فنقرها أربعًا لا يذكر الله فيها إلا قليلاً**»[8] فهو لا تسخو نفسه بطاعة الله التى لا يعلم بها أحد من العباد.

---

(١) ذكره ابن أبى الدنيا، والغزالى فى الإحياء ٣/ ٢٨٧ط الحلبى.

(٢): (٤) تهذيب إحياء علوم الدين لعبد السلام هارون ص٣٧٧.

(٥): (٧) إحياء علوم الدين للغزالى ٣/ ٢٨٩ والتهذيب ص٣٧٧.

(٨) رواه مسلم وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

**ثانيها: أنه ينشط إذا كان فى الناس، فيزين الصلاة:**

ولهذا حذر النبى ﷺ كل التحذير من هذا الصنف من العبادة، فيقول ﷺ: «**يا أيها الناس! إياكم وشرك السرائر**» قالوا: يا رسول الله، وما شرك السرائر؟ قال: **يقوم الرجل، فيصلى، فيزين صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه، فذلك شرك السرائر**»(١)

**ثالثها: أنه يزيد فى العمل إذا أثنى عليه:**

أى أنه يحب الحمد والثناء من الناس مع أن حمدهم وثناءهم لا يزيد فى أجله ولا رزقه، ولا صرف بلاء، ولا دفع مكروهًا مما قدر الله عليه، ولم ينل شيئًا مما فى أيدهم إلا بقدر الله تعالى وقضائه.

**رابعها: أنه يكره الذّم وينقص العمل لأجله:**

فإذا ذمّه العباد قل جهده وعمله، لأنه يتحبب إلى العباد بالتبغض إلى الله عز وجل.

ويتزين لهم بالشين عند الله تعالى.

ويتقرب إليهم بالتباعد من الله عز وجل

ويتحمد إليهم بالتذمم لله عز وجل.

ويطلب رضاهم بالتعرض لسخط الله تعالى.

ويطلب ولايتهم بالتعرض للعداوة من الله تعالى.

فهو يحرم فى الآخرة من الثواب، ويحبط عمله فى الدنيا، ويبطل أجره يوم فقره وحاجته(٢)

وقد سئل الحسن البصرى عن الإخلاص والرياء، فقال:

«أن تكتم حسناتك، ولا تحب أن تكتم سيئاتك، فإذا أظهر الله حسناتك تقول: هذا من فضلك وإحسانك، وليس هذا من فعلى، ولا من صنعى، وتذكر قول الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

## أخى المسلم:

صحح نيتك مع الله عز وجل ونق قلبك من الرياء وعمره بالإخلاص، يوفقك الله إلى ما تريد. ففى يوم من الأيام قال الحسن البصرى -رحمه الله-: والله لأعبدن الله عبادة أُذكر بها، فكان الناس لا يرونه إلا عابدًا، أو فى طاعة، ومع ذلك كان إذا مرَّ على قوم نظروا إليه، وقالوا: انظروا إلى هذا المرائى، فتعجب وقال: سبحان الله! ما أرانى أُذكر إلا بشر وسوء، فصحح النية لله رب العالمين وقال: والله لأعبدنَ لله عبادة أبتغى بها وجه الله

(١) صححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب ١/ ١٧

(٢) الرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبى ط/ التوفيقية ص ١٤١، ١٤٢

تعالى، فما زاد على العمل شيئًا إلا أنه صحح النية مع الله، فكان إذا ما مرَّ على الناس إلا قالوا: يرحمك الله يا أبا الحسن، فتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

## •أسباب الرياء•

ولهذا الداء الخطير أسباب ودواعٍ توقع فيه، وتؤدى إليه منها:

**١- عدم معرفة العبد بربه معرفة حقيقية:**

لأن العبد إذا لم يعرف ربه معرفة حقيقية فإن ذلك يجعله لا يقدره حق قدره، فهو لم يعرف بأن الله بيده مقاليد الأمور، فبيده النفع والضر، والفقر والغنى، حينئذ يحرص العبد على مراءاتهم وتسميعهم كل ما يصدر عنه من الطاعات، لكى يمنحوه ثناء، أو يرفعوا قدره، ويُعْلُوا شأنه، وليس ذلك بأيديهم، وهذا هو السر فى أن الرسول الأكرم ظل يدعو أهل مكة فى بداية الدعوة طوال ثلاث عشرة سنة إلى التعرف على الخالق الأعظم جل وعلا، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

**٢- إشباع غريزة الحمد والثناء من الناس:**

فهو يفرح بالمدح ويشكر المادح، ويغضب من الذم، ويحقد على الذَّام، وهذا يدفعه إلى فعل المعاصى.

يقول الغزالى(١):

اعلم أن لحب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب:

١- وهو الأقوى: شعور النفس بالكمال.

٢- أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح، وأنه مريد له.

٣- أن ثناء المُثنى، ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه، لاسيما إذا كان ذلك ممن يلتفت إلى قوله، ويُعتد بثنائه.

٤- أن المدح يدل على حشمة الممدوح، واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء على الممدوح، إما عن طوع وإما عن قهر

**٣- الصحبة أو الرفقة السيئة:**

لأن المرائى قد يكون له صحبة سيئة لا همَّ لهم إلا الرياء والسمعة فهو يقلدهم ويحاكى أفعالهم وسلوكهم، ولا سيما إذا كان من أصحاب الشخصيات الضعيفة التى تتأثر بالآخرين.

---

(١) تهذيب إحياء علوم الدين ص ٣٧٥، ٣٧٦ باختصار وتصرف.

**٤- حب الرياسة والمنصب:**

مع أن النبى ﷺ بين أنها سوف تكون حسرة على أهلها يوم القيامة، فعن أبى هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة، فنعمت المرضعة، وبئست الفاطمة**»(١)

وقال لعبد الرحمن بن سمرة: «**يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة، فإنك إن سألتها لم تعن عليها، وإن أوتيتها عن غير مسألة أعنت عليها**»(٢)

**٥- الجهل بعواقب الرياء وآثاره:**

فإن جهله يؤدى به إلى مراءاة الآخرين لكنه لو عرف عواقبه وأضراره لانتهى عنه.

## • أنواع الرياء •

اعلم أيها المسلم، يا من آمنت بالله ربًا وبالإسلم دينًا، وبمحمد نبيًا ورسولاً! أن الرياء يجرى من ابن آدم مجرى الدم، ليشوب أفعاله وعباداته، ويبطل كل طاعاته، وهو أنواع متعددة تفوق الحصر، ومنها:

ما ذكره الإمام الحارث المحاسبى فقال: «المراءى به، والمتزين به خمسة أشياء: يرائى العبد ببدنه، وبزيه، وبقوله، وبعمله، وبغيره من الصحابة والقرابة فيرائى بالطاعة بهذه الأشياء الخمسة»(٣)

كان هذا هو الموجز وإليكم الأنباء بالتفصيل من مدرسة السلف الصالح رضوان الله عليهم.

**١- الرياء بالبدن:**

والرياء بالبدن فيرائى به العبد من جهتين: ١- جهة الدين. ٢- جهة الدنيا.

أما من جهة الدين فيُرائى بالنحول وبالاصفرار ليوهم من يراه أنه مجتهد فى العبادة، خائف من لقاء ربه، ويرائى بضعف الصوت، وغور العينين، وذبول الشفتين ليستدل بذلك على الصيام.

فعن أبى هريرة ؓ أن سيدنا عيسى عليه السلام قال: «**إذا صام أحدكم، فليدهن رأسه، ويرجل شعره، ويكحل عينيه**»(٤) إنه يخاف عليهم أن يراءوا بما يظهر من بشرة وجوههم الذى يدل على صيامهم.

---

(١) رواه البخارى (٧١٤٨) وأحمد فى مسنده (٩٧٥٣) والنسائى (٤٢١١).

(٢) رواه البخارى (٧١٤٩) ومسلم (١٧٣٣) وأحمد (٦٩٤ ٢).

(٣) الرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبى ص ١٤٥ ط/ التوفيقية.

(٤) ذكره الهيثمى فى المجمع ٢/ ١ ١ وعزاه للطبرانى فى الكبير من حديث ابن مسعود وقال: رجاله رجال الصحيح.

وأما من جهة أهل الدنيا: فهم يراءون بالسمن، وصفاء اللون، وانتصاب الصلب، وذلك أيسر من الرياء بالدين، وهؤلاء هم الذين قال في وصفهم لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤].

**٢- الرياء من جهة اللباس:**

فهو أيضًا من جهتين:

من جهة أهل الدين، وجهة أهل الدنيا.

فأما أهل الدين، فيكون رياؤهم بلبس الثياب الخشنة، وتشميرها، وقصر الأكمام، وخصف النعال، وترك تهذيب الثوب، ليظهر التزهد، وبعضهم يرتدي نوعًا خاصًا من الثياب ليقال لهم: علماء.

وأما أهل الدنيا، فمراءاتهم بالثياب النفيسة الجيدة، والمراكب الحسنة، وأثاث البيوت الفاخرة.

**٣- الرياء بالقول:**

أما من جهة أهل الدين فيكون بحفظ الأخبار والآثار، والنطق بالحكمة، وإقامة الحجة عند المجادلة، وحفظ الحديث، وإظهار الذكر لله عز وجل باللسان، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتضعيف الصوت عند المحاورة، وحسن الصوت بالقراءة وتحزينه والتباكى، ليدل ذلك على أنه خائف وجل من الله تعالى.

وأما من جهة أهل الدنيا فيكون بمراءاتهم بحفظ الأشعار، وحسن الصوت بالشعر والغناء وقوة الصوت، وشدة الحجة فى المحاورة.

**٤- الرياء بالعمل:**

أما أهل الدين، فيكون بطول الصلاة، واعتدال الانتصاب فيها، والتطويل في الركوع والسجود، وإظهار الخشوع والخضوع، وتحزين القراءة، وغير ذلك مما هو معلوم ومخالف لما عليه الرسول الأعظم، وصحابته الأجلاء، والسلف الصالح أجمع.

فقد كان أحد السلف الصالح رضوان الله عليهم يصلى، فلما أطال فى ركوعه وسجوده، وكان بجواره رجل آخر، فلما انتهت الصلاة قال له: «لا عليك، ولا تغرنك صلاتى فلقد كان إبليس أعبد منى».

وأما أهل الدنيا فيراءون بالتبختر والاختيال، وتقريب الخطى، ولمِّ الثياب، ليدلوا على الحشمة زعمًا.

ومنهم فرقة تريد أن تجمع الدين والدنيا، تمشى مسرعة لحاجتها، وتتكلم كذلك، حتى يطلع عليها بعض أهل الدنيا، فيتقارب فى الخطى، ويبطئ المشى وينكس الرأس، فإذا جاوزها عاد لحالته الأولى. إلخ.

**٥- الرياء بالأصحاب والقرابة والزوار:**

أما فى أهل الدين فمثل هذا الذى يتكلف حتى يجعل عالمًا من العلماء يزوره ليقال: إن العالم الجليل فلان. قد زار فلانًا، وأن أهل العلم يترددون عليه.

وبعضهم يُرائى بكثرة شيوخه، ليقال: لقى شـيوخًا كثيرين، وأجازه شيوخ كثيرون، فيتباهى بهم، ويباهى.

## • ما الذى يورثه الرياء من الأخلاق المذمومة؟ •

اعلم أخى المسلم أن الرياء يورث أخلاقًا مذمومة عند الله تعالى منها(١):

**١- الرئاسة:**

وهى حب التعظيـم والتسخير للعـباد والتحقير لـهم، وألا يُرد شىء من قوله، ولا يساوى فى العلم بغيره.

**٢- المباهاة:**

أى المباهاة بالعلم والعمل فى الدين أو فى الدنيا.

فمن جـهة الدين فإنه يداوم علـى العلم وطلبه، وكثـرة الحفظ له، والمواظبـة عليه، والمبادرة إلى الجواب إذا سئل هو أو غيره، يحب بذلك أن يعلو، وليعلم غيره أنه أعلم منه.

وأما المباهـاة بالعمل، كمثل أن يجـتمع صاحب الرياء والمبـاهاة مع من يذكر الله أو يقوم بعمل من أعمال البر والطاعة، فإنه يتقدم لكى يعلو أمامه، وليرى فضله.

وأما من المباهاة فى الدنيا، فتكون بالبناء حتى يعلو على غيره.

**٣- التفاخر:**

وذلك حين يجلس مع أحـد الناس فيقول له: أنت فقـير لا مال لك، وكم ربحت؟ وكم عندك من المال؟ ومـتى ملكت المال؟ وعندى أكثـر مما تملك، فهو يـفتخر بنفـسه رياء وكبرًا.

**٤- التحاسد:**

فالباعث عليه هو الرياء وغيره، فهو يتمنى أن تزول النعمة عن غيره لئلا يعلوه بها.

فعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: يأتى على الناس زمان يـتغايرون فيه على العلم كما يتغايرون على النساء، فذلك حظهم منه»(٢).

**٥- حب الغلبة:**

فصاحب الرياء يحب أن يغلب الآخرين، يحب أن يخطئ غيره، ويصيب هو، وإن أصاب غيره اغـتم لذلك. وتلك نهمة إبليس فى العباد: أن يـخطئوا فى دين الله عز وجل ولا يصيبوا، ويغتم إن أصابوا.

---

(١) الرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبى ص ١٨٥ - ١٩٠ باختصار.

(٢) رواه الترمذى فى كتاب العلم وصححه الألبانى.

## • خطر الرياء وآثاره السيئة •

وللرياء آثار ضارة، وعواقب مهلكة على الأمة أفرادًا وجماعات ومن تلك الآثار:

**١- الرياء أخطر على المسلمين من فتنة المسيخ الدجال:**

إن خطر الرياء لا يجهله من له أدنى علم بسنة النبى ﷺ، ومع ذلك فهو أشد خطرًا وأعظم أثرًا يقول النبى ﷺ: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيخ الدجال؟: الشرك الخفى، أن يقوم الرجل، فيصلى، فيزين صلاته، لما يرى من نظر رجل**»[1].

**٢- الرياء أشد فتكًا من الذئب فى الغنم:**

قال ﷺ: «**ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»[2]

وهذا المثال الذى ضربه الرسول ﷺ لفساد دين المسلم بـالحرص على المال والشرف فى الدنيا، وهما اللذان يحركان الرياء فى النفس، ليس بأقل من هلاك الغنم بذئبين جائعين باتا فى الغنم، قد غاب عنها رعاؤها ليلاً، فهما يأكلان ويفترسان ما طاب لهما، ولن ينجو من شرهما إلا القليل، وكذلك الرياء. فالحذر الحذر.

**٣- الرياء يحرم صاحبه من الهداية والتوفيق:**

لأن من الذى يملك الهداية؟ ومن الذى بيده التوفيق؟ إنه لا أحد سوى الله عز وجل الذى نسأله فى كل الصلوات الهداية: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ [الفاتحة: ٤] فهو وحده الذى يمنُّ بهما على من يشاء، ويحرم منها من يشاء، فلا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، وقد مضت سنة الله فى خلقه أنه لا يمنح الهداية والـتوفيق إلا لمن صدقت نيته، وعلم منه الإخلاص، قال سـبحانه: ﴿**وَيَهْدِي إِلَيْهِ من يُنيبُ**﴾ [الشورى: ١٣] والمرائى قد بدّد هذا الإخلاص، وضـيع صدق التوجه إلـى مولاه، فأنَّى له التـوفيق والهداية؟! وصـدق مولانا حين قال: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ [الصف: ٥].

**٤- أن الله سبحانه ينزع هيبته من قلوب العباد:**

لأنه وحده هو الذى يملك أن يغرس تلك الهيبة فى قلوب من شاء من عباده، وهذا أيضًا متوقف على مدى الإخلاص لله رب العالمين.

---

(١) رواه ابن ماجه (٤ ٤٢) من حديث أبى سعيد الخدرى بإسناد حسن.

(٢) رواه الترمذى (٢٣٧٦) وصـححه وأحمد فى مسنـده (١٥٧٢٤) وابن المبارك فى الزهد (١٨١) وابن حبان (٣٢٢٨) وصحح إسناده أيضًا حمزة الزين فى المسند ١٢/ ٣١٠.

ولذلك أوصى عمر بن الخطاب ﷺ أبا موسى الأشعرى إذ قال له: «**من خلصت نيته، كفاه الله ما بينه وبين الناس**»(١)

**٥- أن الرياء يبطل العمل الصالح ويمحقه:**

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٦٤] فهذا القلب الصلد المغطى بالرياء، مثله كمثل صفوان عليه تراب. إنه حجر لا خصب فيه، ولا ليونة. يغطيه تراب خفيف، يحجب صلادته عن العين المخدوعة، كما يحجب الرياء صلادة القلب الخالى من الإيمان. هذه هى نهاية الرياء، تمحق آثار العمل الصالح محقًا، فى وقت لا يملك صاحبه قوة ولاعونًا، ولا يستطيع لذلك ردًا، وتأمل قول الله جل ثناؤه: ﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ [البقرة: ٢٦٦].

هذا العمل الصالح فى أصله واحة وارفة الظلال، وجنة فينانة ذات روح وظل، وخير وبركة، وزكاة ونماء. فمن ذا الذى يود أن تكون له هذه الجنان، ثم يرسل عليها الرياء فيمحقها محقًا، كأنها لم تغن بالأمس. ومتى؟ فى أشد ساعاته عجزًا عن إنقاذها وحاجته إلى ظلها، يوم لا ظل إلا ظله سبحانه وتعالى.

حينئذ يقلب المرائى كفيه على ما أنفق رئاء الناس، وكذلك يريه الله أعماله حسرات وزفرات.

فاحذر أخا الإسلام الرياء، فإنه شر بلاء، يذر الأعمال هباء(٢)

## • دواء الرياء وعلاجه •

قد وقفت أخى المسلم على خطر الرياء، وعلمت أنه محبط للأعمال، مهلك لأصحابه وسبب قوى لمقت الله تعالى للعبد، فهلا وقفت على علاجه ودوائه؟!

وعلاج الرياء ودواؤه مركب من علم وعمل، مرُّ المذاق، لكن شفاءه ونتيجة علاجه أحلى من العسل.

فهيا لنشخص الدواء والعلاج لهذا الداء الخطير:

وفى طرق معالجته مقامان:

١- قلع عروقه وأصوله التى تشعب منها.

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى ٤/٣٧٨.

(٢) الرياء وأثره السيئ فى الأمة - سليم الهلالى ص ٤٢، ٤٣.

٢- دفع ما يخطر منه فى الحال[1]

وهذان المقامان يرجعان فى علاجهما إلى الأسباب الآتية:

**١- أن يقبل العبد بقلبه وقالبه، فيعرف لربه حق قدره:**

فيعلم أنه الرافع والخافض، وأنه هو المعز والمذل، وأنه هو الذى يعلم مكنونات الضمير، وهو الناقد البصير، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وحسبه اطلاع الله عليه، فلو لم يـر العبد ربه فهو يراه ويطلع عليه: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ [الزمر: ٣٦].

**٢- أن يقف العبد على الجزاء الأخروى الذى أعده الله للمرائين، وما أعده الله للمخلصين:**

وشتان بين هذا وذاك، فالمراءون قد أُعد لهم العذاب المقيم، والويل الشديد، والمخلصون قد أعد الله لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [الكهف: ١١٠].

**٣- أن يعود نفسه إخفاء العبادات، وإغلاق الأبواب دونها:**

مثل إغلاقه الأبواب ساعة ارتكابه فاحشة من الفواحش، وهذا أمر يشق على النفس فى بداية الأمر، فإذا صبر عليها مدة بالتكليف سقط عنه ثقله، وأمده الله بالعون، فعلى العبد المجاهرة ومن الله التوفيق.

**٤- التخلى عن صحبة من عُرفوا بالرياء وحب المدح:**

لأنه كما بينا سابقًا أن المرء على طريقة صاحبه وصديقه كما قال النبى ﷺ: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»[2] ثم عليه أن يرتمى فى أحضان المخلصين الموحدين. لأن فى يوم القيامة سيلوم كل صاحبه، ويلقى عليه اللوم كما حكى القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

**٥- أن يجاهد نفسه، ويكتم عمله:**

لأن النفس مجبولة على الطمع وحب الثناء والظهور والشهرة، لكن أهل الخير على خلاف ذلك، فعن عامر بن سعد بن أبى وقاص قال: كان سعد بن أبى وقاص فى إبل له وغنم، فأتاه عمر ابنه، فلما رآه قال: «أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فلما انتهى إليه قال: يا أبت! أرضيت أن تكون أعرابيًا فى إبلك وغنمك، والناس بالمدينة يتنازعون فى الملك؟ قال: فضرب صدره بيده، وقال اسكت يا بنى، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يحب العبد التقى النقى الخفى**»[3]

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٣٤٢، دار القلم. (٢) خُرج فى موضع آخر.

(٣) رواه مسلم وأحمد (١٥٢٩).

**٦- دوام النظر أو السماع للنصوص المرغبة فى الإخلاص، والتى تحذر من الرياء:**

لأن ذلك يعتبر بداية الإقلاع عن الرياء والالتزام بالإخلاص، وتأمل معى هذه الوصية التى ساقها سفيان الثورى رحمه الله إلى عبَّاد بن عبَّاد رحمه الله فقال:

«أما بعد: فإنك فى زمان كان أصحاب النبى ﷺ يتعوذون أن يدركوه، ولهم من العلم ما ليس لنا، فكيف بنا حين أدركناه على قلة علم، وقلة صبر، وقلة أعوان على الخير، وفساد من الناس، وكدر من الدنيا؟

فعليك بالأمر الأول، والتمسك به، وعليك بالخَمول، فإن هذا زمن الخمول، وعليك بالعزلة، وقلة مخالطة الناس، فقد كان الناس إذا التقوا ينتفع بعضهم ببعض أما اليوم فقد ذهب ذاك، والنجاة فى تركهم، وإياك والأمراء أن تدنو منهم، وتخالطهم فى شىء من الأشياء.

وإياك وحب الرئاسة، فإن الرجل تكون الرئاسة أحب إليه من الذهب والفضة، وهو باب غامض لا يبصره إلا العلماء السماسرة، فتفقد نفسك، واعمل بنية، واعلم أنه قد دنا من الناس أمر يشتهى الرجل أن يموت والسلام»[(١)]

**٧- الدعاء:**

كما علمنا الأستاذ الأعظم، والرسول الأكرم ﷺ فى الوصية التى نعيش معها، وهذا الدعاء يقيك من الشرك بأنواعه: الجلى والخفى، الأكبر، والأصغر.

فقد سأله أحد أصحابه: «كيف نتقيه، وهو أخفى من دبيب النمل؟ قال: قالوا: **«اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه»**[(٢)]

## • موعظة:

نتلقى هذه الموعظة من الإمام الذهبى فى كتابه «الكبائر»[(٣)]

عباد الله! إنَّ أيامكم قلائل ومواعظكم قواتل، فليخبر الأواخر الأوائل، وليستيقظ الغافل قبل القوافل، يا من يوقن أنه لا شك راحل، وما له زاد ولا رواحل، يا من لجَّ فى لجَّة الهوى متى ترتقى إلى الساحل؟ هل انتبهت من رقاد شامل، وحضرت المواعظ بقلب غير غافل، وقمت فى الليل قيام عاقل، وكتبت بالدموع سطور الرسائل، تخفى بها زفرات الندم والوسائل، وبعثتها فى سفينة دمع سائل، لعلها ترسو على الساحل.

واأسفًا لمغرور جهول غافل، لقد أثقل بعد الكهولة بالذنب الكاهل، وقد ضيع البطالة وبذل الجاهل، وركن إلى ركوب الهوى ركبة مائل، يبنى البنيان ويشيد المعاقل، وهو عن ذكر قبره متشاغل، ويدعى بعد هذا أنه عاقل.

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم ٦/٣٧٦، ٣٧٧.

(٢) سبق تخريجه فى نص الوصية.

(٣) الكبائر للإمام الذهبى ص ١٥٨ ط/ دار الخلفاء.

فنسألك يا ربنا:

| | |
|---|---|
| يا من يري ما في الضمير ويسمع | أنت المعدُّ لكلِّ ما يتوقع |
| يا من يرجي في الشدائد كلّها | يا من إليه المشتكى والمفزع |
| يا من خزائن رزقه في قول كن | امنن فإن الخير عندك أجمع |
| مالي سوى فقري إليك وسيلة | فبالافتقار إليك فقري أدفع |
| مالي سوى قرعي لبابك حيلة | فلئن رددت فأي باب أقرع |
| ومن الذي أدعو وأهتف باسمه | إن كان فضلك عن فقيرك يمنع |
| حاشا لجودك أن تقنط عاصيًا | فالفضل أجزل والمواهب أوسع[(١)] |

اللهم إنا نسألك أن تنور بكتابك أبصارنا، وتطلق به ألسنتنا، وتفرج به عن قلوبنا وأن تشرح به صدورنا، وأن تغسل به ذنوبنا، فإنه لا يعيننا على الحق غيرك، ولا يؤتيه إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

## • الوصية رقم (٩٣) •

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى وقال **«يا عبد الله، كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»**.

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول:

إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[(٢)]

## • فى رحاب هذه الوصية •

لقد أخذ النبى ﷺ بمنكب عبد الله بن عمر، والمنكب هو مجتمع رأس العضد والكتف وقد فعل النبى ﷺ ذلك لكى يقبل على سماع ما يلقيه إليه، وليفيق من غمرة ما هو فيه من الشغل عن ذلك، ثم قال له: **«يا عبد الله، كن فى الدنيا كأنك غريب»** وفى بعض الروايات بغير النداء وإن كان النداء من الرسول ﷺ فيه تكريم للمنادى، ومودة، والغرض من النداء الحث والتنبيه على أهمية ما يلقى عليه، فأمره أن لا يستكثر من أمتعة الدنيا وزهرتها، لأن شأن الأسفار التخفيف عن النفس، بإلقاء ما يثقله، قال الشاعر:

| | |
|---|---|
| ألقى الصحيفة كى يُخفف رحله | والزاد حتى نعله ألقاها |

---

(١) استنشاق نسيم الأنس لابن رجب الحنبلى ص١١٨ النصيحة ص ١١٠

(٢) رواه البخارى فى كتاب الرقاق باب قول النبى: كن فى الدنيا (٦٤١٦) والترمذى فى كتاب الزهد، باب ما جاء فى قصر الأمل (٢٤٣٥) وابن ماجه فى كتاب الزهد باب مثل الدنيا (٤١١٤) وأحمد فى مسنده (٤٧٦٤).

والإنسان فى الدنيا غريب فى الحقيقة، لأن الوطن الحقيقى هو الجنة، كما حمل عليه الكثير فى قول القائل: «حب الوطن من الإيمان» أى الجنة، وهى التى أنزل الله بها الأبوين ابتداءً، وإليها المرجع إن شاء الله بفضله ومنه.

والإنسان فى الدنيا فى دار غربة كالمسافر من وطنه حتى يرجع إليه، والله هو الموفق لذلك، ومن كان حاله كذلك فلا يأخذ منها إلا ما تدعوه إليه ضرورة سفره من نحو طعام أو شراب.

وكان ابن عمر يقول مؤكدًا على أن كلام الرسول حق وصدق: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء» أى إذا أدركك المساء فبادر بصالح العمل والتوبة من الزلل، ولا تسوف، ولذلك قيل:

**إذا أمسيت فابتدر الفلاحا ... ولا تهمله تنظر الصباحا**

**وتب مما جنيت فكم أناس ... قضوا نحبًا وقد باتوا صحاحًا**

## • كيف ضرب الله مثلاً للدنيا؟ •

### أخا الإسلام:

إن الدنيا حقيرة، حقير من يحبها، فهى دار شقاء وابتلاء، دار هم وحزن دار تعب وعناء، فلذلك تأمل كيف ضرب الله مثلها فى القرآن الكريم.

المثل الأول فى قوله جل شأنه: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا**﴾ [الكهف: ٤٥] أى اذكر لهم أيها الرسول ما يشبه هذه الحياة الدنيا فى حسنها ونضارتها، ثم فى سرعة زوالها وانقضائها لكيلا يركنوا إليها.

فالآية المباركة قد شبهت حال الدنيا فى حسنها وجمال رونقها، ثم فى سرعة زوالها وفنائها بعد ذلك نباتًا يابسًا متفتتًا تذهب به الرياح حيث شاءت.

والتعبير بالفاء فى (فاختلط، فأصبح) يزيد الأسلوب القرآنى جمالاً وبلاغة، لأن فاء التعقيب تدل على قصر المدة التى استمر فها النبات نضرًا جميلاً ثم صار هشيمًا تذروه الرياح.

وأما المثل الثانى، فيظهر جليًا فى قول مولانا جل شأنه: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [يونس: ٢٤] فمثلها كمثل ذلك النبات أيضًا الذى خرج من الأرض، ثم نزلت عليه قطرات الماء، واختلطت به، فاهتز

وربا، وحسن وكمل، واكتسى رونقًا وبهاء ونضارة، فإذا كان كذلك من البهاء والجمال أرسل الله عليه آفة عظيمة دفعة واحدة من ليل أو نهار، أرسل إليه ريحًا أو بردًا أو سيلاً، فصارت تلك الزروع والأشجار باطلة هالكة، كأنها ماحصلت ألبتة.

**يقول الإمام الرازى**: واعلم أن تشبيه الحياة الدنيا بهذا النبات يحتمل وجوهًا لخصها القاضى رحمه الله تعالى كما يلى:

**الوجه الأول**: أن عاقبة هذه الدنيا التى ينفقها المرء فى باب الدنيا، كعاقبة هذا النبات الذى حين عظم الرجاء فى الانتفاع به وقع اليأس منه، لأن الغالب أن المتمسك بالدنيا إذا وضع عليها قلبه، وعظمت رغبته فيها يأتيه الموت. وهو معنى قوله تعالى: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ**﴾ [الأنعام: ٤٤] خاسرون الدنيا، وقد أنفقوا أعمارهم فيها، وخاسرون الآخرة مع أنهم متوجهون إليها.

**الوجه الثانى**: أنه تعالى بين أنه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة تحمد، فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها، لا يحصل له على عاقبة تحمد.

**الوجه الثالث**: أن يكون وجه التشبيه مثل قوله تعالى: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا**﴾ [القرقان: ٢٣] فلما صار سعى هذا الزرع باطلاً بسبب حدوث الأسباب المهلكة، فكذلك سعى المغتر بالدنيا.

**الوجه الرابع**: أن مالك هذا البستان لما عمره بإتعاب النفس وكد الروح، وعلق قلبه على الانتفاع به، فإذا حدث ذلك السبب المهلك، صار العناء الشديد الذى تحمله فى الماضى سببًا لحصول الشقاء الشديد فى المستقبل، وهو ما يحصل له فى قلبه من الحسرات.

فكذلك حال من وضع قلبه على الدنيا وأتعب نفسه فى تحصيلها، فإذا مات، وفاته كل ما نال، صار العناء الذى تحمله فى تحصيل أسباب الدنيا، سببًا لحصول الشقاء العظيم له فى الآخرة.

**الوجه الخامس**: لعله تعالى إنما ضرب هذا المثل لمن لا يؤمن بالمعاد.. إلخ.

**(لطيفة)**: فى قوله تعالى: ﴿**أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا**﴾ [يونس: ٢٤] كيف يقول مولانا ليلاً أونهارًا وهو الذى يعلم وقت قيام الساعة؟ يعلمه متى سيكون؟ نقول: إن هذه الآية لها إعجاز عظيم، لأنه لو قال: أتاها أمرنا ليلاً فقط، لقال الذين عندهم نهار سوف لا تقوم عندنا الساعة، فالكرة الأرضية نصفها عند قوم نهار، وعند البعض الآخر ليل فإذا قامت الساعة قامت على الجميع. ثم إن لفظة «أو» هنا لا تفيد الشك، وإنما تفيد التنويع.

**المثل الثالث**: فكانت الإشارة إليه بقوله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ**

**فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾** [الحديد: ٢٠].

قال علـماؤنا -رحمـهم الله-: فى ضرب الله تعـالى المثل فى الدنيا بـالماء المنزل من السماء بدائع تسع:

**الأولى:** أن المطر لا يستنزل بالحيلة، كذلك الدنيا، قال تعالى: **﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** [الزخرف: ٣٢].

**الثانية:** أنه وإن كان المطر لا يجىء إلا بتـقدير، فإنه يستنزل بالرغبـة والسؤال، كذلك الرزق الدنيوى يلتمس من الله تعالى، قال سبحانه: **﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾** [النساء: ٣٢].

**الثالثة:** أن الماء إذا جاء به نفع، وإذا زاد على الحاجة ضر، كذلك المال إذا كان بقدر الكفاية فصاحبه فى نعيم، وإذا زاد فصاحبه فى نصب وطغيان.

**الرابعة:** أن الماء إذا كان جـاريًا كان طيبًا، وإذا اخـتزن تغير، كـذلك المال إذا أجراه صاحبه فى مجاريه طاب، وإذا احتجبه خبث عليه وغاب، قال تعالى: **﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** [آل عمران: ١٨٠].

**الخامسة:** أن الماء إذا كان طاهرًا صلح للـثياب والعبادات، وإن كان نجسًا لم يصلح للعبادة، كـذلك المال إذا كان حلالاً استقـام به المعاش والطاعة، وخلص من التـباعة، وإذا كان حرامًا، فقد أبدى عورته، وأسقط حرمته.

**السـادسة:** أن الماء إذا أثار عنه النـبات، وخرجت به الأشـجار، وأينعت به الثـمار، واختلفت عليه المناظر للنظار، لا يأمن أن تصيبه آفة من غير أسباب، وتتقلب عليه الحال بما لم يكن فى الحسبـان، وكذلك المال إذا نما بيد صاحبه، وتفنن فى أنواعـه، وعمم به جميع لذاته، وكثرت عليه الأعداد من الأزواج والأولاد، ورأى أن أحواله صافية، ومراتبه عالية، ومقاديره غالية، وأمواله متدانية، ورياض ترابه زاهرة، وغصون أنسه متداولة.

وإذا بالدمار قد أخذ الديار، والذهاب قد جرى عـن الأحباب والأموال بيد الانتهاب واختطف من بينها أرجى ما كان لها، وأحوجه عليها، وأغبطه بها، وأشوقه إليها:

**فـقـدنـاه لما تم واعـتـزّ بالـعلـى ... كـذا كـسـوف البـدر عـند تمامـه**

**السابعة:** قوله تعالى: **﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾** [الكهف: ٤٥] إنْ كان هذا عن جائحة فهذه الآية والتى بعدها سواء.

فإن كان هـذا الزرع الذى أخرج حبه صـار هشيمًا تذروه الـرياح، أو زائلاً تتكرم به الأرض، وتتدافع، فيكون ذلك لبديعة مثلاً

**الثامنة:** أن المال إذا أخذ من العباد حاجته فى المعاش، وأرسل باقيه فى الشهوات كان معدومًا فى حق الدنيا هشيمًا، صار به صاحبه ملومًا، وصار وقته مذمومًا.

**التاسعة:** فى ذكر الزرع يخرج مختلف الألوان، ثم يهيج فتراه مصفرًا، ثم يجعله حطامًا، التنبيه باختلاف أحوال الزرع من حين خلقه، واستنباته على المرء من أول نشأته إلى وفاته، والزرع لا يخرج زرعه إلا بعد الجفاف، كذلك المرء لا يطيب عمله إلا إذا راضى نفسه قبل أن يُرَدَّ إلى أرذل العمر، وهو حال الضعف فى القوة، والوهن فى الأعضاء[١]

## • كيف ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم مثلا للدنيا؟ •

### أخا الإسلام:

ولقد ورد فى السنة المطهرة أمثلة كثيرة للدنيا، ضربها الرسول ﷺ ليوضح لأمته إلى يوم القيامة حقارتها، ويحذرهم من شأنها، فيقول ﷺ: حين دخل عليه فاروق الأمة الأكبر: عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد كان على حصير، قد أثَّر فى جنبه، فقال له: يا رسول الله، لو اتخذت فراشًا أوثر من هذا؟ فيقول: «**مالى وللدنيا، والذى نفسى بيده، ما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سار فى يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها**».

وفى رواية: «**مالى وللدنيا؟! ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**»[٢] فعلى كل من يرغب فى دار السلام، ويرغب فى الوصول إليها آمنًا أن يستوعب هذا المثل الذى ضربه النبى ﷺ فيعمل على اجتناب شهواتها. فهى مثل الوقت الذى يقضيه المسافر تحت شجرة ليستريح، ويستظل من الحر فى ظلها، ثم يذهب ويتركها، فعمرها قصير.

ومن الأمثلة التى ضربها الرسول ﷺ مثلاً لحقارة الدنيا وهوانها ما روى عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنه: قال: إنَّ رسول الله ﷺ بالسوق داخلاً من بعض العالية والناس كَنَفَتيه[٣] فمر بجدْى أسك ميت، فتناوله وآخذ بأذنه، ثم قال ﷺ: «**أيكم يحب أن يكون له هذا بدرهم؟! قالوا: ما نحب أنه لنا بشىء، وما نصنع به؟ إنه لو كان حيًا، كان عيبًا أنه أسك!! فقال: فوالله للدنيا أهون على الله تعالى من هذا عليكم**»[٤] ومعنى أسك: أى أنه صغير الأذن.

---

(١) قمع الحرص للقرطبى ص١٧٦

(٢) رواه الترمذى (٢٣٧٧) وقال: حسن صحيح وابن ماجه (٤١٠٩) وأحمد فى مسنده (٣٧٠٩) وفى الزهد وأبو نعيم فى الحلية ٢/ ٢ ١ وأبو الشيخ فى الأمثال (٢٩٧) والحاكم ٤/ ٣١٠ وسكت عليه ووافقه الذهبى

(٣) كنفتيه: أى حواليه.

(٤) رواه مسلم (٢٩٧٥) ... لبى رقم (١٨٠) جـ١/ ٥٩.

فقد مثلها أستاذ الفصاحة والبلاغة بجدى ميت، وليس ذلك فقط بل إنه رغم موته إلا أنه أسك -قصير الأذن-، وما ذلك إلا لهوانها وحقارتها، فلم التكالب عليها؟ ولمَ التهالك عليها؟

وذاك مثل آخر للدنيا ضربه أستاذ البيان، وفصيح اللسان؛ النبى العدنان محمد ﷺ حين قال: «**ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليم، فلينظر بم يرجع**»(١)

فتصور نفسك قد وضعت أصبعك فى ماء ثم نزعته، تأمل بم يرجع أصبعك من الماء؟ لا شىء.

وفى هذه المرة يحقر الرسول ﷺ من شأنها، ويحط من قيمتها حتى إنها لا تساوى، ولا تزن عند الله جناح بعوضة فيقول: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء**»(٢)

ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصرى قال:

**أحلام نوم أو كظل زائل ... إن اللبيب بمثلها لا يخدع** (٣)

ونزل أعرابى بقوم، فقدموا له طعامًا فأكل، ثم قام إلى ظل خيمة لهم، فنام هناك، فاقتلعوا الخيمة، فأصابته الشمس، فانتبه وقام وهو يقول:

**ألا إنها الدنيا كظل بنيته ... ولا بد يومًا أن ظلك زائل** (٤)

ومثل آخر للدنيا وهو أحقر مثال ضرب لها، وقد ضربه خير من حقر الدنيا، وزهد فيها ﷺ حين قدم عليه رجل من أرض الشام، فسأله عن أرضهم، فأخبره عن سعتها، وكثرة نعيمها، فقال ﷺ: «**كيف تفعلون؟**» قال: إنا نتخذ ألوانًا من الطعام ونأكلها. قال: **ثم تصير إلى ماذا**؟ قال: إلى ما تعلم يا رسول الله! يعنى بولاً وغائطًا. فقال ﷺ: «**فكذلك مثل الدنيا**»(٥)

وفى رواية: أن النبى ﷺ قال للضحاك بن سفيان: «**ألست تؤتى بطعامك وقد مُلِّح ثم تشرب عليه الماء واللبن**؟ قال: بلى، قال: **فإلام يصير**؟ قال: إلى ما قد علمت. قال: فإن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم»(٦)

---

(١) رواه مسلم (٢٨٥٨) وأحمد (٢٧٤٤) والترمذى (٢٤٢٥) وابن المبارك (٤٩٦) ص١٠٨ وابن أبى الدنيا فى ذم الدنيا رقم (١٢) ص١٨

(٢) رواه ابن أبى الدنيا (١) فى ذم الدنيا ص١٢ وابن المبارك بنحوه فى الزهد (٩ ٥) ص١١٣ والترمذى بإسناد صحيح (٢٣٢١) وابن ماجه (٤١١٠).

(٣)، (٤) ذم الدنيا لابن أبى الدنيا ص٢٣

(٥) حسنه الألبانى فى ص.ج (٢١٩٥) وفى السلسلة الصحيحة (٣٨٢).

(٦) رواه أحمد فى مسنده وذكره الألبانى فى ص.ج (١٧٣٩).

وذلكم مثال آخر:

عن الحسن قال: بلغنى أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: **«إنما مثلى ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء، حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أم ما بقى أكثر؟ أنفذوا الزاد، وخسروا الظهر، وبقوا بين ظهرانى المفازة، لا زاد ولا حمولة، فأيقنوا بالهلكة، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل فى حلة يقطر رأسه، فقالوا: إنّ هذا قريب عهد بريف، وما جاءكم هذا إلا من قريب، فلما انتهى إليهم قال: يا هؤلاء! علام أنتم؟ قالوا: على ما ترى! قال: أرأيتم إن هديتكم إلى ماء رواء ورياض خضر، ما تجعلون لى؟ قالوا: لا نعصيك شيئًا، قال: عهودكم ومواثيقكم بالله، قال: فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئًا، قال: فأوردهم ماءً ورياضًا خضراء. قال فمكث فيهم ما شاء الله، ثم قال: يا هؤلاء! الرحيل! قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم، ورياض ليست كرياضكم، قال: فقال جلّ القوم وهم أكثرهم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده، وما نصنع بعيش خير من هذا؟ قال: وقالت طائفة، وهم أقلهم: ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه شيئًا وقد صدقكم فى أول حديثه، فوالله ليصدقنكم فى آخره فراح بمن اتبعه، وتخلف بقيتهم، فبادرهم عدوهم، فأصبحوا بين أسير وقتيل»**[١]

وتلكم هو مثال آخر، مثلها النبى ﷺ بذلك الثوب الذى شق وبقى معلقًا بخيط فى آخره فما بقاء ذلك الثوب؟! فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مثل هذه الدنيا مثل ثوب شقّ من أوله إلى آخره، فبقى معلقًا بخيط فى آخره، فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع»**[٢]

**المثال الأول:**

شهوات الدنيا فى القلب كشهوات الأطعمة فى المعدة، وسوف يجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا فى قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا انتهت فى المعدة غايتها، وكما أن الأطعمة كلما كانت ألذ طعمًا وأكثر دسمًا وأكثر حلاوة كان رجيعها أقذر، فكذلك كل شهوة كانت فى النفس ألذ وأقوى فالتأذى بها عند الموت أشد. ولذلك ضرب الرسول ﷺ مثلاً للدنيا بما يخرج من ابن آدم كما سبق وكان بعض السلف يقول

---

(١) قال العراقى فى تخريج الإحياء: أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا بطوله، ولأحمد والبزار من حديث ابن عياش أخصر منه وإسناده حسن. الإحياء ٣/ ٢١٣، ٢١٤ قلت: وأخرجه ابن المبارك فى الزهد (٥٠٧) ص١١٢ باب التقلل من الدنيا بإسناد حسن وابن أبى الدنيا (٨٨).

(٢) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير ٢/ ١٦٢ وعزاه للبيهقى فى الشعب وقد ضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٥٢٥٥).

لأصحابه: انطلقوا حتى أريكم الدنيا، فيذهب بهم إلى مزبلة، فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم.

**المثال الثانى:**

هى وقوسها، كمثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة، فأمرهم الملاَّح بالخروج لقضاء الحاجة، وحذرهم الإبطاء، وخوفهم مرور السفينة، فتفرق فى نواحى الجزيرة، فقضى بعضهم حاجته، وبادر إلى السفينة فصادف المكان خاليًا، فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده، ووقف بعضهم فى الجزيرة ينظر إلى أزهارها وأنوارها العجيبة، ويسمع نغمات الطيور، ثم حدثته نفسه بفوت السفينة وسرعة مرورها وخطر ذهابها، فلم يصادف إلا مكانًا ضيقًا فجلس فيه، وبعضهم أكب على الحجارة المستحسنة والأزهار الفائقة حتى لم يجد له فى السفينة موضعًا، وبعضهم نسى السفينة حتى نادى الملاح فلم يسمع ولم يبلغه صوته لشدة لهوه، فهو تارة يتناول من الثمر، وتارة يشم الأزهار. ومنهم من شغله لهوه فافترسته السباع، ومنهم من تاه على وجهه حتى هلك.

**المثال الثالث:**

مثلها مثل البحر الذى لابد للخلق كلهم من ركوبه، ليقطعوه إلى الساحل الذى فيه دورهم وأوطانهم، ولا يمكن قطعه إلا فى سفينة النجاة، فأرسل الله رسله ليعرفوا الأمم اتخاذ سفن النجاة، وتأمرهم بعملها وركوبها، وهى طاعة رسله، وعبادته وحده فنهض الموفقون، وركبوا السفينة فوصلوا، وفازوا، وأما الحمقى فاستصعبوا عمل السفينة والركوب فيها، وقال: نخوص، فإذا عجزنا قطعناه سباحة، فخاضوه، فلما عجزوا عن الخوض أخذوا فى السباحة حتى أدركهم الغرق، ونجا أصحاب السفينة كما نجوا مع نوح عليه السلام، وغرق أهل الأرض، فتأمل هذا.

**المثال الرابع:**

مثالها مثال إناء مملوء عسلاً، رآه الذباب، فأقبل نحوه، فبعضه على حافة الإناء، وجعل يتناول من العسل حتى أخذ حاجته ثم طار، وبعضه حمله الشَّره على أن رمى بنفسه فى لجة الإناء ووسطه، فلم يهنأ به إلا قليلاً حتى هلك فى وسطه.

**المثال الخامس:**

مثال حَبٍّ قد نثر على وجه الأرض، وجعلت كل حبة فى فخ، وجعل حول ذلك حب حبٌّ ليس فى فخاخ، فجاءت الطير، فمنها من قنع بالجوانب ولم ير نفسه فى وسط الحب، فأخذ حاجته ومضى، ومنهم من حمله الشره على اقتحام معظم الحب، فما استتم لقاط إلا وهو يصيح داخل الفخ: من نصب الفخ لى؟!

المثال السادس:

مثلها كمثل قوم سلكوا مفازة، ففاجأهم العطش، فانتهوا إلى البحر، وماؤه أمر شيء وأملحه، فلشدة عطشهم لم يجدوا مرارته وملوحته، فشربوا منه فلم يرووا، وكلما شربوا ازدادوا عطشًا حتى تقطعت أمعاؤهم وماتوا عطشًا، وعلم عقلاؤهم أنه مرٌّ مالح، وأنه كلما ازداد الشارب منه ازداد ظمؤه، فتباعدوا عنه مسافة، حتى وجدوا أرضًا حلوة، فحفروا فيها فنبع لهم الماء العذب فشربوا وعجنوا وطبخوا، ونادوا إخوانهم الذين على حافة البحر: هلموا إلى الماء العذب الفرات، فكان منهم المستهزئ، ومنهم المعرض الراضى بما هو فيه، وكان المجيب واحدًا بعد واحد.

وهذا المثل قد ضربه سيدنا عيسى عليه السلام قال: «مثل طالب الدنيا كمثل شارب البحر، كلما ازداد مشربًا ازداد عطشًا حتى يقتله»[1]

المثال السابع:

مثلها مثل رجل له ثلاثة إخوة، فقضى له سفر بعيد طويل لابد له منه، فدعا إخوته الثلاثة، وقال: قد حضر ما ترون من هذا السفر الطويل، وأحوج ما كنت إليكم الآن، فقال أحدهم: كنت أخاك من قبل، والآن لست بأخ ولا صاحب، وما عندى غير هذا، فقال له: لم تغن عنى شيئًا، فقال للآخر: ما عندك؟ فقال: كنت صاحبك وأخاك إلى الآن، وأنا معك حتى أجهزك إلى سفرك وتركب راحلتك، ومن هنالك لست لك بصاحب، فقال له: أنا محتاج إلى مرافقتك فى مسيرى، فقال: لا سبيل لك إلى ذلك. فقال: لم تغن عنى شيئًا.

فقال للثالث: ما عندك أنت؟ فقال: كنت صاحبك فى صحتك ومرضك، وأنا صاحبك الآن، وصاحبك إذا ركبت راحلتك، وصاحبك فى مسيرك، فإن سرت سرت معك، وإن نزلت نزلت معك، وإذا وصلت إلى بلدك كنت صاحبك فيها لا أفارقك أبدًا. فقال: لقد كنت أهون الأصحاب على، وكنت أوثر عليك صاحبيك، فليتنى عرفت حقك، وآثرتك عليهما.

فالأول: ماله، والثانى: أقاربه وعشيرته وأصحابه، والثالث: عمله.

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى ذم الدنيا ص١٤٦ رقم (٣٤٢).

**المثال الثامن:** قال ابن القيم هو من أحسن الأمثلة: فهى كمثل

ملك بنى دارًا لم ير الراءون، ولم يسمع السامعون أحسن ولا أوسع منها، فنصب لها طريقًا، وبعث داعيًا يدعو الناس إليها، وأقعد على الطريق امرأة جميلة قد زينت بأنواع الزينة، وألبست أنواع الحلى والحلل، وجعل ممر الناس كلهم عليها، وجعل لها أعوانًا، وقال لها ولأعوانها: من غض طرفه عنك، ولم يشتغل بك عنى، وابتغى منك زادًا يوصله إلى فاخدميه وزوِّديه، ولا تعوقيه عن سفره إلىَّ، بل أعينيه بكل ما يبلغه فى سفره، وأما من مدَّ إليك عينيه، ورضى بك، وآثرك علىَّ، وطلب وصالك فسوميه سوء العذاب، وأوليه غاية الهوان، واستخدميه، واجعليه يركض خلفك ركض الوحش فى البرية، ومن يأكل منك فاخدعيه به قليلاً، ثم استرديه منه، واسلبيه إياه كله، وسلطى عليه أتباعك وعبيدك، وكلما بالغ فى محبتك وتعظيمك، وإكرامك، فقابليه بأمثاله هجرًا وإهانة حتى تنقطع نفسه عليك حسرات.

فتأمل كل هذا، وتأمل حال خُطَّاب الدنيا وخطاب الآخرة. والله المستعان.

**حكم المنية فى البرية جارى ... ما هذه الدنيا بدار قرار**
**اقضوا مآربكم سراعًا إنما ... أعماركم سفرًا من الأسفار**
**وتراكضوا خيل السباق وبادروا ... أن تُستَردَّ فإنهن عوارى**
**ودعوا الإقامة تحت ظل زائل ... أنتم على سفر بهذي الدار**
**من يرجو طيب العيش فيها إنما ... يبني الرجاء على شفير هار**
**والعيش كل العيش بعد فراقها ... فى دار أهل السبق أكرم دار [1]**

(١) ذكر هذه الأمثلة الإمام ابن القيم رحمه الله فى كتابه «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» وذكر لها اثنين وعشرين مثالاً، ذكرت منها هذه الثانية بتصرف، وإن شئت فراجعها من ص٢٥٥ إلى ص٢٧٢ دار التوفيقية.

## • وصايا الأنبياء فى تحذير أممهم من الدنيا •

### أخا الإسلام:

ما من نبى من الأنبيــاء إلا حذر أمته من الدنيا، فهذا هو سـيدنا عيسى عليه السلام يحذر قومه خطرها، وينبههم إلى شرها فيقول للحواريين:

«اعبروها ولا تعمروها، وارضوا بِدَنِىٍّ الدنيا مع سلامة الدين، كما رضى أهل الدنيا بِدَنِىٍّ الدين مع سلامة الدنيا وكما ترك لكم الملوك الحكمة، فاتركوا لهم الدنيا»(١).

كمـا يحذر طالب الـدنيا من الوقـوع فى شباكـها وغرورهـا، فيقـول واعظًا: ويل لصاحب الدنيا، كيـف يموت ويتركها، ويأمنها وتغره، ويثـق بها وتخذله، وتمكر به. ويلٌ للمغتـرين كيف أرتهم ما يكرهون، وفارقـهم ما يحبون، وجاءهم مـا يوعدون، وويل لمن كانت الدنيا همه، والخطايا عمله، كيف يفتضح غدًا بذنبه»(٢).

ولم يكتف بذلك بل حذر منها العامة والخاصـة، فحذر علماءِ السوء، الذين يقولون ما لا يفعلون، فقال: «ويلكم علماء السوء، أمن أجل دنيا دنيّة، وشهوة رزية، تفرطون فى ملك الجنة وتنسون هول يوم القيامة.

ويلكم علمـاء السوء، الأجر تـأخذون، والعمل تضـيعون؟! يوشـك رب العمل أن يطلب عمله، وتوشكون أن تخرجوا من الدنيا العريضة إلى ظلمة القبر وضيقه»(٣).

### ٢- وصية آدم عليه السلام:

لقد أوصى آدم عليه السلام ابنه عليه السلام شيث بخمس وصايا، ومنها أنه قال له: «قل لهم أن لا يركنوا إلى الدنيـا، ولا يطمئنوا إليهـا، فإنى اطمأننت إلـى الجنة الباقية، فـأخرجنى الله منها»(٤) وتلك وصية حكـيمة، ونصيحة رشيـدة، فلا ينبغى للعقلاء أن يـركنوا إليها، ولا يليق بالفطناء أن يغتـروا بها، فكم من شمل جمع ففـرقته، وكم من سعيد منعـم أتعسته! وكم من قوى متجبر أضعفته، وكم من حاكم سلبته حكمه.

### ٣- وجاء فى صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام:

وقد جاء فى هــذه الصحف مكتوب فيــها: «يا موسى، مالك ولدار الـظالمين؟! إنها

---

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية ٦/ ٣٧٦ وابن أبى الدنيا فى ذم الدنيا (٤٤٩) ص١٧٩، وهو صحيح.

(٢) رواه ابن أبى الدنيا (٩٢) ص٥٢، ٥٣ ذم الدنيا وهو خبر حسن.

(٣) رواه ابن أبى الدنيا (٣٧٧) ص١٥٨ بإسناد حسن لأجل سلمة بن شبـيب فهو من كبار الطبقة الحادية عشرة ثقة التهذيب ٤/ ١٤٦

(٤) قصص الأنبياء جـ١/ ٢١٩ الشهاوى ط/ دار التأليف.

ليست لك بدار، أخرج منها همك، وفارقها بعقلك، فبئست الدار هى، إلا لعامل يعمل فيها، فنعمت الدار هى»[١]

وجاء أيضًا: «يا دنيا، ما أهونك على الأبرار الذين تزينت لهم، إنى قذفت فى قلوبهم بغضك والصدود عنك، وما خلقت خلقًا أهون علىَّ منك، كل شأنك حقير، وإلى الفناء يصير، إنى قضيت عليك يوم خلقتك ألا تدومى لأحد، ولا يدوم لك أحد. طوبى للأبرار الذين أطلعونى من قلوبهم على الرضا، وأطلعونى من ضميرهم على الصدق والاستقامة.

طوبى لهم، ما لهم عندى من الجزاء إذا وفدوا إلى من قبورهم، النور يسعى من أمامهم، والملائكة حافون بهم، حتى أبلغ بهم ما يرجون من رحمتى»[٢]

**٤- داود عليه السلام:**

أوحى الله تعالى إليه: «**يا داود، مالقلوب أحبائى وما للغم بالدنيا، إن الغم بها يمص حلاوة مناجاتى من قلوبهم مصًا.**

**يا داود، لا تجعل بينى وبينك عالمًا أسكرته الدنيا، فيحجبك بسكره عن محبتى أولئك قطاع طريق عبادى المريدين**»[٣]

**٥- لقمان عليه السلام:**

وهذا هو لقمان الحكيم يوصى ولده بالحذر من الدنيا، ويحذره أن يفتتن بزهرتها فيقول: «يا بنى إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير، فلتكن سفينتك فيها التقوى، وحشوها الإيمان بالله، وشراعها التوكل على الله، لعلك تنجو وما أراك ناجيًا»[٤] وكان يقول: «يا بنى، إنك استدبرت الدنيا منذ يوم نزلتها، واستقبلت الآخرة، فأنت إلى دار تقرب منها أقرب منك إلى دار تباعد عنها»[٥]

**٦- الرسول المصطفى محمد ﷺ:**

ومع مسك الختام، مع خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وهو يوصى الأمة ويحذرها بأن تبتعد عن المنافسة فى دار البوار والخسران، فيقول فى الحديث الذى يرويه عنه الصحابى الجليل: أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه: «**إنَّ الدنيا خضرة حلوة وإن الله عز وجل**

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا برقم (٩٣) ص٥٣ فى ذم الدنيا، وهو حسن لأجل أحمد بن الحوارى فهو ثقة زاهد.

(٢) رواه ابن أبى الدنيا فى ذم الدنيا (١١٥) ص٦٣ وأبو نعيم فى حلية الأولياء ١/ ١٥٨، ١٥٩ وهو أثر حسن لأجل على بن أبى مريم.

(٣) رواه ابن أبى الدنيا (٣٨٤) ص١٦١ ذم الدنيا.

(٤) رواه ابن كثير فى البداية والنهاية ٩/ ٣٢ وابن أبى الدنيا (٩١) ص٥٢ بسند صحيح وابن المبارك فى الزهد (٥٣٧) ص١٢١

(٥) ابن أبى الدنيا (٧٣) ذم الدنيا.

**مستخلفكم فيها، لينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء»**(١)

وعنه أيضًا أن النبى ﷺ قال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم بعدى ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا**» قالوا: يا رسول الله، وما زهرة الدنيا؟ قال: «**بركات الأرض**»... إلخ(٢)

بأبى أنت وأمى يا رسول الله تخاف علينا من زهرة الدنيا وقد انغمس فيها كثير من الناس، فأصبحوا لا يبالون أصبحت الدنيا شغلهم الشاغل، أصبحت الدنيا وقد سلبت عليهم عقولهم، وكأنهم لم يخلقوا إلا لها، لقد تنافسوا فيها، وعجبًا لهم لقد جاء فى صحف إبراهيم وموسى: «عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح، وعجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها، وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل»(٣)

بأبى أنت وأمى يا رسول الله يا من كنت تخطب يومًا للناس، فقلت لهم: «**إنَّ الله عز وجل خيَّر عبداً بين الدنيا، وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله**» فبكى أبو بكر رضي الله عنه، فتعجب الصحابة لبكائه، فعلمنا أن رسول الله هو المخير»(٤)

تخاف علينا أن نتنافس فيها، وتحذر أصحابك، بل تحذر الأمة أجمع فى شخصهم حين بعثت أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين، ليأتى بالجزية، فلما قدم أبو عبيدة بالمال، فخرجوا، وتعرضوا لك -أى قصدوا أن تشعر بحاجتهم - فتقول لهم: «**أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشىء؟** قالوا: أجل يا رسول الله، قال: «**فأبشروا، وأملوا ما يسركم، فوالله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم**»(٥)

فهى دار من لا دار له، ومال ومن لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادى من لا فقه له، دار إذا حلت أوحلت، وإذا كست أوكست، وإذا دنت أودنت، وإذا أينعت نعت.

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده بإسناد صحيح (١١١١٢) جـ١٠/٧٣

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٩٧٦ ١) جـ١٠/٢٣ والبخارى (٦٤٢٧) فتح ومسلم (٢٧٤٢).

(٣) رواه ابن حبان فى صحيحه، وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد - وهو جزء من حديث طويل.

(٤) رواه البخارى (٣٦٥٦) ومسلم (٢٣٨٢) وأحمد (١١٠٧٦) بإسناد حسن.

(٥) رواه البخارى (٣١٥٨) ومسلم (٢٩٦١) وابن ماجه (٣٩٩٦) وأحمد فى مسنده (١٧١٦٨) وذكره الألبانى فى ص.ج (١٠٣٦).

## • وصايا الصالحين فى ذم الدنيا •

### ١- الحسن البصرى:

كان هذا الزاهد يوصى أتباعه وأحبابه بالبعد عن الدنيا، فكان يقول لهم: «إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الأشغال، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب»[١]

وكان يقول: «يابن آدم، إنما أنت أيام مجموعة، كلما مضى يوم، مضى بعضك. وقال: إنما أنت بين راحلتين مطيتين يوضعانك، يوضعك الليل إلى النهار، والنهار إلى الليل»[٢]

وكان يقول: «ومن أحب الدنيا وسرته ذهب خوف الآخرة من قلبه، وما من عبد يزداد علمًا، ويزداد على الدنيا حرصًا إلا ازداد إلى الله بغضًا، وازداد من الله بعدًا»[٣]

### ٢- داود الطائى:

يقول: «إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهى ذلك بهم إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدم فى كل مرحلة زادًا لما بين يديها فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب ما هو، والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك، واقض ما أنت قاض من أمرك، فكأنك بالأمر قد بغتك»[٤]

### ٣- مالك بن دينار:

كان يحذر من الدنيا فيقول: «اتقوا السحارة، فإنها تسحر قلوب العلماء -يعنى الدنيا-»[٥]

وكان يقول -رحمه الله-: «من تباعد من زهرة الحياة الدنيا، فذلك الغالب لهواه»[٦]

### ٤- على بن أبى طالب رضي الله عنه:

شيع جنازة يومًا، ثم خطب قائلاً: «. فاتقوا الله عباد الله، وجدوا فى الطلب، وبادروا بالعمل مقطع النهمات، وهاذم اللذات، فإن الدنيا لا يدوم نعيمها، ولا تؤمن فجائعها، غرور حائل، وشبح فائل، وسناد مائل»[٧]

---

(١) رواه أبو نعيم فى حلية الأولياء ٢/ ١٥٣ وابن المبارك فى الزهد (٥٣٥) ص١٢١ بإسناد حسن.

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى ص٥٠١.

(٣) رواه ابن أبى الدنيا فى ذم الدنيا (٧٩) ص٤٦. (٤) رواه أبو نعيم فى الحلية ٧/ ٣٤٥، ٣٤٦

(٥) حلية الأولياء جـ٢/ ٣٦٤ (٦) المصدر السابق جـ٢/ ٣٦٤ (٧) حلية الأولياء ١/ ٧٨، ٧٩

ثم قال: يا نوف طوبى للزاهدين فى الدنيا، الراغبين فى الآخرة، أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطًا، وترابها فراشًا، وماءها طيبًا، والقرآن والدعاء دثارًا وشعارًا»[(١)]

**٥- مسروق بن عبد الرحمن الكوفى:**

كان مسروق يركب كل جمعة بغلة ويحمل أحد أصحابه خلفه، ثم يأتى كناسة بالحيرة قديمة ويصعد عليها ببغلته، ثم يقول: الدنيا تحتنا.

وعن عبد الله بن عتبة قال: «بلغنى أن مسروقًا أخذ بيد ابن أخ له، فارتقى به على كناسة بالكوفة وقال: ألا أريك الدنيا؟! هذه الدنيا أكلوها فأفنوها، لبسوها فأبلوها، ركبوها فأنضوها، سفكوا فيها دماءهم، واستحلوا فيها محارمهم، وقطعوا فيها أرحامهم»[(٢)]

**٦- عمر بن عبد العزيز:**

فعن عبد الرحمن بن مالك بن دينار قال: قال عمر لرجل: أوصيك بتقوى الله تعالى، فإنها ذخيرة الفائزين، وحرز المؤمنين، وإياك والدنيا أن تفتنك، فإنها قد فعلت ذلك بمن كان قبلك، إنها تغر المطمئن إليها، وتفجع الواثق بها، وتسلم الحريص عليها، ولا تبقى لمن استبقاها، ولا يدفع التلف عنها من حواها، لها مناظر بهجة، ما قدمت منها أمامك لم يسبقك، وما أخرت منها خلفك لم يلحقك»[(٣)]

وكتب إلى أخ له: «يا أخى إنك قد قطعت عظيم السفر، وبقى أقله، فاذكر يا أخى المصادر والموارد، فقد أوحى إلى نبيك محمد ﷺ، فى القرآن أنك من أهل الورود، ولم يخبرك أنك من أهل الصدر والخروج، وإياك أن تغرك الدنيا، فإن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له»[(٤)]

**٧- إبراهيم بن أدهم:**

سأله رجل فقال: يا أبا أسحاق، لم حجبت القلوب عن الله؟.

قال: «لأنها أحبت ما أبغض الله، أحبت الدنيا، ومالت إلى دار الغرور، واللهو واللعب، وتركت العمل لدار فيها حياة الأبد ثم قال له: «لا تطمعن فى بقائك وأنت تعلم أن مصيرك إلى الموت، فلم يضحك من يموت، ولا يدرى إلى أين يصير بعد موته، إلى جنة أم نار؟![(٥)]

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٧٨، ٧٩

(٢) الحلية ٢/ ٩٦، ٩٧.

(٣) المرجع السابق ٥/ ٣٤١، ٥٤٤

(٤) رواه ابن أبى الدنيا فى ذم الدنيا (١١٢) ص٦١

(٥) حلية الأولياء ٨/ ١٢، ١٣

وطلب منه أحدهم أن يعظه فقال له: «أما بعد: فإن الحزن على الدنيا طويل، والموت من الإنسان قريب، وللنفس منه فى كل وقت نصيب، وللبلى فى جسمه دبيب، فبادر بالعمل قبل أن تنادى بالرحيل، واجتهد فى العمل فى دار الممر قبل أن ترحل إلى دار المقر[(١)]

## • الدنيا كما صورها الله تعالى للأنبياء والصالحين •

١- فهذا هو نبى الله عيسى عليه السلام، كيف تصورت له الدنيا، لقد رآها فى صورة امرأة عجوز، عليها من كل زينة لتغرى أحبابها، فإذا ما وقعوا فى شباك محبتها، قاموا بخطبتها، فإذا ما تزوجو منها، وتمكنت منهم ذبحتهم، فلنستمع إلى ابن أبى الدنيا وهو يصور لنا ذلك فيما يرويه الليث بن سعد يقول: «إن عيسى ابن مريم رأى الدنيا فى صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة، فقال لها: كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم، قال: كلهم مات عنك أو كلهم طلقت؟ قالت: بل كلهم قتلت، فقال عيسى عليه السلام: «بؤسًا لأزواجك الباقين، ألا يعتبرون بأزواجك الماضين، كيف تهلكينهم واحدًا واحدًا ولا يكونون منك على حذر»[(٢)]

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها ... على أنهم فيها عراة وجوع
أراها وإن كانت تحب فإنها ... سحابة صيف عما قليل تقشع

إنها تشبه امرأة غدارة، تزينت للخطاب، فسترت عنهم كل قبيح، فاغتر بها من لم يجاوز بصره ظاهرها، فطلب النكاح، فقالت له: لا مهر إلا نقض الآخرة، فإننا ضرتان، واجتماعنا غير مباح، فآثر الخطاب العاجلة، فلما كشفت قناعها، وحُل إزارها إذا كل آفة وبلية، فمنهم من طلق واستراح، ومنهم من اختار المقام فما استتمت ليلة عرسه إلا بالعويل والصياح.

٢- وهذا هو حبر الأمة عبد الله بن عباس:

يقول: «يؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء زرقاء، أنيابها بادية، مشوهة خلقها، فتشرف على الخلائق، فيقال: أتعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله منها، فيقال: هذه الدنيا التى تشاجرتم عليها، بها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم، ثم يقذف بها فى جهنم، فتنادى: يا رب، أين أتباعى وأشياعى؟ فيقول الله عز وجل: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها»[(٣)]

---

(١) المرجع السابق ٨/ ١٧، ١٨

(٢) رواه ابن أبى الدنيا فى ذم الدنيا رقم (٢٧) ص٢٤ وإسناده حسن لأجل عبد الرحمن بن محمد المحاربى.

(٣) رواه ابن أبى الدنيا فى ذم الدنيا (١٢٣) جـ١/ ١٢٣، ١٢٤ وتنبيه الغافلين ص١٨٦

وصفهـا على بن أبى طالب ﷺ فقال: «دارٌ من صح فـيها حُرم، ومن سقم فـيها ندم، ومن افتقـر فيها حزن، ومن اسـتغنى فيها فـتن، فى حلالها الحساب، وفى حـرامها العذاب».

**٣- وهذا هو العلاء بن زياد -رحمه الله-:**

ذلكم الرجل الذى تجرد مـن البلاد، وتشمر للمهـاد، وقدم العتاد للميـعاد، **يقول:** «رأيت الناس فى النوم يتبعون شيئًا، فتبعتـه، **فإذا عجوز كبيرة هتماء، عوراء عليها من كل** حلية وزينة، فقلت: من أنت. قالت: أنا الدنيا، فقلت: **أسأل الله أن يبغضك إلىَّ قالت: نعم إن أبغضت** الدراهم»(١)

**٤- أبو بكر بن عياش:**

ذلكم القـارئ الهشاش، العـابد البشاش، **ذلكم الـذى قسم الخلق أربعة: مـعذور،** ومخبور، ومجـبور، ومثبور، فالمعذور وهم البهائم والمخـبور وهو ابن آدم، والمجبور وهم الملائكة، والمثبور وهو إبليس.

يقول رحـمه الله كما روى عـنه إبراهيم بن سعيـد: **«رأيت فى النوم عجـوزًا حدباء** مشوهة تصفق بيديها، وخلفها خلق يتبعونها يصفقون ويرقصون، **فلما كانت بحذائى أقبلت** علىَّ، فقـالت: لو ظفرت بك لصنعت بـك ما صنعت بهؤلاء، **ثم بكـى أبو بكر، وقال:** رأيت هذه قبل أن أقدم بغداد(٢)

لذلك كان يعظه رجل مرة وهو شاب فقال له: **«خلص رقبتك ما استطعت فى الدنيا** من رق الآخرة، فإن أسير الآخرة غير مفكوك أبدًا»(٣)

## • عقوبة من أحب الدنيا •

لقد ذكر مولانا تبـارك وتعالى فى كتابه أن من أحب الدنيا عجـل الله له لذته فيها، ومن أحب الآخرة كان له الجزاء الأعظم حيث قال: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾** [الإسراء: ١٨، ١٩].

وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من كانت الآخرة هـمه جمع الله عليه شـمله، وجعل غناه فى قلبـه، وأتته الدنيا وهى راغمـة، ومن كانت نيته الـدنيا فرق الله أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له»**(٤).

(١) رواه أبو نعيم فى الحلـية ٢/ ٢٤٣، ٢٤٤ بإسناد صحيح وابن أبى الـدنيا (٢٨) جـ١/ ٢٤، ٢٥ بسند رجاله ثقات.

(٢) حلية الأولياء لأبى نعيم ٨/ ٤ ٣ بإسناد صحيح ورواه ابن أبى الدنيا (٣٠) فى ذم الدنيا ص٢٥

(٣) الحلية ٨/ ٤ ٣

(٤) رواه الترمـذى وصححـه وابن أبى الدنيا (٣٥٢) ص١٤٩ وابن مـاجه (٤١٠٥) وذكره الألبـانى فى ص.ج ٦٥١٦

إن محبِّى الدنيا وشهواتها قد عجلت لهم تلك الطيبات، ثم يلقونها بعد ذلك حسرات، مصداقًا لقول الرسول الأكرم ﷺ حين دخل عليه فاروق الأمة الأكبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد أثرت الحصير فى جنبه فبكى، فسأله: **«ما يبكيك يا عمر؟»** قال: ذكرت كسرى وقيصر وما كانا فيه من النعيم، فقال ﷺ: **«أولئك عجلت لهم الطيبات فى الحياة الدنيا، ونحن قوم أُخرت لنا طيباتنا فى الآخرة»**(١)

وروى عن أبى عبيدة الأسدى أن رسول الله ﷺ قال: **«من أشرب قلبه حب الدنيا التاط قلبه منها بثلاثة: شغل لا ينفك عناؤه، وأمل لا يبلغ منتهاه، وحرص لا يدرك عناه، والدنيا طالبة ومطلوبة، والآخرة طالبة ومطلوبة، فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفى منها رزقه، ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة حتى يأتيه الموت فيأخذه بغته»**(٢)

ومهما تمتع المتمتعون، والتذ بها المحبون، فإن نهايتهم التعاسة والهلاك، والشقاء، فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد القطيفة، إن أعطى رضى، وإن منع سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»**(٣)

ومعنى (تعس) أى هلك أو شقى، ومعنى (انتكس) دعاء عليه بالخيبة لأن من انتكس فقد خاب وخسر، وشيك أى أصابته شوكة فى جسده لم يخرجها لحرصه وجشعه وشغله بالدنيا، وذلك يدل على شدة شغفه وانغماسه فى الشهوات فهو كالأسير لها ومحب الدنيا، المشتغل بها محروم من الحكمة التى يودعها الله فى قلوب الصالحين من عباده. يقول يحيى بن معاذ الرازى: «الحكمة تهوى من السماء إلى القلوب، فلا تسكن فى قلب فيه أربع خصال: أولها: الركون إلى الدنيا، وهم غد، وحسد أخ، وحب شرف»(٤)

بل إنها تسحر قلب من أحبها، تقول أم الدرداء رضي الله عنها: «الدنيا أسحر لقلب العبد من هاروت وماروت، وما آثرها عبد قط إلا أصرعت خده»(٥).

فالعاقل اللبيب من عرف الله فأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها».

العاقل المصيب، من ترك الدنيا قبل أن تتركه وبنى قبره قبل أن يدخل فيه، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه.

---

(١) رواه البخارى ومسلم بنحوه عن ابن عباس.

(٢) حديث رواه أبو نعيم فى الحلية ٨/ ١٢ والطبرانى عن ابن مسعود وحسنه العراقى فى تخريج الإحياء ٤/٢١٨، ورواه ابن أبى الدنيا فى ذم الدنيا

(٣) رواه البخارى (٦٤٣٥) وابن ماجه (٤١٣٦) وغيرهم.

(٤) تنبيه الغافلين ص١٨٣

(٥) صفة الصفوة ٤/٢٠٨ بسند حسن.

إنها دائمًا تفجع أهلها، وتتابعهم بالمصائب، إما فى الأموال، وإما فى الأولاد وإما فى الإخوان، وإما فى الأزواج، وتفرق الجماعات.

قال بعض الحكماء: «أما يكفى أهل الدنيا ما يعانون من كثرة الفجائع، وتتبع المصائب فى المال والإخوان، والنقص فى القوى والأبدان»[1] ولله در القائل:

| | |
|---|---|
| أنت فى دار شتات | فاغتنم وقت حياتك |
| واترك الدنيا وما | فيها ودعها لعداتك |
| تجمع المال وتوعد | به لأزواج بناتك |
| أو لكنات قريرا | ت عيون بوفاتك |
| أو لبعل العرس من | بعدك تحبوه بذاتك |
| إنما الدنيا كحلم | فانتبه من غفلاتك |

## • طريق النجاة من الدنيا •

**الزهد فيها:**

أفضل طريق للنجاة من الدنيا وشهواتها، أن تزهد فيها، وتزهد فى أهلها لكى تصل إلى محبة الله تعالى، ولهذا الطريق السوى أرشدك أستاذ البشرية محمد ﷺ فقال حين جاءه رجل يسأله، ويقول له: يا رسول الله، دلنى على عمل إذا عملته أحبنى الله، وأحبنى الناس فقال ﷺ: **«ازهد فى الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»**[2] والزهد فى الدنيا كما صوره وهيب بن الورد هو: «أن لا تأسى على ما فاتك منها، ولا تفرح بما آتاك منها»[3] ولعله يقصد بذلك أن يشير إلى قوله تعالى: ﴿**لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ [الحديد: ٢٣].

وعرفه الثورى السقطى بقوله: «الزهد فى الدنيا قصر الأمل. ليس بأكل الغليظ، ولا بلبس العباء»[4]

وقال السرى: «إن الله سلب الدنيا عن أوليائه، وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب أهل وداده لأنه لم يرضها لهم»[5]

وقال ابن الجلاء: «الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال لتصغر فى عينك، فيسهل عليك الإعراض عنها»[6]

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا (١٤١) جـ٢/ ٧٦ فى ذم الدنيا.

(٢) رواه ابن ماجه بإسناد حسن والطبرانى فى الكبير والحاكم فى المستدرك وقال: صحيح الإسناد.

(٣) حلية الأولياء ٨/ ١٤ (٤): (٦) الرسالة القشيرية ص١٩٠

فإن العبد إذا زهد فى الدنيا وقف على عيوب نفسه، فيعالجها، لذلك يقول سفيان الثورى: «عليك بالزهد، يبصرك الله عورات الدنيا، وعليك بالورع يخفف الله حسابك، ودع ما يريبك إلى ما لا يريبك، وادفع الشك باليقين يسلم لك دينك»(١)

## • اقتد بإمام الزاهدين محمد صلى الله عليه وسلم •

كان الرسول الأعظم ﷺ المثل الأعلى فى الزهد، لأنه كان زهد المختار القادر المؤمن بأن الاستمتاع المباح بالحلال حلال، المؤثر على نفسه فقراء الأمة، ومصالح الإسلام.

وهو بزهده ربى كثيراً من الرجال، فتخلقوا بمثل خلقه، فانصرفوا عن الدنيا ولذاتها، وآثروا غيرهم على أنفسهم، فصار زهدهم تربية وتنمية، تربية للنفوس، وتنمية لإسعاد مجتمعهم، وتقوية أمتهم.

تقول حفصة رضي الله عنها لأبيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حينما فتحت عليه الفتوح: «البس ألين الثياب، إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق، ومُر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر، فقال عمر: يا حفصة، ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته؟ قالت: بلى. قال: ناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله ﷺ لبث فى النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة؟! وناشدتك الله هل تعلمين أن النبى ﷺ لبث فى النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهل بيته حتى فتح الله عليه خيبر؟! وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله ﷺ قربتم إليه يومًا طعامًا على مائدة فيها ارتفاع، فشق ذلك عليه حتى تغير لونه، ثم أمر بالمائدة فرفعت، ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض؟! وناشدتك الله، هل تعلمين أن الرسول ﷺ كان ينام على عباءة مثنيَّة فثنيت له ليلة أربع طاقات، فنام عليها، فلما استيقظ قال: منعتمونى قيام الليل بهذه العباءة، اثنوها باثنين كما كنتم تثنونها.

فمازال يقول حتى أبكاها وبكى عمر وانتحب»(٢)

وفى الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة بن الزبير يابن أختى «إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة فى شهرين، وما أوقدت فى بيت رسول الله ﷺ نار. فقلت: يا خالة، ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء. . »(٣)

ولقد كان صحابة رسول الله ﷺ كذلك، لأنهم تخرجوا فى مدرسته ﷺ فلقد جاء رجل إلى سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه وقال له: لقد اشتريت دارًا، فاكتب لى عقدًا بشرائها، فنظر إليه على بن أبى طالب رضي الله عنه فوجد حب الدنيا قد أثر على قلبه، فكتب

(١) حلية الأولياء ٧/ ٢ بإسناد حسن.

(٢) إحياء علوم الدين جـ٤/ ٦ ٢

(٣) رواه البخارى فى كتاب الهبة.

إليه: بسم الله الرحمن الرحيم: فقد اشترى ميت من ميت، دارًا تقع فى بلد الغافلين، وسكة المذنبين، لها أربعة حدود: الحد الأول: الموت، والثانى: القبر، والثالث: الحساب، والرابع: إما جنة أو نار كما يريد الله الواحد القهار» ثم قال له كلمات أصبحت مثلاً يرددها الجيل بعد الجيل:

**النفس تبكى على الدنيا وقد علمت ... أن السلامة فيها ترك ما فيها**
**لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا التى كانت قبل الموت بانيها**
**فإن بناها بخير طاب مسكنه ... وإن بناها بشر خاب بانيها**
**أموالنا لذوى الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدار نبنيها**
**كم من مدائن فى الآفاق قد بنيت ... أمست خرابًا وأفنى الموت أهليها**
**أين الملوك التى كانت مسلطنة ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها**
**لا تركنن إلى الدنيا وما فيها فالموت ... لاشك يفنينا ويفنيها**
**واعمل لدار غد رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن ناشيها**
**قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها**

فلله در القائل:

**إن لله عبادًا فطنًا ... تركوا الدنيا وخافوا الفتنا**
**نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحى وطنًا**
**جعلوها لجة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنًا(١)**

ففى هذه الأعمال الصالحة بضاعتك التى تحمل فيها، والحرص عليها ربحك، والأيام موجها، والتوكل على الله ظلها، وكتاب الله دليلها، ورد النفس عن الهوى حبالها، والموت ساحلها، والقيامة هى أرض المتجر التى تخرج إليها، والله مالكها.

فاقتنع بما أولاك ربك، وكن قنوعًا

**هى القناعة فالزمها تعش ملكًا ... لو لم يكن لك فيها إلا راحة البدن**
**وانظر لمن ملك الدنيا بأسرها ... هل راح منها بغير القطن والكفن**

وإياك أن تخضع لمخلوق مهما كان شأنه، ومهما بلغ أمره، لأن الذى يرزق العباد هو الله، والذى يغنى ويفقر إنما هو الله: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [آل عمران: ٢٦] ولله در سيدنا عبد الله بن المبارك حين قال:

---

(١) ديوان الإمام الشافعى ص٦٠

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذلك نقص منك فى الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين
ألا ترى كل من ترجو وتأمله من البرية مسكين ابن مسكين[1]

**أخى الحبيب:**

ومما ينبغى أن تعلمه وقبل أن نفارق هذه الوصية، ونحن بصدد الحديث عن الدنيا والزهد فيها، أن تعلم أنه ليس المقصود من هذا كله أن تكون فقيرًا مسكينًا، تلبس ما خشن من الثياب، وتترك ثيابك قذرة، وشعرك يطول، وتقول إنى زاهد، كما يقول أبو على الدقاق: «الزهد أن تترك الدنيا كما هى، لا تقول أبنى رباطًا، أو أعمر مسجدًا» فهذا قول خاطئ يخالف ما جاء به الشرع الحنيف من القرآن والسنة، وليس كما يقول أحدهم حين سئل: ألا تغسل ثيابك؟ فقال: الأمر أهم من ذلك.

وهذا أيضًا قول خاطئ لأنه يخالف ما كان عليه هدى السلف الصالح رضوان الله عليهم لأن دين الإسلام دين النظافة والطهارة، ولقد حث عليها بجميع صورها.

ويعجبنى قول أبى سليمان الدارنى، وهو من أعلام الزهد. «فلا ينبغى أن تلبس صوفًا بثلاثة دراهم وفى قلبك رغبة خمسة دراهم»[2] والله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه، ولذلك يقول سبحانه: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ [الأعراف: ٣١] وقال سبحانه: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [القصص: ٧٧] ولكن كن صاحب أموال، ثم أنفقها فى سبيل الله، وفى إعلاء دين الله، كن صاحب عمارات وعقارات لكن من عرق جبينك، وكد يمينك، ولا تظلم أحدًا، وأدِّ حق الله فيها، وراقب الله تعالى فى جميع شئونك، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا، ولا تغفل عن ذكر الله تعالى، وأدِّ ما عليك من حقوق وواجبات، وما أحسن قول أحد الصالحين، وقد وافق قول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «ليس الزهد ألا تملك شيئًا، ولكن الزهد ألا يملكك شيء».

## • موعظة •

**أخا الإسلام:**

طوبى لعبد أصبحت العبادة حرفته، والآخرة همته، وطلب العيش بلغته، وجعل الموت فكرته، وأمات بالذل لله عزته، وجعل إلى الرب حاجته، يذكر فى الخلوات خطيئته،

---

(١) ديوان ابن المبارك فى الزهد
(٢) الرسالة القشيرية ص١٩٠

وأرسل على الوجنة عبرته، وشكا إلى مولاه غربته، وسأله بالتوبة رحمته، طوبى لمن كانت تلك صفته، وعلى الذنب ندامته. بكّاء إلى الله فى الأسحار، قوام له من ليل أو نهار يناجى ربه الرحمن، ويطلب منه الجنان، ويخاف النيران.

كان داود الطائى -رحمه الله- يعاتب نفسه، ويقول: يا داود من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله قصر عمله، وكل ما هو آت قريب، واعلم يا داود أن كل شىء يشغلك عن ربك فهو عليك مشئوم. واعلم يا داود أن أهل الدنيا جميعًا من أهل القبور، إنما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون، فبما عليه أهل القبور يندمون، عليه أهل الدنيا يقتتلون، وفيه يتنافسون وعليه عند القضاء يختصمون»[1] ونختم بهذا الدعاء الذى كان يدعو به صاحب هذه الوصية (عبد الله بن عمر): «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، اللهم متعنا بأبصارنا وأسماعنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا[2] يا رب العالمين.

## • الوصية رقم (٩٤) •

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال:. **«ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل»**[3]

**صدق رسول الله ﷺ**

## • عناصر هذه الوصية •

هذه الوصية العظيمة، مع قلة ألفاظها، تحتوى على كثرة فى المعانى، لأنها خرجت من فم من أوتى جوامع الكلم ﷺ، إنها تحتوى على ثلاثة عناصر لا غنى للمسلم بل للأمة الإسلامية عن العمل بها والتمسك بما جاء فيها، لتسود السعادة فى الدنيا والآخرة، وتلك العناصر الثلاثة هى:

١- أن الأموال لا تنقص بالصدقة.

٢- أن العفو والصفح عمن أساء يزيد صاحبه عزة ورفعة وكمالاً

---

(١) صفة الصفوة جـ٣/ ٦٦ (٢) رواه الترمذى.

(٣) رواه مسلم فى البر باب استحباب العفو والتواضع ٤/ ١ ٢ رقم (٢٥٨٨) ورواه الإمام أحمد فى مسنده بإسناد حسن رقم (٨٩٨٦) جـ٩/ ٧٦، ورواه الترمذى رقم (٢٠٢٩) فى البر أيضًا باب: ما جاء فى التواضع - ورواه مالك فى الموطأ فى الصدقة، باب: ما جاء فى التعفف عن المسألة جـ٢/ ٣٨٦، ط/ دار العاصمة بالسعودية - وفى رياض الصالحين برقم (٦٠٦) باب التواضع وخفض الجناح.

٣- أن التواضع يـرفع أصحابه ويسـمو بهم إلى مـواطن الكرامة العلـيا، لأن الذى يرفعه ويسمو به إنما هو الخالق جل وعلا.

فماذا عن هذه العناصر العظيمة؟

## • العنصر الأول •

## • ما نقصت صدقة من مال •

الصدقة مـأخوذة من الصدق أى من لفظـه وما سميت بهـذا الاسم إلا للدليل على صدق إيمان العبد حين يخرجها، لأنها ليـست مفروضة عليه ومع ذلك فهو يؤديها، وكلما زادت الصدقة دلت على يقين مؤديها ومدى حبه لله عز وجل فهو -أى المؤمن- يؤديها حبًا فى الله، يريد بها الخير لنفسه فى الآخرة، والنفع لغيره فى الدنيا.

**واعلم أخى المسلم:** أن المال مال الله تعالى، فهـو الذى يعطى من شاء، وهو الذى يمنع من شاء قال سبحانه: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [آل عمران: ٢٦] وهو سبحانه الذى يبسط الرزق لمن يشاء، ويقدره على من يشاء، ابتلاء منه سبحانه وتعالى وامتحـانًا للغنى كيف يشكر فـيما أعطاه واختـبارًا للفقيـر كيف صبره على مـا ابتلاه، قال سبحانه: ﴿**فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝ كَلَّا**﴾ [الفجر ١٥ ١٧].

فالمال لمن اسـتعان به على طاعـة مولاه، وأنفقـه فى سبل الخيرات المـقربة إلى الله، سبب موصـل له إلى الله، وهو لمن أنفقه فى معـاصى الله، واستعان به على نـيل أغراضه المحرمة، أو اشتغـل به عن طاعة الله، سبب قاطع له عن الله كما قـال أبو سليمان الدارنى رحمه الله: «الدنيا حجاب عن الله لأعدائه، ومطية موصلة إليه لأوليائه، فسبحان من جعل شيئًا واحدًا سببًا للاتصال به، والانقطاع عنه»[1]

وقد مدح الله فـى كتابه القسـم الأول، وذم القسم الثانى، فـقال سبحـانه فى مدح القسـم الأول: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: ٢٧٤] وقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ۝ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ**﴾ [فاطر ٢٩، ٣] والآيات فى هذا المعنى كثيرة، وقال فى ذم الآخرين: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ**

(١) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلى ص٤٢٥ ط/ ابن كثير بيروت - محققة.

**فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾** [المنافقون: ٩، ١٠] وسوف يتحسرون يوم القيامة عندما يأخذون كتبهم بشمالهم، ويطلبون من الله الرجعة إلى الدنيا لكى يتصدقوا فلا يُجابون ويقول أحدهم: **﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾** [الحاقة: ٢٨، ٢٩].

ويقول سيد المرسلين، وإمام العالمين: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»[(١)] ويقول أيضًا: «**إنَّ هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بحقه ووضعه فى حقه، فنعم المعونة هو وإنْ أخذه بغير حقه، كان كالذى يأكل ولا يشبع**»[(٢)]

فالمؤمن الذى يأخذ المال من حقه، ويضعه فى حقه، فله أجر ذلك كله، وكلما أنفق منه يبتغى به وجه الله فهو له صدقة يؤجر عليها، حتى ما يطعم نفسه فهو له صدقة، وما يطعم ولده فهو له صدقة، وما يطعم أهله فهو له صدقة، وما يطعم خادمه فهو له صدقة.

وكان بعض الصالحين يقول: إذا أقبلت الدنيا عليك فَجُدْ بها فإنها تفنى، وإذا أدبرت فأنفق فإنها لا تبقى. وأنشدوا:

**إذا جادت الدنيا عليك فجد بها ... على الناس طرًا فإنها تتقلب**
**لا تبخلن بدنيا وهى مقبلة ... فلن يضر بها التبذير والسرف**
**وإن تولت فأحرى أن تجود بها ... فالشكر منها إذا ما أدبرت خلف**

## • الترغيب فى الصدقة والحث عليها •

يقول مولانا تبارك وتعالى مرغبًا أصحاب الأموال من الأغنياء: **﴿من ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾** [البقرة: ٢٤٥] وفى سورة الحديد: **﴿من ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾** [الحديد: ١١].

وتأمل الفعل «يقرض» فى الآيتين، إنه فى غاية الفصاحة والبلاغة، إن رب العالمين يريد أن يقترض منا وهو غنى عنا، وهو مالك لمن فيها من السموات والأرض، فالملك ملكه ونحن عبيده، فسبحانه من إله عظيم، ولذلك لما سمع بعض السلف هذه الآية قال: عجبت لمن يبقى له مال ورب العزة يستقرضه إن القرض هو أن يعطى الإنسان شيئًا ليرجع إليه مثله، وحين ينفق المتصدق من أجل مولاه إنما ينفق ليرد إليه بدله، وذلك البدل أعظم، وأسمى، وأنبل من الذى أقرضه -المال- فهو سبحانه مالك لخزائن الملك والملكوت، ومع

---

(١) رواه أحمد فى مسنده وقال العراقى فى تخريج الإحياء: رواه أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح.

(٢) جزء من حديث رواه البخارى رقم (١٤٦٥) فى الزكاة باب الصدقة على اليتامى، ورواه مسلم رقم (١٠٥٢) ورواه النسائى

ذلك يتلطف للأغنياء بالطلب منهم بإعطاء الفقير، فالقرض مجاز فى حق مولانا تبارك وتعالى.

فقد ورد فى أثر إلهى: يقول سبحانه: «**المال مالى، والجنة جنتى، فاشتروا جنتى بمالى**» إن أسلوب الاستفهام فى الآية المباركة أسلوب بليغ فصيح يقتضى الحث على إنفاق الصدقة فى سبيل الله تعالى، ولذلك قال بعض العلماء[1]: «إنما سمى الله تعالى الصدقة باسم القرض لتطمئن نفس البخيل إلى العوض، ذلكم العوض المضاعف من قبل الله جل وعلا، ولا يعلم التضعيف أحد سواه سبحانه وتعالى فقيل: إن التضعيف بمائة، وقيل: بعشر، وقيل: بسبعمائة قال سبحانه: ﴿**مَثَلُ الَّذِين يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم فِى سَبِيلِ اللَّه كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمن يشَاءُ**﴾ [البقرة: ٢٦١].

جاء رجل إلى النبى ﷺ بناقة مخطومة، قال: يا رسول الله، هى فى سبيل الله تعالى، فقال النبى ﷺ: «**لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة مخطومة**»[2]

وحكى عن عبد الله بن المبارك رحمه الله أنه جاء إليه فى بعض الأيام سائل يسأله شيئًا من الطعام، فلم يكن عنده سوى عشر بيضات، فأمر جاريته بأن تعطى السائل إياها، فأعطته تسعة وخبأت واحدة، فلما كان وقت غروب الشمس، جاء رجل ودق الباب، وقال: خذوا منى هذه السلة. فخرج عليه عبد الله، وأخذها منه، فرأى فيها بيضًا، فعدّه، فإذا هو تسعون بيضة، فقال لجاريته: أين البيضة الأخرى، كم أعطيت السائل؟ فقالت: أعطيته تسعًا وتركت واحدة نفطر عليها، فقال لها: غرَّمتينا عشرة[3]

حقًّا «**ما نقصت صدقة من مال**».

وقال سبحانه: ﴿**وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُون إِلاَّ ابْتِغَاء وجْه اللَّه وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٧٢].

ولذلك فإنى قرأت أن سيدنا عليًّا بن أبى طالب رضي الله عنه اشتهت زوجته فاطمة بنت رسول الله ﷺ الرمان، فذهب إلى السوق، واشترى لها رمانة واحدة فلم يكن معه سوى ثمن واحدة، وبينما هو فى الطريق إلى فاطمة رضي الله عنها، إذ به يقابل مسكينًا يشتهى الرمان، فيعطيه نصفها، ويأخذ النصف الآخر لزوجته فاطمة، ولما وصل إليها، قال لها: لعلك تسألين أين نصفها الآخر؟ قال: لقد قابلنى مسكين، فأعطيته نصفها، ولم تمض ساعة إلا ودق الباب ففتح على بن أبى طالب فوجد أمام الباب «سلمان الفارسى» رضي الله عنه وقد أبتعثه

---

(١) الترغيب من الأحاديث النبوية لليافعى (التوفيقية) ص ١٢

(٢) رواه مسلم فى صحيحه فى الإمارة (١٨٩٢) باب فضل الصدقة فى سبيل الله وتضعيفها.

(٣) الفتح الربانى والفيض الرحمانى لعبد القادر الجيلانى ص٢٢١ ط/ دار مكتبة الحياة.

رسول الله ﷺ بعشر رمانات، لكن سلمان وهو فى الطريق، خبأ واحدة، وأظهر لعلى تسعًا فقط وقال له: هذه من رسول الله ﷺ، فقال على: لو كانت من رسول الله لكانت عشرًا، فأخرج سلمان العاشرة، وقال له: كيف عرفت ذلك؟ فقال: تذكرت قول الله تعالى: ﴿من جاء بالْحسنة فلهُ عشرُ أمْثالها﴾ [الأنعام: ١٦٠].

ويقول جل شأنه: ﴿وسارعُوا إلىٰ مغْفرةٍ مّن رّبّكُمْ وجنّةٍ عرْضُها السّمواتُ والأرْضُ أُعدّتْ للْمُتّقين﴾ [آل عمران: ١٣٣] من هم؟ وما أوصافهم؟ إن من أولى هذه الصفات التى يتميزون بها أنهم هم: ﴿الّذين ينفقُون في السّرّاء والضّرّاء﴾ [آل عمران: ١٣٤].

والسراء أى فى حالة الرخاء واليسر والقدرة يتصدقون، وفى حالة الشدة والعسر والفقر يتصدقون، فربما تصدق أحدهم ببصلة، وأم المؤمنين عائشة ﵂ تصدقت بحبة عنب[1]، ولما تعجب الحاضرون من ذلك مع شدة كرمها قالت لهم: إن فى هذه الحبة مثاقيل الذر، والله تعالى يقول: ﴿فمن يعْملْ مثْقال ذرّةٍ خيْرًا يرهُ ۝ ومن يعْملْ مثْقال ذرّةٍ شرًّا يرهُ﴾[2] [الزلزلة: ٧، ٨].

وتأمل لماذا بدأ مولانا عز وجل فى صفات المتقين بهذه الصفة، وهى صفة الإنفاق والتصدق على الفقراء والمساكين والمحتاجين وغير ذلك فى سبيل الله تعالى؟ والجواب ما ذكره الإمام الرازى فى تفسيره[3]: «وإنما افتتح الله بذكر الإنفاق لأنه طاعة شاقة، ولأنه كان فى ذلك الوقت أشرف الطاعات لأجل الحاجة إليه فى مجاهدة العدو، ومواساة فقراء المسلمين».

فما هو الجزاء العظيم الذى سينالونه فى الآخرة؟ يقول سبحانه: ﴿أُولٰئك جزاؤُهُم مّغْفرةٌ مّن رّبّهمْ وجنّاتٌ تجْرى من تحتها الأنْهارُ خالدين فيها ونعْم أجْرُ الْعاملين﴾ [آل عمران: ١٣٦].

إنه والله لجزاء عظيم، جزاء مركب من:

١- مغفرة الله تعالى لهم، وتأمل ذلك الأسلوب الرقيق الذى يسمو، ويفيض بالرحمة من مولانا جل وعلا لم يقل مغفرة من الله، ولم يقل مغفرة من الحكيم العليم، أو القادر وإنما قال: من ربهم؟ من الذى خلقهم، من الذى سواهم، من الذى صورهم، فأحسن صورهم، من الذى رباهم تربية حسية، ومن رباهم تربية روحية معنوية، بإرسال رسله، وتعليم شرائعه، ثم بعد ذلك المغفرة من رب رحيم.

٢- جنات فقط؟ لا، ولكن تجرى من تحتها الأنهار، ما المدة التى يقضونها فى الجنة؟ خالدين فيها، على الدوام.

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٨/ ٤٥٦ ط/ دار الغد.

(٢) المرجع السابق جـ٣٢/ ٥٨٥.

(٣) المرجع السابق جـ٨/ ٤٥٦

**فحى على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم**
**ولكننا سبى العدو، فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم**

ستعود أخا الإسلام ولكن اعمل الصالحات، تصدق بالصدقات، جاهد فى سبيل الله بالأموال وتنافس فى الخيرات، وابتعد عن المعاصى والسيئات، وقل معى كما قال أحد الصالحين:

يا رب:

**إذا كنت ذا بطش أليم وشدة فمن وصفك الإحسان والبر واللطفُ**
**وإن كنت بالنيران أوعدت من عصى فوعدك بالغفران ليس له خلفُ**
**فعلنا خطايا وسترك مسبل وليس لشىء أنت ساتره كشفُ**
**إذا نحن لم نخطئ وتعفو تكرمًا فمن غيرنا يهفو وغيرك من يعفُ**

ثم يقول من أحكمت آياته ليبين للمتصدقين أنه يخلف عليهم، ويبارك لهم فى أموالهم: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

واعلم أنّ الخلف قد يكون فى الدنيا وذلك بالبركة فى الأموال، ونحو ذلك، وقد يكون الخلف فى الآخرة كالدعاء، فيعوضه الله تعالى عنه فى الآخرة الثواب العظيم، وقد يكون الخلف فى الدنيا والآخرة.

**فغدًا توفى النفس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا**
**إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا**

## • قطوف من السنة فى فضل الصدقة •

### أخى المسلم:

هيا بنا لنقتطف الثمار اليانعة من بستان السنة الجامعة فى ثواب الصدقة، وأول ما نقتطف، نجد حديثًا يرويه صاحب هذه الوصية المباركة «أبو هريرة» ؓ، أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: «اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا**»(١)

وعن أبى أمامة ؓ أن رسول الله ﷺ قال «**يابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شرٌ لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى**»(٢)

(١) رواه البخارى ومسلم وابن حبان فى صحيحه.

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢٢١٦٦) ورواه مسلم والترمذى.

واقتطف معى أخى المسلم هذه الثمرة من بستان الحبيب محمد ﷺ فعن أبى الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من يوم طلعت شمسه إلا وبجانبيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى إلا وكان بجانبيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله: اللهم أعط منفقًا خلفًا، وأعط ممسكًا تلفًا»** وأنزل الله فى ذلك قرآنًا: ﴿**وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [يونس: ٢٥].

وأنزل فى قولهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، وأعط ممسكًا تلفًا: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ**﴾[1] [الليل: ١: ١٠].

وهاك ثمرة أخرى، عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ عاد بلالاً فأخرج له صُبَرًا[2] من تمر، فقال: ما هذا يا بلال؟ قال: ادخرته لك يا رسول الله، قال: **أما تخشى أن يجعل لك بخارًا فى نار جهنم، أنفق يا بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالاً»**[3]

وتلك أخرى من بستان مليئ بالرياحين المحمدية التى تفوح كلماتها عطرًا، فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«قال الله تعالى: عبدى أنفق أنفق عليك. وقال: يد الله ملأى لا يغيضها[4] نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ما بيده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع»**[5]

وتلك قطفة أخرى من بستان وارف الظلال، لكن ما أعظمها من قطفة!.

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«بينما رجل بفلاة[6] من الأرض، فسمع صوتًا فى سحابة يقول: اسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه فى حرة[7]، فإذا شرجة[8] من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم فى حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟ قال: فلان، للاسم الذى سمع فى السحابة، فقال له: يا عبد الله، لمَ تسألنى عن اسمى؟ قال: إنى سمعت صوتًا فى السحاب الذى هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان، لاسمك فما تصنع فيها؟ قال: أمّا إذْ**

---

(١) رواه البيهقى كما فى الترغيب للمنذرى جـ٢/ ٤١ وصححه الألبانى صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٣٨٤، ٣٨٥

(٢) الصبرة هى الطعام المجتمع كالكومة.

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط بإسناد حسنه المنذرى فى الترغيب وأبو يعلى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٨).

(٤) لا يغيضها: لا ينقصها.

(٥) رواه البخارى ومسلم.

(٦) الفلاة: الأرض الواسعة المقفرة.

(٧) الحرة: هى أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت.

(٨) الشرجة: مكان منفسح.

قلت هذا، فإنى أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالى ثلثًا، وأردّ فيها ثلثًا»(١)

ولنترك هذا البستان العظيم، لكى نعود إليه بعد ذلك فى موضع آخر.

**• فوائد الصدقة •**

وفى الصدقة والإنفاق فى سبيل الله فوائد عظيمة لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى، ومن هذه الفوائد ما يلى:

**١- أنها تطهر الأموال والأبدان:**

قال تعالى: ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا** ﴾ [التوبة: ١٠٣].

قال بعض السلف لولده: يا بنى، إذا أخطأت خطيئة فتصدق بصدقة، فإن الله يقول: ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا** ﴾.

**٢- أنها ترفع البلاء والأمراض عن صاحبها:**

ولذلك يقول النبى ﷺ: «**داووا مرضاكم بالصدقة**»(٢)

**يقول ابن القيم:**

«إنّ للصدقة تأثيرًا عجيبًا فى دفع أنواع البلاء، ولو كانت من فاجر، أو ظالم أو كافر، فإن الله تعالى يدفع بها عنه أنواعًا من البلاء، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم، وأهل الأرض كلهم مقرون به لأنهم جربوه»

ويؤكد ذلك ما ذكره العلامة اليافعى فى الترغيب والترهيب(٣): «أنَّ رجلاً قصارًا كان فى زمن صالح النبى عليه السلام، وكان يفسد ثياب الناس، فجاء قوم صالح إليه، وقالوا: يا نبى الله ادع الله على هذا القصار، فإنه يفسد ثياب الناس، وخرج القصار برزمنه، فدعا عليه صالح أن لا يرجع سالمًا، فلما كان المساء رجع القصار برزمته، فقال له صالح: حل رزمتك فحلها، فإذا بين الثياب ثعبان ملجم بلجام من حديد، قال له صالح: ما فعلت حين خرجت من بيتك اليوم؟ قال: يا نبى الله، أخذت معى رغيفين من بيتى، فتصدقت بأحدهما، وأكلت الآخر، قال: صدقت، رفع الله عنك شر هذا الثعبان، وألجمه عنك ببركة الصدقة، اذهب وتب إلى الله، فتاب القصار من إفساد الثياب».

وذكر أنَّ امرأة كان لها ولد اسمه زيد، فخرج فى تجارة فى البحر، فتصدقت أمه عنه بدرهم فى غيبته، وهاجت الريح فى ذلك اليوم على أهل المركب فسمعوا قائلاً يقول: لا تخافوا فالفداء مقبول وزيد مغاث(٤)

---

(١) رواه أحمد فى مسنده رقم (٧٩٢٨) ومسلم فى صحيحه.

(٢) حسنه الألبانى فى صحيح الجامع برقم (٣٣٥٣).

(٣) الترغيب والترهيب لليافعى جـ١/ ١٢٦

(٤) الترغيب والترهيب لليافعى ص١٢٥ التوفيقية تحقيق أحمد فريد المزيدى.

**٣- والصدقة تقى صاحبها مصارع السوء:**

وذلك ثابت بنص حديث رسول الله ﷺ الذى رواه عنه أنس بن مالك رضي الله عنه يقول فيه: «**صنائع المعروف تقى مصارع السوء والآفات والهلكات، وأهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة**»(١)

قال المناوى فى فيض القدير

هذا تنويه عظيم بفضل المعروف وأهله، قال على بن أبى طالب رضي الله عنه: لا يزهدك فى المعروف كفر من كفر، فقد يشكره الشاكر أضعاف جحود الكافر.

وقال الماوردى: فينبغى لمن قدر على ابتداء المعروف أن يجعله حذرًا من فوته، ويبادر به خيفة عجزه، ويعتقد أنه من فرص زمانه، وغنائم إمكانه، ولا يمهله ثقة بالقدرة عليه، فكم من واثق بقدرة فاتت أعقبت ندمًا، ومعول على مكْنَة زالت فأورثت خجلاً، ولو فطن لنوائب دهره، وتحفظ من عواقب فكره، لكانت مغارمه مدحورة، ومغانمه محبورة.

وقيل: من أضاع الفرصة عن وقتها، فليكن على ثقة من فوتها(٢)

**٤- والصدقة فى السر تطفئ غضب الرب:**

فعن أم سلمة رضي الله عنها أن النبى ﷺ قال: «**صنائع المعروف تقى مصارع السوء، والصدقة خفية تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم زيادة فى العمر**»(٣)

**فما أحسن الدنيا وإقبالها ... إذا أطاع الله من نالها**

**من لم يواس الناس من ماله ... عرض للإدبار إقبالها**

**فاحذر زوال الفضل يا ماسكًا ... وواس من دنياك من سألها**

**فإن مولاك جزيل العطا ... يعطيك بالحبة أمثالها**(٤)

**٥- أن الصدقة تقى العبد حر النار يوم القيامة:**

يقول النبى ﷺ: «**كل امرئ فى ظل صدقته يوم القيامة(٥) حتى يفصل بين الناس**».

ويقول على بن أبى طالب رضي الله عنه:

بينما الناس فى كرب القيامة وحرها، إذ بظلال على رءوس الناس دون أناس، فيقول أصحاب الظلال: إلهنا، ما هذا الفضل الذى منحتنا؟.

(١) رواه الحاكم وهو فى صحيح الجامع برقم (٣٦٨٩).

(٢) فيض القدير للمناوى ٤/ ٦ ٢ أنظر الجزاء من جنس العمل جـ١/ ٥١٩ د/ سيد حسين العفانى.

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط وهو فى صحيح الجامع رقم (٣٦٩٠).

(٤) الترغيب والترهيب ص١٣٤

(٥) رواه أحمد فى مسنده (١٧٢٦٦) وابن خزيمة فى صحيحه (٢٤٣١) والحاكم فى المستدرك وصححه ١/ ٤١٦ ووافقه الذهبى.

فيقال لهم: «**هذه ظل صدقاتكم**»[١]

وقد صدق النبى المصطفى حين قال موضحًا الأصناف التى ستظلل فى عرش الرحمن يوم الحر الأكبر: «**سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى طاعة الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه**»[٢] فيا أخى المسلم:

**تمتع بمالك قبل الممات ... وإلا فلا مال إنْ أنت مُتّا**

**شقيت به ثم خلفته ... لغيرك بعدًا وسحقًا ومقتًا**

**فجادوا عليك بزور البكا ... وجدت عليهم بما قد جمعتا**

**وأوهبتهم كل ما فى يديك ... وخلوك رهينًا بما قد كسبتا**

قال ﷺ: «**يقول ابن آدم: مالى مالى، وهل لك يابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت**»[٣]

**٦- الصدقة تطفئ الخطيئة:**

فعن معاذ بن جبل ﷺ قال: كنت رديف النبى ﷺ فى سفر فذكر الحديث. إلى أن قال فيه: «**ألا أدلك على أبواب الخير؟** قلت: بلى يا رسول الله. قال: **الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار**»[٤]

*** يقول السمرقندى فى تنبيه الغافلين**[٥]:

عليك بالصدقة بما قل أو كثر، فإن فى الصدقة عشر خصال محمودة، خمس فى الدنيا، وخمس فى الآخرة، فأما الخمس التى فى الدنيا:

**فأولها:** أنّ فيها تطهيرًا للمال.

كما قال النبى ﷺ: «**ألا إن البيع يحضره اللغو والحلف والكذب، فشوبوه بالصدقة**»[٦]

**والثانى:** أن فيها تطهير البدن من الذنوب.

---

(١) الترغيب والترهيب لليافعى ص١٢٧

(٢) رواه البخارى وأحمد رقم (٩٦٢٨) (٣) رواه مسلم وأحمد رقم (١٦٢٥٧).

(٤) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح رقم (٢٦٦١) وابن ماجه مطولاً (٣٩٧٣)

(٥) تنبيه الغافلين ص٢٤٢، ٢٤٣ باختصار.

(٦) رواه أحمد فى مسنده وأبو داود (٣٣٢٦) فى صحيح سنن أبى داود للألبانى جـ٢/ ٣٣٣ والترمذى (١٢٠٨) وقال: حسن صحيح وابن ماجه (٢١٤٥).

**والثالث:** أن فيها دفع البلاء والأمراض.

**والرابع:** أن فيها إدخال السرور على المساكين، وأفضل الأعمال إدخال السرور على المؤمنين.

**والخامس:** أن فيها بركة فى المال، وسعة فى الرزق.

وأما الخمس التى فى الآخرة:

**فأولها:** أن تكون الصدقة ظلاً لصاحبها فى شدة الحر.

**والثانى:** أنها تثقل الميزان.

**والثالث:** الجواز على الصراط.

**والرابع:** زيادة الدرجات فى الجنة.

ولو لم يكن فى الصدقة فضيلة سوى دعاء المساكين، **لكان الواجب على العاقل أن** يرغب فيها. فكيف وفيها رضا الله تعالى، ورغم الشيطان لأنه روى فى الخبر **«إنَّ الرجل لا يستطيع أن يتصدق ما لم يفك لحى سبعين شيطانًا»**[1] **وفيها الاقتداء بالصالحين، لأن** الصالحين كانت نهمتهم فى الصدقة.

## • آداب إخراج الصدقة •

### أخى المسلم:

إن لإخراج الصدقة آدابًا، ينبغى للمتصدق أن يقوم بها منها:

*** أولاً: إخلاص النية لله رب العالمين:**

لأن العبد قد يدرك بنيته الصالحة -حتى لو تصدق بقليل الصدقة- يدرك ثواب المتصدق بالأموال الكثيرة، ولأن النية هى أساس قبول الأعمال عند الله تعالى ولذلك يقول النبى ﷺ: **«إنما الأعمال بالنيات»**[2] حتى يوم القيامة يبعث الناس على نياتهم كما فى حديث أبى هريرة: **«إنما يبعث الناس على نياتهم»**[3]

وفى رواية عن جابر ﷺ: **«يحشر الناس على نياتهم»**[4]

ويقول عبد الله بن المبارك -رحمه الله-: **رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية**[5] وعن بعض السلف قال: **من سره أن يكمل له عمله فليحسن نيته، فإن الله عز وجل يأجر العبد إذا حسنت نيته حتى باللقمة.**

---

(١) رواه أحمد والحاكم وصححه ١/ ٤١٧ ولم يتعقبه الذهبى.

(٢) رواه البخارى فى بدء الوحى (١) وفى الإيمان (٥٤) وفى العتق (٢٥٢٩) وفى أبواب متعددة ورواه مسلم فى الإمارة (١٦٤٧).

(٣) رواه ابن ماجه وصححه الألبانى (٧ ٣٤).

(٤) رواه ابن ماجه أيضا وصححه الألبانى (٨ ٣٤).

(٥) جامع العلوم والحكم ص١٩

وعن مطرف بن عبد الله قال: صلاح القلب بصلاح العمل، وصلاح العمل بصلاح النية وقد جاء فى الخبر: «إن عابدًا من عباد بنى إسرائيل مرَّ بكثيب من الرمل، فتمنى فى نفسه لو كان دقيقًا فأشبع به بنى إسرائيل فى مجاعة أصابتهم، فأوحى الله إلى نبى فيهم، قل لهذا العابد، إن الله تعالى يقول: إنى قد أوجبت لك من الأجر ما لو كان دقيقًا فتصدقت به[(١)]

وإنما يظهر صدق النية إذا لم يبخل بالقليل الذى عنده، أما إذا بخل بالقليل، فيعلم الله تعالى أنه لو كان عنده أكثر من ذلك لكان يبخل بالكثير كما يبخل بالقليل، فلا ثواب له حينئذ فى نيته.

وعن كبشة الأنمارى ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ثلاث أقسم عليهن: ما نقص مال عبد من صدقة ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزًا، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر، وأحدثكم حديثًا فاحفظوه: إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلمًا فهو يتقى فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعمل لله فيه حقًا، فهذا بأفضل المنازل. وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية، يقول: لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سواء. وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علمًا يخبط فى ماله بغير علم، لا يتقى فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعمل لله فيه حقًا فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علمًا، فهو يقول: لو أن لى مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته فوزرهما سواء**»[(٢)]

وبعد نظرك فى هذا الحديث العظيم، ماذا فهمت منه؟ أترى معى أن صاحب النية الحسنة قد أدرك من الفضل والمنزلة مثل ما أدركه صاحب الأموال، التى عرف فيها حقه تعالى، ووصل بها رحمه؟ فياله من فضل عظيم، من رب كريم!

وعن زيد بن أسلم، قال: يؤتى يوم القيامة بفقير وغنى اصطحبا فى الله، فيوجد للغنى فضل عمل فيما كان يصنع فى ماله، فيرفع على صاحبه، فيقول الفقير يا رب! لم رفعته علىَّ؟ وإنما اصطحبنا فيك، وعملنا لك؟ فيقول الله تعالى: له فضل عمل بما صنع فى ماله، فيقول: يا رب! لقد علمت لو أعطيتنى مالاً لصنعت مثل ما صنع، فيقول: صدق، فارفعوه إلى منزلة صاحبه[(٣)]

---

(١) تنبيه الغافلين ص٣٧٧

(٢) رواه أحمد فى مسنده (١٧٩٥٤) جـ١٤/ ٤١، ٤٢ ومسلم (٢٥٨٨) والترمذى (٢٣٢٦). وقال حسن صحيح، وابن ماجه (٤٢٢٨) والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١ ٣).

(٣) ذكره ابن رجب فى لطائف المعارف ص٤٣٥، وزيد بن أسلم من الأئمة المجودين، الثقات وثقه النسائى وغيره.

*** ثانيًا: أن لا يفسدها بالمن والأذى:**

وذلك أن الإنسان إذا رأى نفسه محسنًا إلى الغير، منعمًا بالإعطاء، ربما حصل منه ذلك، ولو حقق النظر لرأى أن الفقير هو الذى أحسن إليه بقبول حق الله الذى هو طهرة له[1] قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ**﴾ [البقرة: ٢٦٤] ولأجل ذلك كان بعض السلف الصالح من الصحابة والتابعين يبسط أحدهم كفه لكى يأخذ الفقير من كفه، وتكون يد الفقير هى العليا، ويد الذى يعطى الصدقة أسفل. وكان بعضهم يضعها بين يدى الفقير، ويقوم عنها، ويسأله أن يتقبلها حتى يكون فى صورة السائلين[2]

**قال الفضيل بن عياض:** «من المعروف أن ترى المنة لأخيك عليك، إذا أخذ منك شيئًا، لأنه لولا أخذه منك ما حصل لك الثواب، وأيضًا فإنه خصك بالسؤال ورجا فيك الخير دون غيرك»[3]

**وكان الليث بن سعد يقول:** من أخذ منى صدقة أو هدية فحقه علىَّ أعظم من حقى عليه، لأنه قبل منى قربانى إلى الله عز وجل[4].

**وقال معاذ النسفى:** من لم ير نفسه أحوج إلى ثواب صدقته، فهو ممن أبطل صدقته بالمن، لأنه رأى نفسه على الفقير.

وقد كان سفيان الثورى -رحمه الله-: ينشرح إذا رأى سائلاً على بابه ويقول: مرحبًا بمن جاء يغسل ذنوبى.

**وكان الفضيل بن عياض يقول:** يحملون أزوادنا إلى الآخرة بغير أجرة، حتى يضعوها فى الميزان بين يدى الله تعالى[5]

*** ثالثًا: الإسرار بإخراجها:**

لكونه أبعد عن الرياء والسمعة، وفى الإظهار إذلال للفقير أيضًا، فإن خاف أن يتهم بعدم الإخراج أعطى من لا يبالى من الفقراء بالأخذ بين الجماعة علانية، وأعطى غيره سرًا.

واعلم أخى المسلم أن الله تعالى يعلم مكنونات الضمائر، ويطلع على خفايا الأمور ظاهرها وباطنها قال تعالى ﴿**إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ [البقرة: ٢٧١] سألوا رسول الله ﷺ صدقة السر أفضل أم صدقة العلانية؟ فنزلت هذه الآية[6].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص٥٧ ط/ دار القلم - بيروت.

(٢): (٥) ترطيب الأفواه جـ٢/ ٤٣ د/ سيد حسين العفانى.

(٦) تفسير الفخر الرازى جـ٦/ ٦٢٥ وأسباب النزول للواحدى النيسابورى ص٧٧ ط/ الريان.

وقد ذكر بعض العلماء أن الإخفاء فى صدقة التطوع أفضل، والإظهار فى الزكاة أفضل، وبينوا وجه الأفضلية بما يأتى:

١- أنها أبعد عن الرياء والسمعة، وقد بالغ قوم فى قصد الإخفاء، واجتهدوا فى أن لا يعرفهم الآخذ، فكان بعضهم يلقيه فى يد أعمى، وبعضهم يلقيه فى طريق الفقير، وفى موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطى، وبعضهم كان يشده في أثواب الفقير وهو نائم، وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره.

والمقصود الاحتراز عن الرياء والسمعة والمنة.

٢- أنه إذا أخفى صدقته لم يحصل له بين الناس شهرة ومدح وتعظيم، فكان ذلك يشق على النفس، فوجب أن يكون ذلك أكثر ثوابًا.

٣- أن الإظهار يوجب إلحاق الضرر بالآخذ من وجوه، والإخفاء لا يتضمن ذلك فالإخفاء أولى.

٤- أن فى الإظهار هتك عرض الفقير، وإظهار فقره، وربما لا يرضى الفقير بذلك[(١)]

٥- أن فى الإظهار إخراج الفقير من هيئة التعفف وعدم السؤال.

والله تعالى قد مدح ذلك فى قوله تعالى: ﴿**يحسبُهُمُ الْجاهلُ أَغْنياء من التَّعَفُّف تَعْرِفُهُم بسيماهُمْ لا يسْأَلُونَ النَّاس إلْحَافًا**﴾ [البقرة ٢٧٣].

٦- أن الناس ربما أنكروا على الفقير أخذ تلك الصدقة، ويظنون أنه أخذها مع الاستغناء عنها، فيقع الفقير فى المذمة، والناس فى الغيبة.

٧- أن في إظهار الإعطاء إذلالاً للآخذ وإهانة له، وإذلال المؤمن غير جائز[(٢)]

وقد ذكر الإمام الغزالى فى الإحياء أن:

الإخفاء فيه خمسة معان:[(٣)]

**الأول:** أنه أبقى للستر على الآخذ.

**الثانى:** أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم فإنهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه.

**الثالث:** إعانة المعطى على إسرار العمل، فإن فضل السر على الجهر فى الإعطاء أكثر، والإعانة على إتمام المعروف معروف.

**الرابع:** أن فى إظهاره الأخذ ذلاً وامتهانًا، وليس للمؤمن أن يذل نفسه.

**الخامس:** الاحتراز عن شبهة الشركة قال ﷺ: «**من أهدى له هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها**».

---

(١) تفسير الرازى جـ٦/ ٦٢٧، ٦٢٨ (٢) تفسير الفخر الرازى جـ٦/ ٦٢٨.

(٣) تهذيب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى هذبه عبد السلام هارون ص٨٦ ط/ دار التوزيع والنشر.

*** رابعًا: أن يطلب لصدقته من تزكوا به:**

يقول صاحب كتاب (مختصر منهاج القاصدين):[١]

وهو خصوص من عموم الأصناف الثمانية وله صفات:

**الأولى:** أن يكون تقيًّا، فليخص بصدقته المتقين، فإنه يرد بها هممهم إلى الله تعالى قال ﷺ: «**لا تصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي**»[٢]

وقد كان عامر بن عبد الله بن الزبير يتخير العُبَّاد وهم سجود، فيأتيهم بالصرة فيها الدنانير والدراهم، فيضعها عند نعالهم بحيث يحسون بها، ولا يشعرون بمكانه، فقيل له: ما يمنعك أن ترسل بها إليهم؟ فيقول: أكره أن يتمعر وجه أحدهم إذا نظر إلى رسولي أو لقيني[٣]

**الثانية:** العلم، فإن في إعطاء العالم إعانة على العلم ونشر الدين، وذلك تقوية للشريعة.

**الثالثة:** أن يكون ممن يرى الإنعام من الله وحده، لأن الذي عادته المدح عند العطاء فإنه سيذم عند المنع.

**الرابعة:** أن يكون صائنًا لفقره، ساترًا لحاجته، كاتمًا للشكوى.

**الخامسة:** أن يكون ذا عائلة، أو محبوسًا لمرض أو دين.

**السادسة:** أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام، فإن الصدقة عليهم صدقة وصلة.

*** خامسًا: أن يستصغر العطية:**

فإن المستعظم للفعل معجب به.

وقد قيل: لا يتم المعروف إلا بثلاث: بتصغيره، وتعجيله، وستره[٤]

*** سادسًا: أن ينتقي من ماله أحله وأجوده، وأحبه إليه:**

أما الحل، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، وأما الأجود فلأن الذي يعطيه هو الذي يلقاه يوم القيامة، قال تعالى: ﴿**ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون**﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وأما أحبه إليه فلقوله تعالى ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾ [آل عمران: ٩٢].

(١) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي ص٥٨.

(٢) رواه أحمد في مسنده (١١٢٧٦) جـ١٠/ ١٢٣ بإسناد صحيح ورواه أبو داود (٤٨٣٢) وحسنه الألباني في صحيح أبي داود جـ٣/ ١٨٧ وصحيح الجامع (٧٢١٨) ورواه الترمذي وحسنه (٢٣٩٥) وابن حبان (٤٩ ٢).

(٣) مختصر منهاج القاصدين ص٥٨.

(٤) من كلام جعفر الصادق في حلية الأولياء جـ٣/ ١٩٨

* سابعًا: إعطاؤها من جهد مقل:

يعنى يعطى من مال قليل، وقد ذكر ذلك الإمام السمرقندى فى كتاب (تنبيه الغافلين)[١] حيث قال: سبع خصال تربى الصدقة وتعظمها ثم ذكر ذلك، ثم ذكر: (تعجيلها مخافة الفوت) أى قبل أن يدرك المتصدق الموت فيقول: ﴿رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

## • أنواع الصدقة •

### أخى المسلم:

اعلم أن التصدق لا يكون فقط بالمال، وإنما يسر الشريعة، ورحمة الشارع جعلت منافذ أخرى للمتصدق، لأنه ربما لا يكون مالكًا للمال فمن ذلك:

تبسمك فى وجه أخيك صدقة، كما ورد فى الحديث: «**تبسمك فى وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف صدقة، وبصرك للرجل الردىء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك لك صدقة**»[٢]

«**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**»[٣]

ولو تأملت الحديث السابق لوجدت فيه أمورًا عظيمة، جعلها الشارع للفقير مكان التصدق بالمال وهى:

١- تبسمك فى وجه أخيك.

٢- أمرك بالمعروف.

٣- هداية الأعمى إلى الطريق.

٤- إماطتك الأذى عن الطريق من حجر وشوك وعظم ونحو ذلك.

٥- إفراغك الماء من دلوك لأخيك صدقة.

بل لقد جعل الشارع الحكيم الكلمة الطيبة صدقة، واعتبر لك أقل القليل الذى تتصدق به لك به أجرًا كنصف التمرة فقال ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله سبحانه وتعالى ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشمل منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة**»[٤]

بل إنه يضاعف تلك التمرة حتى تكون مثل الجبل فى الثواب العظيم، فيقول ﷺ:

---

(١) تنبيه الغافلين ص٢٤٧، ٢٤٨

(٢) رواه ابن حبان والترمذى وقال: حديث حسن.

(٣) رواه الترمذى فى الأطعمة (١٨٣٣) من حديث أبى ذر

(٤) رواه البخارى فى الزكاة (١٤١٣) ومسلم فى الزكاة أيضًا (١٠١٦) والترمذى (٢٤٥١) وابن ماجه (١٨٥) وأحمد فى مسنده (١٨١٦٢).

**«من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب -ولا يقبل الله إلا الطيب-، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل»**[١].

بل ويوصى الرسول الأعظم السيدة عائشة رضي الله عنها فيقول لها: **«يا عائشة استترى من النار، ولو بشق تمرة، فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان»**[٢].

بل ربما يسبق درهم بإخلاص لله مائة ألف درهم يبغى بها صاحبها الرياء والسمعة يقول ﷺ: «سبق درهم مائة ألف درهم، فقال رجل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ **قال: رجل له مال كثير أخذ من عرضه مائة ألف درهم تصدق بها، ورجل ليس له إلا درهمان، فأخذ أحدهما فتصدق به»**[٣]

بل إن الصدقة تتعدى إلى الطيور والحيوانات.

يقول النبى ﷺ: **«فى كل ذات كبد رطبة أجراً»**[٤] ويقول: **«ما من مسلم يزرع زرعًا، أو يغرس غرسًا فيأكل منه إنسان أو حيوان أو طير إلا كان له به صدقة»**[٥].

فإذا كان المسلم لا يستطيع أن يزرع زرعًا أو يغرس غرسًا، أو حتى يستطيع أن يتصدق بتمرة أو نحو ذلك فماذا يفعل المسلم حينئذ لكى يكون من المتصدقين والمتصدقات؟

اقرأ معى حديث أبى ذر الغفارى رضي الله عنه فقد وجدت فيه خيراً عظيمًا، يقول ﷺ: **«يصبح على كل سلامى من ابن آدم صدقة، تسليمه على من لقى صدقة، وأمره بالمعروف صدقة، ونهيه عن المنكر صدقة، وإماطته الأذى عن الطريق صدقة، وبُضْعَة أهله صدقة، ويجزئ من ذلك كله، ركعتان من الضحى**، وفى زيادة: قالوا: يا رسول الله! أحدنا يقضى شهوته وتكون له صدقة؟ قال **«أرأيت لو وضعها فى غير حلِّهَا، ألم يكن يأثم؟!»**[٦]

بل إن الشارع الحكيم قد جعل التصدق على المسلمين بالصلاة معهم بعد صلاته هو فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أنَّ النبى ﷺ صلى بأصحابه ثم جاء رجل فقال النبى ﷺ: **«من يتجر على هذا، أو يتصدق على هذا، فيصلى معه؟ قال: فصلى معه رجل»**[٧]

---

(١) رواه البخارى ( ١٤١) ومسلم والترمذى (٦٦٢) والنسائى وابن ماجه (١٨٤٢) وأحمد فى مسنده (٨٣٦٣).

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢٤٣٨٢) وصحح إسناده حمزة الزين وحسنه المنذرى فى الترغيب جـ٢/ ١٠

(٣) رواه النسائى ٥/ ٥٩ وابن حبان فى صحيحه واللفظ له والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٦٤٧ ١) بسند صحيح.

(٥) رواه أحمد (١٢٤٣٤) والبخارى ( ٢٣٢) ومسلم (١٥٥٣).

(٦) رواه البخارى ومسلم وأبو داود وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود رقم (١٢٨٥) جـ١/ ٣٥٢

(٧) رواه أحمد فى مسنده (٩٦١ ١) جـ١٠/ ١٨ ورواه الدارقطنى ١/ ٢٧٦ والبيهقى وقال الهيثمى: ٢/ ٤٦ رجال أحمد رجال الصحيح.

فقد احتسب النبى ﷺ إعادة الصلاة مع الرجل صدقة تصدق بها عليه لأنه جعلها له صلاة جماعة وليست صلاة فردية يأخذ عليها سبعًا وعشرين درجة.

## • أعلام الخير والبر من الصحابة والتابعين •

### أخى المسلم:

تأمل معى تلك النخبة الطاهرة الطيبة من أعلام المتصدقين، من أعلام الخير والبر والإنفاق فى سبيل الله، ورأس تلك النخبة الزكية، صاحب رسول الله ﷺ فى الغار:

صديق أحمد صاحب الغار ... هو فى المغارة والنبى اثنان
أعنى: أبا بكر الذى لم يختلف ... من شرعنا فى فضله رجلان
هو شيخ أصحاب النبى وخيرهم ... وإمامهم حقًا بلا بطلان
وأبو المطهرة التى تنزيهها ... قد جاءنا فى النور والفرقان[(١)]

*** أبو بكر الصديق رضي الله عنه:**

فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما نفعنى مال قط ما نفعنى مال أبى بكر»** فبكى أبو بكر وقال: وهل أنا ومالى إلا لك يا رسول الله؟![(٢)]

## • الخيران يتسابقان •

وعن الشعبى قال: لما نزلت: ﴿**إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ**﴾ [البقرة: ٢٧١] جاء عمر بنصف ماله يحمله إلى رسول الله ﷺ على رؤوس الناس، وجاء أبو بكر بماله أجمع يكاد يخفيه من نفسه. فقال رسول الله: **«ما تركت لأهلك؟»** قال: عدة الله وعدة رسوله. قال: يقول عمر لأبى بكر: بنفسى أنت وبأهلى أنت، ما استبقنا باب خير قط إلا سبقتنا إليه[(٣)]

وفى رواية: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، ووافق ذلك مالاً عندى، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إنْ سبقته، قال: فجئت بنصف مالى، فقال: **«ما أبقيت لأهلك؟»** قلت: مثله. وجاء أبو بكر بكل ما عنده، فقال: يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسبقه إلى شىء أبدًا[(٤)]

---

(١) نونية القحطانى ص٣٤ ط/ ابن تيمية ونقلتها من رجال ونساء حول الرسول لفضيلة الشيخ هانى الحاج ص١١ ط/ التوفيقية.

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٧٤٣٩) والترمذى فى المناقب (٣٦٦١) وابن ماجه فى المقدمة (٤٩) وابن حبان فى صحيحه (٦٨٥٨) وذكره ابن الأثير فى أسد الغابة فى معرفة الصحابة جـ٣/ ٣٢ ط/ دار المعرفة.

(٣) ذكره ابن عساكر فى مختصر تاريخ دمشق ١٣/ ٤٩ وابن الأثير فى أسد الغابة جـ٣/ ٣٢، ٣٣

(٤) رواه الترمذى فى المناقب (٣٦٧٥) وأسد الغابة جـ٣/ ٣٣ وأبو نعيم فى الحلية جـ١/ ٣٢ وسنده حسن وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (١٦٧٨) جـ١/ ٤٦٦.

وعن عطاء بن يسار عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أصبح منكم اليوم صائمًا؟ قال أبو بكر: أنا. قال: من تصدق بصدقة؟ قال أبو بكر: أنا. قال: من شهد جنازة؟ قال: أنا. قال: من أطعم اليوم مسكينًا؟ قال أبو بكر: أنا. قال: من جمعهن فى يوم واحد غفر له»**(١)

ولقد أسلم أبو بكر الصديق ﷺ وله أربعون ألفًا، فأنفقها فى الله، وأعتق سبعة كلهم يعذب فى الله: أعتق بلالاً، وعامر بن فهيرة، وزنيرة، والنهدية، وابنتها، وجارية بنى مؤمل، وأم عبيس(٢)

*** عثمان بن عفان:**

| | |
|---|---|
| **ثالثهم عثمان ذو النورين** | **ذو الحلم والحيا بغير مين** |
| **بحر العلوم جامع القرآن** | **منه استحت ملائك الرحمن** |
| **بايع عنه سيد الأكوان** | **بكفه فى بيعة الرضوان**(٣) |

لقد كان ﷺ من المتصدقين الباذلين للمال فى سبيل الله.

قال أبو سليمان: كان عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف خازنين من خزان الله تعالى فى أرضه، ينفقان فى طاعته، وكانت معاملتهما لله بقلوبهما(٤)

ففى مسند الإمام أحمد أنه قال -أى عثمان- «.. أنشد بالله من شهد رسول الله ﷺ قال: من يوسع لنا بهذا البيت فى المسجد ببيت فى الجنة؟ فابتعته من مالى، فوسعت به المسجد؟ فانتشد له رجال، قال: وأنشد بالله من شهد رسول الله يوم جيش العسرة قال: «من ينفق اليوم نفقة متقبلة؟ فجهزت نصف الجيش من مالى؟ قال: فانتشد له رجال، وأنشد بالله من شهد رومة يباع ماؤها ابن السبيل، فابتعتها من مالى فأبحتها لابن السبيل؟ فانتشد له رجال»(٥)

وعن عبد الرحمن بن خباب، قال: «شهدت النبى ﷺ وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان فقال: يا رسول الله على مائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله، ثم حض النبى على الجيش، فقام عثمان، قال: يا رسول الله علىَّ مائتا بعير بأحلاسها، وأقتابها فى سبيل الله. ثم حض النبى على الجيش فقام عثمان، فقال: يا رسول الله علىَّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله. قال: فرأيت النبى ﷺ ينزل على المنبر وهو يقول: ما على عثمان ما فعل بعد هذا مرتين(٦)

---

(١) رواه مسلم (٦١٣٢).

(٢) أسد الغابة جـ٣/ ٣٣ وانظر تاريخ الخلفاء للسيوطى ص٣٩.

(٣) نونية القحطانى.

(٤) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلى ص٤٢٧.

(٥) رواه أحمد فى مسنده (٤٢) وصححه أحمد شاكر جـ١/ ٣٤٣ ورواه النسائى والترمذى وقال: حديث حسن غريب، وذكره ابن الأثير فى أسد الغابة جـ٣/ ٢٢

(٦) والحديث حسن بشواهده فقد رواه الترمذى (٣٧٠١) فى المناقب.

*** على بن أبى طالب ؓ:**

وهذا علم آخر من أعلام الخير والبر، والتصدق فى سبيل الله:

يقول ابن عباس ؓ: نزل قول الله تعالى: ﴿**الَّذين يُنفقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًا وَعَلانِيَةً**﴾ [البقرة: ٢٧٤] فى على بن أبى طالب كان عنده أربعة دراهم، فأنفق بالليل واحدًا، وبالنهار واحدًا، وفى السر واحدًا، وفى العلانية واحدًا(١)

*** عبد الله بن عمر ؓ:**

وهذا هو علم آخر من أعلام الجود والبر والعطاء، هذا علم من أعلام المتصدقين المنفقين فى سبيل الله، ذلك الرجل الذى كان ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر، ولا يحسب له حسابًا، وكانت تأتيه الأموال الطائلة فلا تتجاوز يديه، ومحال أن تصل إلى قلبه، فيصبح لها عبدًا، وكان يختار للإنفاق والتصدق فى سبيل الله الجيد من الأموال، وما تحبه نفسه، وكان يخص بعطائه المستحقين من الفقراء والمحتاجين.

**قال نافع:** كان ابن عمر إذا اشتد عجبه بشىء من ماله قربه لربه عز وجل، وكان رقيقه قد عرفوا ذلك منه، فربما شمر أحدهم فيلزم المسجد، فإذا رآه ابن عمر ؓ على تلك الحالة الحسنة أعتقه. فيقول له أصحابه: يا أبا عبد الرحمن، والله ما بهم إلا أن يخدعوك، فيقول ابن عمر: من خدعنا بالله عز وجل انخدعنا له.

ويقول نافع: فلقد رأيتنا ذات عشية وراح ابن عمر على نجيب (أى جمل عتيق) له قد أخذه بمال عظيم، فلما أعجبه سيره أناخه مكانه ثم نزل عنه، فقال: يا نافع، انزعوا زمامه ورحله، وجللوه (أى ضعوا فى رقبته الجرس) وأشعروه (أى علموه ليعرف أنه هدى) وأدخلوه فى البدن(٢)

وعن سعيد بن هلال، أن عبد الله بن عمر نزل الجحفة -وهو شاك-:

فقال: إنى لأشتهى حيتانًا، فالتمسوا له فلم يجدوا إلا حوتًا واحدًا، فأخذته امرأته صفية بنت أبى عبيد فصنعته ثم قربته إليه، فأتى مسكين حتى وقف عليه، فقال ابن عمر: خذه. فقال أهله: سبحان الله قد عنيتنا ومعنا زاد آخر نعطيه منه، فقال: إن عبد الله يحبه(٣)

وكان ؓ يتصدق بالسكر ويقول: سمعت الله يقول: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفقُوا ممَّا تُحبُّونَ**﴾ [آل عمران: ٩٢] والله يعلم أنى أحب السكر(٤)

---

(١) أسد الغابة جـ٣/ ٢٩١

(٢) حلية الأولياء لأبى نعيم جـ١/ ٢٩٥ وابن كثير فى البداية والنهاية ٩/ ٤ وابن الأثير فى أسد الغابة جـ٣/ ٤٤. (٣) حلية الأولياء جـ١/ ٢٩٧ (٤) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى ١/ ٢٢٧

وعن الحسن، أن ابن عمر كان إذا تغدى أو تعشى دعا من حوله من اليتامى، فتغدى ذات يوم، فأرسل إلى يتيم فلم يجده، وكانت له سويقة محلاة يشربها بعد غذائه، فجاء اليتيم وقد فرغوا من الغداء وبيده السويقة ليشربها، فناولها إياه وقال: خذها، فما أراك غُبنت[١]

*** زين العابدين على بن الحسين:**

وهذا علم آخر من أعلام البر والخير، وقد ورثه عن سيد الأنبياء والمرسلين. إنه من قال فيه الفرزدق:

**هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقى النقى الطاهر العلم**

**هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم**

**إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهى الكرم**

**إن عدّ أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم**

**هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا[٢]**

قال ابن المنهال الطائى كان على بن الحسين إذا ناول الصدقة السائل قبله ثم ناوله[٣]

وقال حمزة الثمالى: لقد كان يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل فيتصدق به، ويقول: إنَّ صدقة السر تطفئ غضب الرب عز وجل[٤].

وعن جرير أن شيبة بن نعامة قال: يُبَخَّل -أى يظنونه بخيلاً- فلما مات وجدوه يقوت مائة أهل بيت بالمدينة. وقيل: وجدوا لما مات بظهره آثارًا مما كان يحمل بالليل الجرب إلى المساكين.

وقال محمد بن إسحاق: كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم؛ فلما مات على بن الحسين، فقدوا ما كانوا يؤتون به فى الليل[٥]

*** الربيع بن خثيم:**

كان الربيع يقول لأهل بيته: إذا جاء سائل، أطعموه سكرًا، فإن الربيع يحب السكر[٦]

*** جعفر الصادق:**

وكان من دعاء جعفر الصادق: «اللهم أعزنى بطاعتك، ولا تخزنى بمعصيتك، اللهم ارزقنى مواساة من قترت عليه رزقه بما وسعت علىَّ من فضلك» وكان كثير الصدقة إلى الفقراء والمساكين[٧]

(١) حلية الأولياء ١/ ٢٩٩ (٢) حلية الأولياء ٣/ ١٣٩ (٣) حلية الأولياء ٣/ ١٣٧

(٤)، (٥) المرجع السابق جـ٣/ ١٣٥، ١٣٦ (٦) حلية الأولياء جـ٢/ ١١٥

(٧) المرجع السابق جـ٣/ ١٩٦

* **الليث بن سعد:**

كان الليث بن سعد رحمه الله من الفقهاء العاملين المتصدقين بسخاء وطيب نفس يقول يحيى بن حماد: جاءت امرأة إلى الليث بن سعد فقالت: إنَّ لى أخًا نعت له العسل- أى وصف له يتداوى به- فهب لى سكرجة[١] فقال: يا غلام املأ سكرجتها عسلاً وأعطها زقًّا[٢] من عسل، فقال: إنها سألت سكرجة، قال: سألت بقدرها، وأعطيناها بقدرنا، وحق لى ذلك[٣]

وقال عبد الله بن صالح: صحبت الليث عشرين سنة لا يتغدى ولا يتعشى وحده إلا مع الناس وكان لا يأكل اللحم إلا أن يمرض[٤]

وقيل: كان دخل الليث بن سعد فى كل سنة ثمانين ألف دينار ما أوجب الله عليه درهمًا بزكاة قط. وقيل: كان يستغل فى كل سنة خمسين ألف دينار فيحول عليه الحول وعليه دين[٥]

## • العنصر الثانى: وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزًّا •

## أخى المسلم الحبيب:

وبعد ما وقفت بك فى لمحات انشرح فيها صدرك مع العنصر الأول من عناصر هذه الوصية العظيمة وهو ترغيب أستاذ البشرية للأمة المحمدية بإخراج صدقة التطوع لمواساة المحتاجين، ومساندة البائسين، وعون المؤمنين من المساكين لما للصدقة من بركات عظيمة، وفوائد كثيرة، فهيا بنا لنذهب متجولين حول بستان الرسول الأعظم لنستنشق عبيرًا فواحًا، ونقطف منه ثمرات ينشرح بها الصدر، وتفرح بها القلوب، مع العنصر الثانى من عناصر هذه الوصية **«وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا»** ومضمونها: «أن المؤمن الحق هو من يسامح فى حقه إذا ظلم، ويعفو إن بُغى عليه، فيزداد بذلك رفعة وكرامة عند الله تعالى، وعند الناس، ويعظم قدره بالعفو فى الدنيا، ويسمو شأنه به فى الآخرة».

وقبل أن نطوف، ونجول مع هذه الوصية أود أن أبين لك العلاقة والمناسبة بين هذا العنصر، والعنصر الذى سبقه فأقول:

إن الرسول الأعظم ﷺ قد جعل العفو عند المسلم الذى أُصيب بأذى من مسلم آخر صدقة ففى صحيح البخارى: «أن رجلاً كسر سن رجل من الأنصار، فاستعدى عليه معاوية فقال القرشى: إن هذا دق سنى، قال معاوية: كلا إنا سنرضيه، قال: فلما ألح عليه الأنصارى قال معاوية: شأنك بصاحبك، وأبو الدرداء جالس، فقال أبو الدرداء: سمعت

(١) السكرجة: الصفحة التى يوضع فيها الأكل.

(٢) الزق هو: الإناء من الجلد الذى يتخذ للماء والشراب

(٣): (٥) حلية الأولياء جـ٧ /٣٢ ٣٢٢

رسول الله ﷺ يقول: «**ما من مسلم يصاب بشىء فى جسده، فيتصدق به إلا رفعه الله به درجة، وحط عنه بها خطيئة**» قال: فقال الأنصارى: أأنت سمعت هذا عن رسول الله ﷺ قال: نعم، سمعته أذناى، ووعاه قلبى، فعفا عنه[1]

وفى رواية: «**ما من رجل يجرح فى جسده جراحة، فيتصدق بها إلا كفر الله مثل ما تصدق**»[2]

فالعفو عن الأذى والإساءة من الصدقة لهذا جاء بعد الأمر بالصدقة قوله: «وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا».

## • فما هى فضيلة العفو؟ •

إن العفو ذو أثر فعال فى حياة الناس، بل وفى حضارة الإنسانية كلها، فى حاضرها ومستقبلها، فكم أحيا من نفوس، وكم أيقظ من همم، وكم هذب من سلوك؟! وليس هناك شىء مثل خلق العفو فهو أسرع بالإنسان من عفو ربه ومغفرته، حيث ينعم المؤمن التقى بعفو ربه ورحمته ورضوانه، فهو من أعلى وأفضل الأخلاق يقول القائل:

**مكارم الأخلاق فى ثلاثة ... من كملت فيه فذلك الغنى**
**إعطاء من تحرمه، ووصل من ... تقطعه، والعفو عمن اعتدى**

ولقد امتدح ربنا عز وجل المتقين لعفوهم عمن ظلمهم، ورفع شأنهم فى الدنيا والآخرة وزادهم بعفوهم عزًّا وفضلاً قال سبحانه: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤] بل لقد أمر به رب العالمين جل وعلا سيد الأنبياء والمرسلين، فقال: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق. وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. وقد ذكر: أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لجبريل: «**ما هذا؟**» قال: لا أدرى حتى أسأل، فسأل. ثم رجع إليه، فقال: **إن الله يأمرك** أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»[3]

وقال سبحانه: ﴿**وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النور: ٢٢] ومن صفات رب العالمين جل وعلا، «العفو» قال سبحانه: ﴿**ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ**﴾ [الحج: ٦٠]: ﴿**فَأُوْلَٰئِكَ**

---

(١) رواه البخارى (٥٦٤٠) ومسلم (٢٥٧٢) وأحمد (٢٧٤٠٥).

(٢) رواه أحمد فى مسنده ( ٢٢٦٠٠) بسند صحيح وذكره الألبانى فى صحيح الجامع (٥٥٨٨).

(٣) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية جـ٢/ ٣١٧

**عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ** ﴾ [النساء: ٩٩] وقد ذكرت مادة (ع ف و) بمشتقاتها في القرآن الكريم في حوالى خمسة وثلاثين موضعًا.

فالله هو العَفُوُّ، ومن مثله يعفو، ومن مثله يتفضل بالعفو؟ من للمريض سوى مولاه يشفيه؟ من للمذنب سوى مولاه يهديه؟ من للمضطر سوى مولاه ينجيه؟ ولسان حال الحق يقول: أنا الذى أغفر الذنوب، وأستر العيوب، وأغيث المكروب، وأنا علام الغيوب، ولذلك يعامل الله تعالى الأمة المحمدية يوم القيامة على ثلاث درجات:

١- أهل العفو. ٢- أهل المغفرة. ٣- أهل الرحمة.

فأهل العفو هم الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وإمامهم الصديق أبو بكر ﷺ وأما أهل المغفرة، هم الذين كانت لهم هفوات، وماتوا من غير توبة، يستلمون الكتاب بأيمانهم، ويفتحونه فإذا النور، فتبيض وجوههم، فيطالعون الكتاب، فيجدون بعض الهفوات فيظنون الهلاك، فيخاطبهم الحق جل وعلا فى سرهم: «**سترتها عليكم فى الدنيا وأنا اليوم أغفرها لكم**»[(١)] وأما أهل الرحمة، فلهم مناقشات، ثم تدركهم رحمة العفو الكريم.

إن فضيلة العفو تتجلى من رب العالمين فى الدنيا والآخرة، فلولا عفوه عنا فى الدنيا ما أبقانا على قيد هذه الحياة ونحن نعصيه، ونحن نخالف أمره، ونحن نأكل رزقه ونعبد غيره، ونحن نسكن أرضه ونوالى غيره: ﴿ **وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ** ﴾ [الكهف: ٥٨]: ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ [فاطر: ٤٥] وهو العفو فى الآخرة.

«جاء فى بعض الأخبار: أنه يؤتى يوم القيامة برجل، فيحاسبه الله فلا تبقى له حسنة فيقول الله عز وجل: **يا عبدى، هل تجد شيئًا من الأعمال الصالحة تقيك من عذابى؟** فيقول: لا، يا رب، لم تترك لى الشهوات، ولا أبقت لى اللذات شيئًا من الأعمال الصالحات غير أنى كنت أعفو عمن ظلمنى، فيقول الله: **صدقت يا عبدى، هكذا كنت تفعل، وأنا اليوم أحق بالعفو منك، وأحق بالجود على فقرك، اذهب فقد غفرت لك**»[(٢)]

## • سادات الأخلاق، وأئمة العفو •

**١- إمام المتقين، ورسول رب العالمين ﷺ:**

لو تتبعنا أخى الحبيب صفحات السيرة النبوية المشرقة، لوجدنا فى كل صفحة من صفحاتها صورة تتألق بالعفو والحب والرأفة من سيد المرسلين، وخاتم النبيين ﷺ، رغم ما لقى من آلام، فتارة يرجم بالحجارة حتى تدمى قدماه الشريفتان، وتارة يوضع على رأسه سلا الجزور، وتارة يُهدد بأن لا يصلى عند الكعبة حتى لا يطأ أبو جهل رأسه بقدمه، وتارة

(١) رواه البخارى.

(٢) المواعظ والمجالس لابن الجوزى ص١٨٣

ترمى الأشـواك فى طريقه، ويـقابل ذلك كلـه بالصفح والـعفو والغـفران، فـصلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله.

١- فعن زيد بن أرقم قال: «سحر النبى ﷺ رجل من اليهود قال: فاشتكى لذلك أيامًا قال: فجاءه جبريل عليه السلام، فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، عقد لك عقدًا فى بئر كذا وكذا، فأرسل إليها مـن يجىء بها، فبعث رسول الله عليًّا رضي الله عنه، فاستخرجها، فجاء بها، فحللهـا، قال: فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال، فـما ذكر لذلك اليهودى، ولا رآه فى وجهه قط حتى مات»[1] وكان يسمى: «لبيد بن الأعصم».

وعفا الرسول ﷺ عن ذلك اليهودى ولم يعاقبه عـلى سحره. وكان هذا شأنه دائمًا فى العفو والصفح عمن أساء إليه حتى هؤلاء الذين أرادوا أن يتخلصوا منه، وينهوا حياته.

٢- فعن أنس رضي الله عنه أن امرأة يهودية -زوجة سـلام بن مشكم- أتت رسول الله بشاة مسمومـة، فأكل منها، فلم يستـسغها، وأكل البراء - فمـات، فقال النبى: **إن هذا العظم ليخـبرنى أنه مسـموم**، ولما سألها عـن ذلك؟ قالت: أردت لأقتلك إن كنت ملكًا استـرحنا منك، وإن كنت نبيًّا فسوف نعلم، فقيل لرسول الله ﷺ: أنقتلها؟ قال: لا. قال أنس: فمازلت أعرفها فى لهوات رسول الله ﷺ[2]

٣- وعن عروة بن الزبـير، أنَّ عمير بن وهـب أُسر ولده وهب بن عميـر فى غزوة بدر، فجلس عـمير بن وهب مع صفوان بن أمـية، وكان على الكفر والشـرك، جلسا إلى جوار الكعـبة، فتذكرا يـوم بدر، فقال عميـر بن وهب لصفوان بن أمـية: والله لولا دين علىَّ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى، لـركبت إلى محمد لأقتله، فإن لى قِبَلَهُم علة، ابنى أسيـر فى أيديهم، فاغـتنمها صفـوان بن أمية، وقـال: علىَّ دينك أنا أقضـيه عنك، وعيالك مع عيالى، لا أمنع شيئًا عنهم.

فقال له عمير: فاكتم شأنى وشأنك، قال: فافعل.

فانطلـق عمير إلى المديـنة، وقد شحذ سـيفه وسـمَّه، فلما أناخ راحلتـه على باب المسجد رآه الفاروق الملهم عمر بن الخطاب متوشحًـا سيفه، فقال عمر: هذا عدو الله عمير ابن وهب، والله ما جـاء إلا لشر، ثم أخذ عـمر بحمالـة سيفه فى عـنقه، فلبَّبـه بها، ثم أدخله على رسول الله ﷺ، فقال النبى: **أرسله يا عـمر، ثم قال: ادن يا عمـير**، فدنا من رسول الله، ثم قال له رسول الله ﷺ: ما الذى جاء بك يـا عمير؟ فقال: ابـنى أسير فى

---

(١) رواه البخارى (٥٧٦٣) فتح ومسلم (٢١٨٩) وأحمد (١٩١٦٣).

(٢) رواه البخارى ومسلم وغيرهما بنحوه بروايات متعددة وأخرجه البخارى أيضًا فى الأدب المفرد (٢٤٤) ص٦١ ط/ مؤسسة الكتب الثقافية.

أيديكم جئتُ لتحسنوا فى فدائه، فقال النبى ﷺ **اصدقنى يا عمير، ما الذى جاء بك؟** قال: ما جئت إلا لهذا، فقال له النبى: فما بال السيف فى عنقك؟ فقال عمير: قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئًا يوم بدر؟!.

فقال ﷺ: **اصدقنى يا عمير ما الذى جاء بك؟** قال عمير: ما جئت إلا لذلك. فقال النبى ﷺ: **بل جلست أنت وصفوان بن أمية فى حجر الكعبة، فذكرتما أهل بدر من قريش، ثم قلت لصفوان: لولا دين علىَّ وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى، لركبت إلى محمد لأقتله، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك، على أن تقتلنى، والله حائل بينى وبين ذلك»**.

الله أكبر. الله أكبر. فقال: عمير أشهد أنك رسول الله، فوالله هذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إنى لأعلم أنه ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذى هدانى إلى الإسلام، ثم شهد شهادة الحق، فقال ﷺ **«فقهوا أخاكم فى دينه، وأقرؤوه القرآن وأطلقوا له أسيره»**(1)

هل فى لغة البشر ما نستطيع أن نعبر به عن هذه الأخلاق السامية؟!

٤- يقول زيد بن سعنة -وهو حبر كبير من أحبار اليهود- خرج رسول الله ﷺ يومًا من الحجرات مع على بن أبى طالب رضي الله عنه وإذا برجل من الأعراب يقبل على النبى ﷺ ويقول: يا رسول الله إنَّ قومى بنى فلان قد دخلوا فى الإسلام، ولكنهم دخلوا فى الإسلام طمعًا، فلقد أخبرتهم أنهم إن دخلوا فى الإسلام أتاهم رزقهم رغدًا، وقد نزلت بهم اليوم شدة وقحط، وأخشى أن يخرجوا من الإسلام طمعًا كما دخلوا فيه طمعًا، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشىء تغيثهم به فعلت يا رسول الله، فالتفت رسول الله إلى على بن أبى طالب وقال له: **«هل عندنا شىء من المال؟»** فقال علىٌّ: لا والله يا رسول الله لقد نفد المال كله.

يقول زيد بن سعنة: فدنوت من محمد، وقلت له: يا محمد هل تبيعنى تمرًا معلومًا فى حائط بنى فلان إلى أجل معلوم؟ فقال النبى ﷺ: **نعم، أبيعك تمرًا معلومًا إلى أجل معلوم لكن لا تسمِّ حائط بنى فلان»** فوافقت على ذلك، وأعطيت النبى ثمانين مثقالاً من الذهب، يقول زيد: فأخذها النبى ﷺ كلها، وأعطاها لهذا الأعرابى، وقال: **«اذهب إلى قومك، فأغثهم بهذا المال»** فانطلق الأعرابى بالمال كله، ولم يمض غير قليل من الوقت، ورسول الله ﷺ مع أبى بكر وعمر وعثمان، ونفر من أصحابه وبعد أن صلى على جنازة رجل من أصحابه، وأتى إلى جدار ليجلس إليه فى ظله، فاقترب منه زيد بن سعنة، ونظر إلى النبى ﷺ بوجه غليظ، وأخذ بقميص النبى ﷺ وردائه، وهزَّ الحبر اليهودى رسول الله

(1) رواه ابن إسحاق فى السيرة بسند صحيح مرسلاً، وقال الهيثمى فى المجمع: أخرجه الطبرانى عن أنس ورجاله رجال الصحيح من حديث عروة بن الزبير.

هزًّا عنيفًا وهـو يقول له: «أدِّ ما عليك من حق ومن دين يـا محمد! فوالله ما عـلمتكم يا بنـى عبد المطلب إلا مُطلاً فى أداء الحقوق، وسداد الديون».

فالتفت إلىَّ عـمر بن الخطاب، وعينه تدور، ثم قال: يا عـدو الله أتقول لرسول الله ما أسمـع وتفعل به ما أرى؟! والذى نفـسى بيده، لولا أنى أخشـى فوته وغضبـه لضربت رأسك بسيفى هذا؟

يقـول زيد بن سعـنة: وأنا أنظر إلى الـنبى ﷺ، وإذا بالنبى ينـظر إلىَّ فى سكون وهدوء، ثم التفت إلى عمر، وقال له: يا عمر لقد كنت أنا وهو فى حاجة إلى غير ذلك، يا عمر، كان عليك أن تأمرنى بحسن الأداء، وتأمره بحسن الطلب. .».

يا عمر خذه وأعطه حقه وزده عشرين صاعًا من تمر جزاء ما روعته!!.

لقـد بهت هذا الحبـر أمام هذه الأخـلاق السامـية،وذابت روحـه ونفسه أمـام هذه الأخلاق الوضيئة العالية.

يقول زيد: فأخذنى عمر بن الخطاب، وأعطانى حقى وزادنى عشرين صاعًا من تمر، فقلت: ما هذه الزيادة يا عمر؟!.

فقال: أمرنى رسول الله أن أزيدكها جزاء ما روعتك!!.

فالتـفت الحبـر اليهودى إلى عـمر وقال: ألا تعـرفنى؟ قال: لا، قـال: أنا زيد بن سعنة. قال عمر: حبر اليهود؟ قال: نعم.

فالتفت إليه عمر، وقال له: ما الذى حملك على ما فعلت؟ قال: والله يابن الخطاب ما من شىء من علامات النبوة إلا وقد عرفته فى وجه رسول الله حين نظرت إليه، ولكننى لم أختبر فيه خصلتين من خصال النبوة. فقال عمر: وما هما؟

قال: الأولى أن يسبـق حلمه غضبه، والثـانية: لا تزيده شدة الجهل علـيه إلا حلمًا وقد عرفتهما اليوم فى رسول الله، فأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ[(١)].

صلوات ربى وتسليماته عليك يا سيدى يا رسول الله، ما أعظم حلمك، وما أحسن عفوك وصدق من قال:

وإذا عـفـوت فـقـادرًا ومـقـدرًا ... لا يسـتـهـين بعـفـوك الجـهـلاء
وإذا غـضـبـت فـإنما هـى غـضـبـة ... لـلحـق لا ضـغـن ولا شـحـنـاء
وإذا سـخوت بلـغت بالجـود المدى ... وفـعـلـت مـا لم يـفـعـل الأنـواء
وإذا خـطـبـت فـلـلـمـنـابـر هـزة ... تـعـروا النَّـدى ولـلقـلـوب بكـاء
وإذا أخـذت العـهـد أو أعـطيـتـه ... فـجـمـيـع عـهـدك ذمـة ووفـاء[(٢)]

---

(١) رواه الطبرانـى عن عبد الله بن سلام بـسند رجاله ثقات، وذكـره القاضى عيـاض فى كتابه «الشـفاء بتعريف حقوق المصطفى» بنحوه جـ١/ ٦٣ ط/ الحلبى - الأخيرة.

(٢) همزية أحمد شوقى فى مدح الرسول ﷺ.

صلوات ربى وتسليماته عليك يا رسول الله.

**٢- عمر بن الخطاب ﷺ:**

وهذا علم آخر من أعلام الحق الذين تخرجوا فى الجامعة المحمدية وفى كلية العفو والصفح، ولنلتقط من حياته، وأخلاقه، وعفوه لقطة واحدة، فيروى أن رجلاً من جفاة الأعراب قال لعمر بن الخطاب ﷺ: والله ما تقضى بالعدل، ولا تعطى الجزل، فغضب عمر حتى عرف ذلك فى وجهه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين: ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وإن هذا لمن الجاهلين، فسكت عمر[1]» وكان عمر وقافًا عند كتاب الله تعالى

**٣- علىٌّ بن أبى طالب كرم الله وجهه:**

وذلكم سيد آخر من سادات الأخلاق، لقد دعا غلامًا فلم يجبه، فدعاه ثانيًا وثالثًا فلم يجبه، فقام إليه فرآه مضطجعًا، فقال: أما تسمع يا غلام؟ فقال: نعم، قال: فما حملك على ترك جوابى؟فقال: أمنت عقوبتك، فتكاسلت، فقال: امض فأنت حرٌّ لوجه الله تعالى[2]

**٤- أويس القرنى ﷺ:**

كان إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة، فيقول لهم: إن كان لابد، فارمونى بالصغار كيلا تقدوا ساقى فتمنعونى عن الصلاة»[3]

**٥- عمر بن عبد العزيز ﷺ:**

قال لرجل أغضبه: لولا أنك أغضبتنى لعاقبتك، أراد بذلك قوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾[4][آل عمران: ١٣٤].

ورأى سكران، فأراد أن يأخذه فيعزره، فشتمه السكران، فلما شتمه رجع عنه عمر، فقيل له: يا أمير المؤمنين لما شتمك تركته، قال: لأنه أغضبنى، فلو عزرته لكان ذلك لغضب نفسى، ولا أحب أن أضرب مسلمًا لحمية نفسى[5]

**٦- زين العابدين:**

قال عبد الرازق: سكبت جارية لعلى بن الحسين ماءً ليتوضأ، فسقط الإبريق من يدها على وجهه فشجه، فرفع رأسه إليها، فقالت الجارية: إن الله يقول: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾

---

(١) رواه البخارى عن ابن عباس (٧٢٨٦) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة وذكره ابن الجوزى فى سيرة ومناقب عمر ص١٣٥ المكتبة التوفيقية والقاسمى فى تهذيب موعظة المؤمنين جـ١/٥١.

(٢) الرسالة القشيرية ص٣٣٣ ط/ التوفيقية.

(٣) المرجع السابق ص٣٣٢.

(٤) تنبيه الغافلين١٥٤

(٥) المرجع السابق ص١٥٤

[آل عمران: ١٣٤] فقال: كظمت غيظى، قالت: ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، فقالت: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] فقال لها: أنت حرة لوجه الله تعالى(١)

ما هذا النبل؟! وما هذه الأخلاق؟! إنها أخلاق تحاكى أخلاق الأنبياء ولا عجب فهو من النسل الطاهر، هو من آل بيت رسول الله ﷺ وتلكم صورة أخرى من الصور الأخلاقية التى يجب على المسلم دائمًا أن يتحلى بها.

كان زين العابدين خارجًا من المسجد، فتبعه أحد الناس، يقول: فجعلت ألوح بالشتم ولست أدرى سببًا لذلك، فهجم علىَّ الناس يريدون أخذى -أى النيل منى- ولو أخذونى لم يفلتونى حتى أُحطم، فالتفت إلى الناس وقال: كُفوا عن الرجل، فكفوا عنى، ولما رأى ما أصابنى من الذعر، أقبل إلىَّ بوجهه الطلق، ويجعل يؤمننى، ويهدأ من روعى، ثم قال لى: لقد سببتنا بما علمت، وما ستر عنك من أمرنا كان أكبر، ثم قال لى: ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحييت منه، ولم أقل شيئًا. فلما رأى حيائى ألقى علىَّ كساءً كان عليه، وأمر لى بألف درهم. فجعلت أقول بعد ذلك كلما رأيته: أشهد أنك من أبناء الرسول ﷺ(٢)

الله أكبر. حقًا إنها أخلاق النبوة، ولله در الإمام الشافعى حين قال:

أعرض عن الجاهل السفيه ... فكل ما قال فهو فيه
ما ضر بحر الفرات يومًا ... إن خاض بعض الكلاب فيه(٣)

٧- الأحنف بن قيس:

شتم رجل الأحنف بن قيس، وكان يتبعه، فلما قرب من الحى وقف وقال: يا فتى إن بقى فى قلبك شىء فقله كيلا يسمعك بعض سفهاء الحى، فيجيبوك.

وصدق رسول رب العالمين حين قال: «**من كظم غيظًا وهو يقدر على أن يمضيه فلم يمضه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا**» وما أحسن قول القائل:

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه إلىّ الجرائم
فما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثل مقاوم
وأما الذى فوقى فأعرف قدره ... وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فأحلم دائبًا ... أصون به عرضى وإن لام لائم
وأما الذى مثلى فإن زل أو هفا ... تفضلت إن الفضل بالفخر حاكم

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٩/ ١٠٧ وذكر نحوه فى تنبيه الغافلين لكن عن ميمون بن مهران ص١٥٤

(٢) كتاب صور من حياة التابعين د/ رأفت الباشا ص١٤٥، ١٤٦ بتصرف.

(٣) ديوان الشافعى (١٩) ط/ دار المنار.

فكن أخا الإسلام من العافين عن الناس يعزك مولاك فى الدنيا، ويعزك فى الآخرة.
وصدق النبى المصطفى ﷺ: «**وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا**».

### • العنصر الثالث •

### • وما تواضع أحد لله إلا رفعه •

**أخى المسلم:**

وبعدما عشنا مع العفو وفضائله، وتصفحنا سيرة العافين عن الناس، فهيا بنا لنعيش مع المتواضعين كما بين رسولنا الكريم ﷺ فى العنصر الثالث لهذه الوصية: «**وما تواضع أحد لله إلا رفعه**».

### • فما هو التواضع؟ •

قال الحسن: التواضع أن تخرج من بيتك فلا تلقى مسلمًا إلا رأيت له عليك فضلاً[(١)]

وقال أبو زيد: ما دام العبد يظن أن فى الخلق من هو شر منه فهو متكبر[(٢)]

وقال القرطبى: التواضع الانكسار والتذلل وهو يقتضى متواضعًا له: هو الله تعالى، ومن أمر الله بالتواضع له كالرسول والإمام والحاكم والعالم والوالد، فهذا التواضع الواجب المحمود الذى يرفع الله به صاحبه فى الدارين، وأما التواضع لسائر الخلق، فالأصل فيه أنه محمود مندوب إليه ومرغب فيه إذا قصد به وجه الله تعالى[(٣)]

وقال الجنيد: هو خفض الجناح، ولين الجانب[(٤)]

وقال ابن عطاء الله السكندرى: هو قبول الحق ممن كان، والعز فى التواضع، فمن طلبه فى الكبر فهو كتطلب الماء فى النار[(٥)]

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله:

التواضع أن لا ترى لنفسك قيمة، فمن رأى لنفسه قيمة، فليس له فى التواضع نصيب[(٦)]

وقال ابن قيم الجوزية: التواضع أن يلقى سلطان الحق بالخضوع له، والذل والانقياد بحيث يكون الحق متصرفًا فيه تصرف الملاك فى مملوك، فبهذا يحصل للعبد خلق التواضع[(٧)]

وقال إبراهيم بن شيبان: الشرف فى التواضع، والعز فى التقوى، والحرية فى القناعة.

---

(١): (٣) دليل الفالحين جـ٣/ ٥٣.

(٤): (٧) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية جـ٢ ص٢٤٢

## • منزلة التواضع فى القرآن الكريم •

**أخى المسلم:**

إن الله تبارك وتعالى مدح عباد الرحمن فى قرآنه وذلك لأنهم اتصفوا بصفة التواضع قال سبحانه: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا**﴾ [الفرقان: ٦٣] أى سكينة ووقار، متواضعين، غير أشرين، ولا متكبرين.

قال الحسن: علماء حلماء.

وقال محمد بن الحنفية أصحاب وقار وعفة لا يسفهون. وإن سفه عليهم حلموا.

وقد أمر به مولانا تبارك وتعالى إمام المتواضعين وقائد الغر المحجلين فقال له ولكل من آمن به: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٥].

أى ألن لهم القول وارفق بهم.

**قال القرطبى فى تفسيره:**

أى ألن جانبك لمن آمن بك، وتواضع لهم. وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إلى نفسه بسط جناحه ثم قبضه على الفرخ، فجعل ذلك وصفًا لتقريب الإنسان أتباعه، ويقال: فلان خافض الجناح أى وقور ساكن، والجناحان من ابن آدم جانباه، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ**﴾ [طه: ٢٢] وجناح الطائر يده[١].

**وقال ابن كثير:**

هذه صفات عباد الله المؤمنين، فهم يمشون بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار، فهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعًا ورياء، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وكأنما الأرض تطوى له[٢]

## • التواضع فى رياض السنة •

هيا بنا لنطوف فى رياض السنة المطهرة، فنقتطف من أشجارها أزهارًا فنكون باقة عبقة تكون عبيرًا فواحًا يتعطر به أصحاب الأخلاق العالية، والهمم السامية، **وأول زهرة** يرويها لنا الإمام مسلم فى صحيحه:

١- عن عياض بن حمار ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله أوحى إلىَّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد**»[٣]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن. (٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

(٣) رواه مسلم وأبو داود وصححه الألبانى (٤٨٩٥) صحيح سنن أبى داود وابن ماجه (٤٢١٤).

**الزهرة الثانية:**

٢- عن أنس ﷺ قال: إن كانت الأمة -أى الجارية- من إماء المدينة لتأخذ بيد النبى ﷺ فتنطلق به حيث شاءت(١)

ففيه مزيد تواضعه ﷺ من وجوه:

الأول: أنها أمة وليست من وجوه الناس.

الثانى: أنها تأخذ بيده وذلك يدل على مزيد الانقياد.

الثالث: أنها تذهب به لحاجتها أى مكان كانت قريبة أو بعيدة(٢)

**الزهرة الثالثة:**

٣- عن الأسود بن يزيد بن قيس قال: سألت عائشة ﷺ ما كان النبى ﷺ يصنع فى أهله؟ قالت: كان فى مهنة، فإذا حضرت الصلاة، قام إلى الصلاة(٣)

وقد فسرت المهنة بما رواه القاضى عياض فى الشفاء:

«كان فى بيته فى مهنة أهله: يغلى ثوبه، ويحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويعلف ناضجه،(٤) ويقُم البيت،(٥) ويعقل البعير، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها، ويحمل بضاعته من السوق»(٦)

**الزهرة الرابعة:**

٤- عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لو دعيت إلى كراع أو ذراع لأجبت، ولو أهدى إلىَّ ذراع أو كُرَاعٌ لقبلت»**(٧)

والكُرَاع هو من الدابة ما بين الركبتين إلى الساق. والذراع معروف. قال الحافظ ابن حجر: خص الذراع والكراع بالذكر ليجمع بين الخطير والحقير، لأن الذراع كانت أحبَّ إليه من غيرها، والكراع لا قيمة له.

وقال ابن بطال: أشار إلى الحض على قبول الهدية وإن قلت لئلا يمتنع الباعث من الهدية لاحتقار الشىء، فحض على ذلك لما فيه من التآلف.

وفى ذلك كله تحريض على التواضع وحث على تعاطى ما يبعث على التآلف ويغرس الوداد(٨)

---

(١) رواه البخارى.
(٢) دليل الفالحين جـ٣/ ٥٥
(٣) رواه البخارى والترمذى وقال: حسن صحيح.
(٤) ناضجه: أى بعيره.
(٥) يقم: يكنس.
(٦) الإحياء جـ٣/ ٦ ٣ والشفاء.
(٧) رواه البخارى فى الهبة والنكاح، ورواه النسائى فى الوليمة.
(٨) دليل الفالحين جـ٣/ ٦٠

الزهرة الخامسة:

٥- عن أنس رضي الله عنه قال: كانت ناقة لرسول الله ﷺ تسمى العضباء، وكانت لا تسبق، فجاء أعرابي على قعود له فسبقها، فاشتد ذلك على المسلمين، وقالوا: سبقت العضباء، فقال رسول الله ﷺ **«إنَّ حقًا على الله أن لا يرتفع شيء إلا وضعه»**(١)

قال ابن بطال: فيه هوان الدنيا على الله، والتنبيه على ترك المباهاة والمفاخرة، وفيه الحث على التواضع، وطرح رداء الكبرياء، والإعلام بأن أمور الدنيا ناقصة غير كاملة وفيه ما كان عليه ﷺ لحسن خلقه من إذهاب ما يشق عليهم، وما كان قصد به من الدنيا التقرب إلى الله تعالى فليس منها، إنما هو فيها فلا يدخل تحت هذا الخبر، بل لا يزال مرفوعًا دنيا وأخرى، وفيه تواضعه ﷺ إذ سابق أعرابيًا(٢)

وحديث الوصية: **«وما تواضع أحد لله إلا رفعه»**.

**قال النووي:** رحمه الله

فيه وجهان: أحدهما يرفعه في الدنيا، ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة، ويرفعه الله عند الناس، ويجل مكانه.

والثاني: أن المراد ثوابه في الآخرة، ورفعه فيها بتواضعه في الدنيا(٣) اهـ. فتواضع أخي المسلم يرفعك مولاك، فلله در القائل:

**تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع**

**ولا تك كالدخان يعلو بنفسه ... إلى طبقات الجو وهو وضيع**

عليك بالتواضع فإنه يرفع المرء قدرًا، ويعظم له خطرًا، ويزيده نبلاً فطوبى للمتواضعين في الدنيا فهم أصحاب المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا، هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة، طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا، هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة.

## • عظماء الأخلاق والتواضع •

**١- نبي الرحمة محمد ﷺ:**

لقد كان سيد الخلق المثل الأعلى في تواضعه لأنه أعلى الناس قدرًا عند الله، وعند الناس، ولكنه لا يتعالى عليهم، بل كان يتنزل في غير امتهان، وكان هذا التواضع لا يزيده إلا جلالاً في عيونهم، ولا يزيده إلا محبة في قلوبهم، وكان تواضعه في جميع شئون حياته، في منزله مع أهله، في مسجده مع أصحابه، في مظهره العام والخاص.

---

(١) رواه البخاري في الرقاق: باب التواضع ورواه أبو داود في الجهاد.

(٢) دليل الفالحين جـ٣/ ٦٢

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/ ١٤٢

١- لقد كان مع أصحابه فى غزوة الخندق يحفر معهم، كما قال البراء بن عازب: **كان** رسول الله ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبر بطنه، وفى رواية: لقد وارى عنى التراب جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، وهو يقول مع أصحابه:

**والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا**
**فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا**
**إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا**[(١)]

٢- وكان ﷺ فى سفر، وأمر أصحابه بطهو شاة، فقال أحدهم: علىَّ ذبحها، وقال آخر: على سلخها، وقال ثالث: علىَّ طبخها، فقال رسول الله ﷺ: **وعلىَّ جمع الحطب.**

فقالوا: يا رسول الله، نكفيك العمل، فقال: **علمت أنكم تكفوننى، ولكن أكره أن أتميز عليكم، وإنَّ الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزًا بين أصحابه**[(٢)]

٣- وعن أبى أيوب الأنصارى قال: لما نزل رسول الله ﷺ فى بيتى نزل فى الطابق الأول، وأنا وأم أيوب فى الطابق الأعلى، فقلت: يا رسول الله إنه ليس ينبغى أن نكون فوقك وتكون تحتى، فاصعد أنت وكن فى العلو، وننزل نحن فنكون فى السفل، فقال: يا أبا أيوب إيه، أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت.

ثم انكسر حبٌّ لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا، ما لنا لحاف غيرها، ننشف بها الماء تخوفًا أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء[(٣)]

٤- قال لأصحابه ذات يوم «**لا تقوموا كما تقوم الأعاجم لملوكها**»[(٤)] وقاموا له ذات يوم فغضب وقال: «**من سره أن يتمثل الناس له قيامًا فليتبوء مقعده من النار**»[(٥)] فدخل عليهم فى يوم، فقاموا له، فغضب، وكان حسان بن ثابت شاعر الرسول مع الصحابة فأراد أن يخفف الغضب عنه فأنشد قائلاً:

**قيامى للعزيز علىَّ فرض وترك الفرض ما هو مستقيم**
**عجبت لمن له عقل وأدب يرى هذا الجمال ولا يقوم**[(٦)]

٥- وكان يركب ما أمكنه، مرة فرسًا، ومرة بعيرًا، ومرة بغلة، ومرة حمارًا، وأحيانًا يمشى راجلاً حافيًا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة.

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة ورواه البخارى ومسلم وأحمد (١٨٣٩٧) جـ١٤/ ١٨٧، ١٨٨

(٢) من كتاب (من أخلاق النبىَ) د/ أحمد محمد الحوفى ص٣٤٤ وقد عزاه إلى شرح الزرقانى ٤/ ٢٦٥

(٣) ذكره ابن الأثير فى أسد الغابة جـ٢/ ٨٦ وابن إسحاق فى السيرة ٢/ ١٤٤ وذكره البيهقى بنحوه فى دلائل النبوة ٢/ ٥١٠.

(٤) رواه الإمام أحمد بسند صحيح (٢٢٠٨١).

(٥) رواه أبو داود (٥٢٢٩) وصححه الألبانى ورواه الترمذى وحسنه وأحمد فى مسنده (١٦٧٧٤) بإسناد صححه حمزة الزين جـ١٣/ ١٧٤

(٦) الإحياء جـ٢/ ٣١٨

٦- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده عن يده حتى يكون الرجل هو الذى ينزع، ولا يصرف وجهه حتى يكون الرجل هو الذى يصرفه، ولم ير مقدمًا ركبتيه بين يدى جليس له»[١]

٧- وكان يجلس بين أصحابه مختلطًا بهم كأنه أحدهم، فيأتى الغريب فلا يدرى أيهم هو؟ حتى يسأل عنه، حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلسًا يعرفه الغريب. وكان لا يدعوه أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال: «لبيك»[٢].

**٢- صديق الأمة الأكبر رضي الله عنه:**

فعن أبى عمران الجونى قال: قال أبو بكر الصديق: **«لوددت أنى شعرة فى جنب، عبد مؤمن»**[٣] وقال: «يا ليتنى شجرة تعضد ثم تؤكل»[٤]

وقد ورد فى بعض الآثار **«لو وزن إيمان أبى بكر بالأمة لرجح إيمان أبى بكر»**.

وقد كان يحلب للضعفاء أغنامهم. وكان إذا مدحه أحد قال: **«اللهم لا تؤاخذنى بما يقولون، واغفر لى ما لا يعلمون، واجعلنى خيراً مما يظنون»**.

**٣- فاروق الأمة «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه:**

ولنتأمل تواضع الفاروق عمر الذى قال فيه رسول الأمة محمد ﷺ: **«والذى نفسى بيده، ما لقيك الشيطان قط سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فَجِّك»**[٥].

قال عروة بن الزبير رضي الله عنه رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه **على عاتقه قربة ماء، فقلت:** يا أمير المؤمنين، لا ينبغى لك هذا، فقال: «لما أتانى **الوفود سامعين مطيعين، دخلت نفسى نخوة، فأردت** أن أكسرها»[٦]

وعن جبير بن نفير: أنَّ نفرًا قالوا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه والله ما رأينا رجلاً **أقضى** بالقسط، وأقول بالحق، ولا أشد على المنافقين منك يا أمير المؤمنين، **فأنت خير الناس بعد** رسول الله ﷺ، فقال عوف بن مالك: كذبتم **والله لقد رأيت بعد رسول الله ﷺ، فقال:** من هو: قال أبو بكر. قال عمر: صدق عوف وكذبتم، **والله لقد كان أبو بكر أطيب من** ريح المسك، وأنا أضل من بعير أهلى، يعنى قبل أن يسلم، **لأن أبا بكر أسلم قبله بست** سنوات[٧]

(١) الزهد لابن المبارك (٣٩٢) جـ٣/ ٨٣.

(٢) تهذيب إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى - عبد السلام هارون ص٢٨٥

(٣)، (٤) صفة الصفوة لابن الجوزى جـ١/ ١٠٤ وقد عزاه لأحمد.

(٥) رواه البخارى ومسلم من حديث سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه.

(٦) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية جـ٢/ ٣٤٣ والرسالة القشيرية ص٢٢٠

(٧) سيرة ومناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ١٣ التوفيقية.

وعن طارق بن شهاب قال: لما قدم عمر رضوان الله عليه إلى القدس عرضت عليه مخاضة، فنزل عن بعيره، فقال له أبوعبيدة رضي الله عنه قد صنعت صنيعًا عظيمًا عند أهل الأرض، صنعت كذا وكذا، قال: فصك في صدره، وقال: أوه لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة، إنكم كنتم أذل الناس، وأخفر الناس، وأقل الناس، فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العزة بغير الله يذلكم الله[1]

**وعن الحسن رحمه الله قال:** «خرج عمر بن الخطاب في يوم حار، واضعًا رداءه على رأسه، فمر به غلام على حمار، فقال: يا غلام احملني معك. قال: فوثب الغلام عن الحمار، وقال: اركب يا أمير المؤمنين. فقال: لا اركب وأركب خلفك، تريد أن تحملني على المكان الخشن، وتركب أنت على المكان الوطيء، ولكن اركب أنت، وأكون أنا خلفك، فدخل المدينة وهو خلفه، والناس ينظرون»[2]

وعنه أيضًا قال: كان بين عمر بن الخطاب ورجل كلام في شيء، فقال له الرجل: اتق الله يا أمير المؤمنين، فقال له رجل من القوم: أتقول لأمير المؤمنين اتق الله، فقال له عمر: دعه، فليقلها لي، نِعْمَ ما قال! ثم قال: لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم[3]

**٤- عثمان بن عفان ذو النورين:**

ذلكم العابد التقي الورع، الأواب التواب، الحييُّ الكريم، إنه صاحب الهجرتين والمصلي إلى القبلتين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

لقد تخرج هو الآخر في الجامعة المحمدية، قسم الأخلاق الحميدة، والصفات النبيلة، فقد تعلم الزهد والتواضع والأخلاق من صاحب الأخلاق محمد ﷺ.

لقد سئل الحسن يومًا عن القائلين في المسجد -أي النائمين وقت القيلولة- فقال: «رأيت عثمان بن عفان يقيل في المسجد، وهو يومئذ خليفة، وأثر الحصى بجنبه، قال: فنقول له: هذا أمير المؤمنين، هذا أمير المؤمنين»[4]

وقد كان من تواضعه أيضًا: أنه كان لا يوقظ أحدًا من أهله من الليل، ليصب له الوضوء، إلا أن يجده يقظانًا، فيدعوه، فيناوله وضوءه[5]

وقد كان متواضعًا متقشفًا في طعامه.

---

(١) المرجع السابق ص١٣٢، والحلية ١/ ٤٧ (٢) المرجع السابق ص١٣٧، ١٣٨

(٣) المرجع السابق ص١٣٦

(٤) حلية الأولياء جـ١/ ٦٠ وصفة الصفوة جـ١/ ١٢٦، ١٢٧ وعزاه لأحمد.

(٥) صفة الصفوة جـ١/ ١٢٧

فعن شرحبيل بن مسلم أن عثمان كان يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت(١)

**٥- على بن أبى طالب كرم الله وجهه:**

قدوة المتقين، وإمام المتواضعين، وزينة العارفين، كان يواسى الضعفاء ويجالس الفقراء، ويساعد البؤساء، فكان يشترى طعامه بنفسه ويحمله، فإذا أراد أحد حمله عنه قال: أبو العيال أحق بحمله، وتأمل حين يحكى عن نفسه فيقول: جعت بالمدينة جوعًا شديدًا، فخرجت أطلب العمل فى عوالى المدينة (موضع قريب من المدينة) فإذا أنا بامرأة جمعت مدرًا (حصى) فظننتها تريد بله لتعمله طينًا، فأتيتها فعاطيتها كل دلو بتمرة، فمددت ستة عشر ذنوبًا «دلوا» حتى مجلت يدى، ثم أتيتها، فبسطت لها يدى فعدت لى ست عشرة تمرة، فأتيت النبى ﷺ فأخبرته، فأكل معى، وقال لى خيرًا، ودعا لى(٢).

فانظروا إلى أى حد تواضع سيدنا على حتى اشتغل للمرأة بالأجر، وكيف خدمها ولم يعتمد على أحد فى الحصول على التمر منها، لعلمه أن الإنسان ينبغى ألا يأكل إلا من عرق جبينه، وأن يجتهد فى العمل للحصول على نفقاته. ورضى الله عنه حين يقول:

**حقيق بالتواضع من يموت ... ويكفى المرء من دنياه قوت**
**فما للمرء يصبح ذا هموم ... وحرص ليس تدركه النعوت**
**فيا هذا سترحل عن قريب ... إلى قوم كلامهم السكوت**

وعن عمرو بن قيس أن عليًا رضي الله عنه رئى عليه إزار مرقوع، فعوتب فى لبوسه، فقال: يقتدى بى المؤمن، ويخشع له القلب(٣)

وعن أبى النوار قال: رأيت عليًا اشترى ثوبين غليظين خَيَّر قنبر -خادمه- أحدهما(٤)

**٦- خامس الخلفاء الراشدين «عمر بن عبد العزيز»:**

لقد ناداه رجل، فقال: يا خليفة الله فى أرضه، فقال له عمر: مه، إنى لمَّا وُلدتُ اختار لى أهلى اسمًا، فسمونى عمرًا، فلو ناديتنى أجبتك، فلما كبرت اخترت لنفسى الكنى، فكنيت بأبى حفص، فو ناديتنى أبا حفص أجبتك، فلما وليتمونى أموركم سميتمونى أمير المؤمنين، فلو ناديتنى يا أمير المؤمنين لأجبتك، وأما خليفة الله فى الأرض فلست كذلك، ولكن خلفاء الله فى الأرض، داود النبى عليه السلام وشبهه ثم تلا(٥): ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦].

(١) الحلية جـ١/ ٦ وصفة الصفوة جـ١/ ١٢٧
(٢) حلية الأولياء لأبى نعيم جـ١/ ٧١ وصفة الصفوة جـ١/ ١٣٥
(٣)، (٤) صفة الصفوة جـ١/ ١٣٤ والحلية جـ١/ ٨٣.
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه مالك بن أنس وأصحابه لأبى عبد الله بن عبد الحكم ص٤٦ مكتبة وهبة.

٧- المحدث العظيم «أبو هريرة»:

لقـد وُلى إمارة مـرة، فكان يحمـل حزمـة من الحطب على ظهـره ويقول: طَـرِّقوا للأمير[١]

٨- عبد الله بن عمر بن الخطاب:

إنه علم من أعلام المدرسة المحـمدية الخفاقة، بل علم من أعـلام حسن الخلق، فلقد كان متواضعًا يخاف على نفسه الخيلاء والفخر، ويكره المديح، ويذم المبالغة فيه، ولقد جاء رجلٌ يقول له: يابن خير الناس، فقال ابن عمر: «ما أنا بخير الناس، ولا ابن خير الناس، ولكنى عبدٌ من عباد الله أرجو الله تعالى وأخافه، والله لن تزالوا بالرجل حتى تهلكوه»[٢]

وتأمل تواضـعه رغم أنه الـعالم المحـدث، والفقـيه البارع يـقول لرجل جـاءه لكى يستفتيه: لا علم لى به وبعد أن ذهب الرجل تهلل وجهه وهو يقول لنفسه: سئل ابن عمر عما لا علم له به فقال: لا علم لى به[٣]

وهذا حرص واضح على التـواضع، ورأيناه وهو يأكل مع المساكين، ويتفـقد الأيتام ليشـاركوه طعامه، ويؤثـرهم به على نفسه، وكـان يسرع فى المشى ويقـول: هذا أبعد من الزهو، وأسرع فى الحاجة[٤]

٩- عبد الرحمن بن عوف:

عن سعد بن الحـسن التميمى، قـال: كان عبد الرحمن بن عـوف لا يعرف من بين عبيده، يعنى من التواضع فى الزِّىِّ[٥]

فتأمل حال هذا الـعلم من أعلام النبلاء وقد ملك الأموال الكثـيرة ومع ذلك فهو لا يعبأ بحال هذا التواضع، والسر فى ذلك أنه من الذيـن اهتموا بطهارة الباطن، ولم ينشغلوا بفاخر الثياب مع خراب القلوب، ولله در القائل

لـيـس الجـمـال بمئـزر ... فـاعـلـم وإن رُدِّيـتَ بُـرْدًا

إن الجـمـال مـعـادن ... ومـحـاسـن أورثـن مـجـدًا[٦]

١٠- سلمان الفارسى:

ذلكم التقى الـنقى الورع المتواضع كان أمـيرًا على المدائن على نحو ثـلاثين ألفًا من المسلمين، وكان يخطب الناس فى عباءة يفترش بعضها، ويلبس بعضها[٧]

---

(١) مدارج السالكين جـ٢/ ٣٤٣ والرسالة القشيرية ص ٢٢

(٢) حلية الأولياء جـ١/ ٣٠٧ وصفة الصفوة جـ١/ ٢٥٥ والإصابة لابن حجر ٢/ ٣٤

(٣) الطبقات لابن سعد جـ٤/ ١٤٤ (٤) الزهد والرقائق ص٢٨٨ والزهد لابن المبارك (٨٣٦).

(٥)، (٦) صلاح الأمة ٥/ ٤٣٦ وقد نقلت من كتاب (رجال ونساء حول الرسول) لأخى الأستاذ الشيخ هانى الحاج أكرمه الله ورزقه علمًا واسعًا ص٩٤ (٧) الحلية جـ١/ ١٩٨

وعن ثابت قال: كان سلمان أميرًا على المدائن، فجاء رجل من أهل الشام ومعه حمل تبن، وعلى سلمان رداءٌ وعباءة، فقال لسلمان: تعال احمل معى، هو لا يعرف سلمان، فحمل سلمان، فرآه الناس فعرفوه، فقالوا: هذا الأمير، فقال الرجل: لم أعرفك، فقال له سلمان: لا حتى أبلغ منزلك وفى رواية: إنى قد نويت فيه، فلا أضعه حتى أبلغ بيتك[1]

وعن أبى الأحوص، قال: افتخرت قريش عند سلمان، فقال سلمان: لكنى خلقت من نطفة قذرة، ثم أعود جيفة منتنة، ثم يؤتى بى الميزان، فإن ثقلت فأنا كريم، وإن خفت فأنا لئيم[2]

وتأمل: كان أبو طالب إذا سئل عن اسمه قال معجبًا: «عبد مناف» وإذا انتسب افتخر بالآباء والأجداد، وإذا ما ذكرت الأموال عدَّ الإبل، لكن سلمان الفارسى ﷺ إذا سئل عن اسمه قال: عبد الله. وعن نسبه قال: الإسلام، وعن ماله: قال: الفقر. وعن حانوته، قال: المسجد. وعن كسبه قال: الصبر، وعن لباسه، قال: التقوى والتواضع. وإذا سئل عن وساده، قال: السهر، وعن فخره، قال: سلمان منا آل البيت، وعن قصده، قال: يريدون وجه الله، وعن سيره، قال: إلى الجنة، وعن دليله فى الطريق قال: إمام الخلق وهادى الأئمة محمد ﷺ[3] ومن كلامه ﷺ:

عن جرير قال: قال سلمان. يا جرير تواضع لله عز وجل فإنه من تواضع لله عز وجل فى الدنيا رفعه الله يوم القيامة[4]

١١ - الحسن البصرى:

مرَّ الحسن البصرى يومًا على صبيان معهم كسر خبز. فاستضافوه. فنزل فأكل معهم، ثم حملهم على منزله، فأطعمهم وكساهم، وقال: اليد لهم، لأنهم لا يجدون شيئًا غير ما أطعمونى ونحن نجد أكثر منه[5]

## أخى المسلم:

لو أخذنا نتتبع أخبار تلك النخبة الطاهرة الزكية ما وسعنا فى ذلك الكثير، ولكن ما ذكرت يكفى المسلم الحق، والمؤمن القوى يتخذ هؤلاء المتواضعين قدوة حسنة له، ليعلو شأنه، ويرتفع قدره عند الله تعالى فى الدنيا والآخرة، فمن تواضع لله رفعه كما رأينا فى هذه الأعلام الشامخة.

---

(١) صفة الصفوة جـ١/ ٢٣٦

(٢) صفة الصفوة جـ١/ ٢٣٧

(٣) الفوائد لابن القيم الجوزية ص٤٩ ط/ مكتبة الحياة.

(٤) صفة الصفوة جـ١/ ٢٣٩

(٥) مدارج السالكين جـ٢/ ٣٤٣

فمن أراد الرفعة فليتواضع لله ولعباد الله، فإن الرفعة لا تقع إلا بقدر النزول، ألا ترى أن الماء لما نزل إلى أسفل الشجرة صعد إلى أعلاها، وكأن سائلاً سأله: ما صعد بك ها هنا، وأنت قد نزلت تحت أصلها، فقال لسان حاله: **«من تواضع لله رفعه»**(١)

وعن مجاهد قال: استأثر الله الجودى بالسفينة لأنه تواضع أكثر من غيره، وكذا حراء استأثره الله بتعبد نبيه محمد ﷺ لمزيد تواضعه عن غيره، واختص الله قلب نبينا محمد ﷺ بتميزه عن سائر الخلق لأنه فاقهم فى التواضع(٢)

وانظر إلى السحاب حين تواضع، لقد ارتفع فى الأجواء، وطاف على الرياض، فألقى لؤلؤًا من نداه، ثم مرَّ بالقمر المجدب فأنبته وأرواه، ولمَّا مرَّ على البحر الخضم ورأى عظمته تتجلى فى الأمواج المتلاطمة، والتيار الهائج قال فى نفسه: لابد أن أتواضع وأهبط من عليائى إلى هذا البحر، فكافأه الله على تواضعه، وأمر الأصداف أن تستقبل قطراته وأن تحولها إلى لؤلؤ مكنون ينتظم للحسان، أو جواهر للتيجان(٣)

**تواضع إذا ما نلت فى الناس رفعة ... فإن رفيع القوم من يتواضع**

ولهذا قال سيد الخلق، وحبيب الحق: **«ما من آدمى إلا فى رأسه حَكَمَةٌ بيد ملك، فإذا تواضع، قيل للملك: ارفع حكمته، وإذا تكبر قيل للملك: دع حكمته»**(٤)

والحكمة: بفتح الحاء المهملة، وسكون الكاف وفتح الميم وهى ما يجعل تحت حنك الدابة كاللجام ليمنعها من المخالفة.

فعن ابن مسعود ؓ قال: من تطاول تعظيمًا خفضه الله عز وجل، ومن تواضع لله تخشعًا رفعه الله(٥)

فإذا كان ابن مسعود ؓ بين لنا فى هذا الأثر عقوبة من تكبر، وأن الله يذله ويخفضه، وثمرة التواضع لأن الله يرفعه، فنحن نسأله: ما هو الكبر الذى يفعل بصاحبه هذا الذل، وهذا الهوان؟

وسوف يجيبنا سيدنا عبد الله بن مسعود على هذا السؤال بعد كلمات موعظة هذه الوصية العظيمة، حيث ينتقل بنا إلى وصية أخرى ليحذرنا من هذا الداء الوبيل، فهيا بنا نفتح الآذان، وننصت خاشعين إلى الموعظة لعلها تكون لنا عونًا على التزام الطريق القويم الذى يوصلنا إلى الله رب العالمين.

(١) الجزاء من جنس العمل د/ سيد العفانى جـ٢/ ١٢٢

(٢) الزواجر لابن حجر الهيثمى ص٩٨ ط/ دار الشعب. والمستطرف فى كل فن مستظرف للأشيهى ص١٤٦ التوفيقية. (٣) مناهل العرفان فى وصايا لقمان من آيات القرآن للمؤلف ص١٣١ التوفيقية.

(٤) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٥٥١).

(٥) الزهد للإمام أحمد جـ٢ ص١٠٥

**• موعظة •**

يابن آدم بادر إلى حسن العمل، بادر إليه وأنت فـى فسحة ومهل، وتب إلى مولاك من قبيح الخطايا والزلل، بـادر وأنت فى مقتبل العمر قبل أن يقـال: فلان عليل، فهل إلى دوائه من سبيل؟ أو على طبيب دليل، فتدعى لك الأطباء، ويجمع لك الدواء، ولا يزيدك ذلك إلا بلاء، وقـد اجتمـع عندك الإخوان والأحـباء، والأهل والأقـرباء، وكثر حـولك البكاء، ثم يقال: حشـرج ونفسه توشك أن تخرج وأنت تعاين الأمـر العظيم، وبعد اللذة والنعيم، وعـدلت ببصرك عن القريـب والحميم، وحلَّ بك القضـاء، وخرجت الروح من الأعضاء، ثم عرج بها إلى السماء.

فاستعذ من ذنوبك يـا مسكين، قبل عرق الجبين، وقبل مد الشـمال وقبض اليمين، ولا ينفعك ما جمعت من الأموال فى الشـهور والسنين، ثم أنت فى قبرك رهين، إلى يوم العرض على أسرع الحاسبين[(١)]

**أخى الحبيب:**

اقرع بهذا الكلام بـاب قلبك، فعساك تزيل عنه الأقفـال، وترده عن الغى والمحال، وتوقظه عن السـهو والإغفال، قـال الكبير المتـعال: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] تفهم ذلك قبل يوم يظهر فيه الخفى من أفعالك.

**أيها النائم الذى عينه الدهر نائمه    أيقظ العين إنها بالأمانى حالمه**
**لا تغرنك الحياة بدنيا مسالمه    إنها بعد سلمها ذات يوم مراغمة[(٢)]**

نسألك يا الله يا من أجاب نوحًا فى قومه، يا من نصر إبراهيم على عدوه، ويا من ردَّ يوسف على يعقوب، وكشف الضر عن أيوب، نسـألك يا حبيب التائبـين، ويا سرور العابدين، ويا قـرة أعين العارفين، أن تسـلمنا من عقابك، وأن تؤمِّنا مـن عذابك، اللهم اجعل الإيمان هادمًا للسيئات.

اللهم إنا عصيناك ونحن نحبك، وإن أطعنا إبليس فنحن نبـغضه، فاغفر لنا معصيتنا لك بحبنا فيك، وتجاوز عن طاعتنا له ببغضنا فيه.

إلهى: إن كانت رحمتك للمحسنين، فإلى أين تذهب آمال المذنبين، اللهم اعف عنا بكرمك وعاملنا بلطفك، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين يا رب العالمين.

---

(١) بستان الواعظين ورياض السامعين لابن الجوزى ص١٥٩ بتصرف.

(٢) ذم الدنيا لابن أبى الدنيا ص١٥٧

## • الوصية رقم (٩٥) •

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: يا رسول الله، إنَّ الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنة، قال: إنَّ الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس**»[(١)]

## • تأملات فى هذه الوصية •

قوله ﷺ: «**لا يدخل الجنة**» أى إن استحل الكبر مع علمه بتحريمه وقيل: لا يدخلها مع المتقين أول وهلة، وقيل: لا يدخلها دون مجازاة إن جازاه فيجازى عليه أولاً ثم يدخل الجنة، لأن كل الموحدين سيدخلون الجنة إما أولاً وإما ثانيًا بعد تعذيب أصحاب الكبائر الذين ماتوا مصرين عليها.

وقيل: لا يدخلها ذو كبر: أى لا يكون فى قلبه شىء منه حال دخولها قال تعالى: ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** ﴾ [الحجر: ٤٧].

وقد اختلف فى اسم الرجل الذى سأل رسول الله ﷺ فقال له: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنة. فقيل: هو مالك بن مرارة الرهاوى، وقيل: هو أبو ريحانة واسمه شمعون، وقيل: ربيعة بن عامر، وقيل: سواد بن عمرو، وقيل: معاذ بن جبل، وقيل: عبد الله بن عمرو بن العاص، وقيل: خريم بن فاتك[(٢)]

وقوله: «**مثقال ذرة**» أى زنة نملة صغيرة، أو جزء من أجزاء الهباء.

## • فما هو الكبر •

الكبر، والتكبر، والاستكبار كلها ألفاظ متقاربة تحمل معنى العظمة والتجبر والتعالى على الخلق، والاحتقار لشأنهم.

فالمتكبرون يرون أنهم أفضل الخلق، وأعظم ما فى الوجود، وقد وضح الحديث أن الكبر «**بطر الحق**» أى عدم الانقياد له، وبطر بفتح الباء والطاء والراء أى دفعه ورده وإنكاره. (**وغمط الناس**) أى احتقارهم، والتحقير والازدراء لهم.

**يقول ابن القيم فى كتابه «الروح»:**

وأما الكبر: فأثر من آثار العجب والبغى من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم ترحلت منه العبودية، ونزل عليه المقت، فنظره إلى الناس شزر، ومشيه بينهم تبختر، ومعاملته لهم معاملة الاستئثار لا الإيثار، ولا الإنصاف، ذاهب بنفسه تيهًا، لا يبدأ من لقيه بالسلام،

---

(١) رواه مسلم (٩١) وأحمد فى مسنده (٣٩٢٣) وأبو داود (٤٠٩١) وصححه الألبانى وابن ماجه (٩٥) والترمذى (١٩٩٩) والخرائطى فى مساوئ الأخلاق (٥٩١).

(٢) دليل الفالحين جـ٣/ ٦٧

وإن ردَّ عليه رأى أنه قد بالغ فى الإنعام عليه، لا ينطلق لهم وجهه، ولا يسعهم خلقه، ولا يرى لأحد عليه حقًّا، ويرى حقوقه على الناس، ولا يرى فضلهم عليه، ويرى فضله عليهم، لا يزداد من الله إلا بعدًا، ومن الناس إلا صغارًا، أو بغضًا(١)

تلكم هى حقيقة الكبر وصفات المتكبرين، وحتى تزداد علمًا بهذه الصفة الذميمة، لكى تحذرها وتجتنبها، فهيا بنا لنذهب إلى الدستور القويم، إلى رياض القرآن الكريم، لنتعرف على المتكبرين وعقوبتهمْ، فإلى هناكْ:

## • ما أعده الله للمتكبرين فى القرآن الكريم •

**١- غرور قارون:**

يقول سبحانه: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦، ٧٧].

**يقول القرطبى:**

لما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ [القصص: ٦٠] بين أن قارون أوتيها، واغتر بها، ولم تعصمه من عذاب الله، كما لم تعصم فرعون، ولستم أيها المشركون بأكثر عددًا ومالاً من قارون وفرعون، فلم ينفع فرعون جنوده وأمواله، ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه(٢)

إن قارون قد مَنَّ الله عليه بنعمة المال، والتى أصبحت بعد ذلك عليه نقمة عظيمة. حين خالف شرع الله تعالى، ولم يستعملها فيما أحل الله تبارك وتعالى، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦] أى تكبر، وتطاول. قال الضحاك: بغيه كفر بالله وقيل: بغيه استخفافه بهم -أى على من حوله- بكثرة ماله وولده- وقيل: بغيه أنه نسب ما آتاه الله من الأموال والكنوز إلى نفسه بعلمه وحيلته.

ولذلك لما طلبوا منه زكاة ماله، قال لهم: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨] فماذا كانت نهاية بغيه وتكبره على من حوله؟ أنفعه ماله؟ أنفعته كنوزه؟ أنفعه علمه؟ أنفعته حيله ودهاؤه؟.

كلا، والله لم ينفعه ماله، قال سبحانه: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ [الليل: ١١] ولم تنفعه كنوزه، ولا علمه، ولا دهاؤه، فكانت نهايته هى نهاية كل متكبر، هى نهاية كل متعال، نهاية كل باغ، نهاية كل متطاول، وجاحد: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ

---

(١) الروح لابن القيم الجوزية ص٣٧٦، ٣٧٧ مكتبة نصير.

(٢) الجامع لأحكام القرآن المجلد (٧/ ١٩٧) ط/ دار الغد.

مِن فئةٍ يَنصرونه مِن دُون اللَّه ومَا كَانَ مِن الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١] لقد نصحوه قبل ذلك وكرروا عليه النصح، وقالوا لـه: لا تغتر، ولا تبغ ولا تتكبر: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] لكنه ردَّ قـولهم، ولم يسمع لنصـحهم، ولم يذعن لموعـظتهم، فكانت عاقـبته الخسف والعـذاب إلى يوم البعث في الأرض، ثم بعـد ذلك يكون فى النار مخلدًا فيهـا، ولذلك قال الله بعدها: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا..﴾ [القصص: ٨٣] لمن؟ ألمن تكبر على الله، وعلى خلقه؟ لا، وإنما: ﴿لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

**٢- نهاية فرعون:**

وهذا علم آخـر من أعلام المتكبريـن المعاندين، فرعـون اللعين، لقد امـتن الله عليه بالملك العظيم، فكان له قصوره، وكان له أمـواله، وكان له عقاراته، ولكنه قابل ذلك كله بالنكران والجحود لله رب العالمين، فادعى لنفسه الربوبية والألوهية.

فقال مـتكبرًا: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] ولما رأى بعض النـفر من قومه، أو رأى هو رؤيا، وفسرها له كهنته بأنه سوف يولد مولود ذكر سوف يكون سببًا فى القضاء على ملكه، وسلطانه، ماذا فعل؟ وماذا كان شأنه؟

فقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

صار يذبح كل مولود يولد من الذكور، لكن حكمة الله وإرادته فوق كل إرادة، فحفظ الله موسى عليه السلام ونجاه من الذبح، وتربى فى قصر فرعون، ورباه هـو بنفسه لكى يكون سببًا فى نفاذ ووقوع ما قضاه الله عز وجل وأراده. وأرسل الله مـوسى إلى فرعون لينهاه عن غيه، ويردعه عن كبره، لـكنه تكبر، وقال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١] فماذا كان مصيره؟ هل نفعته قصوره؟ هل نفعه جاهه وسلطانه؟ كلا بل كان جـزاؤه من جنس ما تكبر به، لقد تكبـر بأن له قصورًا تجرى من تحتـها الأنهار، فصارت الأنهار تجرى من فوقه، فقال سبحانه: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٣] وقال: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] وقال سبحانه: ﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين﴾ [الزخرف: ٨٦] وتلك نهاية الظالمين المتكبرين.

**٣- إمام المتكبرين «إبليس اللعين»:**

وهذا هو زعيم المـتكبرين، وأشقى الأشـقياء، ذلكم المحروم الذى مـنَّ الله عليه بأن جعله -وهو مـن الجن- مصاحبًـا لملائكة الله الأطهار، فكان يتـعبد معـهم، ولما خلق الله تعالى آدم عليه السلام، وأمر سـبحـانه الملائكة الأطهـار بالسجـود لآدم وكان من بينهـم، وكان السجـود سجـود تحية، وكـان بأمر الخالـق الحكيم جل وعلا فـماذا كان شـأنه حينـئذ هو

والملائكة؟ قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

**يقول الألوسى فى روح المعانى(١):**

(فسجدوا): الفاء لإفادة مسارعتهم فى الامتثال، وعدم تثبيطهم فيه. (أبى واستكبر): الإباء هو الامتناع مع الأنفة والتمكن من الفعل، واستكبر أى تكبر وقدم الإباء على الاستكبار، وإن كان متأخرًا عنه فى الرتبة، لأنه من الأحوال الظاهرة بخلاف الاستكبار فإنه نفسانى، أو لأن المقصود الإخبار عنه بأنه خالف حاله حال الملائكة، فناسب أن يبدأ أولاً بتأكيد ما حكم به عليه فى الاستثناء، أو بإنشاء الأخيار عنه بالمخالفة، فبدأ بذلك على أبلغ وجه.

ولما امتنع عن السجود لآدم علل عن ذلك بقوله: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف ١٢] فماذا كان مصير تكبره؟.

لقد طرد من رحمة الله، وصار من المرجومين المبعدين، وأهبط من الملأ الأعلى، فنزل إلى الأرض ذليلاً حقيرًا مدحورًا قال تعالى: ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: ١٨]، ﴿ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الحجر ٣٤: ٣٥].

**٤- النمرود بن كنعان:**

وذلكم هو الآخر علم من أعلام الجبارين المتكبرين فى الأرض، لقد رزقه الله ملكًا عظيمًا فطغى وتكبر، وادعى الربوبية، قال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وصار طاغيًا متجبرًا أربعمائة عام، فأرسل الله إليه ملكًا أن آمن بى وأتركك على ملكك. قال: وهل رب غيرى؟ فجاءه الثانية: فقال له ذلك، فأبى عليه، فجاءه الثالثة، فأبى عليه، فقال له الملك: اجمع جموعك إلى ثلاثة أيام. فجمع الجبار جموعه، فأمر الله الملك، ففتح عليه بابًا من البعوض، فطلعت الشمس فلم يروها من كثرتها، فبعث الله عليهم، فأكلت من لحومهم، وشربت من دمائهم، فلم يبق إلا العظام، والملك كما هو لم يصبه من ذلك شيء، فبعث الله عليه بعوضة، فدخلت فى منخره، فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحمُ الناس به من جمع يديه وضرب بهما رأسه، وكان جبارًا أربعمائة سنة، فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه، ثم أماته الله(٢)

(١) روح المعانى للألوسى جـ١/ ٥٤٦ ٥٥

(٢) الجزاء من جنس العمل د/ سيد حسين العفانى جـ١/ ١٨٦، ١٨٧

تأمل: لما استكبر وادعى الربوبية عاقبه الله بأضعف شيء، بالبعوضة فى منخره الذى هو علامة العزة، فانظر كيف أذله الله، ونفس مدة ملكه عذبه الله(١)

ولو تتبعنا هلاك المتكبرين لطال بنا المقام، فهيا نذهب إلى رياض السنة لنقف أيضًا على جزاء هؤلاء فى سنة خير البشر سيدنا محمد ﷺ، فإلى هناك.

## • عاقبة المتكبرين فى سنة سيد المرسلين •

وتأمل أخى الحبيب عاقبة المتكبرين، إن الوصية التى بين أيدينا ابتدأت بقول الرسول الأعظم: **«لن يدخل الجنة..»** وكفى بذلك عقوبة.

وتأمل الجنة والنار وكل منهما تخاصم الأخرى كما روى سيد البشر ﷺ.

١- فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: قال النبى ﷺ: **«احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فىَّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فىَّ ضعفاء الناس ومساكينهم، فقضى الله بينهما، إنك الجنة رحمتى أرحم بك من أشاء، وإنك النار عذابى أعذب بك من أشاء ولكليكما علىَّ ملؤها»**(٢)

فقد بين الحديث أن مستقر العباد يوم القيامة على قسمين:

١- منهم من يسكن الجنة.

٢- ومنهم من يسكن النار، فالنار طلبت من الخالق الأعظم أن يكون فيها الجبارون المتكبرون، والجنة طلبت أن يسكنها المتواضعون لله ولخلقه فى الدنيا.

٢- وعن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتل جواظ مستكبر»**(٣)

وأنت ترى ما بين الحديثين من علاقة وارتباط، والعُتل هو الغليظ الجاف والجواظ هو المختال فى مشيه، والمستكبر هو من يطلب الكبر فهؤلاء الأصناف الثلاثة من سكان النار.

٣- وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«العز إزارى والكبرياء ردائى، فمن نازعنى فى واحد منهما فقد عذبته»**(٤)

٤- وعن جابر بن عبد الله الأنصارى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن من**

---

(١) الجزاء من جنس العمل د/ سيد حسين العفانى جـ١/ ١٨٦، ١٨٧

(٢) رواه مسلم (٢٨٤٦) وأحمد فى مسنده (٤ ٧٧) والبخارى ( ٤٨٥) فتح تفسير سورة ق وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٨٥).

(٣) رواه مسلم (٢٨٥٢) والبخارى (٤٩١٨) وأحمد (١٢٤١٥).

(٤) رواه مسلم ( ٢٦٢) وأحمد ( ٩٣٣) وأبو داود فى صحيح سننه للألبانى (٩٠ ٤)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع.

**أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن من أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى يوم القيامة، الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون.** قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون، والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: «**المتكبرون**»(١).

ففى حديث جابر ﷺ قد وضح النبى المصطفى نوعين من الناس وحالهما يوم القيامة فصنف يكون قريبًا من رسول الله، وحبيبا إليه ﷺ وهو صاحب الأخلاق الرفيعة العالية، وصنف آخر هم أبغض الناس إلى رسول الله وأبعدهم من مكانته يوم القيامة وهم أولئك الذين بينهم الرسول ﷺ وهم أصناف أربعة:

١- الثرثارون وهم: كثيرو الكلام بالتكلف.

٢- المتشدقون وهم: المتطاولون على الناس بكلامهم تفاصحًا وتعاظمًا.

٣- المتفيهقون وهم: الذين يملأون أفواههم بالكلام ويتوسعون فيه تكبرًا.

٤- المتكبرون وهم: الذين نحن بصدد الحديث عنهم.

٥- وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر**»(٢)

فقد وضح الحديث أن أصنافًا ثلاثة لا ينظر الله إليهم نظر رحمة ورضى، ولا يكلمهم تكليم أهل الخير بإظهار الرضا، بل كلام أهل السخط، أو لا يرسل إليهم التحية مع الملائكة ولا يزكيهم بقبول أعمالهم وهم: شيخ كبير طاعن فى السن وهو يزنى، وملك كذاب وفقير يتكبر.

قال القاضى عياض: وسبب تخصيص هؤلاء بهذا الوعيد أن كَلا منهم التزم المعصية المذكورة مع بعدها منه، وعدم ضرورته إليها، وضعف دواعيها عنده، وإن كان لا يعذر أحد بذنب ما لم يكن إلى هذه المعاصى ضرورة مزعجة، ولا دواعى معتادة أشبه إقدامهم عليها بالمعاندة والاستخفاف بحق الله تعالى، وقصد معصيته لا لحاجة غيرها، فإن الشيخ لكمال عقله، وتمام معرفته بطول ما مر عليه من الزمان، وضعف أسباب الجماع والشهوة للنساء، واختلاف دواعيه لذلك، وعنده ما يريحه من دواعى الحلال فى هذا، وتخلى سرّه منه فكيف بالزنى الحرام، وإنما دواعى ذلك: الشباب والحرارة الغريزية، وقلة المعرفة، وغلبة الشهوة لضعف العقل وصغر السن.

---

(١) البخارى (٤٩١٨) ومسلم (٢٨٥٣) وأحمد (١٧٦٦١) والترمذى وحسنه (٢٧٣٢) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٣٥)

(٢) رواه أحمد (٩٥٦٠) بإسناد صححه حمزة الزين ومسلم بنحوه (١٠٦) والنسائى (٢٥٧٥) والخرائطى فى المساوئ (١٣٤) ص٦٤

وكذلك الإمام لا يخشى من أحد من رعيته، ولا يحتاج إلى مداهنة ومصانعة، فإن الإنسان إنما يداهن ويصانع بالكذب من يحذره، ويخشى أذاه، أو معاتبته، ويطلب بذلك منزلة، أو منفعة فهو غنى عن الكذب مطلقًا.

وكذلك الفقير العائل قد عدم المال، وإنما سبب الفخر والخيلاء والكبر، الارتفاع عن القرناء بالثروة فى الدنيا لكونه ظاهرًا فيها، وحاجات أهلها إليه، فإذا لم يكن عنده أسبابها فلماذا يستكبر ويستحقر غيره؟ فلم يبق فعله وفعل الشيخ الزانى والإمام الكاذب إلا لضرب من الاستخفاف بحق الله تعالى(١) انتهى.

٦- وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الناس، يعلوهم كل شىء من الصغار حتى يدخلوا سجنًا فى جهنم يقال له: بولس فتعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخبال، عصارة أهل النار**»(٢)

أما ترى معى أخى المسلم أن جزاءهم من جنس أعمالهم؟ إنها عاقبة أليمة وخيمة.

٧- وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجل يمشى فى حلة تعجبه نفسه، مرجل رأسه، يختال فى مشيته إذ خسف الله به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة**»(٣)

ومعنى يختال: أى يزهو ويتكبر. ويتجلجل: أى يغوص وينزل.

تأمل نهاية ذلك الذى اختال بجسده، وتكبر بمشيته، إنه يعذب فى البرزخ، بجنس عمله، فهو يتجلجل ويغوص فى الأرض حتى قيام الساعة.

يقول ابن حجر: ومقتضى هذا الحديث أنَّ الأرض لا تأكل جسد هذا الكافر، فيمكن أن يلغز به، فيقال: «كافر لا يبلى جسده بعد الموت».

٨- وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال: كل بيمينك، فقال: لا أستطيع، فقال: **لا استطعت**، ما منعه إلا الكبر، قال: **فما رفعها إلى فيه**»(٤)

---

(١) دليل الفالحين جـ٣/ ٧٣، ٧٤.

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٦٦٧٧) وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر وقال: نقله ابن كثير فى التفسير ٧/ ٣١ وذكره ابن رجب فى كتاب التخويف من النار ص ٧ وقال: خرجه أحمد والنسائى والترمذى، وقال: حسن، كما ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب ٤/ ١٨، ١٩ وحسنه.

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٩٠٤٢) بسند حسن ورواه البخارى (٥٧٨٩) فتح ومسلم (٨٨ ٢).

(٤) رواه أحمد فى المسند (١٦٤٤٥) ومسلم (٢١ ٢) والدارمى (٢٠٣٢) وقيل إن الذى يبست يده هو بسر ابن راعى العير الأشجعى.

لقد رآه النبى الأكرم ﷺ مخالفًا للأدب المندوب فى الطعام، فأرشده، ونصحه وقال له: كل بيمينك، فاعتذر الرجل بما ليس فيه، لأن نفسه أخذته فلم تنقد نفسه للحق، فما رفع يده إلى الطعام بعدها، واختلف فى الرجل، فقيل: من المنافقين، وقيل: من المسلمين.

**أخى المسلم الحبيب:**

كما رأيت فى تلك الأحاديث النبوية أن الجزاء من جنس العمل: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ [ق: ٣٧]: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ**﴾ [النازعات: ٢٦]. يقول ابن القيم رحمه الله:

**وسل العياذ من التكبر والهوى — فهما لكل الشر جامعتان**
**وهما يصدان الفتى عن كل طر — ق الخير إذ فى قلبه يلجان**
**فتراه يمنعه هواه تارة — والكبر أخرى ثم يجتمعان**
**والله ما فى النار إلا تابعُ — هذين فاسأل ساكنى النيران**

## • درجات المتكبرين •

**١ - المتكبر على الله:**

وهذا شر أنواع الكبر لأن الإنسان الضعيف المخلوق من ماء مهين، الذى يصرعه أضعف الحيوانات إذا سلطه الله عليه، لا يليق به، ولا يحل له أن يتكبر على من خلقه، وأوجده، ومنه يستمد بقاءه، ويحتاج إليه فى كل لحظة، وفى كل حركة وسكون.

ومن جهل قدر ربه فهو من بهيمة الأنعام بل هو أضل، وكيف يجهل الإنسان قدر إلهه القادر الذى أبدع العالم على أحسن إحكام وأدق تكوين.

وهذا النوع من الكبر منتشر بين الأمراء والرؤساء كالنمروذ، وفرعون، وقد عرفت مآلهم.

**٢ - التكبر على رسل الله:**

والمتكبر على الرسل فهو كالمتكبر على الله فى نتيجته، فإن جزاءه، الخلود فى نار جهنم، لأنهم إنما جاءوا بتوحيد الله وتنزيهه عن كل ما لا يليق به سبحانه، وهداية الناس إلى سبل السعادة، فمن استكبر عليهم، ولم يؤمن بهم فقد كفر بربه وخسر خسرانًا مبينًا.

ولقد قال المستكبرون من قريش: ﴿**لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾ [الزخرف: ٣١] يقصدون الوليد بن المغيرة، وأبا مسعود الثقفى من أهل الطائف. لقد دفعهم كبرهم إلى أن يطلبوا من هو عندهم، وفى نظرهم وزعمهم أنه أفضل وأعظم من محمد ﷺ، حيث إنه غلام يتيم، وإن كان هو من أطهر أصلابهم، وأشرف أنسابهم، فرد الله عليهم بقوله: ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ**﴾ [الزخرف: ٣٢].

وبعضهم تكبر وتجبر واعترض على الرسل بحجة أنهم بشر، وهو فرعون اللعين حين قال: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧] وقال المشركون مخاطبين الرسل: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

**٣- المتكبرون على الخلق:**

وهم من أراذل الناس وشرهم، فهؤلاء يستعظمون أنفسهم، ويستحقرون غيرهم وتأبى نفوسهم إلا أن يترفعوا عن الخلق، ولقد حقَّر سيد الخلق محمد ﷺ هذا الصنف فقال: «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»(١)

والمتكبرون على الخلق أنواع فما هى تلك الأنواع؟

## • أنواع المتكبرين •

**١- منهم المتكبر بماله:**

وهذا النوع يجرى بين الملوك فى خزائنهم، وبين التجار فى بضائعهم، وبين الدَّهَّاقين فى أراضيهم، وبين المتجملين فى لباسهم وخيولهم ومراكبهم، فيستحقر الغنى الفقير، ويتكبر عليه، ويقول له: أنت مُكد ومسكين، وأنا لو أردت لاشتريت مثلك، واستخدمت من هو فوقك. ومن أنت وما معك؟ وأنا ما أنفقه فى يوم تنفقه أنت فى سنة؟!(٢)

ونسى هذا المغفل أن هذا المال عارية، ربما سلبه الله إياه فى أقل من لمح البصر، مثل ما حكى القرآن عنه -صاحب الجنتين- ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣٤، ٣٥] ظالم لنفسه بتكبره وطغيانه، ونسيانه أن ذلك من عند الله، فماذا حدث له؟

لقد أرسل عليها مولانا سبحانه حسبانًا من السماء، قيل عذابًا من السماء، وقيل: المطر المزعج الباهر الذى يقتلع زروعها وأشجارها، فأصبحت ترابًا أملس لا نبات فيه. ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢]، ومثل قارون قد علمت ما حدث له.

وما علم ذلك المسكين المتكبر بماله أنه سوف يموت ويتركه كله، وسوف يحاسب عليه كله.

| | |
|---|---|
| المال يذهب حِلُّهُ وحَرَامُهُ | طُرًّا وتَبْقَى فى غَد آثامه |
| ليس التقى بمُتق لإلاهه | حتى يطيب شرابه وطَعامه |
| ويطيب ما يحوى ويكسَب كفه | ويكون فى حسن الحديث كلامه |
| نطق النبى لنا به عن ربه | فعلى النبى صلاته وسلامه |

(١) رواه مسلم.

(٢) تهذيب إحياء علوم الدين ص ٣٩٠.

نسى هذا المسكين أنه لو أصابته آفة، أو علة، أو مرض كأمراض العصر الحاضر مثل الفشل الكلوى، أو الشريان التاجى أو غير ذلك لما فداه، ولما أجزأه هذا المال، وربما أنفقه وضيعه على علاجه ولم يبرأ.

فهذا هو هارون الرشيد دخل عليه ابن السماك، وصادف ذلك أنه كان يرفع كوبًا من الماء ليشربه، فقال له: اسمح لى أن تؤجل هذه الشربة قليلاً حتى أسألك، قال: سل. قال: إذا منعت منك هذه الشربة فبكم تشتريها؟ قال: بنصف ملكى. قال: فاشرب هنيئًا، فلما شرب، قال له: فإذا مُنعت فيك يا سيدى فكم تدفع لإخراجها؟ قال: ملكى كله. قال: ملك لا يساوى شربة ماء. يا سبحان الله.

**٢- ومن الناس من يتكبر بجماله:**

وذلك الإنسان المتكبر غافل هو الآخر، أما عَلِمَ أن الطاووس أجمل منه؟! أما علم ذلك الغافل أن هذا الجمال معرض للأمراض، أما علم أن الرجيع فى أمعائه، والبول فى مثانته، والمخاط فى أنفه، الوسخ فى أذنيه، والدم فى عروقه، والصديد تحت بشرته، والصنان تحت إبطه، يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفعتين.

أما علم هذا المسكين أنه خرج من مجرى البول مرتين: مرة ماء مهينًا، ومرة طفلاً ضعيفًا؟ أما علم أن أوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو مع ذلك يحمل العذرة؟ أما علم أن هذا الجمال سيبلى ويصير جيفة، فتتفتت أعضاؤه، وتنخر عظامه؟ ويأكل الدود أجزاءه.

| | |
|---|---|
| **يا مظهر الكبر عجبًا بصورته** | **انظر خلالك فإن النتن تثريب** |
| **لو فكر الناس فيما فى بطونهم** | **ما استشعر الكبر شبان ولا شيب** |
| **هل فى ابن آدم مثل الرأس مكرمة** | **وهو بخمس من الأقذار مضروب** |
| **أنف يسيل وأذن ريحها سهك** | **والعين مرمصة والثغر ملعوب** |
| **يابن التراب ومأكول التراب غداً** | **أقصر فإنك مأكول ومشروب[١]** |

**٣- ومن الناس من يتكبر بقوته وصحته:**

وهذا رجل غافل، لأن القوة ليست هى مقياس الشرف بين الناس، وهل قوة هذا الرجل تكافئ قوة حمل أو بغل؟! ولو كانت القوة هى المقياس، لاستحق الحمار أن يكون مديرًا، والبغل أن يكون وزيرًا، والفيل أن يكون رئيسًا. ولكن المدار على العقل فبه يصل الإنسان إلى معرفة ربه وخالقه، وبه يسير الإنسان فى الناس سيرًا حسنًا، وهو الذى يجنب صاحبه المضار والمهالك[٢] أما علم أنه تؤذيه بقة، وتنتنه عرقة، وتميته شرقة؟

---

(١) أدب الدنيا والدين لأبى الحسن الماوردى ص٢٨٧ ط/ دار الريان وعيون الأخبار لابن قتيبة.

(٢) فتح المنان فى صفات عباد الرحمن لشيخى الفاضل/ وحيد عبد السلام بالى ص١٨

**٤- ومن الناس من يتكبر بالحسب والنسب:**

فصاحب النسب الشريف يستحقر من ليس له ذلك النسب، وإن كان أرفع منه عملاً وعلمًا.

ولذلك روى أن رسول الله ﷺ قال: «**انتسب رجلان على عهد سيدنا موسى** عليه السلام **فقال أحدهما: أنا فلان ابن فلان حتى عدَّ تسعة، فمن أنت لا أم لك؟ فقال أنا فلان ابن الإسلام، فأوحى الله إلى موسى، أن قل لهذين المنتسبين: أما أنت أيها المنتسب إلى تسعة فهم فى النار وأنت عاشرهم**»(١)

إن النسب الشريف هو الذى يترتب عليه آثار صالحة تدل على رفعته وكرامته، أما من يتكبر ويظلم، ويؤذى عباد الله ويحتقرهم، فإنه لا يكون من عنصر طيب، ولا من أصل كريم غالبًا.

أما علم هذا الغافل الجاهل أن الإسلام أزال الفوارق والطبقات ولم يفرق بين بلال الحبشى ولا بين صهيب الرومى، ولا بين حمزة القرشى وبين أبى ذر الغفارى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣].

ولله در القائل:

**الناس من جهة التصوير أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء**

**نفس كنفس وأرواح مشاكلة ... وأعظم خلقت فيهم وأعضاء**

**فإن لم يكن لهم من أصلهم حسب ... يفاخرون به فالطين والماء**

**٥- ومن الناس من يتكبر بعلمه:**

وهذا من أخطر الأنواع لأن الناس يقتدون بأفعاله، ويقلدون سلوكه لأنه قدوة لهم. فإن كان كذلك كان مثالاً سيئًا، وقدوة رديئة، وخاصة إذا دفعه الكبر إلى صفة ذميمة كالحقد والبغضاء، أو أدى إلى ارتكاب مظلمة من المظالم بيده أو لسانه، فإن ضرر هذا لا يقدر، لأن الناس يقتدون بالعلماء فى أقوالهم وأفعالهم.

وأيضًا فإن العالم المتكبر ينصرف الناس عنه، وينفضون من حوله، فلا ينتفع بعلمه إلا من يوافقه على هواه، ومثل هذا لا فائدة من تعليمه، لأنه ناقص النفس ضعيف الإرادة، ومن كان هذا شأنه فإن علمه وبال عليه.

---

(١) رواه النسائى والبيهقى فى شعب الإيمان وصححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم (٤ ١٥).

أما العلم النافع فهو الذى يربى الأنفس، ويطهرها من الصفات الرديئة، ويورث صاحبه التواضع والخشية، فيكون صاحبًا مثلاً أعلى، ومثالاً حسنًا فى الناس، وقدوة حسنة فى الأقوال والأفعال. فيا ويله، ويا حسرته يأمر الناس بالتواضع وهو متكبر؟ يأمر الناس بالخير ولا يفعله! يأمر الناس بخلق الخلق وهو عديمها!.

وقد قيل:

**يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم**
**تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى ... كيما يصح به وأنت سقيم**
**ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهيت عنه فأنت حكيم**
**فهناك يسمع ما تقول ويشفى ... بالقول منك ويقبل التعليم**
**لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم(١)**

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى فى النار، فتندلق أقتابه، فيدور كما يدور الحمار فى الرحى، فيجتمع عليه أهل النار، فيقولون: يا فلان! ما شأنك؟ ألست كنت تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»(٢)

**٦- وقد يتكبر الإنسان بجاهه وسلطانه:**

ألا فليعلم هذا الجاهل الغافل أن المناصب زائلة ذاهبة، فالسلطان لله، والعظمة لا تكون إلا لله، يقول الأصمعى:

لقد رأيت رجلاً يطوف حول الكعبة وكان بين يديه خدام وعبيد يبعدون الناس عن طريقه، ويسوقونهم بين يديه، فنظرت إلى الرجل، فإذا هو متكبر يكاد يخرج من جلده تكبرًا، فتعجبت من ذلك كثيرًا، وبعد أعوام قليلة، رأيت هذا الرجل بعينه يجلس فى مزبلة حقيرة فوق جسر بغداد، فدنوت منه وقلت له: يا سيدى ألست صاحب الجنود والحراس حول الكعبة بالأمس؟ قال: نعم يا سيدى، فقلت له: وما الذى سيرك إلى ما أرى، قال: يا سيدى، تكبرت حيث يتواضع الناس، فوضعنى الله حيث يرتفع الناس، فوليت وأنا أقول: «فاعتبروا يا أولى الأبصار».

**٧- ومنهم من يتكبر بعمله وعبادته:**

وهذا هو الآخر جاهل غافل، إن عملك مهما عملت هل تستطيع أن تؤدى به شكر الله عليك؟ وهل عبادتك مهما بلغت أتكافئ بها نعم الله التى مَنَّ بها عليك؟.

---

(١) من شعر أبى الأسود الدؤلى.

(٢) رواه البخارى وأحمد (٢١٦٨١)

كلا، ولا بنعمة واحدة، لو وضعت عبادتك وأعمالك الصالحة جميعها فى كفة ونعمة واحدة من نعم ربك عليك فى الكفة الأخرى لرجحت كفة النعمة.

واعلم أيها الغافل المتكبر أنه سبحانه هو الذى وفقك لفعل الطاعات، وعمل الصالحات ومع ذلك لا تغنى عنك من الله شيئًا يقول النبى ﷺ: **«لن يدخل أحدكم الجنة بعمله**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: **ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته»**[(١)]

ولقد كان الصالحون يعمرون أوقاتهم بالذكر والصلاة والقيام وسائر العبادات ومع ذلك لا يرون لأنفسهم عملاً، ويرجون أن يتقبل الله أعمالهم، فهذا رجل من السلف الصالح رضوان الله عليهم يسمى «بشر بن منصور» فقد كان يصلى فى يوم من الأيام وأطال الصلاة، ورأى رجلاً ينظر إليه، ففطن له بشر، فقال للرجل: لا يعجبنك ما رأيت منى، فإن إبليس قد عبد الله مع الملائكة كذا وكذا[(٢)]

وهذا هو «محمد بن واسع» رحمه الله يقول مع كثرة تعبده: لو كان للذنوب ريح ما قدر أحدٌ أن يجلس إلى[(٣)]

**فلا تمش فوق الأرض إلا تواضعًا ... فكم تحتها قوم هم منك أرفع**

**فإن كنت فى عز وحرز ومنعة ... فكم مات من قوم هم منك أمنع**

## • آثار الكبر والمتكبرين •

١- ومن آثار الكبر أن المتكبر يحرص كل الحرص على أن لا يمشى معه غيره، ويكون الماشى معه خلفه، وهذا بالطبع منافٍ لما كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم.

فهذا سيدنا عبد الرحمن ﷺ كان لا يعرف من بين عبيده، حيث كان لا يظهر فى صورة ظاهرة.

وسيدنا الحسن البصرى -رحمه الله- مشى قوم خلفه فمنعهم، وكان سيد الخلق ﷺ يمشى مع بعض أصحابه، فيأمرهم بالتقدم، ويمشى فى غمارهم، إمَّا لتعليم غيره، أو لينفى عن نفسه وساوس الشيطان بالكبر والإعجاب.

٢- ومن آثار الكبر أن يستنكف من جلوس غيره معه بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه، والتواضع خلافه.

٣- أن لا يحمل متاعه إلى بيته ولو كان لا يثقله، وهو خلاف التواضع، فقد كان

---

(١) رواه البخارى وذكره الألبانى فى صحيح الجامع برقم (٥٢٢٢).

(٢) حلية الأولياء جـ٦/ ٢٤١ (٣) حلية الأولياء ٢/ ٣٤٩ وصفة الصفوة جـ٣/ ١٥٣

النبي ﷺ يفعل ذلك، قال على بن أبى طالب رضي الله عنه لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله.

وعن الأصبغ بن نباتة قال: كأني أنظر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه معلقًا لحمًا في يده اليسرى، وفي يده اليمنى الدرة، يدور في الأسواق حتى دخل رحله.

وقد ذكر أن عمر بن عبد العزيز، أتاه ضيف، وكان يكتب، فكاد السراج يطفأ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه قال: أفأنَبِّهُ الغلام؟ فقال: هي أول نومة نامها، فقام، فأخذ البطة فملأ المصباح زيتًا، فقال الضيف: قُمتَ أنت بنفسك يا أمير المؤمنين! فقال: ذهبت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر، ما نقص مني شيء، وخير الناس من كان عند الله متواضعًا(١)

٤- ومن آثار الكبر تطويل الشارب، وهو ما يسمى بـ «الشنب» فيجعله صاحبه وكأنه ريش الجعل إذا ابتدأ بالطيران، قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨] وهذا مخالف لهدى الرسول ﷺ الذى قال: «فروا اللحى، وحفوا الشارب» ومخالف لما كان عليه السلف الصالح.

٥- ومن آثاره إسبال الثياب والتفاخر بها:

وهذا منهى عنه قال سبحانه فى وصايا لقمان: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وقد حكى أن مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير نظر إلى الـمُهلَّبِ بن أبى صُفرة وعليه حلة يسحبها ويمشى الخيلاء، فقال مُطرف للمهلب: يا عبد الله، ما هذه المشية التى يُبغضها الله ورسوله، فقال المهلب: أما تعرفنى وتنهانى عما رأيت، فقال: بل أعرفك أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وحشوك فيما بين بول وعذره(٢)

٦- ومن آثاره أيضًا: تصعير الخد وهو منهى عنه قال سبحانه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨] أى لا تمل بوجهك كبرًا.

وقد يصل الكبر ومثله العجب بصاحبه إلى أن يورده موارد الكفر برب العالمين، كما حدث للمتكبرين على الله ورسوله، كهذا الذى خطب خطبة (عبيد الله بن زياد) خوف أهل

(١) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص١٤١ مكتبة التقوى.

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردى ص٢٨٥ وتنبيه الغافلين ص ١٤

البصرة أمر، فخطب خطبة أوجز فيها، فقال له الناس: أكثر الله فينا مثلك. فقال: لقد كلفتم الله شططا.

## • علاج الكبر •

وقد ذكر العلماء أن للكبر علاجًا، فإذا ما أردت أن تطهر نفسك من الكبر فاتبع الوسائل الآتية لعلك تنجو من هذا الداء الخطير:

**١- أن يعرف الإنسان ربه، ويعرف نفسه:**

عليه أن يعرف ربه حق المعرفة، فيعرف أن الكبرياء والعظمة لا تنبغي إلا له سبحانه فهو المعز وهو المذل وهو مالك الملك وملك الملوك: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [آل عمران: ٢٦] وأن يعرف حقيقة نفسه، فيعرف أنه عبد ضعيف ذليل، لا يليق به إلا أن يخضع لمولاه، وأن يذل نفسه لربه سبحانه القائل: ﴿**قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ**﴾ [عبس: ١٧ - ٢٢]: ﴿**هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا**﴾ [الإنسان: ١] فقد كان فى بداية وجوده جمادًا لا يسمع ولا يبصر ولا يتحرك، ولا ينطق، ولا يبطش، ولا يدرك ولا يعلم، ثم امتن عليه بعد ذلك فجعله سميعًا بصيرًا، ثم كبر وترعرع حتى صار شيخًا ثم توفاه الله، فصار بعدها جيفة قذرة.

**٢- المواظبة على أخلاق المتواضعين المتبعين لطريقة سيد المرسلين ﷺ:**

فينظر فى سيرة النبى المصطفى وأصحابه، وأتباعهم، ويتعرف على أخلاقهم الطيبة، فينهج نهجهم، ويقتفى أثرهم.

**٣- أن ينظر فى سير المتكبرين أيضًا:**

فيرى ما حدث لهم، ويتأمل عاقبتهم، وينظر نهايتهم الأليمة مثل: قارون وفرعون وهامان، مثل أبى جهل، مثل غيرهم من الجبارين الطغاة والمجرمين فى كل العصور والأزمان، فيحذر تلك العاقبة.

**٤- أن يتذكر دائمًا أن مقياس التفاضل والأولية إنما تكون بالتقوى والعمل الصالح،** قال سبحانه: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣].

**٥- أن يعتني بمحاسبة نفسه وعدم تزكيتها، وأن يقوم بين الحين والآخر بتوبيخها،** قال تعالى: ﴿**فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ**﴾ [النجم ٣٢].

وقال ميمون بن مهران: لا يكون العبد تقيًا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك[1]

(١) الحلية ٤/ ٧٩

وكان الصالحون دائمًا يوبخون أنفسـهم، يقول مطرف بن عبد الله -رحمه الله- لابن أبي أسلم: ما مدحني أحد قط إلا تصاغرت عليَّ نفسي[1].

وقال مالك بن دينار: إذا ذكر الصالحون، فأفٍ لي، وتف[2].

وقال: أبو أيوب السختياني رحمه الله: إذا ذكر الصالحون كنت فيهم بمعزل.

**٦- أن ينظر المرء إلى نفسه بعين النقصان وإلى غيره بعين التفضيل:**

قال بكر بن عبد الله المزني -رحمه الله-:

إن عرض لك إبليس بأن لك فضلاً على أحد من أهل الإسلام، فانظر، فإن كان أكبر منك فقل: قد سبقني هذا بالإيمان والعمل الصالح، فهو خير مني، وإن كان أصغر منك فقل: سبقت هذا بالمعاصي والذنوب، واستوجبت العقوبة، فهو خير مني، فإنك لا ترى أحدًا من أهل الإسلام، إلا أكبر منك، أو أصغر منك.

وإن رأيت إخوانك المسلمين يكرمونك، ويعظمونك، فقل: هذا فضل أخذوا به، وإن رأيت جفاء وانقباضًا، فقل: هذا ذنب أحدثته[3].

**٧- زيارة المرضى وأهل البلاء، ومجالسة أصحاب العاهات، ومشاهدة المحتضرين وتشييع جنازات المسلمين، وزيارة قبور الصالحين.**

**٨- الاعتذار لمن تكبر عليهم، وتمكينهم من القصاص** مثل اعتذار أبي ذر رضي الله عنه لبلال ابن رباح رضي الله عنه حين قال له: يابن السوداء، فقال له النبي ﷺ: **«أعيرته بأمه؟! إنك امرؤ فيك جاهلية»**. فاعتذر إليه أبو ذر، ووضع خده في التراب لكي يعفو عنه.

**٩- المواظبة على فعل الطاعات بحيث تكون نيته خالصة لله رب العالمين.**

**١٠- حضور مجالس العلم والذكر في بيوت الله تعالى.**

**١١- حمل النفس على فعل وممارسة بعض الأشياء كأن يقوم بشراء الطعام والشراب لنفسه حتى ولو كان له خادم.**

## •موعظة•

عباد الله: لا شيء أغلى عليكم من أعماركم وأنتم تضيعونها فيما لا يفيد، ولا عُدوَّ أعدى لكم من إبليس وأنتم تطيعونه، ولا أضرَّ عليكم من موافقة النفس الأمارة بالسوء وأنتم تصادقونها، لقد مضى من الأعمار الأطايب، فما بقي بعد شيب الذوائب.

---

(١) الحلية ٢/١٩٨

(٢) الحلية ٦/٢٨٨

(٣) الحلية ٢/٢٢٦

يا حاضر الجسم والقلب غائب، اجتماع العيب مع الشيب من أعظم المصائب، يمضى زمان الصبى فى لعب وسهو وغفلة يا لها من مصائب، أين الزمان الذى فرطت فيه ولم تخش العواقب. أما علمت أن الموت آت لا يحجبه حاجب، وأنه لا مفر منه لهارب أين الذين علوا فوق السفن والمراكب، أين الذين علوا على متون النجائب.

أين الوجوه التى كانت محجبّةً ... من دونها تضرب الأستار والكلَلُ؟
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
لطالما أكلوا فيها وما شربوا ... فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكلوا
وطالما كنزوا الأموال وادّخروا ... فخلفوها على الأعداء وارتحلوا
وطالما شيدوا دورًا لتحصنهم ... ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
أضحت مساكنهم وحشًا معطلة ... وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا
سل الخليفة إذا وافت منيته ... أين الجنود وأين الخيل والخَوَلُ
أين الكنوز التى كانت مفاتحها ... تنوء بالعصبة المُقْوِينَ لو حملوا

اللهم يا أول الأولين، ويا آخر الآخرين، ويا ذا القوة المتين، ويا راحم المساكين، ويا أرحم الراحمين، يا من لا تأخذك سنة ولا نوم، طهر قلوبنا من النفاق، وأعمالنا من الرياء، وألسنتنا من الكذب، وأعيننا من الخيانة، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور. اللهم سلمنا من العيوب والآفات، وطهرنا من الذنوب والسيئات، وأمنا يوم الفزع الأكبر.

إلهى: كيف تكلنى إلى نفسى وقد توكلت عليك؟! وكيف أضام وأنت الناصر لى، أم كيف أخيب وأنت الحفىُّ بى، (ها أنا أتوسل إليك، وهذا حالى لا يخفى عليك، منك أطلب الوصول إليك، وبك أستدل عليك، فاهدنى بنورك إليك، وأقمنى بصدق العبودية بين يديك. إلهى: أغننى بتدبيرك عن تدبيرى، وباختيارك عن اختيارى، وأوقفنى على مراكز اضطرارى، بك أستنصر فانصرنى، وعليك أتوكل فلا تكلنى، وإياك أسأل فلا تخيبنى وببابك أقف فلا تطردنى، وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى)[1] واغفر لى ولوالدى ولجميع المسلمين يا رب العالمين.

(١) مقطوعة مناجاة لابن عطاء الله السكندري.

## • الوصية رقم (٩٦) •

عن أبى ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلقٍ حسنٍ**»(١)

صدق رسول الله ﷺ

## • فى رحاب هذه الوصية •

هذه الوصية العظيمة تعتبر من جوامع كلمه ﷺ، فقد اشتملت على ثلاثة أوامر هى جماع الخير كله، الأمر الأول: [اتق الله حيثما كنت] أى امتثل أوامره، واجتنب نواهيه، واحذر غضبه، فى أى مكان كنت فيه حيث يراك الناس وحيث لا يرونك: ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**﴾ [النساء: ١] ولذلك أوصاه الرسول ﷺ -أى أبا ذر- فى موضع آخر فقال له: «**أوصيك بتقوى الله فى سرائرك وعلانيتك**» والثانى: [وأتبع السيئة الحسنة تمحها] ووجه مناسبتها لما قبلها أن العبد مأمور بالتقوى فى كل حال، ولما كان ربما يفرط إما بترك بعض المأمورات، أو فعل بعض المنهيات، وذلك لا ينافى وصف التقوى، كما دل عليه السياق فى قوله تعالى: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ..**﴾ [آل عمران: ١٣٣] إلى أن قال فى وصفهم: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً**﴾ [آل عمران: ١٣٥](٢)

وهذا الأمر على حد قوله تعالى ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾ [هود: ١١٤].

والأمران الأولان ينظمان سلوك العبد بينه وبين مولاه، وأما الأمر الثالث فهو منظم لعلاقة المسلم بينه وبين إخوانه من المسلمين وغير المسلمين، فبينه وبين إخوانه من المسلمين ظاهر، وأما بينه وبين غيرهم فهو غير ظاهر لأن سلوكه يعتبر عنوانًا للإسلام، وربما لو حسن خلقه معهم لأدى ذلك إلى اعتناقهم للإسلام كما كان رسول الله يفعل هو وأصحابه رضوان الله عليهم [وخالق الناس بخلق حسن] وكن معهم طليق الوجه لهم، باذلاً للمعروف إليهم، كافًا لسانك عنهم.

فهيا بنا أخى الحبيب لنقف مع هذا الهدى النبوى، لنتدبره، ولنحاول جاهدين العمل بوصية النبى الأمين ﷺ، نقف مع كل عنصر، فنتوقف مرة أمام التقوى، ومرة أمام فعل الحسنات وترك السيئات، ومرة مع حسن الخلق، فهيا بنا إلى هناك.

---

(١) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح (١٩٨٧) جـ٤/ ٣٥٥ ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى ١/ ٥٤ ورواه أحمد فى مسنده (٢١٢٥١) بإسناد صحيح جـ١٥/ ٥٠١، والدارمى (٢٧٩١) والألبانى فى ص.ج (٩٧).

(٢) دليل الفالحين ١/ ٢٧٧

## • فى رحاب المتقين •

فسبحان من أكرم عباده المتقين بالتقوى، فكل كرامة لا تؤسس على التقوى ليس لها ثبات ولا جدوى.

ما برح أهل خشية الله وتقواه يتركون شهواتهم من نفوسهم من خشية الله، ويؤثرونه بطاعته على من سواه، حتى أورثهم جواره، وبوأهم جنة المأوى، ومن جاور الله فى جنته فقد بلغ الخير كله والبر الوفير، والملك الكبير، والغاية القصوى والعاقبة للتقوى.

من عزم على قطع بحر الهلاك إلى ساحل السلامة، فليركب مركب المتقين، ومن أراد الفوز والفلاح، والحصول بعد سلامة رأس المال على أكرم الأرباح، فليستبضع بضاعة المتقين، ومن أحب أن يكون الله وليه، فليتوسل بوسيلة المتقين، فجميع مطالب أهل الدنيا حاصلة بغير طلب لأهل التقوى: ﴿ **والعاقبة عند ربك للمتقين** ﴾ [الزخرف: ٣٥][(١)]

ارتقى طلاب العُلى فى طلبها كل مرتقًى وما بلغوا درجة أهل التقى، وارتقى طلاب النجاة كل المرتقى، وما تحصنوا بحصن أهل التقى. شاركوا أهل الدنيا فى دنياهم، بتناول الرزق الذى قسم لهم مولاهم، وتفردوا فى الآخرة بالنعيم والبقاء، والآخرة خير لمن اتقى.

## • أقوال العلماء والصالحين فى حقيقة التقوى •[(٢)]

اختلف العلماء فى معنى التقوى، وحقيقة المتقى على أقوال متعددة، ذكرنا بعضًا منها فى كتابنا (الدرر الحسان من وصايا القرآن) وسنذكرهنا بعضًا آخر من أقوالهم فيها والله المستعان. والمنقول أن جميع التقوى فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ** ﴾ [النحل: ٩٠].

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: التقوى ألا ترى نفسك خيرًا من أحد.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المتقى هو الذى يتقى الشرك والكبائر والفواحش.

وقال بكر بن عبيد الله -رحمه الله-: لا يكون الرجل تقيًا حتى يكون تقى المطعم تقى الغضب.

وقال شهر بن حوشب -رحمه الله-: المتقى هو الذى يترك ما لا بأس به حذر الوقوع فيما فيه بأس.

وقال الجنيد بن محمد رحمه الله: ليس المتقى الذى يحب للناس ما يحب لنفسه، إنما المتقى الذى يحب للناس أكثر ما يحب لنفسه.

---

(١) التذكرة فى الوعظ لابن الجوزى ص٢٢٦

(٢) هذه الأقوال ذكرها الإمام عبد القادر الجيلانى جـ١/ ١٨٠ إلى ص١٨٣ ط/ دار التوفيقية وكذلك الإمام القشيرى فى الرسالة القشيرية من ص١٨٠ ١٨٣ كذلك.

وقال محمد بن خفيف -رحمه الله-: التقوى مجانبة كل شىء يبعدك عن الله.

وقال أبو يزيد -رحمه الله-: التقوى هى التورع عن جميع الشبهات، وقال: المتقى من إذا قال قال لله، وإذا سكت سكت لله، وإذا ذكر ذكر لله.

وقال أبو عبد الله الروذبارى: التقوى هى مجانبة ما يبعدك عن الله.

وقال ذو النون المصرى -رحمه الله-: التقى من لا يدنس ظاهره بالمعارضات، ولا باطنه بالغفلات، ويكون اقفًا من الله موقف الاتفاق.

وقال ميمون بن مهران -رحمه الله-: «لا يكون الرجل تقيًّا حتى يكون أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح والسطان الجائر»(١).

وقيل: «التقوى هى أن لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفتقدك حيث أمرك».

وقيل: التقوى: أن تتقى الله بقلبك من الغفلات، وبنفسك من الشهوات، وبحلقك من اللذات، وبجوارحك من السيئات، فحينئذ يرجى لك الوصول إلى رب الأرض والسموات(٢)

وقال بعضهم: يستدل على تقوى الرجل بثلاث: حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر على ما فات(٣)

## • مراتب التقوى •(٤)

واعلم أخى الحبيب أن للمتقين فى تقواهم أربع مراتب، يلزمها أربع نتائج:

**المرتبة الأولى:**

**تقوى الكفر**: ومعناها: ترك الشرك ظاهرًا وباطنًا، قولاً وفعلاً، لأنه محبط للأعمال، مضيع للحسنات، فمن ابتعد عن الشرك، وأخلص لله الإيمان، وصلحت عقيدته، وسلمت سريرته من الشبهات، حرم عليه الخلود فى النار يوم القيامة.

**المرتبة الثانية: تقوى المعاصى:**

ومعناها: ترك المعاصى والذنوب، لأنها كلما كثرت وزادت كانت سببًا فى هلاك العباد، ولو صغرت!.

لا تحقرن من الذنوب صغيراً ... إن الصغير غداً يصير كبيراً

إن الصغير وإن تقادم عهده ... عند الإله مسطر تسطيراً

فازجر هواك عن بطالة ... ولا تكن صعب القيام وشمرنْ تشميراً

إن المحب إذا أحب إلاهه ... طار الفؤاد وألهم التنكيرا

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ٨٩ (٢، ٣) الغنية ١/ ١٨٢

(٤) التذكرة فى الوعظ لابن الجوزى بتصرف ص٢٢٧

وإن اتقيت المعاصى، وابتعدت عن السيئات، صرت فى عداد المتقين.

**خل الذنوب صغيرها وكبيرها فذاك التقى**
**واصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرى**
**لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى**(١)

ونتيجة هذه المرتبة (تقوى المعاصى) الخلاص من العقاب.

**المرتبة الثالثة: تقوى فضول الدنيا:**

ومعناها الزهد فى الدنيا، الزهد فى شهواتها، وملذاتها، فيكون بذلك من أولئك القوم الذين يتصفون بالكياسة، من الذين عملوا صالحًا، وأكلوا طيبًا، وقدموا فضلاً، ولم ينافسوا أهل الدنيا فى دنياهم، ولم يجزعوا من ذلها، أخذوا صفوها، وتركوا كدرها. أتدرى من هم؟ إنهم أصحاب الرسول المصطفى، والنبى المجتبى، إنهم سادات المتقين، وأعلام المحسنين، فإذا ما زهدت فى الدنيا، وتورعت عن شهواتها، خف عنك الحساب فى يوم القيامة.

يقول سفيان الثورى: «عليك بالزهد -أى فى الدنيا-، يبصرك الله عورات الدنيا، وعليك بالورع يخفف الله حسابك..»(٢) فهذه المرتبة نتيجتها: تخفيف الحساب من رب الأرباب جل وعلا.

**المرتبة الرابعة: تقوى كل شاغل يشغلك عن الله تعالى،** وتلك أعلى المراتب ومعناها، أن تشغل عقلك، وقلبك، وجميع جوارحك بأمر لا يكون فيه رضًا لله تعالى، فيصبح قلبك محبًّا لمولاه مشتغلا به فى سره وعلانيته، فى ظاهره وفى باطنه، فى حركاته وسكناته، فى كل ما يخطر فى ذهنه، فالله تعالى هو شغله الشاغل، حتى إذا انشغل بالله تعالى مَنَّ الله تعالى عليه فى الآخرة بالنظر إلى وجهه الكريم.

وليس هناك أفضل ولا أعظم ولا أجمل من أن تنظر إلى وجه مولاك، قال تعالى: **﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾** [القيامة: ٢٢، ٢٣].

عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: يا ربنا، ألم تبيض وجوهنا؟! ألم تدخلنا الجنة، وتنجينا من النار؟! قال: فيُكشف الحجاب عنهم، فما أعطوا شيئًا، أحب إليهم من النظر إلى ربهم**»(٣)

---

(١) نقلاً من روح المعانى للألوسى جـ١ والقرطبى، والفخر الرازى.
(٢) حلية الأولياء ٧/ ٢ وهو خبر حسن.
(٣) رواه الترمذى (٢٥٥٢) وابن ماجه (١٨٧) وصححه الألبانى فى ص.ج (٥٢٣).

## • أقسام التقوى •

**أخا الإسلام:**

لقد قسم العلمـاء التقوى إلى عدة أقسام، ومنهـم الإمام أبو الفرج الجوزى[1]، فقد قسمها إلى ثلاثة أقسام:

**الأول:** تقوى الموجبات للعقاب.

**الثاني:** تقوى الموفقات للحساب.

**الثالث:** تقوى المانعات للثواب.

١- **أما المـوجبـات للعقـاب:** فهى تـلك الأمور الشـيطانية مـثل الكفر، والـبدع، والمعاصى والذنوب الكبائر كالزنا، والسحر، وقـذف المحصنات الغافلات وغير ذلك فكلها أمور توجب عقـوبة الله تعالى لمرتكبها إلا أن يتـوب، ويرجع إليه سبحانه. قال سـبحانه: ﴿**وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ...**﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

٢- **وأما الموفقات للحساب:** فهى تلك الأمور النفسانية، وهى متابعة الهوى فى نيل المشتهى عن فضول حظوظ الدنيا.

٣- **وموانع الثواب:** إما أن تكون بتثبيط الشيطان، أو كسل النفس، أو فساد الرأى، أو قلة العلم.

يقول ابن رجب الحنبلى: «ابن آدم لـو عرفت قدر نفسك، ما أهنتها بـالمعصية، أنت المختـار بين المخلوقات، ولك أعـدت الجنة إن اتقيت، فهى إقـطاع المتقين، والدنـيا إقطاع إبليس، فكيف رضيت نفسك بالإعراض عن إقطاعك، وزاحمت إبليس على إقطاعه، وأن تكون غداً فى النار من جملة أتباعه، إنما طردناه من السماء لأجلك حين تكبر عن السجود لأبيك، وطلبنا قربك، لتكون من خاصتنـا وحزبنا فعاديتنا! وواليت عدونا: ﴿**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً**﴾[2] [الكهف: ٥٠].

## • التقوى وصية الأنبياء والمرسلين •

إن التقوى هى وصية الله تعالى للأولين والآخرين، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ**﴾ [النساء: ١٣١].

---

(١) التذكرة فى الوعظ ص٢٢٩

(٢) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلى ص٣٣٧ دار/ ابن كثير - بيروت.

وهى وصية جميع الأنبياء والمرسلين إلى أقوامهم، لأنها أساس رسالتهم، وهدف دعوتهم، فقد كانت وصية نبى الله نوح عليه السلام إلى قومه، قال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٥ - ١٠٨] وكانت وصية هود عليه السلام لقومه، كما حكى القرآن عنهم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٤] ويطيل الوصية بها، ويكررها لهم، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٢٦] وكانت وصية صالح أيضًا، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤٢ : ١٤٤] وهذا هو لوط عليه السلام يوصيهم بالتقوى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٦١ : ١٦٣] وشعيب عليه السلام يوصى أتباعه، بأن يتقوا الله وأن يطيعوه، فيقول: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٧٧ : ١٧٩].

وهكذا كان كل رسول، وكل نبى كان يوصى قومه بالتقوى والخوف من الله سبحانه وتعالى حتى يفوزوا برضوان الله تعالى، لأن التقوى هى الزاد الحقيقى فى الدنيا، وفى الآخرة، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] وهى الزاد فى القبر فعن كميل بن زياد قال: خرج على بن أبى طالب رضي الله عنه يومًا إلى المقابر، فلما أشرف عليها قال: «يا أهل القبور. يا أهل البلى. يا أهل الوحشة، ما الخبر عندكم؟ فإن الخبر عندنا أن الأموال قد قسمت، والأولاد قد يتمت، والأزواج قد استبدلت، فهذا خبر ما عندنا، فما خبر ما عندكم؟ ثم التفت إلى وقال: يا كميل لو أذن لهم فى الجواب، لقالوا: «إنَّ خير الزاد التقوى» ثم بكى، وقال: «يا كميل القبر صندوق العمل، وعند الموت يأتيك الخبر»(١)

تزود من حياتك للمعاد ... وقم لله واجمع خير زاد
ولا تركن إلى الدنيا كثيراً ... فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد وأنت بغير زاد

## • التقوى أشرف نسب •

التقوى هى أشرف نسب، وهى النسب المرفوع عند الله تعالى يوم القيامة، فقد ورد «إذا كان يوم القيامة، أمر الله مناديًا ينادى: **ألا إنى جعلت نسبًا، وجعلتم نسبًا، فجعلت**

(١) حياة الصحابة للكاندهلوى.

**أكرمكم عند الله أتقاكم، فأبيتم إلا أن تقولوا: فلان ابن فلان خير من فلان ابن فلان، فاليوم أرفع نسبى، وأضع نسبكم. أين المتقون؟»**(١)

فللعبد نسب، وللرب جل وعلا نسب، فنسب الرب التقوى، ولقد جعلها رب العالمين جل وعلا ميزانًا للتفاضل بين الناس، فقال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [الحجرات: ١٣] فقد ورد فى سبب نزولها: أن الرسول ﷺ، حين فتح مكة المكرمة، ودخل المسجد الحرام، وأقبل إلى الحجر فاستلمه، ثم طاف وأخذ يحطم الأصنام، ولما حان وقت الصلاة، أمر بلال بن رباح أن يصعد على ظهر الكعبة ليعلى نداء الحق، وليؤذن للصلاة، فقال أحدهم: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنًا. وقال آخر: إن يكره الله شيئًا يغيره.

وقال ثالث: الحمد لله الذى قبض أبى حتى لم ير هذا اليوم، فيسمع منه ما يغيظه، وهو قول عتاب بن أسيد. لكن أبا سفيان قال: لا أقول شيئًا، فلو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصباء، فيخبره به رب السماء، فأنزل الله هذه الآية(٢)

لقد جعلت التقوى من العبيد سادة، ومن المستضعفين أساتذة وقادة، جعلت من رعاء الغنم قادة للبشر، جعلت من بلال الحبشى أخًا لسلمان الفارسى، وجعلت من حمزة القرشى أخًا لصهيب الرومى، لا فرق بين أبيض ولا أسود، ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى، فالكل سواء أمام قانون السماء.

ولذلك خطب النبى ﷺ يوم الفتح خطبة عظيمة ليزيل الفوارق، ويمحو الفواصل، بين الطبقات فليس فى الإسلام طبقة أفضل من أخرى، وجاء فيها: «**أيها الناس: إنَّ الله قد** أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعاظمها بالآباء، فالناس رجلان: بر تقى كريم على الله، وفاجر شقى هين على الله. الناس من آدم، وآدم من تراب. ثم تلا الآية» وبهذه الخطبة سقطت وزالت الفوارق، وسقطت الاعتبارات الطبقية، فهم سواسية كأسنان المشط.

**إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقى ... تجرد عريانًا ولو كان كاسيًا**
**وخير لباس المرء طاعة ربه ... ولا خير فيمن كان لله عاصيًا**

---

(١) رواه البيهقى والطبرانى فى الأوسط والصغير قاله المنذرى فى الترغيب وهو حديث حسن بشواهده.
(٢) انظر أسباب النزول للواحدى ص٣٣٢

## • من صفات المتقين •[١]

### أخا الإسلام:

إنك ما تأملت سورة من سور القرآن العظيم إلا وجدتها توضح لك صفة من صفات المؤمنين المتقين، بل وصفات متعددة، فإذا ما فتحت كتاب الله تعالى، وبعد ما تقرأ الفاتحة، وتفتح سورة البقرة، تجدها قد وضحت صفاتهم، وبينت جزاءهم، فإذا ما سرت مع الآيات حتى الآية رقم (١٧٦) وجدتها تعدد لك صفات تلك النخبة الطاهرة، فإذا ما انتقلت سريعًا إلى سورة آل عمران وجدتها فى مقدمتها أوصافًا لهؤلاء، وتختم السورة كذلك بأوصاف لهم، وسر على ذلك.

لكن أين أنت من هؤلاء؟ سؤال يجب أن تطرحه على نفسك، وتأمرها أن تجيب عنه، والإجابة التى لا محيص عنها أن الدنيا شغلت الكثير عن أن ينهجوا نهج المتقين، وأن يسيروا فى ركاب الصالحين، الدنيا جعلتنا ننسى مآلنا، ولذلك يرسم لنا هذه الصورة.

الإمام أبو الفرج بن الجوزى يقول:

«الدنيا فخ، والناس عصافير، والعصفور يريد الحبة وينسى الخنق، قد نسى أكثر الخلق مآلهم ميلاً إلى لذاتهم، فأقبلوا يسامرون الهوى، ولا يلتفتون إلى مشاورة العقل، ولقد باعوا بلذة يسيرة خيرًا كثيرًا، واستبدلوا بشهوات مرذولة عذابًا عظيمًا، فإذا نزل الموت بأحدهم قال: ليتنى لم أكن، ليتنى كنت ترابًا، فيقال له: آلآن وقد عصيت»[٢]

فأين نحن منهم وقد قال الله فى أوصافهم: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات. ١٧: ١٩] يقول واحد منهم، وهو مطرف بن عبد الله -رحمه الله-: إنى لأستلقى من الليل على فراشى، فأتدبر القرآن، وأعرض عملى على عمل أهل الجنة، فإذا أعمالهم شديدة، ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧]، ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر: ٩] فلا أرانى فيهم، فأعرض نفسى على هذه الآية: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢] فأرى القوم مكذبين، وأمر بهذه الآية: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] فأرجو أن أكون أنا وأنتم يا إخوتاه منهم»[٣]

---

(١) انظر كتاب (الدرر الحسان من وصايا القرآن) المكتبة التوفيقية فقد أفضنا فى وصف المتقين من القرآن الكريم، وتناولنا كل صفة بالشرح والتحليل، فارجع إليه نفعنى الله وإياك بكل خير ولا داعى للتكرار.

(٢) صيد الخاطر لأبى الفرج بن الجوزى.

(٣) حلية الأولياء لأبى نعيم جـ ٢/ ١٩٨

وأين نحن من هـذا العلم من أعلام المـتقين، علـمٌ من رهبان الليـل إنه: «صلة بن أشيم» رحمه الله: يقـول جعفر بن زيد: خرجنا فى غزاة إلى كـابل، وفى الجيش صلة بن أشيم فترك الناس عنـد العتمة -ثم اضطجع فالتمس غفلة الـناس- حتى إذا هدأت العيون، وثب فدخل غيضة قريبًا منه، فدخلت فى إثره، فـتوضأ ثم قام يصلى فافتتح الصلاة قال: وجاء أسد حتى دنا منه، قال: فصعدت إلى شـجرة، قال: أفتراه التفت إليه أو طرده حتى سجد، فقلت: الآن يفترسه فلا شىء، فجلس ثم سلم، فقال: أيها السبع اطلب الرزق فى مكان آخر، فولى وإن له لزئيـرًا تصدعت منه الجبال، فمازال كـذلك يصلى، حتى لما كان عند الصبح، جلس فحمد الله بمحامد لـم أسمع بمثلها إلا ما شاء الله، ثم قال: اللهم إنى أسألك أن تجيرنى من النار، أو مثلى يجتـرئ أن يسألك الجنة، ثم رجع، فأصبح كأنه بات على الحشايا، وقد أصبحت وبى من الفترة شىء -الله تعالى به أعلم-(١)

فأين نحن من هؤلاء أخى الحبيب؟!.

فيا من فاته رفقة من: ﴿تتجافَىٰ جنُوبُهُمْ عنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] وحرم وسام ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِين بِالأَسْحَارِ﴾ [يوسف: ٥٣] وغفل عن داء: ﴿إِنَّ النَّفْس لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣] وما طلب دواء: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّه تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] فهو فى أجواء الهوى يسرح، وفى ساحات الغى يمرح.

اسمع منا يا مبتلى: إذا غرق القلب فى المباح أظلم، فكيف بالحرام؟! وإذا غيّر الورد الماء منه من التوضـؤ به، فكيف بالنجاسة؟! أنّى لمـزكوم الهوى أن يستنشق نسـيم سحر!! وأنى لعاشق طين آن يحظى بحور عين!!

يا هذا. تزعم أن الآخرة همك! ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠] وتظن أن لك صبرًا على النار! ﴿كلاَّ إِنَّهَا لَظَى﴾ [المعارج: ١٥] وتعجب من كثرة بلاياك، وانغلاق الأبواب أمام وجهك، وتسأل ما السبب؟! ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عند أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

أما وقد علمت هذا فدع عنك التغنى بأشعار الهوى، وانشغل بترتيل: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هوىٰ﴾ [النجم: ١] وكن ممن أجاب النداء، وكـسر القيد، فحـلق عاليًا مع الهمم الـعالية، والعزائم الماضية، تاركًا خلفه الدنيا، مستأثرًا لشهوة تذله، أو هوى يضله.

فإن فعلت كنت الرابح فى سوق الآخرة، ولا يعود يجمعك بالبشر إلا صورة اللحم والدم، وأما روحك وفكرك ولذتك وألمك فأنت فيها خلق جديد، وأنموذج فريد(٢).

---

(١) المرجع السابق جـ٢/ ٢٤

(٢) سباق نحو الجنان.

* ومن صفات المتقين:

قال مالك -رحمه الله-: حدثنى وهب بن كيسان أن بعض فقهاء أهل المدينة، كتب إلى عبد الله بن الزبير ﷺ: «إنّ لأهل التقوى علامات يعرفون بها: الصبر عند البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر عند النعماء، والتذلل لأحكام القرآن»(١)

كانوا صابرين للصبر بجميع أحواله وأنواعه، وأشده الصبر على هوى النفس، قال سبحانه: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾ [آل عمران: ١٤].

ولذلك يقول النبى ﷺ، فيما يرويه عنه خادمه: أنس بن مالك ﷺ «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»(٢) وتأمل كلام ابن القيم فى فوائده حيث يقول: «الصبر عن الشهوات أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة فإنها إما أن توجب ألمًا وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تضيع وقتًا إضاعته حسرة وندامة، وإما أن تثلم عرضًا توفيره أنفع للعبد من ثلمه، وإما أن تذهب مالاً بقاؤه خير له من ذهابه وإما أن تضع قدرًا وجاهًا قيامه خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تطرق لوضيع إليك طريقًا لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب همًّا وغمًّا وحزنًا وخوفًا لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسى علمًا ذكره ألذ من نيل الشهوة، وإما أن تشمت عدوًا وتحزن وليًّا، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تحدث عيبًا يبقى لا تزول فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق»(٣)

لما علم المتقون ذلك تركوا الشهوات، وقطعوا اللذات، حتى لا يرثوا تلك الحسرات، ليفوزوا بالنعيم والجنات.

علموا أن العصيان لرب الأكوان يورث الذل والنصب والخذلان، يقول إبراهيم بن أدهم: «كنت فى المسجد الحرام ذات يوم فغلبتنى عينى، فنمت، فرأيت حول البيت سرادقات خضر مكتوب عليها ببياض: ينبغى لمن عرف قدرى أن لا يعصى أمرى، ولمن عرف عدلى فيمن يقف بين يدى أن يحاسب نفسه قبل قدومه على ولمن عرف إحسانى ألا ينسانى، ولمن عرف كرمى أن يشكرنى»(٤)

---

(١) الغنية لعبد القادر الجيلانى جـ١/ ١٨٢

(٢) رواه مسلم والترمذى عن أنس وذكره الألبانى فى ص. ج ص٣١٤٢

(٣) الفوائد لابن القيم الجوزية ص١٥٥، ١٥٦

(٤) المواعظ والمجالس لابن الجوزى.

فهم بذكره مشتغلون، وعليه متوكلون، ولنعمائه شاكرون، ولقضائه صابرون.

لله قوم بذكره اشتغلوا ... وفى حى قربه قد نزلوا
ليس لهم غير ذكره فرح ... فهم حقيقًا عليه قد حصلوا
من ذاق وصل الحبيب هام ولم ... يحلُ له منزلٌ ولا طلل
قاموا يناجونه وقد علموا ... بأنهم للمعاد قد عملوا
فاستعذبوا الصعب فى هواه ... وقد لذلهم فى رضاه ما حملوا

*** ومن علامات المتقين:**

ما قاله الحسن البصرى فى أوصافهم:

«إنَّ لأهل التقوى علامات يعرفون بها: «صدق الحديث، والوفاء بالعهد، وصلة الرحم، ورحمة الضعفاء، وقلة الفخر والخيلاء، وبذل المعروف، وقلة المباهاة للناس، وحسن الخلق، وسعة الخلق مما يقرب إلى الله عز وجل..»[1]

فتأمل أخى الحبيب، تأمل أوصافهم، وتأمل أفعالهم، وابحث عن أخلاقهم، وانظر ماذا كان شعارهم، لتهتدى بهديهم، وتنهج نهجهم، فتنعم مثل نعيمهم لقد كان شعارهم الخشوع، وأخلاقهم القنوع، وأفعالهم السجود لله والركوع، ويطوون الضلوع على الجوع، ويؤثرون على أنفسهم سائلاً وفقيرًا: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨].

قد غضوا أبصارهم، وأخرسوا أفواههم، وعفروا وجوههم وجباههم، وقالوا لفقرائهم: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ [الإنسان: ٩].

قد شربوا من حبه كؤوسًا، واستجلوا من أنوار مشاهدته شموسًا، وبرزت لهم الدنيا بزينتها عروسًا، فقالوا: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا ﴾ [الإنسان: ١٠].

اخترقوا حجب الأنوار، وفازوا بجوار العزيز الغفار، فى جنات تجرى من تحتها الأنهار تخدمهم الملائكة مساءً وبكورًا: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ [الإنسان: ١٩].

أحضرهم فى حضرة قدسه، وتولاهم بنفسه، وسقاهم بكأس أنسه شرابًا طهورًا، وناداهم: عبادى وأحبابى، لطالما وقفتم ببابى، ولذتم بجنابى، وصبر كل منكم على مصابى، لأبوأنكم دار النعيم، ولأمتعنكم بالنظر إلى وجهى الكريم، ولأجعلن جزاءكم جزاءً موفورًا.

---

(١) الحلية لأبى نعيم ٢/ ١٤٣

نالوا بذلك جنة وسروراً ... وسعوا فأصبح سعيهم مشكوراً
قوم أقاموا للإله نفوسهم ... فكسا وجوههم الوسيمة نوراً
تركوا النعيم وطلقوا لذاتهم ... زهداً فعوضهم بذلك سروراً
قاموا يناجون الحبيب بأدمع ... تجرى فتحكى لؤلؤاً منثوراً
ستروا وجوههم بأستار الدجى ... ليلاً فأضحت فى النهار بدوراً
عملوا بما علموا وجادوا بالذى ... وجدوا فأصبح حظهم موفوراً
وإذا بدا ليلٌ سمعت أنينهم ... وشهدت وجدا منهمو وزفيراً
تعبوا قليلاً فى رضا محبوبهم ... فأراحهم يوم المعاد كثيراً
صبروا على بلواهم فجزاهم ... يوم القيامة جنة وحريراً

قوم عكفوا بقلوبهم عليه، وتقربوا بذبح نفوسهم إليه، لا يسمعون فى محبته عذل العاذلين، أبغضوا كل ما سواه ليكون منهم دانيًا، وخرجوا من كل شىء ليدخلوا إليه، وظعنوا عن كل شىء ليقدموا عليه، وهجروا كل حبيب فى طلب وصاله، وأعرضوا عن كل قريب طمعًا فى إقباله.

* **ومن أوصاف المتقين: «أنهم يخافون من الله رب العالمين».**

لأن التقوى كما عرفها الإمام على رضي الله عنه هى: «الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل».

## أخى الحبيب:

فمن أوصافهم: أنهم يخافون من رب العالمين، وكل واحد إذا خفت منه هربت منه إلا رب الأرباب جل وعلا، فإنك إن خفت منه هربت إليه سبحانه، لأنه هو المخوف والمرجَّى، فكأن الخائف من مولاه يفر إلى مولاه، بنص القرآن الكريم. قال سبحانه: ﴿ **فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [الذاريات: ٥٠].

يقول يحيى بن معاذ: «مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة»(١)

ولذلك فهم أكيس الناس، لأنهم علموا أن من خافه فى الدنيا أمن من عذابه فى الآخرة، ومن أمنه فى الدنيا خوفه الله يوم القيامة، وأمن الدنيا قليل، وخوف الآخرة كبير وطويل، لذلك خافوه، فاستحقوا: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى** ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] واستحقوا: ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ** ﴾ [الرحمن: ٤٦] يقول الله عز وجل: «**وعزتى وجلالى إنى لا أجمع على عبدى خوفين، ولا**

(١) حلية الأولياء ٤/ ١٦٩

أمنين، من خافنى فى الدنيا أمنته فى الآخرة، ومن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة»[(١)]

ولندع الحسن البصرى رحمه الله يصف لنا خوف المتقين، وما كانوا عليه من وجل، يقول: «والله لقد أدركت أقوامًا، وصحبت طوائف منهم، ما كانوا يفرحون بالدنيا أقبل، ولا يتأسفون على شىء منها أدبر، ولهى كانت أهون فى أعينهم من هذا التراب، كان أحدهم يعيش خمسين سنة لم يطو له ثوب قط، ولا نصب له قدر، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئًا، فإذا كان الليل فقيام على أطرافهم، يفترشون وجوههم، تجرى دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم فى فكاك رقابهم، كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا فى شكرها، وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم، وسألوا الله أن يغفرها، فما زالوا كذلك على ذلك، فو الله ما سلموا من الذنوب، ولا نجوا إلا بمغفرة، وإنكم أصبحتم فى أجل منقوص، والعمل قضاء الله عز وجل فى كل يوم ليلة»[(٢)]

| | |
|---|---|
| هم القانتون المخبتون لربهم | الناطقون بأصدق الأقوال |
| يحيون ليلهم بطاعة ربهم | تلاوة وتضرع وسؤال |
| وعيونهم تجرى بفيض دموعهم | مثل انهمال الوابل الهطال |
| فى الليل رهبان وعند جهادهم | لعدوهم من أشجع الأبطال |
| وإذا بدا علم الرهان رأيتهم | يتسابقون بصالح الأعمال |
| بوجوههم أثر السجود لربهم | وبها أشعة نوره المتلالى[(٣)] |

وهذا هو أحد الأتقياء «عمر بن عبد العزيز» رحمه الله:

فعن المغيرة بن حكيم قال: قالت لى فاطمة بنت عبد الملك: يا مغيرة، قد يكون من الرجال من هو أكثر صلاة، وصومًا من عمر بن عبد العزيز، ولكن لم أر رجلاً من الناس، قط، كان أشد فرقًا من ربه -أى خوفًا- من عمر، كان إذا دخل بيته ألقى نفسه فى مسجده، فلا يزال يبكى، حتى تغلبه عيناه، ثم يستيقظ، فيفعل مثل ذلك ليلته أجمع[(٤)]

وهذا هو «هرم بن حيان» رحمه الله: يخرج فى بعض الليالى وينادى بأعلى صوته: «عجبت من الجنة، كيف ينام طالبها، وعجبت من النار كيف ينام هاربها، ثم قرأ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧] ثم يقرأ ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر: ١] و ﴿أَلْهَاكُمُ﴾ [التكاثر: ١] ثم يرجع[(٥)]

---

(١) رواه أبو نعيم فى حلية الأولياء بإسناد حسن ٩٨/٦، ورواه ابن المبارك فى الزهد (١٥٦) ص٣٦ وذكره الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٧٤٢) والهيثمى فى المجمع ٣٠٨/١ وفى ص.ج ص٤٢٠٨.

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل ص٢٨٥

(٣) إغاثة اللهفان لابن القيم.

(٤) رواه ابن المبارك فى الزهد (٨٨٤) ص٢٠٠

(٥) رواه أبو نعيم فى الحلية ١١٩/٢

ألا يا عين ويحك أسعدينى بطول الدمع فى ظلم الليالى
لعلك فى القيامة أن تفوزى بخير الدهر فى تلك العلالى

*** علامات الخوف:**

يقول الفقيه السمرقندى[١]: علامات خوف الله تتبين فى سبعة أشياء:

**أولها:** تتبين فى لسانه، فيمتنع لسانه من الكذب والغيبة وكلام الفضول، ويجعل لسانه مشغولاً بذكر الله وتلاوة القرآن، ومذاكرة العلم.

**والثانى:** أن يخاف فى أمر بطنه، فلا يدخل بطنه إلا طيبًا حلالاً، ويأكل من الحلال مقدار حاجته.

**والثالث:** أن يخاف فى أمر بصره، فلا ينظر إلى الحرام، ولا إلى الدنيا بعين الرغبة، وإنما يكون نظره على وجهه العبرة.

**والرابع:** أن يخاف فى أمر يده، فلا يمد يده إلى الحرام، وإنما يمد يده إلى ما فيه طاعة الله تعالى.

**والخامس:** أن يخاف فى أمر قدميه فلا يمشى فى معصية الله.

وكان المتقون يخافون ربهم، كما وصفهم مولاهم فى قرآنه: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ**﴾ [المؤمنون: ٦٠].

ولذلك سألت السيدة عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ، لما قرأت هذه الآية قائلة: «أهم الذين يعملون بالمعاصى ويخافون؟ قال: **لا، ولكن هم الذين يعملون بالطاعة، ويخافون ألا تقبل منهم**»[٢] فخوفهم من أربعة أشياء:

١- خوف القبول، لأن الله قال: ﴿**قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [المائدة: ٢٧].

٢- خوف الرياء، لأن الله قال: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [البينة: ٥].

٣- خوف التسليم والحفظ، لأن الله قال: ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾ [الأنعام: ١٦٠] فاشترط المجيء بها إلى دار الآخرة.

٤- خوف الخذلان لطاعة أخرى، لأنه لا يدرى أنه هل يوفق لها أم لا لقوله تعالى: ﴿**وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾[٣] [هود: ٨٨].

---

(١) تنبيه الغافلين ص٣٠٥.

(٢) رواه الترمذى (٣١٧٥) وابن ماجه (٤١٩٨) وصححه الحاكم ٢/٣٩٣ ولم يتعقبه الذهبى وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة رقم (١٦٢).

(٣) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص٨ ٣

يقول الحسن البصرى رحمه الله: «إن لله عز وجل عبادًا كمن رأى أهل الجنة فى الجنة مخلدين، وكمن رأى أهل النار فى النار مخلدين، قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، حوائجهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أيامًا قصارًا تعقب راحة طويلة أما الليل فمصافة أقدامهم، تسيل دموعهم على خدودهم، يجأرون: ربنا، ربنا وأما النهار فحلماء علماء، بررة أتقياء، كأنهم القداح، ينظر إليهم الناظر، فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض. .»[(١)]

* ومن أوصافهم: «أنهم يعملون بالتنزيل»:

ولذلك يقول سيدنا على فى وصفهم: «أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن، يرتلونه ترتيلاً يحزنون به أنفسهم، ويثيرون دواء دائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعًا، وتطلعت نفوسهم إليها شوقًا، وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها بمسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها فى أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون بجباههم، وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم يطلبون إلى الله فكاك رقابهم»[(٢)]

## أخى الحبيب:

وكما وقفت مع وصف المتقين وهم يرتلون أجزاء القرآن، من على بن أبى طالب رضي الله عنه، تأمل وصفهم عند إمام الزهد فى عصره، وهو يصف المتقين، وهم يتدبرون آيات القرآن، وقد خالطت دماءهم، وتغلغلت فى قلوبهم، حتى أفاضت بتلك القلوب بأنوار الرحمن. وآيات القرآن.

يقول ذو النون المصرى رحمه الله: «هؤلاء قوم قد خالط القرآن لحومهم ودماءهم، فعزلهم عن الأزواج، وحركهم بالإدلاج، فوضعوه على أفئدتهم فانفرجت، وضموه إلى صدورهم فانشرحت، وتصدعت به هممهم فكدحت.

فجعلوه لظلمتهم سراجًا، ولنومهم مهادًا، ولسبيلهم منهاجًا، ولحجتهم إفلاجًا، يفرح الناس ويحزنون، وينام الناس ويسهرون، ويفطر الناس، ويصومون، ويأمن الناس ويخافون. فهم خائفون حذرون وجلون مشفقون مشمرون، يبادرون من الفوت، ويستعدون للموت، لم يستصغر عظيم ذلك عندهم لعظم ما يخافون من العذاب، وخطر ما يوعدون من الثواب، درجوا على شرائع القرآن، وتخلصوا بخالص القربان، واستناروا بنور الرحمن، فما لبث أن أنجز لهم القرآن موعوده، وأوفى لهم عهوده، وأحلهم سعوده،

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم ٢/ ١٥٢ (٢) نهج البلاغة للشريف الرضى.

وأجارهم وعيده، فنالوا به الرغائب، وعانقوا به الكواعب، وأمنوا به العواطب، وحذروا به العواقب، لأنهم فارقوا بهجة الدنيا بعين قالية، ونظروا إلى ثواب الآخرة بعين راضية، واشتروا الباقية بالفانية، فنعم ما تجروا، ربحوا الدارين، وجمعوا الخيرين، واستكملوا الفضلين، بلغوا أفضل المنازل بصبر أيام قلائل[1]

فيا عبد الله، عد إلى مولاك، وإلى قرآنك، ولا تغب عنه، «فقد غاب الهدهد عن سليمان فتواعده فيا غائبًا عنا طول عمره، أما تحذر غضبنا، خالف موسى الخضر فى طريق الصحبة ثلاث مرات فحل عقد الوصل بكف: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨] أما تخاف يا من لم يف لنا قط، أن تقول فى بعض زلاتك: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾[2]

## • جزاء المتقين •[3]

### أخى الحبيب:

هيا بنا لنطوف سريعًا، وفى عجالة عاجلة فى جزاء المتقين الفائزين، تعالوا لنرى ماذا أثمرت التقوى لأصحابها، لتشتاق قلوبنا إلى صحبتهم فى الآخرة، إذا ما عملنا بأعمالهم، وترسمنا طريقهم، فزنا بما فازوا به من النعيم المقيم.

فطوبى لمن كانت الجنة مثابه، وهى مثاب المتقين، وشراب الرحيق، والتسنيم والكافور والزنجبيل شرابه، وهو شراب الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

**من كان يطمع أن يفوز بقرب رب العالمين ... ومنحه نظرًا إليه إذا أباح الناظرينا**
**ويعد من أهل الصلاح إذا يعد الصالحونا ... ويجار من سوء النيات ومن عذاب الخاطئينا**
**فعليه بالتقوى ففى التقوى مراد الطالبينا ... ما فاز بالخيرات فى الدارين غير المتقينا[4]**

ولو أردنا أن نتتبع آيات الذكر الحكيم فيما أعده الله للمتقين، لطال بنا المقام، لكن سوف نقتطف ثمارًا يانعة من رياض القرآن، وآياته الجامعة، واقرأ معى قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [القلم: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾

---

(١) حلية الأولياء ١/ ١٤، ١٥
(٢) المدهش لابن الجوزى ص٤٩١ والتبصرة جـ١/ ١٩٣
(٣) ذكرت جزاء المتقين فى الدنيا والآخرة مفصلاً فى (الدرر الحسان فى وصايا القرآن) التوفيقية فإن شئت فارجع إليه.
(٤) التذكرة فى الوعظ لابن الجوزى.

**حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾** [النبأ: ٣١: ٣٦] وقوله جل شأنه: **﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** [المرسلات: ٤١: ٤٣] وقوله تعالى: **﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾** [الحجر: ٤٥ ٤٨] وآيات كثيرة تبين أن المتقين يستحقون جنة الله رب العالمين، بل جنان كثيرة، منها جنة وصفها القرآن، وأمرنا أن نسارع لمثلها فقال: **﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾** [آل عمران: ١٣٣] فما أجل وما أعظم هذا الثواب العظيم، بل لقد أخبر النبى المصطفى ﷺ أن أقل مكان فى الجنة، أفضل وأعظم من الدنيا وما فيها يقول ﷺ: **«لقاب قوس أو سوط فى الجنة خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب»**(١)

بل أخبرنا سيد البشر، أن فى الجنة شجرة واحدة فقط، يسير فى ظلها الراكب المجد مسيرة مائة عام ولا يقطعها من طولها وعظمتها فيقول: **«إن فى الجنة شجرة يسير الراكب تحتها -فى ظلها- مائة عام لا يقطعها»**(٢) فما بالك إذا كانت جنة عرضها السموات والأرض؟! فما بالك لو كانت تلك الجنة الفردوس الأعلى، ما بالك لو كانت جنة عدن؟!

بل تأمل نصيب أقل شخص من أهل الجنة، كم يكون؟ فقد وضح لنا سيد الأولين والآخرين ذلك فى حديث رواه مسلم من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن النبى ﷺ.

قال: **«لقد سأل موسى ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ فقال: رجل يجئ بعدما دخل أهل الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: يا رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا آخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت يا رب، فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله، حتى يقول فى الخامسة: رضيت ربِّ، فيقول: هذا لك وعشر أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك، فيقول: ربِّ رضيت. قال موسى: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدى، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر»**(٣) **إن الله سبحانه وتعالى ينعِّم المتقين فى الجنة بالحور العين، وبزوجات لو اطلعت أهل الدنيا عليها، لماتوا شوقًا إليها، وحبًا فيها، ولو أن إحدى الحور العين اطلعت على أهل الدنيا لأضاءت لهم الدنيا، يقول سيد من**

(١) رواه البخارى. (٢) رواه مسلم والبخارى.

(٣) رواه مسلم والطبرانى من حديث سفيان بن عيينة.

**يحرك حلق الجنة فيكون أول من يدخلها: «لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأة من نساء الجنة إلى الأرض لملأت ما بينها ريحًا، ولأضاءت ما بينهما ولنصيفها** -أى خمارها- **على رأسها خير من الدنيا وما فيها»**(١)

بل تأمل ما رواه الإمام أحمد من حديث أبى سعيد الخدرى ؓ أن النبى ﷺ قال: **«إن الرجل ليتكئ فى الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول، ثم تأتيه امرأته، فتضرب على منكبيه، فينظر وجهه فى خدها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضىء ما بين المشرق والمغرب، فتسلم عليه. قال: فيرد السلام، ويسألها: من أنت؟ فتقول: أنا من المزيد، وإنه ليكون عليها سبعون ثوبًا أدناها مثل النعمان من طوبى، فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك، وإن عليها من التيجان إن أدنى لؤلؤة عليها لتضىء ما بين المشرق والمغرب»**(٢)

ويقول ﷺ فيما يرويه عنه أبو هريرة ؓ: **«إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتى تليها على أضوأ كوكب درى فى السماء، لكل امرئ منهم زوجتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما فى الجنة أعزب»**(٣)

**فيا خاطب الحوراء فى خدرها … وطالبًا ذاك على قدرها**
**انهض بجد ولا تكن وانيا … وجاهد النفس على صبرها**
**وجانب الناس وارفضهم … وخالف الوحدة فى ذكرها**
**وقم إذا الليل بدا وجهه … وصم نهارًا فهو من مهرها**
**فلو رأت عيناك إقبالها … قد بدت رمانتا صدرها**
**وهى تماشى بين أترابها … وعقدها يشرف فى نحرها**
**لهان فى نفسك هذا الذى … تراه فى دنياك من زهرها**

فإذا أردت الفوز بهذا النعيم فاجتهد فى عبادة ربك، وجاهد نفسك، لتصل إلى رضاه.

وفى الجنة يأكل المتقون ما لذ لهم وطاب: **﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا**

(١) رواه البخارى (٢٧٩٦) وابن ماجه (٢٧٥٧) وأحمد فى مسنده (٣٧١٥) والألبانى فى ص.ج رقم (٥١١٦).

(٢) رواه الترمذى (٢٥٦٢) وقال غريب، وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٤١٩ رواه أحمد وأبو يعلى وإسنادهما حسن. وقد رواه الإمام أحمد فى مسنده برقم ١٦٥٥ جـ١٠/ ٢٣٦ بإسناد حسنه حمزة الزين.

(٣) رواه البخارى (٣٢٤٥) ومسلم (٢٨٣٤) والترمذى (٢٥٣٥) وأحمد فى مسنده (٥٤٢ ١) جـ٩ ص٥١٢.

**يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [الواقعة: ١٧ : ٢٤].

قال الحسن: إنَّ أحدهم يؤتى بالصحفة، فيأكل منها، ثم يؤتى بأخرى، فيراها مثل الأولى، فيقول ذلك، فيقول له الملك: كل فاللون واحد والطعم مختلف.

وذلك قوله تعالى: ﴿**كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا**﴾ [البقرة: ٢٥] لكن ما مصير هذا الطعام؟ لقد أجابك على هذا السؤال إمام الأنبياء والمرسلين، فقال: «**إنَّ أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يتبولون، ولا يتغوطون، ولا يتمخطون**» قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «**جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس**»(١)

أهل الجنة يستمتعون بالغناء فى الجنة لأنهم رفضوا سماعه فى الدنيا، فبشرى للمتقين وهنيئًا للصالحين الذين ينزهون أصواتهم عن سماع الخنا فى الدنيا.

هنيئًا ثم هنيئًا لأولئك الذين صمت آذانهم عن سماع اللغو والباطل، عن سماع ذلك الغناء الماجن، وأصحابه الماجنين الفاسقين، يقول الإمام الأوزاعى: «بلغنى أنه ليس من خلق الله أحسن صوتًا من إسرافيل، فيأمره الله فيأخذه فى الإسماع، فلا يبقى ملك فى السموات إلا قطع عليه صلاته، فيمكث على ذلك ما شاء الله أن يمكث، فيقول الله عز وجل: «**وعزتى لو يعلم العباد قدر عظمتى ما عبدوا غيرى**»(٢).

**وقال ابن وهب:**

حدثنا الليث عن خالد بن يزيد: «إنَّ الجوارى يغنين أزواجهن فيقلن: نحن الخيرات الحسان، أزواج شباب كرام، نحن الخالدات فلا نموت، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، ونحن المقيمات فلا نظعن»(٣)

وهل هناك أعظم من ذلك؟! وهل هناك ألذ وأطيب من ذلك؟! نعم فعن عبد الله ابن بريدة قال: «إن أهل الجنة يدخلون كل يوم على الجبار -جل جلاله- فيقرأ عليهم القرآن، وقد جلس كل امرئ منهم مجلسه الذى هو مجلسه، على منابر الدر والياقوت، والزبرجد، والذهب والزمرد، فلم تقر أعينهم بشىء، ولم يسمعوا شيئًا قط أعظم ولا أحسن منه، ثم ينصرفون إلى رحالهم بأعين قريرة، وأعينهم إلى مثلها من الغد»(٤)

---

(١) رواه مسلم (٢٨٣٥) وأحمد فى مسنده (١٤٣٣٩) جـ١١/ ٤٣٦ والدارمى (٢٨٢٨) والبغوى فى شرح السنة (٤٣٧٥). (٢) رواه ابن أبى الدنيا، وذكره ابن كثير فى الفتن والملاحم جـ٢/ ٣٧٩

(٣) ذكره ابن كثير فى الفتن والملاحم جـ٢/ ٣٧٨

(٤) ذكره ابن كثير فى نهاية الفتن والملاحم جـ٢/ ٣٨

الله أكبر الرحمن جل جلاله هو الذى يقرأ عليهم القرآن بنفسه سبحانه سبحانه.

**فتأمل أخى الحبيب كل هذا فإن الجنة:**

ظلها ممدود لمن لا يتعدى الحدود.

عيشها مقيم لمن على أوامر الله يستقيم.

بساتينها زاهرة لمن له عين لله ساهرة.

ماؤها مسكوب لمن بذكر الله أحيا القلوب.

قطوفها دانية لمن روحه لحب الصالحين دانية.

فيها قاصرات الطرف فى الخيام لمن قصر طرفه عن الآثام.

فيها عينان تجريان لمن له عينان من خشية الله دامعتان.

لا يسمع فيها لاغية لمن صان سمعه فى دنياه عن السماع لغانيه[1]

واعلم أن المتقين فى الجنات سوف يتحسرون، أتدرى على أى شىء يتحسرون؟ مع أنهم فى الجنة مقيمون، وفى النعيم خالدون؟! إنهم يتحسرون على لحظات مرت لهم دون ذكرهم للإله، دون لحظات مرت عليهم وهم عن ربهم غافلون؟ يقول النبى ﷺ فيما يرويه عنه معاذ بن جبل رضي الله عنه: **«ليس يتحسر أهل الجنة على شىء إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله عز وجل فيها»**[2]

لقد منحهم الله من الخير ما ليس بممنون، وأمنهم فى الجنة حوادث المنون، وجعلهم على حفظ سره يؤتمنون، إذ كانوا بصفاته وأسمائه يؤمنون، فلهم من فضله ما يشاءون: ﴿**وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ**﴾ [الواقعة: ٢٢، ٢٣].

خلقهم لخدمته وأرادهم، وأربحهم فى معاملته وأفادهم، وجعل الرضا بقضائه زادهم، وأعطاهم من جزيل رفده وزادهم، وأثابهم بما لا يخطر على الظنون: ﴿**جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [السجدة: ١٧] كانوا يصدقون فى الأقوال، ويخلصون فى الأفعال، ولا يرضون بالدنىء من الحال، ولا يأنسون بما ينتهى إلى زوال، فجزاهم عن أفعالهم ذو الجلال، إذ أسكنهم فى جنته فى ظلال على الأرائك متكئون أعرضوا فى الدنيا عن اللغو، وتركوا رائق الشهوات واللهو، وآثروا الذل على الغنى والزهو، وتيقظوا للأوامر معرضين عن السهو[3]

---

(١) سباق نحو الجنان ص٣٥.

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الشعب، وذكره الألبانى فى ص ج ص٥٣٢٢.

(٣) التبصرة جـ٢/ ٣٠٢.

## • موعظة •

حدث ثابت البنانى قال: بنى أبو الدرداء مسكنًا قـدر ظله، فمر عليه أبو ذر، فقال: ما هذا؟ أتعـمر دارًا أذن الله بخرابها؟ لأن أكـون رأيتك تتمرغ فـى عذرة أحب إلىَّ من أن أكون رأيتك فيمـا رأيتك فيه، فلما فرغ أبو الدرداء من بنائه قـال: إنى قائل على بنائى هذا شيئًا:

بـنـيـت دارًا ولـسـت عـــامــرهـا ولقد علـمت إذ بنيت أين دارى؟[(١)]

فيا ســالكًا طريق الجاهليـن، راضيًا بلعب الغـافلين، متى نرى هذا القـلب القاسى يلين، متى تبيع الدنيا وتشترى الدين، واعـجبًا لمن آثر الفانى على ما يدوم، وتعجل الهوى واختار المذموم، ودنت همته فهو حول الوسخ يحوم، وأقبل على القبيح ناسيًا يوم القدوم، فأصبح شر خاسر وأبعد ملوم[(٢)]

إلهى:

يا من له عنت الوجـوه، بيض وجوهنا بالنـظر إليك، واملأ قلوبنا من المحـبة لك، وأجرنا من ذل التوبيخ يـوم العرض عليك، فقد آن لنا الحياء مـنك، وحان لنا الرجوع عن الإعراض عنك، لولا حلمك لم تسعنا آجالنا، ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك آمالنا.

اللهم طهر قلوبنا من النفاق، وأعمـالنا من الرياء، وألسنتنا من الكذب، وأعيننا من الخيانة فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

## • العنصر الثانى •

## • «وأتبع السيئة الحسنة تمحها» •

**١ - ارتباط هذا العنصر بالتقوى:**

جاء فى دليل الفالحين:

وجه مناسبتهـا لما قبلها، أن العبد مأمور بالتقـوى فى كل حال، ولما كان ربما يفرط، إما بترك بعض المأمـورات، أو فعل بعض المنهيات، وذلك لا ينافى وصف التـقوى كما دل عليه قولـه تعالـى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] إلى أن قـــال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ [آل عمران: ١٣٥] فأمره بما يـمحو به ما فرط فـيه، وهذا العنصر علـى حد قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] وظاهر قوله (تمحها) أن الحسنة تمحو السيئة من الصحف[(٣)]

---

(١) الزهد الكبير للبيهقى ص٢٣٠ نقلاً من كتاب المغنى عن مجالس السوء جـ١/ ١٠٦

(٢) التبصرة جـ١/ ٢٩٥

(٣) دليل الفالحين ١/ ٢٧٧

وقيل: عبر بالمحو عن ترك المؤاخذة بها فهى موجودة فيها بلا محو يوم القيامة، وهذا تجوز يحتاج إلى دليل وإن كان القرطبى نقله فى كتابه التذكرة.

وقيل معناها - إذا وقعت منك سيئة فافعل فى مقابلها حسنة، لتكون جبرًا لما عساك قد ارتكبته فى حال تفريطك ومعصيتك لله تعالى.

وهذه الوصية العظيمة مأخوذة من قول الله جل وعلا كما ذكرنا: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ**﴾ [هود: ١١٤].

فقد ورد فى سبب نزولها ما روى عن ابن مسعود رضي الله عنه: «أن رجلاً أصاب من امرأة قُبله، ثم أتى النبى ﷺ، فذكر ذلك له، فسكت النبى ﷺ حتى نزلت هذه الآية، فدعاه، فقرأها عليه، فقال رجل: هذا له خاصة؟ قال: **بل للناس عامة**»(١)

## • رحمة الله بالعالمين •

ومن رحمة الله العلى الكبير أن جعل هذا المخرج لمن يرتكب ذنبًا، أو يفعل معصية، أتدرى ما هذا المخرج؟! إنه التوبة الصادقة النصوح، قال تعالى بعد ما عدد صفات عباد الرحمن: ﴿**إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا**﴾ [الفرقان: ٧٠، ٧١].

بل إن من رحمة الرحمن الرحيم جل وعلا أنه فتح باب التوبة على مصراعيه أمام العاصين الذين يريدون أن يعودوا إلى رحابه، وجعل هذا الباب مفتوحًا حتى تطلع الشمس من مغربها.

فعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيئ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيئ الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**»(٢)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لو كان لابن آدم واديان من ذهب، لابتغى الثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب**»(٣)

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أوصنى؟ قال: «**عليك بتقوى الله ما استطعت، واذكر الله عند كل حجر وشجر، وما عملت من سوء، فأحدث له توبة: السر بالسر، والعلانية بالعلانية**»(٤)

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٩) وأحمد فى مسنده (١٩٤٢١) والبيهقى فى الشعب.

(٣) رواه البخارى فى كتاب الرقاق ومسلم فى كتاب الزكاة.

(٤) رواه الطبرانى بإسناد حسن قاله المنذرى فى الترغيب.

بل اقرأ معى هذا الحديث العظيم الذى يرشدك إلى أن رحمة الله قد عمت، وأن رحمة الله بعباده رحمة عظيمة واسعة.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «**إنّ الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها، كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة، وإن هَمَّ بها فعملها، كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن همّ بسيئة فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هَمَّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة**»[1]

أبعد هذه الرحمة رحمة، فمن الذى تاب إليه فما قبله! ومن الذى دعاه فما لباه؟ ومن الذى استغفره فما غفر له، إنه يقول: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [الزمر: ٥٣].

## • ما يمحو الله به السيئات •

لقد ذكر لنا إمام الدعاة سيدنا محمد ﷺ للأمة المحمدية، وأرشدها إلى عدة أمور، ما إن فعلها عبد مخلصًا لله رب العالمين، إلا كانت ماحية للخطايا والذنوب، ومنها:

**١- الصلوات الخمس:**

فعن الحسن رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مثل الخمس صلوات كمثل نهر جار على باب أحدكم كثير الماء يغتسل فيه كل يوم خمس مرات فهل يبقى من الدرن شيء؟!**»[2] وفى رواية عن جابر «**مثل الصلوات الخمس، كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات**»[3] وفى رواية للبخارى: «**لو أن نهرًا بباب أحدكم واغتسل فيه خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: كذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا والذنوب**»[4].

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**من أتم الوضوء كما أمر الله تعالى، والصلاة كما أمر كانت كفارة لما بينهما**»[5]

**٢- الوضوء فى السبرات، وكثرة الخطا إلى المساجد:**

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء فى السبرات، والصبر على الكريهات، وكثرة الخطا إلى المسجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط**».

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد (٢٥١٩). (٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) رواه مسلم (٦٦٨) وأحمد فى مسنده (٩٤٧٣) جـ٩/ ٢٣١ وابن أبى شيبة فى مصنفه.

(٤) رواه البخارى (١١٤٩) ومسلم. (٥) رواه مسلم (٢٣١) وأحمد ٤٠٦ جـ١/ ٣٦٦ والنسائى ١/ ٩١

يعنى الحصن من العدو -الشيطان- وقيل: بأنه له فضل المرابط المجاهد فى سبيل الله.

وعن الصنابحى عن النبى ﷺ قال: **«إذا توضأ العبد المؤمن، فمضمض خرجت الخطايا من فيه، فإذا استنشق خرجت الخطايا من أنفه، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه، فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفار يديه، فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه، فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه، ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له»**(١)

والذهاب إلى بيوت الله سبب من أسباب محو السيئات، فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«من تطهر فى بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله كانت خطوتاه إحداهما تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة»**(٢)

وبيان ذلك: أن الفروض الخمسة التى بنى عليها الإسلام لها جهتان:

١- جهة الفرضية وهذه لابد من أدائها منفردًا أو فى جماعة.

٢- جهة كونها شعيرة من شعائر الإسلام وهذه ينبغى أن تكون فى جماعة، فإذا مشى إلى المسجد كانت خطاه داعية لغيره من المسلمين إلى الصلاة لهذا يثاب فى كل خطوة يخطوها، فإن الاجتماع مطلوب مثل طلب العبادة ذاتها. والتعارف لا يكون إلا من خلال الجماعة، والتعارف يؤدى إلى قوة الإسلام والمسلمين واجتماع كلمتهم مما يجعل العدو يخشاهم.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزلاً فى الجنة كلما غدا أو راح»**(٣) والنزل هو ما يعد للزائر عند قدومه، فالمصلى زائر، والمزار هو الله رب العالمين، وحق على المزور أن يكرم زائره فاعبد ربك أخى المسلم كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإن يراك.

يقول أبو سليمان الدارنى -رحمه الله-:

قرأت فى بعض الكتب يقول الله عز وجل: **« بعينى ما تحمل المتحملون من أجلى، وكابد المكابدون فى طلب مرضاتى، فكيف بهم وقد صاروا فى جوارى، وتبجبحوا فى رياض خلدى؟ فهنالك فليستبشر المصفون لله أعمالهم بالمنظر العجيب من الحبيب القريب، أترون أنى أضيع لهم عملاً؟ فكيف وأنا أجود على المولّين عنى فكيف بالمقبلين علىّ؟!»**.

---

(١) رواه ابن ماجه والنسائى ومالك فى الموطأ وأحمد فى مسنده (١٨٩٦٩) بإسناد صحيح وذكره الألبانى فى ص.ج (٤٥٠).

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخارى.

**٣- المشى على الأقدام إلى الجماعات:**

والمشى إلى صلاة الجماعة من الأمور التى تحط الخطايا، وترفع الدرجات مثل نقل الخطا إلى المساجد، فربما ذهب إلى المسجد ولم يصل فى جماعة.

ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«صلاة الرجل فى جماعة تضعف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمسًا وعشرين ضعفًا، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مجلسه تقول: «اللهم صل عليه، اللهم ارحمه» ما لم يحدث فيه، ما لم يحدث فيه»**[١].

**٤- المشى إلى الجمعات والتبكير إليها:**

فمن بكر إلى صلاة الجمعة، وأنصت ولم يلغ محا الله عنه الذنوب والخطايا فعن أوس بن أوس رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكر وابتكر ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام، واستمع ولم يلغ كلن له بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها»**[٢]

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«من توضأ يوم الجمعة فأحسن الوضوء، ثم أتى الجمعة فاستمع، ودنا فأنصت غفر له ما بنيه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام، ومن مس الحصا فقد لغا، ومن لغا فلا جمعة له»**[٣]

**٥- التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل:**

فالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل أى تقول سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا إله إلا الله ففى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: «جاء الفقراء إلى رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم، ولهم من فضل أموال يحجون بها ويعتمرون، ويجاهدون، ويتصدقون فقال رسول الله ﷺ: **ألا أحدثكم بما إن أخذتم به لحقتم من سبقكم، ولم يدركم أحد بعدكم وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه، إلا من عمل مثله: تسبحون وتكبرون وتحمدون خلف كل صلاة ثلاثًا وثلاثين»**[٤]

---

(١) رواه البخارى.

(٢) رواه أبو داود (٣٤٥) وصححه الألبانى والترمذى (٤٩٦) وابن ماجه (١٠٨٧) وأحمد (١٦١٢٦) بإسناد صحيح.

(٣) رواه مسلم وأبو داود وصححه الألبانى (١٠٥٠) جـ١/ ٢٩١ والترمذى (٤٩٨) وابن ماجه (٢٤ ١).

(٤) رواه البخارى (٨٤٣) ومسلم ومالك فى الموطأ - خرج فى موضع آخر.

**٦- ذكر الله تعالى:**

فى أى وقت من الأوقات، فهو يمحو الذنوب، ويرفع الدرجات، فقد ورد عن أبى الدرداء رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها فى درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟** قالوا: بلى يا رسول الله. قال: **ذكر الله عز وجل**»(١)

**٧- زيارة الصالحين وعيادة المرضى:**

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من عاد مريضًا، أو زار أخًا له فى الله ناداه مناد بأن طبت، وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلاً**»(٢)

ويقول ﷺ: «**من زار أخاه المؤمن خاض فى الرحمة حتى يرجع، ومن عاد أخاه المؤمن خاض فى رياض الجنة حتى يرجع**»(٣)

وأمور أخرى كثيرة يمحو الله بها الخطايا والذنوب، ويرفع من درجات العبد، نذكرها فى موضع آخر إن شاء الله، مثل: قضاء حوائج المسلمين، وصلة الرحم، وصوم التطوع، وصلاة النافلة، والحج والعمرة، وغير ذلك من الأمور التى بينها الرسول الأعظم لأمته.

**• موعظة •**

يقول بعض الحكماء: كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره؟! كيف يفرح من يقوده عمره إلى أجله، وحياته إلى موته؟!.

وقال بعضهم: قد اعتورك الليل والنهار، يدفعك الليل إلى النهار، ويدفعك النهار إلى الليل حتى يأتيك الموت(٤)

فيا من كلما طال عمره زاد ذنبه، يا من كلما ابيض شعره بمرور الأيام، اسود بالآثام قلبه.

يا من تمر عليه سنة بعد سنة، وهو مستثقل فى نوم الغفلة والسنة، يا من يأتى عليه عام بعد عام وقد غرق فى بحر الخطايا فعام. احذر السكرة والحسرة قبل أن يفاجئك الموت وأنت على الغرة فلا يصف واصف قدر ما تلقى ولا قدر ما ترى.

قال الفضيل: يقول الله عز وجل: ابن آدم! إذا كنت تتقلب فى نعمتى، وأنت تتقلب فى معصيتى، فاحذرنى لئلاً أصرعك بين معاصى.

نسألك اللهم أن تحفظنا من الآثام، ونسألك ألا تفضحنا بين خلقك يا قاضى الحاجات اقض حوائجنا وهب لنا سؤلنا، وحقق رجاءنا يا كريم يا وهاب، يا رب العالمين.

---

(١) خُرِّج فى موضع آخر.

(٢) رواه ابن ماجه والترمذى واللفظ له، وقال حديث حسن وابن حبان فى صحيحه قاله المنذرى جـ٣/ ٣٦٤ الترغيب.

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط الترغيب ٣/ ٣٦٥

(٤) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلى ص٥٢٣

## • العنصر الثالث •

## • «وخالق الناس بخلق حسن» •

**أخا الإسلام:**

وقبل أن نسير فى هدى الرسول الأعظم ﷺ، لنرى مكانة الأخلاق عنده، ولنتعلم منه الخلق الحسن، نتوقف لنتساءل:

*** ما ارتباط حسن الخلق بالتقوى؟.**

أقول: إن الارتباط بين التقوى وبين حسن الخلق ارتباط وثيق، لأن التقوى تقتضى أن يكون صاحبها ذا مكانة فى الأخلاق عالية، بل إذا عدم حسن الخلق، عدمت التقوى ولذلك عرفها -أى التقوى- بعض العلماء فقال: «التقوى هى حسن الخلق»[(١)]

ولذلك جمع أستاذ البشرية ﷺ بينهما فى هذه الوصية، ولما سئل ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «**تقوى الله وحسن الخلق**»[(٢)]

فالأخلاق الحسنة ترتقى بصاحبها شيئًا فشيئًا حتى تصل به إلى درجة المتقين الصالحين.

### • ماهى الأخلاق؟ وما مضمونها؟ •

الأخلاق منها ما هو طيب، ومنها ما هو خبيث، كالصدق والكذب، والأمانة والخيانة لذلك عرفها أهل اللغة بأنها السجية والطبع سواء أكان حميدًا، أم غير حميد.

وعرفها بعض العلماء بأنها: عادة أو عزيمة مكررة مقصودة، توجه إلى الخير أو إلى الشر.

وعرفها البعض بأنها: الصلة التى توجد بين الإنسان ومثله الأعلى.

وكلمة خُلُق وردت فى القرآن الكريم مرتين:

الأولى: فى سورة القلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وقد جاءت فى مقام المدح.

والثانية: فى سورة الشعراء: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧] جاءت وصفًا لما درج عليه الأولون.

والأخلاق فى القرآن الكريم تقتضى أن ننظر إليها من جهات أربع:[(٣)]

أولاً: من جهة الموضوع. ثانيًا: من جهة الواضع.

---

(١) الغنية لعبد القادر الجيلانى ١/ ١٨٢

(٢) رواه الترمذى وقال: حسن صحيح ورواه ابن حبان فى صحيحه، والبيهقى فى الزهد.

(٣) من كتاب العقيدة الإسلامية والأخلاق بتصرف ص٢٠٤: ٢١٠

ثالثًا: من جهة أساس الشرع.

رابعًا: من حيث الباعث على العمل وأهدافه.

أما الموضوع، فالقانون الأخلاقى فى القرآن الكريم لم يدع صغيرة ولا كبيرة تتعلق بالنشاط الإنسانى إلا وقد رسم لها منهجًا للسلوك تفصيلاً حينًا وإجمالاً حينًا آخر:

فنظم القرآن الكريم علاقة الإنسان بربه، قال تعالى: ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. ﴿ **أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ [الإسراء: ٧٨، ٧٩].

ونظم علاقة الإنسان مع نفسه، فاقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأعراف: ٢] وقوله: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠١] ولما كانت النية لا تنبت إلا فى القلب الطاهر السليم اعتنى القرآن الكريم بالقلب لأنه مصدر الأخلاق، عناية كبيرة حتى ذكره فى أكثر من مائة آية، وبين أن القلوب صحائف الإيمان، قال تعالى: ﴿ **أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ** ﴾ [المجادلة: ٢٢] وأرشدنا إلى أن القلب السليم من الشرك والنفاق ومن الحقد والحسد، والغل والضغينة، هو القلب الفائز عند الله، قال سبحانه: ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

ولقد نظم القرآن الكريم السلوك الأخلاقى المرتبط بين الشخص وإخوانه، فحث على انتقاء الألفاظ الرقيقة المهذبة، قال تعالى: ﴿ **وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [الإسراء: ٥٣]، ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ [فصلت: ٣٤].

وخذ مثلاً من آداب المشى فى الطريق: ﴿ **وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ﴾ [لقمان: ١٨، ١٩] وأمثلة عديدة من آداب الزيارة والوصية بالوالدين، والأمر بالعدل، والإحسان إلى اليتامى والمساكين، وتهذيب الأخلاق بضوابط السلوك، والأمر بالتعاون والرحمة والعفة.

أما من جهة الواضع لقانون الأخلاق، أو ناحية الإلزام الأدبى فى الأخلاق، فإن مصدره إلهى صرف: ﴿ **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ** ﴾ [النحل: ٢ ١]. ﴿ **وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ** ﴾ [الإسراء: ٥ ١].

وهذا بخلاف الأخلاق الفلسفية فإن مصدرها العقل، والعقول متفاوتة، أو الضمير أو الإحساس الأخلاقى الذى ينطوى عليه قلب الإنسان، فإن صانع العقل هو الله المدبر.

وأما من جهة أساس التشريع فهو يعتمد على الحكم المقبولة والمعقولة التى تخاطب الإدراك السليم والوجدان، والأخذ بالأسباب المقنعة التى تبرر أمر السماء.

وأما الجهة الرابعة، وهى الباعث على العمل، والدافع إليه، فهى -الأخلاق- ترسم لنا طريق السير فى الحياة الدنيا، وتجعل هذا الطريق موصلاً إلى الحياة الدائمة، وهى الآخرة التى قال عنها الخالق الأعظم: ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٧].

## • خصائص الأخلاق الإسلامية •(١)

تتميز الخصائص الإسلامية على الأخلاق الوضعية بعدة خصائص وهى:

### ١- الخير المطلق:

فقد كفلت الأخلاق الإسلامية الخير الكامل للبشرية، دون الاستجابة لأى نازع من النوازع، ولم تساير بيئة دون أخرى، لكنها سايرت كل البيئات، وجميع المجتمعات، حيث أمرت بالفضيلة ورغبت فيها، ونهت عن الرذيلة، ورهبت منها، لأنها شر يجب أن يترك ولقد سمت بأصحابها إلى أعالى الدرجات، لأن الخير يجب أن يُفعل لله، والشر يجب أن يُقلع عنه لله، والآيات فى ذلك كثيرة، قال تعالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

### ٢- الصلاحية العامة واليسر:

تتميز الأخلاق الإسلامية بأنها تكفل الخير لجميع الناس فى كل زمان ومكان، وبأنها سمحة سهلة ميسورة، ليس فيها إرهاق، ولا تكليف بما لا يطاق، بل إن الإسلام سنّ أخلاقًا فاضلة، تستريح إليها النفوس النقية، وتهش لها الضمائر الحية، وتؤيدها العقول السليمة، وقد صدق المولى سبحانه حين قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وفى قوله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ولقد أعفى من فريضة الجهاد العاجزين عن القتال مثل الأعمى، والأعرج، والمريض، فقال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧] وأباح للمسافر المضطر، الذى ظن الهلاك أن يأكل من الميتة، فقال سبحانه: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣] وأباح للمسافر والمريض الفطر فى رمضان، فقال: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وبين أن العقوبة لا تكون إلا على ذنب مقصود متعمد، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

---

(١) من كتاب (من أخلاق النبى) د/ أحمد الحوفى بتصرف اختصار من ص٥٣: ٦٣

**٣- الثبات:**

الأخلاق الإسلامية تتسم بالثبات والدوام والاستقرار، لأن المشرع الحكيم راعى فيها كفالة الخير الدائم العام.

**٤- الإلزام المستجاب:**

فليس فى قانون الأخلاق الإسلامية تحايل، لأنها تستمد من ينبوعها قوة نافذة تلزم بها فى العلن والخفاء، وفى السراء والضراء، لأن الرقيب عليها هو الله الذى لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

وهذا الإلزام محبوب مطاع، لأنه أمر أو نهى من الله، فهى تستند إلى سلطان روحى يمدها بأعظم الدوافع على الاستمساك بها والاعتصام، لأن الشارع يحفزهم بالثواب عند فعل الخير ويردعهم بالعقاب عن فعل الشر.

**٥- الرقابة المحيطة:**

وهذه الرقابة تتمثل فى أهم أعضاء هذا المخلوق وهو القلب -كما بينا آنفًا- يقول ﷺ: **«إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب»**(١)

## • الترغيب فى الخلق الحسن وفضله •

**١- أن حسن الخلق يثقل ميزان العبد يوم القيامة:**

مصداقًا للحديث يرويه عن رسول الله ﷺ أبو الدرداء رضي الله عنه أنه قال: **«ما من شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذىء»**(٢)

**٢- أن صاحب الأخلاق العالية يبلغ يوم القيامة درجة الصائمين القائمين:**

ولذلك وردت رواية للحديث السابق: **«وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة»**(٣) وفى رواية: **«إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»**(٤)

**٣- أن الأخلاق الحسنة تكون سببًا فى دخول صاحبها الجنة:**

فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة. فقال ﷺ: **«تقوى الله، وحسن الخلق»** وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار. فقال: **«الفم والفرج»**(٥) الفم بأكله الحرام، والغيبة، والنميمة والسب والشتم، والفرج بالزنا واللواط.

---

(١) رواه البخارى عن النعمان بن بشير.

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢٧٣٦٩) وابن حبان فى صحيحه والترمذى وقال: حسن صحيح وذكره الألبانى فى ص.ج (١٣٤).

(٣) رواه الترمذى أيضًا والبزار بإسناد جيد.

(٤) رواه أبو داود (٤٧٩٨) وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود ٣/ ١٧٨ والمشكاة (٥٠٨٢).

(٥) رواه الترمذى (٢٠٠٤) وابن ماجه (٤٢٤٦) وأحمد وابن حبان فى صحيحه وذكره المنذرى ٣/ ٤٠٣.

**٤- أن الأخلاق الحسنة تكمل إيمان صاحبها:**

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ من أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وألطفهم بأهله»**(١)

**٥- أن الأخلاق الحسنة تقرب صاحبها يوم القيامة من منزلة الأنبياء:** فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا أخبركم بأحبكم إليَّ، وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة؟** فأعادها مرتين أو ثلاثًا، قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: **«أحسنكم خُلُقًا»**(٢)

**٦- أن حسن الخلق من أعظم الوصايا التى كان يوصى بها الرسول الأكرم:**

فعن أنس رضي الله عنه قال: لقى رسول الله ﷺ أبا ذر، فقال: **يا أبا ذر ألا أدلك على خصلتين هما أخف على الظهر، وأثقل فى الميزان من غيرهما؟**. قال: بلى يا رسول الله، قال: **عليك بحسن الخلق، وطول الصمت»**(٣)

**٧- أن الخلق الحسن يصل بصاحبه إلى أعلى الدرجات:**

فعن أبى أمامه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا زعيم بيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا، وبيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وبيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه»**(٤)

**٨- أن حسن الخلق أفضل حسب للمؤمن:**

فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«كرم المؤمن دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه»**(٥)

وعن أبى ذر رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«يا أبا ذر، لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق»**(٦)

---

(١) رواه الترمذى وقال: حسن ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما ورواه أحمد (٧٣٩٦) وذكره الألبانى فى ص.ج (١٢٣٢).

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٦٧٣٥) بإسناد صحيح ورواه ابن حبان فى صحيحه.

(٣) رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى والبزار وأبو يعلى بإسناد جيد رواته ثقات واللفظ له. قاله المنذرى فى الترغيب والترهيب ٣/ ٤٠٧

(٤) رواه ابن ماجه والترمذى وقال: حديث حسن، وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود ( ٤٨٠) وهو فى السلسلة الصحيحة برقم (٢٧٣).

(٥) رواه ابن حبان فى صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ورواه البيهقى وأحمد فى مسنده (٨٧٥٩) وضعفه البعض.

(٦) رواه ابن حبان فى صحيحه قاله المنذرى فى الترغيب جـ٣/ ٤٠٥.

**٩- أن حسن الخلق صاحبه محبوب من الله تعالى:**

فعن الحسين بن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تعالى يحب معالى الأمور، وأشرافها، ويكره سفاسفها**»(١) وفى رواية عن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه: «**إن الله يحب معالى الأخلاق ويكره سفسافها**»(٢)

قال المناوى: «إن الله يحب معالى الأمور وأشرافها وهى الأخلاق الشرعية، والخصال الدينية، لا الأمور الدنيوية، فإن العلو فيها نزول، ويبغض حقيرها ورديئها، فمن اتصف من عبيده بالأخلاق الزكية أحبه، ومن تحلى بالأوصاف الرديئة كرهه، وشرف النفس صونها عن الرذائل والدنايا، والمصمع القاطعة لأعناق الرجال، فيربأ بنفسه أن يلقيها فى ذلك»(٣)

**١٠- أن أفضل أنواع البر والإحسان هو حسن الخلق:**

فعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم، فقال: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك فى النفس، وكرهت أن يطلع عليه الناس**»(٤)

وقد ورد أن ابن لقمان الحكيم قال لأبيه:

يا أبت، أى الخصال من الإنسان خير؟ قال: الدين. قال: فإذا كانت اثنتين؟ قال: الدين والمال، قال: فإن كانت ثلاثًا؟ قال: الدين والمال والحياء، قال: فإن كانت أربعًا؟ قال: الدين والمال والحياء وحسن الخلق. قال: فإن كانت خمسًا؟ قال: الدين والمال والحياء، وحسن الخلق والسخاء. قال: فإن كانت ستًّا؟ قال: يا بنى إذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو تقى نقى، ولله ولى، ومن الشيطان برىٌّ(٥)

فيا طالب الجنة، ويا هاربًا من النار، ويا حريصًا على حسن السيرة، وحسن السير والسلوك عليك بحسن الخلق، فسوف تجده فى ميزان حسناتك: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾ [آل عمران: ٣٠].

اتق الله وراقب ربك ليحيا ضميرك، وينمو إحساسك بالخير، وشعور رغبتك فى الفضيلة، ونفورك من الرذيلة، وحسن خلقك مع الله بطاعته، واتباع أوامره، والبعد عن نواهيه، وحسن خلقك مع الناس بالصبر على جفائهم، والتودد إليهم تكن من السعداء.

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير وصححه الألبانى فى ص.ج (١٨٨٦).

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية ٨/ ١٣٣ والحاكم، وصححه الألبانى فى ص.ج (١٨٨٥).

(٣) فيض القدير للمناوى جـ٢/ ٢٩٥ ونقلت من الجزاء من جنس العمل ٢/ ١١١، ١١٢

(٤) رواه مسلم ٤/ ٢٥٥٣ والترمذى (٢٣٨٩) وأحمد (١٧٥٦٣).

(٥) تهذيب إحياء علوم الدين ص٣٠٧

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٨] وإياك وسوء الخلق، فإنه يبلغ بصاحبه أسفل درك جهنم ولو كان عابدًا، فعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن العبد ليبلغ بسوء خلقه أسفل جهنم وهو عابد**»[١] إياك وسوء الخلق فإنه شؤم على صاحبه كما قال ﷺ: «**حسن الملكة نماء، وسوء الخلق شؤم**»[٢]

ويقول الحسن البصرى: من ساء خلقه عذَّب نفسه[٣]

وقال الفضيل بن عياض: لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق، أحبُّ إلىَّ من أن يصحبنى عابدٌ سيئ الخلق[٤]

## • أعظم الناس خلقًا •

## • محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم •

**أخا الإسلام:**

لقد امتدح الله نبيه محمدًا ﷺ، فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

**لم يقل مولانا: وإنك لذو خلق عظيم، وإنما قال: لعلى، بجر الحرف على الذى يفيد الاستعلاء والارتفاع، وكأن الرسول الأعظم ﷺ متربع فوق عرش الأخلاق، فالأخلاق إذا ذكرت كان هو عنوانها، وكان هو سيدها، ولم يقل مولانا: وإنك لعلى جاه عريض، أو نسب عظيم، ولكن قال: خلق، لأن الأخلاق أعلى من الجاه والسلطان، وأعلى من الأنساب لذا قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.**

سيدى أبا القاسم يا رسول الله:

| | |
|---|---|
| **يا سيد السادات يا من قدره** | **لا تستطيع له الورى إدراكا** |
| **ماذا يقول الناس فيك وربهم** | **بأتم تربية له رباك** |
| **حلاك بالخلق العظيم وفضله** | **الفضل العظيم عليك ما أعلاك** |
| **آواك من يتم وأعطاك الغنى** | **ولدينه الدين القويم هداك** |
| **شكرًا لك اللهم أنت كفلته** | **نعم الكفيل تقدست أسماك** |

لقد شهد له ميسرة قبل النبوة، عندما رأى من أخلاقه ما ملأ قلبه دهشة له، وإعجابًا رأى الصدق فى صورته الحقيقية، ورأى الأمانة مجسمة فى معاملته.

رآه سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى، سمحًا إذا اقتضى، رآى فيه الأمانة فى أسمى معانيها.

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير (٧٥٤) بإسناد جيد قاله العراقى فى تخريج الإحياء ٣/ ٥٠، ٥١.

(٢) رواه أبو داود (٥١٦٢) وضعفه الألبانى فى ضعيف سنن أبى داود.

(٣)، (٤) الإحياء للغزالى ٣/ ٥٢

لقد أدلى ميسرة بهذه الشهادة، وإنها لشهادة حق، وما زاد ميسرة على الحقيقة شيئًا.

ولقد صدق الإمام الغزالى حين قال: «إذا أثنى على الرجل جيرانه فى الحضر، ورفقاؤه فى السفر، ومعاملوه فى الأسواق، فلا تشكوا فى دينه.

وجاء فى كتاب (**المثل الأعلى فى الأنبياء**) تحت عنوان: (المثل الأعلى فى الأخلاق) فيقول: «نزل جبريل الأمين بالوحى على النبى ﷺ فى غار حراء، فأخذته رعدة شديدة، فرجع إلى خديجة ترجف بوادره ويقول: «**زملونى زملونى**» فزملوه حتى ذهب عنه الورع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: **يا خديجة لقد خشيت على نفسى**، فقالت: كلا والله، لا يخزيك الله أبدًا، إنك تصدق الحديث، ولا تجزى السيئة بالسيئة، وتؤدى الأمانة، وتصل الرحم، وإن خلقك لكريم، ولست بسخاب فى الأسواق[1]

ولذلك فإنه قد حدد مهمة رسالته الخاتمة منذ بعثته ﷺ حين يقول: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» وفى رواية: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»[2]

ولذلك كان الرسول ﷺ المثل الأعلى بأخلاقه، وحلمه، وسلوكه، فهذا هو «الطفيل ابن عمرو» يأتى إلى مكة، يأتى إليها ورحى الصراع قائمة بين أهلها وبين رسول الله ﷺ، وحينئذ تستقبله الصحافة الإعلامية المكية الخبيثة، فتقول له: يا طفيل: إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى قد أفسد أمرنا، وفرق شملنا، وشتت جمعنا، ونحن نخشى عليك منه، وأن يحلَّ بك وبزعامتك فى قومك ما قد حل بنا!! فلا تكلم الرجل، ولا تسمعنً منه شيئًا، فإن له قولاً كالسحر يفرق بين الولد وأبيه، والأخ وأخيه، والزوج وزوجه!!.

يقول الطفيل، فو الله مازالوا بى يقصون على ويخوفوننى وقومى من محمد حتى أجمعت أمرى على ألا أقترب منه، ولا أكلمه كلمة واحدة، أو أسمع منه شيئًا!!.

فلما غدا الطفيل إلى المسجد ملأ أذنيه قطنًا خوفًا من أن يسمع من النبى ﷺ، ولكن هيهات هيهات!! يقول الطفيل: فلما دخلت المسجد وجدته قائمًا يصلى عند الكعبة صلاة غير صلاتنا، ووجدت نفسى قريبًا منه، وأبى الله إلا أن يُسمعنى بعض ما يقول محمد ﷺ، فسمعت كلامًا حسنًا.

فقلت: ثكلتك أمك يا طفيل إنك لرجل لبيب شاعر، وما يخفى عليك الحسن من القبيح، فما يمنعك أن تسمع من الرجل ما يقول؟!!.

---

(١) حديث من القلب ص٤٤، ٤٥.

(٢) رواه البخارى فى الأدب والحاكم والبيهقى عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى ص.ج رقم (٢٣٤٥).

ثم تبع النبى ﷺ وطلب منه أن يعرض عليه أمره، فعرض النبى ﷺ الإسلام، يقول الطفيل: فو الله ما سمعت قولاً أحسن من قوله، وما رأيت أمرًا أعدل من أمره، فبسطت يدى له، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ودخلت الإسلام(١).

كان ألين الناس كفًا، وأعظم العالمين خُلقًا وخَلقًا، وكان يحض على الأخلاق.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ قال: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، وكان يقول: إنَّ من خياركم أحسنكم أخلاقًا»(٢).

ولقد بلغ من شغفه بمكارم الأخلاق أنه أطلق من السبى بنت حاتم الطائى مكافأة لكرم أخلاق أبيها، فإنها جاءت إلى النبى ﷺ فى سبايا طيئ، فقالت: يا محمد، إن رأيت أن تخلى عنى، ولا تشمت بى أحياء العرب، فإنى بنت سيد قومى، وإن أبى كان يحمى الذِّمار، ويفك العانى، ويشبع الجائع، ويطعم الطعام، ولم يرد طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم الطائى.

فقال ﷺ: يا جارية، هذه صفة المؤمنين، حقًا، لو كان أبوك مسلمًا لترحمنا عليه، خلوا عنها، فإنَّ أباها كان يحب مكارم الأخلاق(٣)

فقام أبو بُرْدَةَ بن نَيَّار، فقال: يا رسول الله، الله يحب مكارم الأخلاق؟ فقال ﷺ: **«والذى نفسى بيده لا يدخل الجنة إلا حسن الخلق»**.

فصلوات ربى وتسليماته عليك يا سيدى يا رسول الله، يا من

**ولدت بمولدك المكارم والندى ... والحلم عند الغيظ والإحسان**
**والرفق والصفح الجميل عن الأذى ... والعزة الشماء والغفران**
**فأقمت للخلق الكريم منارة ... وسما بعذب حديثك التبيان**
**فصل الخطاب لقد ملكت زمامه ... ونثرت ما لم يستطعه لسان**
**وأتيت بالتوحيد صرفًا خالصًا ... لله لم يشرك به إنسان**

## • بيان حقيقة حسن الخلق •

لقد اختلفت كلمة العلماء فى حقيقة حسن الخلق على عدة أقوال منها:

قال الحسن: حسن الخلق: «بسط الوجه، وبذل الندى، وكف الأذى»(٤).

وقال الواسطى: هو ألا يخاصم ولا يخاصم من شدة معرفته بالله تعالى(٥).

وقال شاه الكرمانى: هو كف الأذى، واحتمال المؤن(٦)

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة، وذكره ابن الأثير فى أسد الغابة ٢/ ٤٨٥، ٤٨٦ مطولاً.

(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى. (٣) الإحياء ٢/ ١٠٣

(٤): (٦) تهذيب إحياء علوم الدين ص٣٠٨

وقال الحسين بن منصور: هو أن يؤثر -أى يعرف عنك- فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق[١]

وقال يحيى بن معاذ: فى سعة الأخلاق كنوز الأرزاق[٢]

وقال أبو أيوب السختيانى: لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عما فى أيدى الناس، والتجاوز عما يكون منهم[٣]

وقال طاووس: إن هذه الأخلاق منائح يمنحها الله عز وجل، من يشاء من عباده، فإذا أراد الله بعبد خيرًا منحه خلقًا صالحًا[٤]

**يقول الإمام الغزالى فى «الإحياء»[٥]:**

وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقًا لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد، بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر، فكذلك فى الباطن أربعة أركان لابد منها ليتم حسن الخلق، فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حَسُنَ خُسْنُ الخلق وهى:

١- قوة العلم. ٢- قوة الغضب.

٣- قوة الشهوة. ٤- وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث.

١- أما قوة العلم فتعرف بها وتدرك الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال، وبين الحق والباطل فى الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح فى الأفعال.

٢- وأما قوة الغضب: فحسنها فى أن يُصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة.

٣- وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها فى أن تكون تحت إشارة الحكمة -أى العقل والشرع-.

٤- وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع.

فمن استوت فيه هذه الخصال، واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقًا. ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة.

## • صفة حسن الخلق عند الإمام أحمد بن حنبل •

لقد ذكر الإمام البيهقى فى شعب الإيمان كلامًا ذهبيًّا لإمام أهل السنة الإمام أحمد ابن حنبل -رحمه الله- قال فيه: «ومعنى حسن الخلق: سلامة النفس الأرفق الأحمد من الأفعال، وقد يكون ذلك فى ذات الله تعالى، وقد يكون فيما بين الناس.

---

(١) تهذيب إحْياء علوم الدين ص٣٠٨

(٢) الإحياء للغزالى ٣/ ٥٢.

(٣) مكارم الأخلاق لابن أبى الدنيا رقم (٤٢).

(٤) المرجع السابق (٣٢).

(٥) تهذيب إحياء علوم الدين ص٣٠٨، ٩ ٣

وهو فى ذات الله عز وجل أن يكون العبد منشـرح الصدر بأوامر الله ونواهيه، يفعل ما فرض عليه، طيب النـفس به، سلسًا نحوه، وينتهى عما حُرم علـيه، واسعًا به صدره، غير متضجر منه، ويرغب فى نوافل الخير، ويترك كثيرًا من المباح لوجه الله تعالى، إذا رأى أن تركه أقرب إلى العبودية.

وهو فى المعاملات بين الناس أن يكون سمحًا بحقوقه لا يطالب غيره بها، ويوفى ما يجب لغيره منهـا، فإن مرض فلم يُعَدْ، أو قدم من سفر فـلم يُزَرْ، أو سلَّم فلم يُردّ عليه، أو دخل على قوم فلم يـمكَّن، أو تكلم فلم يُنْصَتْ له، أو استأذن عـلى صديق فلم يؤذن له، أو خطب فلم يُزَوج، أو استـمهل الدَّيْنَ فلم يُمهل، أو استنقص فلم يُـنقص وما أشبه ذلك لم يغضب، ولم يـعاقب، ولم يتنكر من حاله، ولم يسـتشعر فى نفسـه أنه قد جفى وأوحش، وأنه يقابل كل ذلك إذا وجـد السبيل إليه بمثله، بل يضمـر أنه لا يعتد بشىء من ذلك، ويقابل كلاً منه بما هو أحـسن وأفضل وأقرب إلـى البر والتقـوى وأشبه بما يحـمد ويرضى، ثم يكون فـى إيفاء ما يكون علـيه كهو فـى حظٍّ ما يكون له، فإذا مـرض أخوه المسلم عاده، وإن جاءه فى شفاعة شفَّعه، وإن اسـتمهله، فى قضاء دين أمهله، وإن احتاج منه إلى معونة أعانه، وإن استسمحـه فى بيع سمح له، ولا ينظر إلى أن الذى يعامله كيف كانت معاملته إياه فيما خلا أو كيف يعامـل الناس، إنما يتخذ الأحسن إمامًا لنفسه، فينحو نحوه ولا يخالفه[1] انتهى

**أخى فى الله.**

أعد قراءة هذا النص مـرة ثانية وثالثة ورابعة، ثم قـل لى بربك: أين نحن من هذه الصفات التى ذكرها الإمام أحمد؟!.

إن من تأمل هذا النص الذى نقله الإمام البيهقى عن الإمام أحمد، وجد أننا جميعًا- إلا من رحم ربى- بعيـدون عن حسن الخلق بعد المشـرقين فلا صفح ولا عـفو، ولا وفاء بالوعد، ولا كظم الغيـظ، ولا قضاء للحقوق، وإنما تناحر، وتبـاغض، وتدابر، وتحاسد، وتقاطع وتشاجر، وتهاجر.

فأى أمـة نحن؟! أنحن خيـر أمة أخرجت لـلناس؟ أنحن أمة خـاتم الأنبياء وسـيد المرسلين؟ أنحن الأمة التى ستشهد على الأمم يوم القيامة؟.

---

(١) شعب الإيـمان للبيـهقى ١٤/ ١٣١، ١٣٢ نقـلاً من كتاب المغـنى عن مجالس الـسوء جـ١/ ١٠٣، ١٠٤

فلله در إمامنا الشافعى، فقد حث على مكارم الأخلاق يقول:

لما عفوت ولم أحقد على أحد ... أرحت نفسى من هم العداوات[1]
إنى أحيى عدوى عند رؤيته ... لأدفع الشر عنى بالتحيات
وأظهر البشر للإنسان أبغضه ... كما أن قد حشا قلبى محبات
الناس داء ودواء الناس قربهم ... وفى اعتزالهم قطع المودات

ثم يقول ليرشدك إلى أن تعرض عن الجاهل:

أعرض عن الجاهل السفيه ... فكل ما قال فهو فيه[2]
ما ضر بحر الفرات يومًا ... أن خاض بعض الكلاب فيه

ويقول:

يخاطبنى السفيه بكل قبح ... فأكره أن أكون له مجيبًا[3]
يزيد سفاهة فأزيد حلمًا ... كعود زاده الإحراق طيبًا

## • علامات حسن الخلق •

### أخا الإسلام:

اعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه، فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصى، ربما يظن بنفسه أنه قد هذَّب نفسه، وحسَّن خلقه، واستغنى عن المجاهدة، فلابد من إيضاح علامة حسن الخلق، فإن حسن الخلق هو الإيمان وسوء الخلق هو النفاق، وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين فى كتابه، وهى بجملتها ثمرة حسن الخلق، وسوء الخلق، فلنورد حملة من ذلك لنعلم آية حسن الخلق قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١: ١١] وقال سبحانه: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢] وقال سبحانه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ۝ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ

(١): (٣) ديوان الإمام الشافعى ص١٩، ٢

عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مع اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣: إلى آخر السورة] فمن أشكل عليه حاله، فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض، فاشغل نفسك بتحصيل ما فقدته منها، واحفظ ما وجدته.

ومن علامات حسن الخلق: أن يكون الشخص كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، برًا وصولاً، وقورًا صبورًا شكورًا، رضيًّا حليمًا، رقيقًا عفيفًا شفيقًا، لا لعانًا ولا سبَّابًا، ولا نمامًا ولا مغتابًا، ولا عجولاً ولا حقودًا، ولا بخيلاً ولا حسودًا، بشاشًا هشاشًا، يحب فى الله، ويبغض فى الله، ويرضى فى الله، ويغضب فى الله[1]

وأول ما يمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى، واحتمال الجفاء، ومن شكا من سوء خلق غيره، دَلَّ ذلك على سوء خلقه، فإن حسن الخلق احتمال الأذى فقد روى أن رسول الله ﷺ كان يمشى ومعه أنس، فأدركه أعرابى فجذبه جذبًا شديدًا، وكان عليه برد نجرانى غليظ الحاشية. قال أنس رضي الله عنه حين نظرت إلى عنق رسول الله ﷺ وقد أثرت فيه حاشية الرداء من شدة جذبه، فقال: يا محمد، هب لى من مال الله الذى عندك، فليس المال مالك ولا مال أبيك، فسكت النبى ﷺ، ثم قال: **المال مال الله وأنا عبده، ثم قال: ويُقاد منك يا أعرابى ما فعلت بى!.**

قال الأعرابى: لا قال الرسول ﷺ: ولم؟ قال الأعرابى: **لأنك لا تكافئ السيئة بالسيئة** فضحك رسول الله ﷺ، ثم أمر أن يحمل للأعرابى على بعير شعير، وعلى الآخر تمر[2].

(١) انظر تهذيب إحياء علوم الدين ص٣١٣، ٣١٤

(٢) رواه البخارى ومسلم.

وروى أن أبا عبد الله الخياط كان يجلس على دكانه، وكان له حريف -أى من يعامله فى صناعته وكان مجوسيًا يستعمله فى الخياطة، فكان إذا خاط له شيئًا حمل إليه دراهم زائفة، فكان أبو عبد الله يأخذها منه ولا يخبره بذلك، ولا يردها عليه، فاتفق يومًا أن عبد الله قام لبعض حاجته، فأتى المجوسى فلم يجده، فدفع إلى تلميذه الأجرة، واسترجع ما قد خاطه، فكان درهمًا زائفًا، فلما نظر إليه التلميذ عرف أنه زائف، فرده عليه، فلما عاد أبو عبد الله أخبره بذلك، فقال: بئس ما عملت، هذا المجوسى يعاملنى بهذه المعاملة منذ سنة، وأنا أصبر عليه، وآخذ الدرهم منه، وألقيها فى البئر لئلا يغر بها مسلمًا[1]

وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم، قيل: وما بلغ من حلمه؟ قال: بينما هو جالس فى داره إذ أتته جاريه له بسَفُّودٍ عليه شواء -الحديدة التى يشوى عليها-، فسقط من يدها على ابن له صغير فمات، فدهشت الجارية، فقال لها: لا روع عليك، أنت حرة لوجه الله تعالى[2]

وكان ليحيى بن زياد الحارثى غلام سوء، فقيل له: لم تمسكه؟ فقال: لأتعلم الحلم عليه[3]

## • الوصية رقم (٩٧) •

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقى**»[4]

صدق رسول الله ﷺ

## • تأملات فى الوصية •

### أخى المسلم:

لو تأملت هذه الوصية العظيمة لوجدت أنها وصية غالية عظيمة، رغم قلة ألفاظها، إلا أن من أوتى جوامع الكلم ﷺ جعلها كحجر أساس فى كيفية اختيار الأصحاب والأصدقاء، وكأن سائلاً سأل أستاذ البشرية، ومعلم الإنسانية فقال له: «من أصاحب؟» و«من يأكل طعامى؟» فكانت الإجابة أرق من النسيم فى جملتين: «**لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقى**» ولو تأملت هاتين العبارتين لوجدت أنهما نهيان، بل كل منهما

(١ ٣) تهذيب إحياء علوم الدين ص٣١٥

(٤) صحيح: رواه أحمد فى مسنده ١٠/١٢٣ (١١٢٧٦) والترمذى وحسنه فى الزهد (٢٣٩٥) باب/ما جاء فى صحبة المؤمن، وابن حبان (٤٩ ٢) وأبو داود فى سننه وصححه الألبانى (٤٨٣٢) حـ٣/١٨٧ باب/ من يؤمر أن يجالس.

يتضمن أمرًا بشىء، ونهيًا عن شىء آخر، كما يفهم من أسلوب الحصر أو القصر الذى أداته «إلا» وكأن الرسول ﷺ أمره بأن يقتصر فى صحبته على من كان من أهل الإيمان، والأمر بالشىء يقتضى النهى عن ضده، وهو صحبة الأشرار. والآخر أمر بأن يطعم الأتقياء الصالحين، ونهى عن إطعام الفسقة والمبتدعين.

## • لماذا الصحبة؟ •

إن الإنسان فى هذه الحياة لا يستطيع أن يعيش وحده، أو يعيش منعزلاً عما حوله لكنه بفطرته يحب الاجتماع ويميل إليه، فهو يحتاج إلى من يؤنسه، أو يعاونه فى أمر من أموره، أو يحكى له حدثًا من أحداث حياته، أو يبوح له بسر من أسراره، بل يحب كل إنسان أن يشعر بقيمة حياته، فيكون له من الأصحاب من إذا مرض عاده، وإذا غاب سأل عنه، ومن إذا وقع فى محنة سانده، وشد أزره، من هنا كانت الصحبة ضرورية فى حياة هذا الإنسان، فالصديق الحقيقى هو بمثابة اليدين؛ تغسل إحداهما الأخرى، فكل منهما يجد أخاه عونًا له فى السراء والضراء، بل يتعدى هذا الأنس إلى الحياة الأخروية فى الجنة دار الهناء التى قال الله فى أهلها: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

**يقول الإمام الغزالى فى فوائد الصحبة:**

ويطلب من الصحبة فوائد: دينية، ودنيوية.

أما الدنيوية فكالانتفاع بالمال، أو الجاه، أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة والمجاورة، وليس ذلك من أغراضنا.

وأما الدينية فتجتمع فيها أغراض مختلفة، إذ منها الاستفادة من العلم والعمل، ومنها الإستفادة من الجاه تحصنًا به عن إيذاء من يشوش القلب، ويصد عن العبادة، ومنها الاستفادة من المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات فى طلب القوت، ومنها الاستعانة فى المهمات فيكون عُدةً فى المصائب، وقوة فى الأحوال، ومنها انتظار الشفاعة فى الآخرة، فقد قال بعض السلف: «استكثروا من الإخوان، فإن لكل مؤمن شفاعة، فلعلك تدخل فى شفاعة أخيك»(١)

## • القرآن يرغب فى مصاحبة الأخيار ويرهب من مخالطة الأشرار •

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]

---

(١) تهذيب إحياء علوم الدين هارون عبد السلام ص١٩٦، ومختصر منهاج القاصدين ص١٥٨ دار القلم.

فالمراد بحزب الله هنا، أنصار الله، وقيل: حزب الله هم الذين يدينون بدينه ويطيعونه فينصرهم، وقيل هم: أولياء الله. فالآية حث على مخالطة الصالحين، ثم جاءت الآية بعدها تنهى عن محبة الأشرار ومخالطتهم فقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٧].

قال الإمام الرازى فى مفاتح الغيب: «قيل: كان رفاعة بن زيد، وسويد بن الحارث أظهرا الإيمان ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما -أى يحبونهما ويصاحبونهما- فأنزل الله فيهما هذه الآية(١)

وها هو رب العالمين جل وعلا يأمر حبيبه محمداً ﷺ أن يعرض ويجتنب مخالطة الأشرار ومصاحبة اللئام فيقول سبحانه: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٨] ومعلوم أن الأمر للرسول ﷺ أمر للأمة كلها ثم يأمره مولانا تبارك وتعالى بأن يصبر نفسه مع أهل الإيمان، ومخالطتهم، ومجالستهم للتعليم والنصح والاسترشاد منه، والتفقه على يديه، فيقول: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... ﴾ ثم يعقبها الأمر بالإعراض عن الغافلين المتكبرين على الحق فيقول: ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨] ويشبه هذه الآية المباركة قوله تعالى: ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام: ٥١].

فقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: مرَّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده صهيب، وخباب، وبلال، وعمَّار وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء عن قومك؟ أفنحن نكون تبعًا لهؤلاء، اطردهم عن نفسك، فلعلك إن طردتهم اتبعناك، فقال ﷺ ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٤]، فقالوا: أقمهم عنا إذا جئنا، فإذا قمنا فأقعدهم معك إن شئت، فقال: نعم. طمعًا فى إيمانهم(٢)

## • بمَ شبه الرسول ﷺ الجليس الصالح والجليس السوء •

لقد شبه أستاذ الفصاحة والبلاغة كلاً من الجليس الصالح، والجليس السوء بأبلغ عبارة، وأفصحها فقال فى الحديث الذى يرويه لنا سيدنا أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه: «**مثل الجليس الصالح، والجليس السوء كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك إمَّا أن**

(١) التفسير الكبير للرازى جـ١١/ ٦٩

(٢) أسباب النزول للواحدى ص١٧٧، ومفاتيح الغيب للفخر الرازى ١١/ ٥٢

**يحذيك، وإمَّا أن تبتاع منه، وإمَّا أن تجد منه رائحة طيبة .. ونافخ الكير إمَّا أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة»**(١)

فجليس الأخيار إما أن يعطى بمجالستهم من الفيوض الإلهية أنواع الهبات: حباء وعطاء، وإما أن يكتسب من المجالس خيرًا، وآدابًا يكتسبها عنه، ويأخذها منه، وإما أن يكتسب حسن الثناء بمخاللته ومخالطته.

وأما جليس الصاحب السيئ إما أن يحترق بشؤم معاصيه، قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً**﴾ [الأنفال: ٢٥] وقال تعالى: ﴿**وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ**﴾ [هود: ١١٣] وإما أن يدنس ثناءه بمصاحبته. ففى الحديث بيان نتائج كل من صحبة الأخيار والأشرار(٢)

فمجالسة الصالحين والأخيار فيها خير لمن يجالسهم، وأن مجالسة الطالحين وأهل الفسق والفجور، وقرناء السوء لا تنتج إلا ثمرة فاسدة.

فكما أن بائع المسك لا تجد عنده إلا ريحًا طيبة، محببة إلى نفسك فتشترى منه بغية التطيب، وإن كنت من جلسائه ولم يهبك شيئًا فقد استمتعت أنفك بروائحه الطيبة. كذلك الرجل الصالح، لا تسمع منه إلا كلامًا طيبًا، وذكرًا وتذكيرًا بالله عز وجل، وربما كان عالما فتزداد منه علمًا، وإن كان من أهل الزهد عرفت منه أنَّ الدنيا زائلة، وأنه لا فلاح لطامع فى الدنيا، وإن كان عابدًا، سمعت منه ذكرًا طيبًا أو تلاوة للقرآن يطمئن بها قلبك.

أما الحداد فمهنته تعتمد على النار لإحماء الحديد، ولهذا فهو يستخدم الكير لينفخ فى النار لتتوهج، وربما يتطاير منها الشرر، أو يخرج منها دخان تضيق به نفسك، فمن جالسه أصيب بنار كيره، أو شرره أو دخانه.

كذلك رجل السوء، قد يكون زلق اللسان، طعانًا أو لعانًا كثير اغتياب الآخرين أو يكون من أصحاب الشهوات، فتجده يكثر الكلام عنها، وقد يكون رجلاً ظالما فتجده يدافع عن ظلمه، وقد يكون منحرفًا نحو الجرائم، فتجد قصصه عن الانحراف والمنحرفين.

وشتان ثم شتان بين الصاحبِ الخيِّر، والصاحب الشرير.

## • أنواع الأصدقاء •

**بين العلماء أن الأصدقاء أنواع ثلاثة:**

**النوع الأول:** فهو كالغذاء لابد منه، **والثانى:** كالدواء يحتاج إليه فى وقت دون وقت، **والثالث:** كالداء لا يحتاج إليه قط.

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود مختصرًا (٤٨٢٩) وأبو الشيخ فى الأمثال (٣٢٥) والقضاعى (١٣٧٧).
(٢) دليل الفالحين ٢/ ٢٢٩

وقد قيل: مَثَلُ جملة الناس كمثل الشجر والنبات فمنها ما له ظل، وليس له ثمر، وهو مثل الذى ينتفع به فى الدنيا دون الآخرة، فإن نفع الدنيا كالظل السريع الزوال، ومنها ما له ثمر وليس له ظل.

ومنها ما ليس له واحد منهما.

يقول الشاعر:

**الناس شتى إذا ما أنت ذقتهم لا يستوون كما لا يستوى الشجر**

**هذا له ثمر حلو مذاقته وذاك ليس له طعم ولا ثمر**

وقد وضح النبى الأكرم أن البشرية أصناف وأنواع مختلفة منهم الصالح ومنهم الطالح منهم النفيس، ومنهم الخسيس فقال ﷺ: «**تجدون الناس معادن، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا**»(١) فهم يشبهون معادن الأرض، **فكما** أن الأرض منها النفيس، ومنها الرخيص، فالناس كذلك فيهم الشريف، **وفيهم الحقير**، وفيهم من تجتمع فيه صفات من هؤلاء وهؤلاء.

وما دام الناس كذلك فلكى يصاحب إنسانٌ إنسانًا آخر لابد من التآلف والتوافق وذلك يكون حسب الطبائع المختلفة، فكما يقال: «الطيور على أشكالها تقع» فكذلك يقول معلم الإنسانية فيما يرويه عنه أبو هريرة ؓ: «**الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**»(٢) فالظواهر التى تبدو لنا ونراها فى الاجتماعات العامة، ميل كل امرئ إلى من يشاكله ويناسبه، روحًا وخلقًا، أو دينًا، وأدبًا أو مبدأً أو مذهبًا أو حرفة وعملاً فأهل الخير يتآلفون مع بعضهم، وكذلك أهل الشر يفعلون.

ثم إنك تجد دائمًا أن أهل الحق والتقوى والصلاح ينفرون من مجالسة أو مصاحبة أهل الفسق والفجور.

فعن عمرة بنت عبد الرحمن قالت: كانت امرأة بمكة مزَّاحة، فنزلت على امرأة مثلها فى المدينة، فبلغ ذلك عائشة، فقالت: صدق حِبى سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**»(٣)

فالأخيار الأبرار الأتقياء الأطهار، إذا وجدوا فى مجتمع جذبوا أشباههم، أو انجذبوا إليهم، وسرى بينهم تيار من المحبة جمع قلوبهم، وقوى روابطها، وثبت صلتها. وكذلك الأشرار والفجار والفسقة والظلمة، إذا حضروا بنادٍ بادر إليهم قرناؤهم من الفسقة واللئام.

---

(١) رواه البخارى فى كتاب المناقب ومسلم فى فضائل الصحابة ورواه أحمد فى مسنده (١٠٧٣٧) وأبو نعيم فى الحلية ٦/ ٢٥٦ شطره الأول وأبو الشيخ فى الأمثال.

(٢) رواه مسلم فى البر والصلة، والبخارى فى الأدب المفرد (٢٩٢) وأبو داود (٤٨٣٤) وأحمد فى مسنده (٧٩٢٢) وأبو الشيخ (٢ ١).

(٣) رواه أبو يعلى فى مسنده بسند جيد.

وهذا يدل على أن شبه الشىء منجذب إليه بالطبع، وإن كان هو لا يشعر به، وقد كان مالك بن دينار يقول: «لا يتفق اثنان فى عشرة إلا وفى أحدهما وصف عن الآخر، وإن أجناس الناس كأجناس الطير، ولا يتفق نوعان من الطير فى الطيران إلا وبينهما مناسبة» ولذلك رأى يومًا غرابًا مع حمامة، فعجب من ذلك، فقال: اتفقا وليس من شكل واحد، ثم طارا فإذا هما أعرجان، فقال: من هاهنا اتفقا[١]

ولذلك قال بعضهم:

**فلا تحتقر نفسى وأنت خليلها ... فكل امرئ يصبو إلى من يشاكل**

واعلم -هداك الله- أنه لا يشترط فى التآلف توافق وتطابق جميع الطباع عند كل المتآلفين وإنما التطابق يكون بتشابه غالب طباع وأخلاق المتآلفين.

لكن إذا رأيت اثنين توافقا لفترة ما ثم تنافرا، فاعلم أن أحدهما تبدَّلت أخلاقه عن الآخر، أو لعل هذا التوافق كان يقوم على التظاهر والخداع، أو لأسباب زال أثرها، وأما العلاقة الدائمة والموصولة فهى التى تقوم على إخلاص الود والعهد بين الاثنين أو الجماعة طاعة لله عز وجل، فمن أحب لله وفى الله فقد صدق مع ربه، ثم مع نفسه والآخرين.

فانظر أخى المسلم وتأمل أى صنف من الناس تصاحبه، وقد عز أهل الإخلاص كما قال نبى الإخلاص ﷺ فيما يرويه عنه الصحابى الجليل: ابن عمر رضي الله عنه: **«إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة»**[٢]

**والمعنى:** أنَّ المؤمن المتصف بالإخلاص والإقبال على الله وعلى طاعة الله عز وجل نادر الوجود حتى إنك لا تجده فى كثير من الناس.

وفى الحديث أيضًا أن الناس كالمعادن، فالمعدن الرخيص تجد منه الشىء الكثير، والمعدن النفيس تجدُّ فى البحث والتنقيب عنه لندرته وقلته.

فإذا ما فهمت تفاوت الناس فى العقل والدين، فعليك قبل الصداقة أن تبحث عمن تريد صداقته وإخاءه، فإذا حصلت على من ترضاه دينًا وعقلاً وأدبًا فالزمه كما قيل:

**ابْلُ الرِّجال إذا أردت إخاءهم ... وتوسَّمن أُمُورَهم وتفقَّد**

**فإذا ظفرت بذى الأمانة والتُّقى ... فبه اليدين قرير عين فاشدد**

## • كل إنسان على دين صاحبه •

فإذا أراد الله تعالى بعبد من عبيده خيرًا وفقه لمعاشرة ومصاحبة أهل السنة، وأهل الصلاح والدين، وأبعده عن صحبة أهل الهوى والبدع والمخالفين، فقد روى عن أبى هريرة رضي الله عنه

---

(١) موارد الظمآن للسلمانى ص٦٧٢

(٢) رواه البخارى فى الرقائق باب رفع الأمانة واللفظ له، ومسلم فى فضائل الصحابة وأحمد فى مسنده (٥٦١٩) والترمذى (٢٨٧٢) وابن ماجه (٣٩٩٠) وابن المبارك فى الزهد رقم ١٨٦

أن النبى ﷺ قال: «**الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»[١] وفى رواية: «المرء» فتشمل الذكر والأنثى.

ومعنى على دين خليله: أى على طريقته ومنهجه، وسلوكه وعقيدته ونحو ذلك مما يتميز به المرء.

وقد جرت عادة البشر أن قرين السوء يكون فى أغلب الأوقات أشد تأثيرًا على قرينه الصالح، لأن الشيطان دائمًا مع قرين السوء.

فمثلاً نجد ذلك الشاب الذى يشرب الخمر سرعان ما يحاكيه فى ذلك، بينما الآخر الذى أقلع عن شرب الخمر لا يستطيع أن يحمل الآخر على تركها. وكذا من يشرب الدخان، أو غير ذلك من المفسدات.

وقال سفيان بن عيينة فى تفسير هذا الحديث: انظروا إلى فرعون، معه هامان، وانظروا إلى الحجاج معه يزيد بن أبى مسلم شر منه. وانظروا إلى سليمان بن عبد الملك صحبه رجاء بن حيوة الكندى أحد الأعلام الأفاضل، فقد قوَّمه وسدَّده.

**ولذلك قال العلماء:** من جالس العلماء وقِّر، ومن جالس السفهاء حُقِّر.

ومعنى قول الرسول ﷺ «فلينظر» أى فليبحث بحث المدقق المتأنى عن الصديق الذى يطاوعه ويصدق فى وده وحبه.

وقد قيل: الخلة خلتان: خلة تقوم على التقوى، وخلة تقوم على الهوى والشهوات فالأولى تدوم ولا تنقطع لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

وأما الثانية: فإنها وإن استمرت فى الدنيا فإنها لا بقاء لها فى الحياة الآخرة، بل ربما انقلبت عداء ووبالاً، قال سبحانه: ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**﴾ [الزخرف: ٦٧].

يقول أبو العتاهية:

**اختر صديقك واصطفيه تفاخراً ... إنَّ القرينِ إلى المقارن يُنسب**
**واحذر مصاحبة اللئيم فإنه ... يُعدى كما يُعدى الصحيح الأجرب**

وقال آخر:

**إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم ... ولا تصحب الردى فَتَرْدَى مع الردى**
**عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدى**[٢]

---

(١) رواه أبو داود وحسنه الألبانى برقم (٤٨٣٣) والترمذى (٢٤٩٧) وأحمد فى مسنده (٨٠١٥).
(٢) بهجة المجالس لابن عبد البر١/ ٧٠٥ وعيون الأخبار لابن قتيبة ٣/ ٧٩

## •صفات خير الأصحاب•

**يقول الإمام الغزالى[1]:**

فينبغى أن يكون فى من تؤثر صحبته خمس خصال:

أن يكون عاقلاً، حسن الخلق، غير فاسق ولا مبتدع، ولا حريص على الدنيا:

١- أما العقل، فهو رأس المال، فلا خير فى صحبة الأحمق، فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت، ولذلك يقول الشاعر الحكيم يوضح قيمة العقل:

**يزين الفتى فى الناس صحة عقله ... وإن كان محظوراً عليه مكاسبه**
**يشين الفتى فى الناس قلة عقله ... وإن كَرُمَتْ أعراقه ومناسبه**
**يعيش الفتى فى الناس بالعقل إنه ... على العقل يجرى علمه وتجاربه**
**وأفضل قسم الله للمرء عقله ... فليس من الأشياء شىء يقاربه**
**إذا أكمل الرحمن للمرء عقله ... فقد كملت أخلاقه ومآربه**

ولذلك دخل رجل على الإمام أبى حنيفة وهو يلقى على طلابه درسًا فى الفقه، وكان الإمام يمد قدميه، فلما دخل الرجل وكان حسن الهيئة، جميل المنظر، إذ بالإمام يقبض قدميه احترامًا للقادم، واستمر الإمام فى إلقاء درسه، حتى قال لطلابه: إن وقت المغرب يبدأ من حين تغرب الشمس إلى أن يغيب الشفق الأحمر من السماء، فقام الرجل، وسأل الإمام: يا شيخ! أرأيت إن لم تغرب الشمس؟! وهذا يدل على قلة عقله، ومدى حمقه وجهله، وعدم فطانته. فقال الإمام: الآن آن لأبى حنيفة أن يمد قدميه.

فالعقل هو رأس مال المرء فى حياته، والمقصود بالعاقل، هو الذى يفهم الأمور على ما هى عليه، إما بنفسه، وإما أن يكون بحيث إذا أفهم فهم.

فإياك أن تصاحب الأحمق، قال بعض الحكماء: عداوة العاقل أقل ضرراً من مودة الأحمق، لأن الأحمق ربمًا ضر وهو يقدر أن ينفع لعدم تمييزه بين النفع والضر، فيتجاوز الحدَّ، والعاقل لا يتجاوز الحدَّ فى مضرته، فمضرته لها حد يقف عليه العقل إذا انتهى إلى ذلك الحد.

ومضرة الجاهل ليست بذات حد، والمحدود أقل ضرراً مما هو غير محدود، قال بعضهم:

**ولأن يُعادى عاقلاً خيرٌ له ... من أن يكون له صديق أحمق**
**فارغب بنفسك أن تصادق جاهلاً ... إنَّ الصديق على الصديق مصدَّق**

(١) تهذيب إحياء علوم الدين ص١٩٦، ومختصر منهاج القاصدين ص١٥٨

وقال بعض الأدباء: من أشار عليك بمصاحبة جاهل لم يخل من أمرين:

إما أن يكون صديقًا جاهلاً، ما يعرف، وما يميز بين من يصلح للصحبة، ومن لا يصلح.

وإما أن يكون هذا المشير عليك عدواً لكنه عاقل، لأنه يشير بما يضرك، ويحتال عليك بالأشياء التى تضرك، وقديمًا قيل:

**فلا تصحب أخا الجهل ... وإياك وإياه**
**فكم من جاهل أردى ... حليمًا حين آخاه**
**يقاس المرء بالمرء ... إذا ما المرء ما شاه**
**وللشىء من الشىء ... مقاييس وأشباه**
**وللقلب على القلب ... دليل حين يلقاه(١)**

وقال آخر يحث على اتخاذ العاقل صديقًا، وتجنب الأحمق المجنون:

**إنى لآمن من عدو عاقل ... وأخاف خلاً يعتريه جنون**
**فالعقل فن واحدٌ وطريقه ... أدرى فأرصد والجنون فنون(٢)**

٢- وأما حسن الخلق فلابد منه، إذ رُب عاقل يدرك الأشياء على ما هى عليه، ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة، أو بخل أو جبن، أطاع هواه، وخالف ما هو المعلوم عنده، لعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه، فلا خير فى صحبته.

فحسن الخلق يوجب التحاب، والتآلف والتوافق، وحسن الخلق لا يخفى فى الدين فضيلته يقول ﷺ: «**أثقل شىء فى الميزان يوم القيامة، الخلق الحسن**»(٣)

ويقول بعض الصالحين: «كمال الرجل فى ثلاث فى القربة، والصحبة، والفطنة، أما القربة فدليل النفس، وأما الصحبة ليتخلق بأخلاق الرجال، والفطنة للتميز»(٤)

٣- أن يكون من أهل الصلاح والخير والدين الذى يقف بصاحبه على الخيرات، فإن تارك الدين، عدو لنفسه يلقيها فى المهالك، فكيف يرجى منه نفع ومودة لغيره.

قال بعض الحكماء: «اصطحب من الإخوان صاحب الدين، والحسب، والرأى والأدب، فإنه عون لك عند حاجتك، لأن دينه يحتم عليه ذلك، لأنه من مقتضياته».

ومن كلام بعض العارفين: الأخ الصالح خير من نفسك، لأن النفس أمارة بالسوء، والأخ الصالح لا يأمر إلا بالخير»(٥)

---

(١)، (٢) تهذيب إحياء علوم الدين ص١٩٧

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده بإسناد صحيح (٢٧٣٦٩) جـ١٨/ ٥٦٧ وصححه الألبانى فى ص.ج ١٣٤

(٤) آداب الصحبة للإمام أبى عبد الرحمن السلمى ص٧٢

(٥) موارد الظمآن للسلمانى ص٦٥٩

أما الفاسق المصر على الفسق فلا فائدة فى صحبته، لأن من يخاف الله لا يُصر على كبيرة، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته ولا يوثق بصداقته، بل يتغير بتغير الأغراض قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ وأما المبتدع ففى صحبته خطر سراية البدعة، وتعدى شؤمها، فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة، فكيف تؤثر صحبته؟!(١)

٤- أن يكون من أهل الصدق والإخلاص، وإياك أن تصاحب المتملق. وهو صاحب القول الحسن المليح مع خبث القلب، لأن النفاق والتملق سجيتا المتصنع، وليس فيمن يكون النفاق والملق سجاياه خير يرجى، ولا صلاح يُؤمَّل بل الشر والأذى فيه، فلتكن لبيبًا فطنًا حاذقًا، صاحب فراسة، ولا تحسن الظن بكل أحد.

يقول أحد الحكماء: اعرف الرجل من فعله، لا من كلامه، واعرف محبته من عينيه، لا من لسانه، وعليك بمن حاله فى العسر واليسر واحدة، أمَّا إخوان الرخاء فاتركهم، لذا يقول القائل:

| | |
|---|---|
| ولا خير فى ود امرئٍ متلون | إذا الريح مالت مال حيث تميل |
| جَوَّاد إذا استغنيت عن أخذ ماله | وعند احتمال الفقر عنك بخيل |
| فما أكثر الإخوان حين تَعُدُّهُمْ | ولكنهم فى النَّائبات قليل |

## • وصايا الحكماء فى اختيار الأصدقاء •

### أخى الحبيب:

وبعد ما عرفنا سويًّا الصفات التى ينبغى أن تكون فى الأصدقاء، حتى تؤتى الصداقة ثمارها، وحتى تؤتى أكلها.

لنذهب سويًّا إلى مدرسة الحكماء لنتعلم منهم حكمًا فى كيفية اختيار الأصدقاء وأول ما يقابلنا من الحكم والوصايا وصية علقمة العطاردى فى وصيته لابنه حين حضرته الوفاة، يقول فيها: «يا بنى، إذا عرضت لك على صحبة الرجال حاجة، فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإذا قعدت بك مؤنة مانك(٢). اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن رأى سيئة سدها. اصحب من إذا سألته أعطاك، وإن سكتَ ابتداك، وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحب من إذا قلت صدق قولك، وإن حاولتما أمرًا أمَّرك(٣)، وإن تنازعتما آثرك».

(١) تهذيب إحياء علوم الدين ص١٩٧ ومختصر منهاج القاصدين.

(٢) مانك: أعطاك ما تحتاجه من مؤنة.

(٣) أمَّرك: أى جعلك أميرًا مطاعًا.

قال عبد الملك بن عمير -راوى هذه الوصية- حدثت بهذا الحديث الشعبى، فقال: تعلم لم أوصاه بهذه الوصية؟ قلت: لا قال: لأنه أحبَّ أن لا يصحب أحدًا، لأن هذه الخصال لا تجتمع فى إنسان الآن، فقال المأمون: وأين هذا؟![١]

يا لها من وصية اشتملت على وصايا عظيمة قل أن تجدها فى أصحاب هذا الزمان.

والوصية الثانية جاءنا بها محمد بن كعب القرظى -رحمه الله- يقول: قال لى عمر: «لا تصحب من الأصحاب من خطرك عنده على قدر قضاء حاجته، فإذا انقضت حاجته انقطعت أسباب مودته، واصحب من الأصحاب ذا العلى فى الخير، والأناة فى الحق، يعينك على نفسك، ويكفيك مؤنته»[٢]

وأما الوصية الثالثة فيرويها لنا التابعى الجليل «سعيد بن المسيب» عن عمر رضي الله عنه فيقول: «عليك بإخوان الصدق تعش فى أكنافهم، فإنهم زينة فى الرخاء، وعدة فى البلاء، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يغلبك منه، واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين من القوم، ولا أمين إلا من خشى الله ولا تصحب الفاجر، فتتعلم من فجوره، ولا تطلعه على سرك، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله تعالى»[٣]

وهذا آخر، يوصى فيقول: «ألا فعاشروا من الناس رجلين: أحدهما، يعين على البر والتقوى، والآخر: يعين على أحوالك من الدنيا، فإن جمع الله المعونة على الدين والدنيا فى رجل واحد فتمسك به، وجانب من سواه..»[٤]

ووعظ بعضهم ابنه فقال: «إياك وإخوان السوء، فإنهم يخونون من رافقهم، ويفسدون من صادقهم، وقُرْبُهم أعدى من الجرب، ورَفْضُهم والبعد عنهم من استكمال الأدب، والإخوان اثنان: محافظ عليك عند البلاء، وصديق لك فى الرخاء، فاحفظ صديق البلية، وتجنب صديق العافية[٥]، وفى هذا المعنى يقول الشاعر الحكيم:

**أرى الناس إخوان الرخاء وإنما     أخوك الذى آخاك عند الشدائد**

وهذا هو لقمان الحكيم يوصى ابنه، ويرشده فى اختياره للأصدقاء فيقول: «يابنى، من لا يملك لسانه يندم، ومن يكثر المراء يشتم، ومن يدخل مداخل السوء يتهم، ومن يصاحب صاحب السوء لا يسلم، ومن يصحب الصاحب الصالح يغنم..» ثم يقول: «يا بنى لا ترغب من ودِّ الجاهل فيرى أنك ترضى عمله، ولا تتهاون بغضب الحكيم فيزهد فيك»[٦]

---

(١) تهذيب إحياء علوم الدين ص١٩٧، ١٩٨ وآداب الصحبة لأبى عبد الرحمن السلمى ص١١٠، ١١١

(٢) حلية الأولياء جـ٥/ ٣٤٢، ٣٤٣.     (٣) موارد الظمآن للسلمانى ص٦٦٢

(٤) النصائح للحارث المحاسبى ص٣٧ مكتبة القرآن.

(٥) موارد الظمآن للسلمانى ص٦٦٢

(٦) ذكره ابن المبارك فى الزهد (١٠٥٩) ص٢٤٥ والخرائطى مختصرا فى المساوئ ص٢٤٥ (٦٩٦).

ومالك بن دينار يوصى ختنه مغيرة فيقول: «يا مغيرة، انظر كل أخ لك، وصاحب لك، وصديق لك، لا تستفيد منه فى دينك خيرًا فانبذ عنك صحبته، فإنما ذلك لك عدو، يا مغيرة: الناس أشكال: الحمام مع الحمام، والغراب مع الغراب، والصعو[1] مع الصعو، وكل مع شكله»[2]

ويقول بلال بن سعد: «أخ لك كلما لقيك ذكرك بنصيبك من الله خير لك من أخ كلما لقيك وضع فى كفك دينارًا»[3]

ويقول ميمون بن مهران -رحمه الله-: «إنَّ رجلين لا تصاحبهما: صاحب يأكل سوءًا وصاحب بدعة»[4]

## • نصائح الشعراء فى اختيار الأصدقاء •

فهيا أخى الحبيب بعدما ذهبنا إلى الحكماء فتعلمنا وصاياهم فى اختيار الأصدقاء، هيا لنذهب الآن إلى الشعراء، وأول ما نلتقطه من أقوالهم ما ورد في ديوان الإمام الشافعى تحت عنوان: «أسس الصداقة» جاء فيه:

إذا المرء لا يلقاك إلا تكلفًا ... فدعه ولا تكثر عليه التأسفا
ففى الناس أبدال وفى الترك راحة ... وفى القلب صبر للحبيب ولو جفا
فما كل من تهواه يهواك قلبه ... ولا كل من صافيته لك قد صفا
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة ... فلا خير فى خل يجىء تكلفا
ولا خير فى خل يخون خليله ... ويلقاه بعد المودة بالجفا
وينكر عيشًا قد تقادم عهده ... ويظهر سرًا كان بالأمس فى خفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها ... صديق وفى يصدق الوعد منصفًا[5]

ففى الأبيات حكمة عظيمة فهى تحدد من أين تبدأ الصداقة الحقيقية؟ وأين تنتهى؟!

ثم يقول تحت عنوان «الوحدة خير من جليس السوء» فيقول:

إذا لم يكن خلاً تقيًا فوحدتى ... ألذ وأشهى من غوى أعاشره
وأجلس وحدى للعبادة آمنًا ... أقر لعينى من جليس أحاذره[6]

ثم جاء بعنوان: «خيرة الأصحاب» يقول فيه:

أحب من الإخوان كل مُواتى ... وكل غضيض الطرف عن عثراتى
يوافقنى فى كل أمر أريده ... ويحفظنى حيًا وبعد مماتى
فمن لى بهذا؟ ليت أنى أصبته ... لقاسمته مالى من الحسنات[7]

---

(١) الصعو: هو صغار العصافير (٢) الخرائطى فى المساوئ ص٢٤٣

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم ٥/ ٢٥٥ والخرائطى فى مساوئ الأخلاق (٦٩١).

(٤) مساوئ الأخلاق للخرائطى (٦٩٥).

(٥)، (٦)، (٧) ديوان الإمام الشافعى دار المنار ص٥٣، ٥٤.

لله در الإمام الشافعى، فما أفصح هذا الكلام، وما أبلغه!

وهذا شاعر ينعى الصداقة، ويشكو حاله مع أصدقائه فى بلاغة وفصاحة فيقول:

تغيرت المودة والإخاء ... وقلَّ الصديق وانقطع الرجاء

وأسلمنى الزمان إلى صديق ... كثير الغدر ليس له رعاء

ورب أخ وفيت له بحق ... ولكن لا يدوم له وفاء

أخلاء إذا استغنيت عنهم ... وأعداء إذا نزل البلاء

يديمون المودة ما رأونى ... ويبقى الود ما بقى اللقاء

سيغنينى الذى أغناه عنى ... فلا فقر يدوم ولا ثراء

وكل مودة لله تصفو ... ولا يصفو مع الفسق الإخاء

وكل جراحة لها دواء ... وسوء الخلق ليس له دواء

وليس بدائم أبدًا نعيم ... كذلك البؤس ليس له بقاء

وذاك قد حنكته التجارب، لأنه صادق هذا، وترك هذا، فسطر لنا هذه التجربة فى صورة حكم فقال:

واحذر مؤاخاة الدنىء لأنه ... يعدى كما يعدى الصحيح الأجرب

واختر صديقك واصطفيه تفاخراً ... إنَّ القرين إلى المقارن ينسب

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحبًا ... إنَّ الكذوب لبئس خلاً يصحب

وذر الحقود، وإن تقادم عهده ... فالحقد باق فى الصدور مغيب

واحرص على حفظ القلوب من الأذى ... فرجوعها بعد التنافر يصعب

(إن القلوب إذا تنافر ودها ... شبه الزجاجة كسرها قد يعطب)

واحذر عدوك إذ تراه باسمًا ... فالليث يبدو نابه إذ يغضب

وإذا الصديق رأيته متملقا ... فهو العدو وحقه يتجنب

ولا خير فى ودِّ امرئ متملق ... حلو اللسان وقلبه يتلهب

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ... ويروغ منك كما يروغ الثعلب

يلقاك فيحلف أنه بك واثق ... وإذا توارى عنك فهو العقرب

وإذا رأيت الرزق ضاق ببلدة ... وخشيت فيها أن يضيق المكسب

فارحل فأرض الله واسعة الفضا ... طولاً وعرضًا شرقها والمغرب[1]

(١) نقلا من هامش الترغيب والترهيب للمنذرى جـ١/ ٥٣ ط/ دار الفكر وقد نسبه لصالح بن عبد القدوس.

## • آداب الصحبة • [(١)]

إنَّ للصحبة آدابًا ينبغى لكل مسلم يصاحب أو يصادق أن يتعرف تلك الآداب حتى يتسنى لها أن تسمو فى ذرى المحبة والوداد ومن هذه الآداب ما يأتى:

**١- ستر عيوب الإخوان:**

يقول عبد الله بن محمد بن منازل: «المؤمن يطلب معاذير إخوانه، والمنافق يطلب عثرات إخوانه».

ويقول حمدون القصار: «إذا زل أخ من إخوانكم، فاطلبوا له سبعين عذرًا، فإن لم تقبله قلوبكم، فاعلموا أن المعيب أنفسكم، حيث ظهر لمسلم سبعون عذرًا فلم يقبله».

**٢- الصفح عن عثرات الإخوان، وترك تأنيبهم:**

قال تعالى: ﴿**فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ**﴾ [الحجر: ٨٥].

وقال أعرابى: «تناس مساوئ الإخوان يدم لك ودّهم».

**٣- أن لا يحسد إخوانه على ما يرى عليهم من آثار نعم الله:**

بل يجب عليه أن يفرح بذلك، ويحمد الله تعالى على ما يرى من النعمة عليهم كما يحمده بنعمته على نفسه، قال تعالى: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾ [النساء: ٥٤] وقال ﷺ: «**لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»[(٢)]

**٤- ومن آدابها: ملازمة الحياء فى كل حال:**

فقد سمع النبى ﷺ رجلاً يعظ أخاه فى الحياء، فقال: «**دعه، فإن الحياء من الإيمان**» وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان**»[(٣)]

**٥- ومن آدابها: بشاشة الوجه، ولطف اللسان، وسعة القلب، وبسط اليد، وكظم الغيظ وإسقاط الكبر، وملازمة الحرمة.**

فعن عياض بن حمار أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله أوحى إلىَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد**»[(٤)]

---

(١) نقلت هذه الآداب بإيجاز من كتاب «آداب الصحبة» للإمام أبى عبد الرحمن السلمى تحقيق الشيخ الفاضل/ مجدى فتحى السيد بارك الله فيه. ط دار الصحابة - من كتاب «آداب العِشرة لأبى البركات بدر الدين محمد الغزى»

(٢) رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح.

(٣) رواه البخارى وأحمد وغيرهما.

(٤) رواه مسلم (٢٨٦٥) وأبو داود وصححه الألبانى فى السنن (٤٨٩٥) والبخارى فى الأدب المفرد. وأبو نعيم فى حلية الأولياء ٢/ ١٧ وقد تقدم تخريجه.

ويقول المبرد: «النعمة التى لا يحسد عليها صاحبها: التواضع، والبلاء الذى لا يرحم صاحبه عليه: العجب».

**٦- ومن آدابها: أنك إذا وعدت لم تخلف:**

لأن خلف الوعد من علامات النفاق يقول ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»(١)

ويقول سفيان الثورى: «لا تعد أخاك موعدًا فتخلفه، فتبدل المودة بغضًا» إلا أن يوضح عذره. وقيل:

**يا واعد الوعد الذى أخلفا ... ما الخلف من سيرة أهل الوفا**
**ما كان ما أظهرت من ودنا ... إلا سراجًا لاح ثم انطفا**

**٧- ومنها: أن تحب لصديقك ما تحب لنفسك:**

فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(٢)

**٨- قبول أعذار الإخوان، والذّب عنهم، والانتصار لهم، والصفح عنهم:**

كما قال الإمام الجنيد -رحمه الله- وقد قيل له: ما بال أصحابك أكلهم كثير؟ قال: لأنهم لا يشربون الخمر، فيكون جوعهم أكثر!! فقيل له: ما بالهم لهم قوة شهوة؟ قال: لأنهم لا يزنون، ولا يدخلون تحت محظور! قالوا: فما بالهم لا يطربون إذا سمعوا القرآن؟ قال: لأنه كلام الحق، ما فيه ما يوجب الطرب، نزل بأمر ونهى، ووعد ووعيد، فهو يقهر.

**ثلاث خصال للصديق حفظتها ... مضارعة الصوم والصلوات**
**مواساته والصفح عن كل زلة ... وترك انتقال السر فى الخلوات**

**٩- ومن آدابها: ترك المنِّ لمن أحسنت إليه منهم:**

قال عروة: «كتب رجل إلى عبد الله بن جعفر رقعة، وجعلها فى داخل وسادته التى يتكئ عليها، فقلب عبد الله الوسادة، فبصر بالرقعة، فقرأها وردّها إلى موضعها، وجعل معها كيسًا فيه خمسمائة دينار، فجاء الرجل، فدخل عليه، فقال له: قلبت النمرقة، فخذ ما تحتها، فأخذ الرجل الكيس، فخرج وهو ينشد:

**زاد معروفك عندى عظمًا ... أنه عندك مستور حقير**
**تتناساه كأن لم تأته ... وهو عند الناس مشهور كبير!!**

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

**١٠- ومنها: الحرص على الأصحاب وتقديمهم:**

قال أبو زائدة: كتب الأحنف إلى صديق له: أما بعد، فإذا قدم أخ لك موافق، فليكن منك بمنزلة السمع والبصر، فإن الأخ الموافق أفضل من الولد المخالف، ألم تسمع قول الله عز وجل لنوح عليه السلام فى ابنه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

**١١- ملازمة الإخوة، ومجانبة الملال:**

فقد ورد عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**أحب الأعمال إلى الله عز وجل أدومها وإن قل**»(١)

وقال محمد بن واسع -رحمه الله-: «ليس لملول صديق، ولا لحسود غنى، والنظر فى العواقب تلقيح للعقول»(٢)

**١٢- الإغضاء عن الصديق فى بعض المكاره:**

أى احتمال المكروه والتغاضى عن زلاته، ولذا يقول الشاعر الحكيم:

**أغمض عينى عن صديقى تغافلاً ... كأنى بما يأتى من الأمر جاهل**

**وما بى جهل غير أن خليقتى ... تطيق احتمال الكره فيما يحاول(٣)**

**١٣- أن لا تستخف بأحد منهم، وتعرف لكل واحد من الأصحاب حقه:**

يقول عبد الله بن المبارك: «من استخف بالعلماء ذهبت آخرته، ومن استخف بالأمراء ذهبت دنياه، ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته».

**١٤- ومن آدابها: حفظ أسرارهم:**

فقد أوصانا رسولنا الأعظم ﷺ: بحفظ الأسرار فقال: «**استعينوا على حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذى نعمة محسود**»(٤)

وقد أفشى رجل إلى صديق له سراً من أسراره، فلما فرغ قال: حفظته؟ قال: لا، بل نسيته» وأنشد بعضهم:

**ليس الكريم الذى إن زل صاحبه ... بثَّ الذى كان من أسراره عَلَمَا**

**إن الكريم الذى تبقى مودته ... ويحفظ السر إن صافا وإن صرما**

**١٥- ومن آدابها: المشورة معهم وقبول ما يشيرون به:**

ولقد حث القرآن الكريم على المشورة فقال سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

---

(١) رواه مسلم وأحمد وذكره الألبانى فى ص.ج (١٦٣). (٢) حلية الأولياء ٢/ ٣٥٤.

(٣) أورده ابن عبد البر فى بهجة المجالس ١/ ٦٦٩

(٤) الحديث صحيح وإسناده مرسل رواه أبو نعيم فى الحلية ٥/ ٢١٥ والطبرانى فى الكبير، وذكره الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٤٥٣).

**• آداب الجوارح مع الأصحاب •**

قال **أبو البركات الغزّى**: ثم على كل جارحة أدب تختص به:

١- **فأدب البصر**: نظرك للأخ بالمودة التى يعرفها منك هو والحاضرون، ناظرًا إلى أحسن شىء يبدو منه، غير صارف بصرك عنه فى حديثه لك.

٢- **وأدب السمع**: إظهار التلذذ بحديث محادثك، غير صارف بصرك عنه فى حديثه، ولا قاطع بشىء، فإن اضطرك الوقت إلى شىء من ذلك، فأظهر له عذرك.

٣- **وأدب اللسان**: أن تحدث إخوانك وأصحابك بما يحبون فى وقت نشاطهم لسماع ذلك، باذلاً لهم النصيحة بما فيه صلاحهم، مسقطًا من كلامك ما يكرهون، ولا ترفع صوتك عليهم، ولا تخاطبهم إلا بما يفهمونه ويعلمونه.

٤- **وأدب اليدين**: بسطهما للإخوان بالبر والصلة، ولا تقبضهما عنهم، ولا عن الإفضال عليهم، ومعونتهم فيما يستعينون به.

٥- **وأدب الرجلين**: أن تماشى إخوانك على حد التبع، ولا تتقدمهم، فإن قربك أحد إليه تقرب بقدر الحاجة، وترجع إلى مكانك، ولا تقعد عن حقوق الإخوان، ثقة بالأخوة، لأن الفضيل بن عياض -رحمه الله- يقول: «ترك حقوقهم مذلة».

**• الصحبة مع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وأصحابه •**

**أخى المسلم:**

كيف تكون الصحبة مع الله تعالى ومع رسوله محمد ﷺ وأصحابه الأطهار؟

**أجاب على هذا السؤال**: «الإمام أبو عبد الله السلمى» فى آداب الصحبة فقال:

• **فالصحبة مع الله تعالى** تكون بحسن الأدب، ودوام الهيبة والمراقبة، وهذا يستلزم اتباع أوامره تعالى، واجتناب نواهيه، ودوام ذكره، ومُدارسة كتابه، ومراقبة أسراره، والرضا بقضائه سبحانه، والصبر على بلائه، وشكر نعمائه، والشفقة على خلقه ونحو ذلك من الأخلاق الفاضلة.

• **وأما الصحبة مع رسوله محمد** ﷺ فتكون بالأدب معه، وهذا يتضمن ... سنته والسير على طريقته ومنهجه، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى، والبعد عن البدع، وتعظيم أصحابه، وأهل بيته، وأزواجه، وذريته.

فطاعة رسول الله ﷺ من طاعة الله تعالى، قال سبحانه: ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾ [النساء: ٨٠] وطاعته توجب محبة الله للعبد كما نصت الآيات على ذلك قال سبحانه: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾ [آل عمران: ٣١][(١)]

---

(١) من كتاب آداب الصحبة بتصرف وزيادة ص١١٧

● **وأما الصحبة مع أصحابه وأهل بيته** ﷺ فيكون بالترضى والترحم عليهم، وتقديم من قدموه، وحسن القول فيهم، وقبول قولهم فى الأحكام والسنن.

فعن عبد الله بـن مغفل رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضًا فمن أحبهم فبحبى لهم أحبه، ومن أبغضهم فببغضى أبغضه، ومن آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه**»[١]

## ● الصحبة مع الوالدين ●

والصحبة مع الوالدين تكون بودهما بالنفس والمال، وخدمتهما فى حياتهما، وإنجاز وعدهما، والدعاء لهما فى كل الأوقات، ما داما فى الحياة، وحفظ عهدهما بعد الممات وإكرام صديقهما.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ أبر البر أن يصل الرجل وُدَّ أبيه**»[٢]

## ● الصحبة مع أولياء الله ●

والصحبة مع أولياء الله تعالى تكون بالحرمة والاحترام لهم، وتصديقهم فيما يخبرون به عن أنفسهم، ومشايخهم، الذين ثبت صلاحهم واستقامة سلوكهم، وعدم مخالفتهم لكتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد ﷺ، وما كان عليه السلف الصالح من الآل والصحب الكرام يقول النبى ﷺ فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه «**قال الله تعالى: من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب...**»[٣]الحديث.

## ● الصحبة مع الأهل والولد ●

والصحبة مع الأهل والولد تكون بالمداراة -الملاينة- وحسن الخلق، وسعة النفس، وتمام الشفقة، وتعليم الأدب والسنة، وحملهم على الطاعات، وفعل الخيرات، ونهيهم عن الشرور والمنكرات، لأنه مأمور بذلك قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [التحريم: ٦].

وكذلك الصفح عن عثراتهم، والعفو عن مساوئهم، ما لم يكن إثمًا ومعصية.

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**المرأة كالضلع الأعوج، إن أقمتها تكسرها، وإن تعش تعش معها على عوج**»[٤]

---

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية ٨/ ٢٨٧ والترمذى (٣٨٦٢) ورواه ابن حبان والبيهقى وأحمد فى مسنده (٤٢٨ ٢) جـ١٥/ ٢٤٦ بإسناد حسنه حمزة الزين.

(٢) رواه مسلم (٢٥٥٢) وأبو داود وصححه الألبانى (٥١٤٣) جـ٣/ ٢٦٣ والترمذى (١٩٨٣) والبخارى فى الأدب المفرد رقم (٤١) ص٢١ ط/ مؤسسة الكتب الثقافية وأحمد فى مسنده (٥٦١٢).

(٣) رواه البخارى وأبو نعيم فى الحلية ٨/ ٣١٨ عن أنس بلفظ (من أهان).

(٤) رواه البخارى ومسلم وأحمد (٢١٢٣٦) فى المسند.

## • أوجه الصحبة والمعاشرة •

**والصحبة والمعاشرة على وجوه منها:**

**١- المعاشرة مع الأكابر والمشايخ:** وتكون بالحرية، والخدمة لهم، والقيام بأشغالهم.

**٢- والمعاشرة مع الأقران، والأوساط** يكون بالنصيحة وبذل الموجود.

**٣- والمعاشـرة مع الأصاغـر والمريدين،** يكون بالإرشـاد، والتأديب، والحمل علـى ما يوجبه ظاهر العلم، وآداب السنة، وأحكام البواطن، والهداية التى تقويمها بحسن الأدب[(١)]

## • أنفع وأفضل صديق •

**أخى المسلم:**

أتدرى من أنفع وأفـضل صديق؟ إنه الصديق الذى يـبقى لك بعد مـوتك، الصديق الذى يلازمك، الصديق الذى يدخل معك فى قبرك، إنه عملك الصالح، إنه صومك، إنه قيامك فى الليل، إنه برك بوالديك، إنه إطعامك المساكين.

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات الـعبد تـبعه ثـلاثة، فيـرجع اثنان، ويبقى واحد، يتبعه أهله، وماله، وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله**»[(٢)]

وعنه أيضًا - «**لكل إنـسان ثـلاثة أخلاء: خـليل فـيقـول له: مـا أنفـقت فلك، ومـا أمسكت فليس لك، فذاك مـاله»، وأما خليل فيقول: أنا معك، فـإذا أتيت باب الملك تركتك ورجعت، فذاك أهله وحشمه، وأما خليل فـيقول: «أنا معك حيث دخلت وحيث خرجت، فذاك عمله. فيقول: إن كنت لأهون الثلاثة علىّ**»[(٣)]

سـوف يتركـك فى هذا المكان أحـب الأصدقـاء إلى نفـسك. «زوجـتك وأولادك» سيتركونك وحيدًا فريدًا عند باب القبر لتقاسى الأهوال، ليوضع خدك فى التراب، ليأكلك الدود وأنت فى اللحـود، وما ينفعك إلا هذا الصديـق الذى هو أهون شىء فى نظرك الآن عملك الصالح، إنه الذى يدخل معك، ويحيط بك من كل جانب.

فعن ثابت البنـانى -رحمه الله- قال: «إذا وضع المؤمن فى قـبره، احتوشتـه أعماله الصالحة، وجاء ملك العذاب، فتقول له بعض أعماله الصالحة: إليك عنه، فلو لم يكن إلا أنا لما وصلت إليه»[(٤)] **وفى رواية:** تحتـوشه أعمـاله الصالحة: الـصيام، والصـلاة، والبر،

---

(١) آداب الصحبة للسلمى ص٤٥ بتصرف.

(٢) رواه البخارى (٦٥١٤) ومسلم (٢٩٦٠) والترمذى (٢٣٧٩) والنسائى وأحمد.

(٣) رواه الحاكم فى المستدرك ١/ ٣٧١ وذكره الهيثـمى فى المجمع ١/ ٢٥٢ وقال: رواه البزار والطبرانى فى الأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير عمران القطان، وقد وثق وفيه خلاف، فالحديث حسن.

(٤) الحلية ٦/ ١٨٩ وابن أبى الدنيا بسند حسن.

فتقول له: «نحن أنصبناك، وأظمأناك، وأسهرناك، فنحن لك اليوم بحيث تحب، نحن أنساؤك حتى تصير إلى منزلك، إلى الجنة»(١)

## •موعظة•

عباد الله. لا شيء أغلى عليكم من أعماركم، وأنتم تضيعونها فى ما لا فائدة فيه، ولا عدو أعدى لكم من إبليس وأنتم تطيعونه، ولا أضر عليكم من موافقة النفس الأمارة بالسوء وأنتم تصادقونها، لقد مضى من أعماركم الأطايب، فما بقى بعد الشيب الذوائب.

يا حاضر الجسم والقلب غائب، اجتماع العَيْب مع الشيب من أعظم المصائب، يمضى زمن الصبا فى لعب سهو وغفلة، يا لها من مصائب.

من لك يوم ينكشف عنك عطاؤك؟!

أيا نفس توبى قبل أن ينكشف الغطا ... وأُدعى إلى يوم النشور وأجزع

فلله عبدٌ خائف من ذنوبه ... تكاد حشاه من أسى تتقطع

إذا جن الليل البهيم رأيته ... وقد قام فى محرابه يتضرع

ينادي بذل يا إلهى وسيدى ... ومن يهرب العاصى إليه ويفزع

قصدتك ياً سؤلى ومالى مشفّعٌ ... سوى حسن ظنى حين أرجو وأطمع

فجد لى بعفو وامح ذنبى ونجنى ... من النار يا مولى يضر وينفع

فتب إلى مولاك، عسى أن يغفر لك ما قد فات، فلسان حال الرب يقول للعبد: يا عبد السوء، كم تعصى ونستر، كم تكسر باب نهيى ونجبر، كم نطلب وصلك بالطاعة وأنت تفر وتهجر، كم لى عليك من النعم، وأنت بعد لا تشكر، خدعتك الدنيا وأعمال الهوى وأنت لا تسمع ولا تبصر سخرت لك الأكوان وأنت تطغى وتكفر، وتطلب الإقامة فى الدنيا وهى قنطرة لمن يعبر:

فامهد لنفسك فالساعات فانية ... والعُمْر منتقص والموت فى الأثر

فمن أكرمت يومًا أهانت له غدا ... ومن أضحكت قد آذنت ببكائه

ومن تسقه كأسًا من الشهد غدوة ... تجرّعه كأس الردّى فى مسائه

ومن تكسُ تاج الملك تنزعه عاجلاً ... بأيدى المنايا أو بأيدى عدائه

ألا إنها للمرء من أكبر العدا ... ويحسبها المغرور من أصدقائه

فنسألك يا ربنا أن تعافينا من مكرك وأن تزينا بذكرك، وأن تستعملنا بأمرك، ولا تهتك علينا جميل سترك، وامنن علينا بلطفك وبرّك.

اللهم وفقنا توفيقًا يقينا عن معاصيك، وأرشدنا برشدك إلى السعى فيما يرضيك وأجرنا يا مولانا من خزى عذابك، وهب لنا ما وهبته لأوليائك، وآتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار يا قوى يا قهار.

(١) رواه ابن أبى الدنيا بسند لا بأس به

## • الوصية رقم (٩٨) •

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبى ﷺ يومًا، فقال لى: **يا غلام إنى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء، لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء، لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف»**(١)

## • دروس وعبر •

تأمل أخى المسلم:

لقد كان عبد الله بن عباس - يركب خلف النبى ﷺ، لكن ماذا كان يركب الرسول الأعظم؟ ماذا كان يركب قائد هذه الأمة؟ ماذا كان يركب سيد البشرية أجمع ﷺ؟

لم تكن هناك سيارات، ولم تكن هناك طائرات، وإنما كان النبى يركب دابة، كانت هذه الدابة أشرف عند الله تعالى من تلك السيارات، وأعظم من الطائرات كان للنبى فرس يقال له: السكب -ويسمى بذلك لسرعته وشدة جريه- وكان له آخر يسمى المرتجز -وهو الذى كان قد اشتراه من الأعرابى، وشهد فيه خزيمة بن ثابت، وكان له فرس آخر يسمى «اللزاز» وسمى بذلك لأنه يلحق بالمطلوب بسرعة- وكان له آخر يسمى الورد وكانت له بغلة تسمى «الشهباء» وقيل: دلدل وهى التى ركبها يوم حنين.

وكانت له ناقة تسمى: «القصواء» أو العضباء، أو الجدعاء.

وقد حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يعود المرضى ويشهد الجنازة، ويأتى دعوة المملوك، ويركب الحمار، ولقد رأيته يومًا على حمار خطامه ليف»(٢)

ما هذه العظمة؟ وما هذا التواضع العظيم؟

رسول الله، وقائد البشرية يركب دابة، ويردف خلفه عبد الله بن عباس، أما كان النبى يردف سوى عبد الله بن عباس؟

نعم كان النبى ﷺ يردف خلفه، ففى يوم الحج الأكبر كان يردف الفضل بن عباس أخو عبد الله بن عباسٍ صاحب هذه الوصية العظيمة ففى مسند الإمام أحمد:

---

(١) رواه أحمد فى مسنده برقم (٢٦٦٩) جـ٣/ ١٩٤ - ١٩٥ وصححه الشيخ أحمد شاكر، ورواه الترمذى رقم (٢٦٣٥) وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع ٢/ ٧٥، ٧٦ وذكره أبو نعيم فى الحلية جـ١/ ٣١٤ وابن السنى (٤١٩) فى عمل اليوم والليلة والطبرانى فى الكبير.

(٢) ذكره ابن الجوزى فى تواضعه ﷺ فى (صفة الصفوة) جـ١/ ٧٤.

«عن عطاء بن رباح عن عبد الله بن عباس عن الفضل أنه كان رديف النبى ﷺ وكان يلبى حتى رمى الجمرة»(١)

ما هذا التواضع؟ وما هذه العظمة؟

إنَّ دابة رسول الله ﷺ أشرف بكثير من تلك السيارات الفاخرة، والعربات الفارهة التى ربما يجد أصحابها أولئك المساكين يقفون لهم فى الطريق، ويمدون إليهم أيديهم، ومع ذلك يتعاظمون، ويتكبرون، وربما كان أحدهم مريضًا.

أما تعلموا من رسول الله محمد ﷺ؟

أما جعلوا رسول الله وقائد الأمة قدوتهم، ومثلهم الأعلى؟.

أما علم هؤلاء أن الذى أعطاهم تلك السيارات قادر على أن يسلبهم إياها؟

أما علموا أن رسولهم كان يركب الدابة الضعيفة ويردف خلفه، وما زاده هذا التواضع إلا سمواً ورفعة؟.

أما علم هؤلاء أن «من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته»؟.

يقول ابن رجب الحنبلى رحمه الله:

وهذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة، وقواعد كلية من أهم أمور الدين، حتى قال بعض العلماء: تدبرت هذا الحديث، فأدهشنى وكدت أطيش.

**فتأمل أخى الحبيب:**

من الدروس النافعة فى هذه الوصية العظيمة فى قوله: «يا غلام» أن مربى الأمة الأعظم يريد أن يدرب هذا الصبى، يريد أن يزرع فى نفسه روح الشجاعة، يريد أن يربيه تربية حسنة، ويغرس فيه النصح وهو صغير.

إنه يريد أن يستغل تلك الدقائق فى أمر نافع للأمة، يريد ألا يضيع الوقت إلا فى خير ونفع، فالوقت هو الحياة، والعاقل هو الذى يعرف قدر وقته، وشرف زمانه فلا يضيع ساعة واحدة من عمره إلا فى خير للدنيا أو للآخرة.

فهو القائل: **«لن تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه»**(٢)

فالأيام محسوبة، والآجال معدودة، وملك الموت ينتظر.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده بسند صحيح.

(٢) رواه الترمذى وقال: حسن صحيح وصححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم ( ٧٣٠).

مالى رأيتك تطمئن — إلى الحياة وتركن
يا ساكن الشرفات ما — لك غير قبرك مسكن
فاليوم أنت مكاثر — ومفاخر تتزين
وغدا تصير إلى التراب — محنط ومكفن
أحدث لربك توبة — فسبيلها لك ممكن
واصرف هواك لخوفه — مما تسر وتعلن
فكأن شخصك لم يكن — فى الناس ساعة تدفن
وكأن أهلك قد بكوا — جزعًا عليك ورننوا
فإذا مضى لك جمعة — فكأنهم لم يحزنوا
والناس فى غفلاتهم — ورحى المنية تطحن[1]

فقد كان صلوات ربى وتسليماته عليه من أشد الناس استغلالاً للوقت، وكان كذلك الصحابة والتابعون فهذا أحدهم ويسمى «عبيد بن يعيش» شيخ البخارى ومسلم يقول: «أقمت ثلاثين سنة ما أكلت بيدى الليل، وكانت أختى تلقمنى وأنا أكتب الحديث».

وهذا هو الإمام سليم الرازى شيخ الشافعية فى زمانه:

«كان يحاسب نفسه على الأوقات حسابًا شديدًا حتى لا يدع وقتًا يمر بلا فائدة، قال عنه المؤمل بن الحسن: رأيت سليمًا حفى عليه القلم -أى انكسر سنه- فإلى أن أقطه -أى براه- جعل يحرك شفتيه، فعلمت أنه يقرأ أثناء إصلاحه القلم لئلا يمضى عليه زمان وهو فارغ.

ودخل على أحد التابعين فقيل له: استرح قليلاً، فقال له: أمسك الشمس، قال: كيف؟ قال: هى العمر.

وابن الجوزى عند موته يبكى ويقول: قرأت حديث النبى ﷺ: **«من قال: سبحان الله وبحمده غرس له نخلة فى الجنة»**[2] فكم من نخيل ضيعناها؟

وهذا هو الخطيب البغدادى -رحمه الله- كان لا يمشى إلا وفى يده جزء يطالعه، حفاظًا على وقته[3]

وهذا أبو الوفاء بن عقيل الحنبلى رحمه الله يقول عن نفسه: لا يحل أن أضيع ساعة من عمرى، حتى إذا تعطل لسانى عن مذاكرة أو مناظرة، وبصرى عن مطالعة، أعملت

---

(١) نقلاً من: كلمات على فراش الموت لشيخى/ وحيد عبد السلام بالى ص١٧
(٢) رواه أحمد فى مسنده برقم (١٥٥٨٢) بسند حسن جـ١٢/٢٥٦ وأبو داود رقم (١٤٥٣).
(٣) نقلاً من: الركائز الأساسية لطالب العلم وحيد عبد السلام بالى ص٤٢، ٤٣.

فكرى فى حال راحتى، وأنا منطرح، فلا أنـهض إلا وقد خطر لى ما أسطره، وإنى لأجد من حرصى على العلم، وأنا فى عمر الثمانين أشد مما كنت أجد وأنا ابن عشرين سنة(١)

فكم مـن الأيام والسنـين تضـيع فى حـياة هـذه الأمة علـى حيـن يسهـر أعـداؤنا ويكدحون، فهنا نعمل بوصية الرسول الأعظم التى يقول فيها:

**«اغتنم خمسًا قـبل خمس: شبابك قبل هرمك، وفراغك قبل شـغلك، وصحتك قبل مرضك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك»(٢)**

ثم تأمل قول الرسول: **«يا غلام»**:

إنه ينصحـه ويرشده وهو غلام لماذا؟ لأن الـصبى تتعلق بذهـنه النصيحـة طالما كان صغـيرًا، كما قـال الحكماء «التـعليم فى الصغـر كالنقش فى الحجـر، والتعليم فـى الكبر كالنقش فى الهواء».

**قد ينـفع الأدب الأطفال فى صـغر ... وليـس ينفع عـند الشـيـبة الأدب**

**إن الغـصون إذا قـومتها اعتـدلت ... ولن تـلين إذا قـومتـهـا الخـشب**

يا غلام، ماذا تريد يا رسول الله؟

**«إنى أعلمك كـلمات»** لم يقل إنى أعلمك دروسًا، ولكن فـقط كلمات لماذا؟ لكى تثبت فى الأذهان، وتعيها الآذان، ولا تملها النفوس.

صلوات ربى وتسليـماته عليك يا سيـد الأولين والآخرين، يا سيـد المربين، وكأنك تريد أن تلقن الأمـة درسًا فى التربيـة الحديثة، وتريد أن تقول لـلمعلمين فى كل الـعصور والأزمان، وتريد أن تقـول لكل الدعاة إلى الخير، أوجـزوا فى كلامكم، واختـصروا حتى يفهمه الآخـرون، اجعلوا ما تتحدثون فيه مـكونًا من عناصر حتى يكون مفيدًا لـلسامعين، فيكون سهل الانتفاع، ودعوكم من الحشو الذى لا فائدة منه.

ما هى هذه الكلمات يا رسول الله؟

**«احفظ الله يحفظك»**.

**فكيف تحفظ الله؟**

يقول ابن رجب الحنبلى(٣) رحمه الله:

«احفظ الله» يـعنى احفظ حدوده وحـقوقه، وأوامـره ونواهيه، وحـفظ ذلك يكون بالوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده فلا يتجاوز ما أمر به وأذن فيه إلى ما نهى عـنه، فمن فعل ذلك فهو من الحافظين لحـدود الله الذين مدحهم الله

(١) المرجع السابق.

(٢) رواه الحاكم والبيهـقى فى الشعب عن ابن عباس وأبو نعيم فى حليـة الأولياء جـ٤/١٤٨ وأحمد فى الزهد وصححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم (١٠٧٧).

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى ص٢٤٨

فى كتابـه، قال عز وجل: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٢، ٣٣]. وفسر الحفيظ هنـا بالحافظ لأوامر الله، وبالحافظ لذنوبه ليتوب منها.

ولقد ذكرت مادة (حفظ) فى الـقرآن الكريم فى أربع وأربعين موضعًا بجميع مـشتقاتها ومن أعظم ما يجب حفظه من أوامـر الله تعالى الصلاة، لأنه سبحانه قد أمـر بالمحافظة عليها فقال سبحانه: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨]، ومدح المحافظين عليها بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤] وفى السنة النبوية ما رواه أحمد فى مسنده: **«من حافظ علـيهن كانت له نورًا وبرهـانًا ونجاة يوم القيـامة ومن لم يحافظ عليهن لم تكـن له نورًا ولا برهانًا ولا نجاة يوم القيامة، وكان يوم القـيامة مع فرعون وقارون وهامان وأبى بن خلف»**(١)

**يقول ابن القيم رحمه الله:**

إنَّ تارك الصلاة إما أن يشـغله ماله، أو ملكه، أو رياسته، أو تجارته، فـمن شغله عنها مالـه فهو مع قـارون، وقد خـسف الله به وبداره الأرض، ومن شـغله عنهـا ملكه فهـو مع فرعون، وقد أخذه الله نكال الآخرة والأولى، ومن شغله ريـاسته فهو مع هامان، ومن شغله عنها تجارته فهو مع أبى بن خلف.

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أما أنه لا حظ لأحد فى الإسلام أضاع الصلاة»(٢)

وقد ظل الرسول الأكرم محافظًا عليها حتى أنه كا يوصى بها وهو فى آخر لحظات فى حياته فيقول: **«الصلاة الصلاة»**(٣)

وقد حفظ الله تعالى أولـئك الذين يحافظون على ركوعها وسجـودها، ومنهم التابعى الجليل «مسلم بن يسار» رحمه الله:

قال معتمـر: بلغنى أن مسلم بن يسار كان يقول لأهله. إذا كانت لكم حـاجة فتكلموا وأنا أصلى -أى لا أسمع ساعتها.

فتأمل حفظ الله تعالى له:

---

(١) رواه أحمـد فى مسنده بـرقم (٧٥٧٦) بسند جيـد وقال الهيثمـى فى المجمع ١/ ٢٩٢ رواه أحـمد والطبرانى فـى الكبير والأوسط ورجال أحـمد ثقات، ورواه ابن حـبان (٢٤٥) والدارمى ٢/ ١٧٢١ والأصبهانى (١٩٣٣).

(٢) رواه مالك فى الموطأ ١/ ٣٢ وهو صحيح موقوف.

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده برقم (١٢١٠٨) وأبو داود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم (٤٦١٦).

«لقد كان قائمًا يصلى ذات مرة فوقع حريق إلى جنبه فما شعر به حتى طفئت النار»[١]

وقال ميمون بن حيان -رحمه الله-:

«ما رأيت مسلم بن يسار ملتفتًا فى صلاته قط خفيفة ولا طويلة، ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع أهل السوق وإنه لفى المسجد فى الصلاة فما التفت»[٢]

لقد حفظه الله من الحريق فلم يتسرب إليه، ونجاه وحفظه فلم يصل هدم المسجد إليه.

**وتأمل:**

لقد ورد أن الحجاج بن يوسف الثقفى أمر سالم بن عبد الله أن يقتل رجلاً، فقال سالم للرجل: أصليت الصبح فى جماعة، قال الرجل: نعم، قال: انطلق، فلما سأله الحجاج: ما منعك من قتله؟ قال. حدثنى أبى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«من صلى الصبح فى جماعة فهو فى ذمة الله، ومن أخفر ذمة الله كبه الله فى النار لوجهه»**[٣].

فتأمل حفظ الله تعالى للرجل لأنه حافظ على الصلاة فى جماعة.

ولله در القائل:

**ألا إنَّ فى الصلاة الخير والفضل أجمع ... لأن بها الرقاب لله تخضع**
**وأول فرض فى شريعة ديننا ... وآخر ما يبقى إذ الدين يرفع**
**فمن قام للتكبير لاقته رحمة ... وكان كعبد باب مولاه يقرع**
**وكان لرب العرش حين صلاته ... نجيًّا فطوبى له حين يخشع**

**حفظ الطهارة:**

وكذلك الطهارة لأنها مفتاح الصلاة، قال النبى ﷺ: **«لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»**[٤]

وقال ﷺ: **«من بات طاهراً فى شعار طاهر، بات ومعه ملك فى شعاره، فلا يستيقظ ساعة من الليل إلا قال الملك: اللهم اغفر لعبدك فلان، فإنه بات طاهراً»**[٥]

---

(١، ٢) حلية الأولياء جـ٢/ ٢٩٠، ٢٩١

(٣) رواه الطبرانى وابن خزيمة ومسلم بنحوه رقم (٦٥٧)، وأحمد برقم (١٨٧٠٧) جـ١٤/ ٢٧٣ وصححه الألبانى فى صحيح الجامع والترمذى برقم (٢٢٢) وقال حسن صحيح.

(٤) الحديث صحيح رواه ابن حبان ١/ ١٦٤ وابن ماجه باب المحافظة على الوضوء ١/ ٢٧٧

(٥) الحديث حسن بشواهده؛ رواه ابن المبارك فى الزهد (١٢٤٤) ومن طريق ابن عدى فى الكامل ٢/ ٣١٧

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال:

**«من أتم الوضوء كما أمر الله، والصلاة كما أمر الله كانت كفارة لما بينهما»**(١)

**حفظ القلب:**

فإذا ما أردت أن يحفظ الله عليك قلبك فنقه من الغل والحقد، والحسد والبغضاء، ونقه من الرياء والنفاق، واغسله من الكبرياء والنفاق.

واملأ قلبك بالتوحيد والإخلاص، واروه بماء الذكر، وصفه بمصفاة المراقبة، واغسله بالاستغفار، وأوقد عليه بنار الخشية، وأحطه بالصدق والتوكل يحفظ الله عليك قلبك، ويجعل من القلوب التى إذا: ﴿**ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ [الأنفال: ٢] إذا حفظته من الأمراض صار قلبًا مطمئنًا بذكر الله: ﴿**أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد: ٢٨] وإذا حفظه رب العالمين كان قلبًا سليمًا قويًا يعرف الله تعالى ويراقبه.

**حفظ الأيمان(٢):**

ولقد أمر الله تعالى عباده بحفظ الأيمان قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ**﴾ [المائدة: ٨٩].

وكان السلف الصالح رضوان الله عليهم كثيرًا ما يحافظون على أيمانهم، فمنهم من كان لا يحلف بالله ألبته، ومنهم من كان يتورع حتى يكفر عما شك فى الحلف فيه.

فلقد وصى الإمام أحمد عند موته أن يخرج عنه كفارة يمين. وقال: أظن أنى حنثت فى يمين حلفتها.

وقد روى عن أيوب عليه السلام كان إذا مر باثنين يحلفان بالله ذهب فكفر عنهما يمينهما، لئلا يأثما وهما لا يشعران، ولهذا لما حلف على ضرب امرأته مائة جلدة، أفتاه الله بالرخصة لحفظه لأيمانه وأيمان غيره(٣)

**حفظ العبد لسانه:**

يقول القرنى: من حفظ العبد لربه أن يحفظ لسانه، واللسان هذا أمره عجيب.

فكم هتك من عرض، وكم أوقع فى معصية، وكم لطخ من سمعة، وكم هدم من بيت وفى الحكمة: تسعة أعشار العبادة فى الصمت.

وحكى أن مريم عليها من الله السلام لمَّا نذرت أن لا تتكلم وحبست لسانها لأجل الله تعالى، حفظها الله من التهمة، وبرأها على لسان صبى لا يعرف الخطاب، أنطقه الله لأجلها(٤)

---

(١) رواه أحمد فى مسنده برقم ٤٠٦ جـ١/ ٣٣٦ وصححه الشيخ أحمد شاكر وذكره مسلم برقم (٢٣١) والنسائى.

(٢) الجزاء من جنس العمل د/ سيد عفانى جـ١/ ٤٧٥ بتصرف.

(٣) نور الاقتباس ص٣٧ والجزاء من جنس العمل د/ سيد عفانى جـ١/ ٤٧٥

(٤) بحر الدموع لابن الجوزى ص١٤٦ ط/ الدار التوفيقية.

فمن حفظ لسانه لأجل الله تعالى فى الدنيا، أطلق الله لسانه بالشهادة عند الموت ولقاء الله تعالى، ومن سرح لسانه فى أعراض المسلمين، واتبع عوراتهم أمسك الله لسانه عن الشهادة عند الموت.

وفى الحديث: أن النبى ﷺ فقد كعبًا، فسأل عنه، فقيل: إنه مريض، فخرج يمشى حتى أتاه، فلما دخل عليه، قال: أبشر يا كعب، فقالت له أمه: هنيئًا لك الجنة يا كعب. فقال رسول الله ﷺ: «من هذه المتألية على الله؟ قال: أمى. قال: «**وما يدريك يا أم كعب لعل كعبًا -قال ما لا يعنيه، أو سمع مالا يعنيه**»[1]

وفى صحف إبراهيم عليه السلام:

على العاقل أن يكون بصيرًا بزمامه، مقبلاً على شأنه، حافظًا للسانه.

**احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يقتلنك إنه ثعبان**

**كم فى المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الشجعان**

ولذلك قيل: الزم الصمت تُعد فى عقلك فاضلاً، وفى خلقك عاقلاً، وفى قدرك حكيمًا، وفى عجزك حليمًا، وإياك وفضول الكلام، فإنه يظهر من عيوبك ما بطن.

ومن حفظ لسانه، وأعرض عما لا يعنيه، وكف عن عرض أخيه، دامت سلامته، وقلت ندامته[2]

**الصمت نفع والكلام مضرة ... فلرب صمت فى الكلام شفاء**

**فإذا أردت من الكلام شفاءً ... لسقام قلبك فالقرآن دواء**

**وتأمل أخى الحبيب:**

تأمل لقمان الحكيم لما حفظ لسانه، ماذا كان حاله؟ لقد امتن عليه بالحكمة فصار ينطق بها، ولما سئل عن ذلك وقيل له: ما بلغ بك ما نرى؟ قال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وتركى ما لا يعنينى.

لذلك قال بعض الحكماء:

إنَّ جسد ابن آدم ثلاثة أجزاء: فجزء منه قلبه، والثانى: لسانه، والثالث: جوارحه وقد أكرم الله كل جزء بكرامة، فأكرم القلب بمعرفته وتوحيده، وأكرم اللسان بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتلاوة كتابه، وأكرم الجوارح بالصلاة والصوم، وسائر الطاعات، ووكل على كل جزء رقيبًا حفيظًا، فتولى حفظ القلب بنفسه، فلا يعلم ما فى

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد جيد قاله الهيثمى فى المجمع ١٠/٣١٦ - ٣١٧ وذكره الحافظ العراقى فى تخريج الإحياء وقال: أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث كعب بن عجرة بإسناد جيد.

(٢) العقد النفيس ونزهة الجليس للثعالبى ص٣٧ ط/ دار الصحابة.

ضمير العبد إلا الله، ووكل على لسانه الحفظة، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ من قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] وسلط على الجوارح الأمر والنهى(١)

ثم إن لكل جزء وفاء وحفظًا، فوفاء القلب وحفظه يكون بالإيمان والتوحيد والإخلاص، وحفظ اللسان يكون بعدم الغيبة والنميمة، وعدم الكذب والتحدث فيما لا يعنيه، وحفظ الجوارح ووفاؤها يكون بعدم معصية الله تعالى، وعدم إيذاء الخلق.

## • حفظ البصر •

**احفظ الله يحفظك:**

### أخى المسلم:

لقد أمرك مولاك بحفظ البصر، وحفظ الفرج، وقدم البصر على الفرج لأن البصر بريد الزنا، قال سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِين يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ويحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَات يَغْضُضْن منْ أَبْصَارِهِنَّ ويحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

قال أبو حيَّان فى تفسيره:

قدم غض البصر على حفظ الفرج، لأن النظر بريد الزنا، ورائد الفجور، والبلوى فيه أشد وأكثر، ولا يكاد يقدر على الاحتراز منه.

فعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة، العينان تزنيان وزناهما النظر، والأذنان تزنيان وزناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرجل تزنى وزناها اللمس، والقلب يهوى ويتمنى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**»(٢)

فمن حفظ فرجه، حفظه الله، ونور قلبه بالحكمة والعلم، وحفظ من الضلال، ولذلك عقب الله سبحانه وتعالى على آيتى حفظ البصر والفرج بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] لذلك قال شاه بن شجاع الكرمانى: «من عمر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهوات، واعتاد الحلال لم تخطئ فراسته».

وكان شاه هذا لا تخطئ فراسته.

وتأمل أخى الحبيب ذلك الذى حفظ بصره، فغضه عن كل محرم، واجتنب فيه كل منكر ماذا فعل الله له؟.

(١) تنبيه الغافلين ص١٦٥ مكتبة التقوى تحقيق السيد العربى.

(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده برقم ( ٨٥٢) وأبو داود رقم (٢١٣٩) وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود برقم (٢١٥٢) جـ١/٥٩٨

يقول إبراهيم بن المهلب السائح: رأيت غلامًا قائمًا يصلى، قد انقطع عن الناس، فانتظرته حتى قطع صلاته، ثم قلت له: أما معك مؤنس؟ قال: بلى. قلت: وأين هو؟ قال: أمامى ومعى وخلفى وعن يمينى وعن شمالى وفوقى.

فعلمت أن عنده معرفة، فقلت له: أما معك زاد؟ قال: بلى. قلت: فأين هو؟ قال: الإخلاص لله عز وجل، والتوحيد له والإقرار بنبيه ﷺ وإيمان صادق، وتوكل واثق.

قلت: هل لك فى مرافقتى؟ قال: الرفيق يشغل عن الله، ولا أحب أن أرافق أحدًا فأشتغل به عنه طرفة عين.

قلت: ما تستوحش فى هذه البرية وحدك؟ فقال: إنَّ الأنس بالله قطع عنى كل وحشة، حتى لو كنت بين السباع ما خفتها، ولا استوحشت منها.

قلت: فمن أين تأكل؟ قال: الذى غذانى فى ظلم الأرحام صغيرًا قد تكفل برزقى كبيرًا. قلت: ففى أى وقت تجيئك الأسباب؟ فقال: لى جَدٌّ معلوم ووقت مفهوم، إذا احتجت إلى الطعام أصبته فى أى موضع كنت، وقد علم ما يصلحنى وهو غير غافل عنى.

قلت: ألك حاجة؟ قال: نعم. قلت: وما هى؟ قال: إذا رأيتنى فلا تكلمنى، ولا تعلم أحدًا أنك تعرفنى.

قلت: لك ذاك، فهل حاجة غيرها؟ قال: نعم. قلت: وما هى؟ قال: إن استطعت ألا تنسانى فى دعائك، وعند الشدائد إذا نزلت بك فافعل.

قلت: كيف يدعو مثلى لمثلك وأنت أفضل منى خوفًا وتوكلاً؟! ثم قلت له: ادع الله لى. فقال: حجب الله طرفك عن كل معصية، وألهم قلبك الفكر فيما يرضيه، حتى لا يكون لك هم إلا هو. قلت: يا حبيبى متى ألقاك؟ وأين أطلبك؟ فقال: أما فى الدنيا فلا تحدث نفسك بلقائى فيها، وأما الآخرة فإنها مجمع المتقين، فإياك أن تخالف الله فيما أمرك وندبك إليه، فإن كنت تبغى لقائى فاطلبنى مع الناظرين إلى الله عز وجل فى زمرتهم، قلت: وكيف علمت ذلك؟. قال: «بغضى طرفى له عن كل محرم، واجتنابى فيه كل منكر ومأثم، وقد سألته أن يجعل جنتى النظر إليه» ثم صاح وأقبل يسعى حتى غاب عن بصرى»(١)

### حفظ العبد فرجه:

ولقد مدح رب العالمين جل وعلا عباده المؤمنين، ووعدهم الفلاح فى الدنيا

---

(١) ذم الهوى لأبى الفرج بن الجوزى ص١١٧، ١١٨ ط/ دار الكتب العلمية - بيروت.

والفردوس فى الآخرة، فقال سبحانه: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ** ﴾ [المؤمنون: ١: ٦].

وقال سبحانه: ﴿ **وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وفى السنة النبوية يقول سيد الخلق، وحبيب الحق: «**من حفظ ما بين لحييه وما بين رجليه دخل الجنة**»[١] وفى رواية لأحمد عن أبى موسى الأشعرى ﷺ «**من حفظ ما بين فقميه وفرجه دخل الجنة**»[٢]

فمن حفظ الله تعالى فى فرجه وجوارحه حفظه الله تعالى، وعوضه خيرًا عظيمًا، ولذلك تأمل الكريم ابن الكريم «يوسف بن يعقوب عليه السلام».

تأمله حين حفظ فرجه عن امرأة العزيز، وكان حفظه فرجه لله رب العالمين، لا لأحد سواه، فماذا كان جزاؤه عند رب العالمين؟

لقد نقله مولاه من العبودية إلى الحرية، ومن الرق إلى السيادة والملك، وخلد سبحانه ذكره فى الأولين والآخرين، وجعله من عباده المخلصين، ويوم القيامة من المظللين فى ظل عرش رب العالمين، مصداقًا لقول النبى الأمين:

«**سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى طاعة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله رب العالمين... إلخ**»[٣] ويوسف عليه السلام رجل دعته امرأة ذات منصب جمال، وهى زليخا ولما حفظ الحداد جار مالك بن دينار فرجه عن الحرام حفظه الله من النار فى الدنيا يقول مالك بن دينار رحمه الله:

كان لى جار حداد يمسك بالحديد المحمى بالنار كما يمسك أحدنا الدينار والدرهم، فسألته عن سبب ذلك قال لى: كانت لى ابنة عم وقد كنت أتمنى الزواج منها، لكنها تزوجت بآخر، وفى يوم من الأيام جاءت إلىَّ تطلب شيئًا من متاع الدنيا لأن أولادها يصرخون جوعًا، فرفضت إلا أن تمكننى من نفسها، لكنها أبت، وذهبت وما هى إلا لحظات وقد عادت ذليلة باكية، فطلبت منها ذلك مرة أخرى، فخضعت وقالت لى: غلِّق الأبواب فأغلقتها، فلما جلست منها مجلس الرجل من زوجته، سألتنى هل غلقت الأبواب

(١) رواه الحاكم ٤/٣٥٧ وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى.
(٢) رواه أحمد برقم (١٩٤٥١) والبخارى فى التاريخ وصححه الألبانى فى صحيح الجامع جـ٢/٢ ٦٢
(٣) رواه البخارى رقم (٦٦٠) ومسلم رقم (٣١ ١) وأحمد فى مسنده برقم (٩٦٢٨).

كلها؟ فقلت: نعم، فقالت: إلا باب الواحد الديان الذى لا يغلق أبداً، ففزعت وقمت عنها، وقلت لها: خذى ما شئت، ولا أسألك شيئًا إلا الدعاء لى، فرفعت يديها إلى السماء وقالت: اللهم احفظه من النار فى الدنيا، والآخرة، وقد استجاب الله دعاءها فحفظت من النار فى الدنيا، وأرجو من الله أن يحفظنى منها فى الآخرة.

وليست قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة وهم فى غار فى الجبل منكم ببعيد فقد روى البخارى ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«كان فيمن قبلكم ثلاثة نفر آواهم المبيت إلى غار فى الجبل، فانطبقت عليهم الصخرة، فقالوا ادعوا الله بصالح أعمالكم ليفرج عنا ما نحن فيه، فدعا أحدهم وقال:**

**«اللهم إنك تعلم أنه كان لى ابنة عم، وأنها كانت تعجبنى، فراودتها عن نفسها، فأبت فأصابتها حاجة شديدة، فأتتنى، وسألتنى، فقلت: لا حتى تمكنينى من نفسك، فقالت: دونك، فلما قعدت منها مقعد الرجل من امرأته، ارتعدت فقالت: لا تفض الخاتم إلا بحله، فتركتها وأعطيتها ما احتاجت إليه، اللهم إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرج عنا، فانفرجت من باب الغار فرجة.. إلخ»**[1]

فانظر كيف كان حفظ الفرج سببًا فى حفظ الحياة، بعدما ضاقت الأمور، وانسدت الأبواب، ولم يكن هناك إلا باب الواحد الذى يعلم خائنة الأعين، وما تخفى الصدور ولذلك قال أبو إدريس الخولانى رحمه الله:

أول ما وصى الله به آدم عليه السلام عند إهباطه إلى الأرض أن يحفظ فرجه، وقال: لا تضعه إلا فى حلال.

**أنواع الحفظ وكيف يحفظك ربك؟**

ومعنى (يحفظك) أن من حفظ حدود الله، وراعى حقوقه حفظه الله، فإن الجزاء من جنس العمل.

ثم يقول ابن رجب: وحفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان:

**النوع الأول:**

حفظه له فى مصالح دنياه، كحفظه فى بدنه وولده، وأهله، وماله، قال الله عز وجل: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الملائكة يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء القدر خلوا عنه وقال على بن أبى طالب رضي الله عنه: إنَّ مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، وإنَّ الأجل جنة حصينة.

(١) حديث صحيح رواه البخارى ومسلم وغيرهما.

وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك يحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما من شىء يأتيه إلا قال له: وراءك، إلا شيئًا أذن الله فيه، فيصيبه.

ومن هذا النوع حفظ الله تعالى عبده فى حياته وبدنه، لذلك كان النبى ﷺ يدعو ويقول: «**اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى، اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى، واحفظنى من بين يدى ومن خلفى، وعن يمينى وعن شمالى، ومن فوقى، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى**»(١)

ومن حفظ الله لعبده أن يحفظه فى صحة بدنه، وقوة عقله، وماله.

فقد كان بعض العلماء قد جاوز المائة سنة، وهو متمتع بقوته وعقله، فلما سئل فى ذلك قال: تلك جوارحنا حفظناها من المعاصى فى الصغر فحفظها الله علينا فى الكبر.

ومثله أبو الطيب الطبرى رحمه الله، وكان قد جاوز المائة سنة، وكان يتمتع بعقل وقوة فوثب يومًا من سفينة كان فيها إلى الأرض وثبة شديدة، فعوتب فى ذلك، فقال: هذه جوارح حفظناها عن المعاصى فى الصغر، فحفظها الله علينا فى الكبر(٢)

وعكس هذا أن بعض السلف رأى شيخًا يسأل الناس، فقال: إنَّ هذا ضيع الله فى صغره، فضيعه الله فى كبره.

وقد يحفظ الله العبد بصلاحه فى ولده، وولد ولده كما قيل فى قوله تعالى: ﴿ **وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا** ﴾ [الكهف: ٨٢].

قال ابن كثير: كان الأب السابع، وقيل: العاشر، وفيه دلالة على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته(٣)

إنَّ موسى عليه السلام لما كان فى طريقه مع الخضر إذ بهما يمران على قرية، وكان الجوع قد بلغ بهما مبلغه، فطلبوا الطعام من أهلها فأبوا، ولم يقدموا لهما طعامًا كما حكى القرآن الكريم فى سورة الكهف، وبينما هما فى الطريق إذ بالخضر يجد جدارًا كاد أن يسقط ويهدم فتوقف فأقامه وعدله بيده، فماذا قال موسى عليه السلام للخضر، اسمع: ﴿ **فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا** ﴾ [الكهف: ٧٧] ولما فسر الخضر المشاهد لموسى عليه السلام قال: ﴿ **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا** ﴾ [الكهف: ٨٢].

قال أبو ذر: إن الكنز الذى ذكر الله فى كتابه لوح من الذهب مصمت، مكتوب

---

(١) رواه أحمد فى مسنده برقم (٤٧٨٥) بسند صحيح وأبو داود كتاب الأدب: ما يقول إذا أصبح ٤/ ٥٠٧٤ وابن ماجه كتاب الدعاء من حديث ابن عمر، والحاكم صححه ووافقه الذهبى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع ١/ ١٢٧٤ من حديث ابن عباس.

(٢) البداية والنهاية جـ١٢/ ٨٠.

(٣) البداية والنهاية جـ١/ ٢٩٩

عليه: عجبت لمن أيقن بالقدر كيف نصب؟ وعجبت لمن ذكر النار لمَ ضحك؟ وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل (لا إله إلا الله)؟[١]

فصلاح الآباء وحفظهم لله تعالى ينفع الأبناء، وأبناء الأبناء.

ولذلك كان أحد التابعين يطيل الصلاة ويحافظ عليها ويقول: إنى أتمها لأولادى أى لكى أحفظ فى ذريتى.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله فى عقبه.

وقال ابن المنكدر: إنَّ الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده، والدويرات التى حوله، فما يزالون فى حفظ من الله وستر وعافية ما كان بين ظهرانيهم[٢]

ومتى كان العبد مشتغلاً بطاعة مولاه جل وعلا فإن الله سبحانه وتعالى يحفظه فى كل أحواله وفى مسند الإمام أحمد:

عن النبى ﷺ قال: «**إنَّ امرأة كانت فى بيت فخرجت فى سرية من المسلمين، وتركت ثنتى عشرة عنزة، وصيصتها كانت تنسج بها، قال: ففقدت عنزة لها وصيصتها فقالت: يارب: إنك قد ضمنت لمن خرج فى سبيلك أن تحفظ عليه، وإنى قد فقدت عنزاً من غنمى وصيصتى، وإنى أنشدك عنزى وصيصتى**» قال: فجعل رسول الله ﷺ يذكر شدة منا شدتها ربها تبارك وتعالى، قال رسول الله: فأصبحت عنزها ومثلها، وصيصتها ومثلها. .»[٣]

**النوع الثانى من الحفظ:**

وهو أشرف النوعين: حفظ الله للعبد فى دينه، وإيمانه، فيحفظه فى حياته من الشبهات المضلة، ومن الشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفاه على الإيمان.

قال بعض السلف: إذا حضر الرجل الموت يقال للملك: شم رأسه، قال: أجد فى رأسه القرآن، قال: شم قلبه: قال: أجد فى قلبه الصيام، قال: شم قدميه. قال: أجد فى قدميه القيام، قال: حفظ نفسه، فحفظه الله.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) حلية الأولياء لأبى نعيم جـ٣/١٤٨، وجامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى ص٢٥٠

(٣) رواه أحمد فى مسنده برقم (٥٤٢ ٢) جـ١٥/٢٧٩ وصححه حمزة الزين وقال الهيثمى فى المجمع ٥/٢٧٧ رجاله رجال الصحيح. والصيصة هى الصنارة التى تغزل بها.

## • حفظ الله لأنبيائه وأوليائه •

١ - حفظه لخليله إبراهيم:

فهذا هو خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لما حفظ الله تعالى فى نفسه ودينه حفظه الله من النار حين ألقاه النمرود فيها، النمرود يصدر القرار بإعدام إبراهيم عليه السلام حرقًا، وملك الملوك يصدر قراره إلى النار فيقول لها كما حدث القرآن: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

فاعتبر أخى المسلم، فالسعيد من اعتبر، والسعيد من تفكر فى العواقب ونظر.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يبعد يومئذ نار إلا أطفئت ظنت أنها هى التى تعنى، ولو لم يتبع بردها سلامًا لمات إبراهيم من بردها[(١)]

بعكس عدوه النمرود اللعين فلم يحفظ الله، فلم يحفظه بل أرسل الله تعالى إليه بعوضة دخلت فى أذنه، فكانت تطن فى رأسه فلا يهدأ حتى يضرب بالنعال على أم رأسه!!.

**(تأمل):**

**٢- تأمل حفظ الله لنبيه إسماعيل عليه السلام:** لما حفظ مولاه بطاعة أبيه إبراهيم عندما أخبره بالرؤيا، ما كان منه إلا أن قدم نفسه فداءً لمولاه، فحفظه مولاه، وأرسل كبشًا من السماء، مع كبير أمناء وحى السماء، جبريل عليه السلام.

يخرج مع أبيه إبراهيم عليه السلام لينفذ أوامر الله تعالى، فيقول له: يا أبتى كبنى على وجهى حتى لا تأخذك الشفقة، فيحول ذلك بينك وبين أمر الله جل وعلا، وإذ بإبراهيم يشحذ سكينه حتى كادت أن تأخذ بالحجر، فيأخذها إبراهيم فيمررها على رقبة إسماعيل فلا تأخذ، ما هذا أهذه هى السكين التى أخذت فى الحجر؟! إنها لا تذبح، وإذ به يرمى بها بعيدًا غاضبًا ولسان حاله يقول: قبح الله هذه السكين التى تحول بينى وبين أمر الله تعالى، وكأن السكين ترد على إبراهيم ولسان حالها يقول:

يا إبراهيم: أنا بين أمرين: الخليل يقول لى: اقطعى، والجليل يقول: لا تقطعى وأنا من قبل الجليل لا من قبل الخليل، وكيف أقطع رقبة إسماعيل ونور محمد يسطع فى جبينه، ينزل جبريل ويقول: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٤: ١٠٧].

(١) التبصرة لابن الجوزى جـ١/ ١٥٦ دار ابن خلدون.

**٣- حفظ الله لكليمه موسى عليه السلام:**

**احفظ الله يحفظك:**

تأمل كيف حفظ رب العالمين جل وعلا كليمه موسى عليه السلام، حفظه من الذبح وهو صغير وكان فرعون قد ذبح سبعين ألف مولود، وكان قد ولد هارون فى السنة التى لا يذبح فيها[1]، وولد موسى فى سنة الذبح، فسخر الله له البحر ليحفظه، وأنجاه من التلف بالتلف. الآلاف من الجنود يبحثون عنه، ويتمنى فرعون لو يجده، فينجيه الله من ذبح فرعون وجنوده بالبحر[2]، ثم يربى فى حجر من؟ فى حجر من هو عدوه، من قتل هؤلاء الأطفال الأبرياء، ليتخلص منه! ما هذا الحفظ؟ وأى حفظ بعد هذا؟!.

وتزج به الأمواج إلى الساحل، فينظر إليه، ويقول: عبرانى من الأعداء كيف أخطأه الذبح؟ فتقول له آسية: ﴿**قُرَّتُ عينٍ لِّى وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عسىٰ أَن ينفعَنَا أَوْ نَتَّخذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يشْعُرُونَ**﴾ [القصص: ٩].

لا يشعرون، ولا يعلمون ماذا خبأ القدر لموسى عليه السلام مع فرعون اللعين؟.

**لا تدبر لك أمراً فأولى التدبير هلكى**
**سلم الأمر تجدنا نحن أولى بك منك**

**وتأمل أخى الحبيب:**

تأمل حفظ الله تعالى لموسى عليه السلام وهو طفل صغير من الغرق فى اليم، وحفظه له من الغرق فى اليم وهو شيخ كبير الله أكبر الله أكبر.

﴿**فَلَمَّا تراءى الْجَمْعَانِ قال أَصحاب موسىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾ [الشعراء: ٦١]، فها هو البحر أمامنا، وفرعون وراءنا، فلا شك أنه أحد أمرين: إما الغرق، وإما القتل من فرعون، فماذا كان الجواب من موسى عليه السلام؟ ﴿ **قَالَ كَلاَّ إِنَّ معِى رَبِّى سَيهْدِينِ**﴾ [الشعراء: ٦٢]. ومن كان معه مولاه فمعه كل شيء، من كان معه الله، فمعه الفئة التى لا تغلب.

من كان معه الله فلن يخيب سعيه. من كان معه مولاه فلن يضل سؤله...

إنَّ الذى أنجاه من الغرق وهو طفل رضيع، سوف ينجيه من الغرق وهو شيخ كبير: ﴿**فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسىٰ أَن اضْرِب بِّعَصاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**﴾ [الشعراء: ٦٣] إنَّ موسى عليه السلام حفظ الله فحفظه مولاه: ﴿**وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ**﴾ [الشعراء: ٦٥] لكنَّ فرعون اللعين ماذا كان مصيره؟ لقد كان من المغرقين الهالكين.

---

(١) التبصرة لابن الجوزى جـ١/ ٢٧١

(٢) الجزاء من جنس العمل جـ٢/ ٤٨٣ د/ سيد عفانى.

**٤-حفظ الله يونس عليه السلام:**

**أخى المسلم:** تأمل حفظ الله لنبيه يونس عليه السلام حيث إنه حفظ الله تعالى بتسبيحه وتمجيده والتقرب إليه بصالح الأعمال.

لما خرج هاربًا من قومه خوف أن ينزل الله عليهم العذاب جميعًا، ركب يونس البحر فلجت بهم السفينة واضطربت، وماجت بما فيها، وثقلت وكادوا يغرقون، فاقترعوا فوقع السهم على يونس عليه السلام، فأعادوا القرعة، فخرج السهم على يونس مرة أخرى، ثم أعادوها ثالثة فوقعت عليه لما يريده الله به من الأمر العظيم، وإذ به يُرمى فى الماء، وإذا بالقائد الأعلى للقوات البحرية، يصدر قراره إلى إحدى الغواصات البحرية الحوتية فيبتلع يونس عليه السلام، ولسان الحال يقول لهذا الحوت الكبير:

أيها الحوت لقد أرسلتك إلى يونس عبدى لتكون له حفظًا، فلا تأكل له لحمًا، ولا تكسر له عظمًا، فليس لك برزق، فأخذه فطاف به البحار كلها.

«ولما استقر فى جوف الحوت حسب أنه قد مات فحرك جوارحه، فتحركت، فإذا هو حى، فخر لله ساجدًا، وقال: يا رب اتخذت لك مسجدًا لم يعبدك أحد فى مثله»(١)

ويقول أمية بن أبى الصلت مناجيًا ربه:

**وأنت بفضل منك نجيت يونسا          وقد بات فى أضعاف حوت لياليا**

ولما جعل الحوت يطوف به فى لجج البحار، إذ به يسمع تسبيح الحيتان للرحمن، حتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى، ورب السموات السبع، والأراضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى فعند ذلك وهنالك قال بلسان الحال والمقال، كما أخبر عنه ذو العزة والجلال، الذى يعلم السر والنجوى، ويكشف الضر والبلوى. سامع الأصوات وإنْ ضعُفت، وعالم الخفيات وإن دقت، ومجيب الدعوات وإن عظمت حيث قال فى كتابه المبين وهو أصدق القائلين: ﴿**فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأنبياء: ٨٧] سبح يونس عليه السلام وهو فى ظلمات ثلاث.

ظلمة بطن الحوت     وظلمة البحر.     وظلمة الليل، فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا، إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة، قال: ذلك عبدى يونس.   قالوا: العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم. فشفعوا فيه عند ذلك، فأمر الله الحوت فقذفه عند الساحل: ﴿**فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]: ﴿**لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ**﴾ [القلم: ٤٩].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ١/ ٢٣٣ وذكره فى التفسير جـ٥/ ٣٦٠، ٣٦١

إن نبى الله يونس عليه السلام صاحب الصلاة والتسبيح قبل التقام الحوت له وهو صاحب التسبيح والمصلى فى مسجد لم يتخذه أحد قبله فى بطن الحوت حفظ الله تعالى فحفظه الله فكان الجزاء من جنس العمل **«احفظ الله يحفظك»**.

إنه عبد تعرف على الله فى الرخاء فعرفه مولاه فى الشدة **«تعرف على الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة»**.

**٥- حفظ الله لنبيه عيسى عليه السلام:**

**احفظ الله يحفظك:**

إنَّ نبى الله عيسى عليه السلام رسول من رسل الله الكرام **حفظ الله فحفظه الله، حفظ الله فى دينه، حفظ الله فى رسالته، حفظ الله فى دعوته، حفظ الله فى كل شىء.**

حتى أنه كان من أزهد الناس فى الدنيا يقول يومًا لبنى إسرائيل:

«السلام عليكم يا بنى إسرائيل، أنا الذى أنزلت الدنيا منزلتها بإذن الله، ولا عجب ولا فخر، أتدرون أين بيتى؟ قالوا: أين بيتك يا روح الله؟.

قال بيتى: المساجد، وطيبى: الماء، وإدامى: الجوع، وسراجى: القمر بالليل، واصطلائى فى الشتاء: مشارق الشمس، وريحانى: بقول الأرض، ولباسى: الصون، وشعارى: خوف رب العزة، وجلسائى: الزمنى والمساكين، أصبح وليس لى شىء، وأمسى وليس لى شىء، وأنا طيب النفس غير مكترث، فمن أغنى منى وأربح؟!»[١]

«يرى رجلاً يسرق يومًا من الأيام فقال له: أسرقت؟ قال: كلا والذى لا إله إلا هو، فقال عيسى عليه السلام: آمنت بالله وكذبت عينى»[٢]

دعا قومه إلى عبادة الله وتوحيده، فكذبوه وآذوه، وكانوا يبصقون عليه، ويلقون عليه الشوك، ووشوا به إلى بعض الملوك الكفرة -داود بن نورا- فأمر بقتله وصلبه، وحاصروه فى دار بيت المقدس ليقتلوه، فماذا حدث؟

قال ابن عباس رضي الله عنهما:

«لَّما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه، وفى البيت اثنا عشر رجلاً منهم الحواريون -يعنى فخرج عليهم من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء، فقال: إنَّ منكم من يكفر بى اثنى عشرة مرة بعد أن آمن بى، ثم أيكم يلقى عليه شبهى، فيقتل مكانى، فيكون معى فى درجتى؟ فقام شاب من أحدثهم سنًا، فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال: أنا - فقال: أنت هو ذاك.

فألقى عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء.

---

(١) رواه ابن عساكر وذكره ابن كثير فى البداية والنهاية جـ٢/ ٨٨.

(٢) رواه البخارى وأحمد برقم (٨١٣٩) وذكره ابن كثير فى البداية والنهاية جـ٢/ ٩٧.

قال: وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه »[١]

قال سبحانه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨].

حفظ الله فحفظه الله من مكر اليهود وغدرهم، وسوف ينزل فى آخر الزمان فيحكم بشريعة نبينا محمد ﷺ كما أخبرنا بذلك فقال:

**«ينزل ابن مريم إمامًا عادلاً، وحكمًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويرجع السَّلْمَ، ويتخذ السيوف مناجل، ويُذْهَبُ جُمة كل ذات جُمة، وينزل من السماء رزقها، وتخرج من الأرض بركتها حتى يلعب الصبى بالثعبان ولا يضره، وترعى الغنم والذئب ولا يضرها، ويرعى الأسد والبقر ولا يضرها»[٢]**

**٦- حفظ الله لنبيه محمداً ﷺ:**

**احفظ الله يحفظك:**

وتأمل أخى المسلم حفظ الله تعالى لنبيه محمدًا ﷺ ليلة الهجرة، حيث قد عقد البرلمان الملكى جلسته الطارئة فى دار الندوة، وكان هذا الاجتماع أخطر اجتماع عرف فى تاريخهم، وتوافد إلى هذا الاجتماع جميع نواب القبائل القرشية، لكى يتدارسوا خطة حاسمة، للتخلص من حامل لواء الدعوة الإسلامية، وقطع تيار نورها عن هذا الوجود، وقد اشتمل هذا الاجتماع على ثلاثة بنود:

**البند الأول:** أن توضع القيود فى يد محمد ﷺ، ويشد وثاقه، ويرمى فى السجن حتى يدركه ما أدرك الشعراء من قبله، لكنه رفض.

**الثانى:** أن ينفى خارج مكة كلها، لكنه رفض أيضًا.

**الثالث:** تقدم به كبير مجرمى مكة «أبو جهل» قال: أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شابًا نسيبًا وسطًا فتيًا، ثم نعطى كل فتى سيفًا صارمًا، ثم يضربونه جميعًا ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلها، ولا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، حتى إذا لم يبق أمامهم إلا الدية أديناها إليهم.

---

(١) قال ابن كثير فى البداية والنهاية ٢/ ٩٢ وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم وروى النسائى نحوه، ورواه ابن جرير عن مسلم بن جنادة.

(٢) رواه أحمد فى مسنده رقم ( ١٠٢١ ) جـ٩/ ٤٢٩ وصحح إسناده حمزة الزين، وذكره ابن كثير فى الفتن والملاحم وقال: تفرد به أحمد وإسناده جيد قوى صالح. جـ١/ ١٨٥ ط/ المكتب الثقافى.

وقد فضح القرآن أمرهم، وأفشا خبرهم لرسوله محمد ﷺ في قرآنه فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقد حاز الاقتراح الأخير رضا نفوسهم، وانصرفوا ليقوموا بتنفيذه، وكان موعد التنفيذ بعد منتصف الليل، فباتوا متيقظين ينتظرون ساعة الصفر، ولكن الله غالب على أمره، بيده ملكوت كل شيء.

لكن الله حافظ رسوله وحبيبه، لكن الله ناصر نبيه محمد ﷺ.

أمر الرسول ﷺ عليًّا أن يبيت في فراشه، ويتسجى ببردته، وصدق علي إذ يقول:

وَقَيْتُ بنفسي خير مَنْ وطئ الثرى ... ومَنْ طَافَ بالبيت العتيق وبالحجْر

رسول إله خاف أن يمكروا به ... فنجاه ذو الطول الإله من المكر

وبات رسول الله في الغار آمنًا ... موقي وفي حفظ الإله وفي سَتْر

وبت أراعيهم وما يتهمونني ... وقد وطَّنْتُ نفسي على القتل والأسر[1]

ومع هذا الاستعداد وذلك الحرص، لكنهم فشلوا، ففي هذه الساعة الحرجة ألقي الله عليهم النوم فناموا نومًا عميقًا، فخرج رسول الله ﷺ واخترق صفوفهم، وأخذ حفنة من تراب البطحاء[2]، فجعل يذره علي رءوسهم، وقد أخذ الله أبصارهم عنه فلم يره أحد منهم، وكان الرسول ﷺ يتلو من أول سورة يس: ﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[3] [يس: ١ - ٩].

وظل المحاصرون ينتظرون ساعة الصفر، لكن قبل حلولها مر بهم رجل ممن لم يكن معهم، ورآهم ببابه فقال: ماذا تنتظرون؟

قالوا: محمدًا. قال: خبتم وخسرتم، قد والله مرَّ بكم، وذر على رءوسكم التراب، وانطلق لحاجته، قالوا: والله ما أبصرناه، وقاموا ينفضون التراب عن رءوسهم.

أبعد هذا الحفظ حفظ؟! إنه حفظ الله الحفيظ الأعظم!!.

---

(١) سبل الهدى والرشاد جـ٣/ ٣٢٨

(٢) والحكمة من وضع التراب دون غيره: إشارة بأنهم الأرذلون الأصغرون، الذى أرغموا، وألصقوا بالرغام وهو التراب.

(٣) جاء في سبل الهدى والرشاد جـ٣/ ٣٣٠ أن في قراءته ﷺ الآيات من هذه السورة، من الفقه التذكرة بقراءة الخائفين لها اقتداء به ﷺ، وورد في بعض الآثار: ما قرأها خائف إلا أمن.

**احفظ الله يحفظك:**

ويتجلى حفظ الله لرسوله الأكرم محمد ﷺ حين اتجه إلى غار ثور حتى يهدأ الجو، وقد قررت قريش فى جلسة طارئة مستعجلة استخدام جميع الوسائل التى تمكنهم من القبض على سيد المرسلين، وصاحبه، فوضعت المراقبة المسلحة فى جميع الطرق والمنافذ، «كما قررت إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة بدل كل واحد منهما لمن يعيدهما إلى قريش حيين أو ميتين، كائنًا من كان[(١)]

وجد القوم حتى وصلوا إلى باب الغار، لكن الذى حول العصا فى يد موسى إلى ثعبان، جعل حمامتين على فوهة الغار، وعنكبوتًا، وعن أنس عن أبى بكر قال: كنت مع النبى ﷺ فى الغار، فرفعت رأسى، فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبى الله، لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا. قال: اسكت يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟![(٢)]

حقًّا إنه الحفظ الأكبر

| | |
|---|---|
| **وإذا العناية لاحظتك عيونها** | **فنم فالمخاوف كلهن أمان** |

**﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** [التوبة: ٤٠].

ورحم الله الإمام البوصيرى حين قال:

| | |
|---|---|
| **ويح قوم جفوا نبيا بأرض** | **ألفته ضبابها والظباء** |
| **وسلوه وحن جذع إليه** | **وقلوه ووده الغرباء** |
| **أخرجوه منها وآواه غار** | **وحمته حمامة ورقاء** |
| **وكفته بنسجها عنكبوت** | **ما كفته الحمامة الحصداء** |

## • حفظ الله تعالى لمن حفظه من الصحابة والتابعين •

**احفظ الله يحفظك:**

### أخى المسلم:

إن الله تعالى حفظ الأولياء والصالحين الذين حفظوه فى أوامره، ونواهيه فمن هؤلاء الذين حفظهم الله: «سفينة مولى رسول الله ﷺ» حفظه الله من الحيوانات المؤذية، بل جعلها تنقاد له بالحب، وكأنها تعرفه.

عن ابن المنكدر أنَّ سفينة مولى رسول الله ﷺ أخطأ الجيش بأرض الروم، أو أسر، فانطلق هاربًا يلتمس الجيش، فإذا هو بالأسد، فقال: يا أبا الحارث -كنية الأسد- أنا مولى

---

(١) ذكره البخارى فى صحيحه ١/ ٥٥٤.

(٢) رواه البخارى برقم (٣٦٥٣) ومسلم والترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم (٦١٩٠).

رسول الله ﷺ كان من أمرى كيت وكيت، فأقبل الأسد يبصبصه -أى يحرك ذنبه- حتى قام إلى جنبه، كلما سمع صوته أهوى إليه، ثم أقبل يمشى إلى جنبه، فلم يزل كذلك حتى أبلغه الجيش، ثم رجع الأسد عنه(١)

الله أكبر الله أكبر إنهم حفظوا الله فحفظهم.

**احفظ الله يحفظك:**

وهذا هو صحابى جليل من صحابة رسول الله ﷺ من الذين حفظوا الله، فحفظهم إنه: «عاصم بن ثابت» رضي الله عنه.

تأمل ماذا حدث لهذا الصحابى الجليل، وتأمل حفظ الله له:

روى البخارى(٢) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه فى حديث غزوة الرجيع الطويل:

أن رسول الله ﷺ بعث عشرة من الرجال، وأمره عليهم، ليقوموا بالدعوة إلى الله تعالى خارج المدينة، فانطلقوا، فلما كانوا بالهدأة -وهو مكان بين عسفان ومكة- استنفروا عليهم حتى قتلوهم، وبقى منهم ثلاثة منهم زيد بن الدثنة، وخبيب بن عدى، وآخر ولما قتلوا «عاصم بن ثابت الأنصارى» وكان قد دعا ربه قبل أن يقتل بلحظات قائلاً: «اللهم إنى حميت -أى حفظت- دينك أول النهار، فاحمى لحمى آخره».

أتدرى أخى المسلم كيف حفظ الله هذا الصحابى الجليل؟!.

لقد أرسل الله إليه سحابة من الدبر -من الزنابير- فلم يستطيعوا أن يقربوا جسده فقالوا: نفعل ذلك -أى قطع رأسه- فى الليل، لكن الله حفظه فأرسل ريحًا حملت جسده إلى مكان بعيد.

**احفظ الله يحفظك:**

وأما «خبيب بن عدى» وكان من العشرة، ومن الثلاثة الفارين الذين أسروا بعد، فقتلوه وصلبوه، وأرادوا أن يمثلوا بجسده، لكن الله حفظه، وحفظ جسده، فابتلعته الأرض، وسمى: «بليع الأرض»(٣)

---

(١) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية جـ٦/١٤٧ ورواه البيهقى. وقال الألبانى فى تخريج المشكاة حديث رقم (٥٩٤٩) رواه الحاكم بنحوه، وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى، وهو كما قالا. وقد رواه البخارى فى التاريخ الكبير ٢/١٧٩ وأبو نعيم فى الحلية ١/٣٦٩.

(٢) الحديث بطوله رواه البخارى فى صحيحه ٧/٣ ٣: ٣٠٨ وأحمد فى مسنده برقم (٧٩١٥) وذكره ابن هشام فى السيرة ٢/١٦٧ والذهبى فى تاريخه ١/٢٠٨: ٢١٠ وابن الجوزى فى صفة الصفوة ١/١٧٩، ٢٧٤ وتاريخ الطبرى والبداية والنهاية لابن كثير جـ٤/٦٧

(٣) الإصابة لابن حجر جـ١/٤١٩

**احفظ الله يحفظك:**

وهذا هو «العلاء بن الحضرمى[١] ﵁ أحد صحابة رسول الله ﷺ، وأحد الذين حفظوا الله فحفظهم، وكان قد بعثه النبى ﷺ واليًا على البحرين، تأمل ما حدث له؛ فعن أبى هريرة ﵁ قال: لما بعث رسول الله العلاء بن الحضرمى إلى البحرين تبعته فرأيت منه خصالاً ثلاثة، لا أدرى أيتهن أعجب: انتهينا إلى شاطئ البحر، فقال: سموا الله واقتحموا، فسمينا واقتحمنا، فعبرنا، وما بل الماء أسفل خفاف إبلنا، فلما قفلنا سرنا معه بفلاة من الأرض، وليس معنا ماء، فشكونا إليه، فصلى ركعتين، ثم دعا فإذا سحابة مثل الترس، ثم أرخت علينا، فسقينا، واستقينا، ومات فدفناه فى الرمل، فلما سرنا غير بعيد قلنا: يجىء سبع فيأكله، فرجعنا إليه فلم نره -يعنى فى القبر-[٢]

**احفظ الله يحفظك:**

وهذا هو «إبراهيم بن أدهم» رحمه الله:

«كان إبراهيم بن أدهم ينام فى بستان، فرئى عنده حية وفى فمها طاقة نرجس فمازالت تذب عنه حتى استيقظ»[٣]

الله أكبر لما حفظوا الله، حفظهم حتى من الحيوانات الموذية، أبعد هذا الحفظ حفظ؟.

**احفظ الله يحفظك:**

وهذا هو شيخ الإسلام أبو الحسن الزاهد: «بنان الحمال» عالم حفظ الله فحفظه الله.

يقول أبو على الروذبارى:

«كان سبب دخولى مصر حكاية بنان، وذلك أنه أمر ابن طونون بالمعروف، فأمر أن يلقى بين يدى السبع، فجعل السبع يشمه ولا يضره، فلما أخرج من بين يدى السبع قيل له: ما الذى كان فى قلبك حين شمك السبع؟ قال: كنت أتفكر فى سؤر السباع ولعابها[٤]

---

(١) العلاء بن الحضرمى نسبة إلى بلدة حضرموت، واسم أبيه عبد الله بن عماد بن سلمى انظر ترجمته فى صفة الصفوة جـ١/ ٣١١ والإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر، والاستيعاب لابن عبد البر.

(٢) رواه أبو نعيم بنحوه مختصراً فى حلية الأولياء جـ١/ ٨ وفى الدلائل ص٢٠٨، وابن الجوزى فى صفة الصفوة جـ١/ ٣١١ ط/ دار الفكر، والطبرانى بنحوه وقال الهيثمى فى المجمع ٩/ ٣٧٦، فيه إبراهيم بن معمر الهروى ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات.

(٣) ذكره ابن رجب فى جامع العلوم والحكم ص٢٥١ مكتبة الزهراء - وابن الجوزى فى صفة الصفوة جـ٤/ ١٠٥ ومطولاً فى روح الأرواح ص٨٨ ط/ دار القلم.

(٤) صفة الصفوة جـ٢/ ٢١٧ لابن الجوزى وحلية الأولياء جـ١٠/ ٣٢٤، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٤٨٩ وتاريخ بغداد للخطيب ٧/ ١٠١، شذرات الذهب لابن العماد ٢/ ٢٧٢

وفى رواية: «ما كنت تذكر؟» قال: كنت أتذكر قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وهذه هى رابعة العدوية، باتت ليلة فى التهجد والصلاة، فلما انفجر الصبح نامت، فدخل السارق دارها، وأخذ ثيابها، وقصد الباب، فلم يهتد إلى الباب، فوضعها فوجد الباب، ففعل ذلك ثلاث مرات، فنودى من زاوية البيت: ضع القماش، واخرج فإن الحبيب إذا نام فالسلطان يقظان لا ينام»[1]

وحكى أن رجلاً أخذ رداء الشيخ أبى بكر الكتانى فى حال صلاته، ولم يشعر بذلك، لشغل قلبه بالله تعالى، فلما باع السارق، وأراد أن يسلم الرداء إلى المشترى يبست يده، فرجع بالرداء إلى أبى بكر الكتانى ويده شلاء يابسة، فأخبر الشيخ بذلك، فدعا وقال: «إلهى عبدك ردّ إلىّ ما أخذ منى، فاردد عليه ما أخذت منه» فعادت يده سليمة كما كانت[2]

**احفظ الله يحفظك:**

كان شيبان الراعى إذا أجنب، وليس عنده ماء دعا ربه، فجاءت سحابة فأظلت فاغتسل.

وكان يذهب إلى صلاة الجمعة ويترك غنمه وحدها فى الجبال ويخط عليها خطاً، فيجىء، فيجدها على حالتها لم تتحرك[3]

وقد حج سفيان الثورى مع شيبان الراعى، فعرض لهم سبع فى الطريق، فقال له سفيان: أما ترى هذا السبع؟ قال له: لا تخف، فلما سمع السبع كلام شيبان بصبص، فأخذ شيبان أذنه فعركها، فبصبص وحرك ذنبه، قال سفيان ما هذه الشهرة؟.

قال: أو هذه شُهرة؟ لولا مكان الشُّهرة ما وضعت زادى إلا عليه[4]

الله أكبر الله أكبر ما هذا الحفظ، إنه حفظ الله لمن حفظه فى دينه، حفظه فى نفسه وقلبه، حفظه فى جوارحه.

وحج فى عام مع الرشيد ووعظه، وما خاف فى الله لومة لائم.

**احفظ الله يحفظك:**

وهذا هو التابعى الجليل «الحسن البصرى» رحمه الله، حفظ الله فحفظه الله من شر الحكام؛ حفظه الله من بطش الحجاج بن يوسف الثقفى، ذلكم السفاح المبير.

لقد ابتنى داراً عظيمة، قصراً مشيداً، ولما فرغ منه ماذا حدث؟.

«لقد نادى فى الناس أن يخرجوا، ليروا عظمة تشييده، ولكى يدعوا له بالبركة، فلم

---

(١) ذكرها الإمام فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير «مفاتيح الغيب» المجلد رقم ١/ ٢١٣ ط/ دار الغد وذكرها صاحب كتاب الجزاء من جنس العمل د/ سيد العفانى جـ٢/ ٤٨٤ نقلاً عن حياة مشرقة من حياة السابقين.

(٢) الجزاء من جنس العمل جـ٢/ ٤٨٤.

(٣) حلية الأولياء ٨/ ٢١٧ وصفة الصفوة جـ٤/ ٢٦٣

(٤) صفة الصفوة جـ٤/ ٢٦٤.

يشأ الحسن البصرى أن يفوت هذه الفرصة -فرصة اجتماع الناس- فصعد على صخرة عالية، وأخذ يعظهم، وكان مما وعظ به:

«لقد نظرنا فيما ابتنى أخبث الأخبثين، فوجدنا أن فرعون شيد أعظم مما شيد، وبنى أعلى من بنى، ثم أهلك الله فرعون، وأتى على ما بنى وشيد، ليت الحجاج يعلم أن أهل السماء قد مقتوه، وأنَّ أهل الأرض قد غروه، ومضى يتدفق على هذا المنوال حتى أشفق عليه أحد السامعين من نقمة الحجاج، فقال له: حسبك يا أبا سعيد حسبك.

فقال الحسن: لقد أخذ الله الميثاق على أهل العلم ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

ولما علم الحجاج بما حدَّث به الحسن البصرى الناس، دخل مجلسه وهو مغتاظ، ثم قال لجلسائه: تبًّا لكم وسحقًا، يقوم عبد من عبيد البصرة، ويقول فينا ما شاء أن يقول، ثم لا يجد فيكم من يرده، أو ينكر عليه؟! والله لأسقينكم من دمه يا معشر الجبناء، ثم أمر بالسيف والنطع فأحضر، ودعا بالجلاد فأحضر، وأرسل إلى الحسن فحضر، ولما رأى السيف والنطع والجلاد، حرك شفتيه، ثم أقبل على الحجاج، وكانت القلوب ترتجف خوفًا عليه، إشفاقًا ومحبة للحسن، أقبل عليه فى عزة المسلم، وجلال المؤمن، ووقار الداعية.

فلما رآه الحجاج على حاله هذه، هابه أشد الهيبة، وأخذ يقول له: ها هنا يا أبا سعيد.. ها هنا يا أبا سعيد -فى أفضل مجلس، ثم مازال يوسع له. حتى أجلسه على فراشه، والناس فى عجب ودهشة، وأخذ الحجاج يسأله عن بعض أمور الدين، والحسن يجيبه عن كل مسألة بجنان ثابت، وبيان ساحر، وعلم واسع.

فقال له الحجاج: أنت سعيد العلماء يا أبا سعيد، ثم دعا بغالية الطيب، وطيب له لحيته، وودعه وحينئذ تبعه حاجب الحجاج، وسأله قائلاً: لقد دعاك الحجاج إلى غير ما فعل معك، ولقد رأيتك تحرك شفتيك حين أقبلت فماذا قلت؟

فقال الحسن البصرى: لقد قلت فى نفسى: يا ولى نعمتى، وملاذى عند كربتى، اجعل نقمته بردًا وسلامًا علىَّ كما جعلت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم[1]

**حقًا أخى المسلم:**

احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك.

| | |
|---|---|
| تزود ما استطعت لدار خلد | فخير الزاد زاد المتقينا |
| ولا يغررك فى الدنيا ثراء | هناك ترى أجور العاملينا |
| تبصر هداك الله إنَّا | نسير على طريق السابقينا |

(١) صور من حياة التابعين د/ عبد الرحمن رأفت الباشا ص٢ ١، ٤ ١ بتصرف.

**أخى الحبيب:**

لله در أقوام قلوبهم معمورة بذكر الحبيب: ليس فيها لغيره حظ ولا نصيب، إن نطقوا فبذكره، وإن تحركوا فبأمره، وإن فرحوا فبقربه، وإن ترحوا فبتعبه، أقواتهم ذكر الحبيب، وأوقاتهم بالمناجاة تطيب، لا يصبرون عنه لحظة، ولا يتكلمون فى غير رضاه بلفظة.

فنسألك يا الله يا عزيز، يا حفيظ بما سألك به نبيك محمد ﷺ ونقول كما قال: «اللهم احفظنى بالإسلام قائمًا، واحفظنى بالإسلام قاعدًا، واحفظنى بالإسلام راقدًا، ولا تُطمع فىَّ عدوًّا ولا حاسدًا»(١) يا رب العالمين.

## • العنصر الثانى •

## • إذا سألت فاسأل الله •

**أخى المسلم:**

يا من أخطأت وتجاوزت الحد؛ سل مستغيثًا من هو أقرب إليك من حبل الوريد، هو الذى يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد، من حكم بشقاوته فذاك الشقى، ومن قضى بسعادته فذلك السعيد. رب الآخرة والأولى، ليس لأحد سواه مولى.

إذا حكم لا معقب لحكمه، وإذا قطع فلا مسبب لقطعه، يقضى فلا دافع، ويعطى فلا مانع، وهو الصانع لكل صنعة وصانع.

| | |
|---|---|
| كل الوجود لعز قهرك خاضع | والكل فى صدقات جودك طامع |
| يا معشر الفقراء أُمُّوا بابه | فهناك فضلٌ للبرايا واسع |
| يعطى العطاء فلا يمانع مانع | يقضى القضاء فلا يدافع دافع |
| ما للعباد عليه حق واجب | كلا ولا سعى لديه ضائع(٢) |

**أخى المسلم:**

«إذا سألت فاسأل الله» وهذا منتزع من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فإن السؤال هو الدعاء، والرغبة إليه سبحانه وتعالى، يقول ﷺ: **«الدعاء هو العبادة»**(٣) ثم تلا النبى ﷺ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وقد أمرنا

---

(١) رواه الحاكم ١/ ٥٢٥ وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه.

(٢) التذكرة فى الوعظ لابن الجوزى ص٤١ دار ابن خلدون.

(٣) رواه أبو داود برقم (١٤٧٩) فى صحيح سنن أبى داود للألبانى وابن ماجه (٣٨٢٨) والترمذى وقال: حسن صحيح ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى ١/ ٤٩٠ وصححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم (١ ٣٤).

رب العزة جل وعلا أن نسأله من جوده وفضله فقال سبحانه: ﴿واسْأَلُوا اللَّهَ من فَضْلِه﴾ [النساء: ٣٢] ومن ترك السؤال لله، فإن الله تعالى يغضب عليه مصداقًا لحديث رسول الله ﷺ: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[1]

**لا تسألن بنى آدم حاجة ... وسل الذى أبوابه لا تحجب**
**الله يغضب إن تركت سؤاله ... وترى ابن آدم حين يسأل يغضب**

ولقد رأى أحد العلماء رجلاً يتردد على أحد الملوك، فقال له: يا هذا، تذهب إلى من يسد دونك بابه، ويظهر لك فقره، ويخفى عنك غناه، وتترك من يفتح لك بابه، ويظهر لك غناه، ويقول: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ**﴾ [النمل: ٦٢].

**فإذا سألت فاسأل الله:**

اسأل من يده ملأى كما قال سيد الداعين، وقائد المخلصين: «**يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما فى يمينه**»[2] الله أكبر. الله أكبر. من الذى سأله فما أعطاه، ومن الذى ناداه فما لباه؟ ومن الذى دعاه فما أجابه؟!.

**يا طالب الخيرات أين أنت ... عن باب الغنى الحميد**
**يا خائف الشر هلا لجأت ... إلى ركن القوى الشديد**
**يا من قد اعتكرت على قلبه الهموم ... لم لا تروح بذكر الحميد المجيد**[3]

تضرع إليه، واسأله سبحانه فإنه: «**حيى كريم يستحى إذا رفع الرجل يديه أن يردهما صفراً خائبتين**»[4]

**إذا سألت فاسأل الله:**

فعن عبد الله بن مسعود ﷺ: أنَّ رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله إن بنى فلان أغاروا علىَّ فذهبوا بابنى وإبلى، فقال له النبى ﷺ: «**إنَّ آل محمد كذا وكذا أهل بيت ما لهم مدٌّ من طعام أو صاع، فاسأل الله عز وجل**» فرجع إلى امرأته فقالت: ماذا قال لك رسول الله؟ فأخبرها، فقالت: نعم ما ردَّ عليك، فما لبث -أى يدعو ويسأل ربه- حتى ردَّ الله عليه ابنه وإبله أوفر ما كانت، فأتى النبى ﷺ فأخبره، فصعد المنبر، فحمد

---

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد (٦٥٨) وابن ماجه (٣٨٢٧) والحاكم، والترمذى وأحمد فى مسنده برقم (٦٩٦٢) وهو حديث حسن.

(٢) رواه البخارى فى كتاب التوحيد ١٣/٤٠٣ ومسلم فى الزكاة ٧/ ٨٠، ٨١ والترمذى وابن ماجة.

(٣) التذكرة فى الوعظ لابن الجوزى.

(٤) رواه ابن حبان فى صحيحه (٣٢٩٩) وأبو داود (١٤٨٨) وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود جـ١/ ٤٠٩ وصححه الحاكم ١/ ٤٩٧ ووافقه الذهبى.

الله وأثنى عليه، وأمر الناس بمسألة الله عز وجل والرغبة إليه وقرأ: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا ۝ ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[1] [الطلاق: ٢، ٣].

قال وهيب بن الورد رحمه الله: قال رجل:

بينما أنا أسير فى أرض الروم ذات يوم إذ سمعت هاتفًا فوق رأس الجبل وهو يقول: يا رب عجبت لمن يعرفك كيف يرجو أحدًا غيرك!! ثم عاد الثانية فقال: يا رب عجبت لمن يعرفك كيف يستعين على أمره بأحد غيرك!، ثم عاد الثالثة، فقال: يا رب عجبت لمن يعرفك كيف يتعرض لشىء من غضبك برضاء غيرك![2]

**• آداب الدعاء وشروطه •**

## أخى المسلم:

اعلم أن الله تعالى أقرب إليك من حبل الوريد، أقرب إليك من سمعك وبصرك، قال سبحانه:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] فما سبب نزولها؟

ذكر القرطبى فى تفسيره فى سبب نزولها فقال:

عن ابن عباس قال: قالت اليهود كيف يسمع ربنا دعاءنا، وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام، وغلظ كل سماء مثل ذلك؟ فنزلت هذه الآية[3]

وقال الحسن. إنَّ قومًا قالو للنبى ﷺ. أقريب ربنا فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فنزلت.

ثم ذكر شروط الدعاء فقال:

قال سهل بن عبد الله التسترى: شروط الدعاء سبعة: أولها: التضرع، والخوف، والرجاء والمداومة والخشوع، والعموم، وأكل الحلال.

وقال ابن عطاء: إنَّ للدعاء أركانا وأجنحة وأسبابًا وأوقاتًا، فإن وافق أركانه قوى، وإن وافق أجنحته طار فى السماء، وإن وافق مواقيته فاز، وإن وافق أسبابه أنجح.

فأركانه: حضور القلب، والرأفة والاستكانة والخشوع - وأجنحته: الصدق، ومواقيته الأسحار، وأسبابه الصلاة على محمد ﷺ.

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك ١/ ٥٣ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.

(٢) حلية الأولياء جـ ١/ ١٨٢

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد ١/ ٨ ٣ ط/ الهيئة المصرية للكتاب.

وقيل: شرائطه أربع:

١- حفظ القلب عند الوحدة.

٢- حفظ اللسان مع الخلق.

٣- حفظ العين عن النظر إلى ما لا يحل.

٤- حفظ البطن من الحرام[١] كان هذا هو الموجز وإليك أخى المسلم الأنباء بالتفصيل

**الشرط الأول:**

أن يجزم بالدعاء، ويوقن بأن الله تعالى سوف يجيب دعاءه.

يقول رسول الله ﷺ: **«لا يقولن أحدكم إذا دعا اللهم اغفر لى إن شئت، اللهم ارحمنى إن شئت، ليعزم المسألة فإنه لا يكره له»**[٢] لأن قوله «إن شئت» نوع من الاستغناء عن مغفرته وعطائه ورحمته، لكن على العبد أن يعزم فى مسألته، ويسأل سؤال فقير مضطر إلى ما سأله، ولا يقنط من رحمة الله، لأنه يدعو كريمًا.

**قال سفيان بن عيينة:** لا يمنعن أحد من الدعاء ما يعلمه من نفسه، فإن الله قد أجاب دعاء شر الخلق إبليس، قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون، قال: فإنك من المنظرين[٣]

**الشرط الثانى:**

حضور القلب، والإلحاح فيه:

يقول ﷺ: **«ادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه»**[٤]

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا دعا دعا ثلاثًا، وإذا سأل سأل ثلاثًا».

وفى كتاب الزهد للإمام أحمد عن قتادة قال. قال مورق: «ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا رجلاً فى البحر على خشبة، فهو يدعو: يا رب، لعل الله عز وجل أنْ ينجيه»[٥]

**الشرط الثالث:** أن لا يستعجل العبد، ولا يستبطئ الإجابة، ويدع الدعاء:

---

(١) المرجع السابق جـ١/ ٣١١، ٣١٢.

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبى داود وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود برقم (١٤٨٣) جـ١/ ٤٠٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ١/ ٣١٣

(٤) رواه الترمذي وحسنه المنذرى ورواه الحاكم وقال: مستقيم الإسناد ١/ ٤٩٣ وحسنه الألباني.

(٥) رواه عبد الله بن أحمد (فى الزهد) ص٣٧١ البيهقى فى الشعب ٢/ ١١

يقول ابن القيم: وهو بمنزلة من بذر بذراً، أو غرس غرساً، فجعل يتعاهده ويسقيه، فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، فيقول: دعوت فلم يستجب لى**»(١)

وفى صحيح مسلم: «**لا يزال يستجاب للعبد، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل، قيل: يا رسول الله وما الاستعجال؟ قال: يقول قد دعوت، وقد دعوت، فلم أر يستجاب لى، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء**»(٢)

**الشرط الرابع:**

أن يترصد أشرف الأوقات لدعائه مثل وقت السحر، ويوم الجمعة، ويوم عرفة، وحين سجوده فى الصلاة، وحن نزول الغيث.

أما فى وقت السحر فقد دل عليه حديث رسول الله ﷺ: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: من يدعونى فأستجيب له؟ من يسألنى فأعطيه؟ من يستغفرنى فأغفر له؟**»(٣)

وقيل: إن يعقوب عليه السلام قال لأولاده: ﴿**سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي**﴾ [يوسف: ٩٨] أى فى وقت السحر.

وأما عن يوم الجمعة، فقد قال النبى ﷺ: «**يوم الجمعة ثنتا عشرة** -يريد: **ساعة**-، **لا يوجد مسلم يسأل الله عز وجل شيئًا، إلا أتاه الله عز وجل، فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر**»(٤)

وأما عن يوم عرفة فقد روى ابن أبى الدنيا بإسناده عن على، قال: ليس فى الأرض يوم إلا لله فيه عتقاء من النار، وليس يوم أكثر فيه عتقًا للرقاب من يوم عرفة فأكثر فيه أن تقول: اللهمَّ أعتق رقبتى من النار وأوسع لى من الرزق الحلال، واصرف عنى فسقة الجن والإنس»(٥)

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي وقال: حسن صحيح وأبو داود فى صحيح سننه وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبي داود برقم ١٤٨٤ جـ١/٤٠٨.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد فى مسنده برقم (١٢٩٤٢).

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود برقم ١٣١٥ جـ/١ ٣٦٠.

(٤) رواه أبو داود وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود برقم ٤٨٠ ١ جـ١/ ٢٩٠

(٥) ذكره ابن رجب الحنبلى فى لطائف المعارف ص٤٩٤.

وأما عن السجود فيقول النبى ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء**»[١]

وأما عند نزول الغيث فقد روى مسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطر، فحسر رسول الله ﷺ ثوبه حتى أصابه المطر، فقلنا يا رسول الله، لم صنعت هذا؟ قال: **لأنه حديث عهد بربه**»[٢] وكان النبى ﷺ يدعو ويقول: «**اللهم حوالينا لا علينا**».

**الشرط الخامس:**

أن يخفض صوته ليظهر ذله وفقره وحاجته بين يدى رب العالمين جل وعلا:

لذلك قالت عائشة فى قوله تعالى: ﴿**وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً**﴾ [الإسراء: ١١٠] أى بدعائك، وقال سبحانه: ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً**﴾ [الأعراف: ٥٥].

وعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال: قدمنا مع رسول الله ﷺ فلما دنونا من المدينة كبر، وكبر الناس، ورفعوا أصواتهم فقال النبى: «**يا أيها الناس: أربعوا على أنفسكم** -أى أرفقوا واخفضوا أصواتكم- **إنَّ الذى تدعون ليس أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا بصيرًا**»[٣] ولذلك أثنى مولانا على نبيه زكريا عليه السلام لأنه دعاه فى السر فقال: ﴿**إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا**﴾ [مريم: ٣].

**الشرط السادس:**

أن يكون الدعاء جامعًا، فلا يعدد فيه. فعن ابن السعد أنه قال: سمعنى أبى وأنا أقول: اللهم إنى أسألك الجنة ونعيمها، وبهجتها، وكذا وكذا، وأعوذ بك من النار، وسلاسلها، وأغلالها وكذا وكذا، فقال: يا بنى! إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سيكون قوم يعتدون فى الدعاء**» فإياك أن تكون منهم، إنك إن أعطيت الجنة أعطيتها وما فيها من الخير، وإن أعذت من النار، أعذت منها، وما فيها من الشر[٤]

**الشرط السابع:**

أن يفتتح دعاءه بحمد الله والثناء عليه، ثم يصلى على رسول الله ﷺ.

---

(١) رواه مسلم رقم (٤٨٢) والنسائى ١١٣٧ وأبو داود وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود برقم ٨٧٥ جـ١/٢٤٨ (٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخارى رقم ٦٦١٠ ومسلم رقم ٤ ٢٧ وأحمد فى مسنده برقم ١٩٤١٢، وأبو داود رقم ١٥٢٦

(٤) رواه أبو داود فى باب الدعاء وقال الألبانى: حسن صحيح وهو برقم ١٤٨٠ جـ١/٤٠٧ صحيح سنن أبى داود.

فعن فضالة بن عبيد صاحب رسول الله ﷺ، قال: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو فى صلاته ولم يمجد الله تعالى، ولم يُصلِّ على النبى ﷺ، فقال رسول الله: **«عجل هذا»**، ثم دعاه، فقال له: **«إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه جل وعز، والثناء عليه، ثم يصلى على النبى ﷺ، ثم يدعو بما شاء»**(١)

**الشرط الثامن:**

أن يطيب مطعمه ومشربه، لقوله ﷺ: **«إنَّ الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾** [المؤمنون: ٥١] وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾** [البقرة: ١٧٢]، **ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك»**(٢)

**الشرط التاسع، والعاشر:**

أن لا يتكلف السجع فى الدعاء بل يدعو بما ورد فى القرآن أو السنة، وأن يستقبل القبلة.

**الشرط الحادى عشر:**

أن يقبل الداعى إلى ربه بقلبه وروحه، وأن يتوجه إلى قبلة الدعاء، ويحدث توبة مع الله تعالى، ويرد المظالم إلى أهلها.

ولقد جمع أهل العلم تلك الشروط فى قولهم:

**قالوا: شروط الدعاء المستجاب لنا ... عشر بها بشر الداعى بالفلاح**
**طهارة وصلاة معهما ندم ... وقت خشوع وحسن الظن يا صاح**
**وحل قوت ولا يدعى بمعصية ... واسم يناسب مقرونًا بالحاح**

وتأمل قوله: «واسم يناسب مقرونًا» لذلك يقول النبى ﷺ لأصحابه: **«ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام»**(٣)

وقد روى الترمذى من حديث أنس بن مالك قال: كان النبى ﷺ إذا حز به أمر قال: **«يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث»**(٤)

---

(١) رواه الترمذى وقال: حسن صحيح وأبو داود فى صحيح سنن أبى داود للألبانى رقم ١٤٨١

(٢) رواه مسلم والترمذى.

(٣) رواه أحمد فى مسنده (١٧٥٢٧) والحاكم وصححه ولم يتعقبه الذهبى، والترمذى وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٥٣٦).

(٤) رواه الترمذى وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (٢٧٩٦).

وفى صحيح ابن حبان من حديث أنس أيضًا أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا ورجل يصلى، ثم دعا، فقال: اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد. لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض: يا ذا الجلال والإكرام، يا حى يا قيوم، فقال النبى ﷺ:

**«لقد دعا الله باسمه العظيم، الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى»**(١).

**قم فى ظلام الليل واقصد مهيمنًا ... يراك إليه فى الدجى تتوسل**

**وقل يا عظيم العفو لا تقطع الرجا ... فأنت المنى يا غايتى والمؤمل**

**فيا رب فاقبل توبتى بتفضل ... فمازلت تعفو عن كثير وتمهل**

**إذا كنت تجفونى وأنت ذخيرتى ... فلمن أشتكى حالى وبمن أتوسل**

**أخى المسلم:**

تأمل كل هذا وقل معى، وردد إلى الله مبتهلا، وتضرع إليه داعيًا مثل ما دعا سيد الداعين، ورسول رب العالمين وقل:

**«اللهم إنى عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتى بيدك، ماضٍ فىَّ حكمك، عدلٌ فىَّ قضاؤك، أسألك اللهم بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمتَه أحدًا من خلقك، أو أنزلته فى كتابك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك: أنْ تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى، ونور صدرى، وجلاء حزنى، وذهاب همى»**(٢)

**إلهى:**

أرست سفينة المساكين على ساحل بحر كرمك، وامتدت أيدى السائلين إلى وابل غيث جودك.

**إلهى:**

من للسائلين إذا ردوا؟ ومن للعاصين إذا طردوا عن بابك وصدوا؟ ومن للمتخلفين إذا قطعوا؟ ومن غيرك يقبل التائبين إذا رجعوا؟

**يا حبيب القلوب من لى سواكا ... ارحم اليوم مذنبًا قد أتاكا**

**أنت سؤلى وبغيتى وسرورى ... قد أبى القلب أن يحب سواكا**

**يا منای وسیدی واعتمادی ... طال شوقى فمتى يكون لقاكا؟**(٣)

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١٣٧٣٣) جـ١١/ ٢٧٦ والنسائى، وابن ماجه (٣٨٥٧) وأبو داود وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود برقم (٤٩٥ جـ١/ ٤١

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٤٣١٨) وابن حبان (٢٣٧٢) والحاكم وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة ١٩٩

(٣) حلية الأولياء جـ١٠/ ١٤٥

## • العنصر الثالث •
## • وإذا استعنت فاستعن بالله •

**يقول ابن رجب الحنبلى[(١)]:**

«أما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق، فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله» فإن المعنى: أن العبد محتاج إلى الاستعانة بالله فى أى شىء؟ يستعين بالله فى فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها فى الدنيا، وعند الموت، وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة إلا الله عز وجل، فمن حقق الاستعانة عليه فى ذلك كله أعانه»

**أخى المسلم:**

الاستعانة هى طلب العون، فإذا طلبت العون فممن تطلب؟.

هل تطلب العون من عبد ضعيف مثلك؟ هل تطلب العون من فقير ذليل مثلك؟ بل اطلب العون من رب العالمين.

فمن ذا الذى طلب منه فما أعطاه؟ ومن الذى سأله فما لباه؟ ومن الذى وقف على بابه فطرده؟ ومن الذى استعان به فما أعانه؟ ومن ذا الذى استنصر به فما نصره؟ من ذا الذى يغيث الملهوفين؟ من الذى يفك أسر العانين؟ من الذى يفرج كرب المكروبين؟ من الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض؟.

إنه علام الغيوب، وغفار الذنوب، وستار العيوب، إنه مسبب الأسباب ومرتبها، ومصرف القلوب ومقلبها، إنه صاحب الكبرياء والجبروت، والعظمة والملكوت، إنه الله رب العالمين.

**فتأمل أخى المسلم:**

تأمل «جريج العابد» حين استعان بمولاه وقت الشدة، أعانه ونصره، كيف ذلك؟

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**... كان جريج رجلاً عابداً فاتخذ صومعته، وكان فيها، فأتته أمه وقالت: يا جريج. فقال: يا رب أمى وصلاتى، فأقبل على صلاته، فانصرفت أمه.**

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى ص٢٥٨

فلما كان الغد أتته، فقالت: يا جريج. فقال: يا رب أمى وصلاتى، فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تمته حتى ينظر فى وجوه المومسات.

فتذاكر بنو إسرائيل جريجًا وعبادته، وكانت امرأة بغى يتمثل بحسنها، فقالت: إن شئتم فتنته لأفتننه لكم. قال: فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأتت راعيًا كان يأوى إلى صومعته، فأمكنته من نفسها، فوقع عليها فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جريج.

فأتوه فاستنزلوه، وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ فقالوا: زنيت بهذه البغى فولدت منك. قال: أين الصبى؟ فجاءوا به، فقال: بالله يا غلام، من أبوك؟ قال: فلان الراعى. فأقبلوا على جريج يقبلونه، ويتمسحون به.

وقالوا: نبنى لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا..»(١)

أتدرى من فرج هذه الكربة؟ إنه إله العالمين.

| | |
|---|---|
| إلهى يا مولى الموالى وخير من | تمد إليه الراحُ عند سؤال |
| قطعتُ رجائى عن سواك لأننى | رجوتك إذ كنت العليم بحالى |
| ومن يك فى كل الأمور مفوضًا | إليك فقد جاز المنى بكمال(٢) |

وكان رجلاً من الذين يستعينون بالله فيعينهم، كان رجلاً من الصالحين قد طلبه الحجاج بن يوسف الثقفى، فأتى به عشية، فأمر به فقيد بقيود كثيرة، وأمر الحرس أن يشدوا عليه سجنه، وأن يضعوه فى آخر ثلاثة أبيات من السجن، وأقفلوا عليه، وقال: إذا كان بعد غدوة فأتونى، قال الرجل الصالح، فبينما أنا منكب على وجهى إذ سمعت مناديًا ينادى فى الزاوية: يا فلان! قلت: من هذا؟ قال: ادع بهذا الدعاء، فقلت بأى شىء أدعو؟ قال: قل: يا من لا يعلم كيف هو إلا هو، ويا من لا يعرف قدره إلا هو، فرج عنى ما أنا فيه، فو الله ما فرغت منها حتى تساقطت القيود من رجلى، ونظرت إلى الأبواب مفتحة، فخرجت إلى صحن الدار «السجن» فإذا أنا بالباب الكبير مفتوح، وإذا الحرس نيام عن يمينى وعن شمالى، فخرجت ونجوت(٣)

الله أكبر من الذى أنجاه من الضيق؟ من الذى فرج همه وحزنه؟ من الذى فتح له مغاليق الأبواب فخرج؟

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده برقم (٨٠٥٧) بسند صحيح، وذكره ابن كثير فى البداية والنهاية جـ٢/ ١٣٤ وذكره ابن أبى الدنيا فى مجابى الدعوة ص١٢

(٢) قاله: جعفر بن مكى البغدادى وذكره السيوطى فى (الأرج فى الفرج) ص١٠٣

(٣) الفرج بعد الشدة لابن أبى الدنيا ص٤٠، ٤١ من طريق يحيى بن حماد بن أبى زياد وهو ثقة عابد.

إنه هو الذى استجاب دعوة نبى الله أيوب عليه السلام حين أصابه الضر، والبلاء فقال فى أدب النبوة، وعذوبة اللسان، ورقة الجنان: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، إنها كلمات قليلة موجزة لكنها تعبر عن الاستعانة برب العالمين بصورة أرق من الهواء النسيم، من الذى أخرج يونس من بطن الحوت.

**لما رأيت الأرض قد سد ظهرها ... ولم يك إلا بطنها لك مخرجًا**

**دعوت الذى ناداه يونس بعدما ... ثوى فى ثلاث مظلمات فـفرجـا**

**خرجت ولم يمنن عليك شفاعة ... سوى ربك البر اللطيف المفرجا**[1]

**إذا استعنت فاستعن بالله:**

جاء فى مناقب الشافعى رحمه الله:

عن المزنى قال: سمعت الشافعى يقول: بعث إلىَّ هارون الرشيد ليلاً الربيع، فهجم علىَّ من غير إذن فقال لى: أجب، فقلت له: فى مثل هذا الوقت، وبغير إذن؟ قال: بذلك أمرت، فخرجت معه، فلما صرت بباب الدار، قال لى: اجلس ودخل.

فقال الرشيد: ما فعل محمد بن إدريس؟ فقال: أحضرته، قال: أدخله فأدخلنى فتأملنى، ثم قال: يا محمد أرعناك -أى أزعجناك- فانصرف راشدًا، يا ربيع احمل معه بدرة -أى صرة مختومة- دراهم، فلما خرجت، قال لى الربيع: بالذى سخر لك هذا الرجل من الذى قتلت؟ فإنى أحضرتك، وأنا أرى موضع السيف من قفاك.

فقلت: قلت فى سرى: «اللهم إنى أعوذ بك وبنور قدسك، وعظم جلالك، من كل طارق إلا طارقًا يطرق بخير»

اللهم أنت غياثى فبك أغوث، وأنت عياذى فبك أعوذ، وبك ملاذى فبك ألوذ، يا من ذلت له رقاب الجبابرة، وخضعت له مقاليد الفراعنة، أجرنى من خزيك وعقوبتك، واحفظنى فى ليلى ونهارى، ونومى وقرارى.

لا إله إلا أنت تعظيمًا لوجهك، وتكريمًا لسُبُحات عرشك، فاصرف عنى شر عبادك، واجعلنى فى حفظ عنايتك، وسرادقات حفظك، وعد على بخير يا أرحم الراحمين[2]

حقًا إنه غياث المستغيثين، وعياذ المستعيذين، وملاذ الذاكرين، لقد استعان الإمام الشافعى على غضب الرشيد برضا مولاه، فأرضى ربه الرشيد، واستعان به على الرشيد بعزته، فأعزه مولاه ورفعه، طلب من مولاه النصر فنصره.

---

(١) قاله الفرزدق من كتاب الفرج بعد الشدة ص٦٦ لابن أبى الدنيا.

(٢) حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهانى ط/ الدار العلمية جـ٩/ ٧٩ وذكره السيوطى فى الأرج فى الفرج ص٩٠، والنبهانى فى مفرج الكروب، ومفرح القلوب ص٦٤

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعًا وعند الله منها مخرج
كملت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج[١]

**إذا استعنت فاستعن بالله:**

فعن مسعر -رحمه الله-: أن رجلاً ركب البحر، فكسر به، فوقع فى جزيرة، فمكث ثلاثة أيام لم ير أحدًا، ولم يأكل ولم يشرب، فتمثل وقال:

إذا شاب الغراب أتيت أهلى وصار القار كاللبن الحليب

فأجابه مجيب لا يراه:

عسى الكرب الذى أمسيت فيه يكون وراءة فرج قريب[٢]

وعن الحسن قال: كان رجل من أصحاب النبى يكنى «أبا معلق» من الأنصار، وكان تاجرًا يتجر بمال ولغيره، وكان ناسكًا ورعًا، فخرج مرة، فلقيه لصٌ مقنعٌ فى السلاح، فقال له: ضع ما معك، فإنى قاتلك قال: ما تريده من دمى؟ شأنك بالمال. قال: أما المال فلىً، ولست أريد إلا دمك.

قال: أما أبيت، فذرنى أصلى أربع ركعات، قال: صلِّ ما بدا لك. فتوضأ، فصلى أربع ركعات، فكان من دعائه فى آخر سجوده أن قال:

«يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعال لما تريد أسألك بعزك الذى لا يرام، وبملكك الذى لا يضام، وبنورك الذى ملأ أركان عرشك أن تكفينى شر هذا اللص، يا مغيث أغثنى ثلاث مرات، فإذا هو بفارس قد أقبل وبيده حربة قد وضعها بين أذنى فرسه، فلما بصر به اللص، أقبل نحوه فطعنه فقتله.

ثم أقبل إليه، فقال: من أنت بأبى آنت وأمى؟ فقد أغاثنى الله بك اليوم فقال: أنا ملك من ملائكة السماء الرابعة لما دعوت بدعائك الأول، فسمعت للأبواب قعقعة، ثم دعوت بالثانى، فسمعت لأهل السماء ضجة، ثم لما دعوت بالثالث، قيل لى: دعاء مكروب، فسألت الله أن يولينى قتله[٣]

## أخى المسلم:

إذا سألت فاسأل الله تعالى، وإذا ما استعنت فاستعن بربك الذى لا تراه العيون، ولا تخالطه الظنون، ولا يصفه الواصفون، ولا تغيره الحوادث، ولا يخشى الدوائر، من يعلم مثاقيل الجبال، ومكاييل البحار، وعدد ورق الأشجار، وعدد قطر الأمطار، وعدد

(١) قاله: إبراهيم بن العباس الصولى.

(٢) حلية الأولياء، وذكره ابن أبى الدنيا فى الفرج بعد الشدة ص٥٩ والسيوطى ص٨٣ فى الأرج.

(٣) ذكره ابن أبى الدنيا فى كتاب مجابى الدعوة ص٢٨، ٢٩ وذكره ابن القيم رحمه الله فى الداء والدواء ص ٢، ٢١ ط/ دار الخلفاء محقق.

ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار، سل واستعن بسابغ النعم، ودافع النقم، وكاشف الظلم، وأعدل من حكم وحسيب من ظَلَم. رب العالمين.

## • العنصر الرابع •

## • واعلم لو أن الأمة اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك... إلخ •

**أخى الحبيب:**

اعلم أن هذه قاعدة جليلة ينبغى أن يعيها، وأن يفهمها كل مسلم، فيعلم المؤمن ويوقن بقلبه وعقله ووجدانه بأن النافع والضار، إنما هو: ﴿**الَّذى خَلَقَ فَسَوَّىٰ** ۝٢ **وَالَّذى قَدَّرَ فَهَدَىٰ** ۝٣ **وَالَّذى أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ**﴾ [الأعلى: ٢: ٤].

النافع والضار إنما هو: ﴿**خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ** ۝٧ **فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ**﴾ [الانفطار: ٥] هو الذى خلقك ورزقك، وبصرك، وهداك، وأسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة، هو الذى تحبب إليك بنعمه مع غناه عنك، ومع تبغضك إليه بالمعاصى والسيئات مع افتقارك إليه، وحاجتك إليه فى كل الأوقات.

النافع والضار هو الذى إن مسك ضر، فلا أحد يستطيع كشفه إلا هو بقدرته، وعدالته، وإن نزل بك خير فلا راد لخيره ولا لفضله إلا هو وحده، قال سبحانه: ﴿**وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [يونس: ١٠٧] وقال جل فى علاه: ﴿**مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [فاطر: ٢].

فالعبد لا ينفع ولا يضر، ولا يعطى ولا يمنع إلا بإذن الله تعالى، فالأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى ظاهرًا وباطنًا، وهو سبحانه مقلب القلوب، ومصرفها كيف يشاء، وهو الخافض الرافع، وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها.

فالخير فى مشيئته وحده، وأساس كل خير أن تعلم أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فحينئذ تتيقن أن الحسنات نعمة من نعمه فتشكره عليها، وترفع أكف الضراعة إليه أن لا يقطعها عنك، ولتعلم أن السيئات من خذلانه وعقوبته، فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها، ولا يكلك فى فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك وهذا كله يقتضى من العبد أن يتوكل عليه سبحانه وتعالى وحده، وأن يستعين به وحده، وأن يسأله وحده، وأن يعبده وحده لا شريك له.

يقول ابن القيم رحمه الله فى مسألة التوكل:

إن التوكل على الله تعالى نوعان:

أحدهما: توكل عليه فى جلب المصالح وحظوظ الدنيا، أو دفع مكروهاته ومصائبه.

والثانى: التوكل عليه فى حصول ما يحبه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه.

وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله، فمتى توكل عليه العبد حق توكله فى النوع الثانى كفاه النوع الأول تمام الكفاية.

ثم يقول: وسر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله تعالى فى كل أحواله[(١)]

**«واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء فلن ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء فلن يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك».**

## أخى المسلم:

فليس أحد فى هذا الكون أجمع من المخلوقين يستطيع بمحض إرادته أن ينفعك أو يضرك. ولو رأيت أن أحدًا من المخلوقين قد نفعك فليس نفعه لك مقصودًا لذاتك، بل إنما يقصد منفعته بك، وربما كان فى ذلك ضرر عليك.

فإذا طلبت من مخلوق مثلك، أو دعوته، فقد دعوت من ضره أقرب من نفعه، لكن مولاك يريدك لك ولمنفعة نفسك لا لينتفع بك فتأمل ذلك ففيه راحة لك، وقوة لعقيدتك، وإيمانك، ولكى تعلم أنك ربما تعلقت وأحببت من المخلوقات وظننت فيه النفع والضر، أو جلب المصلحة لك، أو درء المفسدة عنك فقد قال لك مولاك: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ**﴾ [التغابن: ١٤] وقال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [المنافقون: ٩].

فهؤلاء جميعًا فى الظاهر أحبابك، وخدمك وأعوانك، وشيعتك، وأنصارك، والساعون فى مصالحك، لكنهم فى الحقيقة أعداء فى صورة أولياء، وحربًا فى صورة مسالمين، وقطاع طريق فى صورة أعوان، فكم فوتوا عليك من مصالح الدارين، وقطعوك عن دارك الأولى، ومسكنك الأول، وحالوا بينك وبينها، وأنت لا تشعر ولا تدرى، وكم بعت حظك من الله بحظوظهم منك، ورحت صفر اليدين، وكم اتخذوك جسرًا ومعبرًا لهم إلى أوطارهم وأنت لا تشعر.

فواغوثاه، ثم واغوثاه بالله الذى يغيث ولا يغاث[(٢)]

---

(١) الفوائد لابن القيم الجوزية ص٩٨، ٩٩ بتصرف.

(٢) مقتبس من كلام ابن القيم الجوزية فى كتابه (طريق الهجرتين) ص٩٢، ٩٣، ٩٤ ط/ المكتبة التوفيقية.

**أخى المسلم:**

إذا كان قد تبين لـك الأمر بجلاء ووضوح، أن العباد لا يرغبـون فى مصلحتك ولا يقدرون عليـها، ولا تقدر أنت الآخر، فـما عليك إلا أن تسلم الأمر كـله لمن يعطيك من فضله لا لأجل منفعـة منك كالعباد، ولا لكى يستكثر بك من قلـة، ولا ليستأنس بك من وحشة، وإنما هو رب كريم يحب الجود، والبذل والعطاء والإحسان، والكرم فإذا رأيت هذا الخير قد حبسه عنك فاعلم أن هناك أمرين لا ثالث لهما:

١- الأول: أن تكون أنت الذى تقف فى طريق مصالحك، وأنت المعوق لوصول هذا الفضل العظيـم، وذلك الخير العميم منه سـبحانه وتعالى إليك، وذلـك بارتكاب المعاصى والمخالفات، والوقوع فى الرذائل والشبهات، وهذا هو أغلب أحوال الخلق.

فهو سبحانه قد قضى بأن ما عنده لا يـنال إلا بطاعته، ولا تستديم بغير شكره، قال سبحانه: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ٥٣].

**إذا كـنت فـى نعـمـة فـارعـهـا ... فـإن المعـاصـى تـزيل الـنـعـم**
**وداوم عـلـيـهـا بـشـكـر الإلـه ... فـإن الله سـريـع الـنـقـم**

« واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء فلن ينفعوك..».

**أخى المسلم الكريم:**

ولكى تعلم علم اليقـين أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفـعوك أو يضروك بشىء فلن يستطيعوا إلا بشىء قد كتبه الله لك أو عليك فـهيا بنا لنقف مع سيرة سيد البشر ﷺ لنرى ذلك جليًّا فى حياته ﷺ.

**أخى المسلم:**

كم كان عدد جيش المسلمين فى غزوة بدر الكـبرى؟ كان العدد ثلاثمائة وثلاثة عشر جنديًّا مسلمًا أو يزيدون قليلاً، اثنان وثمانون مهاجريًّا، وواحد وستون من الأوس، ومائة وسبعون من الخزرج.

وكان معهم سـبعون بعيرًا يتعاقـبونها، وفرسان، أحدهما للزبـير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود الكندى، وتأمل كيف كانوا يستخدمونها فى الطريق؟.

فعـن عـبد الله بن مسعود رضي الله عنه قـال: كنـا يوم بدر، كـل ثلاثة على بعـير، وكـان أبـو لبابة، وعلى بن أبى طالب زميلى رسول الله ﷺ، قال: فكنت عقبه ﷺ، فقالا له: نحن نمشى عنك -ليظل راكبًا- فقال: «مـا أنتما بأقوى منى على المشى، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»(١)

---

(١) رواه الإمام أحمـد فى مسنده برقم (٣٩٠١) بسند حـسن ورواه الحاكم ٣/ ٢ وقال: صـحيح على شرط مسلم.

لكن ماذا كان قوام الجيش المكى المعتدى؟

لقد كان قوام هذا الجيش العدوانى ما بين التسعمائة والخمسين إلى الألف.

فعن على بن أبى طالب ﷺ قال: لما تقابل مع القرشيان سألهم: «كم القوم؟ قال أحدهم: هم والله كثير عددهم، شديد بأسهم، فجهد النبى ﷺ أن يخبره كم هم، فأبى، ثم إنَّ النبى ﷺ سأله: «كم ينحرون من الجزر؟» فقال: عشرًا كل يوم، فقال رسول الله ﷺ: «القوم ألف كل جزور لمائة وتبعها» إلخ[1]

فلو عقدنا مقارنة بين جيش الرحمن، وبين جيش الشيطان، لوجدنا أن جيش الرحمن يفوق جيش الشيطان بقوة إيمانه، وثباتة جأشه، وقوة عقيدته، بيد أن جيش الشيطان يفوقه فى العدد والعدة والعتاد، بل إنه يفوقه مرات فى عدده نعم إنه جيش الشيطان، بل جيش الشياطين، فأما الشيطان الأكبر فهو إبليس اللعين لأنه كما روى علماء السيرة، أنه تبدى لهم فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى -سيد بنى كنانة- فقال لهم: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه[2]، وسجل القرآن الكريم ذلك:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غالب لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وأما شيطان الإنس فكان «أبا جهل اللعين، فقد نجت عير أبى سفيان لكنه أصر على أن يحارب جيش الإسلام فقال: «والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم ثلاثًا، ننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، وبسيرنا، وبجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا».

لقد خرجوا: ﴿بَطَرًا ورئَاء النَّاسِ ويصُدُّونَ عن سبيلِ اللَّه﴾ [الأنفال: ٤٧] وأقبلوا بحدهم وحديدهم يحادون الله ورسوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّه بِأَفْوَاهِهِم وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِه الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

لكن كيف يهزم جيش الرحمن، وفى قلوبهم نور القرآن؟ كيف يهزموا ومعم منزل القرآن؟ كيف يهزموا ومعهم الواحد الديان؟ كيف يهزموا وقد أعزهم ربهم المنان؟

إذا أكرم الرحمن عبدًا بعزه ... فلن يقدر المخلوق يومًا يهينه

ومن كان مولاه العزيز أهانه ... فلا أحد بالعز يومًا يعينه[3]

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده مطولاً برقم ٩٤٨ جـ٢/ ١٦ بسند صححه الشيخ أحمد شاكر، ورواه أبو داود مختصرا والبزار، وذكره ابن كثير فى التاريخ جـ٣/ ٢٧٧، ٢٧٨ وقال: هذا سياق حسن.

(٢) انظر الفصول فى سيرة الرسول لابن كثير ط/ ص٦٨ دار أسامة وقد ذكره أيضا فى البداية والنهاية جـ٣/ ٢٨٤ بسند حسن.

(٣) تنوير القلوب ص٤٥٧.

لقد أمدهم الرحمن بقوة الإيمان، وأمدهم بملائكة كرام حين دعا نبى الرحمة قائلاً: **«اللهم أين ما وعدتنى، اللهم أنجز ما وعدتنى، اللهم إنك تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد فى الأرض أبدًا»**(١) حينما أمد الله الجيش الإسلامى، جيش الرحمن، ودحر جيش الشيطان، حتى أن الشيطان حين رأى نزول جبريل وهو ماسك بعنان فرسه، ترك أهل الكفر، وقال لما تراءت الفئتان، ونكص على عقبيه: ﴿**وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [الأنفال: ٤٨].

حقًا ما قاله سيد البشر محمد ﷺ:

**«واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك»** ثم تأمل، واعقد مقارنة بين ما حدث فى بدر الكبرى، وفى حنين!

كم كان عدد الجيش الإسلامى ساعتها؟ وكم كانت عدته؟

لقد جاءت غزوة حنين بعد فتح مكة، ولقد عبأ الرسول ﷺ جيشه فى اثنى عشر ألفًا، منهم عشرة آلاف الذين فتح بهم مكة، وألفان قد انضموا إليه من الطلقاء.

إنهم -وهم قلة- كانوا يكسبون المعارك الطاحنة، فكيف وهم اليوم يخرجون فى عدد لم يجمعوا مثله قبلا؟ حتى قيل إن أحدهم قال صراحة لما نظر إلى كثرة الجيش، وكثرة عدته: لن نغلب اليوم من قلة! وقد شق ذلك على رسول الله.

لكن العدو علم بمسيرة الجيش الإسلامى ففرق جنوده فى الطريق، والمداخل، والشعاب والمضايق، وبينما الجيش الإسلامى يدخل، وإذ بالأعداء ينحدرون على الجيش الإسلامى، فبعثرت صفوفهم، وانتشرت بينهم موجة من الفزع، وذلك لأن الله جلت قدرته أراد أن يلقنهم درسًا فى العقيدة، ويريد أن يقول لهم: إنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوكم بشىء، فلن ينفعوكم إلا بشىء قد كتبه الله لكم.

وقد سجل القرآن الكريم هذا الموقف حيث قال: ﴿**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ**﴾ [التوبة: ٢٥].

لكن سيد البشر محمد ﷺ ثبت ووقف بشجاعته يقول:

**«أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب»**(٢) ثم أمر العباس وكان جهير الصوت، أن ينادى: يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب الشجرة، فلما سمعه المسلمون وهم فارّون

---

(١) رواه البخارى بنحو رقم ٢٩١٥ من حديث ابن عباس ورواه أحمد فى مسنده برقم ٢٠٨ جـ١/٢٥٣ وصححه الشيخ أحمد شاكر وقال: نقله ابن كثير فى تفسيره ٤/١٨ وقال: رواه مسلم وأبو داود والترمذى وابن جرير وابن مردويه.

(٢) رواه البخارى برقم (٢٨٦٤)، (٤٣١٥) ومسلم فى صحيحه، والترمذى رقم (١٦٨٨) والنسائى.

كرّ وأجابوا: لبيك، لبيك[1] ويذهب الرجل ليثنى بعيره، فلا يقدر عليه، فيأخذ درعه، وسيفه وترسه، وينزل عن بعيره، ويخلى سبيله، ويؤم الصوت، حتى اجتمع منهم مائة حول رسول الله ﷺ، وكان قد نزل عن بغلته وأخذ يستنصر ربه قائلاً: «**اللهم أنزل نصرك**»[2]

ولما علم أهل الإيمان أن الكثرة لم تغن عنهم شيئًا، وتعلقت قلوبهم وأرواحهم إلى نصر الله، الذى بيده مقاليد الأمور، ساعتها نصرهم رب العالمين، بتلك القلة التى ثبتت مع الرسول الأعظم، وسجل القرآن ذلك فقال:

﴿**ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**﴾ [التوبة: ٢٦].

## أخى المسلم:

إنه والله لدرس من أعظم الدروس، درس من خير المعلمين، وسيدهم إلى تلميذ من أعظم تلاميذ الإسلام.

فالمعلم هو: رسول الله ﷺ.

والتلميذ النجيب: عبد الله بن عباس.

والمدرسة التى تلقى فيها: هى طريق المسير فى الهواء الطلق.

## • «ارض بقضاء مولاك» •

فعن سليمان بن المغيرة قال: كان فيما أوحى الله سبحانه وتعالى إلى داود عليه السلام: «**يا داود إنك لن تلقانى بعمل هو أرضى لى عنك، ولا أحط لوزرك من الرضا بقضائى، ولن تلقانى بعمل هو أعظم لوزرك، ولا أشد لسخطى عليك من البطر، فإياك يا داود والبطر**»[3]

وقال عبد الواحد بن زيد: الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين[4]

وعن وهب بن منبه قال:

---

(١) رواه مسلم، وذكره ابن هشام فى السيرة بسند صحيح وقد ساقه ابن جرير

(٢) تفرد به مسلم ٥/١٦٨

(٣) رواه ابن أبى الدنيا فى الرضا عن الله ص٢٥ وفيه سليمان بن المغيرة قال عنه ابن معين: ثقة ثقة ووثقه ابن المدينى والنسائى وغيرهم. وقال ابن حجر ثقة، وقال أحمد: ثبت ثبت انظر تهذيب التهذيب ٤/ ٢٢ والتقريب ١/ ٣٣٠

(٤) ذكره أبو نعيم فى حلية الأولياء جـ٦/ ١٥٦ وابن أبى الدنيا ص٢٨

«وجدت فى زبور داود عليه السلام يا داود هل تدرى أى العباد أفضل؟ قال: الذين يرضون بحكمى وبقسمتى، ويحمدونى على ما أنعمت عليهم، هل تدرى يا داود أى المؤمنين أعظم عندى منزلة؟ الذى هو بما أعطى أشد فرحًا بما حبس»[1].

وقال أبو على الرازى رحمه الله:

«صحبت فضيل بن عياض ثلاثين سنة، ما رأيته ضاحكًا، ولا مبتسمًا، إلا يوم مات عَلَيَّ ابنه، فقلت له فى ذلك، فقال: إن الله عز وجل أحب أمرًا فأحببت ما أحب الله»[2].

وكان الحسن البصرى رحمه الله يقول:

«ارض عن الله، يرض الله عنك، وأعط الله الحق من نفسك، أما سمعت ما قاله تبارك وتعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

ورحم الله الشاعر الذى كان يقول

إذا ما رماك الدهر يومًا بنكبة ... فهيئ لها صبرًا، وأوسع لها صدرًا

فإن تصاريف الزمان عجيبة ... فيومًا ترى يسرًا ويومًا ترى عسرًا

وقد كان سيد الأولين والآخرين ﷺ كثيرًا ما يدعو ويقول: «أسألك الرضا بعد القضاء»[3]

وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله يقول فى دعائه وهو ساجد: «اللهم رضنى بقضائك، وصبرنى على بلائك، وأوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدى».

وجاء فى مناقبه:

أنه خرج يومًا لحج بيت الله الحرام فقابله رجل من الغافلين، وقال له: يا إبراهيم إلى أين تريد؟ قال له: أريد حج بيت الله الحرام، فقال له الرجل: وأين الزاد والراحلة؟ فإن الطريق بعيد، والمشقة محققة، فقال له إبراهيم: إنّ لى مراكب كثيرة ولكنك لا تراها فأصر الرجل، وقال: أرنى هذه المراكب، فقال له إبراهيم: إذا نزلت بى مصيبة ركبت مركب الصبر، وإن نزلت بى نعمة ركبت مركب الشكر، وإن نزل بى قضاء ركبت مركب الرضا، وإن دعتنى نفسى إلى شىء لا أقدر عليه أقنعتها أن ما بقى من العمر أقل مما مضى، فتعجب الرجل من قوة إيمانه، وقال له: يا أخى سر بإذن الله، فو الله الذى لا إله إلا هو لأنت الراكب ونحن المشاة[4]

(١) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء جـ٤/ ٤٦، ٤٧ وابن أبى الدنيا فى الرضا عن الله ص٧٩.

(٢) حلية الأولياء جـ٨/ ١٠ وابن أبى الدنيا ص٨١ فى الرضا عن الله.

(٣) رواه النسائى برقم ١٢٣٧ كتاب السهو باب ٦٢ والحاكم جـ١/ ٧٠٥، ٧٠٦ وصححه ووافقه الذهبى والألبانى كما فى صحيح الجامع رقم ١ ١٣

(٤) سمير الصالحين للشهاوى جـ٢/ ١٧٩ دار التأليف.

وكان الفصل الدراسى هو ظهر الدابة.

وكانت المادة: أمهات في العقيدة الإسلامية.

**أخى المسلم:**

**توكل على الله فى الأمر كله فما خاب من عبد عليه توكلا**
**وكن واثقًا بالله وارض بحكمه تنال الذى ترجوه منه تفضلا[1]**

**• العنصر الخامس •**

**• رفعت الأقلام، وجفت الصحف •**

**أخى المسلم:**

إن هذا العنصر ليس بندًا من بنود الوصية المحمدية لابن عباس، وإنما هو كما يقول ابن رجب الحنبلى:[2]

«كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها، والفراغ منها من بعيد، فإن الكتاب إذا فرغ من كتابته ورفعت الأقلام عنه، جفت الصحف التى كتب فيها بالمداد المكتوب به فيها وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها، وقد دل الكتاب والسنة على مثل هذا المعنى:

قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ [الحديد: ٢٢].

وعن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: «**إنَّ الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**»[3]

وعن جابر أن رجلاً قال: يا رسول الله ففيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أفيم يستقبل؟ قال: «**لا بل فيم جفت به الأقلام، وجرت به المقادير، قال: ففيم العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»[4]

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ أول ما خلق الله القلم ثم قال: اكتب، فكتب فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**»[5]

فلو أن هذا الخلق أجمع أرادوا نفعك أو ضرك ما استطاعوا، إلا بإرادة الخالق الأعظم جل وعلا، وما أصاب العبد من نفع أو ضر فهو مكتوب عليه، وقد دل على ذلك كتاب الله تعالى، قال سبحانه: ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا**﴾ [التوبة: ٥١].

---

(١) تنوير القلوب ص٤٥٣
(٢) جامع العلوم والحكم ص٢٥٨
(٣) رواه مسلم فى القدر رقم (٢٦٥٣).
(٤) رواه مسلم فى القدر رقم (٢٦٤٨).
(٥) الحديث صحيح بشواهده أخرجه أحمد رقم (٢١٦٤٩) والترمذى فى القدر (٢١٥٥)، وأبو داود رقم (٤٧ ).

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

ثم يقول ابن رجب:(١) «واعلم أنَّ مدار جميع هذه الوصية على هذا الأصل، وما ذكر قبله وبعده فهو متفرع عليه، وراجع إليه، فإن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر، ونفع وضر، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد ألبتة، علم حينئذ أنَّ الله وحده هو الضار والنافع، المعطى المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل، وإفراده بالطاعة، وحفظ حدوده..».

فعليك أخى المسلم أن ترضى بالمقدور لك فإنه من عند الله تعالى يقول النبى ﷺ «إذا أحب الله قومًا ابتلاهم فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فعليه السخط»(٢) وقال علقمة فى قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] قال: هى المصيبة تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله، فيسلم لها ويرضى»(٣)

واعلم أخى المسلم أن أرضى شىء لمولاك، وأحبه إليه هو رضاك بما قدر لك.

## • أحوال أهل الرضا •

**أخى المسلم:** وأحوال أهل الرضا كما يلى:-

١- تارة يلاحظون حكمة المبتلى، وخيرته لعبده فى البلاء، وأنه سبحانه وتعالى غير متهم فى قضائه.

٢- وتارة يلاحظون ثواب الرضا بالقضاء فينسيهم ألم المقضى به.

٣- وتارة يلاحظون عظمة المبتلى وجلاله وكماله فيستغرقون فى مشاهدة ذلك حتى لا يشعرون بالألم، وهذا يصل إليه خواص أهل المعرفة، والمحبة، حتى ربما تلذذوا بما أصابهم لملاحظتهم صدوره عن حبيبهم، كما قال بعضهم: أوجدهم فى عذابه عذوبة.

وسئل بعض التابعين عن حاله فى مرضه، فقال: أحبه إليه أحبه إلىَّ.

وقال بعضهم:

عذابه فيك عذب ... وبعده فيك قرب
وأنت عندى كروحى ... بل أنت منها أحب
حسبى من الحُبِّ أنى ... لما تُحبُّ أُحبُّ(٤)

(١) جامع العلوم والحكم ص٢٦٠

(٢) حسن رواه الترمذى (٢٣٩٦) والألبانى فى الصحيحة (١٤٦).

(٣) المرجع السابق ص٢٦١ وأخرجه ابن أبى الدنيا فى الرضا عن الله. وسنده صحيح وفى سنده سليمان ابن مهران الأسدى «الأعمشى» وثقه ابن معين، وقال العجلى والنسائى: ثقة ثبت، وكان شعبة إذا ذكره قال: المصحف المصحف وذلك لصدق. التقريب ١/٣٣١، وتهذيب التهذيب ٤/٢٢٢.

(٤) جامع العلوم والحكم ص٢٦٢ مكتبة الزهراء.

فعليك أخى المسلم أن تحفظ الله تعالى فى دينك ودنياك، وتحفظه فى أوامره ونواهيه يحفظك فى دنياك وآخرتك، ولا تستعن بأحد سواه، ولا تطلب إلا منه وحده فهو رب العرش العظيم، وثق بالله تعالى وارض به، ولا ترض به بديلاً، فهو وحده الذى يعطى ويمنع، ويغنى ويفقر، وهو على كل شىء قدير.

**• موعظة •**

أيها المقيم على الخطايا والعصيان، التارك لما أمر به الرحمن، المطيع للغوىِّ الفتان، إلى متى أنت على جرمك مصر، ومما يقربُك إلى مولاك تفرُّ؟ تطلب من الدنيا ما لا تدركه، وتتقى من الآخرة بما لا تملكه، لا أنت بما قسم الله لك من الرزق واثق، ولا أنت بما أمرك به لاحق(١)

فاز والله المخفُّون من الأوزار، وسلم المتقون من عذاب النار، وأنت مقيم على كسب الجرائم والأوزار.

وقد جاء فى بعض الكتب المنزلة: أنَّ الله تعالى يقول: عبدى، كم تستمر على عصيانى، وأنا غذيتك برزقى وإحسانى، أما خلقتك بيدى؟ أما نفخت فيك من روحى؟ أما علمت فعلى بمن أطاعنى، وأخذى لمن عصانى؟ أما تستحى تذكرنى فى الشدائد وفى الرخاء تنسانى؟(٢)

حقًا يا ربنا لقد خلقتنا بقدرتك، وغذيتنا برزقك، وأرويتنا بمائك، وظللتنا تحت سمائك، وحملتنا على أرضك، فسبحانك ما أجل شأنك، وما أصدع بالحق برهانك، سبحانك من لطيف ما ألطفك، وجواد ما أوسعك، ورفيع ما أرفعك.

ربى حقيق علىَّ ألا أشتكى إلا إليك، ولازم علىَّ ألا أتوكل إلا عليك، يا من عليه يتوكل المتوكلون، ويا من إليه يلجأ الخائفون، يا من بسلطانه وعظيم رحمته وبره يستغيث المضطرون، ويا من لوسع عطائه وجميل فضله تُبسط الأيدى ويسأله السائلون.

عليك يا ذا الجلال معتمدى ... طوبى لمن كنت أنت مولاهُ
طوبى لمن بات خائفًا وجلاً ... يشكو إلى ذى الجلال بلواهُ
وما به علة ولا سقم ... أكثر من حبِّه لمولاهُ
إذا خلا فى ظلام الليل مبتهلاً ... أجابه الله ثم لبَّاهُ
ومن ينل ذا من الإله فقد ... فاز بقرب تقرُّ عيناهُ

---

(١) بحر الدموع لابن الجوزى ص٣٢ التوفيقية.

(٢) ذكره ابن الجوزى فى بحر الدموع ص١٤

اللهم إنا نسألك أن تنور قلوبنا بنور هدايتك، وأن تلهمنا حب معرفتك، وأن تستر علينا بستر حمايتك، وأن تجعل أنسنا بك وشوقنا إليك، وخوفنا منك حتى لا نرجو أحدًا غيرك، ولا أحدًا سواك، وأن ترزقنا الاعتماد عليك، والانقياد إليك. يا رب العالمين.

## • الوصية رقم (٩٩) •

عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يا أيها الناس: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»**[1]

**صدق رسول الله ﷺ**

## • نظرة تأمل فى هذه الوصية •

### أخى المسلم:

إن المتأمل فى هذه الوصية المباركة يجدها على قلة ألفاظها تحتوى على عناصر أربعة:

**العنصر الأول:** **«إفشاء السلام»** أى إلقاؤه على الآخرين، ونشره بينهم بكل الكيفيات.

**العنصر الثانى:** **«إطعام الطعام»** بأى كيفية كانت.

**العنصر الثالث:** **«صلة الأرحام»** بأى طريق كان هذا الوصل أيضًا.

**العنصر الرابع:** وهو خاص بصاحبه، وهو بينه وبين ربه سبحانه **«الصلاة بالليل والناس نيام»** ثم يوضح نتيجة من قام بهذه الأعمال فيقول: **«تدخلوا الجنة بسلام»**.

فالوصية رغم قلة ألفاظها لكنها مع ذلك فقد حملت بين طياتها أربع شعب من شعب الإيمان، وأرى هذه الشعب الأربع تنقسم إلى قسمين:

١- قسم يوطد المحبة بين المجتمع المسلم بعضه مع بعض، وهى: **«إفشاء السلام، وإطعام الطعام، وصلة الأرحام»** فكل من هذه الخصال المحمودة تجعل المحبة والمودة فى قلوب أصحابها، وبسواد المحبة فى المجتمع يصبح ذلك المجتمع متعاونًا قويًا لا تزعزعه الأحداث، بل يستطيع أن يقتحم كل ما يقابله من مشكلات بل يحطمها أمام الحب والمودة والإخاء.

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده برقم (٢٣٦٧٤) جـ١٧/ ١٢٠ بسند صحيح ومن حديث أبى هريرة (٣٤٩ ١) جـ٩/ ٤٦٥ ورواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح (١٨٥٤) وابن ماجه (١٣٣٤) والدارمى ( ١٤٦) والحاكم وقال. صحيح على شرط الشيخين وصححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم ٧٧٤٢

**وأما القسم الثانى:** فهو قسم يوطد المحبة بين المخلوق وخالقه الأعظم جل وعلا ويتمثل فى قيام الليل، لأن بقيام الليل يؤثر المؤمن طاعة ربه على طاعة هواه ونفسه التى تدعوه إلى النوم والراحة المؤقتة. يؤثر ربه على شيطانه الذى يعقد على قافيته ويقول له: أمامك ليل طويل فارقد، فهو بين أمرين: بين أن يلبى نداء الرحمن، من يدعونى فأستجب له، ومن يسألنى فأعطه، وبين من يدعوه ويقول له: أمامك ليل طويل فارقد. والوصية التى سوف نعيش معها وصية تمتاز بعذوبة الألفاظ، فأنت ترى توافق الفواصل فى (الطعام - الأرحام - السلام - نيام - بسلام) وهذا من المحسنات البديعية ويسمى: السجع. وترى جناس الاشتقاق بين (أطعموا الطعام) وكلها أوامر (أفشوا أطعموا. صلوا. وصلوا) تفيد النصح والإرشاد، وكلها مختومة بواو الجماعة ليعم المخاطبين من المسلمين وكل على قدر توفيق الله له.

## العنصر الأول

## • أفشوا السلام •

### أخى المسلم:

السلام معناه الأمن والأمان، السلام معناه الحب والوئام، السلام اسم من أسماء رب العالمين جل وعلا ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ** ﴾ [الحشر: ٢٢] السلام اسم من أسماء الجنة التى سماها ربنا بدار السلام قال سبحانه: ﴿ **لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٢٧] والتحية فيها تكون بالسلام فيما بينهم: ﴿ **وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ** ﴾ [يونس: ١٠] وتحيتهم من الملائكة السلام فيقولون لهم: ﴿ **سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ** ﴾ [الزمر: ٧٣] ﴿ **وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ** ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وهى التحية التى شرعها الله تعالى لبنى آدم منذ أن خلق أباهم آدم عليه السلام، فقد علمته إياها الملائكة الكرام.

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال «**لمَّا خلق الله تعالى آدم عليه السلام قال: اذهب فسلم على أولئك -نفر من الملائكة جلوس- فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزاده: ورحمة الله**»[(١)]

فيحتمل أن آدم عليه السلام علم ذلك تنصيصًا، أو فهمه من قوله تعالى له «فسلم» أو أنه سبحانه ألهمه أن يقول ذلك كما ألهمه أن يحمد الله عند العطاس.

---

(١) رواه البخارى فى مواضع متعددة من صحيحه منها: كتاب الأنبياء، ومنها فى الاستئذان ٨/ ٦٢ ورواه مسلم فى «صفة الجن» ٤/ ٢١٨٣ رقم ٢٨

## • فضل الترغيب فى إفشاء السلام •

لاشك أن الذى يتتبع تعاليم الإسلام الحنيف يجد أنها تهدف إلى تكوين مجتمع قوى اللبنات، مجتمع متماسك موحد متكافل، فيكونوا إخوة متحابين متعاونين، ولذلك صور نبى الإسلام ﷺ هذا المجتمع بقوله: **«مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»**(١) ولا سبيل إلى هذا الترابط والتماسك إلا بالحب، ولا سبيل إلى الحب إلا بالسلام، ولذلك يقول سيد الخلق وحبيب الحق محمد ﷺ: **«لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»**(٢)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أى الإسلام خيرٌ؟ قال: **«تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»**(٣)

فقد ورد أن السائل هو سيدنا أبو ذر الغفارى رضي الله عنه وقد كان صحابة النبى الأعظم ﷺ يحبون أن يتفقهوا فى الدين، فكانوا يسألون عما يوصلهم إلى مرضاة الله تعالى وثوابه، فسيدنا أبو ذر الغفارى يسأل الرسول ﷺ عما يكون أكثر ثوابًا من خصال الإسلام، وشعب الإيمان فأخبره النبى ﷺ أن أكثرها ثوابًا عند الله، وفى رفع درجة العبد، إنما هما أمران: إطعام الطعام، وإفشاء السلام.

وتأمل الحديث الذى يأتى وكأن سيد الخلق ﷺ قد أطلعه ربه على ما سيكون فى أمته من بعده من الأمراض النفسية والقلبية مثل البغضاء والشحناء والحسد وغير ذلك، فوضع لها علاجًا يشفى هذه الأمراض، ويبيدها ويقضى عليها فى مهدها، فقال فى الحديث الذى يرويه عنه عروة بن الزبير بن العوام رضي الله عنهما فيقول: **«دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: البغضاء والحسد، والبغضاء هى الحالقة، ليس حالقة الشعر، ولكن حالقة الدين، والذى نفسى بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم بما يثبت لكم ذلك؟ أفشوا السلام بينكم»**(٤)

فإذا ما أراد المسلم أن يصفو قلبه، ويدوم وده، وتعلو نفسه، ويسمو خلقه فعليه بإفشاء السلام.

---

(١) رواه البخارى فى الأدب ومسلم فى البر

(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد (٩ ١) ورواه مسلم (٥٤) فى الإيمان وأبو داود فى صحيح سننه للألبانى (٥١٩٣) جـ٣/ ٢٧٤ وابن ماجه (٣٦٩٢) فى الأدب ورواه أحمد فى مسنده (٩٠٦١).

(٣) رواه البخارى ومسلم وأبو داود فى صحيح سننه للألبانى (٩١٩٤) وابن ماجه (٣٢٥٣).

(٤) رواه أحمد فى مسنده (١٤١٢) وضعفه الشيخ أحمد شاكر ثم قال: والحديث فى ذاته صحيح من رواية أبى هريرة ورواه البزار بإسناد جيد قاله المنذرى فى الترغيب جـ٣/ ٤٢٥.

فعن أبى الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفشوا السلام كى تعلو**»[١]

ولقد بين الرسول الأعظم ﷺ أن فى السلام زيادة الحسنات، ومحق السيئات، ورفع الدرجات.

فعن عمران بن حصين، قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ، فقال: السلام عليكم، فردَّ عليه السلام ثم جلس، فقال النبى ﷺ: «**عشر**» ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فردَّ عليه فجلس، فقال: «**عشرون**»، ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردَّ عليه فجلس، فقال: «**ثلاثون**»[٢]

وقد بين النبى ﷺ أن أولى الناس بالله هو من يبدءهم بالسلام.

فعن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام**»[٣]

ولذلك حرص السلف الصالح رضوان الله عليهم من الصحابة وغيرهم على أن يبدأ كل منهم صاحبه بتحية الإسلام.

فعن الطفيل بن أبى بن كعب «أنه كان يأتى عبد الله بن عمر، فيغدو معه إلى السوق، قال: فإذا غدونا إلى السوق لم يمر عبد الله على سَقَّاط -أى الرجل الذى يبيع الردىء من المتاع- ولا صاحب بيعة، ولا مسكين إلا سلم عليه، قال الطفيل: فجئت عبد الله بن عمر يومًا فاستتبعنى إلى السوق، فقلت له: ما تصنع بالسوق، وأنت لا تقف على البيع، ولا تسأل عن السلع، ولا تَسُومُ بها، ولا تجلس فى مجلس السوق؟ وأقول: اجلس بنا ههنا نتحدث فقال: يا أبا بطن -وكان الطفيل ذا بطن- إنما نغدو من أجل السلام، نسلم على من لقيناه»[٤]

**جاء فى دليل الفالحين[٥]:**

قوله: «يا أبا بطن» فيه جواز ذكر بعض خلق الإنسان على وجه الملاطفة.

وإفشاء السلام من شعب الإيمان التى لو عمل بها المسلم فإنها توصله إلى دار النعيم المقيم يوم القيامة ففى حديث ابن عمر ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال: «**أربعون خصلة أعلاهن منيحة العنز، ما من عامل يعمل بخصلة منها، رجاء ثوابها، وتصديق موعودها إلا**

(١) رواه الطبرانى بإسناد حسن. قاله المنذرى فى الترغيب جـ٣/ ٤٢٦

(٢) رواه أبو داود فى صحيح سننه للألبانى (٥١٩٥) وفى صحيح سنن الترمذى (٢٨٤٢) وحسنه والنسائى والبخارى فى الأدب المفرد (١٠١٥) من حديث أبى هريرة.

(٣) رواه أبو داود بسند صحيح (٥١٩٧) وقد صححه الألبانى فى المشكاة (٤٦٤٦) وفى صحيح الكلم الطيب (١٩٨) ورواه الترمذى وحسنه بأطول منه.

(٤) رواه مالك فى الموطأ بإسناد صحيح جـ٢/ ٣٥٨ باب جامع السلام ورواه البخارى فى الأدب المفرد (١٠٣٧).

(٥) دليل الفالحين جـ٣/ ٣٣٥.

أدخله الله بها الجنة. قال حسان: فعددنا ما دون منيحة العنز من رد السلام، وتشميت العاطس، وإماطة الأذى عن الطريق ونحوه، فما استطعنا أن نبلغ خمس عشرة»[١].

وأيضًا فإن من أفشى السلام فإنه يكون قد جمع خصلة عظيمة من خصال الإيمان فعن عمار رضي الله عنه قال:

«ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار»[٢]

**يقول الإمام النووى:**

«قد جُمع فى هذه الكلمات الثلاث خيرات الآخرة والدنيا، فإن الإنصاف يقتضى أن يؤدى إلى الله تعالى جميع حقوقه، وما أمره به، ويجتنب جميع ما نهاه عنه، وأن يؤدى إلى الناس حقوقهم، ولا يطلب ما ليس له، وأن ينصف نفسه فلا يوقعها فى قبيح أصلاً. وأما بذل السلام للعالم فمعناه جميع الناس، فيتضمن أن لا يتكبر على أحد، وأن لا يكون بينه وبين أحد جفاء يمتنع من السلام عليه بسببه. وأما الإنفاق من الإقتار فيقتضى كمال الوثوق بالله تعالى، والتوكل عليه، والشفقة على المسلمين إلى غير ذلك.

كما أن إفشاء السلام على المسلمين حق من حقوق الأخوة التى أكد عليها الإسلام، وألزم أصحاب الشريعة السمحة بالعمل بها كما وضح نبى الإسلام ﷺ كما فى حديث البراء بن عازب: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع: «**إفشاء السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، وإبرار القسم، وعون المظلوم، ونصر الضعيف**»[٣]

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أنَّ النبى ﷺ قال: حق المسلم على المسلم ست:

قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: **إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبع جنازته**»[٤]

ولقد جعل الإسلام الحنيف رد السلام، وإفشاءه حقًّا لازمًا لكل من يمشى فى الطريق لما روى عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله قال: «**إياكم والجلوس فى الطرقات**، قالوا: يا رسول الله، ما لنا بد إنما هى مجالسنا نتحدث فيها. **قال: فإذا أبيتم إلا**

---

(١) رواه البخارى وأبو داود فى صحيح سننه للألبانى برقم (١٦٨٣) جـ١/ ٤٦٧ وأحمد فى مسنده برقم ٦٤٨٨ جـ٦/ ٤٣ وذكره الألبانى فى صحيح الجامع رقم ٨٩١.

(٢) رواه البخارى فى كتاب الإيمان باب إفشاء السلام ١/ ١٤ (٣) رواه البخارى ومسلم.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه، ورواه أحمد فى مسنده (٨٨٣١) ومسلم (٢١٦٢) والبخارى بنحوه فى الأدب المفرد (٢١ ٢).

**الطريق، فأعطوا الطريق حقه**. قالوا: وما حق الطريق قال: **غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر**»(١)

فلاحظ أخى المسلم كل هذا، لأنك إذ نفذت تعاليم الرسول الأعظم، والنبى الأكرم بكل دقة، فماذا تكون النتيجة؟

النتيجة أن المجتمع المسلم يسوده الحب والتعاون، وتعلو فيه راية الأمان والسلام والمودة التى رغب فيها الإسلام الحنيف.

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله**، قالوا: يا رسول الله ألا تخبرنا من هم؟

قال: **هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فو الله إنَّ وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس**، وقرأ: ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾(٢) [يونس: ٦٢]» ويوم القيامة، يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، يوم الفزع الأكبر، ويوم العرض على أحكم الحاكمين، ينادى رب العالمين: «**أين المتحابون بجلالى؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى**»(٣)

## • حرص الرسول ﷺ والصحابة على إفشاء السلام •

ولقد حرص معلم البشرية، وقائد الإنسانية سيدنا محمد ﷺ على إفشاء السلام حتى أنه كان يقرأ السلام علـى كل من قابله حتى ولو كانوا صغارًا مثل الصبيان فعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يزور الأنصار، فإذا جاء إلى دور الأنصار، جاء صبيان الأنصار حوله، فيدعو لهم ويمسح رءوسهم، ويسلم عليهم. .»(٤) بل كان من زيادة حرصه ﷺ فى إفشاء السلام، أنه كان إذا مرَّ على جمع من الناس سَلَّم عليهم ثلاثًا لما ورد عن أنس أيضًا قال: «إن النبى ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا حتى تُفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم، سلم عليهم ثلاثًا»(٥) وهذا من كمال حسن خلقه، ومزيد شفقته ورحمته بالعباد.

(١) رواه البخارى فى المظالم، ومسلم (٢١٢١) وأحمد فى المسند (١١٢٤٨) وأبو داود (٤٨١٥) وصححه الألبانى فى صحيح السنن وصحيح الجامع، وفى السلسلة الصحيحة (٢٤٢١).

(٢) رواه أبو داود فى الرَّهن (٣٥٢٧) وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود جـ٢/٣٧٩ ورواه ابن حبان فى صحيحه (٢٥٠٨).

(٣) رواه مسلم (٢٥٦٦) عن أبى هريرة.

(٤) رواه أبو داود والبزار وقال الهيثمى فى المجمع رجالهما رجال الصحيح ٨/ ٣٤.

(٥) رواه البخارى فى كتاب العلم ومسلم أيضا وأحمد (١٣١٥٤) وذكره الألبانى فى صحيح الجامع رقم ٤٦٩٤

جاء فى دليل الفالحين[1]:

ويؤخذ منه، أنه لو كثر الجمع جدا بحيث لا يعمهم التسليم ثلاثًا زيد عليه بقدر ما يعمهم، وهذا منه جبر لخواطر الجمع.

ولا عجب أخى الحبيب أنْ يفعل النبى ﷺ وهو الذى حث أمة الإسلام كما فى بعض الأحاديث السابقة على ما يجلب بينهم المودة والمحبة والألفة، بإرشاده إلى إفشاء السلام، بل إنه قد أسس بنكًا عظيمًا، وهذا البنك العظيم، ليس كبنوك هذا العصر، ليس بنك مصر، ولا بنك القاهرة، ولا بنك ناصر، بلْ إنه «بنك المحبة» وهو بنك له أرصدة خاصة، وضمانات واضحة، وشيكات سهلة ميسرة الحصول عليها. وقد أعجبنى ما ذكره شيخنا المبارك -الشيخ طه عبد الله العفيفى- فى كتابه: «الحقوق الإسلامية»[2] فى وصف هذا البنك حيث ذكر أنه: «بنك خزائنه فى القلوب، وسبائكه من نور، شيكاته ابتسامات، وعملته السهلة: الصفاء، وسنداته الإخلاص، وضماناته: المعروف، وهو يتسع لكافة المعاملات، لا تصدمك أرقامه، ولا يفزعك تقلب أسعاره، يدوم بدوام المحبة، والمحبة زهرة إن ذبلت يومًا عاش عطرها أبدًا، لا يفرق بين الناس وفقًا لوضعهم المادى، بل إنّ أولاهم بثقته: من عظمت تضحيته. وأوفرهم رصيدًا من شف قلبه حنانًا، ورقت روحه سلامًا، يجمع القلوب، ولا يجمع الأرقام، يحصى الخير، ويطرح السيئات ولا يبالى إلا بالكلمة الطيبة، لو تعامل الناس مع هذا البنك لتناسوا أحقادهم، وارتفع رصيد إنسانيتهم، إلى ما فوق الغنى، وغنى النفوس لا يقدر بمال، بل هو كنز موعود لأصحاب القلوب البيضاء».

ولذلك نرى أولئك الصحب الكرام الذين تخرجوا فى جامعة سيد الأنام كانوا يحرصون على إزالة الشحناء والأحقاد بإفشاء السلام بعضهم لبعض.

فعن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه قال: مررت بعثمان بن عفان فى المسجد، فسلمت عليه، فملأ عينيه منى، ثم لم يرد علىّ السلام، فأتيت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فقلت: يا أمير المؤمنين، هل حدث فى الإسلام شىء؟ مرتين، قال: لا وما ذاك؟ قال: قلت: لا، إنى مررت بعثمان آنفًا فى المسجد فسلمت عليه، فملأ عينيه منى، ثم لم يرد علىّ السلام، قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك أن لا تكون قد رددت على أخيك السلام؟ قال: عثمان: ما فعلت؟ قال سعد: قلت: بلى، قال: حتى حلف وحلفت، قال: ثم ذكر عثمان فقال: بلى أستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفًا وأنا أحدث نفسى بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ، لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشّى بصرى وقلبى غشاوة، قال: قال سعد: أنا أنبئك بها، إنَّ رسول الله ذكر لنا أول دعوة، ثم جاء

(١) دليل الفالحين جـ٣/ ٣٣٩

(٢) سلسلة الحقوق طه عبد الله العفيفى ص٤ ٢ ط/ دار التراث العربى.

أعرابى فشغله حتى قام رسول الله فأتبعته، فلما أشفقت أن يسبقنى إلى منزله ضربت بقدمى الأرض، فالتفت إلىَّ رسول الله ﷺ، فقال: **من هذا؟ أبو اسحق؟** قال: قلت: نعم يا رسول الله، قال: **فمه؟** قال: قلت: لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ثم جاء هذا الأعرابى، فشغلك، قال: **نعم، دعوة ذى النون إذ هو فى بطن الحوت: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** [الأنبياء: ٨٧] **فإنه لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له**[(١)]

هكذا كان الصحب الكرام يحرصون فيما بينهم على أن يثبتوا أسس الحب والمودة بإفشاء السلام، بل كانوا يرسلون السلام إلى بعضهم إن بعدت بينهم الأقطار، وحالت بينهم البلاد، وكانوا يعدونه أعظم هدية يهدونها إلى بعضهم، أعظم من المال.

فعن أبى البخترى قال: «جاء الأشعث بن قيس وجرير بن عبد الله البجلى إلى سلمان الفارسى رضي الله عنه فدخلا عليه فى حصن فى ناحية المدائن، فأتياه فسلما عليه وحيياه، ثم قالا: أنت سلمان الفارسى؟ قال: نعم، قالا: أنت صاحب رسول الله ﷺ؟ قال: لا أدرى، فارتابا وقالا: لعله ليس الذى نريد، قال لهما: أنا صاحبكما الذى تريدان، إنى قد رأيت رسول الله ﷺ وجالسته، فإنما صاحبه من دخل معه الجنة! فما حاجتكما؟ قالا: جئناك من عند أخٍ لك بالشام، فقال من هو؟ قالا: أبو الدرداء رضي الله عنه قال: فأين هديته التى أرسل بها معكما؟ قالا: ما أرسل معنا هدية، قال: اتقيا الله وأديا الأمانة! ما جائنى أحد من عنده إلا جاء معه بهدية، قالا: لا يرفع علينا هذا، إن لنا أموالاً فاحتكم فيها! قال: ما أريد أموالكما، ولكنى أريد الهدية التى بعث بها معكما، قالا: والله ما بعث معنا بشىء إلا أنه قال لنا: إنَّ فيكم رجلاً كان رسول الله ﷺ إذا خلا به لم يبغ أحدًا غيره، فإذا أتيتماه فأقرئاه منى السلام! قال: فأى هدية كنت أريد منكما غير هذه، وأى هدية أفضل من السلام تحية من عند الله مباركة طيبة»[(٢)]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا إذا كنا مع رسول الله ﷺ، فتفرق بيننا شجرة، فإذا التقينا يسلم بعضنا على بعض[(٣)]

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده (١٤٦٢) وصحح إسناده أحمد شاكر وقال: فيه إسماعيل بن عمر الواسطى وثقه ابن المدينى والخطيب، وقال أحمد: كان عابدا وترجمه البخارى فى الكبير. ثم قال: والحديث فى تفسير ابن كثير جـ٥/ ٥٢٥، ٥٢٦ وقال: رواه الترمذى والنسائى فى اليوم والليلة.

(٢) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح قاله الهيثمى فى المجمع ٨/ ٤ ورواه أبو نعيم فى حلية الأولياء ١/ ١ ٢

(٣) رواه الطبرانى بإسناد حسن والبخارى فى الأدب المفرد رقم (٤٣ ١) وذكره المنذرى فى الترغيب والكاندهلوى فى حياة الصحابة جـ٢/ ٤٧٦.

الله أكبر ما هذا الحب؟ وما هذا الوفاء والإخلاص؟ بمجرد أن تحول شجرة بينه وبين أخيه يلقى عليه السلام كأنه ما رآه منذ فترة طويلة، ونحن فى عصرنا نقول: «كثر السلام يقل المعرفة» فأين نحن من هؤلاء العظماء الذين تخرجوا فى جامعة الرسول الأعظم؟ جامعة الحب والوفاء والإخلاص؟

أين نحن من أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ الذى كان إذا أصبح دهن يده بدهن طيب لمصافحة إخوانه من الصحابة[1]

أين نحن من هؤلاء الذين كانوا يجلسون بفناء بيوتهم، فلما سُئلوا عن ذلك، قالوا: نسلم ونسلم علينا؟[2]

**• آداب السلام •**

## أخى المسلم:

لقد جعل الشارع الحكيم لإفشاء السلام آدابًا حتى يكون المسلم دائمًا متأدبًا بآداب سنة الحبيب المصطفى ﷺ فمن هذه الآداب:

**١- أن يسلم الماشى على القاعد، والراكب على القاعد، والقليل على الكثير، والصغير على الكبير.** وذلك كله ثابت فى السنة المطهرة.

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يسلم الراكب على الماشى، والماشى على القاعد، والقليل على الكثير»**[3]

**٢- أن يبدأ المسلم أخاه المسلم بالسلام،** لأن البادئ به أحق بالقرب من الله تعالى.

وذلك لما روى عن أبى أمامة الباهلى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«إنَّ أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام»**[4] ومعنى أولى الناس بالله أى أحقهم بالقرب منه بالطاعة، وفى رواية لأبى أمامة أيضًا: قيل: يا رسول الله، الرجلان يلتقيان أيهما يبدأ بالسلام؟ قال: **«أولاهما بالله تعالى»**[5]

**قال ابن رسلان[6]:**

ومعنى الروايتين: «أقرب الناس من الله بالطاعه من بدأ أخاه بالسلام عند ملاقاته، لأنه السابق إلى ذكر الله ومذكره»

ورواه البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود يرفعه: **«إذا مر الرجل بالقوم فسلم عليهم**

---

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد (٤٤ ١). (٢) حياة الصحابة جـ٢/ ٤٧٥ للكاندهلوى.

(٣) رواه البخارى ومسلم (٢١٦٠) وأحمد فى مسنده (١٠٥٧٢) وأبو داود فى سننه (٥١٩٨) وصححه الألبانى والترمذى (٢٧٠٣).

(٤) رواه أبو داود فى سننه (٥١٩٧) وصححه الألبانى فى سنن أبى داود والمشكاة (٤٦٤٦).

(٥) رواه الترمذى وحسنه. (٦) دليل الفالحين جـ٣/ ٣٤٢.

**فردوا عليه كان عليهم فضل لأنه ذكرهم السلام، وإن لم يردوا عليه ردَّ عليه ملأ خير منهم وأطيب».**

قال الإمام القرطبى: الأولى بمبادرة السلام ذوو المراتب الدينية كأهل العلم والفضل احترامًا لهم وتوقيرًا، بخلاف أهل المراتب الدنيوية.

**٣- استحباب السلام على من تكرر لقاؤه حتى ولو كان على قرب،** أو حال بينهما شجرة أو نحو ذلك، لما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال فى حديث المسيئ صلاته: «جاء رجل إلى النبى فسلم، ثم صلى، ثم سلَّم على النبى فردَّ عليه السلام، فقال: **ارجع فصلِّ فإنك لم تصل،** فرجع فصلى، ثم جاء فسلَّم على النبى حتى فعل ذلك ثلاث مرات»[١]

وعن أبى هريرة ﷺ قال: إذا لقى أحدكم أخاه فليسلم عليه، فإن حالت بينهما شجرة أو جدار أو حجر، ثم لقيه فليسلِّم عليه»[٢]

**٤- استحباب السلام إذا دخل المسلم بيته:**

قال تعالى: **﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾** [النور: ٦١].

وعن أنس ﷺ قال: قال لى رسول الله ﷺ: **«يا بنى إذا دخلت على أهلك فسلِّم يكن بركة عليك وعلى أهل بيتك»**[٣]

قال النووى فى الأذكار: يستحب إذا دخل بيته أن يسلم، وإن لم يكن فيه أحد، وليقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وكذا إذا دخل مسجدًا أو بيتًا لغيره ليس فيه أحد. قال عبد الله بن عمر ﷺ: إذا دُخل البيت غير المسكون فليقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين[٤]

**٥- استحباب السلام إذا قام من المجلس وفارق جلساءه:**

لما روى عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلِّم، فإذا أراد أن يقوم، فليسلِّم فليست الأولى بأحق من الآخرة»**[٥]

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد وغيرهم.

(٢) رواه أبو داود ( ٥٢) وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود والسلسلة الصحيحة (١٨٦) ورواه البيهقى فى الشعب وابن ماجه.

(٣) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) رواه البخارى فى الأدب المفرد (١٠٣٦) بسند صحيح وذكره الإمام مالك فى الموطأ جـ٢/ ٣٥٩.

(٥) رواه أبو داود وحسنه الألبانى فى سنن أبى داود (٨ ٥٢) ورواه الترمذى (٢٨٦١) وقال: حديث حسن ورواه البخارى فى الأدب المفرد (٣٨ ١).

**٦- أن يرفع المُسَلِّمُ صوته بالسلام بحيث يُسْمِعِ المسلَّم عليه، وإذا تشكك فى أنه** يسمعهم رفع أكثر حتى يُسمع، أما إذا سلم على أيقاظ عندهم نيام، فالسنة أن يخفض صوته بحيث يحصل سماع الإيقاظ ولا يستيقظ النائم.

فعن المقداد بن عمرو ﷺ قال: «. كنا نرفع للنبى ﷺ نصيبه من اللبن، فيجىء من الليل، فيسلم تسليمًا لا يوقظ نائمًا، ويُسمع اليقظان. .»[1] وعن ثابت بن عبيد قال: «أتيت مجلسًا فيه عبد الله بن عمر، فقال: إذا سلمت فأسمع، فإنها تحية من عند الله مباركة طيبة»[2]

**٧- أن لا يبتدئ السلام بقوله: «وعليكم السلام»:**

قال جُرىٌّ الهجيمى، قال: أتيت النبى ﷺ فقلت: **«عليك السلام يا رسول الله!** قال: **«لا تقل عليك السلام، فإن عليك السلام تحية الموتى»**[3]

واختلف هل يكون قوله: «وعليكم السلام» يعتبر سلامًا فيستحق الجواب أم لا؟.

قال المتولى: لا يكون ذلك سلامًا، فلا يستحق جوابًا، لأن هذه الصيغة لا تصلح للابتداء. وقال الإمام النووى فى الأذكار:

فإن قال: عليك أو عليكم بدون الواو، فقطع الإمام أبو الحسن الواحدى بأنه سلام يتحتم على المخاطب به الجواب، وإن كان قد قلب اللفظ المعتاد -وهذا هو الظاهر، وقد جزم به إمام الحرمين فيجب فيه الجواب لأنه يسمى سلامًا[4]

والمختار أنه يكره الابتداء بهذه الصيغة، فإن ابتدأ وجب الجواب.

## • حكم السلام •

واعلم أخى المسلم أن ابتداء السلام سنة مستحبة وليس بواجب، وهو سنة على الكفاية، فإن كان المسلِّم جماعة كفى تسليم واحد منهم، ولو سلموا كلهم كان أفضل، وأما ردّ السلام، فإن كان المسلَّم عليه واحدًا تعين عليه الردّ، وإنْ كانوا جماعة كان ردّ السلام فرض كفاية عليهم، فإن ردّ واحد منهم سقط الحرج عن الباقين، وإن تركوه كلهم أثموا كلهم، وإن ردوا كلهم فهو النهاية فى الكمال والفضيلة.

ودليل ذلك ما رواه على بن أبى طالب ﷺ أن النبى ﷺ قال: **«يجزئ عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم، ويجزئ عن الجلوس أن يرد أحدهم»**[5]

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الأشربة باب إكرام الضيف. (١٧٤) والبخارى فى الأدب المفرد رقم (١٠٦٠).

(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد ص٢١٦ (٣٦ ١).

(٣) رواه أبو داود وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٥٢٠٩).

(٤) الأذكار للإمام النووى ٣١٤ دار الريان تحقيق: أحمد عبد الله.

(٥) رواه أبو داود فى سننه وصححه شيخنا الألبانى برقم (٥٢١٠) وفى السلسلة الصحيحة (١١٤٨) والإرواء (٧٧٨).

## • الأمور التى يكره فيها السلام •

ذكر الإمام النووى[1] عدة أمور يكره فيها السلام منها

١- ما إذا كان المسلَّم عليه مشتغلاً بالبول أو الجماع أو نحوه، فيكره أن يسلم عليه، ولو سلم لا يستحق جوابًا.

٢- ومن ذلك: من كان نائمًا أو ناعسًا

٣- ومنها: من كان مُصليًا، أو مؤذنًا فى حال أذانه أو إقامته الصلاة، أو كان فى حمام أو نحو ذلك.

٤- ومنها: ما إذا كان الطعام فى فمه، فإن سلَّم فى هذه الحالة لم يستحق جوابًا أما إذا كان أمامه الطعام وليست اللقمة فى فمه فلا بأس بالسلام، وعليه الجواب.

٥- وكره بعضهم الابتداء بالسلام حال خطبة الجمعة، لأنهم مأمورون بالإنصات للخطبة.

٦- وبعض الفقهاء يرى أن الأولى ترك السلام للمشتغل بقراءة القرآن، فإن سلم عليه كفاه الرد بالإشارة، وإن ردّ باللفظ استأنف الاستعاذة ثم عاد إلى التلاوة، هذا كلام الواحدى. ويقول النووى: وفيه نظر، والظاهر أنه يسلم عليه، ويجب الرد باللفظ، أما إذا كان مشتغلاً بالدعاء، مستغرقًا فيه، مجمع القلب عليه، فيحتمل أن يقال: هو كالمشتغل بالقراءة على ما ذكرناه، ثم يقول: والأظهر عندى فى هذا أنه يكره السلام عليه، لأنه يتنكد به ويشق عليه أكثر من مشقة الأكل.

٧- ويكره التسليم على الملبى المحرم، لأنه يكره له قطع التلبية، فإن سُلِّمَ عليه ردَّ السلام باللفظ.

## • موعظة •

**عباد الله:**

ما للألسن عن شكر نعم الله المتتالية قاصرة، وما للعيون إلى زهرة الحياة الفانية ناظرة، وما للأقدام عن طريق الهداية حائرة، وما للعزائم والهمم عن العمل الصالح فاترة وما للقلوب لا تتزود من التقوى وهى مسافرة، وما لها لا تتأهب وتستعد للنقلة إلى الدار الآخرة.

أركونًا إلى الدنيا وقد فرقت الجموع، وكسرت أعناق الأكاسرة، وقصرت آمال القياصرة؟ أم اغترار بالإقامة، ومطايا الأيام بكم فى كل لحظة سائرة؟ أم تسويفًا بالتوبة والأعمال؟ فهذه والله الفكرة والصفقة الخاسرة.

---

(١) الأذكار للإمام النووى ص٣٢١

لقد رانت على القلوب قبائح الأعمال، وضربت عليها وعلى المسامع من الذنوب أقفال، فيا خجلة من سئل فعدم الجواب، أو أجاب بجواب يستحق أليم العذاب، ويا حسرة من نوقش عن الدقيق والجليل فى الآخرة الحساب، ويا ندامة من لم يحصل إلا على الغضب من الكريم الوهاب ويا خيبة مَن مآله إلى نار تلتهب إلى إحراقه التهابًا.

فبادر بالتوبة قبل خروج وقت الاختيار، وإتيان وقت لا تقال فيه العثار(١)

ولله در القائل:

**تيقنت أنى مذنب ومحاسب ... ولم أدر هل ناج أنا أو معاقب**

**وما أنا إلا بين أمرين واقف ... فإما سعيد أم بذنبى مطالب**

**وقد سبقت منى ذنوب عظيمة ... فيا ليت شعرى ما تكون العواقب**

**فيا منقذ الغرقى ويا كاشف البلا ... ويا من له عند الممات مواهب**

**أغثنا بغفران فإنك لم تزل ... مجيبًا لمن ضاق عليه المذاهب**

نسألك يا ربنا يا من امتلأ الكون بأنوارك، وأشرق الوجود بسواطع أنوارك، وعمَّ فضلك جملة بلادك، وكافة عبادك، يا من أظهر محاسن من شاء من عباده فضلاً وإحسانًا وسترت العورات والمساوئ جودًا وعفوًا وغفرانًا، توسلت إليك بفقرى، وشكوت إليك ضعفى وضرى، يا ذل من ليس له من حبك نصيب، ويا عز من أنت له محب وحبيب، لقد استوى عندك السر والعلن، وأحاط علمك بما ظهر فى الكون وما بطن، يا ذا الجلال والإكرام بك أتوسل، وعليك أتوكل، وبعزتك استنصر فانصرنى، وبك أستجير فأجرنى، اللهم اجبر كسرنا، وأغن فقرنا، وارحم ضعفنا، اللهم أنظمنا فى سلك عبادك الأخيار، ونجنا برحمتك من عذاب النار وأسكنا الجنة من أوليائك الأبرار، واغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين، يا رب العالمين.

## العنصر الثانى

## «وأطعموا الطعام»

### أخى المسلم:

وبعدما طفنا سويًا مع تحية الإسلام، وتعلمنا كيف أنها توحد الكلمة، ويسود بها الحب بين المؤمنين الصالحين، وتتقارب بها أرواحهم، وتلتقى بها أهدافهم لتحقيق الألفة والإخاء، فهيا بنا لنطوف سويًا مع العنصر الثانى من عناصر هذه الوصية المباركة، مع: «إطعام الطعام» وهو شعبة من شعب الإسلام، فما هو فضل إطعام الطعام؟.

(١) موارد الظمآن للسلمانى.

## • الترغيب والحث على إطعام الطعام •

ومعنى إطعام الطعام أى بذله وإعطاؤه لمن يحتاج إليه بسخاوة نفس، وطيب روح سواء كان المحتاج إليه من الفقراء، أم من المساكين، أم كانوا أهلاً وأقارب، أم غير ذلك ممن كان على شاكلتهم، وإطعام الطعام يشتمل على: وليمة عرس، أو عقيقة لمولود، أو هدى لحاج أو معتمر، أو أضحية لمضحى، أو فدو يمين أو كفارة ظهار، أو غير ذلك من سبيل للحصول على الطعام الحلال.

ولقد حث الإسلام الحنيف أتباعه على إطعام الطعام فمدح أعمال الأبرار الذين يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً لأنهم كانوا فى الدنيا يطعمون الطعام كما قال سبحانه: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا**﴾ [الإنسان: ٨: ١٠].

**يقول الفخر الرازى:** اعلم أن مجامع الطاعات محصورة فى أمرين:

١- التعظيم لأمر الله تعالى، وإليه كانت الإشارة بقوله: ﴿**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ**﴾ [الإنسان: ٧].

٢- والشفقة على خلق الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ**﴾ [الإنسان: ٨][١]

فالآية المباركة وإن نزلت فى على بن أبى طالب ﷺ إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فقد ذكر العلماء فى سبب نزول هذه الآية أنَّ عليًّا أجر نفسه يسقى نخلاً بشىء من شعير ليلة حتى أصبح، وقبض الشعير، وطحن ثلثه، فجعلوا منه شيئًا ليأكلوا، يقال له: الخزيرة فلما تم إنضاجه أتى مسكين فأخرجوا إليه الطعام، ثم عمل الثلث الثانى، فلما تم إنضاجه أتى يتيم، فسأل فأطعموه، ثم عمل الثلث الباقى، فلما تم إنضاجه أتى أسير من المشركين، فأطعموه وطووا يومهم ذلك، فأنزلت فيه هذه الآية[٢]

وقد وضح نبى الإسلام سيدنا محمد ﷺ أن الذى يفعل هذه الخصال الثلاث، ومنها إطعام الطعام فإن مصيره إلى جنة الله رب العالمين، جنة يُرى ظاهرها من باطنها فيقول: عن عبد الله بن عمرو ﷺ عن النبى ﷺ قال:

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازى جـ٣١/ ٦٢

(٢) ذكره الواحدى فى أسباب النزول ص٣٧٨ ط/ دار الريان وذكر نحوه الإمام الرازى مطولاً فى تفسيره جـ٣١/ ٦٢

«فى الجنة غرفة يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، فقال أبو مالك الأشعرى: لمن هى يا رسول الله؟ قال: **لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائمًا والناس نيام**»(١)

وفى رواية أخرى عن مالك الأشعرى أن النبى ﷺ قال: **«إنَّ فى الجنة غرفًا يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدَّها الله لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى بالليل والناس نيام»**(٢)

وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه **أنه** رأى رب العالمين فى منامه فى أحسن صورة، فسأله: يا محمد: **هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى... حتى قال: فى الكفارات والدرجات، والكفارات المكث فى المساجد بعد الصلوات، والمشى على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء على الكريهات، قال: صدقت يا محمد ثم قال:** والدرجات: **إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام»**.

وفى رواية(٣): **«ثلاث مهلكات، وثلاث منجيات، وثلاث كفارات، وثلاث درجات، فأما المهلكات:** فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**»**.

**وأما المنجيات:** فالعدل فى الرضا والغضب، والقصد فى الفقر والغنى، وخشية الله فى السر والعلانية.

**وأما الكفارات:** فانتظار الصلاة بعد الصلاة، وإسباغ الوضوء فى السبرات، ونقل الأقدام إلى الجماعات.

**وأما الدرجات:** فإطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام»(٤).

وتأمل أخى الحبيب كيف جعل رب العالمين جل وعلا إطعام الطعام لمن يحتاج إليه بمثابة لو أنك أطعمته هو سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤] ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧] وذلك كناية عن كثرة ثوابه تعالى لهذا العبد وتشريفًا له حيث إنه يضيف الطعام إلى نفسه جل وعلا عن ذلك علوا كبيرًا.

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبى وصححه شيخنا الألبانى فى صحيح الترغيب (٦١٣).

(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (٦١٤).

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده (٨٠ ٢٢) بسند صحيح ورواه الترمذى وصححه الألبانى.

(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط، وأبو نعيم فى الحلية مختصرًا ٢/ ٣٤٣ وحسنه الألبانى بمجموع طرقه فى السلسلة الصحيحة (١٨٠٢).

فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: **«يابن آدم مرضت فلم تعدنى، قال: يا رب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أن عبدى فلان مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده يابن آدم: استطعمتك فلم تطعمنى. قال: يا رب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى. يابن آدم استسقيتك فلم تسقنى. قال: يا رب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟! قال: استسقاك عبدى فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى»**(١)

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أنه أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إذا رأيتك طابت نفسى، وقرت عينى، فأنبئنى عن كل شيء، فقال: «**كل شيء خلق من ماء**» قال: فأنبئنى بعمل إن عملت به دخلت الجنة قال: **أفش السلام، وأطب الكلام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام تدخل الجنة بسلام**»(٢)

ولقد بلغ من حرص الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنهم كانوا يسألون عما يوصلهم إلى ما فيه السعادة الأبدية فى الآخرة، ففى الحديث السابق لما سأل أحدهم أن يدله الرسول ﷺ على عمل يكون سببًا فى دخوله الجنة لكى تقر عينه، وتطيب نفسه برؤية سيد الخلق محمد ﷺ، فدله على هذه الأعمال، ويظهر أن الرسول ﷺ، وقد أرسله ربه رحمة للعالمين كان يراعى الظروف التى يعيشها أصحابه فكان يشخص لكل داء دواء، ودواء كل واحد يناسب علته، فهذا صحابى آخر يسأله أيضًا عما يوصله إلى الجنة ليسعد فى الدار الآخرة، فماذا وصف له الحبيب المصطفى، والرسول المجتبى؟

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله علمنى عملاً يدخلنى الجنة، فقال: **لئن كنت أقصرت الخطبة، لقد أعرضت المسألة: أعتق النسمة، وفك الرقبة**، فقال يا رسول الله أوليستا بواحدة؟ قال: «**لا إنَّ عتق النسمة أن تفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين فى عتقها.. فإن فلم تطق ذلك، فأطعم الجائع، واسق الظمآن...**»(٣)

واعلم أخى المسلم أن الجزاء من جنس العمل، فمن أطعم فى الدنيا أطعمه الله فى الآخرة ومن سقى سقاه الله، ومن كسا كساه الله.

---

(١) رواه مسلم ورواه البخارى فى الأدب المفرد (٥٢٦) وأحمد نحوه (٧٩٧٥).

(٢) رواه الترمذى (١٨٥٤) وابن ماجه (١٣٣٤) والدارمى (١٤٦٠) وأحمد فى مسنده (١٠٣٤٩) بسند صحيح.

(٣) رواه أحمد فى مسنده (١٨٥٥٤) جـ١٤/ ٢٣٤ بإسناد صحيح وصححه الحاكم ٢/ ٢١٧ ووافقه الذهبى وذكره المنذرى فى الترغيب جـ٢/ ٦٥

فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه مرفوعًا أن النبى ﷺ قال: «**أيما مؤمن أطعم مؤمنًا على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مؤمن سقى مؤمنًا شربة على ظمأ سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم، وأيما مؤمن كسا مؤمنًا ثوبًا على عرى كساه الله من خضر الجنة**»(١)

ولقد جعل رسولنا الخاتم ﷺ إطعام الطعام من أفضل الأعمال المزحزحة عن النار، والمقربة من الجنة، فقال ﷺ فيما يرويه عنه سيد المحدثين أبو هريرة: «**أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سرورًا، أو تقضى عنه دينا، أو تطعمه خبزًا**»(٢) كما جعل أفضل الناس وخيارهم من أطعم الطعام فقال: «**خياركم من أطعم الطعام**»(٣).

وأختم الحديث عن فضل إطعام الطعام والتصدق به بهذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **لما خلق الله الأرض جعلت تميد وتكفأ، فأرساها بالجبال، فاستقرت، فتعجبت الملائكة من خلق الجبال، فقالت: يا رب هل من خلقك شىء أشد من الجبال، قال: نعم، الحديد، قالت: يا رب هل من خلقك أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار، قالت: يا رب هل من خلقك شىء أشد من النار؟ قال: نعم الماء، قالت: رب هل من خلقك شىء أشد من الماء؟ قال: نعم الريح، قالت: يا رب، فهل من خلقك شىء أشد من الريح، قال: نعم ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها من شماله**»(٤)

## • مع المطعمين للطعام (النبى ﷺ والصحب الكرام) •

### ١- إطعام النبى ﷺ:

هذا هو سيد الجود والكرم، هذا من كان أجود من الريح المرسلة، هذا إمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، لقد كان يطعم إطعام من لا يخشى الفاقة.

فعن جابر رضي الله عنه قال: كنت جالسًا فى دار فمر بى رسول الله ﷺ فأشار إلىَّ، فقمت إليه، فأخذ بيدى، فانطلقنا حتى أتى بعض حجر نسائه، فدخل ثم أذن لى، فدخلت الحجاب عليها، فقال: هل من غداء، فقالوا: نعم، فأتى بثلاثة أقرصة فوضعن على «نبى»- وهو طبق يوضع عليه الطعام- فأخذ رسول الله ﷺ قرصًا فوضعه بين يديه، وأخذ قرصًا آخر فوضعه

---

(١) رواه أبو داود (١٦٨٢) وضعفه الألبانى، ولكن الشيخ حمزة الزين حسنه فى تخريج المسند للإمام أحمد (٤٣ ١١) جـ١٠/ ٤٧ ورواه الترمذى (٢٤٤٩).

(٢) رواه ابن أبى الدنيا فى قضاء الحوائج (١١٢) ص٨٤ والبيهقى وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٦ ١).

(٣) رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب كما ذكر المنذرى جـ٢/ ٦٣ وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب.

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٢١٩٣) جـ ١/ ٤ وصححه حمزة الزين ورواه الترمذى بسند حسن.

بين يدىّ، ثم أخذ الثالث فكسره اثنين، فجعل نصفه بين يديه، ونصفه بين يدىّ، ثم قال: **هل من أدم؟** قالوا: لا، إلا شىء من خل، قال: **هاتوه، فنعم الأدم هو..**»(١)

وقد روى صاحب الوصية التى نحن بصددها -عبد الله بن سلام- عن إطعامه ﷺ فقال ﷺ: إن النبى ﷺ رأى عثمان بن عفان ﷺ يقود ناقة تحمل دقيقًا وسمنًا وعسلاً، فقال ﷺ: «**أنخ**، فأناخ، فدعا ببرمة، فجعل فيها من السمن والعسل والدقيق، ثم أمر فأوقد تحتها حتى نضج، ثم قال: **كلوا**، فأكلوا منه ﷺ ثم قال: **هذا شىء يدعوه أهل فارس «الخبيص»**(٢)

وعن عبد الله بن بسر ﷺ قال: كان للنبى ﷺ قصعة يحملها أربعة رجال، يقال لها: «الغراء» فلما أضحوا وسجدوا الضحى، أُتى بتلك القصعة وقد ثُرد فيها، فالتفوا عليها. فلمّا كثروا جثا رسول الله ﷺ، فقال أعرابى: ما هذه الجلسة؟ فقال النبى ﷺ: «**إنّ الله جعلنى عبدًا كريمًا، ولم يجعلنى جبارًا عنيدًا، ثم قال: كلوا من جوانبها، ودعوا ذروتها يبارك الله فيها**»(٣)

تأمل أخى الحبيب كيف كان نبى الرحمة ﷺ كريمًا جوادًا، ولم يكن هذا الجود، وذلك الكرم لكسب محمدة الناس، ولم يكن للمباهاة أو الاستغلال، أو لاجتذاب المادحين، لكنه كان فى سبيل الله، وابتغاء مرضاته سبحانه، كان كرمه فى إطعام الطعام للفقراء والمساكين من المسلمين الذين فقدوا أموالهم فى سبيل الله، أو عجزوا عن الكسب.

كان جوده لرعاية اليتامى والأيامى، كان إيثارًا على نفسه وأهله فقد كان يبذل الكثير وهو محتاج إلى القليل، لأنه كان يحيا حياة الزهاد، ولأنه كان الملاذ الرفيق، والأب الشفيق الذى تشغله حاجات بنيه أضعاف ما تشغله حاجات نفسه.

«جاءه رجل يسأله طعامًا، فقال له ما عندى شىء، ولكن ابتع على -أى اشتر على حسابى- فإذا جاء ناشئ قضيناه. فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله قد أعطيته من قبل، فما كلفك الله ما لا تقدر عليه. فكره النبى ﷺ ذلك، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، انفق ولا تخش من ذى العرش إقلالاً، فتبسم النبى ﷺ، وعرف البشر فى وجهه، ثم قال: **بهذا أمرت..**»(٤)

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الطبرانى فى الثلاثة وقال الهيثمى فى المجمع ٥/٣٨ رجال الصغير والأوسط ثقات وقد ذكره الكاندهلوى فى حياة الصحابة ٢/١٦٩

(٣) رواه أبو داود (٣٧٧٣) وصححه الألبانى جـ٢/٤٤٣ باب ما جاء فى الأكل من أعلى الصحفة.

(٤) رواه الإمام أحمد فى مسنده (٢٢٢٥٣) وسنده حسن وذكره النبهانى فى المواهب اللدنية ٢٠٩ والغزالى فى الإحياء ٢/ ٣٣٤

وكان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف، أى ما كثرت عليه الأيدى(١).

**٢- إطعام أبى بكر الصديق:**

وهذا هو صديق الأمة الأكبر، ذلكم هو رفيق الحياة والممات للرسول الأعظم ﷺ، ذلك المنفق ماله كله فى سبيل الله، ذلكم هو أول الناس إسلامًا، وأخلصهم إيمانًا، وأشدهم لله يقينًا وأحسنهم صحبة، وأكثرهم مناقب، وأفضلهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم وسيلة، وأشبههم برسول الله هديًا وسمتًا.

فعن أبى هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: **من أصبح منكم اليوم صائمًا؟** فقال أبو بكر ﵁: أنا، فقال: **من أطعم منكم اليوم مسكينًا؟** فقال أبو بكر: أنا. قال: من تبع منكم اليوم جنازة؟ فقال أبو بكر أنا، فقال: **من منكم عاد مريضًا؟ قال أبو بكر: أنا،** فقال ﷺ: **ما اجتمعت هذه الخصال قط فى رجل إلا دخل الجنة..»**(٢)

لقد كان أبو بكر الصديق ينفق على رجل فقير، وكان يطعمه الطعام، يسمى «**مسطح ابن أثاثة**»، وكانت أمه ابنة خالة الصديق - وكان مسطح **ممن تكلم فى حادثة** الإفك، فلما قال ما قال فى عائشة ﵂، ونزلت الآيات ببراءتها **قال أبو بكر: والله لا أعد** أنفق على مسطح أبدًا بعد ما قال ما قال.

فنزل قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النور: ٢٢].

فدعا رسول الله ﷺ أبا بكر فتلاها عليه، فو الله ما هو إلا أن سمعها حتى قال: بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى، والله لأردَّن على مسطح ما كنت قطعته منه»(٣) وعاد سيدنا أبو بكر يطعمه الطعام، ويتصدق عليه بالمال.

**٣- إطعام سلمان الفارسى:**

فعن شقيق بن سلمة ﵁ قال: دخلت أنا وصاحب لى على **سلمان الفارسى** ﵁، فقال سلمان: لولا أن رسول الله ﷺ نهى عن التكلف لتكلفت لكم ثم جاء بخبز وملح، فقال صاحبى لو كان فى ملحنا عنقر. فبعث سلمان بمطهرته فرهنها ثم جاء بعنقز، فلما أكلنا قال صاحبى: الحمد لله الذى قنعنا بما رزقنا، فقال سلمان: لو قنعت بما رزقك لم تكن مطهرتى مرهونة(٤)

(١) الإحياء ٢/ ٣٣٣

(٢) رواه ابن خزيمة فى صحيحه، والبخارى فى الأدب المفرد (٥٢٤) ورواه مسلم مختصرًا.

(٣) رواه البخارى (٤٧٥٠) فى كتاب التفسير ومسلم فى التوبة (٢٧٧٠).

(٤) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الطوسى، وهو ثقة قاله الهيثمى فى المجمع ٨/ ١٧٩ والحديث حسن.

**٤- إطعام عمر بن الخطاب:**

أخرج مالك عن أسلم قال لعمر ﷺ: إنَّ فى الظهر ناقة عمياء. قال: ادفعها إلى أهل بيت ينتفعون بها، قلت: وهى عمياء! قال: يقطرونها بالإبل، قلت: كيف تأكل من الأرض؟ قال: أمن نعم الجزية هى أم من نعم الصدقة؟ قلت: من نعم الجزية. قال: أردتم -والله- أكلها. قلت: إنَّ عليها وسم نعم الجزية، فأمر بها فنحرت وكان عنده صحاف[(١)] تسع، فلا تكون فاكهة ولا طريفة إلا جعل منها فى تلك الصحاف، فيبعث بها إلى أزواج النبى ﷺ، ويكون الذى يبعث به إلى حفصة ﷺ من آخر ذلك، فإن كان فيه نقصان كان فى حظ حفصة، فجعل فى تلك الصحاف من لحم تلك الجزور فبعث به إليهن، وأمر بما بقى، فصنع، فدعا إليه المهاجرين والأنصار[(٢)]

**٥- طلحة بن عبيد الله وإطعامه الطعام:**

فعن سلمة بن الأكوع ﷺ ابتاع طلحة بن عبيد الله بئرًا بناحية الجبل، وأطعم الناس، فقال رسول الله ﷺ: «**إنك يا طلحة الفياض**»[(٣)]

ويقول طلحة: سمانى رسول الله ﷺ يوم أحد طلحة الخير، ويوم العسرة طلحة الفياض، ويوم حنين طلحة الجود[(٤)] وذلك كله من كرمه وإطعامه الطعام، وإنفاقه الأموال فى سبيل الله.

وعن سعدى بنت عوف قالت: دخل على طلحة، ورأيته مغمومًا، فقلت: ما شأنك؟ فقال: المال الذى عندى قد كثر، وقد كربنى -أى أغمنى- فقلت: وما عليك؟ أقسمه فقسمه حتى ما بقى منه درهم.

قال طلحة بن يحيى: فسألت خازن طلحة: كم كان المال؟ فقال: أربعمائة ألف[(٥)]

لقد آتاه عامله فى يوم من الأيام من «حضرموت» بسبعمائة ألف، فبات يتململ فى هذه الليلة، فقالت له زوجته: مالى أراك منذ الليلة تتململ؟ أرابك منا أمر فنعتبك؟ قال: لعمرى لنعم زوجة المرء أنت، ولكن تفكرت منذ الليلة، كيف ألقى ربى وفى بيتى هذا المال؟ قالت: فأين أنت عن بعض أخلاقك؟ قال: وما هو؟ قالت: إذا أصبحت دعوت بجفان وقصاع، فقسمته على بيوت المهاجرين والأنصار على قدر منازلهم.

---

(١) صحاف: جمع صحفة وهى إناء كالقصعة يوضع فيه الطعام.
(٢) حياة الصحابة ٢/ ١٧١ وعزاه لمالك فى الموطأ.
(٣) المرجع السابق وقد عزاه إلى المنتخب جـ٥/ ٦٧ وقال: أخرجه الحسن بن سفيان وأبو نعيم فى المعرفة.
(٤) أسد الغابة ٢/ ٤٩١.
(٥) رواه الطبرانى بسند رجاله ثقات قاله الهيثمى فى المجمع ٩/ ٣٤٨

فلما أصبح دعا بجفان وقصاع، فقسمها بين المهاجرين والأنصار، فبعث إلى على بن أبى طالب منها بجفنة، فقالت له زوجته: يا أبا محمد، أما كان لنا فى هذا المال نصيب؟ قال: فأين كنتم منذ اليوم؟ فشأنك ما بقى. قالت: فكانت صرة فيها نحو ألف درهم[١]

**٦- إطعام صهيب بن سنان الرومى:**

فعن حمزة بن صهيب، أن صهيبًا رضي الله عنه كان يطعم الطعام الكثير، فقال له عمر رضي الله عنه: يا صهيب، إنك تطعم الطعام الكثير، وذلك سرف فى المال، فقال صهيب: إن رسول الله كان يقول: «**خياركم من أطعم الطعام، وردّ السلام**» فذلك الذى يحملنى أن أطعم الطعام[٢]

**٧- إطعام عبد الله بن عمر:**

وعن ميمون بن مهران، أنّ امرأة ابن عمر، عوتبت فيه، فقيل لها: أما تلطفين بهذا الشيخ؟! فقالت: فما أصنع به؟! لا نصنع له طعامًا إلا دعا عليه من يأكله، فأرسلت إلى قوم من المساكين كانوا يجلسون بطريقه إذا خرج من المسجد، فأطعمتهم، وقالت لهم: لا تجلسوا بطريقه! ثم جاء إلى بيته، فقال: أرسلوا إلى فلان وإلى فلان! وكانت امرأته أرسلت إليهم بطعام وقالت: إن دعاكم فلا تأتوه! فقال ابن عمر: أردتم ألا أتعشى الليلة، فلم يتعش تلك الليلة[٣]

**٨- إطعام جعفر بن أبى طالب:**

ذلكم الشهيد الطائر، ذلكم الرجل الذى كان أشبه الناس برسول الله ﷺ خُلقًا وخلقًا، كان يسميه النبى ﷺ: «أبا المساكين» لكثرة إطعامه للطعام.

فعن أبى موسى الأشعرى قال: كان رسول الله يسميه: أبا المساكين، وكان أسن من على بعشرين سنة[٤]

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: إن كنت لألصق بطنى بالحصباء من الجوع، وإن كنت لأستقرئ الرجل الآية، وهى معى، كى ينقلب بى، فيطعمنى، وكان أخيرُ الناس للمساكين جعفر بن أبى طالب، كان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان فى بيته، حتى إن كان ليُخرج إلينا العكة[٥] التى ليس فيها شىء، فنشقها، فنلعق ما فيها[٦]

---

(١) نقلا من: رجال ونساء حول الرسول للشيخ هانى الحاج بتصرف وقد نقله من: صلاح الأمة ٢/ ٥٣١ بتصرف.

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية ١/ ١٥٣

(٣) المرجع السابق ١/ ٢٩٨ ونحوه فى طبقات ابن سعد ٤/ ١٢٢

(٤) ذكره ابن الأثير فى أسد الغابة ١/ ٣٢٨ والطبرانى فى الكبير وذكره الهيثمى فى المجمع ٩/ ٢٧٢

(٥) العكة: إناء من الجلد يتخذ للسمن والعسل.

(٦) رواه الترمذى فى كتاب المناقب (٣٧٦٧) وذكره ابن الأثير فى أسد الغابة ١/ ٣٢٩.

**٩- إطعام أبى أمامة الباهلى:**

فعن مولاة لأبى أمامة الباهلى رضي الله عنه قالت: كان أبو أمامة رجلاً يحب الصدقة، ويجمع لها من بين الدينار والدرهم والفلوس، وما يأكل حتى البصلة ونحوها، ولا يقف به سائل إلا أعطاه ما تهيأ له حتى إنه يضع فى يد أحدهم -أى المساكين- البصلة، قالت: فأصبحنا ذات يوم وليس فى بيته شىء من الطعام لذلك -أى لإطعام المساكين- ولا لنا وليس عنده إلا ثلاثة دنانير، فوقف به سائل، فأعطاه دينارًا، ثم وقف سائل فأعطاه دينارًا، ثم وقف به سائل فأعطاه دينارًا، قالت: فغضبت وقلت: لم يبق لنا شىء، فاستلقى على فراشه وأغلق عليه باب البيت، حتى أذن المؤذن للظهر فجئته فأيقظته، فراح إلى مسجده صائمًا، فرققت عليه، فاستقرضت ما اشتريت به عشاء، فهيأت سراجًا وعشاءً، ووضعت مائدة ودنوت من فراشه لأمهده له، فرفعت المرفقة، فإذا بذهب، فقلت فى نفسى: ما صنع -أى ما تصدق بالثلاثة دنانير- إلا لثقته بما جاء به. قالت: فعددتها، فإذا ثلثمائة دينار فتركتها على حالها حتى انصرف إلى العشاء، قالت: فلمَّا دخلت ورأى ما هيأت له حمد الله تعالى، وتبسم فى وجهى، وقال: هذا خير من غيره، فجلس فتعشى، فقلت: يغفر الله لك، جئت بما جئت به ثم وضعته بموضع مضيعة، فقال: وما ذاك؟ فقلت: ما جئت به من الدنانير، ورفعت المرفقة عنها، ففزع لما رأى تحتها، وقال: ويحك ما هذا؟ فقلت: لا علم لى به إلا أنى وجدت ما ترى، قالت. فكبر ووزعه[(١)]

**١٠- إطعام عبد الله بن المبارك:**

كان ابن المبارك مطعمًا للطعام، منفقًا للأموال، مساعدًا لليتامى والمساكين:

١- يروى على بن شقيق -رحمه الله-، فيقول: كان ابن المبارك إذا كان وقت الحج، اجتمع إليه إخوانه من أهل مرو، فيقولون له:

نصحبك، فيقول: هاتوا نفقاتكم، فيأخذ نفقاتهم، فيجعلها فى صندوق، ويقفل عليها، ويطعمهم أطيب الطعام، وأطيب الحلوى، ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زى، وأكمل مروءة، حتى يصلوا إلى مدينة الرسول ﷺ، فيقول لكل واحد: ما أمرك عيالك أن تشترى لهم من المدينة من طُرفِها؟[(٢)]

فيقول: كذا وكذا، ثم يخرجهم إلى مكة، فإذا قضوا حجهم قال لكل واحد منهم: ما أمرك عيالك أن تشترى لهم من متاع مكة؟

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزى جـ١/ ٣٣٠، ٣٣١ وذكره أبو نعيم فى حلية الأولياء جـ١٠/ ١٢٩ وذكر أن الجارية كانت مجوسية وأسلمت لما رأته وتعلمت القرآن والفرائض وعلمت النساء فى مسجد حمص.

(٢) الطُرفة: الهدية

فيقول: كذا وكذا فيشترى لهم، ثم يخرجهم من مكة، فلا يزال ينفق عليهم إلى أن يصيروا إلى «مرو» فيجصص[1] بيوتهم وأبوابهم، فإذا كان بعد ثلاثة أيام، عمل لهم وليمة وكساهم، فإذا أكلوا وسروا، دعا بالصندوق، ففتحه ودفع إلى كل منهم صرته عليها اسمه[2]

٢- روى محمد بن عيسى فقال: كان عبد الله بن المبارك كثير الاختلاف إلى «طرسوس»، وكان ينزل الرقة فى خان، فكان شاب يختلف إليه، ويقوم بحوائجه، ويسمع منه الحديث.

فقدم عبد الله مرة الرقة فلم ير ذلك الشاب، وكان مستعجلاً فخرج فى النفير، فلما قفل من غزوته ورجع الرقة سأل عن الشاب، فقالوا له: محبوس بدين ركبه، فقال عبد الله: كم مبلغ دينه؟ فقالوا: عشرة آلاف درهم، فلم يزل يستقصى حتى وصل إلى صاحب الدين، فدعا به ليلاً، ووزن له عشرة آلاف درهم، وحلفه ألا يخبر أحدًا، ما دام عبد الله حيًّا، وقال: إذا أصبحت أخرج الرجل من الحبس، وأدلج، فأخرج الفتى من الحبس، وقيل له: عبد الله بن المبارك كان هنا، وكان يذكرك وقد خرج، فخرج الفتى فى أثره فلحقه على مرحلتين أو ثلاث من الرقة، فقال: يا فتى، أين كنت، لم أرك فى الخان؟.

قال: نعم يا أبا عبد الرحمن، كنت محبوسًا بدين. قال: فكيف كان سبب خلاصك؟ قال: جاء رجل فقضى دينى ولم أعلم به حتى أخرجت من الحبس.

فقال له عبد الله: يا فتى احمد الله على ما وفق لك من قضاء دينك، فلم يخبر ذلك الرجل أحدًا إلا بعد موت عبد الله[3]

أبعد هذا الكرم كرم؟ أبعد هذا الجود جود! أم بعد هذا البر برٌّ؟! حقًّا إنه كرم الصالحين، كرم المتقين الذين اتخذوا الرسول ﷺ لهم قدوة وأسوة، وتخرجوا فى جامعته أطيب رجال، وأرحم قلوب، وأزكى عقول، وأجود الناس كفًّا.

## • موعظة •

### أخى المسلم:

العبد دائم الشكوى والتظلم والجحود لنعم الله عليه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] ولو علم هذا الظالم الجاهل أنه هو القاعد على طريق مصالحه

(١) يجصص: أى يطليها بالجص وهو الجير

(٢) والقصة ذكرها الشيخ/ مجدى فتحى السيد فى سلسلة درة الواعظين ٣/ ٢٢ وقد نقلها من السير ٩/ ٣٨٦ كما أشار فى الهامش وتاريخ بغداد ١/ ١٥٩ دار الصحابة بطنطا.

(٣) أوردها الشيخ/ مجدى فتحى السيد فى سلسلة درة الواعظين ٣/ ٢٣ وعزاه إلى تاريخ بغداد ١٠/ ١٥٩ وذكرها صاحب كتاب ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله جـ٢/ ٥٨، ٥٩.

يقطعها عن الوصول إليه، فهو الحجر فى طريق الماء الذى به حياته. وهو السكر الذى قد سدَّ مجرى الماء إلى بستان قلبه، ويستغيث مع ذلك العطش العطش، وقد وقف فى طريق الماء ومنع وصوله إليه، فهو الغيم المانع لإشراق شمس الهدى على القلب، فهو كما قيل:

**ما تبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه**

فتبًا له ظالمًا فى صورة مظلوم، وشاكيًا والجناية منه، قد جدَّ فى الإعراض وهو ينادى: طردونى وأبعدونى.

يأخذ الشفيق بحجزته عن النار وهو يجاذبه ثوبه ويغلبه ويقتحمها ويستغيث: ما حيلتى؟ وقد قدمونى إلى الحفيرة، وقذفونى فيها!!

والله كم صاح به الناصح: الحذار الحذار، إياك إياك، وكم أمسك بثوبه، وكم أراه مصارع المقتحمين وهو يأبى إلا الاقتحام!!.

يا ويله! ظهيرًا للشيطان على ربه، خصمًا لله مع نفسه، جبرى المعاصى[1]، قدرى الطاعات[2] عاجز الرأى، مضياع لفرصته، قاعد عن مصالحه، معاتب لأقدار ربه.

هذا مع تواتر إحسان الله إليك على مدى الأنفاس: أزاح عللك، ومكَّنك من التزود إلى جنته، وبعث إليك الدليل، وأعطاك مؤنة السفر وما تتزود به، وما تحارب به قطَّاع الطريق عليك، فأعطاك السمع والبصر والفؤاد، وعرفك الخير والشر، النافع والضار، وأرسل إليك رسوله، وأنزل عليك كتابه، ويسره للذكر والفهم والعمل، وأعانك بمدد من جنده الكرام، يثبتونك ويحرسونك، ويحاربون عدوك ويطردونه عنك، ويريدون منك ألا تميل إليه ولا تصالحه، وهم يكفونك مؤنته، وأنت تأبى إلا مظاهرته عليهم، وموالاته دونهم، بل تظاهره وتواليه دون وليِّك الحق الذى هو أولى بك. قال تعالى: ﴿**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً**﴾ [الكهف ٥٠].

ومع ذلك لم يؤيسك من رحمته بل قال: متى جئتنى قبلتك، إن أتيتنى ليلاً قبلتك، وإن أتيتنى نهارًا قبلتك، وإن تقربت منى شبرًا تقربت منك ذراعًا. وإن تقربت منى ذراعًا تقربت منك باعًا. وإن مشيت إلىَّ هرولت إليك!! ولو لقيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا، أتيتك بقرابها مغفرة. ولو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لكَ. ومن أعظم منى جودًا وكرمًا؟! هل هناك أعظم جودًا من الله؟! هل هناك أكرم من مولاك؟! ولسان حاله يقول: عبادى يبارزوننى بالعظائم، وأنا أكلؤهم على

(١) أى إذا فعل معصية قال: هو مجبور على فعلها.

(٢) أى إذا أمر بالطاعة قال: لم يقدر الله علىَّ فعلها فما حيلتى؟.

فرشهم، إنى والجن والإنس فى نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيرى! وأرزق ويشكر سواى! خيرى إلى العباد نازل، وشرهم إلى صاعد. أتحبب إليهم بنعمى وأنا الغنى عنهم، ويتبغضون إلى بالمعاصى وهم أفقر شيء إلىَّ!!.

من أقبل إلى من بعيد، ومن أعرض عنى ناديته من قريب، ومن ترك لأجلى أعطيته فوق المزيد، ومن أراد رضاى أردت ما يريد، ومن تصرف بحولى وقوتى ألنت له الحديد. أهل ذكرى أهل مجالستى، وأهل شكرى أهل زيارتى، وأهل طاعتى أهل كرامتى، وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتى. إن تابوا إلى فأنا حبيبهم؛ فإنى أحب التوابين وأحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا إلىَّ فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب.

من آثرنى على سواى آثرته على سواه. الحسنة عندى بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، والسيئة عندى بواحدة، فإن ندم عليها واستغفرنى غفرتها له. أشكر اليسير من العمل، وأغفر الكثير من الزلل، رحمتى سبقت غضبى، وحلمى سبق مؤاخذتى، وعفوى سبق عقوبتى، وأنا أرحم بهم من الوالدة بولدها.

### أخى الحبيب:

إذا كان الحق سبحانه أرحم بالعبد من الوالدة بولدها، فكيف لا يُقبل العبد على طاعته، ويقلع عن معصيته، ويقدم بين يديه، ما يعود نفعه عليه، وقد قال سبحانه فى كتابه العزيز: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠].

قدم لنفسك خيرا ... ما دمتَ مالكُ مالكَ
وأعد جوابًا سريعا ... إذا سمعت سؤالك
فكل ما قد فعلته ... تراه ثم ينالك

نسألك يا ربنا يا نور السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا مجيب المضطرين، يا مغيث الملهوفين، يا من أظهر الجميل وستر القبيح، يا من لا تراه العيون، ولا تخالطه الظنون.

يا من له ستر على جميل ... هل لى إذا اعتذرت قبول
أبديتنى ورحمتنى وسترتنى ... كرمًا فأنت لمن رجاك كفيل
وعصيت ثم رأيت عفوك واسعًا ... وعلىَّ سترك دائمًا مسدول
فلك المحامد والمحاسن والثنا ... يا من هو المقصود والمسئول

إلهى: إن أعمالنا بضاعة مزجاة، لا يرجى لنا بمثلها النجاة، ولكن آمالنا مستمسكة بالعروة الوثقى من كرمك، فنسألك أن تزين صفحات أيامنا بأنوار العبادة، ونبهنا من نومة الغافلين، واجعلنا يا مولانا من عبادك الصالحين، اللهم عطر أفواهنا بطيب ثنائك، واجعل جوارحنا مستعدة للقائك، اللهم نقِّ صحائفنا من الآثام، واكتب لنا فيها السعادة على

الدوام، يا مقيل العثرات، يا غافر الزلات، يا بديع السموات ها أنا عبدك وها أنت ربى، ها أنا مستنصرك وها أنت حسبى، لا يحجبنا عنك سماء ولا أرض، ولا يحول بيننا وبين رحمتك ولطفك طول ولا عرض، ارحم غربتنا، وفك أسرنا، وأحسن خاتمتنا، واختم بالباقيات الصالحات أعمالنا، واغفر ذنوبنا بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين.

## العنصر الثالث

### • وصلوا الأرحام •

**أخى المسلم:**

وبعد أن سرنا بأرواحنا مع جبال البر، مع المطعمين للطعام، والمنفقين أموالهم فى سبيل الله، وبعدما تعلقت قلوبنا بحب الخير والبر، هاهو رسول الخير والبر محمد ﷺ يأخذ بأيدينا إلى ما فيه زيادة الحب والمودة والسلام، وبعدما أوصانا بإفشاء السلام ليعم الوئام، وبعدما أوصانا بإطعام الطعام، إنه يوصينا الآن بصلة الأرحام، فما هى الأرحام؟ ومن هو الواصل لها؟

### • الرحم، والواصل لها •

**الرحم:** هو موضع تكوين الجنين ووعاؤه فى البطن، والقرابة وأسبابها، ويذكر ويؤنث، وجمعه أرحام، وذوو الأرحام هم الأقارب، الذين ليسوا من العصبة ولا من الفروض كبنات الإخوة، وبنات الأعمام[1]

ويقال: بينهما رحمٌ، أى قرابة قريبة.

ويقال: ذو رحم محرم، وهو من لا يحل نكاحه بأى حال من الأحوال، كالأم، والبنت والخالة والعمة، والأخت وبنت الأخت. الخ.

فكلمة (الرحم) أصلها: رحم المرأة وهو ما يخرج منه الولد، فاستعير هذا اللفظ للقرابة لكونهم يخرجون من رحم واحدة.

**والرحم نوعان:**

رحم خاص، وهم قرابة الأب والأم الذين يحرم الزواج منهم.

ورحم عامة، وهم سائر الأقارب من النسب أو المصاهرة.

وقيل: الرحم العامة هم رحم الدين، والرباط الذى يربطك بأخيك المسلم، وهى من أقوى الروابط والصلات بين المسلمين، لأن رابطة النسب أو غيرها قد يعتريها الضعف لسبب من الأسباب، بل وربما تنتهى، لكن رابطة الدين، تقوى دائما، وتزداد قوة بمرور الزمن مادامت خالصة لله جل وعلا.

---

(١) المعجم الوسيط (ر ح م).

وها نحن نتوجه بهـذا السؤال إلى سيد الأنام، ونبى الملك العلام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فنقول له: من هو الواصل لرحمه؟

وها هو على جناح السرعة يجيب أمته، بإجابة كلها الفصاحة والبلاغة فهو الذى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤] فيقول فى الحديث الذى يرويه عنه الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «**ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها**»(١)

قال ابن حجر: قال الطيبى: المعنى ليست حقيقة الواصل ومن يعتد بصلته من يكافىء صاحبه بمثل صلته، ولكنه من يتفضل على صاحبه وقال شيخنا فى «شرح الترمذى»: المراد بالواصل فى هذا الحديث: الكامل، فإن فى المكافأة نوع صلة، بخلاف من إذا وصله قريبه لم يكافئه فإن فيه قطعًا بإعراضه عن ذلك.

ويقول: إن الوصل ثلاث درجات: مواصل، ومكافئ، وقاطع.

فالواصل من يتفضل ولا يتفضل عليه، والمكافئ الذى لا يزيد فى الإعطاء على ما يأخذ، والقاطع الذى يتفضل عليه ولا يتفضل. وكما تقع المكافأة بالصلة من الجانبين كذلك تقع بالمقاطعة من الجانبين، فمن بدأ حينئذ فهو الواصل، فإن جوزى سُمى من جازاه مكافئًا(٢) انتهى.

ولذلك يقول سيد الخلق فيما يرويه عنه حذيفة رضي الله عنه: «**لا يكن أحدكم إمعة يقول: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا ألا تظلموا**»(٣)

وها هو رجل يأتى إلى طبيب القلوب، ليستفسر منه عن أمر حدث بينه وبين رحمه، جاء ليسأله عن قرابته وذوى رحمه الذين يصلهم ولكنهم يقطعونه، الذين يعاملهم بالإحسان والمودة، ولكنهم يقابلون ذلك بالإساءة والجفاء، الذين يعاملهم بالمعروف والحب، فيبادلونه نكرانًا وبغضًا فماذا يفعل نحو هؤلاء؟ يروى لنا قصة هذا الرجل أبو هريرة رضي الله عنه فيقول: إن رجلاً قال: يا رسول الله، إنَّ لى قرابة أصلهم ويقطعوننى، وأحسن إليهم ويسيئون إلى، وأحلم عنهم، ويجهلون على.

---

(١) رواه البخارى (٥٩٩١) فتح وأحمد فى مسنده (٦٧٨٥) وذكره الألبانى (٥٣٨٥) فى صحيح الجامع.
(٢) فتح البارى لابن حجر العسقلانى ١/ ٤٣٧ المكتبة السلفية.
(٣) رواه الترمذى وحسنه (٢٠٠٧).

فقال ﷺ: «لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»(١)

والمَلّ هو: الرماد الحار، فكأنك تطعمهم الرماد الحار وذلك كناية عما يكون لهم من الذنب والإثم لتقصيرهم فى حق هذا الإنسان الذى يصلهم.

لكن ما ثواب الذى يصل رحمه؟

## • القرآن يهتم بصلة الأرحام •

يقول سبحانه: ﴿أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا...﴾ [الرعد: ١٩: ٢٣] فسماهم الله رب العالمين تبارك وتعالى «أولو الألباب» فمن هم؟ ذكر أن صفاتهم أنهم:

١- يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق.

٢- وأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل - يقول القرطبى عقب هذه الآية: ظاهر فى صلة الرحم، وهو قول قتادة وأكثر المفسرين(٢)

٣- أنهم يخشون ربهم.

٤- أنهم يخافون سوء الحساب.

٥- أنهم الصابرون.

٦- أنهم الذين يقيمون الصلاة.

٧- أنهم الذين ينفقون فى سبيل الله سرًا وعلانية.

٨- أنهم الذين يدرءون بالحسنة السيئة.

ثم بينت الآية جزاءهم وثوابهم فقال سبحانه: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا...﴾ [الرعد: ٢٢، ٢٣] وعلي العكس فقد ذكرت السورة أولئك الذين يقطعون أرحامهم فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢٥] قال القرطبى بعدها: أى من الأرحام(٣) ولكن عاقبتهم كانت وخيمة أليمة، إن لهم عند الله اللعنة، وسوء العاقبة وذلك بسبب قطعهم للرحم.

وقد افتتحت سورة النساء بهذا النداء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] أى اتقوا الأرحام أن تقطعوها فالآية المباركة

(١) رواه مسلم (٢٥٥٨) وأحمد (٧٩٧٩).

(٢) تفسير القرطبى ٣٥٣٩/٥.

(٣) المرجع السابق ٣٥٤٣/٥

فيها أمران بالتقوى: ﴿اتَّقُوا ربَّكُمُ﴾، ﴿واتَّقُوا اللَّهَ﴾ والرب لفظ يدل على التربية والإحسان، والإله لفظ يدل على القهر والهيبة، فأمرهم أولا بالتقوى على جهة الترغيب، ثم أعاد الأمر على جهة الترهيب(١) وعطف الرحم على لفظ الجلالة فى جهة الترغيب للاهتمام بها، والتحذير من قطعها، ولذلك ختم الآية بما يكون كالوعد والوعيد والترغيب والترهيب فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ فهو الرقيب الذى يحفظ عليك أفعالك، ويطلع على أسرارك ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] فهو يشبه التهديد، فكأنه يقول: إن وصلك الأرحام حباً فىَّ وابتغاء مرضاتى، وتنفيذاً لأوامرى فأنت عليك مطلع ورقيب، وإن وصلتهم فى الظاهر ابتغاء الدنيا والرياء والسمعة فأنت عليك رقيب وشهيد. فدل ذلك كله على تعظيم حق الرحم وتأكيد النهى عن قطعها، قال تعالى:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] وفى نفس السورة يدعونا رب العالمين ويأمرنا بالإحسان إلى ذوى القربى -وهم الأرحام- بعد أمره لنا ببر الوالدين والإحسان إليهما فيقول سبحانه: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦] ثم يأتى الترهيب والوعيد الشديد لمن يقطع الرحم بالطرد من رحمة الله واللعن، والصمم والعمى وذلك فى قوله جل وعلا ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾.

**يقول ابن كثير**: فالآية الكريمة نهى عن الإفساد فى الأرض عمومًا، وعن قطع الأرحام خصوصًا، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح فى الأرض، وصلة الأرحام وهو الإحسان إلى الأقارب والأفعال وبذل الأموال(٢)

## • الترغيب فى صلة الرحم وأثره •

١- **صلة الرحم هى ثمرة الإيمان بالله تعالى**: لقد جعل الشارع الحكيم نبى الرحمة ﷺ صلة الرحم ثمرة من ثمرات الإيمان بالله تبارك وتعالى واليوم الآخر، فقد جاءه ﷺ فى يوم من الأيام رجل من خثعم فقال أنت الذى تزعم أنك رسول الله؟ قال: **«نعم»** فقال: يا رسول الله، أى الأعمال أحب إلى الله؟ قال: **«الإيمان بالله»** فقال: ثم مه؟ قال: **«صلة الرحم»** قال: ثم مه؟ قال: **«ثم الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر»**(٣) فقد جعلها النبى ﷺ من أحب الأعمال إلى الله بعد الإيمان به سبحانه.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٨/ ٦٥٤ ط/ دار الغد بتصرف. (٢) تفسير ابن كثير جـ٤/ ١٧٨

(٣) رواه أبو يعلى بإسناد جيد قاله المنذرى فى الترغيب ٣/ ٣٣٦ وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨/ ١٥١ ثم قال: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير «نافع الطاجى» وهو ثقة وحسنه الألبانى فى ص.ج (١٦٤).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»**(١)

**٢- أن صلة الرحم تزيد فى العمر وتبارك فى الرزق:**

وهما أمران محبوبان مرغوبان «زيادة العمر وكثرة الرزق»

فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من أحبَّ أن يبسط له فى رزقه، أو ينسأ له فى أثره، فليصل رحمه»**(٢)

وقد يتوهم البعض أن ذلك يعارض قوله تعالى. ﴿**فَإِذَا جاء أَجَلُهُمْ لا يسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يسْتَقْدِمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٤].

**فقد ذكر ابن حجر فى فتح البارى**(٣):

أن الجمع بينهما من وجهين: **الأول**: أن هذه الزيادة كناية عن البركة فى العمر بسبب توفيقه للطاعة، وعمارة وقته بما ينفعه فى الآخرة، وصيانته عن تضييعه فى غير ذلك. وحاصله، أن صلة الرحم تكون سببًا للتوفيق للطاعة، والصيانة عن المعصية، فيبقى الذكر الجميل، فكأن الواصل لم يمت. أما بالنسبة لتكثير المال فالمراد وضع البركة فيه بحيث يكفى القليل منه ما لا يكفى الكثير مما لم يبارك فيه، وبحيث يستفيد منه صاحبه فيما يعود عليه بالخير العاجل والآجل، فيتقوى به على طاعة الله وعمل الخير

**الوجه الثانى:**

أن الزيادة على حقيقتها، وذلك بالنسبة إلى علم الملك الموكل بالعمر، وأما الأول الذى دلت عليه الآية فبالنسبة إلى علم الله تعالى، كأن يقال للملك مثلا إنَّ عمر فلان مائة مثلاً إن وصل رحمه، وستون إن قطعها. وقد سبق فى علم الله أنه يصل أو يقطع، فالذى فى علم الله لا يتقدم ولا يتأخر، والذى فى علم الملك هو الذى يمكن فيه الزيادة والنقص، وإليه الإشارة بقوله: ﴿**يمحو اللَّهُ مَا يشاءُ ويثبِتُ وعندهُ أُمُّ الْكتَابِ**﴾ [الرعد: ٣٩] فالمحو والإثبات بالنسبة إلى ما فى علم الملك، وما فى علم أم الكتاب هو الذى فى علم الله تعالى فلا محو فيه ألبتة، ويقال له: القضاء المبرم، ويقال للأول: القضاء المعلق. والوجه الأول أليق بالحديث(٤)

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده (١٩٣ ٢).

(٢) رواه البخارى (٥٩٨٥) ومسلم وأحمد فى مسنده والبخارى فى الأدب المفرد (٥٦، ٥٧).

(٣) فتح البارى لابن حجر ١٠/ ٤٣٠.

(٤) المرجع السابق.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من سره أن يبسط له فى رزقه، وأن ينسأ له فى أثره، فليصل رحمه**»(١)

فكل إنسان يتمنى ويحرص كل الحرص على طول العمر، وسعة الرزق، وذلك لما ورد فى حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يهرم ابن آدم وتشب منه اثنان: الأمل، والحرص**»(٢) أى الأمل فى طول العمر، والحرص على جمع المال.

وحديث أنس أيضًا فى حب المال والزيادة منه «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما واديًا ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب**»(٣)

لكن ما الحكمة فى أن هذين الأمرين أحبُّ الأشياء إلى ابن آدم؟

إن ابن آدم يحب البقاء ليتنعم والمال من الوسائل التى تكون سببًا فى تنعمه، لأنه من أعظم الأسباب فى دوام الصحة التى قد ينشأ عنها طول العمر.

**٣- أن صلة الرحم تكون سببًا من أسباب دخول الجنة:**

وهذا أيضًا من الأمور المرغوب فيها، وإن كان الطريق إليها شاقًّا لما يعتريه من قطاع له.

فعن أبى أيوب الأنصارى رضي الله عنه - أنَّ رجلاً جاء إلى النبى ﷺ، فقال: يا رسول الله، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة، ويباعدنى عن النار.

فقال النبى ﷺ: «**تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصل رحمك**» وكان ممسكًا بزمام ناقته، فقال له «**دع الناقة**» ولما أدبر الرجل، قال ﷺ: «**لو تمسك بما أمرته دخل الجنة**»(٤)

وكما أن صلة الرحم تكون سببًا قويًّا من أسباب دخول الجنة، فإن قاطعها يدخل النار بنص حديث النبى المختار «**لا يدخل الجنة قاطع رحم**»(٥)

**٤- أن صلة الرحم تعمر الديار:**

وذلك لما روى عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها «صلة الرحم، وحسن الجوار، أو حسن الخلق يعمران الديار، ويزيدان فى الأعمار»(٦)

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود فى سننه (١٦٩٣) جـ١/ ٤٦٩ وصححه الألبانى.

(٢) رواه مسلم (١٠٤٧) والترمذى (٢٤٥٥) وقال حسن صحيح، وابن ماجه فى الزهد (٤٢٣٤) وأحمد فى مسنده (١٢٠٨١).

(٣) رواه مسلم والبخارى وأحمد ( ٤٦) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢٨٨).

(٤) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده (٥٨٥٦) والترمذى وابن ماجه.

(٥) رواه البيهقى، ورواه أبو داود وصححه الألبانى (١٦٩٦) والبخارى فى الأدب المفرد (٦٤).

(٦) رواه أبو يعلى (٤٥٣٠) وأحمد فى مسنده (٢٥١٣٥) وصحح إسناده حمزة الزين فى تخريج المسند جـ١٧/ ٥٥٤

**٥- أن صلة الرحم تحبب الأهل:**

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة فى الأهل، مثراة فى المال، منسأة فى الأثر**»(١)

**٦- أن صلة الرحم تكون سببًا فى وصل الله لواصلها:**

فعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: أنا الله، وأنا الرحمن خلقت الرحم، وشققت لها اسمًا من اسمى، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته، أو قال: بتته**»(٢)

فالجزاء من جنس العمل من وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الرحم شجنة من الرحمن تقول: يا رب إنى ظلمت، يا رب إنى قطعت، يا رب إنى.. إنى.. فيجيبها: ألا ترضين أن أقطع من قطعك، وأصل من وصلك**»(٣)

**٧- أن واصل الرحم من خير الناس، وأكرمهم خلقًا:**

فقد روى عن درة بنت أبى لهب رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، من خير الناس؟ قال: «أتقاهم لله، وأوصلهم لرحمه، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر».

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت. يا رسول الله، أخبرنى بفواضل الأعمال. فقال: «**يا عقبة صل من قطعك وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك**»(٤)

**٨- أن صلة الرحم تدفع عن صاحبها ميتة السوء:**

فعن على بن أبى طالب رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**من سره أن يُمدَّ له فى عمره، ويوسع له فى رزقه، ويُدفع عنه ميتة السوء، فليتق الله وليصل رحمه**»(٥)

---

(١) رواه الترمذى (١٩٧٩) وقال غريب، ورواه أحمد (٨٨٥٤) بإسناد حسن ورواه الحاكم وصححه ١/ ٨٩ ووافقه الذهبى.

(٢) رواه أحمد فى مسنده (١٦٨٦) بإسناد صحيح ورواه أبو داود (١٦٩٤) وصححه الألبانى ورواه الترمذى وقال حسن صحيح.

(٣) رواه أحمد (٢٩٥٦) صحح اسناده الشيخ أحمد شاكر فى تخريج المسند ورواه البخارى فى الأدب المفرد رقم (٦٥) وقال المنذرى فى الترغيب ٣/ ٢٣٩ رواه أحمد بإسناد جيد قوى وابن حبان فى صحيحه.

(٤) رواه الإمام أحمد فى مسنده بسند صحيح (٧ ٢٧٣) جـ١٨/ ٥٤٦ وذكره ابن الأثير فى أسد الغابة جـ٥/ ٢٧٨ وذكره المنذرى فى الترغيب ٣/ ٣٣٧ وقال: رواه أبو الشيخ ابن حبان فى الثواب والبيهقى فى الزهد.

(٥) رواه أحمد فى مسنده مطولاً بإسنادين الأول حسنه (١٧٢٦٧) والآخر صحيح (١٧٣٨٣) ورواه الحاكم وذكره المنذرى فى الترغيب ٣/ ٣٤٢

**٩- أن صلة الأرحام أربح الأعمال وأثقلها فى ميزان العبد:**

فعن أنس ﷺ قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار مالاً من نخل، وكان أحب ماله إليه «بيرحاء» وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها، ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزل قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنَّ الله يقول: وذكر الآية(١)

ثم قال: وإن أحب مالى إلى بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها، وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: **«بخ بخ ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وأرى أن تجعلها فى الأقربين»**(٢)

وكلمة «بخ» كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشىء أو المدح، أو الفخر فقال النبى ﷺ بعدها «ذلك مال رابح» وذلك إن جعلها فى الأقربين من ذوى رحمه، ولذلك سارع أبو طلحة، وقام مسرعًا مستجيبًا لرغبة الرسول الأعظم دون مناقشة، وقسمها كما فى باقى الحديث: فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه.

**• قدوة البشرية فى صلة الأرحام •**

**١- إمام الأنبياء والمرسلين محمد الأمين:**

وها نحن نقف مع سيد العالمين لنرى كيف كان يصل رحمه وأهله، مع أنه لم يكن لديه الأموال الكثيرة، ولا العقارات المتعددة، ولكن تتجلى صلة رحمه ﷺ فى أغلى من المال وهو الدين والدعوة إليه بكل رفق وحنان وأدب، ففى بداية دعوته إلى توحيد الله تعالى كانت الدعوة سرًا لمدة ثلاث سنوات، ابتدأ بقرابته وذوى رحمه.

وعن أبى هريرة ﷺ قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا، فعم وخصَّ، فقال: **«يا بنى كعب بن لوى أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذى نفسك من النار، فإنى لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبُلُها ببلالها»**(٣) والمراد بقوله: «غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها» أى إنى أعرف قرابتى وسوف أعطيها حقها من الصلة.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١٢١٢) بإسناد صححه الشيخ أحمد شاكر جـ٢/ ١٠٥ وذكره المنذرى فى الترغيب ٣/ ٣٣٥ وقال: رواه عبد الله بن أحمد فى زوائده والبزار بإسناد جيد والحاكم.

(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده (١٢٣٧٨) ومالك فى الموطأ، وأبو نعيم فى الحلية ٦/ ٣٣٨ والبيهقى فى سننه، والنسائى (٢ ٣٦) والدارمى (١٦٥٥) وأبو داود مختصراً (١٦٨٩) وصححه الألبانى.

(٣) رواه مسلم (٤ ٢) وأحمد فى مسنده (٦٧٣ ١) والبخارى فى الأدب المفرد (٤٨) ص٢٢

وقال الطيبى وغيره: شبه الرحم بالأرض التى إذا وقع عليها الماء وسقاها حق سقيها أزهرت، ورؤيت فيها النضارة، فأثمرت المحبة والصفاء، وإذا تركت بغير سقى يبست وبطلت منفعتها فلا تثمر إلا البغضاء والجفاء، ثم قال: «ببلالها» مبالغة بديعة وهى مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أى زلزالها الشديد الذى لا شىء فوقه، فالمعنى: أبلها بما اشتهر وشاع بحيث لا أترك منه شيئًا[1]

**٢- أطول الناس عمرًا وموقفه من صلة الرحم:**

ذلكم هو نبى الله نوح عَلَيْتَكِلِمْ الذى ظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، ولما لم يؤمن به إلا فئة قليلة، بعد إيذاء وتعذيب، دعا عليهم، فنصره الله عليهم، وجعله يتجهز ليقتحم بسفينته هذا العالم الطاغى الفاسق، ولما صنع سفينته أرشده ربه إلى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، وأهله من المؤمنين الصالحين، ودعا نوح ولده، وفلذة كبده إلى طريق النجاة والرشاد لكنه أبى وعاند، وردَّ قائلا: ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٤] ولما هلك مع الهالكين من الطغاة والمجرمين، توجه نوح إلى مولاه ليقول له: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] لكن مولانا أجابه: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ فعلم نوح أن الرحم إنما هى رحم الدين، فأهل الإيمان بعضهم أولياء بعض ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]

**٣- خليل الرحمن وموقفه من رحمه:**

ذلكم هو من سماكم المسلمين من قبل -إبراهيم عَلَيْتَكِلِمْ- ذلكم هو الذى قد ذكر الله أسوته فى القرآن الكريم فقال سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة ٤].

فسيدنا إبراهيم عَلَيْتَكِلِمْ نصح أباه بلطف وبأسلوب كله حب وإشفاق على أبيه كما بينت سورة مريم، لكنه لم ينجح فى دعوته له إلى الإيمان بالله جل وعلا، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل قال له على سبيل التوبيخ والتهديد والوعيد: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] فردَّ عليه إبراهيم عَلَيْتَكِلِمْ بأدب النبوة: ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧] ثم وعده قائلاً: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] فقد كان صحابة الرسول

---

(١) فتح البارى لابن حجر ١/ ٤٣٦، ٤٣٧.

الأعظم يتخذونه أسوة فكانوا يستغفرون لآبائهم، فنزل القرآن وكأنه يقول لهم: اقتدوا بإبراهيم وتأسوا به فى كل شىء إلا استغفاره لأبيه، لأنه كان وعداً منه، لكنه لما تبين له، وعلم حقيقة أمره، وهو عداوته لله، وولايته للشيطان، تبرأ منه فقال سبحانه ليوضح الأمور للأمة المحمدية: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

## • صلة الرحم بين المؤمنين وغيرهم •

صلة الرحم بين أهل الإيمان وبين غيرهم ممن ليس بمسلم جائزة، بنص القرآن الكريم قال تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

ذكر الواحدى فى أسباب النزول، أن سبب نزول هذه الآية: عن الزبير بين العوام رضي الله عنه قال: قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنت أبى بكر الصديق بهدايا: ضباب (نوع من الحلوى) وقرظ وسمن - وهى مشركة، فأبت أسماء أن تقبل الهدية، وأن تدخلها بيتها، فسألت عائشة النبى ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، فأمرها أن تقبل هديتها، وأن تدخلها بيتها[(١)]

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول، جهاراً غير مسر: «**إنَّ آل أبى فلان ليسوا بأوليائى، إنما وليِّـىَ الله، وصالح المؤمنين، ولكنهم لهم رحم أبلُّها ببلالها**»[(٢)]

**قال الشيخ زكريا فى التحفة:** المراد بفلان أبو طالب، أو أبو العاص بن أمية، والمراد من آله، من لم يسلم منهم. وقيل: إن الراوى أبهمه لخوف مفسدة تترتب على ذكره[(٣)]

**وقال ابن حجر:**

وقد وقع فى شرح المشكاة (المعنى): أنى لا أوالى أحداً بالقرابة، وإنما أحب الله تعالى لما له من الحق الواجب على العباد، وأحب صالح المؤمنين لوجه الله تعالى، وأوالى من أوالى بالإيمان والصلاح سواء أكان من ذوى رحم أم لا، ولكن أرعى لذوى الرحم حقهم لصلة الرحم[(٤)]

**وعن عبد الله بن دينار قال:** سمعت أنَّ ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يقول: رأى عُمر حُلة سِير -أى ثوب رقيق جديد- تباع، فقال: يا رسول الله، ابتع -أى اشتر- هذه والبسها يوم الجمعة، وإذا جاءك الوفود. قال: «**إنما يلبس هذه من لا خلاق له**» فأتى النبى ﷺ منها بحُلَلَ، فأرسل إلى عمر بحلة، فقال عمر: كيف ألبسها، وقد قلت فيها ما قلت؟ قال:

(١) رواه الإمام أحمد، وذكره الواحدى فى أسباب النزول ص٣٥٦ وابن كثير فى التفسير جـ٤/ ٣٤٩

(٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) دليل الفالحين ٢/ ١٧٢ لابن علان.

(٤) فتح البارى لابن حجر ١/ ٣٤٥

**«إنى لم أعطكها لتلبسها، ولكن تبيعها أو تكسوها، فأرسل بها عمر إلى أخ له من أهل مكة قبل أن يسلم»**(١)

قال العلماء: فى هذا الحديث جواز صلة القريب الكافر والإحسان إليه بالهدية.

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودى يخدم النبى ﷺ، فمرض، فأتاه النبى ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال: «أسلم» فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم، فأسلم، فخرج النبى ﷺ وهو يقول: **«الحمد لله الذى أنقذه من النار»**(٢)

## • عقوبة قاطع الرحم •

### أخى المسلم:

وكما علمت أن واصل الرحم له فضائله، وله مميزاته، فكذلك قاطع الرحم له عقوبته وله حسابه عند الله يوم القيامة فمن عقوباته ما يأتى:

**١- قاطع الرحم تحرم عليه رائحة الجنة:**

أ- فعن أبى موسى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن خمر، وقاطع رحم، ومصدِّقٌ بالسحر..»**(٣)

ب- وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: **«إن من أربى الربا الاستطالة فى عرض المسلم بغير حق، وإن هذه الرحم شجنة من الرحمن عز وجل فمن قطعها حَرَّم الله عليه الجنة»**(٤)

ج- وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«لا يدخل الجنة قاطع رحم»**(٥)

د- وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: **«إنَّ الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك لك ثم قال رسول الله: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾**(٦) [محمد: ٢٢:٢٤].

---

(١) رواه البخارى وأحمد (٤٩٧٨).

(٢) رواه البخارى فى الجنائز وأحمد (١٣٩١٢) وأبو داود (٩٥ ٣) وصححه الألبانى.

(٣) رواه أحمد فى مسنده (١٩٤٦١) جـ١٤/ ٥١٥ بسند صحيح ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى وذكره الهيثمى فى المجمع وقال: رواه أحمد وأبو يعلى، ورجال أحمد وأبو يعلى ثقات ٥/ ٧٤

(٤) رواه أحمد (١٦٥١) بإسناد صححه الشيخ أحمد شاكر فى المسند ورواه أبو داود (٤٨٧٦) وصححه الألبانى فى سنن أبى داود والسلسلة الصحيحة (١٤٣٣).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) رواه البخارى ومسلم.

● **قال القاضى عياض.**

الرحم التى تقطع وتوصل وتبر إنما هى معنى من المعانى، ليست بجسم، وإنما هى قرابة ونسب تجمعه رحم والدة ويتصل بعضه ببعض فسمى ذلك الاتصال رحمًا، والمعنى لا يتأتى منه القيام ولا الكلام، فيكون ذكر قيامها هنا وتعلقها ضرب مثل، وحسن استعارة على عادة العرب فى استعمال ذلك

والمراد تعظيم شأنها وفضيلة واصليها وعظيم إثم قاطعيها بعقوقهم.

ويجوز أن يكون المراد قام ملك من الملائكة وتعلق بالعرش، وتكلم على لسانها بهذا، بأمر الله تعالى[(١)]

**٢- قاطع الرحم عقوبته معجلة فى الدنيا قبل الآخرة:**

فعن أبى بكرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «**ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخر له فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم**»[(٢)]

**٣- قاطع الرحم لا يقبل الله منه عملاً:**

فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله قال: «**إن أعمال بنى آدم تعرض كل خميس ليلة الجمعة فلا يقبل عمل قاطع رحم**»[(٣)]

**٤- قطع الأرحام يمنع نزول الرحمة:**

فعن عبد الله بن أبى أوفى قال كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ، فقال:

«**لا يجالسنا اليوم قاطع رحم**» فقام فتى من الحلقة، فأتى خالة له كان قد قطعها بعض الشيء، فاستغفر لها، واستغفرت له، ثم عاد للمجلس، فقال النبى ﷺ: «**إنَّ الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم..**»[(٤)]

**٥- قطيعة الأرحام من أبغض الأعمال:**

لأنها ترضى الشيطان، وتغضب الرحمن، وتمحق الأعمار، وتخرب الديار

فلقد سأله الرجل الخثعمى قائلاً أى الأعمال أبغض إلى الله؟ قال: **الإشراك بالله** قال: ثم مه؟ قال: **قطيعة الرحم**»[(٥)]

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٦/ ١١٢

(٢) رواه أبو داود (٢ ٤٩) وصححه الألبانى وابن ماجه (٤٢١١) وأحمد فى مسنده (٢٥٣ ٢) والترمذى وقال: حسن صحيح، الحاكم وصححه والبخارى فى الأدب المفرد (٦٧) ص٢٦

(٣) رواه أحمد (٢٢١ ١) بإسناد صححه حمزة الزين ٩/ ٤٣٣ وصححه الهيثمى فى المجمع ٨/ ١٥١

(٤) رواه البخارى فى الأدب المفرد (٤٩)

(٥) سبق تخريجه.

## • موعظة •

**أيها المسلم:**

استيقظ من غـفلتك، وهب من رقدتك قبل أن يدعى إليك الطبـيب بجميع الدواء، فلا يرجى لك مما نزل بك الشفاء، ثم يقال: فلان قـد أوصى وجميع ماله أحصى، قد تبرأ من الدنيا وعلائقها، وأقبل إلى الآخرة وحقائقها.

ثم ضعـف جنانك، وثقل لسـانك، وانقطع كلامـك، وكثرت خطـوبك، وعظمت كروبك وعُـرضت عليك عند كشف الغطاء ذنـوبك، وقد اشتدت الأحـزان، وعلا صراخ النسـوان، وحزن الصـديق الودود، وفرح العـدو الحسـود، وقد انتزع مـلك الموت روحك الضعـيف، وعرج به إلـى مولاك اللطيف، ليـجازيك على مـا قدمت فى سـالف الأيام، ويسألك عما اكتسبت من الحلال والحرام، ويؤمر بك إما إلى جنة عالية ذات نعيم وخلود، وإما إلى نار حامية ذات جحيم ووقود(١)

فأقبل على الله يا عبد الله، وصل رحمك ليصلك ربك اللطيف، صل رحمك يا من غوتك نفسك بالعدوان، وسارت بك فى طريق الشيطان، تب إلى ربك واسأله الغفران

**يا نـفس تـوبى عن فــعـال منـكره ... واسـعى إلى دار البـقا مـستـبشـره**
**يا نـفس فـاز القـوم من رب العـلا ... بالـعـفـو عن زلاتـهم والمـغـفــره**
**يا نـفس قـد قطعـوا النهـار لربـهم ... صـومًا وفـازوا بالعـلا فى الآخـره**
**يا نفس ويـحك اللمـتاب فـبادرى ... من قـبل أن تأتى الـذنوب مـسطره**
**يا نفـس جدى فـى التـقى وتزودى ... عـمـلا وكونـى للقـا مـسـتشـعـره**
**يا نفس تـوبى اليوم من قـبل الردى ... فـعسى تكـونى فى غد مـستـبشـره**
**يـا نفـس آه من الـذنوب وكـلُّهــا ... يوم القيـامة فى الكتاب مـحرره(٢)**

إلهى وسيدى ومولاى، قد آن الرحيل إليك، وأزف القدوم عليك، ولا عذر لى بين يديك غيـر أنك العفو وأنا العـاصى، وأنت الرحيم وأنا الجـانى، وأنت السيد وأنا الـعبد، أسألك يـا منفس كربة كـل مكروب، ويا كاشف الضـر عن أيوب، يا من نجى نـوحًا من الغـرق، وإبراهيم من الحـرق، ويونس من الظلمـات، يا من سلمـت موسى من الطـغاة، وأعذت محمـدًا حبيبك من شيـاطين الإنس والجن، أسألك أن تلهمنا القـيام بحقك، وأن تبـارك لنا فى الحلال من رزقـك، وأن لا تفضـحنا بين خلقك، يـا قاضى الحاجـات، ويا مجيب الدعوات هب لنا ما سألناه، وحقق رجـاءنا فيما تمنيناه، وأذقنا برد عفوك، وحلاوة مغفرتك يا رب العالمين.

---

(١) بستان الواعظين لابن الجوزى بتصرف. (٢) الروض الفائق.

## العنصر الرابع
## • وصلوا بالليل والناس نيام •

**أخى المسلم:**

وبعدما وصلنا الأرحام، وحذرنا من قطعها، فهيا، بنا لنقف مع العنصر الرابع من عناصر هذه الوصية الجامعة لأصول الخير والبر، وهو قول الرسول الأعظم: «**وصلوا بالليل والناس نيام**» لكن كما تعلم أن الصلوات متعددة، ومتنوعة، وخاصة النوافل بالليل والنهار، لكن ما السر فى تخصيص صلاة الليل بالذات؟.

### • لماذا الليل بالذات؟ •

لأن الليل هو موسم تتنزل فيه الرحمات من رب البريات جل وعلا!.

لأن الليل هو الوعاء الزمنى الذى تناجى فيه الأرواح ربها! كان لأحد الصالحين جارية وكانت تقوم الليل، فسألها: ألا تنامين؟ فقالت: وكيف ينام من حبيبه لا ينام.

إنه الحبيب الأعظم، إنه رب العالمين سبحانه وتعالى.

| | |
|---|---|
| **يا حبيب القلوب أنت الحبيب** | **أنت أنسى وأنت منى قريب** |
| **يا طبيبًا بطبه يتداوى كل** | **ذى سقم فنعم الطبيب** |
| **طلعت شمس من أحب بليل** | **واستنارت فما تلاها غروب** |
| **إن شمس النهار تغرب ليلاً** | **وشموس القلوب ليست تغيب** |

لأن الليل هو منهل يرده أهل الإرادة كلهم، ولكنهم يختلفون فيما يريدون، وما يردون فالمحب يتنعم بمناجاة محبوبه، والخائف يبكى على ذنوبه، ويتضرع لطلب مرغوبه، والراجى يلح فى سؤال مطلوبه، وأما الغافل المسكين، فأحسن الله عزاءه فى حرمانه وفوات نصيبه يأتى الليل فيلجأ كل طالب لمطلوبه، فهذا قائم يصلى بين يدى مولاه، وذاك رافع يديه يطلب عفوه ورضاه، وذاك يناجى إلاهه ومولاه، فيقول: «إلهى: أغلقت الملوك أبوابها، وبابك مفتوح للسائلين. إلهى غارت النجوم، ونامت العيون، وأنت الحى القيوم إلهى: فرشت الفرش، وخلا كل حبيب بحبيبه، وأنت حبيب المجتهدين، وأنس المستوحشين إلهى: وقف السائلون ببابك، ولاذ المذنبون بجنابك، وأرست سفينة المساكين على ساحل بحر كرمك، وكلهم يرجون الجواز إلى ساحة فضلك ونعمك.

إلهى: امتدت أيدى السائلين إلى وابل غيث جودك، وتقلقلت قلوب الخائفين من إزعاج وعيدك.

إلهى: فمن للسائلين إذا ردّوا؟ ومن للعاصين إذا طردوا عن بابك؟ ومن غيرك يقبل التائبين إذا رجعوا؟

فقم فى الدجى يا أيها المتعبد ... حتى متى فوق الأسرة ترقد
قم وادع مولاك الذى خلق الدجى ... والصبح وامض فقد دعاك المسجد
واستغفر الله العظيم بذلة ... واطلب رضاه فجوده لا ينفد

لأن الليل يظهر فيه إخلاص المخلصين، فى نور الصلة بالله جل وعلا، يظهر فى نور الإيمان، ونور الطاعة، قلوب المخلصين المحبين، لذلك يقول قتادة رحمه الله: «كان يقال: ما سهر الليل منافق»[(١)]

لأن الليل تظهر فيه الهمم العالية، فالهمة هى مقدمة الأشياء فمن صلحت همته، وصدقت نيته صلح سائر حاله.

من أجل ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «وكمال كل إنسان يتم بأمرين: همة ترقِّيه، وعلم يبصرهُ ويهديه، فإن مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين، أو من أحدهما. . »[(٢)]

فإلى أى الأمور تحب أن تكون همتك، أتكون همتك راقية عالية، تسمو بها فى الآفاق الروحانية، وتعلو بها فى سماء الحب الإلهى، الذى يرتقى بها إلى المطلب الأسنى، والحظ الأوفى، أم تكون من الصنف الآخر، الذى لا تنهض همته، فلا يزال فى حضيض طبعه محبوسًا، وقلبه منكوسًا، ذلك الذى أسام نفسه مع الأنعام راعيًا، واستطاب لقيمات الراحة والبطالة، واستلان فراش العجز والكسل، لكن كن مشمرًا، كن عالى الهمة كما قال الجيلانى رحمه الله لمريديه: «سيروا مع الهمم العالية»[(٣)] كن عالى الهمة بقلبك وقالبك، مثل الطائر الذى كلما علا فى طيرانه بعد عن الآفات والأعداء، ورحم الله الإمام ابن القيم حين قال: «مثل القلب، مثل الطائر. كلما علا، بعد عن الآفات، وكلما نزل احتوشته الآفات»[(٤)]

## • القرآن الكريم يرغب فى قيام الليل •

### أخى المسلم:

هيا بنا لنقلب صفحات هذا النور الربانى، ونقف مع آيات الكتاب الإلهى، الذى أعجز الفصحاء، وأضعف البلغاء، لكى نستمع إليه وهو يرغب الأمة المحمدية فى قيام الليل فها هى سورة الذاريات تتحدث عن أوصاف المتقين، وسمات الفائزين بنعيم رب العالمين فتقول: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ...﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨] تأمل كيف وَصف القرآن حالهم! لم يقل: كانوا ما يهجعون من الليل إلا قليلا، لكنه قدَّم «قليلا» فما السر فى ذلك؟

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٣٣٨
(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم جـ١/ ٢١٤ دار ابن عفان.
(٣) الفتح الربانى لعبد القادر الجيلانى
(٤) الداء والدواء لابن القيم.

**يقول الفخر الرازى:**

«إنَّ تقديم «قليلاً» فى الذكر ليس مجرد السجع حتى يقع يهجعون -أى ينامون- ويستغفرون فى أواخر الآيات، بل فيه فائدتان:

**الأولى:** هى أن الهجوع راحة لهم، وكان المقصود بيان اجتهادهم وتحملهم السهر لله تعالى، فلو قال: كانوا يهجعون كان المذكور أولاً راحتهم، ثم يصفه بالقلة.

وربما يغفل الإنسان السامع عما بعد الكلام، فيقول: إحسانهم، وكونهم محسنين بسبب أنهم يهجعون، فإذا قدَّم قوله «قليلا» يكون السابق إلى الفهم قلة الهجوع.

**الثانية:** فى قوله: ﴿مِّنَ اللَّيْلِ﴾ وذلك لأن النوم القليل بالنهار قد يوجد من كل أحد، وأما الليل فهو زمان النوم لا يسهره فى الطاعة إلا متعبد مقبل»(١).

ثم يقول: «وأنه تعالى مدحهم بقلة الهجوع -النوم- ولم يمدحهم بكثرة السهر، وما قال: كانوا كثيراً من الليل ما يسهرون فما الحكمة فيه، مع أن السهر هو الكلفة والاجتهاد لا الهجوع؟ نقول: إشارة إلى أن نومهم عبادة، حيث مدحهم الله بكونهم هاجعين قليلاً، وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى، وهو الاستغفار فى وجوه الأسحار ومنعهم من الإعجاب بأنفسهم والاستكبار..»(٢)

والأسحار جمع سحر وهو السدس الأخير من الليل.

**يقول القشيرى:** «ينزلون أنفسهم فى الأسحار، منزلة العاصين، فيستغفرون استصغاراً لقدرهم واستحقاراً لفعلهم»(٣)

ويقول الحسن البصرى -رحمه الله- «بلغنى أن ريحًا من الجنة تهب وقت السحر خاصة فتحرك أشجار الجنة، فبرد السحر وطيبه، إنما هو مما يخرج من خلال تلك الأشجار»(٤)

ويروى أن داود عليه السلام، قال: يا رب، أى وقت أقوم لك؟ قال: لا تقم أول الليل، ولا آخرة، ولكن قم وسط الليل حتى تخلو بى وأخلو بك، وارفع إلىَّ حوائجك.

**وقالوا:**

| | |
|---|---|
| **امنع جفونك أن تذوق مناما** | **واذر الدموع على الخدود سجاماً** |
| **واعلم بأنك ميت ومحاسب** | **يا من على سخط الجليل أقاما** |
| **لله قوم أخلصوا فى حبه** | **فرضى بهم واختصهم خداما** |

---

(١)، (٢) تفسير مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازى جـ٢٨/٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩ باختصار ط/ دار الغد

(٣) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلى.

(٤) المواعظ والمجالس لابن الجوزى ص١٠٩

قوم إذا جن الظلام عليهم ... باتوا هنالك سجداً وقياما
خمص البطون من التعفف ضمرا ... لا يعرفون سوى الحلال طعاما[(١)]

فتأمل كل هذا أخي المسلم، وتأمل قول الله تعالى فى أوصاف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

**يقول صاحب الظلال فى آية الذاريات:**

«فهم الأيقاظ فى جنح الليل والناس نيام، المتوجهون إلى ربهم بالاستغفار والاسترحام، لا يطعمون الكرى إلا قليلاً، ولا يهجعون فى ليلهم إلا يسيرًا، يأنسون بربهم فى جوف الليل فتتجافى جنوبهم عن المضاجع، ويخف بهم التطلع فلا يثقلهم المنام..»[(٢)]

**ويقول فى آية الفرقان:**

«فهم يبيتون لربهم سجدا وقيامًا فيتوجهون لربهم وحده، ويسبحون له وحده، فهؤلاء قوم مشغولون عن النوم اللذيذ بما هو أروح منه وأمتع، مشغولون بالتوجه إلى ربهم، وتعلق أرواحهم وجوارحهم به، ينام الناس وهم قائمون ساجدون، ويخلد الناس إلى الأرض وهم يتطلعون إلى عرش الرحمن ذى الجلال والإكرام»[(٣)]

وتصف سورة السجدة عملهم فى الليل، وأحوالهم مع ربهم فيقول سبحانه وتعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

قال القرطبى: أى ترتفع وتنبو عن مواضع الاضطجاع، والمضاجع جمع مضجع، وهى مواضع النوم. ويحتمل عن وقت الاضطجاع، ولكنه مجاز، والحقيقة أولى، ومنه قول عبد الله بن رواحة:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الصبح ساطع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع[(٤)]

وقال الإمام القشيرى فى لطائفه:

«فى الظاهر: عن الفراش قيامًا بحق العبادة والجهد والتهجد. وفى الباطن: تتباعد قلوبهم عن مضاجعات الأحوال، ورؤية قدر النفس، وتوهم المقام، فإن ذلك بجملته حجاب عن الحقيقة، وهو للعبد سم قاتل، فلا يساكنون أعمالهم، ولا يلاحظون أحوالهم، ويفارقون مآلفهم، ويهجرون فى الله معارفهم.

والليل زمان الأحباب، قال تعالى: ﴿لتسكنوا فيه﴾ يعنى عن كل شغل وحديث سوى حديث محبوبكم. والنهار زمان أهل الدنيا، قال تعالى ﴿وجعلنا النهار معاشا﴾ [النبأ: ١١]

---

(١) تفسير القرطبى جـ٧/ ٤٩٤٨
(٢) تفسير سيد قطب (فى ظلال القرآن).
(٣) المرجع السابق ٥/ ٢٥٧٩
(٤) تفسير القرطبى ٨/ ٥٣٥٨ ط/ دار الغد.

أولئك قال لهم: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] إذا ناجيتمونا فى ركعتين فى الجمعة فعودوا إلى متجركم، واشتغلوا بحرفتكم. وأما الأحباب فالليل لهم، إن كانوا فى أنس القربة، فليلهم أقصر من لحظة[١]

وقال ابن مسعود ﷺ مكتوب فى التوراة: على الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[٢]

وقد جاء مثل هذا عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم قرأ النبى ﷺ قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

يقول القرطبى: قلت: وهذه الكرامة إنما هى لأعلى أهل الجنة منزلاً كما جاء مبينًا فى صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «سأل موسى عليه السلام ربه، فقال: يا رب، ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ فقال: هو ررجل يأتى بعد ما يدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أى ربِّ كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْك مَلِك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول: لك ومثله ومثله ومثله ومثله، فقال فى الخامسة: رضيتُ ربِّ. فيقول: لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك، فيقول: رضيت ربِّ. قال: فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدى، وختمت عليها، فلم تر عينٌ، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، ثم تلا: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ..﴾ [السجدة: ١٧][٣] ثم يقول سبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨].

ذكر القرطبى أنها نزلت فى على بن أبى طالب، والوليد بن عقبة بن أبى معيط. وقد أعجبنى تعليق الإمام القشيرى على هذه الآية فى لطائفه حيث يقول:

أفمن كان فى حال الوصال يجر أذياله كمن هو فى مذلة الفراق يقاس وباله؟!.

أفمن كان فى روح القربة، ونسيم الزلفة كمن هو فى هول العقوبة يعانى مشقة الكلفة؟!

أفمن هو فى روح إقبالنا عليه كمن هو فى محنة إعراضنا عنه؟

أفمن بقى معنا كمن بقى عنا؟ أفمن هو فى نهار العرفان، وضياء الإحسان كمن هو فى ليالى الكفران ووحشة العصيان؟

(١) لطائف الإشارات للإمام القشيرى ٥/١٤٢، ١٤٣ (٢) القرطبى ٧/٥٣٦٢. (٣) رواه مسلم.

أفمن أُيد بنور البرهان، وطلعت عليه شموس العرفان كمن رُبط بالخذلان، ووسم بالحرمان. لا يستويان ولا يلتقيان. هذا فى أعلى الفضائل، وهذا فى سوء الرذائل؟[١]

وقد أمر الله حبيبه محمدًا ﷺ بقيام الليل فقال له: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً**﴾ [المزمل: ١ ٥].

فعن قتادة قال: «افترض الله قيام الليل فى أول هذه السورة فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً، فأمسك الله خاتمتها فى السماء اثنى عشر شهرًا، ثم أنزل التخفيف فى آخرها، فصار قيام الليل تطوعًا من بعد فريضة قال: ﴿**علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله**﴾ فنسخت هذه الآية ما كان قبلها.

| | |
|---|---|
| **فيا أيها الغافل فى نومه** | **قم لترى لطف الكريم الجواد** |
| **مولاك يدعوك إلى بابه** | **وأنت فى النوم شبيه الجماد** |
| **ويبسط الكفين هل من تائب** | **من ذنبه هل منْ له مراد** |
| **وأنت من جنب إلى جنب** | **تدور فى الفرش ولين المهاد** |
| **يدعوك مولاك إلى قربه** | **وأنت تختار الجفا والبعاد** |

فقم أخى فمولاك يدعوك إلى بابه، يدعوك إلى قربه كل ليلة كما أخبر بذلك سيد القائمين الراكعين الساجدين محمد الأمين ﷺ فعن أبى هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضى ثلث الليل الأول، فيقول: أنا الملك، أنا الملك، من ذا الذى يدعونى فأستجيب له؟ من ذا الذى يسألنى فأعطيه؟ من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له، فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر**»[٢] ويأمر رب العالمين رسوله ﷺ بإحياء الليل وقيامه، والأمر للرسول أمر للأمة المحمدية: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً**﴾ [الإنسان: ٢٦].

قال القرطبى: «وسبحه ليلا طويلاً: يعنى التطوع فى الليل، قاله ابن حبيب، وقال ابن عباس وسفيان: كل تسبيح فى القرآن فهو صلاة»[٣]

جاء فى الأثر: «كذب من ادعى محبتى، فإذا جنه الليل نام عنى، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه، فها أنا ذا مطلع على أحبابى، إذا جنهم الليل، جعلت أبصارهم فى قلوبهم، فخاطبونى علىَ المشاهدة، وكلمونى على حضورى، غدًا أقر أعينهم فى جناتى».

---

(١) لطائف الاشارات.

(٢) رواه مسلم وأبو داود (١٣١٥) والبيهقى وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود جـ١/ ٣٦٠

(٣) تفسير القرطبى ١/ ٦٩٤١

**اللـيل لـى ولأحـبـابـى أحـادثـهم — قد اصطفـيتهم كى يسمـعوا ويعوا**

**لهـم قلوب بـأسـرارى لهـا ملـئت — على ودادى وإرشـادى لهم طبعوا**

**سروا فما وهنوا عـجزا ولا ضعفوا — وواصلوا حبل تقريبى فـما انقطعوا**

## • قطوف من حدائق السنة فى الحث على قيام الليل •

فى السنة النـبوية المطهرة أحـاديث كثيرة تبـين فضل قيام اللـيل، وما فيه من الخـير والثواب العظيم فهيا بنا لنطوف سويًا فى حدائق السنة لنجمع منها ثمارًا يانعة جامعة لتكون لنا عونًا على قيام الليل:

(١) عن أبى أمـامة ﷺ عن الـنبى ﷺ قال: «**علـيكم بقـيـام اللـيـل، فـإنه دأب الصالحين قبلكم، وهـو قربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئـات، ومنهاة عن الإثم، ومطردة للداء عن الجسد**»[١]

ففى هذا الحديث أن قيام الليل يوجب صحـة الجسد، ويطرد عنه الداء مثل الصيام وهو يكفر السيئات كما بين الرسول الأعظم ﷺ.

(٢) التهـجد يجعـل أصحابه مـوضع الحب والرحمـة من الله تعالى، ويبـاهى بهم ملائكتـه الكرام. فعـن أبـى الدرداء ﷺ أن النبى ﷺ قال: «**ثلاثة يحـبهـم الله ويضـحك إليهم، ويستـبشر بهم، فذكر منهم: الـذى له امرأة حسناء، وفراش حسن، فيـقوم من الليل، فيقـول الله تعالى: يذر شهوته فـيذكرنى، ولو شاء رقـد، والذى إذا كان فى سفر وكـان معه ركب، فسهروا ثم هجعوا، فقام من السحر فى سراء وضراء**»[٢]

(٣) أن الله تعالى يستـجيب دعاء المتهجـدين الذاكرين: فعن عمرو بن عنـبسة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أقرب مـا يكون العبد مـن ربه والرب من العبـد فى جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله فى تلك الساعة فكن**»[٣]

وعن عثمان بن أبى الـعاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تفتح أبواب الـسماء نصف الـليل، فيـنادى مناد: هل من داع فـيسـتـجاب له؟ هل مـن سائل فـيعطـى؟ هل من مكروب فيفرج عنه؟ فـلا يبقى مسلم يدعو بدعوة إلا استجاب الله تـعالى له إلا زانية تسعى بفرجها، أو عشارًا**»[٤] والعشار هو المكّاس.

---

(١) رواه الترمـذى (٣٥٤٣) فى الدعوات ورواه أحـمد والبيـهقى والحاكم والطبرانى فى الكبـير، وابن عساكر فى التاريخ وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٩٥٨).

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن

(٣) رواه الترمذى (٣٥٧٤) وقـال حسن صحيح ورواه بن خزيمة فى صـحيحه والحاكم وصـححه على شرط مسلم ووافقه الذهبى [illegible] ص ج (١١٨٤).

(٤) رواه الطبر[illegible] (٢٩٦٨)

(٤) أنَّ المتهجدين فى الليل يدخلون الجنة بغير حساب: فعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن النبى ﷺ قال: «**إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، جاء مناد ينادى بصوت يُسمع الخلائق: سيعلم الخلائق اليوم من أولى بالكرم، ثم يرجع فينادى: أين الذين كانوا: ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾** [النور: ٣٧] **فيقومون وهم قليل، ثم يرجع فينادى: ليقم الذين كانوا يحمدون الله فى السراء والضراء، فيقومون وهم قليل، ثم يرجع فينادى: ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فيقومون وهم قليل، ثم يحاسب سائر الناس**»(١)

(٥) أن المؤمن إذا أراد أن يعلو شأنه وقدره عند ربه ومولاه فعليه بقيام الليل: فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبى ﷺ، فقال: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت، فإنك مجزى به، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزّه استغناؤه عن الناس»(٢)

فسيدنا جبريل عليه السلام يلقن أمين الأرض والسماء محمداً ﷺ درسًا لكى يرشد أمته أن العمر وإن طال فمآله الفناء، وكل محاسب على عمله، ويأمر بالمحبة وحسن المعاشرة والتودد والتحلى بمكارم الأخلاق، وأخبره أن التهجد رفعة لصاحبه ورقى.

(٦) أن من قام الليل ولو بصلاة ركعتين، كتب عند الله من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات: فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا استيقظ الرجل من الليل، وأيقظ أهله، وصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات**»(٣)

(٧) أن سيد المرسلين ﷺ قد دعا بالرحمة من الله تعالى لمن أيقظ أهله لقيام الليل: فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته فصلت، فإن أبت نضح فى وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها فصلى، فإن أبى نضحت فى وجهه الماء**»(٤) ومعنى نضح: أى رش الماء برفق حتى تستيقظ، وخص الوجه بالذكر لشرفه ولأنه محل الحواس التى بها يحصل الإدراك.

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا، وذكره ابن كثير فى تفسيره ٤/ ٤٦ والقرطبى فى تفسيره جـ٧/ ٥٣٦١ وابن حجر فى المطالب العالية (٤٦٢٧).

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن قاله المنذرى فى الترغيب ١/ ٤٣١

(٣) رواه أبو داود (١٤٥١) وصححه الألبانى ١/ ٤ ورواه ابن حبان فى صحيحه وهو فى ص.ج رقم (٣٣٠).

(٤) رواه أبو داود (١٣٠٨ وقال الألبانى: حسن صحيح ورواه أحمد فى مسنده (٩٥٩٣) بسند صحيح والنسائى ( ١٦١) وابن خزيمة (١٤٨

(٨) أن قيام الليل عامل أساسى فى التخلص من المنكرات، ومساوئ الأخلاق: فعنه أيضا: أنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ، فقال: إنَّ فلانًا يصلى بالليل، فإذا أصبح سرق. فقال: **إنه سينهاه ما يقول**»[١] أى أنه لو داوم عليه لانتهى عما يفعله من المحرمات، أو الرذائل التى توجب العقوبة.

(٩) أن قيام الليل باب من أعظم أبواب الخير التى تكون سببًا فى دخول أهلها الجنة، والبعد بهم عن نار جهنم: فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة، ويباعدنى عن النار، فقال ﷺ: «**لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتصوم رمضان، وتحج البيت. ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفىء الماء النار، وصلاة الرجل فى جوف الليل، ثم قرأ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾**»[٢]

(١٠) أن قيام الليل أفضل الصلوات بعد المكتوبات: عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة: الصلاة فى جوف الليل، وأفضل الصيام بعد شهر رمضان صيام شهر الله المحرم**»[٣]

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية**»[٤]

(١١) أن المتهجد فى الليل لا يستطيع الشيطان أن يعقد على رأسه، لذلك يكون نشيطًا طيب النفس. فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإذا استيقظ، فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإنْ صَلَى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان**»[٥]

قيل: العقد حقيقة من باب عقد السواحر النفاثات فى العقد، وهن من يأخذن خيطًا فيعقدن منه عقدة ويتكلمن عليه بالسحر، فيتأثر المسحور بمرض ونحوه.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٩٧٤) جـ٩/ ٩ ٣ بسند صحيح والبيهقى وابن حبان (٢٥٦٠) وصححه الألبانى فى المشكاة (٢٣٧).

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢١٩١٥) ورواه الترمذى وحسنه وذكره الألبانى فى ص.ج رقم ٥١٣٦.

(٣) رواه مسلم وأحمد فى مسنده (٨٤٨٨) والترمذى والنسائى وابن ماجه، وأبو داود.

(٤) رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن قاله المنذرى فى الترغيب جـ١/ ٤٢٩ ورواه أبو نعيم فى الحلية جـ٤/ ١٦٧ وابن المبارك فى الزهد (٢٣) وذكره الهيثمى فى المجمع ٢/ ٢٥١ وقال: رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله ثقات، لكن الشيخ الألبانى ضعفه.

(٥) رواه البخارى، ومسلم وأحمد (٦ ٣ ٧٣) وأبو داود (٦ ١٣) وصححه الألبانى.

وقيل: إن العقد مجاز، شبه فعل الشيطان بالنائم بما يفعله الساحر بالمسحور.

والشيطان أو أحد أعوانه يضرب على كل عقدة بيده تأكيدًا وإحكامًا لما يفعله[١]

**لله مـا أطيب صفو الوداد ... وما ألذ القرب بعد البعاد**

**وما أشد الهجر من بعد ما ... قد كنت من جملة أهل الوداد**

**يا ناسيًا للعهد عاملتنا ... ثم تعللت بطيب الرقاد**

**بمن تشاغلت وأين الذى ... حصلت؟ كلا بل حرمت المراد**

**شمر من اليوم ودع ما مضى ... وكن عالمًا أن ما مضى لا يعاد**

## • رهبان الليل •

### أخى المسلم:

هيا بنا لنعيش سويًا مع ليالى الأنبياء والصالحين، لنراهم ما بين قائم وراكع ومستغفر، وداعٍ، وطالب، وتالٍ.

**فيا حسنهم والليل قد جنهم ... ونورهم يفوق نور الأنجم**

**أسحارهم بهم قد أشرقت ... وخلع الغفران خير القسم**

وأول وعلى رأس رهبان الليل وقوامه، أسوة البشر؛ أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام عماذا كان عن قيامهم؟

## • ١- قيام الأنبياء والمرسلين •

وعلى رأس هذه النخبة الطاهرة، إمام المرسلين، وقائد الغر المحجلين، ورحمة الله للعالمين؛ سيدنا محمد ﷺ.

**١- قيام سيد العالمين محمد ﷺ:**

لقد كان النبى ﷺ يحيى الليل بين يدى ربه تارة قائمًا يصلى، وتارة ساجدًا يدعو، وتارة يناجى مولاه، وتارة أخرى يتلو كتاب الله تعالى. فهيا لنلتقط لحظات من ليله.

فعن عطاء قال: «دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة ﵂ فقال عبد الله بن عمير حدثينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول الله ﷺ فبكت، وقالت: قام ليلة من الليالى، فقال: **يا عائشة، ذرينى أتعبد لربى**، قالت: قلت: والله إنى لأحب قربك، وأحب ما يسرك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلى، فلم يزل يبكى حتى بل حجره، ثم بكى، فلم يزل يبكى حتى بل الأرض، وقد جاء بلال يؤذن بالصلاة، فلما رآه يبكى، قال: يا رسول الله تبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال «**أفلا أكون عبدًا**

(١) فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى للشرقاوى.

شكوراً. لقد نزلت عليَّ الليلة آيات ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ.. ﴾ [آل عمران: ١٩٠][(١)]

هذه ليلة من ليالى الرسول الأعظم، فهيا لنراه فى ليلة أخرى، والذى ينقل لنا خبر هذه الليلة هو سيدنا أبو ذر الغفارى رضي الله عنه فيقول: صلى رسول الله ﷺ ليلة، فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فلما أصبح قلت: يا رسول الله مازلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها أو تسجد بها قال «**إنى سألت الله عز وجل الشفاعة لأمتى، فأعطانيها، وهى نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله عز وجل شيئًا**»[(٢)]

وعندما كان الرسول ﷺ يقرأ وهو في قيام الليل، ماذا كان شأنه؟ يقول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: كان ﷺ إذا مر بآية خوف تعوَّد، وإذا مرَّ بآية رحمة سأل، وإذا مرَّ بآية فيها تنزيه لله سبَّح[(٣)]

وهيا لنراقبه فى ليلة أخرى بالكاميرا الربانية، والذى يلتقط لنا مشهد هذه الليلة هو صحابى جليل قد شهد معه غزوة بدر الكبرى وهو «خباب بن الأرت» مولى بنى زهرة يقول: «راقبت رسول الله ﷺ فى ليلة صلاها رسول الله كلها حتى كان مع الفجر سلم رسول الله ﷺ من صلاته، فجاءه خباب، فقال: يا رسول الله بأبى أنت وأمى، لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت نحوها، فقال رسول الله: «**أجل إنها صلاة رغب ورهب، سألت ربى تبارك وتعالى ثلاث خصال، فأعطانى اثنتين، ومنعنى واحدة، سألت ربى ألا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا، فأعطانيها، وسألت ربى ألا يظهر علينا عدواً غيرنا فأعطانيها، وسألت ربى تبارك وتعالى أن لا يلبسنا شيعًا، فمنعنيها**»[(٤)] لقد صدق فيه وفي إخوته من الأنبياء قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠] ولو تتبعنا لياليه الشريفة العظيمة لطال بنا المقام، ولكن هيا لنذهب سويًا إلى نبى آخر، لنلتقط مشهداً من مشاهد ليله، فإلى هناك، إلى روح الله وكلمته عيسى عليه السلام

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه بإسناد جيد

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده بإسناد حسن (٢١٢٢٥) جـ١٥/ ٤٩٢ ورواه النسائى (١٠ ١) وابن ماجه ( ١٣٥).

(٣) رواه أحمد فى المسند (٤ ٢٣٢) ورواه مسلم، وأبو داود وصححه الألبانى فى السنن وفى صحيح الجامع برقم (٤٧٨٢)

(٤) رواه أحمد (٩٥١ ٢) بإسناد صحيح جـ ١٥/ ٣٨٩ والترمذى (٢١٧٥) فى الفتن وقال: حسن غريب صحيح ورواه النسائى

**٢- قيام روح الله وكلمته «عيسى عليه السلام»:**

ذلكم النبى الذى أنـزل الدنيا منزلتهـا فقال لحواريـيه حين سألوه: أين بيـتك؟ قال: «بيتى المساجد، وطيبى الماء، ولباسى الصـوف، وشعارى الخوف، وإدامـى الجوع ودابتى رجلاى، وسراجى بالليل القـمر، ومصطلاى فى الشتاء الشمس، وفاكـهتى وريحانى بقول الأرض، وجلسائى المساكين»[١]

ويوصى بنى آدم فـيقول: «يا بنى آدم الضـعيف: اتق الله حيث مـا كنت، وكن فى الدنيا ضيفًا، واتخـذ المساجد بيتًا، وعلم عينيك البكاء، وجسـدك الصبر، وقلبك التفكر، ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة»[٢]

وقد روى عن ابن عبـاس رضي الله عنهما أنه قال لرجل سأله عن الصيـام: «وإن شئت أنبأتك بصوم ابن العذراء البتـول عيسى ابن مريم، فإنه كان يصوم الدهر، ويأكـل الشعير، ويلبس الشعر، ويأكل ما وجد، ولا يسأل عمـا فقد، ليس له ولد يموت، ولا بيت يخرب، وكان أينما أدركه الليل صفن بين قدميه، وقام يصلى حتى يصبح»[٣]

**٣- قيام داود عليه السلام:**

ذلكم النبى الذى امتدح النبى ﷺ عبادته فقال فـى الحديث الذى رواه عنه عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «**أحبُّ الصيام إلى الله صيام داود، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصفه، ويقوم ثلثه، وينام سـدسه، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا**»[٤] كان ينام أول الليل ليستريح من عناء النهار، ولكى ينشط للصلاة والقيام بعد ذلك، وكان يقوم ثلثه، وينام السدس ليسـتريح من تعب القيام فى بقية الليـل، وإنما كان ذلك أحبٌّ إلى الله تعالى لأنه أخذ بالرفق على النفوس التى يخشى منهـا السآمة المؤدية إلى ترك العبادة، والله تعالى يحب أن يُوَالى فضله، ويديم إحسانه[٥]

يقول ابن كثير: «كان -أى داود- يقرأ الزبور بسبعين صوتًا بكون فيها، وكانت له ركعة من الليل يبكى فيها نفسه، ويبكى ببكائه كل شىء، ويصرف بصوته الهموم والمحموم»[٦].

وعن وهيب بن الورد قـال: «كان داود النبى عليه السلام قد جعل الليـل عليه وعلى أهل بيته دولاً، لا تمر بهم سـاعة من ليل إلا وفى بيته لله ساجدًا أو ذاكـرًا، فلما كان نوبة داود قام يصلى لنوبته، فـكأن دخل فى قلبه شىء مما هو فيه، وأهل بيتـه من العبادة، وكان بين

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٢/٨٨ وقال: رواه ابن عساكر والتبصرة لابن الجوزى ج١/ ٤٢٦.
(٢) البداية والنهاية ٢/٨٩. (٣) المرجع السابق ص١٦
(٤) رواه البخارى ومسلم وأحمد (٦٩٢١) وأبو داود (٢٤٤٨) والنسائى وابن ماجه والدارمى وذكره الألبانى فى ص.ج (١٧٠). (٥) فتح المبدى.
(٦) البداية والنهاية لابن كثير جـ٢/١٦ ط/ السلام العالمية.

يديه نهر، فأنطق الله عز وجل ضفدعًا من ذلك النهر، فناداه، فقالت: يا داود ما يعجبك مما أنت فيه، وأهل بيتك من العبادة؟ فو الذى أكرمك بالنبوة إنى لقائمة لله على رجل ما استراحت أوداجى من تسبيحه منذ خلقنى الله عز وجل إلى هذه الساعة، فما الذى يعجبك مما أنت فيه وأهل بيتك؟ قال: فتصاغر إلى داود ما هو فيه من العبادة وأهل بيته»(١)

**٤- قيام يحيى بن زكريا عليه السلام:**

ذلكم السيد الحصور الذى أثنى عليه رب العالمين بقوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩] وأثنى عليه بقوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥] سلام فى ثلاث مراحل: يوم الولادة، ويوم الموت، ويوم البعث.

**قال ابن كثير:** هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان، فإنه ينتقل فى كل منها من عالم إلى آخر، فيفقد الأول بعدما كان ألفه وعرفه، ويصير إلى الآخر ولا يدرى ما بين يديه، ولهذا يستهل صارخًا إذا خرج من بين الأحشاء، وفارق لينها وضمها، وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها، وكذلك إذا فارق هذه الدار -الدنيا- وانتقل إلى عالم البرزخ -بينها وبين دار القرار- وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات، وسكان القبور، وانتظر هناك النفخة فى الصور ليوم البعث والنشور، فمن مسرور ومحبور إلى حزين ومثبور، وما بين جبير وكسير، وفريق فى الجنة، وفريق فى السعير.

ولقد أحسن بعض الشعراء حين قال:

**ولدتك أمك يابن آدم باكيا ... والناس حولك يضحكون سرورا**
**فاحرص لنفسك أن تكون إذا بكوا ... فى يوم موتك ضاحكًا مسرورا**

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم سلّم الله على يحيى فى كل موطن منها(٢) ولقد كان يحيى بن زكريا عليهما السلام قوام الليل، كثير البكاء.

**ولذلك نراه يقول:** «إنَّ أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم فكذا ينبغى للصديقين ألا يناموا لما فى قلوبهم من نعيم المحبة لله عز وجل» ثم يقول: «كم بين النعيمين، وكم بينهما» وذكروا أنه كان كثير البكاء حتى أثر البكاء فى خديه من كثرة دموعه. وكان طعامه ورق الأشجار، والجراد، وماء الأنهار، ويقول لنفسه: من أنعم منك يا يحيى(٣) وفى يوم من الأيام يشبع يحيى عليه السلام من الطعام فى عشائه، فينام عن قيام الليل، وفى هذه الليلة تبدى له إبليس اللعين، فعرف منه السر فى نومه عن ورده، ولندع وهيب بن الورد رحمه الله ينقل لنا ذلك الأثر كما أورده صاحب الحلية فيقول: «إنَّ الخبيث

---

(١) حلية الأولياء جـ٨/ ١٤٩

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ٢/ ٥ وذكر نحوه ابن الجوزى فى التبصرة مختصراً جـ١/ ٣٧١.

(٣) المرجع السابق جـ٢/ ٥٣

تبدى ليحيى بن زكريا عليه السلام، فقال له: إنى أريد أن أنصحك، فقال: كذبت، أنت لا تنصحنى، ولكن أخبرنى عنْ بنى آدم، فقال: هم عندنا على ثلاثة أصناف، أما صنف منهم فهم أشد الأصناف علينا، نقبل حتى نفتنه ونستمكن منه ثم يفزع إلى الاستغفار والتوبة، فيفسد علينا كل شيء أدركناه منه، ثم نعود له، فيعود فلا نحن نيأس منه، ولا نحن ندرك منه حاجتنا، فنحن من ذلك فى عناء.

أما الصنف الآخر: فهم فى أيدينا بمنزلة الكرة فى أيدى صبيانكم نلقيهم كيف شئنا، قد كفونا أنفسهم.

أما الصنف الآخر: فهم مثلك معصومون لا نقدر منهم على شيء، فقال له يحيى: على هل قدرت منى على شيء؟ قال: لا! إلا مرة واحدة، فإنك قدمت طعامًا تأكله فلم أزل أشهيه لك حتى أكلت أكثر مما تريد، فنمت تلك الليلة، ولم تقم إلى الصلاة، كما كنت تقوم إليها. فقال له يحيى: لا جرم لا شبعت من طعام أبدًا حتى أموت.

فقال له الخبيث: لا جرم لا نصحت آدميًّا بعدك»(١)

فإذا كان هذا قيام الليل للأنبياء والمرسلين، فماذا عن قيام الليل من صحابة النبى المصطفى والرسول المجتبى، وتابعيهم، فإلى هناك.

## • صحابة الرسول ﷺ يحيون الليل(٢) •

أصحاب الرسول الأعظم، الذين اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه محمد ﷺ.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إنَّ الله نظر فى قلوب العباد، فوجد قلب محمد خير القلوب، فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر فى قلوب العباد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه ﷺ يقاتلون عن دينه..»(٣)

إنهم صفوة الخلق بعد الأنبياء، إنه الجيل الذى تربى على يد المصطفى ﷺ، إنهم المهاجرون والأنصار الذين حملوا دعوة النبى المختار، إنهم الذين قال فيهم النبى ﷺ: **«خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم»**(٤)

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم جـ٨/ ١٤٨

(٢) قد ذكرت فى كتابى (من وصايا القرآن) من قوام الليل من الصحابة (أنس بن مالك، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وتميم الدارى) فإن شئت فارجع إليهم وسنواصل مع قوام الليل من الصحابة الذين لم نكتبهم فى وصايا القرآن.

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٣٦٠٠) جـ٣/ ٥ ٥ بإسناد حسنه الشيخ أحمد شاكر ورواه أبو نعيم فى الحلية ١/ ٣٧٥ وأبو داود الطيالسى ص١٣٣ وذكره الهيثمى فى المجمع ١/ ١٧٨ وقال: رواه أحمد والبزار والطبرانى فى الكبير ورجاله موثقون.

(٤) رواه البخارى فى الشهادات وفى فضائل الصحابة ومسلم (٢٥٣٣) والترمذى (٣٨٥٨) وأحمد (٣٥٩٤).

**١- قيام الوزير المؤتمن الصديق أبى بكر:**

سيد كهول أهل الجنة، والعتيق من النار، فمن الذى رآه يقوم الليل؟ إن الذى رآه وهو يقوم الليل إنما هو سيد البشر محمد ﷺ كما روى أبو قتادة ﷺ قال: «خرج النبى ﷺ ليلة، فإذا هو بأبى بكر الصديق يصلى يخفض من صوته، قال: ومر بعمرو هو يصلى رافعًا صوته، قال: فلما اجتمعا عند النبى ﷺ، قال النبى ﷺ: «**يا أبا بكر مررت بك وأنت تصلى تخفض صوتك**» قال أبو بكر:

«قد أسمعت من ناجيت يا رسول الله» وقال لعمر: «**مررت بك وأنت تصلى رافعًا صوتك**» قال: يا رسول الله، أوقظ الوسنان، وأطرد الشيطان، فقال النبى ﷺ: «**يا أبا بكر ارفع من صوتك شيئًا**، وقال لعمر: **اخفض من صوتك شيئًا**»[1].

**٢- قيام فاروق الأمة ومحدثها عمر بن الخطاب:**

ذلكم الرجل الذى أعز الله به الإسلام، ذلكم الرجل الذى قال عنه الرسول الأعظم «إنّ الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»[2]

وقال عنه ابن مسعود: «كان إسلام عمر فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وإمارته رحمة.. كان من رهبان الليل»[3]

**يقول الحافظ ابن كثير:**

كان يصلى بالناس العشاء، ثم يدخل بيته، فلا يزال يصلى إلى الفجر[4] كان يمر بالآية من ورده فى قيام الليل، فيبكى حتى يسقط. يبكى لدرجة أنه ﷺ كان له خطان أسودان فى وجهه من البكاء.

يقول لمعاوية بن جريج: «لئن نمت بالنهار لأضيعن الرعية، ولئن نمت بالليل لأضيعن نفسى»[5] ولذلك كان ﷺ يقول: «لولا ثلاث لما أحببت البقاء -أى فى الدنيا- لولا أن أحمل على جياد الخيل فى سبيل الله، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام، كما ينتقى أطايب التمر»[6] وهذه درجات الفضائل، وأهلها هم أهل الزلفى..».

قال العباس بن عبد المطلب: «كنت جارًا لعمر بن الخطاب، فما رأيت أحدًا من الناس كان أفضل من عمر، إنّ ليله صلاة، وإن نهاره صيام وفى حاجات الناس»[7]

---

(١) رواه أبو داود (١٣٢٩) وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود ١/٣٦٣، ٣٦٤ ورواه الترمذى وقال: حديث غريب.

(٢) رواه الترمذى (٢٩٠٨) عن ابن عمر وصححه الألبانى وأحمد فى مسنده والحاكم فى المستدرك.

(٣) أسد الغابة جـ٣/٣٤٢

(٤) البداية والنهاية ٥/٢١٥

(٥) صلاح الأمة ٢/٤٣٦ د/ سيد حسين العفانى.

(٦) مدارج السالكين جـ٢/٢٩٣.

(٧) الحلية ١/٥٤

**٣- قيام عثمان بن عفان:**

فعن زهيمة جدة عبد الله بن الزبير قالت: كان عثمان يصوم الدهر، ويقوم الليل إلا هجعة من أوله[١]

وعن عبد الرحمن التيمى قال: قال أبى: لأغلبن الليلة على المقام، قال: فلما صليت العتمة تخلصت إلى المقام حتى قمت فيه. قال: فبينما أنا قائم إذا رجل وضع يده بين كتفى فإذا هو عثمان بن عفان، قال: فبدأ بأم القرآن، فقرأ حتى ختم القرآن، فركع وسجد، ثم أخذ نعليه فلا أدرى أصلى قبل ذلك شيئًا أم لا؟![٢]

وعن محمد بن سيرين قال: قالت امرأة عثمان بن عفان حين أطافوا به يريدون قتله: إن تقتلوه أو تتركوه، فإنه كان يحيى الليل كله فى ركعة يجمع فيها القرآن[٣]

**٤- قيام أبى هريرة رضي الله عنه:**

ذلكم الرجل الذى أوقف حياته ونفسه لحفظ سنة الرسول الأعظم.

فعن أبى عثمان النهدى قال: تضيفت أبا هريرة سبعًا فكان هو وامرأته وخادمه يتعقبون الليل أثلاثًا يصلى هذا، ثم يوقظ هذا، ويصلى هذا ثم يوقظ هذا[٤]

وعن نعيم بن المحرر بن أبى هريرة عن جده: أنه كان له خيط فيه ألفا عقدة فلا ينام حتى يسبح به[٥]

**٥- قيام سعيد بن عامر:**

ذلكم الأمير الزاهد، الذى نظر إلى الدنيا بعين الحقارة.

فعن **خالد بن معدان قال:** استعمل علينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بحمص سعيد بن عامر، فلما قدم عمر بن الخطاب حمص، قال: يا أهل حمص، كيف وجدتم عاملكم؟ فشكوه إليه وقالوا: نشكو أربعًا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار، قال: أعظم بها. قال: وماذا؟ قالوا: لا يجيب أحدًا بليل، قال: وعظيمة. قال: وماذا؟ قالوا: وله يوم فى الشهر لا يخرج فيه إلينا، قال: عظيمة. قال: وماذا؟ قالوا: يغنط الغنطة بين الأيام -يعنى تأخذه موتة- قال: فجمع عمر بينهم وبينه فأجاب عن الأولى بقوله: والله إن كنت لأكره ذلك، ليس لأهلى خادم، فأعجن عجينى ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزى، ثم أتوضأ، ثم أخرج إليهم. وأما أنى لا أجيب أحدًا بليل فقد جعلت النهار لهم، وجعلت الليل لله عز وجل. .»[٦]

---

(١)، (٢) حلية الأولياء جـ١/ ٥٦، ٥٧.

(٣) حلية الأولياء جـ١/ ٥٧

(٤) الحلية ١/ ٣٨٣، وابن الجوزى فى صفة الصفوة جـ١/ ٣١

(٥) صفة الصفوة جـ١/ ٣٠٩.

(٦) صفة الصفوة ١/ ٢٩٦ والحلية ١/ ٢٤٥، ٢٤٦

**٦- قيام معاذ بن جبل:**

فعن ثور بن يزيد قال: كان معاذ بن جبل رضي الله عنه إذا تهجد من الليل قال: **اللهم قد نامت العيون، وغارت النجوم، وأنت حى قيوم، اللهم طلبى للجنة بطىء، وهربى من النار ضعيف، اللهم اجعل لى عندك هدى ترده إلى يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد**[١]

**وكان يوصى ابنه فيقول:**

يا بنى إذا صليت صلاة فصلِّ صلاة مودع، لا تظن أنك تعود إليها أبدًا، واعلم يا بنى أنَّ المؤمن يموت بين حسنتين: حسنة قدمها، وحسنة أخرها[٢]

ولما حضرته الوفاة أخذ يقول: «مرحبًا بالموت مرحبًا، زائر مُغب، حبيب جاء على فاقة، اللهم إنى كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، إنك لتعلم أنى لم أكن أحب الدنيا، وطول البقاء فيها لكرى الأنهار -أى حفرها- ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمإ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر»[٣]

أخى المسلم: لو تتبعنا الآثار فى أصحاب النبى الأخيار لكتبنا فى ذلك مجلدات طويلة لكنى أكتفى بهذه النخبة الطاهرة لكى أعود بك إلى نخبة من السلف الصالح من الأولياء والصالحين، فهيا بنا إلى هناك، إلى قوم تخرجوا فى مدرسة صحابة رسول الله ﷺ.

**فهم صحابة خير الخلق خصهم ... رب العالمين بجنات ورضوان**
**فمن أحبهم قد نال منزلة ... عند الإله وجزاه بإحسان**
**عليهم من سلام الله أطيبه ... ما ناحت الورق[٤] فى أوراق أغصان**

فهيا لنذهب إلى:

**قوم على مولاهمو أقبلوا ... وأعرضوا عن كل شىء سواه**
**وحرموا نوم الدجى رغبة ... فيما لديه كى ينالوا رضاه**
**دموعهم فوق خدود لهم ... تجرى اشتياقًا منهمو فى لقاه**
**قد طلقوا الدنيا بلا رجعة ... وآثروا فوق هواهم هواه**

(١) أسد الغابة لابن الأثير جـ٤/ ١٤٤ وأبو نعيم فى الحلية ١/ ٢٣٣ وأخرجه الطبرانى فى الكبير وذكره الهيثمى فى المجمع.
(٢) صفة الصفوة ١/ ٢١٤ والحلية ١/ ٢٣٤
(٣) صفة الصفوة ١/ ٢١٦، ٢١٧ حلية الأولياء ١/ ٢٣٩ وأسد الغابة جـ٥/ ١٤٤ وذكره ابن عساكر فى مختصر تاريخ دمشق.
(٤) الورق: جمع ورقة والمراد بها الحمامة.

## • قيام الليل عند الأولياء والصالحين[١] •

### ١- قيام أبى سليمان الدارانى:

ذلكم الرجل الذى كان يقول: «أهل الليل فى ليلهم ألذ من أهل اللهو فى لهوهم ولولا الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا»[٢]

فعن أحمد بن الحوارى يقول: قال لى أبو سليمان: يا أحمد إنى محدثك بحديث فلا تحدث به أحدًا حتى أموت، نمت ذات ليلة عن وردى، فإذا أنا بحوراء تنبهنى وتقول: «يا أبا سليمان تنام وأنا أربى لك فى الخدور منذ خمسمائة عام؟»[٣]

لذلك نراه يوصيه بقيام الليل، فيقول له «يا أحمد كن كوكبًا، فإن لم تكن كوكبًا فكن قمرًا، فإن لم تكن قمرًا فكن شمسًا، فقلت: يا أبا سليمان القمر أضوأ من الكوكب، والشمس أضوأ من القمر، قال: يا أحمد، كن مثل الكوكب طلع أول الليل إلى الفجر، فقم أول الليل إلى آخره -أى مثل الكوكب- فإن لم تقو على قيام الليل فكن مثل الشمس تطلع أول النهار إلى آخره، فإن لم تقدر على قيام الليل، فلا تعص الله بالنهار»[٤]

وعن أحمد بن أبى الحوارى قال: سمعت أبا سليمان الدارانى يقول: «بينما أنا ساجد إذ ذهب بى النوم، فإذا أنا بها -يعنى الحوراء- قد ركضتنى برجلها، فقالت: حبيبى أترقد عيناك والملك يقظان ينظر المتهجدين فى تهجدهم؟ بؤسًا لعين آثرت لذة نومة على لذة مناجاة العزيز، قم فقد دنا الفراغ، ولقى المحبون بعضهم بعضًا، فما هذا الرقاد، حبيبى وقرة عينى، أترقد عيناك وأنا أربى لك فى الخدور منذ كذا وكذا؟ فوثبت فزعًا استحياء من توبيخها إياى، وإن حلاوة منطقها لفى سمعى وقلبى»[٥]

رحمك الله يا أبا سليمان، فأنت القائل من أحسن فى نهاره كوفئ فى ليله، ومن أحسن فى ليله كوفئ فى نهاره[٦]

وتأمله حين ينصح ويوجه أحد أتباعه فيقول: «إذا لذت لك القراءة فلا تركع ولا تسجد، وإذا لذَّ لك السجود فلا تركع ولا تقرأ، الأمر الذى يفتح لك فيه فالزمه»[٧]

---

(١) قد ذكرت فى كتابى (من وصايا القرآن) مجموعة من الصالحين فى قيام الليل منهم: محمد بن كعب القرظى وسعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب، ووكيع بن الجراح والشافعى، والربيع بن خثيم، وعامر بن عبد الله التيمى، فإن شئت فارجع إليهم. مكتبة التوفيقية.

(٢) الحلية ٩/ ٢٧٥، البداية والنهاية ١/ ٢٥٧ لطائف المعارف لابن رجب ص٩٦

(٣) الحلية ٩/ ٢٥٩ وصفة الصفوة جـ٤/ ١٥٦ (٤) الحلية ٩/ ٢٦١ (٥) صفة الصفوة ٤/ ١٥٦

(٦) المرجع السابق ص١٥٩ (٧) حلية الأولياء ٩/ ٢٦٥

٢- قيام ثابت البنانى:

ذلكم التابعى الجليل الذى تتلمذ على يد الصحابى الجليل أنس بن مالك، ذلكم الرجل الصوام القوام، كان يحيى الليل تارة بالصلاة والقيام، وتارة بتلاوة القرآن، فعن مبارك بن فضالة قال: كان ثابت البنانى يقوم الليل، ويصوم النهار، وكان يقول: ما شىء أجده فى قلبى ألذ عندى من قيام الليل[١]

وآخر يقول: كان ثابت البنانى يقرأ القرآن كل يوم وليلة ويصوم الدهر[٢].

وقد كان كثير الخوف من الله تعالى، كثير البكاء لشدة خوفه.

ويقول شبان بن جسر عن أبيه قال: أنا والله الذى لا إله إلا هو أدخلت ثابتًا البنانى لحده ومعى حميد الطويل، أو رجل غيره، فلما سوينا عليه اللبن سقطت لبنة، فإذا أنا به يصلى فى قبره، فقلت للذى معى: ألا ترى؟ قال: اسكت، فلما سوينا عليه، وفرغنا أتينا ابنته، فقلنا لها: ما كان عمل ثابت؟ قالت: وما رأيتم؟ فأخبرناها، قالت: كان يقوم الليل خمسين سنة، فإذا كان السحر، قال فى دعائه: «اللهم إن كنت أعطيت أحدًا من خلقك الصلاة فى قبره، فأعطنيها، فما كان الله عز وجل ليرد ذلك الدعاء»[٣]

٣- قيام مالك بن دينار:

ذلكم القوام الصوام، اسمع إليه وقد سها مرة من المرات عن ورده ونام فماذا حدث؟ يقول: «سهوت عن وردى ونمت، فإذا أنا فى المنام بجارية كأحسن ما يكون وفى يدها رقعة، فقالت لى: أتحسن تقرأ؟ فقلت: نعم، فدفعت إلىَّ الرقعة، فإذا فيها:

أألهتك اللذائذ والأمانى ... عن البيض الأوانس فى الجنان

تعيش مخلدا لا موت فيها ... وتلهو فى الجنان مع الحسان

تنبه من منامك إن خيراً ... من النوم التهجد بالقرآن[٤]

إنه كان يخاطب مولاه وهو فى مرضه فيقول: «اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب البقاء فى الدنيا لبطن ولا لفرج»[٥]

ويقول المغيرة بن أبى صالح ختن مالك بن دينار يقول: قلت لنفسى: يموت مالك وأنا معه فى الدار ولا أدرى ما عمله، قال: فصليت معه العشاء الآخرة ثم جئت فلبست قطيفة فى أطول ما يكون من الليل، وجاء مالك وقرب رغيفه فأكل، ثم قام إلى الصلاة

(١) صفة الصفوة جـ٣/ ١٤٩ (٢) صفة الصفوة جـ٣/ ١٤٨ وأبو نعيم فى الحلية ٢/ ٣٢١

(٣) صفة الصفوة جـ٣/ ١٤٩ والحلية ٢/ ٣١٩

(٤) تهذيب موعظة المؤمنين للقاسمى جـ١/ ٧٥، وتهذيب إحياء علوم الدين لعبد السلام هارون ص١٣٢

(٥) صفة الصفوة جـ٣/ ١٦٥

فاستفتح ثم أخذ بلحيته، فجعل يقول: «يا رب، إذا جمعت الأولين والآخرين فحرم شيبة مالك بن دينار على النار» قال: مازال يكررها حتى غلبتنى عينى، ثم انتبهت فإذا هو قائم على تلك الحال، يقدم رجْلاً ويؤخر رجلاً ويقول: كذلك - حتى طلع الفجر[١]

**٤- قيام إبراهيم بن أدهم:**

يحكى أن إبراهيم بن أدهم -رحمه الله- قال: يا رب، أرنى رفيقى فى الجنة، فقيل له فى منامه، إنها امرأة سوداء واسمها (سَلاَمة) وهى فى مكان ترعى الغنم فهى زوجتك فى الجنة، فلماَّ صار وسلم عليها، قالت: وعليك السلام يا إبراهيم بن أدهم، قال: من أخبرك أنى إبراهيم؟ قالت: من أخبرك أنى زوجتك فى الجنة؟ فقال: عظينى، قالت: عليك بقيام الليل، فإنه يوصل العبد إلى ربه وإن كنت تدعى المحبة فالنوم عليك حرام[٢]

**٥- قيام الإمام أبى حنيفة النعمان:**

**قال أبو الجويرية:** «لقد صحبت أبا حنيفة -رحمه الله- ستة أشهر، فما فيها ليلة وضع جنبه على الأرض»[٣]

**وقال مسعر:** دخلت ذات ليلة المسجد، فرأيت رجلاً يصلى، فاستحليت قراءته، فقرأ سبعًا، فقلت: يركع، ثم قرأ الثلث، ثم قرأ النصف، فلم يزل يقرأ القرآن حتى ختمه كله فى ركعة، فنظرت فإذا هو أبو حنيفة[٤]

وظل ليلة يردد فى قيامه بعد العشاء قوله تعالى: ﴿**فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ**﴾ [الطور: ٢٧] إلى الصبح[٥]

**٦- قيام محمد بن واسع:**

ذلكم العامل الخاشع الذى يقول: «إذا أقبل العبد بقلبه إلى الله أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه»[٦]

**قال أبو الطيب موسى بن بشار:** «صحبت محمد بن واسع من مكة إلى البصرة، فكان يصلى الليل أجمع، يصلى فى المحمل جالسًا يومئ برأسه إيماء، وكان يأمر الحادى يكون خلفه ويرفع صوته حتى لا يفطن له، وكان ربما عرس من الليل، فينزل فيصلى، فإذا أصبح أيقظ أصحابه رجلاً رجلاً، فيجيء إليه، فيقول: الصلاة الصلاة، فإذا قاموا قال لنا: إنَّ الماء قريب، فتوضئوا..»[٧]

وكان إذا سأله أحد: كيف أصبحت؟ يقول: «قريبًا أجلى، بعيدًا أملى، سيئًا عملى»[٨]

---

(١) المرجع السابق ٣/ ١٦٢
(٢) تحفة الإخوان فى قراءة الميعاد ص ١١٣
(٣) تهذيب إحياء علوم الدين ص١٣٢
(٤)، (٥) رهبان الليل ١/ ٣٩٦.
(٦) حلية الأولياء ٢/ ٢٤٥
(٧)، (٨) المرجع السابق ٢/ ٢٤٦

**أخي الحبيب:**

والحديث يطول عن هذه النخبة الطيبة الكريمة من رهبان الليل، فنكتفي بهؤلاء العظماء ففيهم العبرة لمن اعتبر، والعظة لمن اتعظ ﴿**إنَّ في ذَلكَ لَذكْرىٰ لمن كَان لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السمع وهُو شهيدٌ**﴾ [ق: ٣٧] ومن أراد المزيد فعليه بالرجوع إلى: حلية الأولياء لأبي نعيم، وسير أعلام النبلاء للذهبي، وصفة الصفوة لابن الجوزي. إلخ.

**• الأسباب الميسرة لقيام الليل •**

**أخي المسلم:**

إن قيام الليل عسير على الخلق إلا من وفقه الله للقيام بشروطه الظاهرة والباطنة، ونظرًا لشدة قيام الليل على النفس، فإنه يسهل عليها بالتعود والتدريب شيئًا فشيئًا حتى تألفه النفس، وتشعر بحلاوته، حينئذ تجدها تقبل عليه بشغف ولذة، فما هي الأمور الظاهرة التي تيسر على المسلم قيام الليل؟

**الأمور الظاهرة أربعة أمور**(١):

**أولها:** أن لا يكثر الأكل، لأن كثرة الطعام تثقل البدن، وإذا ثقل البدن أحب النوم لذلك يقول مسعر بن كدام -رحمه الله-:

**وجدت الجوع يطرده رغيف ... وملء الكف من ماء الفرات**
**وقل الطعم عونًا للمصلي ... وكثر الطعم عون للسبات**(٢)

ويقول ﷺ: «**ما ملأ آدمي وعاءً شرًا من بطنه. «بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»(٣)

ويقول عبد الواحد بن زيد -رحمه الله-: «من قوى على بطنه قوي على دينه، ومن قوى على بطنه قوى على الأخلاق الصالحة، ومن لم يعرف مضرته في دينه من قبل بطنه، فذاك رجل في العابدين أعمى»(٤)

**ثانيها:** ألا يتعب نفسه بالنهار في الأعمال الشاقة التي تعيا بها الجوارح، وتضعف بها الأعصاب، فإن ذلك مجلبة للنوم.

**ثالثها:** ألا يترك القيلولة بالنهار، فإنها سنة للاستعانة على قيام الليل، فقد ورد: «**قيلوا فإن الشياطين لا تقيل**»(٥)

---

(١) تهذيب إحياء علوم الدين ص١٣٢، ١٣٣ (٢) حلية الأولياء ٧/ ٢١٩

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٧١٢) والترمذي (٢٣٨٠) وقال: حسن صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وصححه الألباني في ص.ج (٥٥٥). (٤) الحلية ٦/ ١٥٧

(٥) حسنه الألباني في ص.ج (٧ ٤٣)

**رابعها:** أن يجتنب الأوزار بالنهار، فإن ذلك مما يقسى القلب، ويحول بينه وبين أسباب الرحمة. قال رجل للحسن: «يا أبا سعيد، إنى أبيت معافى، وأحب قيام الليل، وأعد طهورى، فما بالى لا أقوم؟ فقال: ذنوبك قيدتك»[١]

وقال مبارك بن فضالة: سمعت الحسن البصرى، وقد قال له شاب: «أعيانى قيام الليل، فقال له: قيدتك خطاياك»[٢]

وقال الثورى: «حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته»[٣]

وقال الفضيل بن عياض -رحمه الله-: «إذا لم تقدر على قيام الليل، وصيام النهار، فاعلم أنك محروم مكبل، كبلتك خطيئتك»[٤]

**أما الميسرات الباطنة فأربعة أمور[٥]:**

**الأول:** سلامة القلب عن الحقد على المسلمين، وعن البدع، وعن فضول هموم الدنيا. فالمستغرق فى الهم بتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام، وإن قام لا يتفكر فى صلاته إلا فى مهماته، ولا يجول إلا فى وساوسه، وفى مثل ذلك يقال:

**يخبرنى البواب أنك نائم ... وأنت إذا استيقظت أيضًا فنائم**

**الثانى:** خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل، فإنه إذا تفكر فى أهوال القيامة، ودركات جهنم طار نومه، وعظم حذره، كما قال طاووس: «إن ذكر جهنم طير نوم العابدين» ولما قيل لأحد الصالحين: ألا تنام؟ قال: «إن عجائب القرآن أذهبت نومى»[٦]

**وقال ذو النون المصرى:**

**منع القرآن بوعده ووعيده ... مقل العيون بليلها أن تهجعا**

**فهموا عن الملك الجليل كلامه ... فرقابهم ذلت إليه تخضعا**

**الثالث:** أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار والآثار، حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه إلى ثوابه، فيهيجه الشوق لطلب المزيد والرغبة فى درجات الجنان. كما حكى أن بعض الصالحين، رجع من غزوته، فمهدت امرأته فراشها، وجلست تنتظره فدخل المسجد ولم يزل يصلى حتى أصبح، فقالت له زوجته: كنا ننتظرك مدة، فلما قدمت صليت إلى الصبح! قال: والله إنى كنت أتفكر فى حوراء من حور الجنة طول الليل، فنسيت الزوجة والمنزل، فقمت طول ليلتى شوقًا إليها.

**الرابع:** وهو أشرف البواعث: الحب لله وقوة الإيمان به، فهو فى قيامه لا يتكلم إلا

---

(١) تهذيب إحياء علوم الدين ص١٣٣
(٢) صفة الصفوة ٣/ ١٢٨
(٣) الحلية ٧/ ١٥
(٤) الحلية ٨/ ٩١
(٥) تهذيب إحياء علوم الدين لعبد السلام هارون ص١٣٣، ١٣٤
(٦) الحلية ٨/ ١٥١

وهو مناج ربه، وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يخطر بقلبه، وأن تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه، فإذا أحب الله تعالى أحب لا محالة الخلوة به، وتلذذ بالمناجاة، فتحمله لذة المناجاة للحبيب على طول القيام.

وأخيرًا أخى المسلم اعرف قدر السلعة يهن عليك دفع الثمن:

فقد ورد أن يزيد بن هارون كان يقول: «نظرت فى قيام الليل، فإذا الحارس يحرس الليلة كلها بدينارين، أو يطلب أحدكم الجنة بسهر ليلة واحدة، بعبادة لعلها لا تساوى دانقين، وربما مَنَّ بهما على ربه»(١)

وقد كان هارون هذا من الصالحين قال عنه عاصم بن على: **«كان يزيد بن هارون إذا** صلى العتمة -أى العشاء- لا يزال قائمًا حتى يصلى الغداة -الصبح- بذلك الوضوء نيفًا وأربعين سنة»(٢) ثم اتخذ لك رفيقًا من أهل الخير ينبهك ويعينك، وبعد ذلك كله اصدق الله يصدقك، فقد ورد عن أبى الدرداء رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«من أتى فراشه وهو ينوى** أن يقوم يصلى من الليل، فغلبته عينه حتى أصبح، كتب له ما نوى، وكان نومه صدقة عليه من ربه»(٣)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«طهروا هذه الأجساد، طهركم الله، فإنه ليس من عبد يبيت طاهرًا إلا بات معه فى شعاره ملك، لا يتقلب ساعة من الليل إلا قال: اللهم اغفر لعبدك، فإنه بات طاهرًا»**(٤)

## • وثمن ذلك الجنة •

### أخى المسلم:

إن التجارة مع مولاك رابحة، فإنك إن قمت بتنفيذ هذه الوصية المباركة: **«أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام»** فما ثمن ذلك، وما الجزاء الأخروى الذى أعده الله تعالى لمن عمل هذه الأعمال، ووفق لهذه الخصال؟ إنه: **«تدخلوا الجنة بسلام»**.

---

(١) تنبيه المغترين للشعرانى ص ٩١ (٢) صفة الصفوة لابن الجوزى ٣/ ١٠

(٣) رواه النسائى وابن ماجه بإسناد جيد وابن خزيمة فى صحيحه، ورواه النسائى أيضًا وابن خزيمة عن أبى الدرداء، وأبى ذر موقوفًا. قال المنذرى فى الترغيب ١/٤٠٩، ٤١٠ وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع رقم ٥٨١٧ ص٥٩٤١

(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد جيد قاله المنذرى فى الترغيب ١/٤٠٨، ٤٠٩ وحسنه الألبانى فى ص.ج (٣٨٣١).

فعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقاب قوس أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما فيها**»(١)

يقول ابن القيم -رحمه الله-(٢): «وكيف يقدَّر قدر دار غرسها الله بيده، وجعلها مقرًا لأحبابه، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه؟

فإن سألت عن أرضها وتربتها، فهى المسك والزعفران.

وإن سألت عن سقفها، فهو عرش الرحمن.

وإنْ سألت عن بلاطها، فهو المسك الأذفر

وإن سألت عن حصبائها، فهو اللؤلؤ والجوهر

وإن سألت عن بنائها، فلبنة من فضة ولبنة من ذهب.

وإن سألت عن أشجارها، فما فيها شجرة إلا وساقاها من ذهب وفضة، لا من الحطب والخشب.

وإن سألت عن ثمرها، فأمثال القلال، ألين من الزبد، وأحلى من العسل.

وإن سألت عن ورقها، فأحسن ما يكون من رقائق الحلل.

وإن سألت عن أنهارها، فأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى.

وإن سألت عن طعامهم، ففاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون.

وإن سألت عن شرابهم، فالتسنيم والزنجبيل والكافور.

وإن سألت عن آنيتهم، فآنية الذهب والفضة فى صفاء القوارير

وإن سألت عن سعة أبوابها، فبين المصراعين مسيرة أربعين من الأعوام.

وإن سألت عن ظلها، ففيها شجرة واحدة، يسير الراكب المجد السريع فى ظلها مائة عام لا يقطعها.

وإن سألت عن سعتها، فأدنى أهلها يسير فى ملكه وسرره وقصوره، وبساتينه مسيرة ألفى عام.

وإن سألت عن خيامها وقبابها، فالخيمة الواحدة من درة مجوفة لها ستون ميلاً من تلك الخيام.

وإن سألت عن لباس أهلها فهو الحرير والذهب.

---

(١) رواه البخارى (٢٧٩٦) كتاب الجهاد.

(٢) من كتاب حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم باختصار

وإن سألت عن عرائسهم وأزواجهم فهن الكواعب الأتراب، اللاتى جرى فى أعضائهن ماء الشباب، فللورد والتفاح ما لبسته الخدود، وللرمان ما تضمنته النهود، وللؤلؤ المنظوم ما حوته الثغور، وللرقة واللطافة ما دارت عليه الخصور، تجرى الشمس فى محاسن وجهها إذا برزت، ويضئ البرق بين ثناياها إذا ابتسمت.

وإن سألت عن السن، فأتراب فى أعدل سن الشباب.

وإن سألت عن الحسن فهل رأيت الشمس والقمر؟ فما ظنك بامرأة إذا ضحكت فى وجه زوجها، أضاءت الجنة من ضحكها، إن غنت فيالذة الأبصار والأسماع، وإن آنست وأمتعت فياحبذا تلك المؤانسة والإمتاع، وإن قبَّلت فلا شىء أشهى من ذلك التقبيل، وإن نوَّلت فلا ألذَّ ولا أطيب من ذلك التنويل.

**فحى على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيم**
**ولكننا سبى العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم**

فيا رب إياك نسأل أن تمتعنا بالخلود فى الجنان، وبالنظر إلى وجهك يا كريم يا منان.

## •موعظة•

**أخا الإسلام:**

انتبه من غفلتك، فنوم الغفلة ثقيل، وشمِّر لآخرتك فإنما الدنيا منزل وفى طريقها مقيل، فالله مطلع عليك ويجازى المحسن بإحسانه، ويعاقب المسئ على إساءته، وشتان بين هذا وذاك، فكأن لسان حاله يقول: شتان بين من عصانى وخالف أمرى، وبين من قطع عمره فى معاملتى وذكرى، ولزوم الوقوف ببابى، ومرِّغ خده على أعتابى. فيا خجلة الخاطئين، ويا ندامة البطالين:

**اخلُ بنفسك إن أردت تقربًا ... ودع الأنام بمعزل يا عانى**
**واعمل على قطع العلائق جملة ... فى العيش فى خرق الحجاب الفانى**

**أخا الإسلام:**

السفر مكتوب علينا، فما لنا نطلب الإقامة فى دار ليست لنا دار مقامة؟.

السنون منازل، والشهور مراحل، والأيام أميال، والأنفاس خطوات، والمعاصى قطَّاع، والرِّبح الجنة، والخسران النار

خلقنا نتقلب فى ستة أسفار إلى أن يستقر بنا القرار: فالسفر الأول: سفر السلالة من الطين، والثانى: من الصلب إلى الرحم، والثالث: من الرحم إلى ظهر الأرض والرابع: من ظهر الأرض إلى القبر، والخامس: من القبر إلى موقف العرض، والسادس: من العرض إلى دار الإقامة: إما إلى الجنة، وإما إلى النار كما يفعل الواحد القهار.

لهذا ينبغى على المسلم أن يشغل قلبه، ويعمل فكره إلى ما يوصله إلى ما أعده الله لأوليائه فى جنته، فالله نسأل أن يجعلنا من الفائزين بجنته، الناظرين إلى وجهه الكريم، وأن يحشرنا مع النبى الأكرم والرسول الأعظم سيدنا محمد ﷺ.

| | |
|---|---|
| فيا من عليه مدى الأيام معتمدى | إليك وجهت وجهى لا إلى أحد |
| أنت المجيب لكل من يدعوك يا أملى | يا عدتى يا شفاء دائى ويا سندى |
| يا مالك الملك يا معطى الجزيل لمن | يرجو نداه بلا حصر ولا عدد |
| مالى سواك ومالى غير بابك يا | مولاى فامح بعفو ما جنته يدى |
| وأنعم وأمطر علينا رحمة فلنا | عوائد منك بالإحسان والمدد |
| وانظر إلينا فكم أوليتنا نعما | ما إن تمر على بال ولا خلد |
| يا من أجاب دعائى عند مسألتى | ومن عليه وإن أخطأت معتمدى |
| ثم الصلاة على المختار من مضر | ما ناحت الورق فى غصن مدى الأبد |

## • الوصية رقم (١٠٠) •

عن أبى الدرداء رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: **ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأرفعها فى درجاتكم، وأزكاها عند مليككم، وخير لكم من إعطاء الورق والذهب، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟.**

قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله»[(١)]

## • قائد الأمة الأعظم يرشد أمته إلى كل الخيرات •

**أخى المسلم:**

إن رسول الله ﷺ دائمًا وأبدًا، بل وأفنى حياته من أجل سعادة أمته، فما من خير إلا ودعاهم إليه، ورغبهم فيه، وما من شر إلا ونهاهم عنه، وأمرهم أن يجتنبوه، ورسم لأمته طريق النجاح والفلاح.

| | |
|---|---|
| فصلوا على نور تجلى صبحه | فجلا ظلامًا للضلال بهيما |
| صلوا على هاد أرانا هديه | نهجًا من الدين الحنيف قويما |
| صلوا على هذا النبى فإنه | من لم يزل بالمؤمنين رحيما |
| صلوا على الزاكى الكريم محمد | مامثله بالمرسلين كريما |
| يا أيها الراجون منه شفاعة | صلوا عليه وسلموا تسليما |

(١) الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده بسند صحيح برقم (٢٧٣٩٦) جـ١٨/ ٥٧٦ وأبو نعيم فى الحلية جـ١/ ٢١٩، جـ٢/ ١٢ كما رواه الإمام الترمذى (٣٣٧٧) وابن ماجه (٣٧٩٠) ورواه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبى، وصححه الألبانى.

إنه يعلم أن الأمة المحمدية فيهم الأغنياء بأموالهم، فهم يستطيعون أن يتصدقوا بها، بل ويستطيعون أن يجاهدوا بأموالهم هذه فى سبيل الله، ويعلم أن منهم فقراء لا يستطيعون أن يتصدقوا لقلة أموالهم، ولا يستطيعون أن يجاهدوا فى سبيل الله ويعلم أن منهم الأقوياء الأصحاء، وأن منهم المرضى والمعتلين، فماذا يفعل من أرسله الله رحمة للعالمين، وقائدًا للغر المحجلين، يوم الدين؟

ماذا يفعل وقد أتى إليه وفد من الذين يعانون ضيق العيش فيقولون له:

«يا رسول الله: ذهب أهل الدثور بالأجور والدرجات العلى، والنعيم المقيم، يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال يحجون بها ويعتمرون، ويجاهدون ويتصدقون، فقال لهم رسول الله ﷺ

**«ألا أحدثكم بما إن أخذتم به لحقتم من سبقكم، ولم يدرككم أحدٌ بعدكم، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه، إلا من عمل مثله: تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثًا وثلاثين»**[١]

ففى هذا الحديث قد وجه الرسول الأعظم أتباعه من فقراء الأمة إلى طريقة لو عملوا بها، لاستطاعوا أن يدركوا بها أصحاب الأموال، وهى ذكر الله تعالى عقب الصلوات الخمس، وما أيسرها من طريقة.

وفى هذه الوصية التى بين أيدينا، يقول لأتباعه، وأحبابه: **«ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟** قالوا: بلى قال: **ذكر الله»**[٢].

فكأن المؤمن الذى لا يستطيع أن يواجه الأعداء فى جبهة القتال، العمل الذى يجعله ينال شرف الجهاد، هو أن يذكر الله تعالى، المؤمن الذى لا يستطيع أن ينفق من ماله ذهبًا، أو فضة العمل الذى يوصله إلى ثواب المنفق بل يزيد عليه، هو أن يذكر الله، فهو أفضل وخير الأعمال عند ملك الملوك، وعلام الغيوب تبارك وتعالى، فصلوات ربى وتسليماته عليك يا رسول الرحمة، ويا نبى الهدى، حين بلغت الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات مكانة فى العبادة تعدل بل تفوق عبادة الجهاد فى سبيل الله ففى مسند الإمام أحمد وغيره من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أنَّ النبى ﷺ سئل: «أى العبادة أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: الذاكرون الله كثيرًا. قلت: يا رسول الله؛ ومن الغازى فى سبيل الله؟ قال:

---

(١) رواه البخارى فى الأذان باب الذكر بعد الصلاة برقم (٨٤٣) ومسلم (٥٩٥) وله روايات متعددة فى مسند أحمد وسنن أبى داود والموطأ

(٢) سبق تخريجه.

**لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر، ويختضب دمًا، لكان الذاكرون الله عز وجل أفضل منه درجة»**[١] الله أكبر. أى فضل هذا إنه فضل عظيم، من رب كريم.

| | |
|---|---|
| **صلوا علـى من أتت حقًا بشـائره** | **الهـاشـمى الـذى طابت عـناصـره** |
| **هو الرسـول الذى شـاعت رسالتـه** | **فى الخـلق طرا وقـد عـمـت مـآثره** |
| **هو الـطبـيب لـداء النـاس كلـهم** | **يشفـى السقيـم وللمكسور جـابره** |
| **صلى علـيه إله العـرش ما طـلعت** | **شمس وما ناح فـوق الغصن طائره** |

والحديث الـذى يؤيد الحديث السـابق، حديث مـحمد بن طـلحة عن عـبد الله بن شداد: أن نفرًا من بنـى عُذْرَة، ثلاثة أتوا النبى ﷺ فأسلموا، قـال: فقال النبى ﷺ: **«من يكفينيهم؟»** قال طلحة: أنا، قال: فكانوا عنـد طلحة، فبعث النبى ﷺ بعثًا، فخرج فيه أحدهم فاستشهـد قال: ثم بعث بعثًا، فخرج فيهم آخر، فاستـشهد، قال: ثم مات الثالث على فراشـه، قال طلحة: فرأيت هؤلاء الـثلاثة الذين كانوا عندى فى الجـنة، فرأيت الميت على فراشه أمامهم -أى يتقدمهم- ورأيت الذى استـشهد أخيرًا يليه، ورأيت الذى استشهد أولهم آخرهم، قال: فـدخلنى من ذلك -أى تحيرت فى أمرهـم- قـال. فأتيت النبى ﷺ، فذكرت ذلك له، فـقال رسول الله ﷺ: **«وما أنكـرت من ذلك؟ ليس أحد أفـضل عند الله من مؤمن يعمر فى الإسلام، لتسبيحه وتكبيره وتهليله»**[٢]

## • حقيقة الذكر •

### أخى الحبيب:

ما هو الذكر؟ تقول العـرب: ذكر الإنسان النعمة، أى استحضـرها، وقام بواجبها.

وذكر المؤمن ربه تعالى: أى استحضره فى قلبه مع تدبر.

فالذكر هو التخلص من الغفلة والنسيان، وهو تمجيد الله تعالى، وتقديسه وتسبيحه وتهليله والثناء علَيه سبحانه بجميع محامده.

وليست حقـيقة الذكر بالقول فـحسب، ولكن لابد أن ينشأ الذكـر أولاً فى الشعور والوجدان، ثم يفيض ذلك على لســان العبد تسبيحًا وتحميدًا، وتقـديسًا، وتعظيمًا لله رب العالمين، حينئذ يقوم العبد بأداء ما أمره الله تعالى به، والانتهاء عما نهاه الله عنه، والالتزام بطاعته ومراقبتـه فى السر والعلانية، فإن كان العبد كذلك فهـو لله ذاكر، ولنعمائه شاكر،

---

(١) رواه الترمذى (٣٣٧٣) وقـال: حسن غـريب ورواه أحمـد فى مـسنده (١١٦٦٠). جـ١٠/ ٢٣٧، ٢٣٨، وضعف إسناده حمـزة الزين وقال: تفرد به ابن لهيعة، وذكـره ابن رجب الحنبلى فى لطائف ص ٤٣٧ ط/ دار ابن كثير.

(٢) رواه الإمام أحمـد فى مسنده رقم (١٤٠١) جـ٢/ ١٨٠ وصحح إسـناده الشيخ أحمد شاكـر وحسنه الألبانى وقال صحيح على شرط مسلم.

وتأمل حين أراد أحد المشايخ الكرام أن يعلم تلاميذه أن العبد الذاكر لمولاه هو من يعلم تمام العلم أنَّ ربه مطلع عليه ويراه، يراه فى سره، ويراه فى علانيته، يراه حيث كان، وأراد أن يزرع فيهم مراقبة الله تعالى فماذا فعل؟

أمر هذا الشيخ المبارك أن يحضر كل تلميذ من تلامذته دجاجة حية، ثم يقوم بذبحها شريطة أن يكون ذلك فى مكان لا يراه فيه أحد.

وفى اليوم التالى جاء كل تلميذ وقد ذبح كل واحد منهم دجاجته إلا واحدًا، فقد أتى بها حية لم يذبحها. فسأله الشيخ: لماذا لم تذبح الدجاجة؟

قال: لأننى لم أستطع الوفاء بالشرط. قال له: كيف ذلك؟ قال له: لأننى حيثما اتجهت، وحيثما ارتحلت وجدت أن الله مطلع على ويرانى.

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧] هذا هو الذكر لله عز وجل.

والذكر الصحيح هو الذى علمه لنا سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، فهذا هو سيدنا عبد الله بن دينار يحدثنا فيقول: خرجت مع عمر بن الخطاب إلى مكة، فعرسنا ببعض الطريق -أى نزلوا للراحة- فانحدر علينا راع من الجبل، فقال له عمر: يا راعى الغنم، بعنا شاة من هذه الغنم، فقال: إنى مملوك، فقال له عمر: قل لسيدك: أكلها الذئب، فقال العبد: فأين الله؟ فبكى عمر رضي الله عنه، وأخذ يقول: فأين الله؟..

ثم غدا على سيد الراعى، فاشتراه منه وأعتقه، واشترى الغنم ووهبها له[1]

فالذاكر هو الذى يستحضر عظمة مولاه عز وجل، ليس فقط الذاكر هو الذى يجلس فى مسجد أو مكان فيسبح ويكبر ويهلل، وإنما هو ذلكم الذى يستحضر عظمة مولاه فى كل أمور حياته، فالزارع يستطيع أن تكون حياته كلها ذكر، إذا ما تأمل ما يخرج من الأرض، وعلم أن ذلك الزرع، وأن تلك النباتات إنما هى فيض من عطائه وكرمه، وذلك أنه لا دخل له إلا أنه سبب لأن الزارع الحقيقى إنما هو الله: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣: ٦٥].

والعامل فى مصنعه، وهو يقف أمام الميكنة التى يعمل عليها، إذا ما فهم أن هذه الميكنة إنما صنعت بيد بشرية، لكن ذلك بقدرة رب البرية الذى: ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] كان من الذاكرين لله عز وجل، وقس على ذلك.

لكن ماذا قال علماؤنا عن وصف الذكر؟

---

(١) منهاج المسلم لأبى بكر الجزائرى.

هيا بنا لنذهب إلى الإمام ابن القيم، وغيره من العلماء والصالحين، لنقف على أقوالهم ونقتدى بفعالهم، لنفوز بما فاز به السابقون الأولون، فإلى هناك.

## • وصف العلماء للذكر •

والذكر منزلة القوم الكبرى، التى منها يتزودون. وفيها يتجرون. وإليها دائمًا يترددون. و«الذكر» منشور الولاية، الذى من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل.

وهو قوت قلوب القوم، الذى متى فارقها صارت الأجساد لها قبورًا. وعمارة ديارهم التى إذا تعطلت عنه صارت بورًا، وهو سلاحهم الذى يقاتلون به قطاع الطريق وماؤهم الذى يطفئون به التهاب الحريق. ودواء أسقامهم الذى متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل، والعلاقة التى كانت بينهم وبين علام الغيوب.

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات. وتهون عليهم المصيبات. إذا أظلهم البلاء، فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل، فإليه مفزعهم، فهو رياض جنتهم التى فيها يتقلبون، ورءوس أموال سعادتهم التى بها يتجرون يدع القلب الحزين ضاحكًا مسرورًا. ويوصل الذاكر إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكورًا.

وفى كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة. و«الذكر» عبودية القلب واللسان وهى غير مؤقتة بل هم يؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم فى كل حال: قيامًا وقعودًا، وعلى جنوبهم. فكما أنَّ الجنة قيعان، وهو غراسها. فكذلك القلوب بور خراب. وهو عمارتها، وأساسها[(١)]

وهو جلاء القلوب وصقالها. ودواؤها إذا غشيها اعتلالها وكلما ازداد الذاكر فى ذكره استغراقًا. ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقًا. وإذا واطأ فى ذكره قلبه للسانه: نسى فى جنب ذكره كل شىء. وحفظ عليه كل شىء. وكان له عوضًا من كل شىء.

به يزول الوقر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار.

زين الله به ألسنة الذاكرين. كما زين بالنور أبصار الناظرين. فاللسان الغافل: كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصرى -رحمه الله-: تفقدوا الحلاوة فى ثلاثة أشياء: فى الصلاة، وفى الذكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم، وإلا فاعلموا أن الباب مغلق[(٢)]

وقال بعض السلف: إذا تمكن الذكر من القلب، فإن دنا منه الشيطان صرعه، كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان، فيجتمع عليه الشياطين، فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسه إنسىٌّ[(٣)]

---

(١) مدارج السالكين جـ٢/ ٤٤.

(٢) مدارج السالكين جـ٢/ ٤٤١، والرسالة القشيرية ص٣١٥ ط/ التوفيقية

(٣) مدارج السالكين جـ ٢/ ٤٤١، والرسالة القشيرية ص٣١٦

وقال سعيد بن عثمان. سمعت ذا النون يقول: من ذكر الله على حقيقته نسى فى جنبه كل شىء، ومن نسى فى جنب الله كل شىء حفظ الله عليه كل شىء، وكان له عوضًا من كل شىء وقال أيضًا[1]

ما طابت الدنيا إلا بذكره، ولا طابت الآخرة إلا بعفوه، ولا طابت الجنة إلا برؤيته.

وقال سهل بن عبد الله: ما من يوم إلا والجليل ينادى: عبدى، ما أنصفتنى! أذكرك وتنسانى، وأدعوك إلىَّ، وتذهب إلى غيرى، وأُذهبُ عنك البلايا وأنت معتكف على الخطايا[2]

**بذكر الله ترتاح القلوبُ ودنيانا بذكراه تطيبُ**
**إذا ذكر المحبوب عند حبيبه ترنح نشوان وحنَّ طروبُ[3]**

## • مكانة الذكر فى الدين •

يقول ابن القيم فى إحدى فوائده[4]:

مبنى الدين على قاعدتين: ١- الذكر. ٢- الشكر.

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال النبى ﷺ لمعاذ بن جبل: «**والله إنى لأحبك فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعنى على ذكرك، وشكرك وحسن عبادتك**»[5] وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان، بل الذكر القلبى واللسانى.

وأما الشكر فهو القيام له بطاعته، والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهرًا وباطنًا، وهذان الأمران هما جماع الدين. فذكره مستلزم لمعرفته، وشكره متضمن لطاعته، وهما الغاية التى خلق لأجلها الجن والإنس، والسموات والأرض، ووضع لأجلهما الثواب والعقاب، وأنزل ربنا الكتب وأرسل الرسل.

ومن هذا الكلام نفهم أن

## • درجات الذكر •

للذكر ثلاث درجات: أما الأولى: فالذكر الظاهر: «ثناء أو دعاء أو رعاية» والمراد به: الجارى على اللسان، المطابق للقلب، لا مجرد الذكر اللسانى.

---

(١) صفة الصفوة جـ٤/ ٢٢٤

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزى جـ٤/ ٢٢٥ وحلية الأولياء جـ٩/ ٣٧٢ وابن رجب فى لطائف المعارف ص٥٠٤.

(٣) الرسالة القشيرية ص٣١٥.

(٤) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلى ص٥٠٤ ط/ دار ابن كثير.

(٥) الفوائد لابن القيم ص١٤٤

(٦) رواه أبو نعيم فى الحلية جـ١/ ٢٤١ ؛ احمد فى مسنده (٢٥ ٢٢) بسند صحيح.

**ذكـرتـك لا أنى نـسيـتك لمحـة — وأيسـر ما فـى الذكر ذكـر اللسـان**
**وكدت بلا وجد أمـوت من الهوى — وهـام علـى القـلب بـالخـفـقـان**
**فلمـا أرانى الوجـد أنك حاضـرى — شـهـدتـك مـوجـوداً بـكل مـكان**
**لخـاطـبت مـوجـوداً بـغـيـر تكـلم — ولاحظت مـعلومـاً بغيـر عيـان(١)**

فأما ذكر الثناء: فنحو «سبحـان الله والحمد لله والله أكبر» فهو من أحب الكلام إلى الله رب العالمين، فعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أحبُّ الكلام إلى الله أربـع: سـبـحـان الله، والحـمـد لله، ولا إله إلا الله، والله أكـبـر، ولا يـضـرك بأيـهن بدأت»(٢)**

بل إن هذه الكلمات أثقل فى ميزان العبد يوم القيامة، من كثير من الأعمال، لقول الرسول الأكرم عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: **«كلمتان خفيـفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»(٣)**

وأما ذكر الدعـاء فنحو ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [الأعراف: ٢٣] أو كقولك: «يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث».

وأما ذكـر الرعاية: فـمثل قـول الذاكر: **الله مـعى، الله شاهد علـى، الله ناظر إلىَّ** ولذلك كان الصالحون يعلمون تلاميذهـم أن يذكروا الله تعالى بمثل هذه الألفاظ فعن سهل ابن عبـد الله التسـترى -رحمه الله- قـال: قال لى خـالى يوماً: ألا تذكـر الذى خلقك؟ فـقلت: كـيف أذكر؟ فـقال: قـل: **الله ناظر إلىَّ، الله شـاهد علىَّ، الله مـعى**. يقـول: فمضيت، علـى ذلك سنين، فوجدت لها حلاوة فى سرى، ثم قـال لى خالى: يا سهل، من كان الله معه، وهو ناظر إليه، وشاهده أيعصيه؟ فإياك والمعصية(٤)

الدرجة الثانية: الذكر الخفى، وهو «الخلاص من القيود، والبقاء مع الشهود، ولزوم المسامرة»(٥)

والمقصـود بالذكر الخـفى: الذكر بمجـرد القلب، وتلك الدرجـة تكون ثمـرة الذكر باللسان الظاهرى والمراد بالخـلاص من القيود: أن يتخلص العبد من الغـفلة والنسيان، وأن يزيل الحجب الحائلة الحاجزة بين القلب وبين رب العالمين، كتعلقه بالشهوات والملذات.

وأما لزوم المسامرة فهى لزوم مناجاة القلب لربه، وتضرعه إليه سبحانه وتعالى.

---

(١) الرسالة القشيرية ص٣١٤ من كلام الشبلى رحمه الله.
(٢) رواه أحمد رقم (١٩٩٨٩) جـ١٥/١٢٨ بإسناد صحيح وصححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم (١٧٣).
(٣) رواه البخارى ومسلم وأحمد رقم (٧١٦٧).
(٤) الرسالة القشيرية للإمام القشيرى ص٧٨ بتحقيق الشيخ/ هانى الحاج بتصرف.
(٥) مدارج السالكين جـ٢/ ٤٥٣.

والدرجة الثالثة:

الذكر الحقيقى، وهو شهود ذكر الحق إياك، والتخلص من شهود ذكرك وسمى هذا «الذكر» فى هذه الدرجة حقيقيًا، لأنه منسوب إلى الله تعالى، فهو الذى يقول فى حديثه القدسى الجليل: **«أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حين يذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه، ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه، وإن تقرب إلىَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلىَّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة»**[١].

وهو الذى يقول للعبد الذاكر: **«أنا عند ظنك بى، وأنا معك إذا ذكرتنى»**[٢].

فأى فضل هذا؟! بل أى مكافئة أعظم من تلك المكافأة؟ إنَّ هذا العبد الضعيف حين يذكر مولاه، فى هذا الكون، يذكره مولاه العظيم فى مكان أعظم وأوسع من الذى ذكره العبد، يذكره أمام الملائكة الأطهار، وقد أكد لنا هذا الفضل فى قرآنه، ووضح تلك المكافأة العليا فى كتابه حين قال: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة: ١٥٢]. يقول ابن عباس رضي الله عنهما:

ذكر الله إياكم، أكبر من ذكركم إياه.

فمن نحن حتى يذكرنا ربنا إن ذكرناه؟! فاذكر ربك أخى المسلم، وما عليك بعد ذلك، يقول ابن الجوزى ناصحًا:

«يا هذا حفر النهر إليك، وإجراء الماء ليس عليك، أحضر ساقية: ﴿**فَاذْكُرُونِي**﴾ إلى جنب بحر: ﴿**أَذْكُرْكُمْ**﴾ فإذا بالغ فيه معول الكد، فاضت عليك مياه البحر، **«فبى يسمع وبى يبصر»**، ألق بذر الفكر فى أرض الخلوة، واسق إليه ساقية من ماء الفكر، لعلها تنبت لك شجرة **«أنا جليس من ذكرنى»**[٣]

اذكر مولك حتى يقال: إنك مجنون.

فسبحانك، رفع المذنبون أكفهم بالضراعة إليك، واجتهدوا فى الوقوف بين يديك، يا من بيدك الملك والملكوت، وفقنا إلى ذكرك حتى لا يبقى لنا عضو إلا قام بذكرك، وسبح بحمدك يا رب العالمين، يامن

**ملأت كلى منك حتى لم أدع ... منى مكانًا خاليًا لسواك**
**والقلب فيك هيامه وغرامه ... والروح لا تنفك عن ذكراك**

قيل لراهب: أنت صائم؟ فقال: صائم بذكره، فإذا ذكرت غيره أفطرت[٤]

---

(١) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما ورواه أحمد فى مسنده برقم (٧٤١٦) والألبانى (٤٢١٣) صحيح الجامع.
(٢) رواه الحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم (٤٢٠١).
(٣) المدهش ص٢٣٧ لابن الجوزى.
(٤) الرسالة القشيرية ص٣١٦.

وذُكر عن إبراهيم بن أدهم، أنه رأى رجلاً يحدث بشيء من كلام الدنيا، فوقف عليه وقال: أهذا كلام ترجو فيه الثواب؟ فقال الرجل: لا قال: أفتأمن فيه من العقاب؟ قال: لا قال: فما تصنع بكلام لا ترجو فيه ثوابًا، ولا تأمن فيه عقابًا؟ عليك بذكر الله[١]

## • الكون كله يذكر ويسبح •

**أخى المسلم:**

هل تعلم أن ذكر الله تعالى وتسبيحه عبادة جميع الكائنات؟!

هل تعلم أن الأرض تسجد لربها، والنجوم تسجد لربها، والشمس تسجد لربها، والقمر يسجد لربه، وكل الكائنات تسجد لأمر ربها، والسجود من الذكر قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السموات ومن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ**﴾ [الحج: ١٨].

يدين له النجم فى أفقه — يدين له الفلك الدائر
يدين له الفرخ فى عشه — ونسر السما الجارح الكاسر
تدين البحار وحيتانها — وماء سحاباتها القاطر
تدين له الأسد فى غابها — وظبى الفلا الشارد النافر
يدين له الذر فى سعيه — يدين له الزاحف والناشر
تدين النجاد تدين الوهاد — يدين له البر والفاجر
يدين الجلى يدين الخفى — يدين الجهر والخاطر
تدين الحياة يدين الوجود — يدين المقدر والحاضر
وكل العباد إليه رجوع — وفوق العباد هو القاهر

**١- الملائكة عبادتها ذكر الله:**

تلك الأجسام النورانية، الذين لا يأكلون ولا يشربون، ولا يتناكحون، ولا يتناسلون إنما جعل التسبيح لهم بمثابة الطعام والشراب، فهم ﴿**يُسَبِّحون اللَّيْلَ وَالنَّهار لا يَفْتُرُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢]. وقال سبحانه: ﴿**الَّذين يَحْمِلُون الْعَرْشَ وَمَنْ حوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا...**﴾ [غافر: ٧].

وقد قال سيد الخلق فيما رواه عنه حكيم بن حزام قال: بينما رسول الله ﷺ فى أصحابه إذ قال لهم: «**أتسمعون ما أسمع؟** قالوا: ما نسمع من شيء، قال: إنى لأسمع أطيط السماء -أى صوتًا- **وما تلام أن تئط، فما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم**»[٢] بل إنهم يحبون الذكر ويستمعون إليه، ويبحثون عن مكانه:

(١) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص٣١٢

(٢) ذكره الألبانى فى السلسلة الصحيحة وقال: صحيح على شرط مسلم.

فعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**إن لله تعالى ملائكة سيارة فُضْلاً، يتغون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلسًا فيه ذكر قعدوا معهم، وحف بعضهم بعضًا بأجنحتهم حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء الدنيا، فإذا انصرفوا عرجوا، وصعدوا إلى السموات...**»[(١)] وفى رواية للترمذى من حديث أبى هريرة أيضًا، وسعيد الخدرى رضي الله عنه «**إن لله ملائكة سياحين فى الأرض فضلاً عن كُتَّاب الناس، فإذا وجدوا أقوامًا يذكرون الله، تنادوا: هلموا إلى بغيتكم، فيجيئون...**»[(٢)]

ويحضرون لسماع خطبة الجمعة بنص حديث سيد البشر ﷺ: «**إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول، فالأول، فإذا جلس الإمام، طووا الصحف، وجاءوا يستمعون الذكر**»[(٣)]

٢- **الجبال تذكر ربها**: الجبال التى هى من أكبر الشواهد على قدرة بارئها وفاطرها، فهى تسبح بحمده، قال تعالى ﴿**وسخَّرْنَا مع دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ**﴾ [الأنبياء: ٧٩] وقال: ﴿**يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ والطَّيْرَ**﴾ [سبأ: ١٠] وقال: ﴿**إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْن بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ**﴾ [ص: ١٨]

يقول الفخر الرازى فى تفسيره: الجبال لما سبحت شرفت بذكر **الله** فلم يضفها إلى داود بلام الملك، بل جعلها معه كالمصاحب[(٤)]

وقال ابن كثير فى آية (ص): يسبحن «أى الجبال» آخر النهار وأوله، وكانت تسبح مع داود كلما سبح بكرة وعشيًا[(٥)]

كما جعلها الله تعالى تشقَّق وتهبط من خشيته سبحانه قال سبحانه: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**﴾ [الحشر: ٢١].

وهى التى خافت من ربها وفاطرها وخالقها مع شدتها وعظم خلقها من حمل الأمانة، حين عرضها رب العالمين عليها، فأشفقت من حملها، **قال تعالى**: ﴿**إِنَّا عرضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السموات والأَرضِ والْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَن يحملْنَهَا**﴾ [الأحزاب: ٧٢].

إنَّ هذه الجبال لتعلم أنَّ لها موعدًا ويومًا تنسف فيه نسفًا، وتصير كالعهن من هوله، فهى مشفقة من هول ذلك اليوم، **ولذلك كانت أم الدرداء رضي الله عنها إذا سافرت**، وصعدت على جبل تقول لمن معها: أَسمِعِ الجبال، فيقول: **ما أسمعها؟** فتقول: ﴿**ويسأَلُونك عنِ الْجبالِ فقُل ينسفُها ربِي نسفًا** ﴿١٠٥﴾ **فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا** ﴿١٠٦﴾ **لا ترى فِيها عوجًا ولا أمتًا**﴾ [طه ١٠٧].

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة (٢) رواه الترمذى وقال: **حديث حسن صحيح**.

(٣) رواه البخارى وأحمد فى مسنده (٥١٦ ١) وذكره الألبانى فى **صحيح الجامع رقم (٧٧٤)**.

(٤) تفسير الرازى جـ٢٤/٦٤٧ ط/ دار الغد. (٥) البداية والنهاية جـ٢/١١ **والتفسير المجلد ٤/ ٢٩**

فهذه حال الجبال وهى الحجارة الصلبة، وهذه رقتها وخشيتها وذكرها لرب العالمين تبارك وتعالى.

فيا عجبًا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال، تسمع آيات الله تتلى عليها، ويذكر الرب، فلا تلين ولا تخشع، ولا تنيب إليه.

**٣- الرعد يذكر ويسبح:**

قال تعالى: ﴿ **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ** ﴾ [الرعد: ١٣]

وكان أحد السلف إذا صوت الرعد يقول: «سبحان الذى يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته»(١)

**٤- الشجر:**

قال تعالى: ﴿ **وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ** ﴾ [الرحمن: ٦] فالنجم ما ليس له ساق من النبات، والشجر ماله ساق، وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده: ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾ [الإسراء: ٤٤].

تسبح تلك الأشجار وتذكر ربها فى كل وقت وحين، تلك الأشجار التى تدل على عظمة الخالق الأعظم جل وعلا، إنها فى كل عام لها حمل ووضع، فإذا أذن لها ربها فى الحمل احتبست الحرارة الطبيعية فى داخلها، وسرى الماء فى أفنانها، وانتشرت فيها الحرارة والرطوبة، حتى إذا حان وقت ولادتها كسيت من سائر الملابس الفاخرة من النور والورق ما تتبختر فيه، فمن الذى غير حالها وبدله من حال إلا حال، هو رب العالمين الذى يجب عليك أن تذكره دائمًا وأبدًا فى كل وقت وحين.

| | |
|---|---|
| **بذكرك يا مولى الورى نتنعم** | **فقد خاب قوم عن سبيلك قد عموا** |
| **ألست الذى قربت قومًا فوافقوا** | **ووفقتهم حتى أنابوا وأسلموا** |
| **وقلت استقيموا منةً وتكرمًا** | **فأنت الذى قومتهم فتقوموا** |
| **لهم فى الدجى أنس بذكرك دائمًا** | **فهم فى الدياجى ساجدون وقوم** |
| **لك الحمد عاملنا بما أنت أهله** | **وسامح وسلمنا فأنت المسلم** |

**٥- النمل:**

حتى النمل فى جحره يسبح بحمد ربه، ويذكره، يذكره عالم النمل، ذلك العالم العجيب الذى إن تدبرت أحواله كان لك منه عبر وآيات، عالم النمل عالم فطن، ويكفى

---

(١) تفسير القرطبى المجلد ٥/ ٣٥٢٥ فى سورة الرعد.

دلالة على فطنته ما نص عليه رب العالمين فى كتابه من قولها أى النملة لجماعة النمل، وقد رأت سليمان وجنوده: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾ [النمل: ١٨].

يقول ابن القيم فى مفتاح دار السعادة(١): «فتكلمت -أى النملة- بعشرة أنواع من الخطاب فى هذه النصيحة منها: النداء، والتنبيه، والأمر، والنهى، والتحذير، والتخصيص، والتعميم والاعتذار. فاشتملت نصيحتها مع الاختصار على هذه الأنواع».

ولا تستبعد هذه الفطنة من أمة من الأمم تسبح بحمد ربها وتذكره فعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**نزل نبى من الأنبياء تحت شجرة، فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرج، ثم أحرق قرية النمل، فأوحى الله إليه: من أجل أن لدغتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح، فهلا نملة واحدة**»(٢)

ولقد خرج سيدنا سليمان عليه السلام بقومه يستسقى حين أجدبت الأرض، ولم تمطر السماء فوجد فى الطريق نملة ترفع قوائمها إلى الله تعالى وتقول: «**اللهم إنا خلق من خلقك لا تؤاخذنا بذنوب بنى آدم. .**» فقال عليه السلام: **ارجعوا فقد سقيتم بدعاء نملة**(٣)

**٦- النحل:**

تلك الحشرة الصغيرة، المخاطبة بما خوطب به الأنبياء: ﴿**وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [النحل. ٦٨، ٦٩].

فتأمل كيف كان ذكرها لربها، إن ذكرها هو الامتثال والطاعة، وكمال طاعتها لأمر ربها جل وعلا، حين اتخذت بيوتها فى هذه الأمكنة الثلاثة: «**الجبال، وفى الشجر، وفى** بيوت الناس حيث يعرشون ويبنون».

وتأمل كيف أداها حسن الامتثال إلى أن اتخذت البيوت قبل المرعى، فهى تتخذ بيتها أولاً، ثم إذا استقر بها المقام خرجت منه، فرعت، وأكلت من الثمار، ثم آوت إلى بيوتها، لأن الله أمرها باتخاذ البيوت أولاً، فقال: ﴿**أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا**﴾. ثم بالأكل بعد ذلك، ولذلك عطف بثم فقال: ﴿**ثُمَّ كُلِي...**﴾ فمن الذى أوحى إليها أمرها، وجعل ما جعل فى طباعها؟

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم الجوزية جـ٢/ ١٥١ دار ابن عفان.

(٢) رواه البخارى (٣٣١٩) ومسلم (٢٢٤١).

(٣) رواه الدارقطنى فى سننه (١٨٨) والحاكم فى مستدركه ١/ ٣٢٥ وقال: صحيح الإسناد وصححه الألبانى فى المشكاه رقم ( ١٥١).

ومن الذى سهل لهـا سبلاً مذللة منقادة لا تـستعصى عليهـا، ولا تضل عنها؟ ومن الذى هداها لشأنها؟ إنه مدبر الكون.

إنه من:

**الشـمس والبدر مـن أنوار حكمـته ... والبـر والبـحر فـيـض من عطـاياه**
**الطـيـر سـبحـه والـوحش مـجـده ... والمـوج كـبـره والحــوت نـاجــاه**
**والنمل تحت الصخـور الصم قدسه ... والنحـل يهتـف حمـداً فى خـلاياه**
**والناس يعـصونه جـهراً فـيستـرهم ... والعـبـد ينسـى وربى ليـس ينسـاه**

**٧- تسبيح الحصى والطعام:**

فعن علقـمة عن ابن مسـعود ﷺ قال: كنا نسـمع تسبيح الطعـام وهو يؤكل وفى رواية: «كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيحه».

وقال أنس ﷺ أخذ النبى ﷺ كفًّا من حصًى فسبحن فى يد رسول الله ﷺ حتى سمعنا التسبيح، ثم صبهن فى يد أبى بكر ﷺ فسبحن ثم فى أيدينا فما سبَّحن(١)

**٨- السمك يسبح مولاه:**

لما روى عن أبى الدرداء ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإنَّ الـعالم ليـستـغفر لـه من فى السمـوات، ومن فى الأرض، والحـيتان فـى جوف الماء..**»(٢)

وقال بعض الـصالحين: رأيت صـيادًا بالهند كلـما صاد سمـكة دفعهـا إلى ابنة له، فترسلها فى الماء وهو لا يعلم، فلما فرغ جاء، فلم يجـد شيئًا، فسألها عن ذلك، فقالت: إنها كانت تسبح الله فى يدها، فما دفعت إلى سمكة إلا وسمعتها تقول سبحان الله.

**٩- الخيل تذكر ربها:**

ودليل ذلك أنها تخشع عند سماع القرآن الكريم وهو أجل الذكر.

فعن أسـيد بن حضـير ﷺ قال: «بينمـا هو يقرأ من الليـل سورة البقرة، وفـرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفـرس، فسكت، فسكنت، فقرأ أسيد فـجالت الفرس، فسكت وسكنت الفرس. ثـم قرأ فجالت، وكان ابنه يـحيى قريبًا منهـا، فأشفق أن تصيبـه، فلما اجتره -أى أخذه من مكانه- رفع رأسه إلى السماء، فـرأى أمثال المصابيح تعرج إلى السماء حتى ما كاد أن يراها، فلما أصبح حدث النبى ﷺ: فقال له «**اقرأ يا بن حضير اقرأ يابن**

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى جـ١/ ٣٠٢ ط/ الحلبى.

(٢) رواه أبو داود رقم (٣٦٤١) وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود جـ٢/ ٤٠٧

**حضير أو تدرى ماذاك؟ قال: تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم»**[١]

وما من يوم إلا ويتوجه الفرس إلى ربه بالدعاء والتضرع إليه، وذلك من الذكر أيضًا لما رواه أبو ذر الغفارى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

**«إنه ليس من فرس عربى إلا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين: اللهم إنك خولتنى من خولتنى من بنى آدم، فاجعلنى من أحب أهله وماله إليه»**[٢]

**١٠- الجمادات تسبح:**

فالجمادات تسبح أيها الإنسان وأنت فى غفلة عن ربك! فانتبه

**بئس العبد عبد سها ولها ... ونسى المبدأ والمنتهى**

**بئس العبد عبد طغى وعتا ... ونسى الجبار الأعلى**

قال سبحانه: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾ [الإسراء: ٤٤].

يقول إبراهيم النخعى فى هذه الآية: يسبح كل شيء حتى صرير الباب.

ويقول سيد الخلق: «**ما من ملب يلبى إلا لبى ما عن يمينه، وشماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من ههنا وههنا**».

**١١- الجن:**

حتى عالم الجن، ذلكم العالم الخفى يذكر مولاه.

لأن منهم المؤمن التقى، والمسلم النقى، ومنهم الفاسق الفاجر، والكافر الملعون، فهم مكلفون مثل عالم الإنس سواء بسواء ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا**﴾ [الجن: ١، ٢].

ولما قرأ النبى ﷺ على أصحابه ذات يوم سورة الرحمن، ولما فرغ من قراءته توجه إلى أصحابه وقال لهم. «لقد قرأتها على الجن، فكانوا أفقه منكم، فكنت كلما أتيت قوله تعالى: ﴿**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ [الرحمن: ١٨] **قالوا: ولا بشيء من آلائك نكذب فلك الحمد يا ربنا**»[٣]

---

(١) رواه البخارى (١٨ ٥) ومسلم (٢٤١)

(٢) رواه أحمد فى مسنده رقم (٢١٣٨٩) جـ١٥/٥٤٧ بإسناد صحيح ورواه الحاكم ٢/١٤٤ وصححه ووافقه الذهبى ورواه النسائى رقم (٣٥٧٩) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع رقم (٢٤١٤).

٣) ذكره ابن كثير فى تفسيره لسورة الرحمن وقد رواه عن الترمذى عن جابر وقال الترمذى هذا حديث غريب جـ٤/٢٦٩ وقد صححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة برقم (٢٣٦٣).

## • أوقات الذكر •

**أخى المسلم:**

متى يشرع الذكر؟.

إن المؤمن الحق هو من لا يغفل عن ذكر الله فى أى وقت من الأوقات، ولا حال من الأحوال فالمؤمن يذكر ربه فى حله، وترحاله، يذكره إذا جلس، يذكره إذا قام، يذكره إذا ذهب، يذكره فى خلوته مع مولاه، يذكره عند اختلاطه بالناس، ومن أجل ذلك مدح ربنا عز وجل عباده المؤمنين الذاكرين، وسماهم بأولى الألباب فقال سبحانه:

**﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾** [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

يقول عبد الله بن عباس ﷺ: لم يفرض الله تعالى فريضة على عباده إلا جعل لها حدًّا معلومًا، وعذر أهلها فى حال العذر، غير الذكر فإنه لم يجعل له حدًّا ينتهى إليه، ولم يعذر أحدًا فى تركه إلا مغلوبًا على عقله، فلذلك أمرهم به فى كل الأحوال فقال: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾** [الأحزاب: ٤١].

اذكره ليلاً ونهارًا، برًّا وبحرًا، سفرًا وحضرًا، مريضًا وصحيحًا، سرًّا وجهرًا، اذكره عند نومك، عند يقظتك، اذكره عند طعامك، عند شرابك، عند خروجك من منزلك، عند دخولك، عند عطسك، عند رؤيتك لأهل البلاء، عند نزول المطر، عند هبوب الرياح، اذكره عند غضبك، عند فرحك عند غمك.

إذا أصحبت فقل: يا الله، وإذا أمسيت فقل: يا الله، وإذا استعنت فقل: يا الله وإذا مرضت فقل: يا الله، إذا افتقرت فقل: يا الله، إذا كنت فى فراش الموت. فقل: يا الله يا الله يا الله.

فالذكر أخى الحبيب ترياق المذنبين، وأنس المنقطعين، وكنز المتوكلين، وغذاء الموقنين، وحلية الواصلين، ومبدأ العارفين، وبساط المقربين، وشراب المحبين.

وذاكر الله فى الغافلين مثل شجرة خضراء فى وسط شجر يابس!

ذاكر الله فى الغافلين مثل مصباح فى بيت مظلم!

بل ذاكر الله تعالى فى الغافلين، كما قال سيد المرسلين، ورسول رب العالمين: **«مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكره كمثل الحى والميت»**[١]

* يقول الإمام الشوكانى معلقًا على هذا الحديث:[٢]

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) تحفة الذاكرين للشوكانى ص١٥ مكتبة دار التراث

وفى هذا التمثيل منقبة للذاكر جليلة، وفضيلة له نبيلة، وأنه بما يقع منه من ذكر الله عز وجل فى حياة ذاتية وروحية، لما يغشاه من الأنوار، ويصل إليه من الأجور. كما أنَّ التارك للذكر، وإن كان فى حياة ذاتية، فليس لها اعتبار بل هو شبيه بالأموات الذين لا يفيض عليهم بشىء مما يفيض على الأحياء المشغولين بالطاعة لله عز وجل، ومثل ما فى هذا الحديث قوله تعالى: ﴿أَو من كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

## • مواطن يتأكد فيها الذكر •

لكن هناك مواطن وأوقات يتأكد فيها الذكر، وينبغى للعبد أن يكون ذاكرًا لله عز وجل فيها لكى ينال رضوان الله تعالى فى الدنيا والآخرة منها:-

١- أنَّ الذكر يتأكد عقب الصلوات الخمس، وبعد صلاتى الفجر والعصر، قال تعالى: ﴿وسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤٢].

والأصيل: قال الجوهرى هو الوقت بعد صلاة العصر إلى المغرب، وقال تعالى: ﴿وسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥] فالإبكار أول النهار والعشى آخره.

٢- عند لقاء الأعداء قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

كما يرشدنا القرآن الكريم إلى أن ذكر الله له مواطن وأماكن يحلو فيها ويحسن وإن كان ذكر الله تعالى فى كل مكان وأوان، فالله سبحانه وتعالى يقول فى سورة النور: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [النور: ٣٦]. ويقول: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ [الحج: ٤].

**بذكرك يا مولى الورى نتنعم — وقد خاب قوم عن سبيلك قد عموا**
**شهدنا يقينًا أن علمك واسع — فأنت ترى ما فى القلوب وتعلم**
**إلهى: جد واصفح وأصلح قلوبنا — فأنت الذى تولى الجميل وتكرم**

## • القرآن الكريم تاج الذاكرين •

ذلكم الهدى الربانى، الذى أنزل رب العالمين على سيد المرسلين، ليخرج به الناس من الظلمات الى النور، إنه الحجة البالغة، والدلالة الدامغة، إنه شفاء الصدور، والحكم العدل عند مشتبهات الأمور، لقد حرسه مولاه بعين منه لا تنام، وأحاطه بركن منه لا يضام قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فجعله سبحانه فى دجى الليل نورًا ساطعًا، وفى ظلمة الشبهة شهابًا لامعًا، وإلى سبيل النجاة هاديًا وإمامًا فلا يجوز عن قصد الحجة تابعه، ولا يضل عن سبل الهدى مصاحبه، فمن اتبعه فاز وهُدى، ومن حاد عنه ضل وغوى.

سماه رب العالمين بالذكر فى مواطن عديدة فقال سبحانه: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١، ٢]. وقال: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ [القلم: ٥١] وقال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس: ١١]. وقال: ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا﴾ [القمر: ٢٥]. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧]، [التكوير: ٢٧] والآيات فى ذلك كثيرة.

فالقرآن الكريم هو أفضل الذكر، وأهله هم أفضل العباد، وأقربهم إلى الله تعالى، وهم أهل الله وخاصته كما قال سيد الذاكرين، وقائد الغر المحجلين.

فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ لله تعالى أهلين من الناس قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: أهل القرآن هم أهل الله وخاصته**»(١)

وقال سبحانه عنهم:

﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ**﴾ [فاطر ٢٩].

فإذا أردت أخى المسلم أن يثقل ميزانك، وترتفع درجتك عند مولاك، فعليك بأفضل الذكر، وهو القرآن الكريم، ولذلك أوصاك أمير الأنبياء والمرسلين به فقال فى الحديث الذى رواه عنه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«**اقرءوا القرآن، فإنكم تؤجرون عليه، أما إنى لا أقول: «ألم» حرف، ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر، فتلك ثلاثون**»(٢) وفى رواية عنه أيضًا:

«**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول «ألم» حرف ولكن ألف حرف ولام حرف، وميم حرف**»(٣)

إذا أردت أن تنال الدرجات العلا فعليك بالقرآن:

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«**يُقال لصاحب القرآن اقرأ وارق، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**»(٤)

---

(١) رواه أحمد فى مسنده برقم (١٢٢١٩) جـ١٠/٩ ٤ بإسناد صحيح ورواه ابن ماجه رقم (٢١٥) والدارمى (٢٣٢٦) والطيالسى (٢١٢٤) والحاكم وصححه ٥٥٦/١ ووافقه الذهبى والألبانى فى صحيح الجامع.

(٢) صححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم (١١٦٤)..

(٣) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح غريب، وذكره المنذرى فى الترغيب جـ٢/ ٢٤٣

(٤) رواه الترمذى وقال: حديث صحيح ورواه أبو داود رقم (١٤٦٤) فى صحيح سنن أبى داود للألبانى جـ١ ص٤٠٣.

قال الخطابى:

جاء فى الأثر أن عـدد آى القرآن[١] على قدر درج الجـنة، فيقال لـلقارئ: ارق فى الدَّرج على قدر ما كنت تقرأ من آى القرآن، فمن استـوفى قـ جميع القرآن استولى على أقصـى درج الجنة فى الآخرة، ومـن قرأ جزءًا منـه، كان رقيـه فى الدرج على قـدر ذلك فيكون منتهى الثواب عند منتهى القراءة[٢]

وإذا أردت أن تحب الله ورسـوله، ويحـبك الله ورسـوله، فـاقـرأ القـرآن، أو علِّم القرآن، ولو آية من كتاب الله جل وعـلا، يقول النبى المصطفى ﷺ: **«من سره أن يحبه الله ورسوله، فليقرأ فى المصحف»**[٣] ويقول:

**«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»**[٤]

## • السلف الصالح وخير الذكر •

من أجل هذا كله نرى أن السلف الصالح رضـوان الله عليهم كانوا أشد الناس حبـًا للذكر الحكيم وهو «القرآن الكريم» خير الذكر، وأعلى الذكر وأفضله.

١- فهذا هو عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول ابن سـيرين: **قالت امرأة عثمان حين قتل: إن تقتلوه أو تتركوه فإنه كان يحيى الليل كله فى ركعة يجمع فيها القرآن**[٥].

رضى الله عن عثمان ذى النورين، والمصلى إلى القـبلتين، والمهاجر الهجرتين.

عن عثمان بن عبد الرحمن التيمى قال: قال أبى: لأغلبن الليلة على المقام، قال: فلما صليت العتمة تخلصت إلى المقـام حتى قمت فيه، فبينما أنا قائـم إذ رجل وضع يده بين كتفى، فإذا هو عثمان بن عفان، قال: فبدأ بأم القرآن، فقرأ حتى ختم القرآن، فركع وسجد[٦]

٢- وهذا هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ذلكم الـصحابى الجليل الذى تعلم القرآن من فم من نزل عليه القرآن، ولذلك يقول أشرف الخلق: **«من أحب أن يقرأ القرآن غضـًا كما أنزل، فليقرأ على قراءة ابن أم عبد»**[٧]

---

(١) وعدد آيات القرآن (٦٢٣٦) آية فكان عدد درجات الجنة مثلها.

(٢) انظر الترغيب والترهيب جـ٢/ ٣٥، ٣٥١

(٣) رواه أبو نعـيم فى حليـة الأولياء جـ٧/ ٩ ٢ وقـال: غريب تفـرد به الحرث بن مـالك وقد حـسنه الألبانى.

(٤) رواه البخارى وأحمد فى مسنده برقم ( ٥) وأبو داود (١٤٥٢) فى صحيح سننه للألبانى جـ١/ ٤٠.

(٥) صفة الصفوة لابن الجوزى جـ١/ ١٢٦ والحلية لأبى نعيم جـ١/ ٥٧ والزهد لابن المبارك رقم (١٢٧٧).

(٦) حلية الأولياء جـ١/ ٧٤، ٧٥ والزهد لابن المبارك (١٢٧٦) ص ٣.

(٧) حديث صحيح رواه أبو نعيم فى الحلية جـ١/ ١٢٤ وصفة الصفوة جـ١/ ١٧٠ ورواه أحمد فى مسنده رقم (٤٢٥٥).

ولقد جاء رجل إلى عمر بن الخطاب، فقال: إنى جئتك من عند رجل يُملِ المصحف عن ظهر قلب، ففزع عمر وغضب، وقال: ويحك انظر ما تقول؟

قال: ما جئتك إلا بالحق. قال: من هو؟ قال: عبد الله بن مسعود. قال: ما أعلم أحدًا أحق بذلك منه..»[1]

ويقول فى حديث آخر: «**خذوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود، وأُبى، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبى حذيفة**»[2]

ولذلك اسمع إليه حين ينصح قراء القرآن، فيقول:

«ينبغى لحامل القرآن. أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون.

وينبغى لحامل القرآن. أن يكون باكيًا محزونًا حليمًا حكيمًا سكينًا، ولا ينبغى لحامل القرآن أن يكون جافيًا ولا غافلاً، ولا صخابًا ولا صياحًا، ولا حديدًا..»[3]

٣- ومنهم: معاذ بن جبل، وأبى بن كعب، وسالم، وتميم الدارى:

أما أبى بن كعب ﷺ فكان يختم القرآن فى كل ثمان ليال.

وكان الرسول ﷺ من كثرة تدبره للقرآن سأله: **يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله أعظم؟** قال: قلت: ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قال: فضرب فى صدرى، وقال: «**ليهنئك العلم يا أبا المنذر**»[4]

وعن أبى المهلب، عن أبى بن كعب أنه كان يختم القرآن فى كل ثمان ليال.

وكان تميم الدارى يختمه فى سبع[5]

وأما الحافظ القارئ سالم مولى أبى حذيفة، فذلكم الصحابى الذى كان بمودع الكتاب ناطقًا، وفى العبادة مخلصًا واثقًا، فعن ابن عمر ﷺ قال: لما قدم المهاجرون الأولون العصبة -موضع بقباء- قبل مقدم رسول الله ﷺ كان يؤمهم سالم مولى أبى حذيفة، وكان أكثرهم قرآنًا[6]

---

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية جـ١/ ١٢٤ وصفة الصفوة جـ١/ ١٦٩، ١٧

(٢) رواه البخارى (٣٨٠٦) ومسلم (٢٤٦٤).

(٣) حلية الأولياء لأبى نعيم جـ١/ ١٣ وصفة الصفوة جـ١/ ١٧٦ والفوائد لابن القيم ص١٦٣

(٤) رواه مسلم ( ٨١) وصفة الصفوة جـ١/ ٤ ٢ وحلية الأولياء جـ١/ ٢٥٠

(٥) صفة الصفوة جـ١/ ٤ ٢ (٦) رواه البخارى (٦٩٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت:

أبطأت على عهد رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء، ثم جئت فقال: **أين كنت** قلت: كنت أستمع قراءة رجل من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد. قالت: فقام وقمت معه حتى استمع له ثم التفت إليَّ فقال: **هذا سالم مولى أبى حذيفة، الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثل هذا**»(١)

وأما القارئ الرابع فهو معاذ بن جبل، ذلكم الصحابى الذى أحبه النبى ﷺ، وأوصاه، فقال له ﷺ:

**«يا معاذ والله إنى لأحبك»** فقال: **«أوصيك يا معاذ لا تدعن فى دبر كل صلاة تقول: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»**(٢)

فأى شرف أعلى من هذا الشرف؟ وأى فخر قد باء به معاذ، إنه شرف بحب سيد المرسلين والنبيين محمد بن عبد الله ﷺ

ولقد قال فيه فاروق الأمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه **عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ،** لولا معاذ لهلك عمر(٣)

فسلام عليك يابن مسعود، وسلام عليك يا أبى بن كعب، وسلام عليك يا سالم وسلام عليك يا معاذ سلام عليكم فى الأولين، وسلام عليكم فى الآخرين، وسلام عليكم إلى يوم لقاء رب العالمين.

**٤- ومنهم سعيد بن جبير -رحمه الله-:**

ذلكم الفقيه البكاء، السعيد الشهيد، السديد الحميد، أبو عبد الله جبير بن سعيد ذلكم الرجل الذى دخل الكعبة، فقرأ القرآن كله فى ركعة واحدة.

وعن الحسن بن صالح عن ورقاء قال: **كان سعيد بن جبير يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء فى شهر رمضان**(٤)

وعن عبد الملك بن أبى سليمان: أن سعيد بن جبير كان يختم القرآن فى كل ليلتين(٥)

**٥- ومنهم عروة بن الزبير:**

ذلكم المتعبد الصوام القوام -عروة بن الزبير- الذى كان يقرأ ربع القرآن كل يوم فى

---

(١) الصحيح المسند من فضائل الصحابة ص٣٦٤ ونقلت من رجال ونساء حول الرسول للأخ الأستاذ/ هانى الحاج.

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢٥ ٢٢) وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود رقم (١٥٢٢) وأخرجه أبو نعيم فى الحلية جـ١/ ٢٤١

(٣) رجال ونساء حول الرسول ص١٣٥ للأستاذ الشيخ/ هانى الحاج.

(٤)، (٥) حلية الأولياء جـ٤/ ٢٧٣ وصفة الصفوة جـ٣/ ٣٧، ٣٨

المصحف ويقوم به ليله، وما تركه إلا ليلة أن قطعت رجله، ثم عاود حزبه من الليلة المقبلة[١]

**٦- ومنهم: الإمام الشافعى -رحمه الله-:**

يقول الربيع بن سليمان: كان محمد بن إدريس الشافعى يختم فى شهر رمضان ستين ختمة ما منها شىء إلا فى صلاة.

ويقول محمد بن الحسن قال: قال الربيع: سمعت الشافعى يقول: كنت أختم فى رمضان ستين مرة[٢]

ذلكم الرجل الذى يوصى بحفظ القرآن فيقول:

«من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن نظر فى الفقه نَبُلَ مقداره، ومن تعلم اللغة رق طبعه، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه- وفى رواية-: «من تعلم القرآن جُلَّ فى عيون الناس»[٣]

**٧- ومنهم: وكيع بن الجراح:**

يقول يحيى بن أيوب: حدثنى بعض أصحاب وكيع الذين كانوا يلازمونه: كان وكيع لا ينام حتى يقرأ ثلث القرآن، ثم يقوم فى آخر الليل، فيقرأ المفصل ثم يجلس.

وقال يحيى بن أكثم: صحبت وكيعًا فى السفر والحضر، فكان يختم القرآن كل ليلة[٤]

## • من فضلاء الذاكرين •

ومن فضلاء الذاكرين من أصحاب الرسول الأعظم ﷺ صاحب هذه الوصية والذى تحدثنا عنه فى أول الوصية، فكان ﷺ يقول: «إن الذين ألسنتهم رطبة بذكر الله عز وجل يدخل أحدهم الجنة وهو يضحك»[٥]

وهو الذى يقول: «اذكر الله عز وجل فى السراء يذكرك فى الضراء»[٦]

ولذلك فإنه كان ملازمًا لذكر الله تعالى، فقيل له يومًا، كم تسبح كل يوم؟ قال: مائة ألف إلا أن تخطئ الأصابع.

وكان أبو مسلم الخولانى -رحمه الله- يكثر أن يرفع صوته بالتكبير حتى مع الصبيان، وكان يقول «اذكروا الله حتى يرى الجاهل أنكم مجانين»[٧]

---

(١) صفة الصفوة جـ٣/ ٤٩ وحلية الأولياء جـ٢/ ١٧٨

(٢) حلية الأولياء جـ٩/ ١٣٤، صفة الصفوة جـ٢/ ١٥٢

(٣) صفة الصفوة جـ٢/ ١٥١

(٤) صفة الصفوة جـ٣/ ٨٦.

(٥) المرجع السابق جـ١/ ٢٨٣

(٦) سبق تخريجه فى هذه الوصية.

(٧) حلية الأولياء جـ٢/ ٢٤

وكان أبو هريرة ﷺ من الذاكرين الله كثيرًا، فقد ثبت أنه كان يسبح كل يوم اثنتى عشرة ألف تسبيحة ويقول: أسبح بقدر ذنبى.

وقد كان له خيط فيه ألفا عقدة فلا ينام حتى يسبح به[١]

وعن عكرمة قال: قال أبو هريرة: إنى لأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم اثنتى عشرة ألف مرة، وذلك على قدر دَيْنى[٢]

ورُئى بعض الصالحين وهو يغسل يعقد بأنامله كأنه يسبح وذلك من كثرة تسبيحه وذكره لله عز وجل. نسأله سبحانه أن يجعلنا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات.

## • أحوال الذاكرين •

### أخى المسلم:

يقول ابن الجوزى -رحمه الله-: واعلم أنَّ الذاكرين تختلف أحوالهم.

فمنهم من يؤثر قراءة القرآن، ويقدمه على كل ذكر، ومنهم من كان أكثر ذكره التهليل والتسبيح والتحميد.

قال سعيد بن عبد العزيز: قلت لعمر بن هانئ: أرى لسانك لا يفتر من ذكر الله عز وجل فكم تسبح كل يوم؟ فقال: مائة ألف إلا أن تخطئ الأصابع.

وقال محمد بن ثابت البنانى: ذهبت ألقن أبى وهو فى الموت، فقلت: يا أبتِ قل: لا إله إلا الله، فقال: يا بنى خل عنى فإنى فى وردى السادس أو السابع!.

**ذكرك لى مؤنس يعارضنى — يعدنى عنك منك بالظفر**
**وكيف أنساك يا مدى هممى — وأنت منى بموضع النظر[٣]**

ومن الذاكرين من غلب على قلبه حب المذكور فلا يزال فى الذكر والتعبد.

يقول الإمام الجنيد: ما رأيت أعبد من سرى السقطى، أتت عليه ثمان وسبعون سنة ما رئى إلا فى علة الموت.

ومن الذاكرين من صار الذكر به إلفًا لا عن كلفة، فما له هم غيره، فهو يذكر أبدًا على جهة الحضور.

قال مجمش الجلاب: صحبت أبا حفص النيسابورى اثنتين وعشرين سنة فما رأيته ذكر الله تعالى على حد الغفلة والانبساط، وما يذكر الله إلا على سبيل الحضور والحرمة والتعظيم، وكان إذا ذكر الله تعالى تغير عليه حاله حتى كان يرى ذلك جميع من حضره.

وقال بعض السلف: صحبت فى طريقى رجلاً أسود، فكان إذا ذكر الله تعالى ابيض.

---

(١) صفة الصفوة جـ١/ ٩ ٣ (٢) حلية الأولياء جـ١/ ٣٨٣.

(٣) التبصرة لابن الجوزى جـ٢/ ٣٠٧، ٨ ٣ ط/ دار ابن خلدون.

**إخوانى:**

أين أهل الأذكار؟ أين قوام الأسحار؟ أين صوام النهار؟ خلت والله منهم الديار إخوانى: ما أحسن من التجأ إلى رب العالمين، وما أطيب حال من انتمى إلى عباده الصالحين! وما أحسن حديث المحبين! وما أطيب أخبار المتقين!

إخوانى: ما أربح بضائع العاملين! وما أصبح وجوه المجتهدين!

وما أعطر أنفاس الذاكرين! وما ألذ عتاب المشتاقين! وما أنفع بكاء المحزونين! وما أعذب مناجاة القائمين!

إخوانى: ما أمر عيش المحرومين! وما أذل نفوس الخاطئين! وما أسوأ حال الظالمين! وما أعظم حسرة الغافلين! وما أشنع عيش المطرودين، وما أقبح وجوه العصاة والمذنبين![(١)]

## • آداب الذكر •

**أخى المسلم:**

اعلم أن للذكر آدابًا يجب أن يتحلى بها الذاكر حتى يكون له ذلك الثواب العظيم من الله تعالى، ومن هذه الآداب ما يأتى:

**١ - الإخلاص:**

فعلى الذاكر أن يخلص النية لله رب العالمين قال تعالى ﴿**أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**﴾ [الزمر: ٣] وقال سبحانه: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**﴾ [البينة: ٥].

والذكر من أعظم العبادات كما فهمت، ويقول النبى ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى**»[(٢)] وقد قيل لبعض الحكماء: ما الإخلاص؟ قال: ألا تحب محمدة الناس. وقيل: المخلص هو الذى يكتم حسناته كما يكتم سيئاته[(٣)]

وقالوا: إنَّ العمل (الذكر وغيره) يحتاج إلى أربعة أشياء حتى يسلم:

**أولها:** العلم قبل بدئه، لأن العمل لا يصلح إلا بالعلم، فإن كان العمل بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه.

**ثانيًا:** النية فى مبدئه، لأن العمل لا يصلح إلا بالنية - للحديث السابق.

**ثالثًا:** الصبر فى وسطه حتى يؤديه على السكون والطمأنينة.

**رابعًا:** الإخلاص عند فراغه لأن العمل لا يقبل بغير إخلاص، فإذا عملت بالإخلاص يتقبل الله منك، وتقبل قلوب العباد إليك[(٤)]

---

(١) الروض الفائق بتصرف يسير. (٢) متفق عليه، رواه البخارى ومسلم عن عمر.

(٣)، (٤) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص١٢، ١٣

**٢- طهارة المكان:**

يقول الشوكانى:(١) ينبغى أن يكون المكان الذى يذكر الله فيه نظيفًا خاليًا، **لأن الذكر** عبادة للرب سبحانه، والنظافة على العموم قد ورد الترغيب فيها، والأمر بالبعد عن النجاسة كما فى قوله تعالى: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ [المدثر: ٤] ولا شك أن القعود حال الدعاء أو الذكر فى مكان متنجس يخالف آداب العبادة. كما أن خلو المكان أقرب إلى حضور القلب وأطهر البقاع التى ينبغى للمؤمن أن يذكر مولاه فيها، بيوت الله تعالى فى الأرض، وهى المساجد، قال تعالى: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ...**﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

**٣- أن يكون الذاكر على أكمل الصفات الآتية:**

أ- أن يكون فمه نظيفًا.

ب- وأن يزيل تغيره بالسواك.

فتنظيف الفم عند الذكر أدب حسن، ولهذا جاءت السنة المتواترة بمشروعية السواك للصلاة والعلة فى ذلك تنظيف المحل الذى يكون الذكر به فى الصلاة.

فالمسلم حين يناجى ربه لابد أن يكون طيب الفم، طيب اللسان، **لأنه** يناجى مولاه عز وجل.

**٤- أن يستقبل القبلة:**

لأن القبلة هى الجهة التى يتوجه إليها المصلون، ويتضرع نحوها العابدون، ولأن التوجه إلى القبلة عبادة يثاب فاعلها إذا ما قصد ذلك. فينبغى للمسلم الذاكر أن يعظم جهة القبلة، ولهذا ورد النهى عن أن يبصق الرجل إلى جهة قبلته، كما رواه البخارى وغيره، وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لكل شىء سيدًا، وإن سيد المجالس قبالة القبلة**»(٢)

**٥- أن يتدبر ما يقول ويتعقل معناه وإن جهل شيئًا تبينه:**

فلا ريب أن تدبر الذاكر لمعانى ما يذكر به أكمل، **لأنه بذلك** يكون فى حكم المخاطب والمناجى فينبغى أن يكون حاضر الذهن، متيقظ النفس، متفهمًا لذكره(٣)

## أخى المسلم:

اجعل قلبك قبلة لسانك، واستشعر عند الذكر حياء العبودية، وهيبة الربوبية، واعلم أن الله تعالى يعلم سر قلبك، ويرى ظاهر فعلك، ويسمع نجوى قولك، **فاغسل قلبك**

---

(١) تحفة الذاكرين للشوكانى ص٣٨، ٣٩ بتصرف.

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى هريرة بإسناد حسنه الإمام الشوكانى فى تحفة الذاكرين ص٤٢.

(٣) تحفة الذاكرين للشوكانى ص٣٩

بالحزن، وأوقد فيه نار الخوف، فإذا زال حجاب الغفلة عن قلبك كان ذكرك به مع ذكره لك: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] لأنه ذكرك مع استغنائه عنك، وأنت ذكرته مع افتقارك إليه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

والذكر ذكران: خالص بموافقة القلب فى سقوط النظر إلى غير الله، وذكر صافٍ بفناء الهمة عن الذكر قال ﷺ: «لا أحصى ثناءً عليك..»[1]

## • مواطن يستحب فيها قطع الذكر •

يقول الإمام النووى فى كتابه «الأذكار»:

فى أحوال تعرض للذاكر يستحب له قطع الذكر بسببها، ثم يعود إليه بعد زوالها منها:

إذا سلم أحد عليه فيردّ السلام، ثم يعود لما كان فيه من الذكر.

إذا عطس عنده أحد فحمد الله، فإنه يشمته، ثم يعود لما كان عليه.

إذا سمع الخطيب، يخطب على المنبر يوم الجمعة حتى يفرغ من الخطبة.

إذا سمع المؤذن أجابه فى كلمات الأذان والإقامة ثم عاد إلى الذكر.

إذا رأى منكرًا أزاله، أو معروفًا أرشد إليه، أو مسترشدًا أجابه ثم عاد إلى الذكر.

إذا غلبه النعاس أو نحوه[2]

## • متى يمنع العبد من الذكر؟ •

### أخى المسلم:

اعلم أن ذكر الله تعالى مستحب فى كل وقت وحين، وفى كل مكان وزمان إلا ما ورد النهى عنه من الشارع الحكيم، فقد ورد النهى عن ذكر الله تعالى فى مواضع منها: الحمام، مكان قضاء الحاجة والمزبلة والمقبرة، وقارعة الطريق، ومعاطن الإبل هذا ما يتعلق بمكان الذكر، لكن هناك أمور تتعلق بالذاكر، وهى كما أشرنا أن يكون طاهرًا من الحدث سواء أكان حدثًا أكبر مثل الحيض أو النفاس أو الجنابة، أو كان حدثه حدثًا أصغر.

والذى عليه عامة الفقهاء جواز الذكر من المحدث حدثًا أكبر إلا قراءة القرآن فى المصحف أوفى غيره، لكن يجوز له أن يجرى القرآن على قلبه من غير تلفظ به، وكذلك النظر فى المصحف.

---

(١) منهاج العابدين للإمام الغزالى ص٤٧

(٢) الأذكار للإمام النووى ط/ دار الريان تحقيق أحمد عبد الله باجور ص٣٤

قال الإمام النووى(١):

قال أصحابنا: ويجوز للجنب والحائض أن يقولا عند المصيبة: إنا لله وإنا إليه راجعون. وعند ركوب الدابة: سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وعند الدعاء: ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، إذا لم يقصد الذاكر به القرآن، ولهما أن يقولا: بسم الله والحمد لله، إذا لم يقصدا به القرآن سواء قصدا الذكر أو لم يكن لهما قصد ولا يأثمان إلا إذا قصدا القرآن.

ويجوز لهما قراءة ما نسخت تلاوته مثل: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما» وأما إذا قالا لإنسان: ﴿خُذ الْكِتَاب بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] أو قالا: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]. ونحو ذلك، فإن قصدا غير القرآن لم يحرم، وإلا حرم.

فيجوز لهما الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ والاستغفار، والتوبة، وقول لا إله إلا الله، والتسبيح، والتحميد، والتكبير وغير ذلك.

## • فوائد الذكر •

**أخى المسلم الكريم:**

ذكر الأستاذ الدكتور/ محمد بكر إسماعيل فى كتابه «وصايا الرسول» قال:

فذكر الله تعالى يعطى الكلام رونقًا وجمالاً، ويضفى عليه هيبة وجلالاً، ويزيد المتكلمين خشوعًا وامتثالاً لله عز وجل، ويجعل الله تعالى فى كلامهم خيرًا وبركة، ويكون الذكر مكفرًا لما بدر منهم أثناء كلامهم من خطايا.

والذكر أيضًا يرقق القلوب القاسية، ويشرح الصدور الضيقة، ويفسح المجال للعقل فى التأمل والنظر، ويعينه على إدراك ما فى هذا الكون الفسيح من آيات بينات دالة على وحدانية الله وقدرته.

إن ذكر الله عز وجل يعمق جذور الإيمان فى القلوب المؤمنة ويثبتها تثبيتًا لا يزعزعه شك، ولا تعتريه شبهة.

إنَّ ذكر الله عز وجل هو النعيم الأبدى الذى لا يعدله نعيم دنيوى ولا أخروى. قال عالم من العلماء العاملين:

عجبت لمن يخرج من الدنيا ولم يستمتع بنعيمها! قالوا: أو فى الدنيا نعيم يا رجل؟! قال: نعم فيها نعيم يعدل نعيم الجنة.

قالوا: وما هو؟ قال: «ذكر الله»(٢)

---

(١) الأذكار للنووى ص٣١.

(٢) وصايا الرسول للأستاذ الدكتور/ محمد بكر إسماعيل جـ٣/ ٣٨٩ ط/ دار المنار.

وقد ذكر الإمام ابن القيم -رحمه الله- فى كتابه «الوابل الصيب»[(١)] أنّ فى الذكر أكثر من مائة فائدة، وذكر منها:

١- أن الذكر يطرد الشيطان ويقمعه:

فالذاكر لا يستطيع أن يحرز نفسه من الشيطان إلا بالذكر، لأنه يدخل عليه من باب الغفلة فهو دائمًا يترصده، ويراقبه، فإذا غفل وثب عليه وافترسه.

قال ابن عباس:

«الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس».

٢- أن يرضى الرحمن عز وجل:

لأنه بذكره لمولاه وعدم غفلته عن ذكره يكون قد أرضاه سبحانه.

**فيا رب رضاك خير من الدنيا وما فيها ... يا مالك النفس قاصيها ودانيها**

**فليس للروح آمال تحققها ... سوى رضاك فذا أقصى أمانيها**

**فنظرة منك يا سؤلى ويا أملى ... أحبُّ إلىَّ من الدنيا وما فيها**

٣- أنه يزيل الهم والغم عن القلب:

وأما الغافل عن الذكر فهو بعيد القلب عن الله تعالى، وبعيد عن قلوب الصالحين، وقد ورد:

**«لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فتقسو قلوبكم، فإن القلب القاسى بعيد من الله ولكن لا تعلمون..»**[(٢)]

٤- أنه يجلب للقلب الفرح والسرور.

٥- أنه يقوى القلب والبدن.

٦- أنه ينور الوجه والقلب.

٧- أنه يجلب الرزق.

٨- أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة.

٩- أنه يورثه المحبة التى هى روح الإسلام وقطب رحى الدين.

١- أنه يورث المراقبة حتى يدخله فى باب الإحسان ليعبد الله كأنه يراه.

١١- أنه يورث الإنابة، وهى الرجوع إلى الله.

١٢- أنه يورثه القرب منه.

١٣- أنه يفتح له بابًا من أبواب المعرفة.

---

(١) من كتاب الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم الجوزية ط/ دار الريان.

(٢) رواه مسلم فى كتاب البر والصلة باب تحريم الغيبة حديث (٧٠) ومالك فى الموطأ جـ٢/ ٣٧٦

١٤- أنه يورثه الهيبة لربه عز وجل وإجلاله.

١٥- أنه يورثه ذكر الله تعالى له كما قال سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] ولو لم يكن فى الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفًا، وقال ﷺ فيما يروى عن رب العزة: «من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى..»[1]

١٦- أنه يورث حياة القلب:

يقول: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟

١٧- أنه قوت القلب والروح:

فقد كان الإمام ابن تيمية -رحمه الله- إذا صلى الفجر جلس يذكر الله إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت يومًا إلى تلميذه ابن القيم وقال له: «هذه غدوتى، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتى»[2]

١٨- أنه يورث جلاء القلب من صدئه:

فالقلب يصدأ كما يصدأ الحديد، والنحاس، وسائر المعادن، وصدأ القلب يكون بأمرين:

بالغفلة عن ذكره تعالى، وبارتكاب المعاصى والذنوب.

كما يكون جلاؤه بشيئين أيضًا: بالاستغفار، والذكر.

١٩- أنه يحط الخطايا ويذهبها

٢- أنه يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى.

٢١- أن ما يذكر به العبد ربه عز وجل من جلاله وتسبيحه وتحميده يذكر بصاحبه عند الشدة.

٢٢- أن العبد إذا تعرف إلى الله فى الرخاء بذكره، عرفه ربه فى الشدة.

٢٣- أنه ينجى من عذاب الله تعالى:

فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «ما عمل آدمى عملاً أنجى من عذاب الله من ذكر الله تعالى»[3]

٢٤- أنه سبب تنزيل السكينة، وغشيان الرحمة، وحفوف الملائكة بالذاكر، فعن

---

(١) سبق تخريجه. (٢) الوابل الصيب ص٦٣

(٣) رواه مالك فى الموطأ عن معاذ، ورواه الطبرانى فى الصغير والأوسط عن جابر وذكره الألبانى فى صحيح الجامع برقم (٥٦٤٤).

أبى هريرة، وأبى سعيد الخدرى رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «**لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده**»[(١)]

٢٥- أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل.

٢٦- أن مجالس الذكر مجالس الملائكة، ومجالس الغفلة مجالس الشياطين، فليتخير العبد أعجبهما إليه، وأولاهما فهو مع أهل الدنيا والآخرة.

٢٧- أنه يسعد الذاكر بذكره، ويسعد به جليسه.

٢٨- أنه يؤمن العبد من الحسرة يوم الحسرة.

فعن عائشة عن النبى ﷺ أنه قال: «**ما من ساعة تمر بابن آدم لا يذكر فيها إلا تحسر عليها يوم القيامة**»[(٢)]

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله عز وجل فيها**»[(٣)]

٢٩- أنه مع البكاء فى الخلوة سبب لإظلال الله تعالى العبد يوم الحر الأكبر فى ظل عرشه. كما يتضح من حديث: «**سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله ... منهم: ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**».

٣- أن الاشتغال به سبب لعطاء الله للذاكر أفضل ما يُعطى السائلين.

٣١- أنه أيسر العبادات، وهو من أجلها وأفضلها.

٣٢- أنه غراس الجنة:

فعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لقيت إبراهيم ليلة أسرى بى، فقال: يا محمد أقرئ أمتك منى السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر**»[(٤)] وفى رواية:

«**أكثروا من غراس الجنة، فإنه عذب ماؤها، طيب ترابها، فأكثروا من غراسها: لا حول ولا قوة إلا بالله**»[(٥)] وفى رواية:

«**ألا أدلك على غراس هو خير من هذا؟ تقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، يغرس لك بكل كلمة منها شجرة فى الجنة**»[(٦)]

---

(١) رواه أحمد فى مسنده، ومسلم فى صحيحه وذكره الألبانى فى صحيح الجامع (٧٧٥٧).

(٢) رواه البيهقى وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع برقم ( ٥٧٢) والسلسلة الصحيحة (٢١٩٧).

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير وذكره الألبانى فى صحيح الجامع ص٥٣٢٢

(٤) رواه الترمذى عن ابن مسعود وقال: حسن غريب وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع رقم (٥١٥٢).

(٥) رواه الطبرانى فى الكبير وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع رقم (٢٦١٣).

(٦) صحيح الجامع (٢٦٣١).

ولذلك فإن هناك مجموعة من الملائكة المتخصصين فى غرس شجر الجنة، حتى قال الحسن البصرى -رحمه الله-:

إنَّ أحدهم ليفتر فيقال له: مالك؟ فيقول: فتر صاحبى عن العمل، فكان الحسن يقول: أمدوهم رحمكم الله(١)

وعن جابر أن النبى ﷺ قال: «**من قال: سبحان الله وبحمده غرست له نخلة فى الجنة**»(٢)

٣٣- أنَّ العطاء والفضل الذى رتب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال:

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه**»(٣)

وعنه أيضًا: «**لأن أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحبُّ إلىَّ مما طلعت عليه الشمس**»(٤)

٣٤- أن دوام ذكر الله تعالى يوجب الأمان من نسيانه الذى هو سبب الشقاء للعبد فى معاشه ومعاده قال تعالى: ﴿**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [الحشر ١٩].

٣٥- أن الذكر يُسَيِّرُ للعبد وهو فى فراشه وفى سوقه، وفى حال صحته، وسقمه، وفى حال نعيمه ولذته.

٣٦- أنَّ الذكر نور للذاكر فى الدنيا، ونور له فى قبره، ونور له فى معاده يسعى بين يديه على الصراط ، فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله، ولهذا كان النبى ﷺ يبالغ فى سؤال ربه تبارك وتعالى حين يسأله أن يجعله فى لحمه وعظامه وعصبه وشعره، وبصره، وسمعه، ومن فوقه، ومن تحته، عن يمينه وعن شماله، أمامه وخلفه، فيقول: «**اللهم اجعل من فوقى نوراً، ومن تحتى نوراً، وعن يمينى نوراً، وعن شمالى نوراً ، وفى سمعى نوراً، وفى بصرى نوراً..**»(٥)

٣٧- أن الذكر رأس الأصول، وطريق عامة الطائفة، ومنشور الولاية: فمن فتح له فيه فقد فتح له باب الدخول على الله فليتطهر وليدخل على ربه يجد عنده كل ما يريد، فإن وجد ربه فقد وجد كل شىء، وإن فاته فقد فاته كل شىء.

---

(١) التبصرة جـ٢/ ١٨٤

(٢) رواه الترمذى وقال: حسن صحيح وصححه الألبانى فى صحيح الجامع رقم (٦٤٢٩).

(٣) رواه البخارى ومسلم. (٤) رواه مسلم والبخارى. (٥) رواه مسلم.

(٦) رواه أبو داود وذكره الألبانى فى صحيح الجامع برقم (٣٦ ٥) وحسنه.

٣٨- في القلب خلة -أى نقص- وفاقة لا يسدها شيء ألبتة إلا ذكر الله عز وجل.

٣٩- أنَّ الذكر يجمع المتفرق، ويفرق المجتمع، ويقرب البعيد، ويبعد القريب: فيجمع ما تفرق على العبد من قلبه وإرادته وهمومه، وعزومه، ويفرق ما اجتمع على قلبه من الهموم والغموم والأحزان والحسرات، ويفرق ما اجتمع عليه من ذنوبه وخطاياه وأوزاره ويقرب إليه الآخرة التى يبعدها منه الشيطان والأمل.

ويبعد القريب إليه وهى الدنيا.

٤- أن الذكر ينبه القلب من نومه، ويوقظه من سنته، والقلب إذا كان نائمًا فاتته الأرباح والمتاجر وكان الغالب عليه الخسران.

٤١- أن الذكر شجرة تثمر المعارف والأحوال التى شمر إليها السالكون.

٤٢- أن الذاكر قريب من مذكوره، ومذكوره معه وهذه المعِّية خاصة غير معية العلم والإحاطة العامة، فهى معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مع الَّذين اتَّقَوا وَّالَّذين هُم مُّحْسِنونَ** ﴾ [النحل: ١٢٨].

٤٣- أن الذكر يعدل عتق الرقاب، ونفقة الأموال، والحمل على الخيل فى سبيل الله ويعدل الضرب بالسيف - وهو موضوع هذه الوصية.

فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من صلاة الغداة حتى تطلع الشمس، أحبُّ إلىَّ من أن أعتق أربعة من ولد إسماعيل، ولأن أقعد مع قوم يذكرون الله من صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس أحب إلىَّ من أن أعتق أربعة**»[١]

٤٤- أن الذكر رأس الشكر، فما شكر الله تعالى من لم يذكره:

قال تعالى: ﴿ **فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِى وَلا تَكْفُرُون** ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقد ذكر البيهقى فى شعب الإيمان عن عبد الله بن سلام قال. قال موسى: يا رب، ما الشكر الذى ينبغى لك؟ فأوحى الله تعالى إليه **أن لا يزال لسانك رطبًا من ذكرى**[٢]

٤٥- أن أكرم الخلق على الله تعالى من المتقين من لا يزال لسانه رطبًا بذكره تعالى. وقد ذكر البيهقى أيضًا عن محمد بن كعب القرطبى -رحمه الله- قال: **قال موسى** عليه السلام: يا رب أى خلقك أكرم عليك؟ قال: «**الذى لا يزال لسانه رطبًا بذكرى**».

«**ولما فد موسى** عليه السلام **إلى طور سيناء قال: يا رب، أى عبادك أحب إليك؟ قال: الذى يذكرنى ولا ينسانى**[٣] ورب العزة تبارك وتعالى يقول لداود عليه السلام: «.. **هل تدرى يا داود من أسرع مرًا على الصراط؟ الذين يرضون بحكمى، وألسنتهم رطبة بذكرى**»[٤]

---

(١) رواه أبو داود وذكره الألبانى فى صحيح الجامع برقم (٥٠٣٦) وحسنه.

(٢)، (٣) انظر الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم ص٩٨ ط/ الريان.

(٤) حلية الأولياء لأبى نعيم جـ٤/ ٤٦ والزهد لابن المبارك (٤٧٧) والزهد لأحمد ص٨٩.

٤٦- أن فى القلب قسوة لا يذيبها إلا الذكر:

جاء رجل إلى الحسن البصرى وقال له: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبى، قال: أذبه بالذكر.

٤٧- أن الذكر شفاء القلب ودواؤه:

ولذلك ينصح أبو الدرداء صاحب هذه الوصية فيقول للناس الذين هم فى غفلة كما قاله سيد الخلق: «**يا أيها الناس: اذكروا الله اذكروا الله جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة .. جاءت الراجفة تتبعها الرادفة .. جاء الموت بما فيه**»(١)

٤٨- أن الذكر أصل موالاة الله عز وجل ورأسها، والغفلة أصل معاداته ورأسها.

٤٩- أنه جلاب للنعم، دافع للنقم، قال سبحانه: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ [إبراهيم: ٧].

٥٠- أنه يوجب صلاة الله عز وجل، وملائكته على الذاكر، ومن صلى عليه مولاه وملائكته فقد أفلح كل الفلاح، وفاز كل الفوز.

٥١- أنه سبب فى سكنى الجنة ورياض نعيمها فى الدنيا ثم بعد ذلك فى الآخرة.

٥٢- أن الله عز وجل يباهى بالذاكرين ملائكته.

فعن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال: خرج معاوية على حلقة فى المسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله، قال. آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: آلله ما أجلسنا غيره، قال: أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتى من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثًا منى، وأن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: **ما أجلسكم؟** قالوا: جلسنا نذكر الله، ونحمده على ما هدانا إلى الإسلام، ومَنَّ علينا به، قال: «**آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟** قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك، قال: **أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكن أتانى جبريل، فأخبرنى أن الله عز وجل يباهى بكم الملائكة**»(٢)

٥٣- أن مدمن الذكر يدخل الجنة وهو يضحك.

٥٤- أن جميع الأعمال إنما شرعت لإقامة الذكر: كقوله تعالى لموسى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**﴾ [طه: ١٤] وكقوله تعالى فى الحج: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا**﴾ [البقرة: ٢] الآية التى قبلها كذلك: ﴿**فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ**﴾ [البقرة: ١٩٨].

وعن عائشة ﷺ عن النبى ﷺ قال: «**إنما جعل الطواف بالبيت، وبين الصفا والمروة، ورمى الجمار لإقامة ذكر الله تعالى**»(٣)

---

(١) رواه الحاكم والترمذى وغيرهما وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع ص٧٧٤٠

(٢) رواه مسلم وأحمد فى مسنده رقم (١٦٧٧٨).

(٣) رواه الترمذى وقال: حسن صحيح.

٥٥- أن مجالس الذكر هى مجالس الملائكة، كما فى حديث الصحيحين: عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «**إن لله ملائكة فضلاً عن كتاب الناس، يطوفون بالطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم..**»[(١)]

٥٦- أن أفضل أهل كل عمل أكثرهم فيه ذكرًا لله عز وجل، فأفضل الصوام أكثرهم ذكرًا لله عز وجل فى صومهم، وأفضل المتصدقين أكثر ذكرًا لله عز وجل، وأفضل الحاج أكثرهم ذكرًا لله عز وجل.

٥٧- أن إدامته تنوب عن التطوعات، وتقوم مقامها سواء كانت بدنية أو مالية كحج التطوع.

٥٨- أن ذكر الله من أكبر العون على طاعته تعالى.

٥٩- أن ذكر الله يسهل الصعب، وييسير العسير، ويخفف المشاق، فهو الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، فما ذكر على صعب إلا هان، ولا على عسير إلا تيسر، ولا على مشقة إلا خفت.

٦٠- أن ذكر الله تعالى يذهب عن القلب مخاوفة كلها، وبه يحصل الأمن والأمان.

٦١- أن الذكر يعطى للذاكر قوة عظيمة، يستطيع أن يتحمل به ما لم يتحمله غيره.

٦٢- أنّ عمَّال الآخرة كلهم فى مضمار السباق، والذاكرون هم أسبقهم فى ذلك المضمار.

٦٣- أن الذكر سبب لتصديق الرب عز وجل عبده.

٦٤- أن دور الجنة تبنى بالذكر، فإن أمسك الذاكر عن الذكر أمسكت الملائكة عن البناء.

٦٥- أن الذكر سد بين العبد وبين جهنم.

٦٦- أن الملائكة تستغفر للذاكر كما تستغفر للتائب.

٦٧- أن الجبال والقفار تتباهى وتستبشر بمن يذكر الله عليها.

قال ابن مسعود: إن الجبل لينادى الجبل باسمه: أمر بك اليوم أحد يذكر الله عز وجل؟ فإن قال: نعم، استبشر به، قال عون: هن للخير أسمع[(٢)]

٦٨- أن كثرة ذكره تعالى أمان من النفاق، لأن المنافقين قليلو الذكر لله عز وجل قال الله تعالى مخبرًا عن حال المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

٦٩- أن للذكر من بين سائر الأعمال لذة لا تشبهها لذة.

قال مسلم بن يسار: ما تلذذ المتلذذون بمثل الخلوة بمناجاة الله عز وجل[(٣)]

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أبو نعيم فى حلية الأولياء جـ٤/ ٢٤٢

(٣) حلية الأولياء جـ٢/ ٢٩٤

٧- أن الذكر يكسو وجه صاحبه نضرة ونوراً فى الآخرة:

والناس أحوالهم مختلفة فى الذكر فيتفاوت النور على حسب الذاكر، **قال عبد الله** ابن مسعود: «منهم من يكون نوره كالجبل، ومنهم من يكون نوره كالنخلة، ومنهم من يكون نوره كالرجل القائم، ومنهم من يكون نوره على إبهامه يتقد مرة، ويطفأ مرة»[١]

٧١- أن فى دوام الذكر فى الطريق، والبيت، والحضر، والسفر، والبقاع، تكثيراً لشهود العبد يوم القيامة، فإن البقعة والدار، والجبل، والأرض، تشهد للذاكر يوم القيامة.

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] فقال: **أتدرون ما أخبارها؟** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة. بما عمل على ظهرها أن تقول: عملتَ عليَّ كذا وكذا يوم كذا وكذا، قال: فهو أخبارها**»[٢]

٧٢- أن فى الاشتغال بالذكر اشتغالاً عن الكلام الباطل من اللهو والغيبة، ومدح الناس وذمهم وغير ذلك[٣]

## • فاذكرونى أذكركم •

### أخى المسلم:

اعلم أن الجزاء من جنس العمل، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

قال سعيد بن جبير اذكرونى بالطاعة، أذكركم بالثواب والمغفرة[٤]

وقال أيضًا: الذكر طاعة الله، فمن لم يطعه لم يذكره وإن أكثر التهليل والتسبيح وقراءة القرآن.

وقال السدى: ليس من عبد يذكر الله إلا ذكره الله عز وجل، لا يذكره مؤمن إلا ذكره الله برحمته، ولا يذكره كافر إلا ذكره الله بعذاب[٥]

وقال الحسن البصرى فى الآية: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾. فيما افترضت عليكم ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾. فيما أوجبت لكم على نفسى.

وعن ابن عباس قال: ذكر الله إياكم، أكبر من ذكركم إياه[٦]

---

(١) ذكره الإمام السيوطى فى الدر المنثور وعزاه لابن أبى حاتم وابن المنذر وابن مردويه، ورواه الحاكم فى مستدركه، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وتعقبه الذهبى فقال: بل هو صحيح على شرط البخارى.

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده برقم (٨٨٥٣) جـ ٩/٢٩، ٣ ورواه الترمذى (٣٣٥٣) فى تفسير الزلزلة، وقال: حسن صحيح، وصححه الحاكم ٢/٢٥٦ ووافقه الذهبى.

(٣) نقلاً من كتاب الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم من ص٦١ إلى ص١١١ بتصرف واختصار. (٤)، (٥) تفسير القرطبى جـ٢/ ١٧١

(٦) تفسير ابن كثير

ويقول الإمام الرازى: ثم للناس فى هذه الآية عبارات[١]:

«فاذكرونى» بطاعتى «أذكركم» برحمتى.

«فاذكرونى» بالدعاء «أذكركم» بالإجابة والإحسان.

«فاذكرونى» بالثناء والطاعة «أذكركم» بالثناء والنعمة.

«اذكرونى» فى الدنيا «أذكركم» فى الآخرة.

«اذكرونى» فى الخلوات «أذكركم» فى الفلوات.

«اذكرونى» فى الرخاء «أذكركم» فى البلاء.

«اذكرونى» بطاعتى «أذكركم» بمعونتى.

«اذكرونى» بمجاهدتى «أذكركم» بهدايتى.

«اذكرونى» بالصدق والإخلاص «أذكركم» بالخلاص ومزيد الاختصاص.

«اذكرونى» بالربوبية فى الفاتحة «أذكركم» بالرحمة والعبودية فى الخاتمة.

جاء فى كتاب «الجزاء من جنس العمل»[٢]:

«فاذكرونى» بالتذلل «أذكركم» بالتفضل.

«فاذكرونى» بالانكسار «أذكركم» بالمبار.

«فاذكرونى» باللسان «أذكركم» بالجنان.

«فاذكرونى» بقلوبكم «أذكركم» بتحقيق مطلوبكم.

«فاذكرونى» على الباب من حيث الخدمة «أذكركم» بالإيجاب على بساط القربة بإكمال النعمة.

«فاذكرونى» بتصفية السر «أذكركم» بتوفيقة البر.

«فاذكرونى» بالجهد والعناء «أذكركم» بالجود والعطاء.

«فاذكرونى» بوصف السلامة «أذكركم» يوم القيامة، يوم لا تنفع الندامة.

«فاذكرونى» بالرهبة «أذكركم» بتحقيق الرغبة.

«فاذكرونى» بالشوق والمحبة «أذكركم» بالوصل والقربة.

«فاذكرونى» بالحمد والثناء «أذكركم» بالمنن والعطاء.

«فاذكرونى» بالتوبة «أذكركم» بغفران الحوبة.

«فاذكرونى» بالسؤال «أذكركم» بالنوال.

«فاذكرونى» بالاعتراف «أذكركم» بمحو الاقتراف.

---

(١) تفسير الفخر الرازى «مفاتح الغيب» جـ٤/ ٥٣٤، ٥٣٥ ط/ دار الغد العربى.

(٢) الجزاء من جنس العمل للدكتور سيد حسين العفانى جـ٢/ ٣٣٧ - ٣٣٩ بتصرف يسير وقد نقل من لطائف الإشارات للإمام القشيرى جـ١/ ١٣٨

«فاذكرونى» بالابتهال «أذكركم» بالاتصال.

«فاذكرونى» بالتعظيم «أذكركم» بالتكريم.

«فاذكرونى» بالتكثير «أذكركم» بالنجاة من السعير.

ولذكر الله أكبر، والله يعلم ما تصنعون، والجزاء من جنس العمل.

«يا هذا حفر النهر إليك، وإجراء الماء ليس عليك، أحضر ساقية: ﴿فَاذْكُرُونِى﴾. إلى جنب بحر ﴿أذكركم﴾ فإذا بالغ فيها معول الكد، فاضت عليك مياه البحر، **«فبى يسمع، وبى يبصر»** ألق بذرة الفكر فى أرض الخلوة، واسق إليه ساقية من ماء الفكر، لعلها تنبت لك شجرة[١] **«أنا جليس من ذكرنى»**.

## •موعظة•

### إخوانى:

اذكروا الله ذكر المحبين، وأجلوه إجلال العارفين، لتشربوا كؤوسًا من شرابه رحيقًا مختومًا، ثم تلحقوا بمن رفعهم الله عن الرحيق حتى صار كل شرابهم تسنيمًا، أهل ذكر الله وقت صفاء الأوقات يشربون من شراب المصافاة كؤوسًا مترعات، ويجنون من غروس الذكر ثمارًا يانعات، ويخلع عليهم من ملابس القرب حلل فاخرات.

| | |
|---|---|
| **اذكروا الله بكرة وأصيلا** | **وتبتلوا لذكره تبتيلا** |
| **اذكروا الله ذكر صب مشوق** | **واجعل الذكر للوصال سبيلا** |
| **ارض بالله مؤنسًا وجليسا** | **واتخذه دون العباد وكيلا** |
| **فر مما سواه والجأ إليه** | **واسمحه تجده برًّا وصولا** |
| **الزم الذكر واتخذه تجد** | **الذكر بالوصال كفيلا[٢]** |

واعلموا أن المعاصى سلسلة فى عنق العاصى لا يفكه منها إلا الاستغفار والتوبة.

والصراط كثير الاضطراب تحت أقدام السالكين، لا يسكنه إلا قول: رب سلم سلم.

والنار مستعرة لا يطفئ لهيبها إلا نور الإيمان، والموقف شديد الحر، لا يُكنٌ منه إلا ظل العرش، والقبر مطبق الظلمة، لا ينوره إلا مصباح اليقين، والجنة مغلقة الأبواب فى وجوه طلابها لا يفتحها إلا كلمة الإخلاص، والشيطان جاثم على قلب ابن آدم لا يطرده عنه إلا الذكر.

آه على قلوب لم تتفكر فى يوم الموت والرحيل، آه على جنة عدن وظل ظليل.

آه على قسوة سلكت بالقلب إلى النار بئس السبيل.

---

(١) المدهش لابن الجوزى ص٢٣٧

(٢) التذكرة فى الوعظ لأبى الفرج بن الجوزى ص٩٥، ٩٦

أما آن لـك يا مسكيـن أن تقلع عن هواك؟ أمـا خلقك فسـواك! أما عطّـف عليك القلوب وبرزقـه غذاك؟! أما ألهـمك إلى الإسلام وهداك! أمَـا قربك بفـضله وأدناك؟! لم قابلت ذلك بالـغفلة وركوب الشهوات، والمـبادرة بالخطايا والزلات؟ فنقضت بـذلك عهده وعصيت أمره، أمـا آن لك أن تستحى ممن شاهدك على المعصـية ورآك، ومع هذا إن عدت إليه قبلك وارتضاك، وإن لزمت خدمته قربك وأدناك.

## • الوصية رقم (١٠١) •

عن بريدة بن الخـصيب قال: قـال رسول الله ﷺ لعلى «**يا علىُّ! لا تتـبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليست لك الآخرة**»[١]

(وفى رواية لأحمد:)

عن على قـال: قال لـى رسول الله ﷺ: «**لا تتـبع النـظر النظـر، فإنّ لـك الأولى وليست لك الأخيرة**»[٢]

وفى رواية:

عن على بن أبى طالب أن النبى ﷺ قال له: «**يا على إن لك كنزًا من الجنة، وإنك ذو قرنيها، فلا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى، وليست لك الآخرة**»[٣]

## • ماذا قال العلماء عن وصف هذا العضو «العين»؟ •

يقول صاحب كتاب «مع الله». تحت عنوان: «الكاميرا الربانية»:

«هذه اللؤلؤة المكنونـة، والدرة المصونة، فى علبة رقـيقة ثمينة مـن جفنين وهدب، ورمشين تحفظها من الغبار، وتذود عنها الشمس!

هذه «الكاميرا» الربانية التى دونها: «كاميرات» المصورين جميعًا إذ تستقبل من المناظر والمشاهد الملايين والملايين، وكيف لا تفوقها جميعًا وهى من صنع المصور الأعظم؟!.

من جعل ماءها المطهر ملحًا، بينما جعل ماء الأذنين مرًا، وماء الأنف حامضًا؟ من نوع ذلك وهو فى الأصل واحد أيها الطبيعيون؟!

---

(١) رواه أبو داود باب ما يؤمر به من غض البصر برقم (٢١٤٩) جـ١/ ٥٩٨ وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود.

(٢) رواه أحمد فى مسنده برقم (١٣٦٩) وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر جـ٢/ ١٦٤

(٣) رواه أحمـد فى مسنده برقـم (١٣٧٣) جـ٢/ ١٦٦ وقال الشيـخ أحمد شـاكر إسناده صـحيح ورواه الحاكم فـى المستدرك ٣/ ١٢٣ مـن طريق حمـاد بن سلمة، وصـححه، ووافـقه الذهبـى. وقال الترمذى: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شريك.

إنَّ العين تستقبل المنظور معكوسًا، يحوله عصبها إلى المخ بأمانة معكوسة أيضًا، وبسرعة عجيبة، يأتى دور المخ القائد، فيعيده إلى وضعه الطبيعى، فتراه العين طبيعيًّا.

فهل حدث أن رأت العين مرة واحدة منظورًا مقلوب الوضع أو منحرفًا، لم يحدث ذلك، ولن يحدث، ولم ذلك؟ لأن المنعم الذى تفضل وأعطى ذو قدرة قادرة، وحكمة باهرة!.

لو أعطيت مليونًا من الجنيهات أو أكثر، ثمنًا لتلك الجوهرة، لا تبخل بها مع ارتفاع السعر ارتفاعًا خياليًّا؟ وسبحانه من تلهج النفوس له ثناءً وتقديسًا، وتعنو الوجوه له تعظيمًا(١)

من الذى صنع هذه الكاميرا العظيمة إنها: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] فله الحمد على نعمة البصر، وله الحمد على نعمه كلها ظاهرة وباطنة.

| | |
|---|---|
| لك المحامد ربنا حمدًا كما | يرضيك لا يبلى على الأزمان |
| ملء السموات العلى والأرض وكل | موجود بعد ومنتهى الإمكان |
| مما تشاء وراء ذلك كله | حمدًا بغير نهاية بزمان |
| وعلى رسولك أفضل الصلوات | والتسليم منك وأكمل الرضوان |
| صلى الإله على النبى محمد | ما ناح قمرى على الأغصان |
| وعلى جميع بناته ونسائه | وعلى جميع الصحب والإخوان |
| وعلى صحابته جميعًا والألى | تبعوهم من بعد بالإحسان |

**ثم تأمل أخى الحبيب:**

## • قدرة الله فى خلق عضو البصر •

أتدرى لم خلق الله تعالى لك عينين اثنتين ولم تكن عينًا واحدة؟.

يقول ابن الجوزى -رحمه الله-:

«وأما العين فإنما جعلتا اثنتين ليكونا إذا عرضت لإحداهما آفة قامت الأخرى بالبصر.

وكل عين مركبة من عشرة أجزاء وهى سبع طبقات، وثلاث رطوبات: فأما الطبقات فهى كقشور بالبصل إن أصابت بعضها آفة نابت الأخرى.

وأما الرطوبات: فيقع النظر بالوسطى وهى صافية منيرة، والرطوبتان الأخريان فمن جانبيها: واحدة موضوعة خلفها تقرب من طبيعتها تتناول الغذاء، أو تقلبه إلى طبعها، فتتناول فيه الرطوبة المبصرة.

والرطوبة الثانية تندى المبصرة لئلا تجف.

(١) نقلاً من كتاب الحقوق الإسلامية للشيخ طه عبد الله العفيفى ص١٤٧، ص١٤٨ ط/ دار التراث العربى.

وخلق الهدب ليدفع ما يطير إلى العين، وليعدل الضوء بسواده»(١)

**يـا أيهـا الإنســان مـهــلاً واتئــد          واشـكر لـربك فــضل مــا أولاك**

فأعد النظر فى نفـسك، وتأمل حكمة اللطيف الخبيـر فى تركيب بدنك، وضع هذه الأعضاء مواضعها منه، وأعددها لما أعدت له.

## • حواس الإنسان •

يقول ابن القيم:

ثم تأمل الحكمة فى أن جعل الحواس خمسًا يقصد كلاً من:-

١- حاسة اللمس          ٢- حاسة البصر          ٣- حاسة الشم.

٤- حاسة السمع          ٥- حاسة الذوق.

جعلها فى مـقابلة المحسوسات الخـمس ليلقى خمسًا بخـمس كى لا يبقى شىء من المحسوسات لا يناله بحاسة.

فجعل البصر فى مقابلة المبصرات، والسمع فى مقابلة الأصوات، والشم فى مقابلة أنواع الروائح المختلفة، والذوق فى مقابلة الكيفيات والمذوقات، واللمس فى مقابلة الملموسات.

فأى مـحسوس بقى بلا حـاسة؟ ولو كان فى المحـسوسات شىء غيـر هذه لأعطاك حاسة سادسة.

**أخى المسلم:**

تأمل كل هذا، واعـلم أن الله تعالى أعـان هذه الحواس بمخلوقـات أخرى منفـصلة عنها:

١- فأعينت حاسة البصر بالضياء والشعاع، ولولاه لم ينتفع الناظر ببصره.

٢- وأعينت حاسة الـسمع بالهواء يحمل الأصوات فى الجو، ثم يـلقيها إلى الأذن، فتحويه ثم تلقيه إلى القوة السامعة، ولولا الهواء لما سمع أحد شيئًا.

٣- وأعينت حاسة الشم بالنسيم اللطيف يحمل الـرائحة ثم يؤديها إليها، فتدركها، ولولا ذلك لم تشم شيئًا(٢)

وأعينت حاسـة الذوق بالريق المتحلِّل فى الفم، لكى تعرف وتـدرك القوة الذائقة به طعوم الأشـياء، ولو لم يكـن ذلك ما شعـرت بطعم حلو، ولا حامـض، ولا مالح، ولا قابض.

---

(١) التـبصرة جـ٢/١٦٧، ١٦٨ ط/ دار ابن خلدون وذكـره فى رؤوس القوارير أيـضًا ص٨٧ ط/ دار الصحابة.

(٢) انظر كتاب (مفتاح دار السعادة) لابن قيم الجوزية جـ٢/٣ ٢: ٢٠٥ بتصرف.

وأعينت حاسة اللمس بقوة جعلها الله تعالى فيها كى تدرك بها الملموسات، ولم تحتج هذه الحاسة إلى شيء خارج عنها، كما فى الحواس الأخر، فهى تدرك الملموسات بلا واسطة.

فمن الذى زود هذه الحواس بما تحتاج إليه؟ ومن الذى نظمها كما هى؟ إنه الله رب العالمين، فكم من نعمة أنعم بها علينا، وكم من حسنة ساقها إلينا!.

ورغم هذا ماذا كان مقابلة شكره علينا؟

وبأى شيء كافأنا إحسانه إلينا؟ فما أسبغ نعمه! وما أعدل حكمه! فيا رب:

**يا رب لك الحمد العظيم لذاتك — حمداً وليس لواحد إلاكا**
**يا مدرك الأبصار والأبصار لا — تدرى له ولكنهه إدراكا**
**إن لم تكن عينى تراك فإننى — فى كل شيء أستبين علاكا**
**يا منبت الأزهار عاطرة الشذا — هذا الشذا الفواح نفح شذاكا**
**يا مجرى الأنهار عاذبة الندا — ما خاب يومًا من دعا ورجاكا**

**ثم تأمل أخى الحبيب:**

## • حال فاقد النظر •

تأمل حال من فقد بصره، وما يصيبه فى حياته من الخلل فى أموره، أتراه يعرف موضع قدمه، أتراه يبصر أمامه أو بين يديه؟ أتراه يفرق بين الأبيض والأسود؟ أتراه يفرق بين المناظر الحسنة، والمناظر القبيحة؟ أتراه يرى حفرة يهوى بها؟ أتراه يستطيع الهروب من سبع يقصده؟ أو عدو يقتله؟ لا لا

فلولا حفظ من الله له لكان عطبه أقرب من سلامته، لذلك جعل الله تعالى ثوابه إذا صبر واحتسب الجنة، قال ﷺ: **«إذا ابتليت عبدى بحبيبته -أى عينه- ثم صبر، عوضته منهما الجنة»**(١)

ومن عظيم لطف الله تبارك وتعالى وكماله أن عكس نور بصره إلى بصيرته، فهو أقوى الناس بصيرة وحدسًا، هذا حكم من ولد أعمى.

يقول الشيخ الشعراوى -رحمه الله-:

«نجد أنَّ الله تعالى يخلق إنسانًا أعمى، أو أعور، أو أعرج، أو كسيحًا لا يمشى، أو يأتى لإنسان قوى، فيسلبه قوته، ويشل أعضاءه كل ذلك لكى يلفتنا إلى أنَّ الإنسان منا، ليس أصيلاً فى الكون، وأنَّ هذه الصفات موهوبة منه سبحانه يستطيع أن يسلبها متى شاء».

---

(١) رواه البخارى رقم (٥٣٢٩) وذكره الألبانى فى صحيح الجامع.

فأما من أصيب بفقد بصره بعد أن كان مبصرًا فهو كسائر أهل البلاء، المنتقلين من العافية إلى البلاء، فالمحنة عليهم شديدة، لأنهم قد حيل بينهم وبين ما ألفوه من المرئيات، والصور، وسائر وجوه الانتفاع.

**سؤال:** لكن أيهما أقرب إلى الكمال وأقل اختلالاً لأموره: الضرير الأعمى أو الأطرش؟

**جواب:** ذكر ابن القيم -رحمه الله- أن(١):

عادم البصر أشدهما ضررًا، وأسلمهما دينًا، وأحمدهما عاقبة، وعادم السمع أقلهما ضررًا فى دنياه، وأجهلهما بدينه، وأسوأ عاقبة، فإنه إذ عدم السمع، عدم المواعظ والنصائح، وانسدت عليه أبواب العلوم النافعة، وانفتحت له طرق الشهوات التى يدركها البصر. فضرره فى دينه أكثر، وضرر الأعمى فى دنياه أكثر.

## • وجوب غض البصر عن المحرمات •

**أخى المسلم:**

اعلم وفقنى الله وإياك إلى كل خير وصلاح أنّ البصر صاحب خبر القلب ينقل إليه أخبار المبصرات، وينقش فيه صورها، فيجول فيها الفكر، فيشتغل المرء بما لا ينفعه من أمور دينه وآخرته، لذلك يقول ابن القيم:

«إطلاق البصر ينقش فى القلب صورة المنظور، والقلب كعبة، والمعبود لا يرضى بمزاحمة الأصنام»(٢) فالقلب لا يتسع لشريكين: ملك وإلا شيطان، نور وإلا ظلمة.

فقد جعل الله تعالى العين مرآة القلب فإذا غض العبد بصره، غض القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته.

ولما كان إطلاق البصر سببًا لوقوع الهوى فى القلب، أمر الشارع الحكيم أتباعه بأن يغضوا أبصارهم عما يخاف عاقبته، لأنه هو الذى صنعهم، وصاحب الصنعة أعرف بصنعته من الآخرين، فقال رب العالمين: **﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾** [النور: ٣٠، ٣١].

**يقول الإمام الغزالى(٣):**

«واعلم أنى تأملت هذه الآية، فإذا فيها مع قصرها ثلاث معان عزيزة: تأديب، وتنبيه وتهديد، فأما التأديب فقوله تعالى: **﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾** ولابد للعبد من امتثال أمر السيد، والتأدب بآدابه، وإلا كان سيئ الأدب.

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية جـ٢/٢٠٧، ٢٠٨ دار ابن عفان.

(٢) الفوائد لابن قيم الجوزية ص٧٨ ط/ دار الحياة (٣) منهاج العارفين للإمام الغزالى.

وأما التنبيه فقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠] فنبه على أنّ في غض البصر تطهيراً للقلب، وتكثيراً للطاعة، فإن لم تغض بصرك، نظرت فيما لا يعنيك، فلا تخلو من أن تقع عيناك على محرم، فإن تعمدت فذلك ذنب كبير.

وأما التهديد فقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

واحذر أخي المسلم أن يكون في قلبك شريك لله، وإلا سلط الله عليه إبليس.

يقول سهل بن عبد الله التستري -رحمه الله-:

«ما من ساعة إلا والله عز وجل مطّلع على قلوب العباد، فأى قلب رأى فيه غيره سلّط عليه إبليس»(١) ولو سُلط عليك إبليس فسكن في قلبك كانت نوازع الشر، وآفات الهوى، وسموم المعاصي صادرة منك لا محالة، وإذا كان ذلك كذلك رفع إبليس راية النصر في أرجاء قلبك وأصبحت وليًّا للشيطان عدواً للرحمن جل جلاله.

ولما سئل الشبلي -رحمه الله- عن قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ قال: أبصار الرؤوس عمّا حرم الله، وأبصار القلوب عما سوى الله تعالى(٢)

وقد سئل النبي ﷺ عن نظر الفجاءة، فقال ﷺ: «اصرف بصرك»(٣) ونظرة الفجاءة هي النظرة الأولى التي تقع بغير قصد من الناظر وفي المسند أن النبي ﷺ قال لمن ابتلى بنظرة الفجاءة: «إنّ معها مثل الذي معها»(٤) ففيه تسلية وترويح عن المطلوب بجنسه.

وحدثنا أبو عصمة قال: كنت عند ذي النون وبين يديه فتى حسن، يملي عليه شيئًا، فمرت امرأة ذات حسن وجمال وخلق، فجعل الفتى يسارق النظر إليها، ففطن ذو النون، فلوى عنق الفتى، وأنشأ يقول:

دع المصوغات من ماء ومن طين  واشغل هواك بحور خُرَّد عين(٥)

وقد نهى الصالحون من هذه الأمة عن النظر إلى ما فيه ريبة، حتى إنّ الإمام الجنيد رحمه الله يقول: سمعت السري يقول: سمعت معروفًا الكرخي يقول: «غضوا أبصاركم ولو عن شاة أنثى»(٦)

فكن أخا الإسلام قويًّا ولا تضعف أمام شهواتك، لأن النبي ﷺ يقول: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء».

---

(١) ذكره ابن الجوزي في ذم الهوى ص٦٩ (٢) المرجع السابق ص٧١

(٣) رواه أحمد في مسنده برقم (١٩٠٩٧) ورواه مسلم جـ١٣٨/١٤، ١٣٩ والترمذي وقال: حسن صحيح وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٠٤١).

(٤) رواه مسلم (١٤٠٣) وأبو داود وصححه الألباني في سنن أبي داود رقم (٢١٥١).

(٥، ٦) ذم الهوى لابن الجوزي ص٧٤، ٧٥

وكما تعلم أنَّ: «**المؤمن القوى خير وأفضل وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**»[(١)] كما أخبر سيد الخلق ﷺ، ولذلك فسر الإمام الثورى -رحمه الله- ضعف الإنسان فى قوله تعالى: ﴿ **وخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفًا** ﴾ [النساء: ٢٨] بقوله:

«المرأة تمر بالرجل فلا يملك نفسه عن النظر إليها، ولا ينتفع بها، فأى شىء أضعف من هذا؟»[(٢)]

فعليك أيها المسلم الكريم أن تسمو برجوليتك، تسمو بها إلى مواطن الكمال والشرف، إلى معالى الأمور، وطهرها من أدناس الرذيلة، وسموم الشهوات تكن قويًا ولله در القائل:

**ليس الشجاع الذى يحمى مطيته يوم النزال ونار الحرب تشتعل**
**لكن فتًى غض طرفًا أوثنى بصرا عن الحرام فذاك الفارس البطل**[(٣)]

هذب النفس، ولا تجعلها تقودك إلى مواطن الدناءة والفساد، وأوحال الذنوب. يقول الإمام ابن القيم فى إحدى فوائده[(٤)] يبين محتويات النفس البشرية:

«سبحان الله: فى النفس كبر إبليس، وحسد قابيل، وعتو عاد، وطغيان ثمود، وجرأة النمرود، واستطالة فرعون، وبغى قارون، وقحة -أى لؤم- هامان، وهوى بلعام، وحيل أصحاب السبت، وتمرد الوليد، وجهل أبى جهل.

وفيها من أخلاق البهائم: حرص الغراب، وشره الكلب، ورعونة الطاووس، ودناءة الجمل، وعقوق الضب، ووثوب الفهد، وصولة الأسد، وفسق الفأرة، وخبث الحية، وعبث القرد، وجمع النملة، ومكر الثعلب، وخفة الفراش، ونوم الضبع، غير أن الرياضة والمجاهدة تذهب ذلك، فمن استرسل مع طبعه وهواه فهومع هذا الجند ولا تصلح سلعته لعقد: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ** ﴾ [التوبة: ١١١].

**وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن أُطعمت تاقت وإلا تسلَّت**

**أخى الحبيب:**

تفهَّم كل ذلك، واعلم أن بصرك نعمة من الله تعالى عليك، فلا تعصه بنعمه، وعامله بغضه عن الحرام تربح، واحذر أن تكون العقوبة سلب تلك النعمة، وكل زمن الجهاد فى الغض لحظة، فإن فعلت نلت الخير الجزيل، وسلمت من الشر الطويل.

(١) رواه أحمد فى مسنده رقم (٨٧٧٧) ورواه مسلم وابن ماجه وذكره الألبانى فى صحيح الجامع برقم (٦٦٥٠).
(٢) ذم الهوى لابن الجوزى ص٧٨ ط/ دار الكتب العلمية.
(٣) ذم الهوى ص١١٩
(٤) الفوائد لابن قيم الجوزية ص٨٦ ط/ دار الحياة.

## • فوائد غض البصر •

لقد ذكر الإمام ابن القيم -رحمه الله- في كتابه: «إغاثة اللهفان»، وكتابه: «روضة المحبين»(١)

فوائد متعددة لغض البصر فمنها:

أحدها: أنها تخلص القلب من ألم الحسرة، لأن من أطلق نظره دامت حسرته فأضر شيء على القلب إرسال البصر، فإنه يريه ما يشتد طلبه، ولا صبر له عنه، ولا وصول له إليه، وذلك غاية ألمه وعذابه.

قال الأصمعي: رأيت جارية في الطواف كأنها مهاةٌ، فجعلت أنظر إليها، وأملأ عيني من محاسنها، فقالت لي: يا هذا ما شأنك؟ قلت: وما عليك من النظر؟ فأنشأت تقول:

وكنت متى أرسلت طرفك رائدًا ... لقلبك يومًا أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

والنظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرمية، فإن لم تقتله جرحته، وقد قيل:

كل الحوادث مبدؤها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها ... فتك السهام بلا قوس ولا وتر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها ... في أعين الغيد موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ضر مهجته ... لا مرحبًا بسرور عاد بالضرر

والناظر يرمي من نظره بسهام غرضها قلبه وهو لا يشعر، فهو إنما يرمي قلبه.

يا راميًا بسهام اللحظ مجتهدًا ... أنت القتيل بما ترمي فلا تصب
وباعث الطرف يرتاد الشفاء له ... تَوقَّهُ إنه يأتيك بالعطب

وقال آخر:

يا من يرى سقمي يزيد ... وعلتي أعيت طبيبي
لا تعجبنً فهكذا ... تجني العيون على القلوب

---

(١) انظر روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٩١: ٩٩ بتصرف المكتبة التوفيقية وانظر إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ص ٤، ٤١ وكلاهما لابن القيم الجوزية رحمه الله.

**الفائدة الثانية:** أن ترك النظر المحرم يورث قلب صاحبه نوراً، وإشراقًا يظهر فى العين والوجه، وفى الجوارح، بخلاف إطلاقه فإنه يورث ظلمة تظهر على صاحبها ولهذا ذكر الله تعالى آية النور فى قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [النور: ٣٥] عقيب قوله: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ**﴾ [النور: ٣٠].

قال أبو حيان فى تفسيره: قدم غض البصر على حفظ الفرج لأن النظر بريد الزنا، ورائد الفجور، والبلوى فيه أشد وأكثر، ولا يكاد يقدر على الاحتراز منه.

**الفائدة الثالثة:** أنه يورث صحة الفراسة، وهى منزلة إيمانية لا تكاد تكون إلا لمن غض بصره، وأحصن فرجه.

قال شجاع الكرمانى -رحمه الله-:

«من عمر ظاهره باتباع السنة، وباطنه، بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهوات، واعتاد أكل الحلال لم تخطئ له فراسة»[١]

وسر هذا: أنَّ الله سبحانه وتعالى يجزى العبد على عمله بما هو من جنسه، فمن غض بصره عن المحارم عوضه الله تعالى إطلاق نور بصيرته، ومن أطلق بصره فى المحارم حبس الله عنه نور البصيرة.

ومن هؤلاء الذين أطلق الله نور بصيرتهم -ذو النورين- «عثمان بن عفان» رضي الله عنه:

يدخل عليه أحد أصحابه، وقد نظر إلى امرأة وهو فى طريقه إلى عثمان، وإذ به يقول له: أيدخل أحدكم على وفى عينيه أثر الزنا، فقال له: يا عثمان، أوحىٌ بعد رسول الله؟ فقال: لا، ولكن فراسة صادقة»[٢] وفى حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال:

«قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله**»[٣]

ومن هؤلاء الذين طهروا أبصارهم، فصفى الله قلوبهم، ونور لهم أفئدتهم «عمر بن الخطاب» رأى عمر سارية بنهاوند من أرض فارس، وكان عمر إذ ذاك بالمدينة المنورة، وكان مع سارية عساكر المسلمين يقاتلون عدوهم، فناداه عمر: يا سارية الجبل الجبل[٤]

الله أكبر. الله أكبر. من الذى أوصل صوت عمر من المدينة إلى سارية بأرض فارس؟ وعلى أى الموجات وصلت؟ إنه اللاسلكى الربانى. إنها الموجات العاملة فى الأرض وفى السماء بقدرة رب العالمين جل وعلا.

إنه الرجل الذى ضرب الله الحق على قلبه ولسانه، إنه الرجل الذى قال فيه ابن مسعود رضي الله عنه: «كان إسلام عمر فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وكانت إمارته رحمة»[٥]

---

(١) حلية الأولياء جـ١٠/٢٣٧، وصفة الصفوة لابن الجوزى جـ٤/٤٣، والرسالة القشيرية ص٩٣

(٢) الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية لابن الجوزى ص٤٦.

(٣) رواه الترمذى.

(٤) الروح لابن قيم الجوزية ص٣٨٢ مكتبة نصير.

(٥) أسد الغابة لابن الأثير جـ٤/١٦٣

وقال أيضًا: «مازلنا أعزة منذ أسلم عمر»(١)

**الفائدة الرابعة:** أنه يفتح له طرق العلم وأبوابه، ويسهل عليه أسبابه، وتأمل هذا الذى نور الله بصيرته، وفتح له أبواب العلم «الإمام الشافعى» -رحمه الله- فقد كانت ذاكرته قوية، وذكاؤه عجيبًا، وفى يوم من الأيام، وبينما هو فى طريقه مصادفة ينظر إلى كعب امرأة، فيجد أن حفظه قد ساء واختل، وحدث بذلك فقال:

**شكوتُ إلى وكيعٍ سوء حفظى فأرشدنى إلى ترك المعاصى**

**وقال لى: إنّ العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصى**

**أخى المسلم:**

بهذا الاجتهاد بلغوا المراد، وبهذا الطلب حصل لهم التوفيق والسداد، وبهذه الهمة صاروا قدوة للعباد.

فيا مضيعًا عمره فى البطالة، ويا مهملاً نظره فى العواقب احذر فوت الفضائل والمناقب إنَّ كنت متعلمًا فصن العلم بغض بصرك عن المحارم، وعمر باطنك بالتقوى، وجوارحك بالخشية وإن كنت عالمًا فصن نفسك عن الحرام، وراقب مولاك فى خطرات نفسك، وصن العلم.

**ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما**

**الفائدة الخامسة:** أنه يورث قوة القلب وثباته وشجاعته، فيجعل له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة، وفى الأثر «إنَّ الذى يخالف هواه يغرق الشيطان من ظله».

**الفائدة السادسة:** أنه يورث القلب سرورًا وفرحة، وانشراحًا أعظم من اللذة. والسرور الذى حصل للناظر بنظرته، وذلك لأنه قهر عدوه وخالفه، وأعظم عدو لهذا الإنسان إبليس اللعين: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [فاطر: ٦]. ثم بعد ذلك النفس الأمارة بالسوء، فكلاهما يفرح إذا نظرت نظرة محرمة لأنك عصيت مولاك، فارتكبت ذنبًا. ولذلك إذا وجدت نفسك فى ضيق من العيش، ووحشة بينك وبين ربك، فاعلم أن ذلك كله من عصيانك لمولاك.

**يقول ابن القيم:**

«قلة التوفيق، وفساد الرأى، وخفاء الحق، وفساد القلب، وخمول الذكر، وإضاعة الوقت، ونفرة الخلق، والوحشة بين العبد وربه، ومنع إجابة الدعاء، وقسوة القلب، ومحق البركة فى الرزق والعمر، وحرمان العلم، ولباس الذل. وضنك المعيشة، وكسف البال تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع عن الماء، والإحراق عن النار، وأضدادها تتولد عن الطاعة»(٢)

---

(١) رواه البخارى.

(٢) الفوائد لابن قيم الجوزية ص٤٣.

**الفائدة السابعة:** أنه يخلص القلب من أسر الشهوة، لأن الأسير الحقيقى هو أسير شهوته وهواه، ومتى أسرت الشهوة والهوى القلب تمكن منه عدوه، وسامه سوء العذاب وصار:

**كعصفورة فى كف طفل يسومها حياض الردى والطفل يلهو ويلعب**

**الفائدة الثامنة:** أنه يسد عنك بابًا من أبواب جهنم.

**الفائدة التاسعة:** أنه يقوى عقله ويزيده، ويثبته.

**الفائدة العاشرة:** أنه يخلص القلب من سكر الشهوة ورقدة الغفلة.

فالنظرة كأس من خمر، والعشق هو سكر ذلك الشراب، وسكر العشق أعظم من سكر الخمر، فإن سكران الخمر يفيق، وسكران العشق قلما يفيق إلا وهو فى عسكر الأموات.

## أخى المسلم:

فإذا ما أردت أن تحيا حياة هانئة ملؤها السعادة والأمان والبعد عن الشيطان، احفظ عليك بصرك، قال مالك بن دينار: قال داود عليه السلام لقومه:

«معاشر الأتقياء، تعالوا أعلمكم خشية الله عز وجل. أيما عبد منكم أحبَّ أن يحيا ويرى الأعمال الصالحة، فليحفظ عينيه أن تنظر إلى السوء، ولسانه أن ينطق بالإفك، عين الله إلى الصديقين وهو سميع لهم»(١)

فالشارع الحكيم أمرنا بغض النظر، وشريعة داود عليه السلام تأمر أصحابها، وتوجه أتباعها إلى ذلك أيضًا كما رأيت فى الأثر السابق.

لكن ما هو السبب فى الوقوع فى المهالك، هل القلب أم العين؟ أم كلاهما؟ لقد دارت مناظرة بين هذين العضوين، يلوم كل منهما الآخر، ويؤنب كلاهما صاحبه، لكن من الذى يفوز، ويكسب؟ هيا بنا لنذهب إلى روضة المحبين، ونزهة المشتاقين لنتعرف على هذه المناظرة، ونسمعها سويًا ومعنا الإمام ابن القيم -رحمه الله- فإلى هناك.

### • مناظرة بين العين والقلب •

## أخى الحبيب:

اعلم أنه ليس شىء أضر على هذا المخلوق الضعيف: ﴿**وخُلق الإنسَانُ ضعِيفًا**﴾ [النساء: ٢٨] من العين واللسان، فما هلك أكثر من هلك إلا بهما، فلله كم من مورد هلكة أورداه!، ومصدر ردئ أصدراه! فمن أحب أن يحيا سعيدًا، أو يعيش حميدًا، فليحفظ هذين العضوين، بل رأى بعض الصالحين أن الذى يجب حفظه أربع.

---

(١) ذم الهوى لابن الجوزى ص٧٤

يقول عبد الله بن خبيق، وقد أراد أن ينصح أحد أتباعه: «إنما هى أربع لا غير: عينك ولسانك وقلبك وهواك. فانظر عينك لا تنظر بها إلى ما لا يحل، وانظر لسانك لا تقل به شيئًا يعلم الله خلافه من قلبك، وانظر قلبك لا يكون فيه غل ولا حقد على أحد من المسلمين، وانظر هواك لا تهو شيئًا من الشر، فإذا لم يكن فيك هذه الأربع خصال، فاجعل الرماد على رأسك، فقد شقيت!»(١)

**قال القلب للعين:**

أنت التى سقتينى إلى موارد الهلكات، وأوقعتينى فى الحسرات، بمتابعتك اللحظات، ونزهت طرفك فى تلك الرياض، وطلبت الشفاء من الحدق والمراضى، وخالفت قول أحكم الحاكمين: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣٠].

**قالت العين:**

ظلمتنى أولاً وآخرًا، وبؤت بإثمى باطنًا وظاهرًا، وما أنا إلا رسولك الداعى إليك، ورائدك الدال عليك، فأنت الملك المطاع، ونحن الجنود والأتباع. أركبتنى فى حاجتك خيل البريد، ثم أقبلت على بالتهديد والوعيد، فلو أمرتنى أن أغلق علىَّ بابى، وأُرخى علىَّ حجابى، لسمعتُ وأطعت، ولما رعيت فى الحمى ورتعت، أرسلتنى لصيد قد نُصِبَتْ لك حبائله وأشراكه، واستدارت حولك فخاخه وشباكه، فغدوت أسيرًا، بعد أن كنت أميرًا، وأصبحت مملوكًا بعد أن كنت مليكًا.

هذا وقد حكم لى عليك سيد الأنام، وأعدل الحكام، عليه الصلاة والسلام حيث يقول: «**إنَّ فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهى القلب**»(٢) وقال أبو هريرة رضي الله عنه القلب ملك، والأعضاء جنوده، فإن طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده.

تقول العين: ولو أمعنت النظر لعلمت أن فساد رعيتك بفسادك، وصلاحها ورشدها برشادك، ولكنك هلكت، وأهلكت رعيتك، وحملت على العين الضعيفة خطيئتك، فلما سمع الكبد تحاورهما الكلام، وتناولهما الخصام فماذا حدث؟

قالت الكبد: أنتما على هلاكى تساعدتما، وعلى قتلى تعاونتما، ولقد أنصف من حكى مناظرتكما، وعلى لسانى متظلمًا منكما.

ثم قالت: أنا أتولى الحكم بينكما، أنتما فى النهاية شريكا عنان، كما أنكما فى اللذة والمسرة فرسا رهان، فالعين تلتذ، والقلب يتمنى ويشتهى(٣).

---

(١) المرجع السابق. (٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد وغيرهم (متفق عليه).

(٣) روضة المحبين لابن القيم ص١ ١ ٦ ١ باختصار وتصرف.

ولما وقع الخلاف بين القلب والعين، واتسعت هوة الخلاف بينهما، فكل منهما يلقى اللوم على صاحبه، فيما حل به من سقم ومن ألم تحاكما إلى الجسم الذى حكم بإدانة العين.

لكن العين رفعت القضية للاستئناف فتم عرض النزاع مرة أخرى، وبعد المداولة أصدر القاضى حكمًا بالإدانة لكليهما، وجاء فى حيثيات الحكم كما قال الكبد: أنهما شريكا عنان، وهما فى اللذة فرسا رهان.

### • ثواب من غض بصره عن الحرام •

## أخى الحبيب:

وبعدما وقفت بك على فوائد غض البصر، فهيا بنا لنتعرف على ثواب من غض بصره عن المحرمات:

إن ثوابه والله عظيم، أتدرى ما ثوابه؟ إن ثوابه الجنة كما أخبر بذلك سيد الكائنات ﷺ، وأنت تعلم أن الجنة (فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)[1] ففى الجنة الحور العين.

وأيهما أفضل؟ نظرك إلى الغيد الحسان أم إلى حور الجنان؟ ماذا قال سيد الخلق عن حور الجنان:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «... **لو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض، لملأت ما بينهما ريحًا، ولأضاءت ما بينهما، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها**»[2]

وفى حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «.. **لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما فى الجنة أعزب**»[3] وفى رواية من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله قال: «**إن الرجل ليتكئ فى الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول، ثم تأتيه امرأته، فنيظر وجهه فى خدها، أصفى من المرآة، وإنَّ أدنى لؤلؤة عليها تضىء ما بين المشرق والمغرب..**»[4]

الله أكبر. ما هذا النعيم، شتان بين نساء الدنيا، والحور العين فى الآخرة، أقل لؤلؤة على المرأة من أهل الجنة تضئ ما بين المشرق والمغرب، وزوجها يرى وجهه فى خدها، كأن خديها مرآة صافية. نسأله سبحانه أن يجعلنا من سكان جنته فى الفردوس الأعلى.

---

(١) رواه البخارى. (٢) رواه البخارى. (٣) رواه البخارى.

(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط بسند جيد، ذكره الهيثمى فى المجمع ١/٤١٨

نساء الجنان لو اطلعت إحداهن على الدنيا لملأت ما بين السماء والأرض عطرًا فواحًا زكيًّا، ولطمست ضوء الشمس كما يطمس ضوء الشمس النجوم، لو رآها أهل الدنيا لما ملوا، ولما كلوا عن التهليل والتكبير، ثم بعد هذا كله أنت مشغول بالنظر في وجوه الغيد الأماليد.

يقول أبو الدرداء رضي الله عنه:

«من غض بصره عن النظر الحرام زوج من الحور العين حيث أحب».

إن كنت تنظر فى الدنيا إلى حسناء تشتهى منها أن تسمع كلمة، ترتاح نفسك إليها فى الحرام، فاسمع وتأمل واعلم أنك إن تركت ذلك عوضت خيرًا منه فى الآخرة، فالقاعدة «من ترك شيئًا فى الحرام عوضه الله خيرًا منه فى الحلال».

ماذا تقول الحور العين لأزواجهن فى الجنة؟ يروى لنا أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «**إنّ الحور العين لتغنين فى الجنة، يقلن:**

**نحن الحور الحسان خبئنا لأزواج كرام**[1]

بأى شىء تغنى الحور العين، ليست تغنى بكلمات تافهات، ولا بمزمارة الشيطان وإنما بتحميد الرحمن، وتقديس ذى الجلال والإكرام.

فعن أبى أمامة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**ما من عبد يدخل الجنة، إلا ويجلس عند رأسه، وعند رجليه ثنتان من الحور العين، يغنيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجن، وليس بمزمار الشيطان، ولكن بتحميد الله وتقديسه**»[2]

لكن ما هو الطريق إلى هذا الفضل العظيم، والخير العميم؟.

يجيب على هذا السؤال سيد الخلق فى حديث أبى أمامة رضي الله عنه:

«اكفلوا لى بست أكفل لكم بالجنة: **إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا اؤتمن فلا يخن، وإذا وعد فلا يخلف، وغضوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم، وكفوا أيديكم**»[3].

ومن غض بصره عما حرم الله تعالى عوضه الله إيمانًا يجد حلاوته فى قلبه.

قال الحسن بن مجاهد. «غض البصر عن محارم الله يورث حب الله»[4]

وقال أبو الحسين الوراق «من غض بصره عن محرم أورثه الله بذلك حكمة على لسانه يُهدى بها سامعوه، ومن غض بصره عن شبهة نور الله قلبه بنور يهتدى به إلى طريق مرضاته»[5]

---

(١) صحيح الجامع للألبانى رقم (١٥٩٨).

(٢) رواه الطبرانى بإسناد حسن، قاله العراقى فى تخريج الإحياء.

(٣) رواه ابن المبارك فى الزهد ص١١٥ وهو حسن بشواهده، روى نحوه الحاكم ٤/ ٣٥٩ والبيهقى فى الشعب ٤/ ٤٣٥٥ والخرائطى فى مساوئ الأخلاق رقم (٥٠٦) ص١٨٦ عن أنس.

(٤)، (٥) ذكره ابن المبارك فى الزهد ص١١٧

# فهرس الجزء الثانى من الوصايا المنبرية